أحاديث الأذكار والأدعية

إعداد

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

أحاديث الأذكار والأدعية

دار الإمام مسلم

مركز سطور للبحث العلمي

أحاديث الأذكار والأدعية

ح دار الإمام مسلم للنشر والتوزيع، ١٤٤١ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
البدر، عبد الرزاق بن عبد المحسن العباد
أحاديث الأذكار والأدعية. / عبد الرزاق بن عبد المحسن العباد البدر.
المدينة المنورة، ١٤٤٢هـ

ردمك: ٤-٨٠-٨٢٨٧-٦٠٣-٩٧٨

١- الأدعية والأذكار ٢- الحديث - مباحث عامة أ. العنوان
ديوي ٢١٢,٩٣ ١٤٤٢-٨٥٧١

رقم الإيداع: ١٤٤٢-٨٥٧١
ردمك: ٤-٨٠-٨٢٨٧-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى
١٤٤٣ هـ - ٢٠٢٢م

دار الإمام مسلم للنشر والتوزيع
طباعة - نشر - توزيع
المملكة العربية السعودية - المدينة المنورة
شارع الفيصليَّة - خلف الجامعة الإسلاميَّة
00966532627111
00966590960002
daremslm@gmail.com
daremslm

مركز سطور للبحث العلمي
Sutor.center@gmail.com
بحث علمي - طباعة - صفّ - تنسيق - تصميم

أحاديث الأذكار والأدعية

إعداد

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

دار الإمام مسلم

مركز سطور للبحث العلمي

بسم الله الرحمن الرحيم

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله ربِّ العالمين، والعاقبة للمتقين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

أمَّا بعد:

فهذه سلسلة من الكلمات في «**أحاديث الأذكار والأدعية**»[(١)] قدمتها في حلقات يومية عبر «قناة السنة النبوية» في الفترة ما بين (١/ صفر - ١٦/ جمادى الأولى/ ١٤٤٢ هـ) استفدت في مواطن يسيرة منها من كتابي «فقه الأدعية والأذكار» وقد رغب كثيرمن الأفاضل نشرها مطبوعة ليعم نفعها والإفادة منها.

وأسأل الله أن يتقبلها بقبول حسن وأن ينفعني وإخواني المسلمين بها بمنه وكرمه، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه.

وكتبه

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

---

(١) في بيان شيء من حكمها وأحكامها، وغايتها ومقاصدها، وثمارها وفضائلها، ومعانيها وهداياتها.

١
فضل الذِّكر

إنَّ الحديث عن ذكر الله عَزَّوَجَلَّ حديث يتعلَّق بأهمِّ الأمور وأعظمها وأجلِّها وأولاها بالعناية والاهتمام؛ إذ هو يتعلَّق بـ«ذكر الله العظيم»؛ ذكر ربِّ السَّموات والأرض ربِّ العالمين، ذكر خالق الخَلق وباري البريَّة وموجِد النَّاس أجمعين، ذكر للقائل سبحانه: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٢-٢٤].

إنَّ ذِكْرَ الله جَلَّوَعَلَا هو خيرُ ما عُمرت به الأوقات، وأنفقت فيه الأنفاس، وأُمْضِيت فيه السَّاعات. بذكرِ الله جَلَّوَعَلَا تطمئنُّ قلوب المؤمنين، وتسكُن نفوسُهم، ويعظُم يقينُهم، ويزدادُ إيمانُهم، وتقوى صلتهم بربِّهم. وهو عنوانُ السَّعادة، وسبيلُ الفلاح في الدُّنيا والآخرة، بل إنَّ كلَّ خيرٍ وسعادةٍ وأُنسٍ وراحةٍ وطُمأنينةٍ في الدُّنيا والآخرة متوقِّفٌ على تحقيقه، بل إنَّ الشَّرائع كلَّها والطَّاعات جميعَها إنَّما شُرعت لإقامة ذكر الله عَزَّوَجَلَّ. فما شَرَعَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ لعباده الصَّلاة والصِّيام والحجَّ وغير ذلك من الطَّاعات إلَّا لإقامة ذكرِ الله؛ ولهذا ثبتَ في الحديث عَن رَسُولِ الله ﷺ أَنَّ رَجُلًا سَأَلَهُ: «أَيُّ الصَّائِمِينَ أَعْظَمُ أَجْرًا؟» قَالَ: «أَكْثَرُهُمْ لله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ ذِكْرًا»، ثُمَّ ذَكَرَ الصَّلَاةَ، وَالزَّكَاةَ، وَالحَجَّ،

وَالصَّدَقَةَ. كُلُّ ذَلِكَ رَسُولُ الله ﷺ يَقُولُ: «**أَكْثَرُهُمْ لله** تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ **ذِكْرًا**» فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ لِعُمَرَ: «يَا أَبَا حَفْصٍ ذَهَبَ الذَّاكِرُونَ بِكُلِّ خَيْرٍ»، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**أَجَلْ**». رواه أحمد[(١)].

فالذَّاكرون هم الحَقِيقُون بالأجور العظيمة، والدَّرجات الرَّفيعة، والمنازل العالية في الجنَّة؛ لأنَّ ذِكْرَ الله هو روحُ القلوب وحياتُها، وسببُ زكاتها وقوَّتها، ويترتَّب عليه من الأجور العظيمة والخيراتِ العميمة في الدُّنيا والآخرة ما لا يحصي عدَّهُ إلَّا اللهُ جَلَّ وَعَلَا.

وفي الحديث عن نبيِّنا ﷺ قال: «**لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللهِ**». خرَّجه الإمام أحمد وغيره[(٢)]. وله سببٌ: وهو كما قال عبد الله بن بُسر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ -راوي الحديث- أنَّ رجلًا أتى النَّبيَّ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ وقال له: «**يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ قَدْ كَثُرَتْ عَلَيَّ، فَأَخْبِرْنِي بِشَيْءٍ أَتَشَبَّثُ بِهِ**» وفي لفظ: «**إِنَّ شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ قَدْ كَثُرَتْ عَلَيْنَا، فَبَابٌ نَتَمَسَّكُ بِهِ جَامِعٌ؟**»، هكذا طلبَ مِنَ النَّبيِّ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، قال: «**شَرَائِعَ الإِسْلَامِ قَدْ كَثُرَتْ**»؛ أي تعدَّدتْ عليَّ، فأريدُ بابًا من الخير جامعًا أتمسَّك به، فقالَ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «**لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللهِ**»؛ فهذا السَّائل كان يريد بابًا جامعًا من الخير يتمسَّك به، فأرشده النَّبِيُّ ﷺ النَّاصح الأمين إلى ذكر الله جَلَّ وَعَلَا.

وهنا تأمَّل -أخي الكريم- توجيهَ النَّبيِّ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ لهذا الَّذي كَثُرَت عليه شرائع الإسلام وتعدَّدت وتنوَّعت، فأراد أمرًا جامعًا يتمسَّكُ به، تتحقَّقُ به سعادته، ويحصِّل به خيرَيْ الدُّنيا والآخرة، فأرشدَه ﷺ إلى عملٍ هو مِنْ أيسر الأعمال مَؤُونَةً وأخفِّها تطبيقًا، ويتَّرتب عليه من الأجور العظيمةِ

(١) أخرجه أحمد في المسند (١٥٦١٤).

(٢) رواه أحمد في المسند (١٧٦٨٠)، والتِّرمذيُّ (٣٣٧٥)، وابن ماجه (٣٧٩٣)، وصحَّحه الألبانِيُّ.

والخيراتِ الكثيرةِ ما لا يترتَّب على سواه. لأنَّ الذِّكر وإنْ كَثُرَ وتعدَّد فهو مِن أخفِّ الأعمال وأيسَرها، ولا يتطلَّب من صاحبه مجهودًا كبيرًا؛ لأنَّ حركة اللِّسان بذكر الرَّحمن لا تشقُّ على الإنسان ولا تكلِّفه، ولا يحصل له بسببها تَعَبٌ وجهدٌ، بل يحصُل له بذلك الطُّمأنينةُ والرَّاحة وسُكون القلب، ويتحقَّق له بذلك الفلاح والسَّعادة.

وعملُ اللِّسان عندما يُقارن بأعمال الجوارح -كالصَّلاة، والمشي إلى المساجد، والوضوء، والحجِّ، والصِّيام وغير ذلك- نجد أنَّ هذه الأعمال ربَّما يكون فيها شيء من المشقَّة، وقد تكون أيضًا المشقَّة نسبيَّة من شخصٍ لآخر، أمَّا ذكرُ الله جَلَّ وَعَلَا فللنَّاس كلِّهم؛ الصَّغير والكبير، والصَّحيح والمريض، والذَّكر والأنثى، لا يكلِّف أحدًا شيئًا، ويستطيع العبد أن يُحَرِّكَ لسانَه بهذا الخير مسبِّحًا لله، حامدًا له، ذاكرًا، مُثْنِيًا عليه، دون أن يحصل له مشقَّةٌ وتعبٌ، وينال أجورًا عظيمة وخيراتٍ وافرة في الدُّنيا والآخرة، لا يحصيها إلَّا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولهذا قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -كما في الصَّحيحين[(١)]-: «**كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ**»؛ أوَّل ما بدأ في هذا الحديث أرشد إلى هذا؛ خفَّةِ الذِّكر على اللِّسان ويُسره وسُهولته، وأنَّه لا يكلِّف يصاحبه تعبٌ أو مشقَّةٌ. وماذا أيضًا؟ قال: «**ثَقِيلَتَانِ فِي المِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ**»؛ فالذِّكر حبيبٌ إلى الله ووزنُه ثقيل عنده، ثمَّ ذكر الكلمتين: «**سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم**».

فذِكرُ الله خفيفٌ على لسانِ مَنْ أعانَه الله وأمدَّه تَبَارَكَ وَتَعَالَى بتوفيقِه، أمَّا مَن خذلَه الله -والعياذ بالله- فإنَّ ذكر الله يشقُّ عليه ويصعب، ولا يستطيع أن يذكُر اللهَ، بل يجد في ذلك مشقَّةً وتعبًا، وربَّما تبرَّم وحصل له مللٌ وسآمةٌ من الذِّكر، وهذا من علامةِ الخِذلان، ودليل الحِرمان.

---

(١) رواه البخاريُّ (٦٤٠٦)، ومسلم (٢٦٩٤).

ذكرُ الله جَلَّوَعَلَا بابٌ جامعٌ للخير؛ ينبَغي على كلِّ مسلمٍ أن يتمسَّك به وأن يتشبَّثَ به وأن يكونَ من أهله، وكم في نصوصِ الكتاب والسُّنَّة من الحثِّ على الذِّكر وتفضيله وبيان عظيم أجره وما أعدَّه الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ للذَّاكرين، وما يترتَّب على الذِّكر من الفوائد العظيمة والثَّمرات الكريمة والخيرات الجزيلة في الدُّنيا والآخرة؛ ممَّا يدلُّ على عِظَم شأن هذه الطَّاعة وجلالة قدرها ورفيع مكانتها عند الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ.

وللإمام العلَّامة ابن قيِّم الجوزيَّة: في هذا الباب رسالةٌ فريدة، لم يُكتَب -فيما أعلمُ- على منوالها مثلُها، عظيمةُ الشَّأن متداولة بين أهل العلم وطلابه؛ أسماها رَحِمَهُٱللَّهُ: «الوابل الصَّيِّب من الكَلِم الطَّيِّب»، و«الوابل الصَّيِّب»: هو المطر النَّافع وهي كذلك.

قال في تلك الرِّسالة: «وفي الذِّكر أكثرُ من مائةِ فائدةٍ»، ثمَّ شرع: في عدِّ فوائد الذِّكر وثمراتِه في الدُّنيا والآخرة، وعدَّ من فوائدِ الذِّكر وثمراتِه ما يزيد على السَّبعين فائدة، كلُّ واحدةٍ منها كافيةٌ في تحريك القلوب وتنشيط النُّفوس للعناية بهذه الطَّاعةِ العظيمةِ، فكيفَ بها إذا اجتمعت؟! ولهذا قلَّ أن يقرَأ هذا الكتابَ مسلمٌ قراءةً متأنِّيةً طالبًا للنَّفعِ والفائدةِ إلَّا وتحسُن حاله -بإذن الله- في ذكره لله جَلَّوَعَلَا وتزيدُ عنايته به.

وهو رَحِمَهُٱللَّهُ لمَّا عدَّد فوائد الذِّكر وبسَطها وأطال في إيضاحها وبيانِها وأنهى ذلك؛ عقدَ عقِب ذلك فصولًا في أنواع الذِّكر الَّتي ينبَغي أن يكونَ عليها المسلم، فما أن يفرغ القارئ من هذا التشويق والتَّرغيب بذكر الله؛ إلَّا ويجد أمامه بسطًا نافعًا لأنواع الذِّكر الَّتي دلَّ عليها كتابُ الله وسنَّةُ نبيِّه ﷺ، ثمَّ سردًا وافيًا لأهمِّ الأذكار الموظَّفة للمسلم في يومه وليلته.

ولهذا أرى أنَّ هذا الكتاب ينبغي أن يعتنيَ به كلُّ مسلمٍ؛ الأب يعتني باقتنائه

وإهدائه لأولاده وأهل بيته ويحثُّهم على قراءتِه، وطالبُ العلمِ يحرصُ على اقتنائِه والاستفادة منه، ويُتداول بين المسلمين لعِظم نفعه وكِبَرِ فائدته.

❑ **وفيما يلي تخليصٌ لشيء من فوائد الذِّكر من خلال ما ذكره** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فمن فوائد الذِّكر: أنَّه سبب طُمأنينة القلب، قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ [الرَّعد: ٢٨]، فطُمأنينة القلب –وهي راحته وسُكونه وأُنسه وذهابُ قَلَقِه وضجره– ثمرةٌ من ثمار الذِّكر، فالذَّاكرون الله هم أهلُ القلوب المُطمئنَّة السَّعيدة الَّتي مُلِئَت بالأنس والرَّاحة في أحوالهم كلِّها؛ في عُسْرِهم ويُسرهم، وشدَّتهم ورخائهم، وغِناهم وفقرهم، وصِحَّتهم ومرضِهم، لا ينتابُهم القلق والضَّجر، بل قلوبهم مطمئنَّة ساكنةٌ ومرتاحةٌ في أحوالهم كلِّها؛ ولهذا قال عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ متعجِّبًا: «**عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ؛ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ؛ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ**». رواه مسلم(١).

فالمؤمن في طُمأنينة مستمرَّة؛ مطمئنُّ القلب، مرتاحُ البال، منشرحُ الصَّدر، مليئٌ بالأنس، وهذا كلُّه إنَّما حصل له بمواظبته على ذكر الله واستمراره على ذلك، ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ [الرَّعد: ٢٨]؛ تطمئنُّ قلوبُهم بذكر الله لا بذكر أمرٍ آخر؛ فبه يزول قلقها واضطرابها وتحضرها أفراحها ولذَّاتها.

﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾، أي: حقيقٌ بها وحريٌّ ألَّا تطمئنَّ لشيء سوى ذكره؛ فإنَّه لا شيء ألذَّ للقلوب ولا أشهى ولا أحلى من محبَّتها لخالقها والأنس به ومعرفته، وعلى قدر معرفتها بالله ومحبَّتها له يكون ذكرها له.

---

(١) رواه مسلم (٢٩٩٩).

٢

فوائد الذِّكر (١)

۞ **من فوائد الذِّكر العظيمة:** أنَّه حياةُ القلوبِ الحياة الحقيقيَّة، وبدونه يموت القلب؛ ولهذا ثبت في صحيح البخاريِّ[(١)] عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ والَّذِي لَا يَذْكُرُ رَبَّهُ مَثَلُ الْحَيِّ والْمَيِّتِ**». ولفظه عند مسلم[(٢)]: «**مَثَلُ الْبَيْتِ الَّذِي يُذْكَرُ فِيهِ اللهُ والْبَيْتُ الَّذِي لَا يُذْكَرُ اللهُ فِيهِ مَثَلُ الْحَيِّ والْمَيِّت**».

فجعل عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الذَّاكر لله مثله مثل الحيِّ، وبيوت الذَّاكرين مثل بيوت الأحياء، وجعل عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَثَل الَّذي لا يذكر الله كمثل الميِّت، وبيوت الَّذين لا يذكرون الله كبيوت الأموات، وهي المقابر؛ ولهذا قال في حديثٍ آخر: «**لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ مَقَابِرَ**» رواه مسلم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٣)]، أي: اذكروا الله في بيوتكم وأقيموا فيها الصَّلاة واتلُوا كلامَ الله؛ لأنَّ البيت إذا لا يُتلَى فيه كلامُ الله، ولا يُذكرْ فيه سبحانه، ولا تُقَام فيه الصَّلاة؛ يكون مثل المقبرة الَّتي هي بيت الأموات.

ولهذا حثَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ على صلاة النَّافلة في البيت فقال: «**إِنَّ أَفْضَلَ الصَّلَاةِ صَلَاةُ المرْءِ فِي بَيْتِهِ إِلَّا المكْتُوبَةَ**». رواه البخاريُّ من حديث زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٤)]؛ لئلَّا يكون البيتُ مقبرةً، لأنَّ البيت الَّذي لا يُذكر فيه الله جَلَّ وَعَلَا

---

(١) رواه البخاريُّ (٦٤٠٧).

(٢) رواه مسلم (٧٧٩).

(٣) رواه مسلم (٧٨٠).

(٤) رواه البخاريُّ (٧٣١).

ولا يُصلَّى فيه مثله كمثل المقبرة -بيت الأموات- بل يصبح خرابًا لا يَرِد إليه ولا يدخله إلَّا الشَّياطين، أمَّا الملائكة لا تدخله، وإنَّما تتوارَد عليه الشَّياطين ويكون مأوًى لها؛ فيذهب الخيرُ من البيت، ويكثر فيه الشَّرُّ، وتتوالى عليه المشاكل، وتكثُر فيه المصائبُ، ويقع فيه أنواعٌ من الفساد. والله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ۝٣٦ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزُّخرف: ٣٦-٣٧].

ولهذا يجب على أهل البيوتِ المؤمنةِ أن ينصَحوا لأنفسِهم ولبيوتهم فيعمُروها بذكر الله عَزَّوَجَلَّ؛ بتلاوة القرآن وبإقامة الصَّلاة وكثرة ذكر الله وفعلِ الخيراتِ حتَّى تكونَ بيوتُهم من بيوت الأحياء، وحتَّى يكونوا هم من الأحياء، فذكرُ الله جَلَّ وَعَلَا هو حياةُ القلوب حقيقةً، وبدونه يموت القلب. وقد نقل ابن القيِّم: عن شيخه شيخ الإسلام ابن تيميَّة: تشبيهًا عجيبًا للذِّكر ولحال القلب مع ذكر الله حيث قال: «الذِّكر للقلب مِثل الماء للسَّمك؛ فكيفَ يكون حالُ السَّمك إذا فارق الماء!»(١)، ومعلومٌ أنَّ السَّمك إذا فارق الماء لِلَحظاتٍ يموت، والقلب إذا أُبعِد عن الذِّكر ولم يُعمر به يموت، فلا تحصُل له الحياة إلَّا بذكر الله، ولهذا قال الله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤].

وسمَّى تَبَارَكَ وَتَعَالَى في مواطن عديدة من القرآن الوحيَ «روحًا»؛ كقوله: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝١ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ [النَّحل: ١-٢]، كذلك قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشُّورى: ٥٢].

(١) الوابل الصَّيِّب (ص٤٢).

وسمَّى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مَن ينزلُ بالوحي -وهو جبريلُ- «روحًا»؛ قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ﴾ [الشُّعراء: ١٩٢-١٩٥]، فجبريل؛ -الَّذي ينزلُ بالوحي- روحٌ، والوحي نفسُه روحٌ؛ لأنَّ حياةَ القلوب لا تكون إلَّا بالوحيِ وذِكْرِ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وبدونه تموت وتَقْسُو وتُظْلِم وتَعْمُر بالشَّرِّ والفسادِ، بينما إذا عَمُرَتْ بذكر الله تنامى فيها الخير وتزايَد فيها الصَّلاح وعمَّت فيها البركةُ.

ومن فوائد الذِّكر: أنَّه يطرُدُ الشَّيطانَ ويُبعده عن العبد، فيكون في حصنٍ حصينٍ وحرزٍ مكينٍ لا يجد الشَّيطان إليه سبيلًا. وقد جاء في الحديث الَّذي خرَّجه الإمام أحمد في «المسند» وغيرُه[1] بإسناد صحيح عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**إنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ أَمَرَ يَحْيَى بنَ زَكَرِيَّا** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **بخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ يَعْمَلَ بِهِنَّ، وَأَنْ يَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهِنَّ**»، وفي الحديث أنَّ زكريَّا قال لقومه: «إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ وَأَمَرَنِي أَنْ آمُرَكُمْ بِهِنَّ»؛ ثمَّ ذكر الأمر بالتَّوحيد أوَّلًا، ثُمَّ الأمر بالصَّلاة، ثُمَّ الأمر بالصِّيام، ثُمَّ الأمر بالصَّدقة، ثمَّ ذكر الأمر الخامس وهو الأمر بذكر الله، فقالَ: «وَآمُرُكُمْ بِذِكْرِ الله عَزَّ وَجَلَّ كَثِيرًا، وَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ طَلَبَهُ العَدُوُّ سِرَاعًا فِي أَثَرِهِ[2] فَأَتَى حِصْنًا حَصِينًا، فَتَحَصَّنَ فِيهِ، وَإِنَّ العَبْدَ أَحْصَنُ مَا يَكُونُ مِنَ الشَّيْطَانِ إِذَا كَانَ فِي ذِكْرِ الله عَزَّ وَجَلَّ».

فالَّذي يذكر الله في حصنٍ حصين وحِرْزٍ مكين، لا يصلُ إليه الشَّيطان ولا يخلص إليه أبدًا؛ قال الله تعالى: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلۡوَسۡوَاسِ ٱلۡخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِي يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [النَّاس: ١-٢]؛ ﴿ٱلۡوَسۡوَاسِ ٱلۡخَنَّاسِ﴾ هذه

---

(١) رواه أحمد (١٧١٧٠)، والتِّرمذيُّ (٢٨٦٣)، وصحَّحه الألبانيُّ.

(٢) أي: لحقَهُ العدوُّ لقتله وللبطش به.

صفة الشَّيطان: «الوسواس الخنَّاس»؛ يقول ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في معنى هاتين الكلمَتَين: «الشَّيْطَانُ جَاثِمٌ عَلَى قَلْبِ ابْنِ آدَمَ، فَإِذَا سَهَا وَغَفَلَ وَسْوَسَ، وَإِذَا ذَكَرَ الله خَنَسَ» رواه الطَّبريُّ في «تفسيره»[(١)]؛ إذا ذكر العبدُ ربَّه خَنَسَ الشَّيطان وتصاغر وأصبح كالذُّباب، كما في الحديث «**وَلَكِنْ قُلْ بِسْمِ اللهِ، فَإِنَّكَ إِذَا قُلْتَ ذَلِكَ تَصَاغَرَ حَتَّى يَكُونَ مِثْلَ الذُّبَابِ**»[(٢)]، بل يولِّي عن الذَّاكر وينفُر منه؛ ولهذا جاء في الحديث: «**إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ أَدْبَرَ الشَّيْطَانُ وَلَهُ ضُرَاطٌ**» متَّفق عليه[(٣)]، وأيضًا جاء في الحديث: «**لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ مَقَابِرَ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْفِرُ مِنَ الْبَيْتِ الَّذِي تُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ**»[(٤)]، فلا يطيق الشَّيطان سماعَ ذكرِ الله، بل يُؤذيه الذِّكر ويُنفِّره ويبتَعد تمامًا من المكان الَّذي فيه ذكرٌ لله جَلَّ وَعَلَا.

فالذَّاكر في حِصْنٍ حَصِينٍ وحرزٍ مكينٍ يحميه -بإذن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى- من الشَّيطان الرَّجيم، أمَّا إذا غفل المرء عن ذكر الله توالت عليه الشَّياطين ودفعتْه للباطل وأزَّته للمعصية أزًّا، كما تقدَّم في قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٢٦] أي: ملازمٌ لا ينفكُّ عنه.

ومفهومُ المخالَفة للآية: أنَّه إذا ذَكَرَ الله جَلَّ وَعَلَا ابتعد منه الشَّيطان؛ فالذِّكر حصنٌ من الشَّيطان الرَّجيم، ولهذا أحْسَنَ صُنعًا مَنْ سمَّى من أهل العلم كتابه في الذِّكر «الحِصن الحصين»، أو «حِصن المسلم»، أو نحو ذلك.

وهذا اسمٌ صادقٌ على مسمَّاه؛ فالذِّكر هو الحصن الحصين، وهو حِصْنُ المسلم، وهو الحِرْزُ الَّذي يُحفظ به المسلم -بإذن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى-، ولا يجد

---

(١) جامع البيان للطَّبريِّ (٢٤/ ٧٥٤). وانظر: مصنَّف ابن أبي شيبة (٣٤٧٧٤)، بإسناد صحيح.
(٢) رواه أبو داود (٤٩٨٢)، وصحَّحه الألبانِيُّ.
(٣) رواه البخاريُّ (٦٠٨)، ومسلم (٣٨٩).
(٤) رواه مسلم (٧٨٠).

الشَّيطان سبيلًا إلى مَن كان ذاكرًا لله في الأوقاتِ كلِّها وفي كلِّ شيء؛ إذا ذكرتَ الله عَزَّوَجَلَّ على الطَّعام ابتعد الشَّيطان، وإذا ذكرتَه عند دخولك إلى البيت ابتعد الشَّيطانُ، وهكذا في كلِّ أمرٍ تذكر الله جَلَّوَعَلَا عليه لا يكون للشَّيطان إليك فيه سبيلٌ، وتكون في حفظٍ من وساوس الشَّيطان وكيده وشروره وهَمزِه ونَفخِه ونَفَثِه[(١)].

فهذه فائدة عظيمة وجليلة من فوائد الذِّكر، بل قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فلو لم يكن في الذِّكر إلَّا هذه الخصلة الواحدة لكان حقيقًا بالعبد أن لا يفتر لسانه من ذكر الله تعالى وأن لا يزال لهجا بذكره؛ فإنَّه لا يحرِز نفسه من عدوِّه إلَّا بالذِّكر ولا يدخل عليه العدوُّ إلَّا من باب الغفلة، فهو يرصده فإذا غفل وثب عليه وافترسه، وإذا ذكر الله تعالى انخنس عدوُّ الله تعالى وتصاغر وانقمع»[(٢)].

﴿ **ومن فوائد الذِّكر:** أنَّه يُذهب قَسوة القَلب؛ فالقلبُ يقسو بسبب الذُّنوب والتَّفريط في طاعة الله ونحو ذلك، وليس هناك شيء يُذيبُ قسوةَ القلب مثل ذكر الله جَلَّوَعَلَا، وليس هناك شيءٌ يجلب القسوة للقلب مثل الغفلة عن ذكر الله، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الحديد: ١٦-١٧]. فقسوة القلب سببُها -كما يدلُّ عليه سياق الآية الكريمة- هو طول الأمَد بالبُعد عن الذِّكر وعن القيام بأمر الله، فإذا حصَل هذا البُعد حصلت القسوةُ، ولا تزول هذه القسوة إلَّا بالعودة إلى ذكر الله والرُّجوع إلى

(١) «هَمْزُهُ: الْمُوتَةُ، وَنَفْثُهُ: الشِّعْرُ، وَنَفْخُهُ: الْكِبْرُ». سنن ابن ماجه (٨٠٨)، وصحَّحه الألبانِيُّ. وقال شيخ الإسلام: «هَمْزُهُ الموتة، وَهِيَ الصَّرْعُ». مجموع الفتاوى (١٦/ ٥٢١).

(٢) الوابل الصَّيِّب (ص٣٧).

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولهذا قال في الآية الَّتي تليها: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: فكما أنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُحيي الأرضَ بعد موتها بالماء والمطر؛ فإنَّه يُحيي تَبَارَكَ وَتَعَالَى القلوبَ الميِّتة بالوحي والذِّكر لله، فإذا ذكَر الإنسانُ ربَّه حَيِي قلبُه وذهبتْ عنه القسوةُ.

ولهذا يُؤثَر أنَّ رجلًا أتى إلى الإمام الحسَن البصريِّ: وقال له: يا أبا سعيد أشكو إليك قسوةَ قلبي؟! قال: «**أَذِبْهُ بذكر الله**»[(١)]، أي: أَذِبْ هذه القسوةَ الَّتي في قلبك بالإكثار من ذكر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فذكرُ الله جَلَّ وَعَلَا يُذهب القسوةَ الَّتي تقع في القلب؛ فتتبدَّل إلى لينٍ وسكونٍ وطمأنينة. قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهذا لأنَّ القلب كلَّما اشتدَّت به الغفلة اشتدَّت به القسوة، فإذا ذكر الله تعالى ذابت تلك القسوة كما يذوب الرَّصاص في النَّار، فما أذيبت قسوة القلوب بمثل ذكر الله عَزَّوَجَلَّ»[(٢)].

والمفاسد والأضرار المتولِّدة عن إضاعة الذِّكر كثيرة، قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قلَّة التَّوفيق، وفساد الرَّأي، وخفاء الحقِّ، وفساد القلب، وخمول الذِّكر، وإضاعة الوقت، ونُفرة الخلق، والوحشة بين العبد وبين ربِّه، ومنع إجابة الدُّعاء، وقسوة القلب، ومحقُّ البركة في الرِّزق والعمر، وحرمان العلم ولباس الذُّلِّ وإهانة العدوِّ، وضيق الصَّدر، والابتلاء بقرناء السُّوء الَّذين يفسدون القلب ويضيِّعون الوقت، وطول الهمِّ والغمِّ، وضنك المعيشة، وكسف البال؛ تتولَّد من المعصية والغفلة عن ذكر الله كما يتولَّد الزَّرع عن الماء، والإحراق عن النَّار، وأضداد هذه تتولَّد عن الطَّاعة»[(٣)].

---

(١) رواه بهذا اللَّفظ ابن الجوزيِّ في ذمِّ الهوى (ص٦٩)، ورواه أحمد في الزُّهد (١٥١٠)، وابن أبي الدُّنيا في الرِّقة والبكاء (٤٨)، والخرائطي في اعتلال القلوب (٥٣)، بلفظ: «أَذْنِهِ مِنَ الذِّكْرِ».

(٢) الوابل الصَّيِّب (ص٧١).

(٣) الفوائد (ص٣٢).

٣
فوائد الذِّكر (٢)

⁂ **مِن فوائد الذِّكر العظيمة:** أنَّه يُكسِب العبد ثمرةً جليلةً ومنزلةً رفيعةً؛ وهي أنَّه إذا ذكر اللهَ ذَكَرَهُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لأنَّ الجزاء من جنس العمل، واللهُ تعالى يقول: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ [الرَّحمن: ٦٠]، فمَن ذَكَرَ اللهَ ذَكَرَهُ الله، ومَن نَسِيَ اللهَ نسيَه اللهُ؛ ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ [التَّوبة: ٦٧]، ﴿ جَزَآءً وِفَاقًا ﴾ [النَّبأ: ٢٦]، ﴿ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ ﴾ [الرُّوم: ١٠]، فالجزاءُ مِنْ جنس العمل؛ مَنْ يَذْكُرِ الله يَذْكُرْهُ اللهُ، قال تعالى: ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾ [البقرة: ١٥٢]، وفي الحديث يقول رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربِّه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أنَّه قال: «**فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ، ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي؛ وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ**». متَّفق عليه[١]. قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولو لم يكن في الذِّكر إلَّا هذه وحدها لكفى بها فضلًا وشرفًا»[٢].

فأيُّ ثوابٍ أعظم؟! وأيُّ منزلةٍ أجلُّ وأرفع مِنْ أنْ تنال أيُّها العبد ذكرَ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لكَ في الملأ الأعلى!! يَذْكُرُك جَلَّ وَعَلَا وهو غنيٌّ عنك، وأنتَ محتاجٌ إليه مفتقرٌ إليه. يذكرُك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الملأ الأعلى وهو لا ينتفِع بذكرك له، فذِكْرُك له سبحانه لا يزيد مُلكَه، وتركُكَ لذكره لا يُنقِص مُلكَه، ولهذا قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في الحديث القدسيِّ: «**لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ**

---

(١) رواه البخاريُّ (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥).

(٢) الوابل الصَّيِّب (ص٤٢).

كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا». أخرجه مسلم[(١)].

فهو تَبَارَكَ وَتَعَالَى لا تنفعُه طاعةُ الطَّائعين، ولا تضرُّه معصية العاصين، ولا يزيد في ملكِه ذكرُ الذَّاكرين، ولا يُنقِص من ملكِه غفلةُ الغافلين؛ لكنَّه لُطفًا منه تَبَارَكَ وَتَعَالَى بعباده وإحسانًا يَذْكُرُ مَنْ ذَكَرَهُ في الملأ الأعلى؛ مَنْ ذكرَ الله في نفسِه ذكَرَهُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى في نفسِه، ومنْ ذكرَ الله في ملأ ذكَرَه الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى في ملأ خيرٍ منْهُم.

وقد جاء في «صحيح مسلم» عن معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: إِنَّ رَسُولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَرَجَ عَلَى حَلْقَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ؛ فَقَالَ: «**مَا أَجْلَسَكُمْ؟**» قَالُوا: «**جَلَسْنَا نَذْكُرُ اللهَ، وَنَحْمَدُهُ عَلَى مَا هَدَانَا لِلْإِسْلَامِ، وَمَنَّ بِهِ عَلَيْنَا**»؛ قَالَ: «آللهِ مَا أَجْلَسَكُمْ إِلَّا ذَاكَ؟» قَالُوا: «**وَاللهِ؛ مَا أَجْلَسَنَا إِلَّا ذَاكَ**»، قَالَ: «**أَمَا إِنِّي لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تُهْمَةً لَكُمْ، وَلَكِنَّهُ أَتَانِي جِبْرِيلُ فَأَخْبَرَنِي أَنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يُبَاهِي بِكُمُ الملَائِكَةَ**»[(٢)]؛ يُباهي الملائكة بالذَّاكرين، يقول: انظروا إلى عبادي اجتمَعوا لِذكري، اجتمَعوا على شُكري، اجتمَعوا على حَمدي، يباهي بهم الملائكةَ.

وفي «صحيح مسلم» من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ**»[(٣)]؛ فهذه منزلةٌ رفيعة ودرجةٌ عاليةٌ مُنيفة ينالها الذَّاكر لله عَزَّوَجَلَّ؛ وهي أنَّ

---

(١) رواه مسلم (٢٥٧٧).

(٢) رواه مسلم (٢٧٠١).

(٣) رواه مسلم (٢٦٩٩).

الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ يذكُره. ولكن لتعلُّق النُّفوس بالدُّنيا أكثر؛ فإنَّ الواحدَ من النَّاس إذا قيلَ له: «إذا قمتَ بالعملِ الفلانيِّ فإنَّ الرَّئيس سيذكُرك بكذا وسيمدَحُك عند المسؤولين»؛ فإنَّه ينشط لَلعمل، لكن ذِكْر الله الَّذي نَنَالُ به ذِكْرَ اللهِ لنا نضعُف عنه ولا ننشط للقيام به! وهذا من تفريطِنا وتقصِيرنا وتضيِيعنا وإهمالِنا وعدمِ إعطائِنا لهذا الأمرِ حقَّه من العنايةِ والاهتمامِ.

❀ **ومن فوائد الذِّكر** -وهو تابعٌ لما قبلَه-: أنَّ الذَّاكر ينالُ بذكرِه لله صلاةَ اللهِ وملائكتِه عليه، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤١-٤٢]، فهذه فائدةٌ من فوائد الذِّكر، وهو: أنَّ الذَّاكر ينالُ صلاةَ الله عليه وصلاةَ الملائكة.

- أمَّا صلاةُ الله عليه؛ فهي ثناؤُه عليه في الملأ الأعلى -كما تقدَّم-.

- وأمَّا صلاةُ الملائكة عليه؛ فبدُعائهم له، وكلَّما عظُم إيمانُ الشَّخص وزاد ذكرُه لله وقَوِي تمسُّكه بالخَير زاد بذلك دُعاؤهم له، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [غافر: ٧-٩]؛ هذا دعاءٌ عظيمٌ مباركٌ من الملائكة للمؤمنين الذَّاكرين لله، المُطيعين له، المُمتثلين لأوامِره سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

- وهاهنا -أيُّها الموفَّق- سؤالٌ قد يخطُر على البال، وهو: مَا الَّذي عطَف هؤلاء الملائكة على المؤمنين وصاروا بهذه المنزلة عندهم؛ وهي الاستمرَار والمداوَمة على الدُّعاء لهم؟ مع أنَّ جنس الملائكةِ مختلفٌ عن جنسِ البَشر!

فالملائكة خُلِقوا من نور، والبشرُ خُلِقوا من طين، فالجنسُ مختلفٌ، ومع ذلك وجد هذا العطف من الملائكةَ على المؤمنين؛ وسببُ ذلك وجود هذه الرَّابطة الوثيقة بين المؤمنين وبين الملائكة، رابطةُ الإيمانِ بالله وذكرِه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾؛ هذه هي الرَّابطة: التَّسبيحُ بحَمد الله والإيمانُ به تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، فكلَّما عَظُمَ ذكرُ الإنسان لله وعظُمَ حمدُه وعظُمَ إيمانُه زاد دعاءُ الملائكة له واستغفارُهم له وسؤالهُم اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ له التَّوفيق والسَّداد والجنَّة والنَّجاة من النَّار، وغير ذلك من الأمور الَّتي ذُكرت في الآية الكريمة.

۞ **ومن فوائد الذِّكر:** أنَّه سبب لحفظ اللِّسان؛ يقول العلماء: إنَّ اللِّسان إنَّما خُلِقَ للكلام، فإذا لم يتكلَّم المسلمُ بخير -وأعظم الخير ذكرُ الله- تكلَّم بالشرِّ والفسَاد؛ ولهذا من يَبَسَ -والعياذ بالله- لسانُه عن ذكر الله؛ انطلَق في كلِّ فساد؛ في الغِيبة، والنَّميمة، والسُّخريَة، والاستهزاء، والكذب والفُحش ونحو ذلك، فإذا يبَس اللِّسان عن الذِّكر انطلق في الباطل، وإذا اشتَغل بالذِّكر ذهبَ عنه الباطل، ولهذا ما حُفظ اللِّسانُ ولا حصَلت له الصيانةٌ بمثل المحافظة على ذكر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ. فذِكر الله جَلَّ وَعَلَا يصونُ لسانَ المرء ويحفظُه منَ الوقوع في الغِيبة والنَّميمة والسُّخرية والاستهزاء، ونحو ذلك.

۞ **ومن فوائد الذِّكر:** أنَّه علامةٌ على عِظَمِ حبِّ الذَّاكر لله، ولهذا يقال «مَن أحبَّ شيئًا أكثر من ذكره»، والمؤمن الصَّادق ليس شيء في قلبه أعظم من محبَّة الله المثمرة فيه كثرة الذِّكر له جلَّ في علاه.

۞ **ومن فوائد الذِّكر:** أنَّه يورث جِلاء القلب من صداه، وصدأ القلب: الغفلةُ والهوى، وجلاؤه: الذِّكر والتَّوبة والاستغفار. قال أبو الدَّرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ جِلَاءً، وَإِنَّ جِلَاءَ الْقُلُوبِ ذِكْرُ اللهِ** عَزَّوَجَلَّ» رواه البيهقيُّ في

شعب الإيمان[١]. قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولا ريب أنَّ القلب يصدأ كما يصدأ النُّحاس والفضَّة وغيرهما، وجلاؤه بالذِّكر؛ فإنَّه يجلوه حتَّى يدعه كالمرآة البيضاء، فإذا تُرك الذِّكر صدأ، فإذا ذكر جلاه»[٢].

ومن فوائد الذِّكر: أنَّه غِراس الجنَّة فقد روى التِّرمذيُّ في جامعه من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَقِيتُ إِبْرَاهِيمَ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَقْرِئْ أُمَّتَكَ مِنِّي السَّلَامَ، وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ الْجَنَّةَ طَيِّبَةُ التُّرْبَةِ عَذْبَةُ الْمَاءِ، وَأَنَّهَا قِيعَانٌ، وَأَنَّ غِرَاسَهَا: سُبْحَانَ اللهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَاللهُ أَكْبَرُ**»[٣]. وفي التِّرمذيِّ من حديث أبي الزُّبير عن جابر عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**مَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ وَبِحَمْدِهِ غُرِسَتْ لَهُ نَخْلَةٌ فِي الْجَنَّةِ**»[٤].

والحاصل أنَّ فوائد الذِّكر كثيرة وينظر في بسطها كتابَ «الوابل الصَّيِّب» للعلَّامة ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وفي أبيات جميلة للعلَّامة عبد الرَّحمن ابن ناصر السِّعديِّ:، جمع فيها: جملة من فوائد الذِّكر وثماره، يقول فيها:

فذِكرُ إلهِ العَرشِ سرًّا ومعلنًا ... يزيلُ الشَّقى والهمَّ عنكَ ويطردُ
ويجلبُ للخيراتِ دنيًا وآجلًا ... وإن يأتِكَ الوسواسُ يومًا يُشرِّدُ
فقَد أخبرَ المختارُ يومًا لصحبِه ... بأنَّ كثيرَ الذِّكرِ في السَّبقِ مُفرِّدُ
ووصَّى معاذًا يستعينُ إلههُ على ... ذكرِه والشُّكرِ بالحُسنِ يعبدُ

(١) شعب الإيمان (٥٢٠).
(٢) الوابل الصَّيِّب (ص٤٠).
(٣) رواه التِّرمذيُّ (٣٤٦٢)، وحسَّنه الألبانيُّ.
(٤) رواه الترمذي (٣٤٦٤)، وصحَّحه الألبانيُّ.

وأوصى لشخصٍ قد أتى لنصيحةٍ   وقد كان في حملِ الشَّرائع يجهدُ
بأن لا يزال رطبًا لسانُك هذه   تُعين على كلِّ الأمور وتُسعِدُ
وأخبر أنَّ الذِّكر غرسٌ لأهلهِ   بجنَّات عدنٍ والمساكنُ تُمهَد
وأخبر أنَّ الله يَذكُر عبدَهُ   ومعه على كلِّ الأمُور يُسدِّد
وأخبر أنَّ الذِّكر يبقى بجنَّةٍ   وينقطعُ التَّكليفُ حين يُخلَّدُ
ولو لم يكن في ذكرِه غير أنَّه   طريقٌ إلى حبِّ الإلهِ ومرشدُ
وينهى الفتَى عن غيبةٍ ونميمةٍ   وعن كلِّ قولٍ للدِّيانة مفسدُ
لكان لنا حظٌّ عظيمٌ ورغبةٌ   بكثرةِ ذكرِ الله نِعْمَ المُوحَّدُ
ولكنَّنا من جهلِنا قلَّ ذكرُنا   كما قَلَّ منَّا للإله التَّعبُّدُ

٤
تأملات في بعض الآيات الحاثَّة على ذكر الله (١)

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾ [البقرة: ١٥٢]؛ في هذه الآية فضيلةٌ عظيمة من فضائل الذِّكر؛ أمر تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فيها عباده بذكره، ثمَّ ذكر ثواب ذلك عنده، والجزاء من جنس العمل، ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾ [الرَّحمن: ٦٠]؛ فمَن أحسن أحسنَ الله إليه وجزاه من جنس عمله، قال: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾. ويقابل ذلك النِّسيان قال الله تعالى فيه ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡ﴾ [التَّوبة: ٦٧]؛ ذِكرٌ بذكر ونسيانٌ بنسيان. قد جاء معنى هذه الآية في السُّنَّة في قول النَّبيِّ ﷺ: «**قال الله تعالى: مَنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَمَنْ ذَكَرَنِي فِي مَلإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ**»[(١)]؛ وهذا جزاء من جنس العمل.

وأيُّ ثوابٍ أجلُّ وأيُّ مكانةٍ أعظم من أن يحظى العبد المؤمن بذكر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ له في الملأ الأعلى عند الملائكة الكِرام الأطهار البررة! وقد جاء في صحيح مسلم عن معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن حلقة جلوس في المسجد نتذاكر، فقال: «**مَا أَجْلَسَكُمْ**» -أي: ما الَّذِي أجلسكم في المسجد؟- قلنا: «**جَلَسْنَا نَذْكُرُ الله، وَنَحْمَدُهُ عَلَى مَا هَدَانَا لِلإِسْلَامِ، وَمَنَّ بِهِ عَلَيْنَا**»، فقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**آللهِ مَا أَجْلَسَكُمْ إِلَّا ذَلِكَ؟**» -يستحلفهم بالله- قلنا: «**وَاللهِ؛ مَا أَجْلَسَنَا إِلَّا ذَاكَ**» -أي: ما جلسنا إلَّا لذكر الله ومدارسة الإسلام وأمور الدِّين ومسائل الشَّرع- فقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**أَمَا وَاللهِ إِنِّي لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ**

(١) رواه البخاريُّ (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥).

تُهْمَةً لَكُمْ» -أي: لم أطلب منكم الحلف لأنَّني أتَّهمكم بكذب- **«وَلَكِنْ أَتَانِي جِبْرِيلُ آنِفًا فَأَخْبَرَنِي أَنَّ اللهَ يُبَاهِي بِكُمْ مَلَائِكَتَهُ»**(١).

وهذا هو معنى قوله: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾؛ إذا ذكرت الله عَزَّوَجَلَّ في نفسك ذكرك الله في نفسه، وإذا ذكرته عَزَّوَجَلَّ في ملإٍ ذكرك الله في ملإٍ خير منهم، وهذا من عاجل بشرى الذَّاكر؛ أن يحظى بهذه المنزلة العظيمة؛ أن يذكره الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في الملأ الأعلى.

وأيضًا مثل هذا ما جاء في صحيح مسلم عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: **«مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ»**(٢).

ثمَّ إنَّ ذكرَ العبد لربِّه محفوف بذكرين من ربِّه له:

١- ذِكرٌ قبله به صار العبد ذاكرًا له.

٢- وذِكرٌ بعده به صار العبد مذكورًا.

فذكر الربِّ لعبده نوعان: نوعٌ قبل ذكر العبد لربِّه، ونوعٌ بعده.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ﴾ [العنكبوت: ٤٥]؛ وهذه الآية فيها أنَّ ذِكر الله عَزَّوَجَلَّ هو أفضل الأعمال وأكبرها، وهو أكبر من كلِّ شيء.

أي: ذكرُ الله لكم أكبَرُ من ذكركم له في عبادتكم وصلواتكم، وهو ذاكرٌ مَن ذَكَرَه. قاله -بمعناه- ابنُ مسعود، وابن عبَّاس، وأبو الدَّرداء، وأبو قرَّة، وسلمانُ، والحسنُ. واختاره ابن جرير الطَّبريُّ(٣).

(١) رواه مسلم (٢٧٠١).
(٢) رواه مسلم (٢٦٩٩).
(٣) جامع البيان للطَّبريِّ (٢٠/ ٤٢).

وقيل: ذِكْرُكُم الله في صلاتكم وفي قراءة القرآن أفضلُ من كلِّ شيء. قال ابن زيد وقتادة: ولَذِكرُ الله أكبَرُ من كلِّ شيء، أي: أفضل من العبادات كلِّها بغير ذكر(١).

وقيل المعنى: أنَّ ذكر الله أكبر مع المداومة من الصَّلاة في النَّهي عن الفحشاء والمنكر.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الصَّحيح أنَّ معنى الآية: أنَّ الصَّلاة فيها مقصودان عظيمان، وأحدهما أعظم من الآخر، فإنَّها تنهى عن الفحشاء والمنكر، وهي مشتملةٌ على ذكر الله تعالى، ولَمَا فيها من ذكر الله أعظم من نهيها عن الفحشاء والمنكر». اهـ كلامه(٢).

والطَّاعات كلُّها إنَّما شُرعت لإقامة ذكر الله، وهو مقصود العبادات ولبُّها وروحها، قال ﷺ: «**إِنَّمَا جُعِلَ الطَّوَافُ بِالْبَيْتِ، وَبَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، وَرَمْيُ الْجِمَارِ؛ لِإِقَامَةِ ذِكْرِ اللهِ**». رواه أبو داود(٣).

قيل لسلمان: أيُّ الأعمال أفضل؟ قال: «أمَّا تقرأ القرآن! ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾»(٤)، ويشهد لهذا المعنى حديث أبي الدَّرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال النَّبيُّ ﷺ: «**أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ، وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ، وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ إِنْفَاقِ الذَّهَبِ وَالْوَرِقِ، وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ؟**» قَالُوا: بَلَى. قَالَ: «**ذِكْرُ اللهِ تَعَالَى**». قَالَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**مَا شَيْءٌ أَنْجَى مِنْ عَذَابِ اللهِ مِنْ ذِكْرِ اللهِ**»(٥).

---

(١) جامع البيان للطَّبريِّ (٢٠/ ٤٤).
(٢) ذكره ابن القيِّم عنه في الوابل الصَّيِّب (ص٧٥).
(٣) رواه أبو داود (١٨٨٨)، والتِّرمذيُّ (٩٠٢).
(٤) رواه ابن جرير في جامع البيان (٢٠/ ٤٤)، وزاد: «لاَ شَيْءَ أَفْضَلُ مِنْ ذِكْرِ اللهِ».
(٥) رواه التِّرمذيُّ (٣٣٧٧)، وابن ماجه (٣٧٩٠)، وصحَّحه الألبانيُّ.

وقال تعالى ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَـٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤١-٤٤]؛ فهذه الآية فيها الأمر بذكر الله عَزَّوَجَلَّ بالكثرة، ولها نظائر في القرآن، ويأتي أيضًا في القرآن آيات فيها مدح لهؤلاء، قال تعالى: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥]، فهاهنا أمرٌ زائد على مجرَّد الأمر بالذِّكر؛ وهو الأمر بذكر الله بالكثرة، بأن تكون مكثرًا من ذكر الله، كثير الذِّكر لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، لا يكون ذكرك لله قليلًا، والله جَلَّ وَعَلَا ذمَّ المنافقين بهذا قال تعالى: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النِّساء: ١٤٢].

وذكر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى بالكثرة يترتَّب عليه أجورٌ عظيمة وأفضالٌ كريمة، منها ما ذُكر في الآية المتقدِّمة: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَـٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣-٤٤]؛ فهذه كلُّها من ثمرات الإكثار من ذكر الله؛ أن يصلِّي ربُّ العالمين عليه.

- وصلاته تَبَارَكَ وَتَعَالَى على عبده المؤمن: ذكره له في الملأ الأعلى، على المعنى الَّذي تقدَّم معنا.

- وصلاة الملائكة عليه: أي بطلب ذلك له.

ثمَّ يترتَّب على ذلك ما جاء في قوله: ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾؛ فهو سببٌ مبارك لخروج العبد من الظُّلمات إلى النُّور، وسببٌ عظيمٌ في علوِّ درجته عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ثمَّ يحظى برحمة الله الخاصَّة بعبده المؤمن، ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾؛ فهذه كلُّها فضائل وثمار وآثار للإكثار من ذكر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

فقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾ فيه أعظمُ التَّرغيب في الإكثار من ذكر الله، وأحسنُ حضٍّ على ذلك؛ أي: أنَّه سبحانه يَذْكُرُكُم فاذكروه أنتم، وهو نظيرُ قولِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢]؛ فالمكثرون من ذكر الله لهم الحظُّ الأوفر والنَّصيب الأكمل من ذكر الله لهم وصلاتِهِ عليهم وملائكتِهِ. روي عن ابن عبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا في معنى الآية أنَّه قال: «فإذا فعلتم ذلك -أي أكثرتم من ذكر الله- صلَّى اللهُ عليكم هو وملائكتُه»، ومَن صلَّى اللهُ عليه وملائِكتُه فقد أفلح كلَّ الفلاح، وفاز الفوز المبين.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥]؛ في هذه الآية ذِكر ما أعدَّه الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ للذَّاكرين الله كثيرًا والذَّاكرات من المغفرة والأجر العظيم، وهذه فضيلة من فضائل الذِّكْر وثمرةٌ عظيمةٌ من ثماره.

ومثلها الحديث المشهور الَّذِي قال فيه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**هَذَا جُمْدَانُ سَبَقَ الْمُفَرِّدون**»، فقال الصَّحابة: «**ومَن المُفرِّدون يَا رَسُولَ اللهِ؟**» قال: «**الذَّاكِرُونَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ**»(١)؛ فمَدَحهم وأثنى عليهم بالسَّبْق، بأنَّهم السبَّاقُون للخيرات، الحائزون أعلى المقامات ورفيع الدَّرجات.

ومَن يتأمَّلُ هذه النُّصوص وغيرها من النُّصوص الكثيرة الواردة في بيان عظيم أجر الذَّاكرين الله كثيرًا والذَّاكرات وجزيل ثوابهم، وما أعدَّ الله لهم من النَّعيم المقيم والثَّواب الكبير يوم القيامة؛ تتحرَّك نفسه شوقًا وطمعًا، ويهتزُّ قلبُه حبًّا ورغبًا في أن يكون من هؤلاء أهلِ هذا المقام الرَّفيع والمنزلة العالية.

ولكن بمَ ينالُ العبدُ ذلك؟ وهذا سؤالٌ عظيم يجدر بكلِّ مسلم أن

---

(١) رواه مسلم (٢٦٧٦).

يقف عنده وأن يعرف جوابه، وقد جاء عن السَّلف في معنى الذَّاكرين الله كثيرًا والذَّاكرات نقولٌ عديدةٌ؛ منها:

ما روي عن ابن عبَّاس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أنَّه قال: «المراد: يذكرون الله في أدبار الصَّلوات وغدوًّا وعشيًّا، وفي المضاجع، وكلَّما استيقظ من نومه، وكلَّما غدا أو راح من منزله ذكَر الله تعالى»[١].

وقال مجاهد: «لا يكون من الذَّاكرين الله كثيرًا والذَّاكرات حتَّى يذكر الله قائمًا وقاعدًا ومضطجعًا»[٢].

وقال عطاء: «مَن صلَّى الصَّلوات الخمس بحقوقها فهو داخلٌ في قول الله تعالى: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾»[٣].

ومن صفة هؤلاء: الصَّلاةُ من اللَّيل، فقد روى أبو داود وابن ماجه والحاكم وغيرهم بإسنادٍ صحيح صحَّحه الحاكم والذَّهبيُّ والنَّوويُّ والعراقيُّ وغيرهم من حديث أبي سعيد الخدريِّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِذَا أَيْقَظَ الرَّجُلُ أَهْلَهُ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّيَا أَوْ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ جَمِيعًا كُتِبَا مِنَ الذَّاكِرِينَ وَالذَّاكِرَاتِ**»[٤].

وقد سُئل أبو عمرو بن الصَّلاح فيما نقله النَّوويُّ: عنه في كتابه الأذكار عن القَدْر الَّذي يصير به العبد من الذَّاكرين الله كثيرًا والذَّاكرات؟ فقال: «إذا واظب على الأذكار المأثورة المثبتة صباحًا ومساءً في الأوقات والأحوال المختلفة ليلًا ونهارًا، وهي مبيَّنة في كتاب عمل اليوم واللَّيلة، كان من الذَّاكرين الله كثيرًا

(١) الأذكار للنَّوويِّ (ص١٠).
(٢) المصدر السَّابق.
(٣) المصدر السَّابق.
(٤) رواه أبو داود (١٣٠٩)، وابن ماجه (١٣٣٥)، وصحَّحه الألبانِيُّ.

والذَّاكرات»[(١)].

ويقول الشَّيخ العلَّامة عبد الرَّحمن بن ناصر السِّعديُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأقلُّ ذلك أن يلازم الإنسان أوراد الصَّباح والمساء، وأدبار الصَّلوات الخمس، وعند العوارض والأسباب، وينبغي مداومة ذلك في جميع الأوقات على جميع الأحوال، فإنَّ ذلك عبادة يسبق بها العامل وهو مستريح، وداعٍ إلى محبَّة الله ومعرفته، وعونٌ على الخير، وكفٌّ اللِّسان عن الكلام القبيح». اهـ كلامه[(٢)].

(١) الأذكار للنَّوويِّ (ص١٠ - ١١).
(٢) تيسير الكريم الرَّحمن في تفسير كلام المنَّان (ص٦٦٧).

٥
تأملات في بعض الآيات الحاثّة على ذكر الله (٢)

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٤١].

وقال سبحانه: ﴿فَإِذَا قَضَيۡتُم مَّنَٰسِكَكُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكۡرِكُمۡ ءَابَآءَكُمۡ أَوۡ أَشَدَّ ذِكۡرٗاۗ﴾ [البقرة: ٢٠٠].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ﴾ [آل عمران: ١٩١].

وقال تعالى: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [الأحزاب: ٣٥].

أمر الله تعالى في هذه الآيات بذكره بالكثرة؛ وذلك لشدَّة حاجة العبد إلى ذلك وافتقاره إليه أعظم الافتقار، وعدم استغنائه عنه طرفة عين، فأيُّ لحظة خلا فيها العبدُ عن ذِكر الله كانت عليه لا له، وكان خسرانه فيها أعظمَ ممَّا ربح في غفلته عن الله، وندِم على ذلك عند لقاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. بل لقد ثبت عن النَّبيِّ ﷺ -كما في شعب الإيمان للبيهقيِّ، والحِلْية لأبي نعيم- من حديث أمِّ المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنَّه ﷺ قال: «**مَا مِنْ سَاعَةٍ تَمُرُّ بِابْنِ آدَمَ لَمْ يَذْكُرِ اللهَ فِيهَا إِلَّا تَحَسَّرَ عَلَيْهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»(١).

وَقَول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران:

---

(١) رواه البيهقيُّ في شعب الإيمان (508)، وأبو نعيم في الحلية (٥/ ٣٦١-٣٦٢).

١٩١]؛ هذا وصفٌ لأولي الألباب، أولي العقول الرَّاجحة الزَّكيَّة الطَّيِّبة، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]، كأنَّه قيل مَن هم؟ وما حِليتهم؟ وما صفتهم؟ قال: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾.

فأهل العقول الزَّكيَّة والقلوب الطَّيِّبة هذا شأنهم؛ يتفكَّرون في خلق السَّماوات والأرض، ويعلمون بهذا التَّفكُّر الجميل أنَّها لم تُخلق باطلًا ولم توجد عبثًا، وإنَّما خُلقت وأُوجدت لأمرٍ عظيم وخطبٍ جليل، ألا وهو: أن يُعبد الله، وأن يُخصَّ بالعبادة، وأن يُخضع له ويُذل خشوعًا وركوعًا وسجودًا. ثمَّ ذكر حِليتهم قال: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾؛ وهذا وصفٌ لهم بأنَّهم يذكرون الله في كلِّ أحوالهم، كما جاء وصف النَّبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بذلك في الحديث: «**أنَّه كان يذكر الله على كلِّ أحيانه**»(١)، أي: قائمًا وقاعدًا ومضطجعًا.

فالآية دليل على أنَّ من صفة أولي الألباب ومن حليتهم: ذكر الله بالكثرة وفي كلِّ حالة؛ يذكرون الله مضطجعين، ويذكرون الله قاعدين، ويذكرون الله قائمين، فهم في كلِّ أحوالهم ذاكرون الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ. عن مجاهد قال: «لا يكون عبد من الذَّاكرين الله كثيرًا حتَّى يذكر الله قائمًا وقاعدًا ومضطجعًا»(٢).

وليس في الأعمال شيء يعمُّ الأوقات والأحوال كلَّها مثل الذِّكر؛ فالذِّكر مع المرء في جلوسه، وفي سفره، وفي حلِّه، وفي ترحاله، وفي مرضه، وفي ضرَّائه وسرَّائه، وفي شدَّته ورخائه، وفي فراشه عندما يأوي لينام، وعندما يستيقظ من نومه، فالذِّكر مع المسلم في كلِّ أحواله.

---

(١) رواه مسلم (٣٧٣).
(٢) الأذكار للنَّوويِّ (ص١٠).

وأيضًا الآية فيها دلالة على أنَّ ذكر الله والعناية به والمواظبة عليه أكبر عونٍ للعبد على زوال الغفلة عنه، وعلى تحقُّق التَّفكُّر في خلق الله للسَّموات والأرض؛ فالذِّكر إذا وُجد زالت الغفلة، وإذا زالت الغفلة حصل للعبد التَّذكُّر والتَّبصُّر في آيات الله وفي مخلوقاته، بخلاف أكثر النَّاس الَّذِين يمرُّون بآيات الله العِظام الباهرة وهم معرضون! لا تؤثِّر فيهم ولا تُحرِّك فيهم ساكنًا، ولا كأنَّها تعنيهم بشيء. وهذا كلُّه بسبب تراكم الغفلة، فإذا كان العبد من الذَّاكرين الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فإنَّ ذكره لله يفتح له باب التَّفكُّر في مخلوقات الله العظيمة، ممَّا يكون سببًا في زيادة إيمانه وقوَّة يقينه وحُسن صلته بالله.

وقول الله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة: ٢٠٠]؛ هذه الآية أيضًا فيها الأمر بذكر الله بالكثرة، قد جاء في الحديث عن النَّبيِّ ﷺ: «**مَنْ حَجَّ للهِ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ، رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ**»(١)، أي: نقيًّا من الذُّنوب والآثام. فحال مَن كان هذا شأنه قد خرج من هذه الطَّاعة العظيمة الَّتِي منَّ الله عليه بها ويسرَّها له أن يكون كثير الذِّكر لله لا أن يكون من الغافلين، ولهذا ليس من علامات الخير أن يغفل الإنسان عن ذكر الله ولا سيَّما عقِب هذه الطَّاعة الكبيرة وأمثالها من الطَّاعات؛ وهذا فيه دليل على أنَّ ذكر الله كما أنَّه روح العبادة ومقصودها، فكذلك ينبغي أن تُتوَّج به العبادة وتُختم به ويكثر على إثرها.

هذا إضافة إلى ما فيه من فائدةٍ ونفعٍ للمسلم؛ فإنَّ فيه إشارة إلى أنَّ العبد لم يملَّ من عبادة الله، فلهذا كلَّما ختم طاعةً من الطَّاعات لهج بذكر الله بالكثرة؛ ممَّا يدلُّ على شدَّة الرَّغبة وعظيم الحرص وقوَّة العزيمة في العناية بعبادة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فهو يذكر الله في الطَّاعات الكبار المأمور بها -فرائض

(١) رواه البخاريُّ (١٥٢١)، ومسلم (١٣٥٠).

الإسلام- ثمَّ أيضًا يختمها بالإكثار من ذكر الله، ليكون ذلك معينًا له وحافزًا له على لين العبادات وسهولتها ويُسرها عليه ممَّا يستقبله من طاعات آتية وعبادات قادمة.

أمَّا ختم الصِّيام به ففي قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ﴾ أي: عدَّة الصِّيام ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وأمَّا ختم الحجِّ به، فقد تقدَّم في قوله: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾.

وأمَّا ختم الصَّلاة به، ففي قوله: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النِّساء: ١٠٣].

وأمَّا ختم الجمعة به، ففي قوله: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠].

وكما أنَّ الذِّكر خاتمة الطَّاعات فينبغي أيضًا أن يكون خاتمة الحياة الدُّنيا، وإذا كان آخرُ كلام العبد من الدُّنيا «لا إله إلَّا الله» دخل الجنَّة.

وَقَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩]؛ فيها نهي الله عن الغفلة عن ذكره بأيِّ أمر، لا بالأموال والتِّجارات ولا بالبيع والشِّراء وما إلى ذلك، ولا أيضًا بانشغال الإنسان بأولاده وبيته ومصالحه الخاصَّة.

﴿لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ﴾؛ خصَّ هذين الأمرين بالذِّكر: لكوْنهما أكثر ما يشغل الإنسان عن ذكر الله، ولهذا قال الله تعالى في آية أخرى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ﴾ [التَّغابن: ١٥]، فالمال فتنة والولد فتنة، وهما شاغل للإنسان عن ذكر الله إلَّا مَن حفظه الله وأعانه، ولهذا جاء النَّهي

هنا عن أن يلهي المرء ماله أو ولده عن ذكر ربِّه؛ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾.

قد وردت هذه الآية في سورة المنافقون، والمنافقون وصفهم الله عَزَّوَجَلَّ في سورة أخرى بقوله: ﴿وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [النِّساء: ١٤٢]، ولأجل ذلك قال العلماء: إنَّ ذكر هذه الآية الَّتِي فيها نهي العبد عن الغفلة عن ذكر الله في هذه السُّورة الَّتِي خُصَّت بأوصاف المنافقين وأعمالهم والتَّحذير من النِّفاق فيه حكمة؛ وهي: الإشارة إلى أنَّ الإكثار من ذكر الله عَزَّوَجَلَّ أمانٌ من النِّفاق، ولهذا قال عليٌّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لمَّا سُئل عن الخوارج؛ قيل: أمنافقون هم؟ قال: «المنافقون لا يذكرون الله إلَّا قليلًا»(١). فذكر الله بالكثرة من فوائده العظيمة: أنَّه أمان من النِّفاق لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ وصف المنافقين بأنَّهم لا يذكرون الله إلَّا قليلًا، أي: ذكرهم لله قليل.

وقوله ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩] فيه الإخبار عن خُسران مَن لهى عنه بغيره، فمَن لهى عن الذِّكر بالتِّجارة، أو لهى عن الذِّكر بالأولاد فهو خاسر.

الحاصل أنَّ إقبال المرء على أمر المال ومصلحة الأولاد والأنس بهم لا حرج فيه ولا بأس ولا مضرَّة فيه، لكن بقيد: أن لا يكون على حساب طاعة الله وذكره وشكره وحسن عبادته؛ ألَّا يطغى على ذلك، وإنَّما يعطي كلَّ ذي حقٍّ حقَّه ويضع الأمور في مواضعها ولا يجعل شيئًا يطغى على شيء. ولا شكَّ أنَّ من أعظم الحرمان وأشدِّ الخسران أن تطغى عناية المرء بالمال والولد على طاعة الله وذكره وشكره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وممَّا يوضح خطورة هذا الأمر ويبيِّنه: الحديث الصَّحيح الَّذِي يقول فيه

---

(١) رواه المروزيُّ في تعظيم قدر الصَّلاة (٥٩١)، والبيهقيُّ في السُّنن (١٦٧٢٢).

عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**يَتْبَعُ الْمَيِّتَ ثَلَاثَةٌ، فَيَرْجِعُ اثْنَانِ وَيَبْقَى مَعَهُ وَاحِدٌ: يَتْبَعُهُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَعَمَلُهُ؛ فَيَرْجِعُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ، وَيَبْقَى عَمَلُهُ**». متَّفق عليه(١)، فلا يدخل مع الإنسان في قبره إلَّا العمل -سواءٌ كان صالحًا أو طالحًا- ولا يعني هذا ترك المال والتِّجارة وترك طلب الرِّزق وترك رعاية الأولاد والأنس بهم، وإنَّما المراد: ألَّا تشغل هذه الأشياء المرء عن ذكر الله وإقام الصَّلاة والقيام بطاعة الله.

ويقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ﴾ [فاطر: ١٠]؛ هذه الآية فيها دلالة على فضيلة الكلم الطَّيِّب ومكانته، والكلم الطَّيِّب: هو ذكر الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ﴾، أي: يرفع الكلم الطَّيِّب، فلا بُدَّ منهما فلا يُكتفى بأحدهما دون الآخر، بل لا بُدَّ من الأقوال الزَّاكية الَّتي هي ذكر الله ودعائه، ولا بُدَّ من الأعمال الصَّالحة المقرِّبة إلى الله. ولهذا الدِّين والإيمان قولٌ وعملٌ؛ أقوالٌ مباركة وأعمالٌ صالحة يتقرَّب بها المسلم إلى الله.

❧ وفي الآية تنبيهان مهمَّان:

الأوَّل: يتعلَّق بالكلِم؛ ألا وهو: أنه ليس كلُّ كلِم يُقبل، وإنَّما الَّذي يُقبل الكلِم الموصوف بأنَّه طيِّب، ولا سبيل إلى معرفة الكلِم أهو طيِّب أو ليس بطيِّب إلَّا من خلال الشَّارع الحكيم؛ بالتَّعويل على كلام الله وكلام رسوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فليس كلُّ ذكرٍ لله يُقبل أيًّا كانت صفته وأيًّا كانت طريقته، وإنَّما الَّذي يُقبل من الذِّكر ما كان طيِّبًا، والطَّيِّب من الذِّكر إنَّما يُعلم من كتاب الله وسنَّة نبيِّه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ. فهذا فيه التَّنبيه على أهميَّة التَّعويل على الكتاب والسُّنَّة في الذِّكر والدُّعاء.

---

(١) رواه البخاريُّ (٦٥١٤)، ومسلم (٢٩٦٠).

الأمر الثَّاني: في قوله ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾، فليس كلُّ عملٍ يُقبل، بل لا يُقبل إلَّا إذا كان صالحًا، قال: ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ﴾؛ وصف العمل بالصَّلاح، فالعمل لا يُقبل إلَّا إذا كان صالحًا، وصلاح العمل من عدمه إنَّما يُعرف من طريق الكتاب والسُّنَّة.

٦
تأملات في بعض الآيات الحاثَّة على ذكر الله (٣)

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا﴾ [الأحزاب:١٤] قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]؛ هذه الآية العظيمة اشتملت على جملةٍ طيِّبةٍ من الآداب الكريمة الَّتي ينبغي أن يتحلَّى بها الذَّاكر؛ **فمن هذه الآداب:**

أوَّلًا: أن يكون الذِّكر في نفسه -في نفس الذَّاكر- أي يخفيه؛ لأنَّ الإخفاء أدخلُ في الإخلاص، وأقربُ إلى الإجابة، وأبعدُ من الرِّياء.

ثانيًا: أن يكون على سبيل التَّضرُّع؛ وهو التَّذلُّل والخضوع والاعتراف بالتَّقصير، ليتحقَّق فيه ذِلَّة العبوديَّة والانكسار لعظمة الرُّبوبيَّة.

ثالثًا: أن يكون على وجه الخيفة؛ أي: الخوف من المؤاخذة على التَّقصير في العمل، والخشية من أن يُردَّ وألَّا يُقبل، قال الله تعالى في صفة المؤمنين المسارعين في الخيرات السَّابقين لأرفع الدَّرجات: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ٦٠ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠-٦١]، قد ثبت في المسند وغيره عن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا أنَّها سألت النَّبيَّ ﷺ عن هؤلاء فقالت: «**يَا رَسُولَ اللهِ أَهُوَ الرَّجُلُ يَزْنِي وَيَسْرِقُ وَيَشْرَبُ الْخَمْرَ وَيَخَافُ أَنْ يُعذَّبَ؟**» قالَ: «**لَا، يَا ابْنَةَ الصِّدِّيقِ، وَلَكِنَّهُ الرَّجُلُ يُصَلِّي وَيَصُومُ وَيَتَصَدَّقُ وَيَخَافُ أَنْ لَا يُقْبَلَ مِنْهُ**»(١).

---

(١) رواه أحمد (٢٥٢٦٣)، وابن ماجه (٤١٩٨)، وحسَّنه الألبانِيُّ.

رابعًا: أن يكون دون الجهر؛ لأنَّه أقرب إلى حُسن التَّفكُّر، قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولهذا قال: ﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ وهكذا يُستحبُّ أن يكون الذِّكر، لا يكون نداءً وجهرًا بليغًا»(١)، وفي الصَّحيحين عن أبي موسى الأشعريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: رفع النَّاس أصواتهم بالدُّعاء في بعض الأسفار، فقال لهم النَّبيُّ ﷺ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، إِنَّكُمْ لَيْسَ تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا، إِنَّكُمْ تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا، أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَةِ أَحَدِكُمْ**»(٢).

خامسًا: أن يكون باللِّسان لا بالقلب وحده، وهو مستفادٌ من قوله: ﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ﴾؛ لأنَّ معناه: ومتكلِّمًا كلامًا دون الجهر، ويكون المرادُ بالآية: الأمرَ بالجمع في الذِّكر بين اللِّسان والقلب، وقد يقال: هو ذكره في قلبه بلا لسانه بقوله بعد ذلك: ﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾؛ إلَّا أنَّ الأوَّل هو الأصحُّ كما حقَّق ذلك شيخُ الإسلام ابن تيميَّة وغيرُه من أهل العلم رَحِمَهُمُ اللَّهُ.

وقد نظَّر ابن تيميَّة: لذلك بقوله ﷺ فيما روى عن ربِّه أنَّه قال: «**فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُ**»(٣)، قال: «وهذا يدخل فيه ذكره باللِّسان في نفسه، فإنَّه جعله قسيمَ الذِّكر في الملأ، وهو نظير قوله: ﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾»، والدَّليل على ذلك أنَّه قال بعده: ﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْأَصَالِ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، ومعلوم أنَّ ذكر الله المشروعَ بالغدوِّ والآصال في الصَّلاة وخارج الصَّلاة هو باللِّسان مع القلب، مثل صلاتَيْ الفجر والعصر، والذِّكر المشروع عقب الصَّلاتين، وما أمر به النَّبيُّ ﷺ وعلَّمه وفعَلَه من الأذكار والأدعية المأثورة من عمل اليوم واللَّيلة المشروعة طرفَيْ النَّهار

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٤٨٧).
(٢) رواه البخاريُّ (٢٩٩٢)، ومسلم (٢٧٠٤).
(٣) رواه البخاريُّ (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥).

بالغدوِّ والآصال»(١).

سادسًا: أن يكون بالغدوِّ والآصال؛ أي في البكرة والعشيِّ؛ فتدلُّ الآية على مزيَّة هذين الوقتين، لأنَّهما وقت سكون ودعة وتعبُّدٍ اجتهاد، وما بينهما الغالبُ فيه الانقطاع إلى أمر المعاش، وقد ورد أنَّ عمل العبد يصعد أوَّل النَّهار وآخره؛ فطلبُ الذِّكر فيهما ليكون ابتداء عمله واختتامه بالذِّكر، فقد جاء في الصَّحيحين من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن النَّبيِّ ﷺ: «**يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الْعَصْرِ وَصَلَاةِ الْفَجْرِ، ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ فَيَسْأَلُهُمْ وَهْوَ أَعْلَمُ بِهِمْ فَيَقُولُ: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ**»(٢).

سابعًا: النَّهي عن الغفلة عن ذكره بقوله: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾؛ أي: من الَّذين يغفلون عن ذكر الله ويلهون، وفيه إشعارٌ بطلب دوام ذكره تعالى والاستمرار عليه، وأحبُّ العمل إلى الله أَدْوَمُه وإن قلَّ.

فهذه سبعةُ آداب عظيمة اشتملت عليها هذه الآية الكريمة ذكرها القاسميُّ في كتابه «محاسن التَّأويل»(٣)، وللذِّكر آداب كثيرة أخرى سيأتي معنا شيء منها لاحقًا إن شاء الله.

ثمَّ إنَّ الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ لما حثَّ على ذكره في هذه الآية ورغَّب فيه وحذَّر من ضدِّه وهو الغفلة، ذكر عقبها في الآية الَّتي تليها ما يقوِّي دواعي الذِّكر ويُنْهِض الهمم إليه بمدح الملائكة الَّذين يسبِّحون اللَّيل والنَّهار لا يفترون، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦].

(١) مجموع الفتاوى (١٥/ ٣٤).
(٢) رواه البخاريُّ (٥٥٥)، ومسلم (٦٣٢).
(٣) محاسن التَّأويل للقاسميِّ (٥/ ٢٤٧ - ٢٤٨).

والمراد بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ أي: الملائكة، وقد وصفهم الله في هذه الآية بعدم الاستكبار عن عبادة الله وأنَّهم يسبِّحون الله وله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يسجدون، وهذا يتضمَّن حثَّ المؤمنين وترغيبم في أن يقتدوا بهم فيما ذكر عنهم؛ لأنَّه إذا كان أولئك -وهم معصومون من الذَّنب والخطأ- هذه حالهم في التَّسبيح والذِّكر والعبادة فكيف ينبغي أن تكون حال غيرهم!!

ولهذا يقول ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وإنَّما ذكرهم بهذا ليُتشبَّه بهم في كثرة طاعتهم وعبادتهم، ولهذا شُرِعَ لنا السُّجودُ ها هنا، لما ذكر سجودهم لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كما جاء في الحديث: «**ألَّا تصفُّون كما تصفُّ الملائكة عند ربِّها، يتمُّون الصُّفوف الأُوَل ويتراصُّون في الصَّفِّ**»[(١)]، وهذه أوَّل سجدة في القرآن ممَّا يُشرع لتاليها ومستمعيها السُّجود بالإجماع»[(٢)].

ويقول الشَّيخ عبد الرَّحمن بن سِعديٍّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ثمَّ ذكر تعالى أنَّ له عبادًا مستديمين لعبادته ملازمين لخدمته وهم الملائكة؛ لتعلموا أنَّ الله لا يريد أن يتكثَّر بعبادتكم من قلَّةٍ، ولا ليتعزَّز بها من ذلَّةٍ، وإنَّما يريد نفع أنفسكم وأن تربحوا عليه أضعاف أضعاف ما عمِلتم، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾من الملائكة المقرَّبين وحملة العرش والكروبيِّين ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾بل يذعنون لها وينقادون لأوامر ربِّهم، ﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾ اللَّيل والنَّهار لا يفترون، ﴿وَلَهُۥ﴾ وحده لا شريك له ﴿يَسْجُدُونَ﴾، فليقتد العباد بهؤلاء الملائكة الكرام، وليداوموا على عبادة الملك العلَّام». اهـ كلامه [(٣)].

ﮂ **والمقصود:** أنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لمَّا نهى عباده عن أن يكونوا من الغافلين

(١) رواه مسلم (٤٣٠).
(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٥٣٩).
(٣) تيسير الكريم الرَّحمن (ص٣١٤).

ذكر بعد ذلك مثالًا من اجتهاد الملائكة لِيُحْتَذَى، ولِيَبْعَثَ على الجدِّ في طاعة الله وذكره، وحمده سبحانه.

والغفلة أمرٌ يعتري الإنسان فينسى ما أمر به وينصرف عنه ويلهو قلبه عن الإتيان به، وهي تتفاوت في النَّاس؛ منهم من تكون غفلته للحظات، ومنهم من تستديم معه زمنًا، ومنهم مَن يحيا ويموت غافلًا.

ثمَّ إنَّ ذكر الله عَزَّوَجَلَّ الشَّأن فيه كغيره من العبادات لا بُدَّ أن يكون قائمًا على أركان التَّعبُّد القلبيَّة، وأهل العلم يقولون: إنَّ أيَّ عبادة يتقرَّب بها الإنسان إلى الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ لا بُدَّ لها من أركان قلبيَّة ثلاثة تقام عليها العبادة؛ يسمِّيها العلماء «أركان التَّعبُّد القلبيَّة»، وهي: المحبَّة، والخوف، والرَّجاء.

فكلُّ عبادة يأتي بها المسلم متقرِّبًا بها إلى الله لا بُدَّ أن تقام على هذه الأركان الثَّلاثة؛ يعبد الله حبًّا فيه، ورجاءً لثوابه، وخوفًا من عقابه. ولا يجوز أن يُعبَد الله بالحبِّ وحده، ولا بالخوف وحده، ولا بالرَّجاء وحده، بل تكون عبادته لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بالحبِّ والخوف والرَّجاء،

قال ابن القيِّم رَحِمَهُٱللَّهُ(١): قد جمع الله عَزَّوَجَلَّ هذه الأركان الثَّلاثة في قوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ [الإسراء: ٥٧]»؛ فجمع تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ هذه الأركان الثَّلاثة في هذه الآية؛ فقوله ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾ هي المحبَّة، وقوله ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ﴾ هي الرَّجاء، وقوله ﴿وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ هي الخوف.

ولو تأمَّلنا سورة الفاتحة نجد أنَّ هذه الأركان الثَّلاثة ذُكرت فيها:

(١) انظر: مدارج السَّالكين (٢/ ٣٦)، وبدائع الفوائد (٣/ ١١)، وطريق الهجرتين (ص٢٨٢).

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ١-٥]؛ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ هذه العبادة؛ نعبدك ولا نعبد غيرك، لكنَّها لم تُذكر إلَّا بعد أن أُرسيت أركانها؛ فإنَّ المسلم عندما يقرأ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ الحمد: هو الثَّناء على المحمود مع حبِّه، لأنَّ الثَّناء لو كان بلا حبٍّ لا يسمَّى حمدًا وإنَّما يسمَّى مدحًا، ففي الحمد حبُّ الله، فالمسلم عندما يقرأ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يقوم في قلبه حبُّ الله، وعندما يقرأ ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ويذكر رحمة الله يقوم في قلبه الرَّجاء، ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ﴾ [الإسراء: ٥٧]، وعندما يقرأ ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ أي: يوم الحساب والعقاب والجزاء يقوم في قلبه الخوف؛ فبالحبُّ الَّذي دلَّ عليه ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وبالرَّجاء الَّذي دلَّ عليه ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، وبالخوف الَّذي دلَّ عليه ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾؛ أي: نعبدك يا الله بالحبِّ والخوف والرَّجاء.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اعلم أنَّ محرِّكات القلوب إلى الله عَزَّوَجَلَّ ثلاثة: المحبَّة والخوف والرَّجاء، وأقواها المحبَّة وهي مقصودةٌ تراد لذاتها، لأنَّها تراد في الدُّنيا والآخرة، بخلاف الخوف فإنَّه يزول في الآخرة، قال الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢]، والخوف المقصود منه: الزَّجر والمنع من الخروج عن الطَّريق، فالمحبَّة تُلقي العبد في السَّير إلى محبوبه، وعلى قدر ضعفها وقوَّتها يكون سيره إليه، والخوف يمنعه أن يخرج عن طريق المحبوب، والرَّجاء يقوده؛ فهذا أصلٌ عظيم يجب على كلِّ عبد أن يتنبَّه له، فإنَّه لا تحصل له العبوديَّة بدونه»(١).

(١) مجموع الفتاوى (١/ ٩٥).

٧
تنوُّع الأدلَّة الدَّالة على فضل الذِّكر

تقدَّم حديثٌ عن فضيلة الذِّكر وعظيم أجره، وبيان ما أعدَّه الله لأهله من جميل الثَّواب وكريم المآب وحُسن العاقبة وهناءة العيش، ومرَّ أيضًا ذكر شيءٍ من فوائده العطِرة، وثماره الكريمة اليانعة، وعواقبه الحميدة في الدُّنيا والآخرة. ولمَّا كان الذِّكر بهذه المنزلة الرَّفيعة والدَّرجة العالية؛ فإنَّ دلالات النُّصوص المبيِّنة لفضله جاءت متنوِّعة، وكان مجيئه في القرآن الكريم على وجوه كثيرة، وهي بمجموعها وأفرادها تدلُّ على عظيم شأن الذِّكر وجليل قدره.

وقد ذكر الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «مدارج السَّالكين»: إنَّ الذِّكر ورد في القرآن الكريم على عشرة أوجه، ذكرها مجملة، ثمَّ أورد بعد ذلك تفصيلها؛ **فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ**(١)**:**

«**الأوَّل:** الأمرُ به مطلقًا ومقيَّدًا.

الثَّاني: النَّهي عن ضدِّه من الغفلة والنِّسيان.

الثَّالث: تعليق الفلاح باستدامته وكثرته.

الرَّابع: الثَّناء على أهله، والإخبار بما أعدَّ الله لهم من الجنَّة والمغفرة.

الخامس: الإخبار عن خسران مَن لَهَا عنه بغيره.

---

(١) مدارج السَّالكين (٢/ ٣٩٦).

السَّادس: أنَّه سبحانه جعل ذكره لهم جزاءً لذكرهم له.

السَّابع: الإخبار بأنَّه أكبرُ من كلِّ شيء.

الثَّامن: أنَّه جعله خاتمة الأعمال الصَّالحة، كما كان مفتاحها.

التَّاسع: الإخبار عن أهله بأنَّهم هم أهل الانتفاع بآياته، وأنَّهم أولو الألباب دون غيرهم.

العاشر: أنَّه جعله قرين جميع الأعمال الصَّالحة وروحها، فمتى عُدِمته كانت كالجسد بلا روح».

ثمَّ شرع في بيان تفصيل هذه الأوجه العشرة:

- أمَّا الأوَّل: وهو الأمر به مطلقًا ومقيَّدًا، فكقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤١-٤٣]، وقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

- وأمَّا النَّهي عن ضدِّه، فكقوله: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، وقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٩].

- وأمَّا تعليق الفلاح بالإكثار منه، فكقوله: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥].

- وأمَّا الثَّناء على أهله وحُسن جزائهم، فكقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ إلى قوله ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥].

- وأمَّا خسران مَن لها عنه، فكقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩].

- وأمَّا جعْل ذكره لهم جزاء لذكرهم له، فكقوله: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢]، وذِكر العبد لربِّه محفوفٌ بذكرين من ربِّه له: ذكر قبله به صار العبد ذاكرًا له، وذكرٌ بعده به صار العبد مذكورًا، فذكر الربِّ لعبده نوعان: نوعٌ قبل ذكر العبد لربِّه، ونوعٌ بعده.

- وأمَّا الإخبار عنه بأنَّه أكبَرُ من كلِّ شيء، فكقوله تعالى: ﴿ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

- وأمَّا ختم الأعمال الصَّالحة به، فكما ختم به عمل الصِّيام بقوله: ﴿ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وختم به الحجَّ في قوله: ﴿فَإِذَا قَضَيۡتُم مَّنَٰسِكَكُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكۡرِكُمۡ ءَابَآءَكُمۡ أَوۡ أَشَدَّ ذِكۡرٗاۗ﴾ [البقرة: ٢٠٠]، وختم به الصَّلاة بقوله: ﴿فَإِذَا قَضَيۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمۡۚ﴾ [النِّساء: ١٠٣]، وختم به الجمعة بقوله: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠]؛ ولهذا كان خاتمة الحياة الدُّنيا، وإذا كان آخرُ كلام العبد أدخله الله الجنَّة.

- وأمَّا اختصاص الذَّاكرين بالانتفاع بآياته، وهم أولو الألباب والعقول، فكقوله سبحانه: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩١].

- وأمَّا مصاحبته لجميع الأعمال واقترانه بها وأنَّه روحها، فإنَّه سبحانه

قرنه بالصَّلاة كقوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [طه: ١٤]، وقرنه بالصِّيام وبالحجِّ ومناسكه، بل هو روح الحجِّ ولبُّه ومقصوده، كما قال ﷺ: «**إنَّما جُعل الطَّواف بالبيت والسَّعيُ بين الصَّفا والمروة ورميُ الجمار لإقامة ذكر الله**»[(١)]، وقرنه بالجهاد وأمر بذكره عند ملاقاة الأقران، ومكافحة الأعداء، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥].

فهذه وجوهٌ عشرةٌ[(٢)] ورد فيها الذِّكر في القرآن الكريم، وذكر لكلِّ وجه منها بعضُ الأمثلة من الآيات القرآنيَّة. والقرآن الكريم مليءٌ بالآيات المندرجة تحت هذه الأنواع، وهي يسيرة الحصول قريبة المتناول لمَن قرأ القرآن الكريم وتدبَّر آياته.

وما أحسن وأروع ما قاله الإمامُ الشَّوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في سياقٍ آخر وهو ينطبق على سياقنا هذا تمام الانطباق، حيث قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «واعلم أنَّ إيراد الآيات القرآنيَّة على إثبات كلِّ مقصد من هذه المقاصد لا يحتاج إليه مَن يقرأ القرآن العظيم، فإنَّه إذا أخذ المصحف الكريم وقف على ذلك في أيِّ موضع شاء، ومن أيِّ مكان أحبَّ، وفي أيِّ محلٍّ أراد، ووجده مشحونًا به من فاتحته إلى خاتمته». اهـ كلامه[(٣)].

بل إنَّ القرآن الكريم كلَّه كتابُ ذكرٍ لله؛ فذكر الله تعالى هو لبُّ القرآن وروحُه وحقيقته وغايةُ مقصوده، يقول الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ

---

(١) رواه أبو داود (١٨٨٨)، والتِّرمذيُّ (٩٠٢).
(٢) مدارج السَّالكين (٢/ ٣٩٧ - ٣٩٩).
(٣) إرشاد الثِّقات إلى اتِّفاق الشَّرائع على التَّوحيد والمعاد والنُّبوَّات للشَّوكانِيِّ (ص١٠).

لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء: ٩]، وقال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ [ق: ٤٥]، والآيات في هذا المعنى كثيرة.

وقد سمَّى الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ كتابَه العزيز ذكرًا في قوله: ﴿ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾ [الأنبياء: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النَّحل: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ [آل عمران: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ﴾ [الأعراف: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، وقال تعالى: ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ [ص: ١]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصِّلت: ٤١-٤٢]. وفي هذا المعنى آياتٌ كثيرةٌ في القرآن الكريم.

ثمَّ إنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لمَّا أمر بذكره في القرآن وحثَّ عليه ورغَّب فيه في آيٍ كثيرةٍ منه، حذَّر أيضًا من الوقوع في ضدِّه وهو الغفلة، إذ لا يتمُّ الذِّكرُ لله حقيقةً إلَّا بالتَّخلُّص من الغفلة والبعد عنها، وقد جمع الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ بين هذين الأمرين في آية واحدة من القرآن -أعني الأمر بالذِّكر والنَّهي عن الغفلة- وذلك في قوله تعالى من آخر سورة الأعراف: ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

والمراد بقوله في خاتمة الآية ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ أي: من الَّذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم، فإنَّهم حُرِموا خيري الدُّنيا والآخرة، وأعرضوا عمَّن كلُّ السَّعادة والفوز في ذكره وعبوديَّته، وأقبلوا على مَن كلُّ الشَّقاوة والخيبة في

الاشتغال به. وفي الآية أمرٌ بالذِّكر والمواظبة عليه، وتحذيرٌ من الغفلة عنه، وتحذيرٌ من سبيل الغافلين.

والغفلةُ داءٌ خطير إذا اعترى الإنسان وتمكَّن منه لم يشتغل بطاعة الله وذكره وعبادته، بل يشتغل بالأمور الملهية المبعِدة عن ذكر الله، وإن عمِل أعمالًا من الطَّاعة والعبادة فإنَّها تأتي منه على حال سيِّئة ووضع غير حسن، فتكون أعماله عاريةً من الخشوع والخضوع والإنابة والطُّمأنينة والخشية والصِّدق والإخلاص.

ولهذا جاء في القرآن الكريم في مواضع كثيرة منه التَّحذيرُ منها وذمُّها وبيان سوء عاقبتها، وأنَّها من خصال الكافرين وصفات المنافقين المعرِضين؛ يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، ويقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝٧ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [يونس: ٧-٨]، ويقول تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الرُّوم: ٧]، والآيات في هذا المعنى كثيرة.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهو -أي الذِّكر- جِلاء القلوب وصقالها ودواؤها إذا غشِيها اعتلالها، وكلَّما ازداد الذَّاكر في ذكره استغراقًا؛ ازداد المذكور محبَّةً إلى لقائه واشتياقًا، وإذا واطأ في ذكره قلبه للسانه؛ نسي في جنب ذكره كلَّ شيء، وحفِظ الله عليه كلَّ شيء، وكان له عوضًا من كلِّ شيء. به يزول الوقر عن الأسماع والبكم عن الألسن، وتنقشع الظُّلمة عن الأبصار، زيَّن الله به ألسنة الذَّاكرين كما زيَّن بالنُّور أبصار النَّاظرين؛ فاللِّسان الغافل كالعين العمياء والأذن الصَّماء واليد الشَّلَّاء، وهو -أي الذِّكر- باب الله الأعظم المفتوح بينه

وبين عبده، ما لم يغلقه العبد بغفلته، قال الحسن البصريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**تفقَّدوا الحلاوة في ثلاثة أشياء: في الصَّلاة وفي الذِّكر وقراءة القرآن؛ فإن وجدتم وإلَّا فاعلموا أنَّ الباب مغلق**»[(١)]، وبالذِّكر يصرع العبد الشَّيطان كما يصرع الشَّيطان أهل الغفلة والنِّسيان، قال بعض السَّلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إذا تمكَّن الذِّكر من القلب فإنْ دنا منه الشَّيطان صرَعه كما يصرع الإنسان إذا دنا منه الشَّيطان، فيجتمع عليه الشَّياطين فيقولون: ما لهذا؟ فيقال: قد مسَّه الإنسيُّ»، وهو -أي الذِّكر- روح الأعمال الصَّالحة؛ فإذا خلا العمل عن ذكر الله كان كالجسد الَّذي لا روح فيه». اهـ كلام ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)].

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (١٠/ ١٤٦).

(٢) مدارج السَّالكين (٢/ ٣٩٦).

٨
حديث: مثل الَّذِي يذكر ربَّه والَّذِي لا يذكر ربَّه مثل الحيِّ والميِّت

من الأحاديث العظيمة الواردة في فضل الذِّكر حديثُ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لَا يَذْكُرُ رَبَّهُ مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ**» رواه البخاريُّ ومسلم[(١)]، ولَفْظُ مُسْلِم: «**مَثَلُ الْبَيْتِ الَّذِي يُذْكَرُ اللهُ فِيهِ وَالْبَيْتِ الَّذِي لَا يُذْكَرُ اللهُ فِيهِ مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ**».

إنَّ مَثَل الغافل عن ذكر الله مثَلُ الميِّت، وقد تقدَّم معنا أنَّ الذِّكر هو حياة القلوب حقيقةً، فلا حياة لها بدونه، وحاجتها إليه أعظم من حاجة السَّمك إلى الماء؛ فالقلب الذَّاكر هو القلب الحيُّ، والقلب الغافل هو القلب الميِّت. ففي هذا التَّمثيل كما يقول الشَّوكانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «منقبةٌ للذَّاكر جليلةٌ، وفضيلة له نبيلة، وأنَّه بما يقع منه من ذكر الله عَزَّوَجَلَّ في حياةٍ ذاتيَّةٍ وروحيَّةٍ لما يغشاه من الأنوار، ولما يصل إليه من الأجور، كما أنَّ التَّارك للذِّكر وإن كان في حياةٍ ذاتيَّةٍ فليس لها اعتبارٌ بل هو شبيهٌ بالأموات». اهـ كلامه رَحِمَهُ اللَّهُ[(٢)].

لقد جعل النَّبِيُّ الكريمُ ﷺ في هذا الحديث بيت الذَّاكر بمنزلة بيت الحيِّ، وبيت الغافل بمنزلة بيت الميِّت وهو القبر، وفي اللَّفظ الأوَّل جعل الذَّاكر نفسه بمنزلة الحيِّ، والغافل بمنزلة الميِّت؛ فتضمَّن الحديثُ بمجموع

(١) رواه البخاريُّ (٦٤٠٧)، ومسلم (٧٧٩).
(٢) تحفة الذَّاكرين بعدَّة الحصن الحصين من كلام سيِّد المرسلين (ص٢٠).

لفظَيْه: أنَّ القلب الذَّاكر كالحيِّ في بيوت الأحياء، والقلب الغافل كالميِّت في بيوت الأموات، وعلى هذا فإنَّ أبدان الغافلين قبورٌ لقلوبهم، وقلوبهم فيها كالأموات في القبور، ولهذا قيل:

فنسيان ذكر الله موت قلوبهم ... وأجسامهم قبل القبور قبورُ

وأرواحهم في وحشةٍ من جسومهم ... وليس لهم حتَّى النُّشور نشورُ

وقيل أيضًا:

فنسيان ذكر الله موت قلوبهم ... وأجسامهم فهي القبور الدَّوارسُ

وأرواحهم في وحشة من حبيبهم ... ولكنَّها عند الخبيث أوانسُ

ولهذا صحَّ في الحديث عن نبيِّنا ﷺ النَّهيُ عن جعل البيوت قبورًا، أي: لا يصلَّى فيها ولا يذكر الله تعالى فيها، ففي الصَّحيحين من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**اجْعَلُوا مِنْ صَلَاتِكُمْ فِي بُيُوتِكُمْ وَلَا تَتَّخِذُوهَا قُبُورًا**»[(١)]، وروى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ مَقَابِرَ، إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْفِرُ مِنَ الْبَيْتِ الَّذِي تُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ**»[(٢)]، وفي سنن أبي داود وغيره بإسناد حسن من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا، وَلَا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيدًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُ كُنْتُمْ**»[(٣)].

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة: في بيان معنى قوله: «لا تجعلوا بيوتكم

(١) رواه البخاريُّ (٤٣٢)، ومسلم (٧٧٧).

(٢) رواه مسلم (٧٨٠).

(٣) رواه أبو داود (٢٠٤٢).

قبورًا»: «أي لا تُعطِّلوها عن الصَّلاة فيها والدُّعاء والقراءة فتكون بمنزلة القبور؛ فأمر بتحرِّي العبادة في البيوت، ونهى عن تحرِّيها عند القبور، عكس ما يفعله المشركون من النَّصارى ومَن تشبَّه بهم». اهـ كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1].

ومَّا كان القلب بهذه المثابة يوصف بالحياة وضدِّها: انقسمت القلوب بحسب ذلك إلى ثلاثة أقسام:

الأوَّل: القلب السَّليم؛ وهو الَّذِي سلم من أن يكون لغير الله فيه شركٌ بوجهٍ ما، بل قد خلصت عبوديَّته لله؛ إرادةً ومحبَّةً وتوكُّلًا وإنابةً وإخباتًا وخشيةً ورجاءً، وخلُص عملُه لله، فإنْ أحبَّ أحبَّ في الله، وإنْ أبغض أبغض في الله، وإنْ أعطى أعطى لله، وإنْ منع منع لله، ويكون الحاكم عليه في أموره كلِّها هو ما جاء به رسول الله ﷺ، فلا يتقدَّم بين يديه لا بعقيدة ولا قول ولا عمل.

الثَّاني: ضدُّ هذا وهو القلب الميِّت الَّذِي لا حياة به؛ فهو لا يعرف ربَّه ولا يعبده ولا يمتثل أمره ولا يفعل ما يحبُّه ويرضاه، بل هو واقفٌ مع شهواته ولذَّاته ولو كان فيها سخطُ ربِّه وغضبُه، فهو متعبِّدٌ لغير الله حبًّا وخوفًا ورجاءً ورضًا وسخطًا وتعظيمًا وذلًّا، إنْ أحبَّ أحبَّ لهواه، وإنْ أبغض أبغض لهواه، وإنْ أعطى أعطى لهواه، وإنْ منع منع لهواه، فهو آثَرُ عنده وأحبُّ إليه من رضا ربِّه ومولاه، فالهوى إمامه، والشَّهوة قائده، والجهل سائقه، والغفلة مركبه.

الثَّالث: قلب له حياة وبه علَّة؛ فله مادَّتان؛ تُمدُّه هذه مرَّة، وهذه تُمدُّه أخرى، وهو لما غلب عليه منهما، ففيه من محبَّة الله والإيمان به والإخلاصِ له والتَّوكُّل عليه ما هو مادَّة حياته، وفيه من محبَّة الشَّهوات وإيثارها والحرص على تحصيلها ومن الحسد والكِبْر والعجب وحبِّ العُلُوِّ ما هو مادَّة هلاكه وعَطَبِه.

---

(١) اقتضاء الصِّراط المستقيم (٢/ ١٧٢).

فالقلب الأوَّل حيٌّ مخبتٌ ليِّنٌ، والثَّاني يابسٌ ميِّت، والثَّالث مريض فإمَّا إلى السَّلامة أدنى وإمَّا إلى العطب أدنى. وعلى هذا فإنَّ القلب لكي تبقى له حياتُهُ وتزول عنه غفلتُهُ وتتمُّ له استقامتُهُ محتاجٌ إلى ما يحفظ عليه قوَّتَه؛ وهو الإيمان وأوراد الطَّاعات والمحافظة على ذكر الله، والبعدُ عن كلِّ ما يسخطه تَبَارَكَ وَتَعَالَى، ولا سعادة للقلب ولا لذَّة ولا نعيم ولا صلاح إلَّا بأن يكون اللهُ وحده إلهه وفاطره ومعبوده وغاية مطلوبه، وأحبَّ إليه من كلِّ ما سواه، فبهذا تكون نجاة القلب من الغفلة وسلامته من الهلَكة، وبهذا تسري فيه الحياة، والتَّوفيق بيد الله وحده.

وحديث أبي موسى الأشعريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ المتقدِّم له روايتان -كما تقدَّم- الأولى تتعلَّق بالشَّخص نفسه، والثَّانية تتعلَّق بالبيت الَّذي يسكنه؛ أخذ بعض العلماء منه فائدة وهي: أنَّ مَن لا يذكر الله يصبح صدره مقبرة لقلبه، ويكون والحالة إذ قلبه ميِّت مدفون في صدره، وأنَّ حياة القلوب لا تكون إلَّا بالذِّكر، والغفلة عنه موتٌ للقلوب.

وفي الحديث بيان لأهميَّة الذِّكر ومكانته بضرب الأمثال، والأمثال يؤتى بها لتوضيح الأمور، وهي تأتي في القرآن والسُّنَّة كثيرًا، بل في القرآن -كما يقول ابن القيِّم- ما يزيد على الأربعين مثل، والله عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣] ففي الأمثال نفع عظيم وتقريب للأمور وتوضيحٌ للمسائل. والنَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ضرب في هذا الحديث مثلين: مثَل للذَّاكر، ومثَل للغافل؛ فذكر أنَّ مثل الذَّاكر مثل الحيِّ، ومثَل الغافل مثل الميِّت. وهذا فيه أنَّ حياة القلوب حقيقةً إنَّما تكون بذكر الله، فبذكره تحيا القلوب، وبالغفلة عنه تموت.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وصدأ القلب بأمرين: بالغفلة والذَّنب، وجلاؤه

بشيئين: بالاستغفار والذِّكر؛ فمَن كانت الغفلة أغلب أوقاته كان الصَّدأ متراكبًا على قلبه، وصدأه بحسب غفلته، وإذا صدِئ القلب لم تنطبع فيه صور المعلومات على ما هي عليه، فيرى الباطل في صورة الحقِّ، والحقَّ في صورة الباطل؛ لأنَّه لما تراكم عليه الصَّدأ أظلم؛ فلم تظهر فيه صورة الحقائق كما هي عليه، فإذا تراكم عليه الصَّدأ واسودَّ وركبه الرَّان فسد تصوُّره وإدراكه، فلا يقبَل حقًّا ولا ينكر باطلًا، وهذا أعظم عقوبات القلب.

وأصل ذلك من الغفلة واتِّباع الهوى فإنَّهما يطمسان نور القلب ويُعميان بصره، قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]، فإذا أراد العبد أن يقتدي برجل فلينظر؛ هل هو من أهل الذِّكر أو من الغافلين؟ وهل الحاكم عليه الهوى أو الوحي؟ فإن كان الحاكم عليه هو الهوى وهو من أهل الغفلة وأمْره فرطًا لم يقتدِ به ولم يتبعه فإنَّه يقوده إلى الهلاك.

۞ ومعنى الفُرُط:

* قد فُسِّر بالتَّضييع؛ أي أمره الَّذِي يجب أن يلزمه ويقوم به وبه رشده وفلاحه؛ ضائعٌ قد فرَّط فيه.

* وفُسِّر بالإسراف؛ أي قد أفرط.

* وفُسِّر بالإهلاك.

* وفُسِّر بالخلاف للحقِّ.

وكلُّها أقوال متقاربة، والمقصود: أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نهى عن طاعة مَن جمع هذه الصِّفات، فينبغي للرَّجل أن ينظر في شيخه وقدوته ومتبوعه؛ فإن وجده كذلك فليُبعد منه، وإن وجده ممَّن غلب عليه ذكر الله عَزَّوَجَلَّ واتِّباع السُّنَّة

وأمره غير مفروط عليه بل هو حازم في أمره فليستمسك بغرزه، ولا فرق بين الحيِّ والميِّت إلَّا بالذِّكر، فمثل الَّذِي يذكر ربَّه والَّذِي لا يذكر ربَّه كمثل الحيِّ والميِّت». اهـ كلام ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١].

ولهذا ينبغي أن يكون هناك تعاوُن في البيوت على أن تُعمَر بذِكْر الله، ويُنشَّأ الصِّغار وأهل البيت على العناية بذِكْر الله؛ ولا سيَّما أذكار الصَّباح والمساء، فإنَّها أكثر الأذكار وأوسعها ورودًا في السُّنَّة.

ولهذا كان متأكِّدًا علينا أن نُعنَى بالأذكار عمومًا، وبأذكار الصَّباح والمساء على وجه الخصوص، وكذلك أذكار أدبار الصَّلوات، والأذكار الَّتِي تُقال عند النَّوم؛ فكلُّ ذلك مِمَّا يجدُر بالمسلم في خاصَّة نفسه وفِيمن يعُول أن يُعنى بها عنايةً كبيرة؛ لتكون له حِصنًا حصينًا وحِرْزًا متينًا من الشَّيطان الرَّجيم، ولتدبَّ الحياة الحقيقيَّة في البيوت.

فيُستحبُّ له البسملة عند الدُّخول، وإذا دخل يجتهدُ في الإكثار من ذكر الله في بيته، فإذا عمر البيت بذكر الله دبَّت فيه الحياة وهربت منه الشَّياطين وعمر بالخير والصَّلاح والاستقامة والتَّعاون والتَّرابط والألفة والمحبَّة وظهر فيه أنواع البِرِّ؛ وصار يتنامى بالخير ويحيا حياة طيِّبة، بينما إذا كان البيت في غفلةٍ عن ذكر الله يموت وتكثر فيه الصِّفات الذَّميمة والأعمال الرَّديئة، وينشأ فيه التَّباغض والتَّشاحن والتَّحاسد إلى غير ذلك من الصِّفات الذَّميمة. فذكر الله عَزَّوَجَلَّ حصن البيوت وأمانها وطمأنينتها ومرتكز سعادتها ومدار فلاحها ونجاحها.

---

(١) الوابل الصَّيِّب (ص٤٠).

٩
حديث: لا يقعد قوم يذكرون الله عَزَّوَجَلَّ إلَّا حفَّتهم الملائكة

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَأَبِي سَعِيدٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أَنَّهُما شَهِدَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**لَا يَقْعُدُ قَوْمٌ يَذْكُرُونَ اللهَ إِلَّا حَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَنَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ**». رواه مسلم(١).

وروى مسلمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ، وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ**»(٢).

جاء هذا الحديث في بعض رواياته مقيَّدًا بأن يكون هذا الذِّكر في بيتٍ من بيوت الله، وفي بعضها مُطلقا دون تقييد؛ فأفاد ذلك أنَّ الجلوس لذكر الله وتعلُّم العلم سواء كان في بيتٍ من بيوت الله أو في أيِّ مكانٍ آخر ينال العبد به هذا الفضل، لكن ما من شكٍّ أنَّ كون ذلك في المسجد أكمل وأعظم وأعلى شأنًا وأرفع منزلةً، لكن يُرجى لمَن حصل منه ذلك في غير المسجد أن ينال هذه الفضيلة، كما يدلُّ لذلك هذه الرِّواية الَّتي جاءت مطلقة غير مقيَّدة بالمسجد. قال النَّوويُّ رَحِمَهُٱللَّهُ: «وَيُلْحَق بِالْمَسْجِدِ فِي تَحْصِيل هَذِهِ الْفَضِيلَة الِاجْتِمَاع فِي

---

(١) رواه مسلم (٢٧٠٠).
(٢) رواه مسلم (٢٦٩٩).

مَدْرَسَة وَرِبَاط وَنَحْوهمَا إِنْ شَاءَ الله تَعَالَى، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ الْحَدِيث الَّذِي بَعْده فَإِنَّهُ مُطْلَق يَتَنَاوَل جَمِيع الْمَوَاضِع، وَيَكُون التَّقْيِيد فِي الْحَدِيث الْأَوَّل خَرَجَ عَلَى الْغَالِب، لَا سِيَّمَا فِي ذَلِكَ الزَّمَان، فَلَا يَكُون لَهُ مَفْهُوم يُعْمَل بِهِ». اهـ[١].

وفي الحديث الأوَّل قال: «لَا يَقْعُدُ قَوْمٌ يَذْكُرُونَ اللهَ»، وفي الثَّاني قال: «يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ»؛ إذا جُمع بين اللَّفظتين أفاد فائدة مهمَّة عظيمة وهي: أنَّ ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا ينحصر في التَّسبيح والتَّحميد والتَّهليل والتَّكبير! بل الجلوس للعلم، ومدارسة القرآن والسُّنَّة، والتَّفقُّه في الدِّين، وتعليم شرع الله إخبارًا عنه سبحانه بأنَّه أمر بكذا أو نهى عن كذا، وأحبَّ كذا، وسخط كذا، ورضي كذا؛ فكلُّ هذا من ذكر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

وفي الحديث قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِذَا مَرَرْتُمْ بِرِيَاضِ الْجَنَّةِ فَارْتَعُوا» قالوا: وما رياض الجنَّة؟ قال: «حِلَقِ الذِّكْرِ»[٢]، والمراد بحلق الذِّكر: أي مجالس العلم؛ مجالس الحلال والحرام، وبيان الأحكام، وبيان شرع الله جَلَّ وَعَلَا. ولهذا فإنَّ مجالس العلم الَّتِي يُبيَّن فيها الحلال والحرام، وتوضَّح فيها الأحكام مجالس ذكرٍ لله. قال عطاء الخرسانِيُّ: «مجالس الذِّكر مجالس الحلال والحرام، كيف تشتري وتبيع، وتصلِّي وتصوم، وتنكح وتطلِّق وتحجُّ وأشباه هذا»[٣]. وكان أحد السَّلف وهو أبو السُّوَار العدويُّ في حلقة يتذاكرون العلم ومعهم فتى شاب، فقال لهم: قولوا: سبحان الله والحمد لله، فغضب أبو السُّوار وقال: «ويحك في أيِّ شيء كنَّا إذًا»[٤].

(١) شرح مسلم للنَّوويِّ (١٧/ ٢٢).
(٢) رواه التِّرمذيُّ (٣٥١٠)، وحسَّنه الألبانِيُّ.
(٣) رواه أبو زرعة في تاريخه (ص٣٥٩).
(٤) رواه أحمد في الزُّهد (١٨٤٤).

الحاصل أنَّ مجالس الذِّكر ليست مختصَّة بالمجالس الَّتِي يُذكر فيها اسم الرَّبِّ بالتَّسبيح والتَّحميد والتَّكبير ونحو ذلك، بل هي شاملةٌ للمجالس الَّتِي يُذكر فيها أمره ونهيه وحلاله وحرامه، وما يحبُّه ويرضاه، وما يكرهه ويأباه، بل ربَّما كان هذا الذِّكر أنفع من ذلك.

قوله: «**إِلَّا حَفَّتْهُمُ المَلَائِكَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَنَزَلَتْ عليهم السَّكِينَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَن عِنْدَهُ**»؛ عدَّد -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ- أربعة فضائل عظيمة تُنال في مجالس الذِّكر، كلُّ واحدة منها من أعظم ما يكون، ينالها العبد ويحظى بها إذا جلس في مجلس ذكرٍ لله تعالى.

الأولى: «**حَفَّتْهُمُ المَلَائِكَةُ**»، أي: تحفُّهم ملائكة الرَّحمة بأجنحتها كما جاء في الحديث الآخر: «**مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الجَنَّةِ، وَإِنَّ المَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ رِضًا بِمَا يَصْنَعُ**»[١]، فالملائكة تحفُّ طالب العلم من حين يخرج من بيته قاصدًا مكان العلم لطلبه، وتحفُّه وهو في مجلس العلم. هذا وإن لم نر الملائكة يحفُّون مجالس العلم بأجنحتهم إلَّا أنَّا نؤمن بذلك إيمانًا جازمًا لا شكَّ فيه ولا ريب؛ لأنَّ هذا الخبر جاءنا عن الصَّادق المصدوق صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ.

قوله: «**وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ**»، أي: تغشاهم رحمة الله عَزَّوَجَلَّ وتنزل عليهم، وهذا يدلُّ على أنَّ من أعظم الأمور الَّتِي تُطلب بها الرَّحمة وتُنال بها: الجلوسَ في مجالس العلم وحِلق الذِّكر الَّتِي تحيا بها القلوب، ويقوى بها الإيمان، ويزيد بها اليقين، وتعظم بها الصِّلة بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

قوله: «**وَنَزَلَتْ عليهم السَّكِينَةُ**»، أي: يحصل لهم في مجالس العلم ومجالس الذِّكر طمأنينة في القلوب، وكثيرًا ما يتحدَّث النَّاس بهذا؛ تجد

---

(١) رواه أبو داود (٣٦٤١)، والتِّرمذيُّ (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣)، وصحَّحه الألبانِيُّ.

أحدهم يقول: «عندي من الهمِّ والقلق والمشاكل الشَّيء العظيم! فإذا دخلت المسجد وجلست في حلقة العلم أشعر بلذَّة وطمأنينة وسكون، وكأن ما عندي أصلًا قلق»، وهذا كلُّه من الفضائل المباركة الَّتِي ينالها العبد في مجالس العلم. بينما مجالس الغفلة كالغيبة والنَّميمة ونحو ذلك من المجالس السَّيِّئة إذا قام منها العبد يقوم منها بوحشة في قلبه، وقلق، واضطراب، وضيق صدر. والعاقل إذا وازن بين هذه الخيرات العظيمة الَّتِي تُنال في مجالس الذِّكر وتلك الأضرار الَّتِي تترتَّب على مجالس الغفلة؛ فإنَّه لا يبغي بدلًا عن مجالس الذِّكر؛ مجالس العلم والإيمان، بل سيكون حرصه عليها أشدَّ ما يكون.

قوله: «**وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَن عِنْدَهُ**»، أي: ذكرهم الله في الملأ الأعلى، وفي الحديث يقول الله عَزَّوَجَلَّ: «**فَإن ذَكَرَني في نَفْسِهِ، ذَكَرْتُهُ في نَفسِي، ومن ذَكَرَني في مَلإٍ، ذكَرتُهُ في مَلإٍ خَيرٍ منْهُمْ**». متَّفق عليه[(١)]، وروى مسلم عَنْ أَبِى سَعِيدٍ الْخُدْرِىِّ قَالَ خَرَجَ مُعَاوِيَةُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عَلَى حَلْقَةٍ فِى الْمَسْجِدِ فَقَالَ مَا أَجْلَسَكُمْ؟ قَالُوا جَلَسْنَا نَذْكُرُ اللهَ، قَالَ: آللهِ مَا أَجْلَسَكُمْ إِلَّا ذَاكَ؟ قَالُوا وَاللهِ مَا أَجْلَسَنَا إِلَّا ذَاكَ. قَالَ أَمَا إِنِي لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تُهْمَةً لَكُمْ، وَمَا كَانَ أَحَدٌ بِمَنْزِلَتِي مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَقَلَّ عَنْهُ حَدِيثًا مِنِّي، وَإِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ خَرَجَ عَلَى حَلْقَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ: «**مَا أَجْلَسَكُمْ؟**» قَالُوا: «**جَلَسْنَا نَذْكُرُ اللهَ وَنَحْمَدُهُ عَلَى مَا هَدَانَا لِلإِسْلَامِ وَمَنَّ بِهِ عَلَيْنَا**» قَالَ: «**آللهِ مَا أَجْلَسَكُمْ إِلَّا ذَاكَ؟**» قَالُوا: «**وَاللهِ مَا أَجْلَسَنَا إِلَّا ذَاكَ**»، **قَالَ**: «**أَمَا إِنِّي لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تُهْمَةً لَكُمْ وَلَكِنَّهُ أَتَانِي جِبْرِيلُ فَأَخْبَرَنِي أَنَّ اللهَ** عَزَّوَجَلَّ **يُبَاهِي بِكُمُ الْمَلَائِكَةَ**»[(٢)].

وممَّا ورد في فضل الذِّكر ما رواه مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ:

(١) رواه البخاريُّ (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥).
(٢) رواه مسلم (٢٧٠١).

«كَانَ رَسُولُ الله يَسِيرُ فِي طَرِيقِ مَكَّةَ فَمَرَّ عَلَى جَبَلٍ يُقالُ لَهُ «جُمْدَانُ» فَقَالَ: «**سِيرُوا؛ هَذَا جُمْدَانُ، سَبَقَ الْمُفَرِّدُونَ**». قالُوا: وَمَا الْمُفَرِّدُونَ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: «**الذَّاكِرُونَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتُ**»[(١)]، أي: إنَّ المُفرِّدين هم أهل السَّبق، وكأنَّ الحديث يُصوِّر العاملين في ميدان سباق يتسابقون ويتنافسون في هذا الميدان، ويُبيِّن أنَّ أسبقهم في هذا الميدان المفرِّدون، فهم أهل السَّبق في ميدان التَّنافس في طاعة الله، قال الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: «وما المفرِّدون يا رسول الله؟» أي: ما صفتهم وما هي أعمالهم؟ قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**الذَّاكِرُونَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَات**»؛ فالحديث يدلُّ على فضل الذِّكر، وأنَّ أهل العناية به وأهل الرِّعاية له هم أهل السَّبق في ميدان التَّسابق في التَّقرُّب إلى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى بالأعمال الصَّالحة.

فمن فوائد الذِّكر العظيمة كما يقول ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «أنَّ الذِّكر يسيِّر العبد وهو في فراشه وفي سوقه وفي حال صحَّته وسقمه وفي حال نعيمه ولذَّته، وليس شيء يعمُّ الأوقات والأحوال مثله، حتَّى يسيِّر العبد وهو نائم على فراشه فيسبق القائم مع الغفلة، فيصبح هذا وقد قطع الرَّكب وهو مستلقٍ على فراشه، ويصبح ذلك الغافل في ساقة الرَّكب، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء»[(٢)].

وإذا كان السَّائرون إلى الله بالأعمال المتنوِّعة يزدادون بأعمالهم الصَّالحة قربًا من الله عَزَّوَجَلَّ فإنَّ الذَّاكر لله بالكثرة هو السَّبَّاق في هذا المضمار وله السَّبق في هذا الميدان؛ لعلوِّ شأن الذِّكر وعظيم شأنه ومحبَّة الله للذَّاكرين الله والذَّاكرات، ولأنَّه ليس في الأعمال شيء يعمُّ الأوقات والأحوال مثله،

---

(١) رواه مسلم (٢٦٧٦).

(٢) الوابل الصَّيِّب (ص٤٩).

فالذِّكر مع المرء في جلوسه وفي سفره وفي حِلِّه وترحاله وفي مرضه وفي ضرَّائه وسرَّائه وفي شِدَّته ورخائه وفي كلِّ أحواله.

وقد سئل شيخ الإسلام ابن تيميَّة: عن أفضل الأعمال بعد الفرائض؟ فأجاب بأنَّه «يختلف باختلاف النَّاس فيما يقدرون عليه وما يناسب أوقاتهم، فلا يمكن فيه جوابٌ جامع مفصَّل لكلِّ أحد، لكن ممَّا هو كالإجماع بين العلماء بالله وأمره؛ أنَّ ملازمة ذكر الله دائمًا هو أفضل ما شغل العبد به نفسه في الجملة، وعلى ذلك دلَّ حديث أبي هريرة الَّذِي رواه مسلم «سَبَقَ المفرِّدون، قالوا: يا رسولَ اللهِ ومن المفرِّدون؟ قال الذَّاكرون الله كثيرًا والذَّاكرات»[(١)]، وفيما رواه أبو داود عن أبي الدَّرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ وَأَرْضَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ، وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ، وَخَيْرٍ لَكُمْ مِنْ إِعْطَاءِ الذَّهَبِ وَالْوَرِقِ، وَمِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ، وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ؟» قَالُوا: وَمَا ذَاكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «ذِكْرُ اللهِ»[(٢)]. والدَّلائل القرآنيَّة والإيمانيَّة بصرًا وخبرًا ونظرًا على ذلك كثيرة، وأقلُّ ذلك أن يلازم العبد الأذكار المأثورة عن معلِّم الخير وإمام المتَّقين ﷺ؛ كالأذكار المؤقَّتة في أوَّل النَّهار وآخره، وعند أخذ المضجع، وعند الاستيقاظ من المنام، وأدبار الصَّلوات، والأذكار المقيَّدة، مثل: ما يقال عند الأكل، والشُّرب، واللِّباس، والجماع، ودخول المنزل والمسجد والخلاء والخروج من ذلك، وعند المطر والرَّعد إلى غير ذلك، وقد صُنِّفت له الكتب المسمَّاة بعمل اليوم واللَّيلة». اهـ[(٣)].

---

(١) رواه مسلم (٢٦٧٦).
(٢) رواه التِّرمذيُّ (٣٣٧٧)، وابن ماجه (٣٧٩٠)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٣) مجموع الفتاوى (١٠/ ٦٦٠).

١٠
حديث: إنَّ لله ملائكة يطوفون في الطُّرق يلتمسون أهل الذِّكر

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ لِلَّهِ مَلَائِكَةً يَطُوفُونَ فِي الطُّرُقِ يَلْتَمِسُونَ أَهْلَ الذِّكْرِ، فَإِذَا وَجَدُوا قَوْمًا يَذْكُرُونَ اللهَ تَنَادَوْا هَلُمُّوا إِلَى حَاجَتِكُمْ، قَالَ فَيَحُفُّونَهُمْ بِأَجْنِحَتِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، قَالَ فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ -وَهُوَ أَعْلَمُ مِنْهُمْ- مَا يَقُولُ عِبَادِي؟ قَالُوا يَقُولُونَ: يُسَبِّحُونَكَ وَيُكَبِّرُونَكَ وَيَحْمَدُونَكَ وَيُمَجِّدُونَكَ، قَالَ فَيَقُولُ: هَلْ رَأَوْنِي؟ قَالَ فَيَقُولُونَ: لَا وَاللهِ مَا رَأَوْكَ، قَالَ فَيَقُولُ: وَكَيْفَ لَوْ رَأَوْنِي؟ قَالَ يَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْكَ كَانُوا أَشَدَّ لَكَ عِبَادَةً وَأَشَدَّ لَكَ تَمْجِيدًا وَتَحْمِيدًا وَأَكْثَرَ لَكَ تَسْبِيحًا، قَالَ يَقُولُ: فَمَا يَسْأَلُونِي؟ قَالَ: يَسْأَلُونَكَ الْجَنَّةَ، قَالَ يَقُولُ: وَهَلْ رَأَوْهَا؟ قَالَ يَقُولُونَ لَا وَاللهِ يَا رَبِّ مَا رَأَوْهَا، قَالَ يَقُولُ: فَكَيْفَ لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْهَا؟ قَالَ يَقُولُونَ: لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ عَلَيْهَا حِرْصًا وَأَشَدَّ لَهَا طَلَبًا وَأَعْظَمَ فِيهَا رَغْبَةً، قَالَ: فَمِمَّ يَتَعَوَّذُونَ قَالَ يَقُولُونَ: مِنْ النَّارِ، قَالَ يَقُولُ: وَهَلْ رَأَوْهَا؟ قَالَ يَقُولُون: لَا وَاللهِ يَا رَبِّ مَا رَأَوْهَا، قَالَ يَقُولُ: فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْهَا؟ قَالَ يَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ مِنْهَا فِرَارًا وَأَشَدَّ لَهَا مَخَافَةً، قَالَ فَيَقُولُ: فَأُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ، قَالَ يَقُولُ مَلَكٌ مِنْ الْمَلَائِكَةِ: فِيهِمْ فُلَانٌ لَيْسَ مِنْهُمْ إِنَّمَا جَاءَ لِحَاجَةٍ قَالَ هُمْ الْجُلَسَاءُ لَا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ». متَّفق عليه[١].

(١) رواه البخاريُّ (٦٤٠٨)، ومسلم (٢٦٨٩).

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مجالس الذِّكر مجالس ملائكة، فليس من مجالس الدُّنيا لهم مجلس إلَّا مجلس يذكر الله تعالى فيه، ثمَّ ساق حديث أبي هريرة المتقدِّم ثمَّ قال: فهذا من بركتهم على نفوسهم وعلى جليسهم فلهم نصيب من قوله سبحانه ﴿وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم: ٣١]، فهكذا المؤمن مباركٌ أين حلَّ، والفاجر مشؤومٌ أين حلَّ؛ فمجالس الذِّكر مجالس الملائكة، ومجالس الغفلة مجالس الشَّياطين، وكلٌّ مضافٌ إلى شكله وأشباهه، وكلُّ امرئ يصير إلى ما يناسبه». اهـ[1].

فليختر العبدُ أعجب المجلسين إليه وأولاهما به، والذَّاكر يسعد به جليسه، بخلاف الغافل واللَّاغي فإنَّه يشقى به جليسه ويتضرَّر.

وقد أفاد حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنَّ لله عَزَّ وَجَلَّ ملائكةً زائدين على الملائكة الَّذين يكتبون الأعمال؛ يجوبون الطُّرقات يلتمسون مجالس الذِّكر بحثًا عنها وحرصًا عليها، فإذا ظفِروا بشيء من تلك المجالس قالوا: هلمُّوا إلى حاجتكم -وفي رواية بغيتكم- أي: مطلوبكم ومرغوبكم؛ أي: ما تطلبون من استماع الذِّكر وزيارة الذَّاكر، فإنَّا قد وجدنا جماعة من أهل الذِّكر، ثمَّ يحفُّون أهل هذا المجلس بأجنحتهم، وعند مسلم «**فَإِذَا وَجَدُوا مَجْلِسًا فِيهِ ذِكْرٌ قَعَدُوا مَعَهُمْ وَحَفَّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِأَجْنِحَتِهِمْ حَتَّى يَمْلَئُوا مَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا**». ومَن كانوا في مجلس الذِّكر لا يرون هؤلاء الملائكة، وهم وإن لم يروهم إلَّا أنَّهم من وجودهم وقيامهم بهذا العمل على يقين؛ لأنَّ الَّذي أخبر بذلك الصَّادق المصدوق عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

قال «فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ -وَهُوَ أَعْلَمُ مِنْهُمْ- مَا يَقُولُ عِبَادِي؟»؛ فيذكرون عنهم اشتغالهم بذكر الله وتمجيده وتعظيمه وطلب الجنَّة والبحث عن أسبابها

---

(١) الوابل الصَّيِّب (ص٧٣).

وسؤال الله عَزَّوَجَلَّ أن ييسِّرها واستعاذتهم من النَّار؛ فهم مجتمعون على هذه الأصول الثَّلاثة العظيمة الَّتي مردُّها إلى المحبَّة والرَّجاء والخوف، وتسمَّى «أركان التَّعبُّد»؛ فيستفاد من هذا الحديث: أهميَّة تنمية هذه الأركان الثَّلاثة في القلب واتِّخاذ الأسباب الَّتي تقوِّيها، ومن أفضل ذلك عقد مجالس العلم لها.

ثمَّ في تمامه يقول الرَّبُّ سبحانه: «**فَأُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ**»؛ أي: لأهل هذا المجلس، فيقول ملك من الملائكة: «**فِيهِمْ فُلَانٌ لَيْسَ مِنْهُمْ**»، أي: ليس من أهل هذا المجلس و«**إِنَّمَا جَاءَ لِحَاجَةٍ**»، فيقول الله عَزَّوَجَلَّ: «**هُمُ الْجُلَسَاءُ لَا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ**»؛ قال ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وفي هذه العبارة مبالغة في نفي الشَّقاء عن جليس الذَّاكرين، فلو قيل: «لسعد بهم جليسهم» لكان ذلك في غاية الفضل، لكن التَّصريح بنفي الشَّقاء أبلغ في حصول المقصود»[(١)].

وهذا فيه أهميَّة جلوس المرء في مجالس الذِّكر؛ حتَّى ولو لم يكن من أهلها بهمَّة طلاب العلم المعروفة تقييدًا وتدوينًا وضبطًا وإتقانًا؛ لأنَّ الجلوس نفسه له أثر عظيم.

وفيه فائدة أيضًا أنَّ مجالس العلم والدَّعوة والتَّفقيه في دين الله تكتنفها البركة وتعمُّها، وقد تقدَّم في الحديث «**وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ**»[(٢)].

وقول ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فمجالس الذِّكر مجالس الملائكة، ومجالس الغفلة مجالس الشَّياطين، وكلٌّ مضاف إلى شكله وأشباهه، وكلُّ امرئ يصير

(١) فتح الباري (١١/ ٢١٣).
(٢) رواه مسلم (٢٦٩٩).

إلى ما يناسبه»[١]. فيه وعظ وإيقاظ للقلوب وتنبيه للغافل، لهذا ينبغي على المرء أن يتفقَّد نفسه و ينظر في حاله ومجالسه وهل نفسه ميَّالة لمجالس الذِّكر؟ أو أنَّ نفسه منقبضة وغير راغبة ولا ميَّالة إليها؟ بل ميَّالة إلى مجالس اللَّهو، فليعلم أنَّ كلَّ امرئ يصبو إلى ما يناسبه، فليحاسب نفسه وليجاهدها على الخلاص من هذا البلاء.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وفي الحديث فضل مجالس الذِّكر والذَّاكرين وفضل الاجتماع على ذلك، وأنَّ جليسهم يندرج معهم في جميع ما يتفضَّل الله تعالى به عليهم إكرامًا لهم ولو لم يشاركهم في أصل الذِّكر. وفيه محبَّة الملائكة بني آدم واعتناؤهم بهم. وفيه أنَّ السُّؤال قد يصدر من السَّائل وهو أعلم بالمسئول عنه من المسئول؛ لإظهار العناية بالمسؤول عنه والتَّنويه بقدره والإعلان بشرف منزلته»[٢].

وممَّا ورد في فضل الذِّكر في سُنَّة النَّبيِّ ﷺ ما رواه التِّرمذيُّ وغيره عَنْ عَبْدِ الله بْنِ بُسْرٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلًا قالَ: «**يَا رَسُولَ الله إِنَّ شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ قَدْ كَثُرَتْ عَلَيَّ، فَأَخْبِرْنِي بِشَيْءٍ أَتَشَبَّثُ بِهِ**»، قَالَ: «**لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ الله**»[٣]، أي: أمور الإسلام وأعمال الشَّرع قد كثُرتْ عليَّ؛ كالصَّلاة، والزَّكاة، والصِّيام والحجِّ، ونحوها من الطَّاعات، فلم أقدر الوفاء بأمور الشَّرع كما هو حقُّها، ولا أقدر على المواظبة والمداومة عليها، فَأَخْبِرْنِي بِشَيْءٍ أَتَشَبَّثُ بِهِ، أي: أتمسَّك به.

---

(١) الوابل الصَّيِّب (ص٧٣).
(٢) فتح الباري (١١/ ٢١٣).
(٣) رواه أحمد في المسند (١٧٦٨٠)، والتِّرمذيُّ (٣٣٧٥)، وابن ماجه (٣٧٩٣)، وصحَّحه الألبانِيُّ.

وهذا الشَّيء الَّذِي طلب هذا الرَّجل أن يدلَّه النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عليه ليتشبَّث به لم يطلبه من أجل أن يتفلَّت به من أعمال الشَّريعة ويتنصَّل من أعمال الإسلام، فليس هذا مُراده ولا يمكن أن يكون هذا مطلُوبه، لا يمكن أن يكون جاء إلى النَّبِيِّ ﷺ يطلب منه عملًا يتنصَّل به من أعمال الشَّريعة وأعمال الدِّين، وإنَّما أراد شيئًا يتمسَّك به فيكون سببًا لسهولة هذه الأعمال عليه ويُسرها، وألَّا تكون ثقيلة عليه، وأن يخفَّ عليه القيام بها ويسهُل، وهذا فيه دليل على رغبة الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في الخير وحرصهم عليه وشِدَّة عنايتهم به.

فهذا السائل راغبٌ في الخير وراغبٌ في شرائع الدِّين ولكن وجد أنَّها قد كثرت عليه وتنوَّعت وتعدَّدت فيريد أمرًا عظيمًا جامعًا يتشبَّث به، أي: يتمسَّك به وتزيد عنايته به على غيره ويكون عونًا له على القيام بالشَّرائع؛ فأرشده النَّبِيُّ ﷺ إلى ذكر الله، قال: «**لا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى**»، فأخذ أهل العلم من ذلك فضيلة عظيمة للذِّكر ألا وهي: أنَّ ذكر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى يُخفِّف الأعمال ويُيسِّر أمر القيام بشرائع الإسلام وأمور الدِّين؛ فتلين للذَّاكر وتسهل ولا تكون ثقيلة عليه، وإنَّما تَثقل على العبد إذا يبُس لِسانه عن ذكر الله وغفل قلبه عن ذلك؛ فإذا نُودي للصَّلاة تكون هذه المناداة من أثقل ما يكون على قلبه، وإذا نُودي إلى طاعات أخرى تكون ثقيلة عليه، لكن إذا اعتنى بذكر الله وكان كثير الذِّكر لله وتحرَّك لسانه وقلبه بذكر الله لانت له الطَّاعات وخفَّت وأصبحت يسيرة، ولم يُصبح لها الثِّقل الَّذِي كان يجده في قلبه عندما يُنادى للطَّاعة بل يذهب ويتلاشى.

قال ابن سِعديٍّ في أبياته في فضائل الذكر:

وأوصى لشـخصٍ قد أتـى لنصيحةٍ ... وقد كان في حمْل الشَّرائِعِ يَجْهَدُ

بـأنْ لا يـزالَ رطبًـا لسـانُك هـذه تُعيـنُ علـى كلِّ الأمـورِ وتُسـعِدُ

فقول النَّبيِّ ﷺ لهذا الرَّجل «لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللهِ»؛ فيه دلالة على اللُّيونة والتَّيسير الَّذِي يحصُل بسبب عناية العبد بالذِّكر ومواظبته عليه وإكثاره منه فيُصبح لسانه رطبًا من ذكر الله، وهذه الرُّطوبة تدلُّ على لُيونةٍ في إقباله على الطَّاعات والعبادات وأنواع الشَّرائع الَّتِي يؤمر بها.

قال: «**لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللهِ**»، وهذه الرُّطوبة تدلُّ على التَّيسير والسُّهولة واللِّين وزوال الجفاف الَّذِي كان عنده، وزوال الغِلظة وزوال قسوة القلب، والقلب إذا قسى لا يميل للطَّاعات، وقد جاء في الأثر أنَّ رجلًا جاء إلى الحسن البصريِّ: وقال: أشكو إليك قسوة قلبي قال: «**أذِبْهُ بذكر الله**»[1]، فذكر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يُليِّن القلب ويُرطب اللِّسان، فإذا حصل لِين القلب ورطوبة اللِّسان ذهب عن الإنسان الثِّقل وأصبح مكانه ليونة؛ فتلين له الطَّاعات وتتيسَّر له العبادة، وينشرح صدره إليها ويأنس بالقيام بها، وتكون العبادة قرَّة عين له، فذكر الله عَزَّوَجَلَّ هو الَّذِي يُليِّن العسير ويُسهِّل الصِّعاب، ويُقوِّي العزائم وتنهض به الهِمَم، ويُقبل بالعبد على طاعة الله.

فهذه كلُّها ثمار لذكر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وفرق بين مَن يقول «**أرِحنا بالصَّلاة**» ومن يقول «**أرِحنا من الصَّلاة**»، بعض النَّاس يُصلِّي ولكنَّه يملُّ من الصَّلاة ويتضايق ويجدها ثقيلة على قلبه، وآخر يُصلِّي وهو يجد الصَّلاة راحة له وقرَّة عين.

وقد روى ابنُ أبي الدُّنيا -كما في التَّرغيب والتَّرهيب للمنذريِّ، وقال:

---

(١) رواه بهذا اللَّفظ ابن الجوزيِّ في ذمِّ الهوى (ص٦٩)، ورواه أحمد في الزُّهد (١٥١٠)، وابن أبي الدُّنيا في الرِّقة والبكاء (٤٨)، والخرائطي في اعتلال القلوب (٥٣)، بلفظ: «أَذْنِهِ مِنَ الذِّكْرِ».

إسناده حسن- عن الأعمش عن سالم بن أبي الجعد قال: قيل لأبي الدَّرداء: إنَّ رجلًا أعتق مائة نسَمة قال: «إنَّ مائة نسَمة من مال رجل كثيرٌ، وأفضلُ من ذلك إيمانٌ ملزومٌ باللَّيل والنَّهار، وأن لا يزال لسانُ أحدكم رطبًا من ذكر الله»[١].

---

(١) رواه الضَّبيُّ في الدُّعاء (٩١)، وابن أبي شيبة في المصنَّف (٢٩٤٦٤). وانظر: التَّرغيب والتَّرهيب (٨٩٦).

١١
فضل الذكر ومجالسه

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: خَرَجَ مُعَاوِيَةُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عَلَى حَلْقَةٍ فِي الْمَسْجِدِ، فَقَالَ: مَا أَجْلَسَكُمْ؟ قَالُوا: جَلَسْنَا نَذْكُرُ اللهَ، قَالَ: آللهِ مَا أَجْلَسَكُمْ إِلَّا ذَاكَ؟ قَالُوا: وَ اللهِ مَا أَجْلَسَنَا إِلَّا ذَاكَ، قَالَ: أَمَا إِنِّي لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تُهْمَةً لَكُمْ، وَمَا كَانَ أَحَدٌ بِمَنْزِلَتِي مِنْ رَسُول الله ﷺ أَقَلَّ عَنْهُ حَدِيثًا مِنِّي، وَإِنَّ رَسُولَ الله ﷺ خَرَجَ عَلَى حَلْقَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ: «**مَا أَجْلَسَكُمْ؟**» قَالُوا: جَلَسْنَا نَذْكُرُ اللهَ وَنَحْمَدُهُ عَلَى مَا هَدَانَا لِلْإِسْلَامِ وَمَنَّ بِهِ عَلَيْنَا، قَالَ: «**آللهِ مَا أَجْلَسَكُمْ إِلَّا ذَاكَ؟**» قَالُوا: وَالله مَا أَجْلَسَنَا إِلَّا ذَاكَ، قَالَ: «**أَمَا إِنِّي لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تُهْمَةً لَكُمْ، وَلَكِنَّهُ أَتَانِي جِبْرِيلُ فَأَخْبَرَنِي أَنَّ اللهَ يُبَاهِي بِكُمُ الْمَلَائِكَةَ**». رواه مسلم(١). قوله: «**تُهْمَةً لَكُمْ**»، أي: شَكًّا في صِدْقِكم.

هذا من عاجل بشرى الذَّاكر أن يحظى بهذه المنزلة العظيمة؛ أن يذكره الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ في الملأ الأعلى، الكرام الأطهار البررة ملائكة الله. وهذه المباهاة من الرَّبِّ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ دليلٌ على شرف الذِّكر عنده ومحبَّته له، وأنَّ للذِّكر مزيَّةً على غيره من الأعمال، وأيضًا دليل على مغفرة الله لهم، وقد تقدَّم في الحديث «**أُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ**»، فمباهاته سبحانه دليلٌ على الرِّضا والغفران والفوز بكرامة الله وإنعامه؛ لأنَّ الله لا يباهي بأهل المعصية والغفلة، وإنَّما يباهي بمَن اجتمعوا على الخير؛ ذكرًا لله وتمجيدًا وتعظيمًا وخوفًا من النَّار

(١) رواه مسلم (٢٧٠١).

وطلبًا للجنَّة، فهذا الَّذي اجتمعوا عليه كان موجبًا لغفران ذنوبهم وموجبًا لمباهاة الله بهم الملائكة.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: قَالَ النبيُّ ﷺ: «**قالَ اللهُ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي؛ فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ**». متَّفق عليه(١).

وهذا جزاء من جنس العمل، وأيُّ ثوابٍ وأيُّ مكانةٍ أعظم من أن يحظى عبد الله المؤمن بذكر الله له، وفي الحديث أيضًا ذكر معيَّة الله الخاصَّة للذَّاكرين؛ حفظًا ونصرًا وتأييدًا ومعونة. فالمكثرون من ذكر الله لهم الحظُّ الأوفر والنَّصيب الأكمل من ذكر الله لهم ومعيَّته لهم.

وَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمالِكُمْ، وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ، وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجاتِكُمْ، وَخَيْرٍ لَكُمْ مِنْ إِنْفَاقِ الذَّهَبِ والوَرِقِ، وَخَيْرٍ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ؟**» قَالُوا: بَلَى، قَالَ: «**ذِكْرُ الله تَعَالى**». رواه التِّرمذيُّ وابن ماجه(٢).
الوَرِق: الفِضَّة.

بدأ النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هذا الحديث بهذا الأسلوب المُشوِّق للقلوب والجاذب للنُّفوس، حيث بدأ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بقوله: «**أَلَا أُنَبِّئُكُمْ**»، و«ألا» كما قال العلماء أداة تنبيه، تنبيه للسَّامع والمُخاطب لما سيُلقى عليه ويُبيَّن له من العلم والكلام المفيد.

قال: «**أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ؟**»، و«**خَيْر**» أفْعل تفضِيل، أي: أخْيرها أفْضَلها؛ ففيه دلالة على أنَّ الذِّكر خير الأعمال، بل تقدَّم معنا أنَّ الذِّكر هو

(١) رواه البخاريُّ (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥).
(٢) رواه التِّرمذيُّ (٣٣٧٧)، وابن ماجه (٣٧٩٠)، وصحَّحه الألبانِيُّ.

روح الأعمال، وأنَّ تفاضُل النَّاس في الأعمال بحسب تفاضُلهم فيها بذكر الله؛ فكلَّما كان العامل أكثر ذكرًا لله؛ فإنَّ الفضيلة فيه تعظم ومكانته تعلو، بحسب حظِّ العابد فيه من ذكر الله تَبَارَكَوَتَعَالَى، فكلَّما كان ذكره لله أعظم كان حظُّه من هذا الثَّواب أكبر.

وقوله: «**وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ**»، أزكاها قيل: أطهرها، وقيل: المراد بالزَّكاء النَّماء وهو الزِّيادة، أي: أعظمها بركةً ونماءً وخيرًا، فالزَّكاء يأتي ويُراد به النَّماء، ويأتي ويراد به التَّطهُّر.

وقوله: «**وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ**»، أي: أكثرها رفعًا للدَّرجات؛ بحيث إنَّ المواظب عليها والمُكثر منها لا يزال يزداد رِفعةً عند الله عَزَّوَجَلَّ، فهي ترفع العبد عند الله أكثر من غيرها من الأعمال، والأعمال الصَّالحة عمومًا ترفع العبد عند الله عَزَّوَجَلَّ، لكنَّ الذِّكر أكثر الأعمال رفعًا للعامل عند الله.

وقوله: «**وَخَيْرٍ لَكُمْ مِنْ إِنْفَاقِ الذَّهَبِ وَالْوَرِقِ**»، أي: وأفضل لكم من إنفاق الذَّهب والفضَّة، ومن المعلوم أنَّ بذل المال -ولاسيَّما أنْفسه وهو الذَّهب والفضَّة- صدقةً في سبيل الله من خير الأعمال وأحبِّها إلى الله، لكنَّ ذِكرَ الله عَزَّوَجَلَّ أعظمُ من ذلك.

وقوله: «**وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقُوا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقِكُمْ**»، أي: أفضل لكم من أن تلقوا العدوَّ وتُجاهدونهم في سبيل الله فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقِكُمْ وتُستشهدون في سبيل الله؛ وهذا يدلُّ على فضيلة الذِّكر، وأنَّه أفضل من الجهاد، بل الجهاد إنَّما شُرع لإِقامة ذِكر الله وإعلاء كلمة الله، بل وكلُّ طاعةٍ إنَّما شُرعت لإقامة ذكر الله؛ فدلَّ الحديث على فضيلة الذِّكر العظيمة ومنزلته الرَّفيعة وأنَّه خير الأعمال. وهذا لا يعني التَّقليل من شأن تلك الأعمال كالصَّدقة والجهاد والاستشهاد في سبيل الله،

وإنَّما يفيد بيان فضل الذِّكر وعظيم مكانته وأنَّه أرفع الأعمال وأجلُّها وأحبُّها إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قيل لسلمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أيُّ الأعمال أفضل؟ قال: «أمَّا تقرأ القرآن ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥]!»[1]، وذكر ابن أبي الدُّنيا عن ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّه سُئل: أيُّ العمل أفضل؟ قال: «**ذكرُ الله أكبر**»[2].

وذكر الله هو مقصود الأعمال كلِّها؛ فالصَّلاة شُرعت لأجل إقامة ذكر الله، والحجُّ شُرع لإقامة ذكر الله، والصِّيام شرع لإقامة ذكر الله، والطَّاعات كلُّها إنَّما شُرعت لإقامة ذكر الله، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾ [طه: ١٤]؛ أي: أقم الصَّلاة من أجل ذكر الله عَزَّوَجَلَّ.

وهذا فيه تنبيهٌ على عظيم قدر الصَّلاة؛ إذ هي تضرُّعٌ إلى الله تعالى، وقيامٌ بين يديه، وسؤالٌ له تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وإقامةٌ لذكره. وعلى هذا فالصَّلاة هي الذِّكر، وقد سمَّاها الله تعالى ذكرًا، وذلك في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ٩]، فسمَّى الصَّلاة هنا ذكرًا؛ لأنَّ الذِّكر هو روحُها ولُبُّها وحقيقتُها، وقال ﷺ في الحجِّ: «**إِنَّمَا جُعِلَ الطَّوَافُ بِالْبَيْتِ وَبَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ وَرَمْيُ الْجِمَارِ لِإِقَامَةِ ذِكْرِ اللهِ**»[3]، وجاء في الحديث أنَّ النَّبيَّ ﷺ سُئل: أيُّ المصلِّين أعظم أجرًا؟ قال: «**أَكْثَرُهُمْ لِلَّهِ ذِكْرًا**»، قيل: وأيُّ الصَّائمين أكثر أجرًا؟ قال: «**أَكْثَرُهُمْ لِلَّهِ ذِكْرًا**»، قيل: وأيُّ المجاهدين أعظم أجرًا؟ قال «**أَكْثَرُهُمْ لِلَّهِ ذِكْرًا**»[4]. فأعظم النَّاس أجرًا في كلِّ العبادات

(١) رواه ابن جرير في جامع البيان (٢٠/ ٤٤)، وزاد: «لَا شَيْءَ أَفْضَلُ مِنْ ذِكْرِ اللهِ».
(٢) رواه الضَّبيُّ في الدُّعاء (١٠١)، وابن أبي شيبة في المصنَّف (٣٤٧٧٧).
(٣) رواه أبو داود (١٨٨٨)، والتِّرمذيُّ (٩٠٢).
(٤) أخرجه أحمد في المسند (١٥٦١٤).

وجميع الطَّاعات أكثرهم ذكرًا لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فيها بالقلب واللِّسان، فالذِّكر هو خير الأعمال وهو لبُّ الأعمال.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنَّ أفضل أهل كلِّ عمل أكثرهم فيه ذكرًا لله؛ فأفضلُ الصُّوَّام أكثرهم ذكرًا لله في صومهم، وأفضل المتصدِّقين أكثرهم ذكرًا لله، وأفضلُ الحجَّاج أكثرهم ذكرًا لله، وهكذا سائر الأعمال»[(١)]، ثمَّ أورد الحديث المتقدِّم، وأورد عقبه عن عبيد بن عُمير: أنَّه قال: «إنْ أَعْظَمَكم هذا اللَّيلُ أن تُكابدوه، وبَخِلْتم بالمال أن تنفقوه، وجبُنتم عن العدوِّ أن تقاتلوه، فأكثروا من ذكر الله عَزَّوَجَلَّ»[(٢)].

قال ابنُ رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد تكاثرت النُّصوص بتفضيل الذِّكر على الصَّدقة بالمال وغيره من الأعمال»[(٣)]، ثُمَّ أورد حديث أبي الدَّرداء المتقدِّم وجملةً من الأحاديث الأخرى الدَّالة على المعنى نفسه.

وقد روى ابنُ أبي الدُّنيا -كما في التَّرغيب والتَّرهيب للمنذريِّ، وقال إسناده حسن- عن الأعمش عن سالم بن أبي الجعد قال: قيل لأبي الدَّرداء: إنَّ رجلًا أعتق مائة نسَمة قال: «إنَّ مائة نسَمة من مال رجل كثيرٌ، وأفضلُ من ذلك إيمانٌ ملزومٌ باللَّيل والنَّهار، وأن لا يزال لسانُ أحدكم رطبًا من ذكر الله»[(٤)]؛ فبيَّن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فضل عتق الرِّقاب وأنَّه مع عظم فضله لا يعدل ملازمة الذِّكر والمداومة عليه، وقد جاء في هذا المعنى آثارٌ كثيرةٌ عن السَّلفِ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ. يقول ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**لَأَنْ أُسبِّح الله تعالى تسبيحات أحبُّ إليَّ**

(١) الوابل الصَّيِّب (ص٧٥).
(٢) رواه ابن أبي شيبة في المصنَّف (٢٩٧٢٦)، وأحمد في الزُّهد (٢٢٢٨).
(٣) جامع العلوم والحكم (٢/ ٦٦).
(٤) رواه الضَّبيُّ في الدُّعاء (٩١)، وابن أبي شيبة في المصنَّف (٢٩٤٦٤). وانظر: التَّرغيب والتَّرهيب (٨٩٦).

من أن أُنفق عددهنَّ دنانير في سبيل الله»[(١)].

الحاصل أنَّ هذا الحديث العظيم أفاد فضيلة الذِّكر، وأنَّه يعدل عتق الرِّقاب، ونفقة الأموال، والحمل على الخيل في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ، ويعدل الضَّرب بالسَّيف في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ. وقد جلس عبد الله بن عمرو وعبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فقال عبد الله بن مسعود: «لأَن آخذ في طريق أقول فيه: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلَّا الله، والله أكبر أحبُّ إليَّ من أن أنفق عددهنَّ دنانير في سبيل الله»، فقال عبد الله بن عمرو: «لأن آخذ في طريق فأقولهنَّ أحبُّ إليَّ من أن أحمل عددهنَّ على الخيل في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ»[(٢)].

وكذلك قال غيرُ واحدٍ من الصَّحابة والتَّابعين؛ إنَّ الذِّكر أفضل من الصَّدقة بعدده من المال. والآثارُ في هذا المعنى عنهم كثيرةٌ، وهي لا تعني التَّقليل من شأن النَّفقة في سبيل الله، والحمل على الخيل في سبيله، وعتق الرِّقاب في سبيل الله، وإنَّما المرادُ بها: تعليةُ شأن الذِّكر، وبيانُ عظيم قدره، ورِفعة مكانته، وأنَّه لا يعدله شيءٌ من هذه الأمور.

(١) رواه ابن أبي شيبة (٢٩٤٢٢)، والبيهقيُّ في شعب الإيمان (٦٥٩).
(٢) رواه البيهقيُّ في شعب الإيمان (٦٦٠).

١٢
فضل الدُّعاء (١)

إنَّ للدُّعاء شأنًا عظيمًا، ومقامًا جليلًا، ومكانةً عالية؛ فهو مفتاح كلِّ خير في الدُّنيا والآخرة، ومَن أُعطي الدُّعاء أُعطي الخير؛ لأنَّه أُعطي مفاتيح الخير؛ وذلك أنَّ الخير كلَّه بيد الله، ولا سبيل إلى تحصيله إلَّا بمنِّه وفضله وعطائه عَزَّوَجَلَّ. قال مطرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «تذكرتُ ما جماعُ الخيرِ؟ فإذا الخيرُ كثيرٌ؛ الصَّومُ والصَّلاةُ وإذا هو في يدِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وإذا أنتَ لا تقدر على ما في يد الله عَزَّوَجَلَّ إلَّا أنْ تسأَلَهُ فيعطيَك، فإذا جماعُ الخير الدُّعاءُ». رواه الإمام أحمد في الزُّهد[١].

فالدُّعاء أساس الخيرات ومفتاح الفضائل والمكرمات؛ لأنَّ الأمور كلَّها بيد الله عطاءً ومنعًا، خفضًا ورفعًا، عزًّا وذلًّا، فمَن وفِّق للدُّعاء فقد نال مفتاح الخير. قال الإمام ابن القيِّم: في كتابه الفوائد: «أساسُ كلِّ خيرٍ أن تعلَم أنَّ ما شاءَ اللهُ كان وما لَم يشأ لَم يكن؛ فتيقَّن حينئذٍ أنَّ الحسناتِ مِن نِعمه فتشكرَه عليها وتتضَرَّعَ إليه أن لا يقطعَها عنك، وأنَّ السَّيِّئاتِ مِن خذلانِه وعقوبتِه فتَبْتَهِلَ إليه أن يَحُولَ بينك وبينها، ولا يَكِلَكَ في فعلِ الحسنات وترك السَّيِّئات إلى نفسِك، وقد أَجْمع العارفون على أنَّ كلَّ خيرٍ فأصلُه بتوفيقِ الله للعبد، وكلَّ شرٍّ فأصلُه خِذلانُه لعبده، وأجمعوا أنَّ التَّوفيقَ أن لا يكِلَك الله إلى نفسك، وأنَّ الخِذلانَ هو أن يخلِّي بينَك وبين نفسك، فإذا كان كلُّ خيرٍ

(١) رواه أحمد في الزُّهد (١٣٤٤).

فأصلُه التَّوفيق -وهو بيد الله لا بيد العبدِ- فمفتاحُه الدُّعاءُ والافتقارُ وصدقُ اللَّجَأ والرَّغبةِ والرَّهبةِ إليه، فمتى أَعطى العبدَ هذا المفتاحَ فقد أراد أن يفتح له، ومتى أضلَّه عن المفتاح بقي بابُ الخير مُرْتَجًا دونه... وما أُتي مَن أُتي إلَّا مِن قِبَل إضاعة الشُّكرِ وإهمالِ الافتقار والدُّعاء، ولا ظَفِرَ مَن ظَفِرَ -بمشيئة الله وعونِه- إلَّا بقيامه بالشُّكرِ وصدقِ الافتقارِ والدُّعاء». اهـ[١].

والدُّعاءُ شأنُه في الإسلام عظيمٌ، ومكانتُه فيه ساميةٌ، ومنزلتُه منه عالية؛ إذ هو أجلُّ العبادات وأعظمُ الطَّاعات وأنفعُ القربات، ولهذا جاءت النُّصوصُ الكثيرةُ في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ مبيِّنةً فضله، مُنَوِّهةً بمكانته وعظم شأنه، مرغِّبةً فيه وحاثَّةً عليه، وقد تنوَّعت دلالاتُ هذه النُّصوص المبيِّنة لفضل الدُّعاء؛ فجاء في بعضها الأمرُ به والحثُّ عليه، وفي بعضها التَّحذير من تركه والاستكبار عنه، وفي بعضها ذكرُ عِظم ثوابه وكبر أجره عند الله، وفي بعضها مدحُ المؤمنين لقيامهم به والثَّناءُ عليهم بتكميله، وغيرُ ذلك من أنواع الدَّلالات في القرآن على عظم فضل الدُّعاء.

بل إنَّ الله سبحانه قد افتتح كتابه الكريم بالدُّعاء واختممه به؛ فسورة «الفاتحة» الَّتِي هي فاتحة القرآن الكريم مشتملةٌ على دعاء الله بأجلِّ المطالب وأكمل المقاصد، ألا وهو سؤال الله عَزَّوَجَلَّ الهدايةَ إلى الصِّراط المستقيم والإعانةَ على عبادته والقيامَ بطاعته سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، وسورةُ «النَّاس» الَّتِي هي خاتمة القرآن الكريم مشتملةٌ على دعاء الله سبحانه، وذلك بالاستعاذة به سبحانه من شرِّ الوسواس الخنَّاس الَّذِي يوسوسُ في صدور النَّاس من الجِنَّة والنَّاس، وما من ريبٍ أنَّ افتتاحَ القرآن الكريم بالدُّعاء واختتامَه به دليلٌ على عِظم شأن الدُّعاء وأنَّه روحُ العبادات ولبُّها.

(١) الفوائد (ص٩٧).

بل إنَّ الله جَلَّوَعَلَا سمَّى الدُّعاءَ في القرآن عبادةً في أكثر من آية، مِمَّا يدلُّ على عِظم مكانته، كقوله سبحانه: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، وكقوله سبحانه فيما حكاه عن نبيِّه إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۖ وَكُلّٗا جَعَلْنَا نَبِيّٗا﴾ [مريم: ٤٨-٤٩]، ونحوها من الآيات، وسمَّى سبحانه الدُّعاءَ دِينًا كما في قوله: ﴿فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [غافر: ١٤]، ونحوها من الآيات.

وهذا كلُّه يُبيِّن لنا عظيمَ شأن الدُّعاء، وأنَّه أساسُ العبوديَّة وروحُها، وعنوانُ التَّذلُّل والخضوع والانكسار بين يدي الرَّبِّ وإظهارِ الافتقار إليه، ولهذا حثَّ الله عبادَه عليه ورغَّبهم فيه في آيٍ كثيرة من القرآن الكريم، يقول الله تعالى: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعٗا وَخُفْيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفٗا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥-٥٦]، وقال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [غافر: ٦٥].

وأخبر سبحانه -مرَغِّبًا عبادَه في الدُّعاءِ- بأنَّه قريبٌ منهم؛ يُجيب دعاءَهم، ويُحقِّقُ رجاءَهم، ويعطيهم سؤلهم، قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وقال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِۗ﴾ [النَّمل: ٦٢].

ولهذا فإنَّ العبدَ كلَّما عظُمت معرفتُه بالله وقويت صِلتُه به كان دعاؤُه له أعظمَ وانكسارُه بين يديه أشدَّ؛ ولهذا كان أنبياءُ الله ورُسُلُه أعظمَ النَّاس تحقيقًا

للدُّعاء وقيامًا به في أحوالهم كلِّها وشؤونهم جميعِها، وقد أثنى الله عليهم بذلك في القرآن الكريم وذَكَر جملةً من أدعيتهم في أحوالٍ متعدِّدةٍ ومناسبات متنوِّعةٍ، قال تعالى في وصفهم: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

وكما أنَّه سبحانه وصَفَ الأنبياء بالدُّعاء ونَعتهم به وأثنى عليهم بتحقيقه، فقد وصف بذلك سبحانه المؤمنين الصَّادقين وعبادَه الصَّالحين، قال تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السَّجدة: ١٧-١٨]، وقال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الكهف: ٢٨]، وقال سبحانه في وصف أهل الجنَّة عندما يدخلونها بسلام آمنين: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ٩-١٠].

۞ فالدُّعاء هو روحُ هذا الدِّين، وزادُ المؤمنين المتَّقين، وعنوانُ التَّذلُّل والخضوع لربِّ العالمين؛ وإنَّما كان كذلك لأمور عديدة ذكرها أهل العلم:

منها: أنَّ الدُّعاءَ فيه التَّضرُّعُ إلى الله وإظهارُ الضَّعف والحاجة إليه.

ومنها: أنَّ العبادةَ كلَّما كان القلبُ فيها أخشعَ والفكرُ فيها حاضرًا؛ فهي أفضلُ وأكملُ. والدُّعاء أقربُ العبادات إلى حصول هذا المقصود؛ فإنَّ حاجة العبد تدفعه إلى الخشوع وحضور القلب.

ومنها: أنَّ الدُّعاءَ ملازمٌ للتَّوكُّل والاستعانةِ بالله، فإنَّ التَّوكُّلَ هو الاعتمادُ بالقلب على الله والثِّقةُ به في حصول المحبوبات واندفاع المكروهات، والدُّعاءُ يقوِّيه بل يعبِّر عنه ويصرِّح به، فإنَّ الدَّاعي يعلم ضرورته التَّامَّة إلى الله وأنَّ أمورَه جميعَها بيده، فيطلبها من ربِّه راجيًا له واثقًا به، وهذا

هو روحُ العبادة، إلى غير ذلك من الأمور الَّتي تبيِّن عِظم قدر الدُّعاء ورِفعة شأنه.

إنَّ حاجةَ المسلم إلى الدُّعاء ماسَّةٌ في أموره كلِّها، وضرورتَه إليه ملحَّةٌ في شؤونه جميعِها، وقد ضَرَبَ أَحدُ أهل العلم لِحال المسلم مع الدُّعاء مَثلًا بديعًا تستبين به شدَّةُ حاجته إليه ويظهرُ به عظمُ ضرورته إليه، روى الإمام أحمد في كتاب الزُّهد(١) عن قتادة قال: قال مُوَرِّقٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**ما وجدتُ للمؤمن مثلًا إلَّا رجلًا في البحر على خشبة، فهو يدعو يا ربِّ يا ربِّ، لعلَّ الله** عَزَّوَجَلَّ **أن ينجيَه**». ومَن أقبل على الله بصدقٍ وألَحَّ عليه بالدُّعاء وأَكثَرَ من سؤالِه أجاب الله دعاءَه، وحقَّق رجاءَه، وأعطاه سُؤْلَه، وفتح له أبوابَ الخير والسَّعادة في الدُّنيا والآخرة.

إنَّ العبدَ محتاجٌ إلى الله في كلِّ شؤونِه، ومفتقرٌ إليه في جميعِ حاجاتِه، لا يستغني عن ربِّه ومولاه طرفة عين، وأمَّا الرَّبُّ سبحانه فإنَّه غنيٌّ حميدٌ، لا حاجة له بطاعات العباد ودعواتهم، ولا يعود نفعُها إليه، وإنَّما هم الَّذين ينتفعون بها، ولا يتضرَّرُ بمعاصيهم وإنَّما هم الَّذين يتضرَّرون بها، ولهذا قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [فاطر: ١٥-١٧]، وقال تعالى: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ﴾ [الإسراء: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧-٨]، والآيات في هذا المعنى كثيرة.

ثمَّ إنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مع كمال غِناه عن عباده وعن طاعاتهم ودعواتهم

(١) رواه أحمد في الزُّهد (١٧٦٠).

وتوباتهم؛ فإنَّه يُحبُّ سماعَ دعاءِ الدَّاعينَ المخبتين، ورؤيةَ عبادةِ العابدين المطيعين، ويفرحُ بتوبة التَّائبين المُنيبين، بل إنَّه سبحانه يفرح بتوبة عبده أشدَّ من فرح مَن ضلَّت راحلتُه الَّتِي عليها طعامه وشرابه بفلاة من الأرض، وطلبها حتَّى أَيِسَ منها، واستسلم للموت، ثمَّ غلبته عينُه فنام واستيقظ فإذا هي قائمةٌ عنده، وهذا أعلى ما يتصوَّرُه المخلوقُ من الفَرَحِ، فالله سبحانه يَفرحُ بتوبة عبادِه أَشَدَّ مِن فرحِ هذا بِلُقياه لراحلته، هذا مع غِناه سبحانه الكامل عن طاعات عباده وتوباتهم إليه، وذلك كلُّه إنَّما يعود نفعُه إليهم دونَه، وهذا من كمال جُودِه وإحسانِه إلى عباده ومحبَّته لنفعهم ودفع الضَّرر عنهم؛ فهو يُحبُّ من عباده أن يعرفوه ويُحبُّوه ويتَّقوه ويخافوه ويُطيعوه ويتقرَّبوا إليه، ويُحبُّ أن يعلموا أنَّه يغفر الخطيئات، ويجيب الدَّعوات، ويُقيلَ العَثَرات، ويُكفِّر السَّيِّئات، ويرزق مَن يشاء بغير حساب.

فحريٌّ بعبد الله المؤمن إذا عرف كمالَ ربِّه وجلالَه وكرمه وإحسانه وفضلَه وجُودَه أن يُنزل به جميع حاجاته، وأن يُكثر من دعائه ومناجاته، وأن لا يَقْنَط مِن رحمة ربِّه ولا ييأس من رَوْحِه؛ فإنَّه لا يَيْأَسُ مِن رَوْحِ الله إلَّا القومُ الكافرون.

١٣

فضل الدُّعاء (٢)

من الآيات الكريمة الحاثَّة على الدُّعاء قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، وقد جمعت هذه الآية بين أمرين: أحدهما حبيبٌ إلى الله عَزَّوَجَلَّ، والآخر بغيضٌ إليه سبحانه؛ الحبيب إلى الله جَلَّوَعَلَا ما ذكره في قوله: ﴿ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ﴾؛ فهو يحبُّ من عباده أن يدعوه. والبغيض إليه جَلَّوَعَلَا ما ذكره في قوله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾، أي: عن دعائي، فهو يبغض المستكبرين عن دعائه، وقد سمَّى الله عَزَّوَجَلَّ في الآية الدُّعاء عبادةً، والمستكبر عن الدُّعاء: مُستكبراً عن العبادة. وقد كان سفيان الثَّوريُّ يقول: «يا مَن أحبُّ عباده إليه مَن سأله فأكثر سؤاله، ويا مَن أبغضُ عباده إليه مَن لَم يسأله، وليس كذلك غيرُك يا ربِّ». رواه ابن أبي حاتم وغيرُه(١).

وهذا يبيِّن مكانة الدُّعاء العظيمة، وحُبَّ الله عَزَّوَجَلَّ للدُّعاء، ولعباده الدَّاعين، وتحذيره جَلَّوَعَلَا من الإعراض عن الدُّعاء، وقد جمع الله في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ جمع للمستكبرين عن الدُّعاء بين العقوبة بدخول النَّار وبين التَّحقير والإهانة، تكبَّروا عن دعاء الله فأهانهم سبحانه، فهم يدخلون جهنَّم ﴿دَاخِرِينَ﴾، أي: حقيرين ذليلين. جُمع عليهم العذاب والإهانة، عقوبة لهم على استكبارهم.

---

(١) حكاه عنه ابن كثير في تفسيره (٧/ ١٥٣).

فالحاصل أنَّ هذه الآية آية عظيمة في شأن الدُّعاء وبيان مكانته وعظيم شأنه، وحُبِّ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى له، وتحذيره جَلَّوَعَلَا من الإعراض عن الدُّعاء، والاستكبار عنه.

وقوله في هذه الآية: ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ فيه أنَّ الدُّعاء مستجاب، وأنَّ مَن دعا الله عَزَّوَجَلَّ أجابه وأعطاه سؤله، فهو لا يُخيِّب عبدًا دعاه ولا يرد مؤمنًا ناجاه، لكن على المؤمن في هذا الباب أن يُعنى بما يكون سببًا لإجابة دعائه، وأن يحذر ممَّا هو سببٌ لردِّه وعدم قبوله، وسيأتي عن هذا حديث مفصَّل لاحقًا بإذن الله.

﴿ وهذه الآية دلَّت على فضيلة الدُّعاء من عِدَّة جهات:

الأولى: أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ أمر به، ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ﴾، فربُّ العالمين أمر به، والأمر به دليلٌ على فضله، وعظم شأنه عند الله تَبَارَكَوَتَعَالَى.

الثَّانية: أنَّ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى وعد في هذه الآية بالإجابة: ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾؛ فالإجابة مضمونة، ومَن أُلْهِم الدُّعاء فقد أريد به الإجابة؛ لأنَّه سُبْحَانَهُوَتَعَالَى وعد بها والله لا يخلف الميعاد، فهذه فضيلة أخرى للدُّعاء دلَّت عليها الآية؛ أنَّ الله يستجيب دعاء من دعاه ويحقِّق رجاء مَن رجاه، لا يتعاظمه ذنب أن يغفره ولا حاجة يسألها أن يعطيها، وهذا من لُطف الله بعباده وعظيم إكرامه لهم وإحسانه بهم؛ فهو سبحانه لا يُخيِّب عبدًا دعاه، ولا يُرُدُّ مؤمنًا ناجاه، يقول الله تعالى كما في الحديث القدسيِّ: «**يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ**»، وقال فيه: «**يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي**

فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ». رواه مسلم في سياق طويل من حديث أبي ذرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)].

الثَّالثة: أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي﴾؛ فسمَّى الدُّعاء عبادة، فالآية تدلُّ على أنَّ الدُّعاء عبادة، ولهذا جاء في السُّنن الأربعة من حديث النُّعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «الدُّعَاءُ هُوَ العِبَادَةُ» ثمَّ تلا هذه الآية: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[(٢)]. وروى الحاكم بإسناد حسن عن ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مرفوعًا: «أفضل العبادة الدُّعاء، وقرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾»[(٣)].

الرَّابعة: أنَّ الآية تدلُّ على أنَّ ترك الدُّعاء نوعٌ من الاستكبار، والدُّعاء لا يشق على الإنسان ولا يكلفه شيئًا، فإذا كان تاركًا للدُّعاء غير مبالٍ به ولا مهتمٍّ مع شِدَّة حاجته وافتقاره إلى الله فهذا نوعٌ من الاستكبار، ولهذا قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾.

فالشَّاهد: أنَّ الآية فيها دلالة عظيمة على فضيلة الدُّعاء، وعظيم مكانة الدُّعاء عند الله وأنَّه عبادة من أجلِّ العبادات وأشرفها.

قال الشَّوكانِيُّ: في رسالةٍ له في وجوب توحيد الله عَزَّوَجَلَّ بعد أن أورد هذه الآية وآيات في معناها: «فهذه الآياتُ البيِّنات دلَّت على أنَّ الدُّعاءَ مطلوبٌ لله عَزَّوَجَلَّ من عباده، وهذا القدر يكفي في إثبات كونه عبادة، فكيف إذا انضمَّ إلى ذلك النَّهيُ عن دعاء غير الله، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا﴾ [الجن:

(١) رواه مسلم (٢٥٧٧).
(٢) رواه أبو داود (١٤٧٩)، والتِّرمذيُّ (٢٩٦٩)، والنَّسائيُّ في الكبرى (١١٤٠٠)، وابن ماجه (٣٨٢٨)، وصحَّحه الألبانِيُّ.
(٣) رواه الحاكم في المستدرك (١٨٠٥)، وصحَّحه الألبانِيُّ في صحيح الجامع (٢٠٠٢).

١٨]، وقال تعالى: ﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ﴾ [الرَّعد: ١٤]، وقال سبحانه ناعيًا على مَن يدعو غيرَه ضاربًا له الأمثال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ ﴾ [الأعراف: ١٩٤]، وقال تعالى: ﴿ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [سبأ: ٢٢]. فكيف إذا صرَّح القرآنُ الكريمُ بأنَّ الدعاءَ عبادةٌ تصريحًا لا يبقى عنده ريبٌ لمرتابٍ، قال الله تعالى: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾؛ فقد طلبَ اللهُ سبحانه من عباده في هذه الآيةِ أن يدعوه، وجعلَ جزاءَ الدُّعاء له منهم الإجابةَ منه، فقال: ﴿أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾، ولهذا جزمه لكونه جوابًا للأمر، ثمَّ توعَّدهم على الاستكبار عن هذه العبادة -أعني الدُّعاء- بما صرَّح به في آخر الآية، وجعل العبادةَ مكان الدُّعاء تفسيرًا له وإيضاحًا لمعناه، وبيانًا لعباده بأنَّ هذا الأمرَ الَّذِي طلبه منهم وأرشدهم إليه هو نوعٌ من عبادته الَّتِي خصَّ بها نفسَه وخلق لها عباده، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [الذَّاريات: ٥٦]، ومع هذا كلِّه فقد جاءت السُّنَّة المطهَّرةُ بما يدلُّ أبلغ دلالة على أنَّ الدُّعاءَ من أكمل أنواع العبادة»(١)، ثمَّ ذكر: ما يدلُّ على ذلك من السُّنَّة.

والدُّعاء نوعان: دعاء عبادة، ودعاء مسألة، والعابد داعٍ كما أنَّ السَّائل داعٍ، وبهما فُسِّر قوله تعالى ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾؛ قيل: أطيعوني أثبكم، وقيل: سلوني أعطكم، وفُسِّر بهما قوله تعالى ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ﴾ [البقرة: ١٨٦].

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإنَّ الدُّعاء في القرآن يراد به هذا تارة وهذا تارة، ويراد به مجموعهما وهما متلازمان؛ فإنَّ دعاء المسألة: هو طلب ما ينفع

(١) الفتح الرَّبانِيّ من فتاوى الإمام الشَّوكانِيّ (١/ ١٧١).

الدَّاعي وطلب كشف ما يضرُّه أو دفعه، وكلُّ مَن يملك الضَّرَّ والنَّفع فإنَّه هو المعبود حقًّا، والمعبود لا بُدَّ أن يكون مالكًا للنَّفع والضَّرر، ولهذا أنكر الله تعالى على مَن عبد من دونه ما لا يملك ضرًّا ولا نفعًا، وذلك كثير في القرآن كقوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ [يونس: ١٨]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ [يونس: ١٠٨]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [المائدة: ٧٦]، وقوله تعالى: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الأنبياء: ٦٦-٦٧]، وقوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ [الشُّعراء: ٦٩-٧٣]، وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٥]؛ فنفى سبحانه عن هؤلاء المعبودين من دونه النَّفع والضَّرَّ القاصر والمتعدِّي فلا يملكونه لأنفسهم ولا لعابديهم، وهذا في القرآن كثير، بيد أنَّ المعبود لا بُدَّ أن يكون مالكًا للنَّفع والضَّرِّ، فهو يُدعى للنَّفع والضَّرِّ دعاء المسألة، ويُدعى خوفًا ورجاءً دعاء العبادة، فعُلم أنَّ النَّوعين متلازمان، فكلُّ دعاء عبادة مستلزم لدعاء المسألة،وكلُّ دعاء مسألة متضمِّن لدعاء العبادة». اهـ(١).

---

(١) بدائع الفوائد (٣/ ٢).

ويجتمع النَّوعان في سورة الفاتحة، فقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ هذا دعاء عبادة؛ لأنَّه ثناء على الله، وقوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ دعاء عبادة، وقوله ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ دعاء عبادة، وقوله ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ دعاء عبادة، وقوله ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ إلى آخر السُّورة دعاء مسألة. ولهذا يقول الله جَلَّ وَعَلَا في الحديث القدسيِّ: «قسمت الصَّلاة بيني وبين عبدي نصفين»[(١)]، يعني: الفاتحة، سمَّاها صلاة لأنَّها دعاء «بيني وبين عبدي نصفين»، لأنَّ أوَّلها دعاء عبادة الله وآخرها دعاء مسألة، والعلاقة بين دعاء العبادة ودعاء المسألة: أنَّ دعاء العبادة مُسْتَلْزِمٌ لدعاء المسألة، فإذا قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ يلزم من هذا أن يسأل الله سبحانه، ودعاء المسألة متضمِّنٌ لدعاء العبادة، بمعنى: أنَّ دعاء العبادة داخلٌ في دعاء المسألة، فالَّذِي يسأل الله حوائجه يتضمَّن سؤاله أنَّه يعبد الله بذلك.

(١) رواه مسلم (٣٩٥).

١٤

فضل الدُّعاء (٣)

من الآيات الكريمة الحاثَّة على الدُّعاء قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

في القرآن الكريم آياتٌ عديدة مبدوءة بقوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ أو ﴿وَيَسْأَلُونَكَ﴾؛ كقوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى﴾ [البقرة: ٢٢٢]، وقوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٨٩]، وكقوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩]، وكقوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ٢٢٠]، وكقوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ﴾ [طه: ١٠٥]، وقوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾ [الإسراء: ٨٥]، وكلُّها يأتي بعدها قوله سبحانه ﴿قُلْ﴾.

بينما في هذه الآية آية الدُّعاء ارتفعت ﴿قُلْ﴾؛ ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾، ولم يقل فقل إنِّي قريب؛ وهذا فيه تنبيه إلى أمرٍ عظيم نبَّه عليه أهل العلم؛ وهو أنَّ أمور الدِّين وأحكامه لا سبيل إلى العلم بها إلَّا بالواسطة ﴿قُلْ﴾، وأمَّا الدُّعاء -الَّذي هو التَّوجُّه إلى الله- فيتوجَّه العبد إلى الله مباشرة بلا واسطة، فلا يجعل بينه وبين الله سبحانه واسطة، ولهذا إذا قيل: هل الأنبياء واسطة بين الله وبين خلقه؟ يقال: **في هذا تفصيل:**

إذا كان المراد بذلك البلاغ وبيان الدِّين؛ يقال نعم هم واسطة فلا سبيل إلى معرفة الدِّين إلَّا من خلالهم.

وأمَّا إذا كان المراد بذلك التَّوجُّه والعبادة إلى الله فليس بين العبد وبين الله واسطة؛ ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ [غافر: ٦٠]. لا تجعل بينك وبين الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ واسطة، وإنَّما توجَّه إليه أينما كنت مباشرة بالسُّؤال والدُّعاء والإلحاح عليه، فهو قريبٌ كما أخبر سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ﴾؛ قريبٌ ممَّن دعاه، يُجيب دعاءه، ويُحقِّق رجاءه، ويُعطيه سؤله، ولا يُخيِّب سبحانه عبدًا دعاه ولا مؤمنًا ناجاه.

وقوله: ﴿أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ﴾ [البقرة: ١٨٦] وهذا فيه حثٌّ على الدُّعاء وترغيبٌ فيه، وبيانٌ أنَّه مستجاب لا يُردُّ.

وقوله: ﴿فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ﴾ ختمت الآية بهذين القيدين العظيمين، ﴿فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي﴾: هذا كمال العمل، ﴿وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي﴾: هذا صحَّة المعتقد؛ وهذان أعظم ما يكون به إجابة الدُّعاء، فإنَّ استجابة العبد لله بفعل ما أمر وترك ما نهى عنه وزجر؛ لأنَّ المعاصي عثرة في طريق الإجابة تسُدُّ طريقها كما قال بعض السَّلف: «لا تستبطيء الإجابة وقد سددت طرقها بالمعاصي»(١)، وقد أخذ بعض الشُّعراء هذا المعنى، فقال:

نحن ندعو الإله في كلِّ كربٍ ... ثمَّ ننساه عند كشف الكروب
كيف نرجو إجابة لدعاءٍ ... قد سددنا طريقها بالذُّنوب

وقد ذكر النَّبيُّ ﷺ في الحديث: «الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ يَا رَبِّ يَا رَبِّ وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ وَغُذِيَ

(١) صيد الخاطر (ص٢٢١)، وجامع العلوم والحكم (١/ ٢٧٧).

بِالْحَرَامِ فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ»[(١)].

فصحَّة المعتقد وصلاحُ العمل هما أعظم ما يكون به إجابة الدُّعاء، نظير هذه الآية قول الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في سورة الشُّورى: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ [الشُّورى: ٢٦]، قال ابن جرير: معناه يستجيب الدُّعاء لهم. فما معهم من الإيمان والعمل الصَّالح سببٌ لإجابة دعائهم.

هذا وقد ثبت في السُّنَّة عن النَّبيِّ ﷺ أحاديثُ كثيرة في التَّرغيب في الدُّعاء؛ ببيان أنَّ الله تبارك يُعطي السَّائلين ويُجيب الدَّاعين ولا يُخيِّب رجاء المؤمنين، فهو سبحانه حيِيٌّ كريم، أكرمُ مِن أن يردَّ مَن دعاه أو يخيِّبَ من ناجاه أو يمنع مَن سأله.

روى أبو داود والتِّرمذيُّ عن سلمان الفارسيِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**إِنَّ اللهَ حَيِيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحْيِي مِنْ عَبْدِهِ إِذَا رَفَعَ يَدَيْهِ إِلَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا**»[(٢)]، أي: خالية.

وجاء في الحديث القدسيِّ في بيان منزلة أولياء الله المتَّقين عند الله، أنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يقول: «**مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ؛ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطُشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ**». رواه البخاريُّ[(٣)].

فهذان الحديثان وما جاء في معناها تدلُّ أبين دلالة على أنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لا

---

(١) رواه مسلم (١٠١٥).
(٢) رواه أبو داود (١٤٨٨)، والتِّرمذيُّ (٣٥٥٦)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٣) رواه البخاريُّ (٦٥٠٢).

يردُّ مَن سأله من عباده المؤمنين ولا يخيِّب مَن رجاه، لكن قد استُشكل هذا -كما ذكر الحافظ ابن حجر- بأنَّ جماعةً من العُبَّاد والصُّلحاء دَعَوا وبالغوا ولَم يُجابوا، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والجواب أنَّ الإجابةَ تتنوَّع، فتارةً يقع المطلوب بعينه على الفور، وتارةً يقع ولكن يتأخَّر لحكمةٍ، وتارةً قد تقع الإجابةُ ولكن بغير عين المطلوب؛ حيث لا يكون في المطلوب مصلحةٌ ناجزةٌ، وفي الواقع مصلحةٌ ناجزةٌ أو أصلحُ منها»[1].

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنَّ كلَّ داعٍ يُستجاب له، لكن تتنوَّع الإجابةُ؛ فتارة تقع بعين ما دعا به، وتارة بعِوض»[2]، وقد ورد في هذا المعنى الَّذِي ذكره: أحاديث عديدة، منها:

ما رواه التِّرمذيُّ والحاكم من حديث عُبادة بن الصَّامت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ رفعه: «**مَا عَلَى الأَرْضِ مُسْلِمٌ يَدْعُو اللهَ بِدَعْوَةٍ إِلَّا آتَاهُ اللهُ إِيَّاهَا، أَوْ صَرَفَ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهَا**»[3].

وروى الإمام أحمد والبخاريُّ في الأدب المفرد والحاكم وغيرهم عن أبي سعيد الخدريِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَدْعُو بِدَعْوَةٍ لَيْسَ فِيهَا إِثْمٌ وَلَا قَطِيعَةُ رَحِمٍ إِلَّا أَعْطَاهُ اللهُ بِهَا إِحْدَى ثَلَاثٍ: إِمَّا أَنْ يُعَجِّلَ لَهُ دَعْوَتَهُ، وَإِمَّا أَنْ يَدَّخِرَهَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ، وَإِمَّا أَنْ يَصْرِفَ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهَا، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ إِذًا نُكْثِرُ، قَالَ: اللهُ أَكْثَرُ**»[4].

وفي الصَّحيحين من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال:

(١) فتح الباري (١١/ ٣٤٥).
(٢) المصدر نفسه.
(٣) رواه التِّرمذيُّ (٣٥٧٣)، وقال الألبانِيُّ: حسن صحيح.
(٤) رواه أحمد (١١١٣٣)، والبخاريُّ في الأدب المفرد (٧١٠)، وصحَّحه الألبانِيُّ.

«يُسْتَجَابُ لِأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ يَقُولُ دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي»[(١)].

فقد أخبر الصَّادقُ المصدوق في هذه الأحاديث أنَّه لا بُدَّ في الدَّعوةِ الخالية من العدوان من إعطاء السُّؤل معجَّلًا، أو مثلِه من الخير مؤجَّلًا، أو يصرفُ عنه من السُّوء مثله.

وبهذا يتبيَّن أنَّ إجابةَ الدَّاعي في سؤاله أعمُّ من إعطائه عينَ المسؤول؛ فهذا هو جواب الاستشكال السَّابق، وقد ذكر أهل العلم أيضًا جوابين آخرين:

أحدهما: أنَّ إجابةَ الدَّاعي لَم تضمن عطيَّة السُّؤال مطلقًا، وإنَّما تضمَّنت إجابة الدَّاعي، والدَّاعي أعمُّ من السَّائل، وإجابةُ الدَّاعي أعمُّ من إعطاء السَّائل،كما تقدَّم معنا في حديث النُّزول التَّفريق بينهما بقوله سبحانه: «**مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ**»[(٢)]؛ ففرَّق بين الدَّاعي والسَّائل، وبين الإجابة والإعطاء، لكن الاستشكال مع هذه الإجابة قائمٌ من جهة أنَّ السَّائلَ أيضًا موعودٌ بالإعطاء كما في الحديث المتقدِّم.

الجواب الثَّاني: أنَّ الدُّعاءَ في اقتضاء الإجابة شأنه كسائر الأعمال الصَّالحة في اقتضائها الإثابة، فالدُّعاءُ سببٌ مقتضٍ لنيل المطلوب، والسَّبب له شروط وموانع؛ فإذا حصلت شروطه وانتفت موانعه حصل المطلوب، وإلَّا فلا يحصل ذلك المطلوب، كما هو الشَّأن في قبول الأعمال الصَّالحة والكلمات الطَّيِّبة.

وهذا أحسنَ ما قيل في ذلك؛ فإنَّ الشَّأن في الدُّعاءَ كالشَّأنُ في جميع الأعمال الصَّالحة، لا تُقبل إلَّا إذا استوفى المسلمُ شروطَها وابتعد عن موانع قبولها، أمَّا إذا وُجد المانعُ وانتفى الشَّرط فإنَّ العملَ لا يُقبل. فالدُّعاءُ في نفسه مفيدٌ وهو مفتاحٌ لكلِّ خير في الدُّنيا والآخرة، لكنَّه يستدعي قوَّةَ هِمَّة الدَّاعي

(١) رواه البخاريُّ (٦٣٤٠)، ومسلم (٢٧٣٥).
(٢) رواه البخاريُّ (١١٤٥)، ومسلم (٧٥٨).

وصحَّةَ عزيمَتِه وحُسنَ قصدِه وبُعدَه عن الأمور الَّتِي تمنع من القبول.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإنَّه -أي: الدُّعاء- من أقوى الأسباب في دفعِ المكروه وحصول المطلوب، ولكن قد يتخلَّف عنه أثرُه؛ إمَّا لضعفٍ في نفسه بأن يكون دعاءً لا يُحبُّه اللهُ لِمَا فيه من العدوان، وإمَّا لضعف القلب وعدم إقباله على الله وجمعيَّتِه عليه وقت الدُّعاءِ، فيكون بمنزلةِ القَوسِ الرَّخوِ جدًّا، فإنَّ السَّهمَ يخرج منه خروجًا ضعيفًا، وإمَّا لحصول المانع من الإجابة من أكل الحرام والظُّلمِ ورَيْنِ الذُّنوب على القلوب، واستيلاءِ الغفلةِ والشَّهوةِ واللَّهو وغلبتِها عليها، كما في مستدرك الحاكم من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**ادْعُوا اللهَ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالْإِجَابَةِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ لَا يَسْتَجِيبُ دُعَاءً مِنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لَاهٍ**»[(١)]، فهذا دواءٌ نافع مزيلٌ للدَّاء، ولكنَّ غفلةَ القلب عن الله تُبطلُ قوَّتَه، وكذلك أكلُ الحرام يُبطلُ قوَّته ويُضعفها، كما في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ، فَقَالَ**: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١]، **وَقَالَ** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢]، **ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ يَا رَبِّ يَا رَبِّ وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ**»[(٢)]»[(٣)].

فأشار صلوات الله وسلامه عليه في هذا الحديث إلى آداب الدُّعاء، وإلى الأسباب الَّتِي تقتضي إجابته، وإلى ما يمنع من إجابته، والحديث فيه دلالاتٌ عظيمةٌ وإشاراتٌ نافعةٌ في هذا الباب سيأتي بيانُها وإيضاحها لاحقًا إن شاء الله.

---

(١) رواه التِّرمذيُّ (٣٤٧٩)، والحاكم في المستدرك (١٨١٧)، وحسَّنه االألبانِيُّ.
(٢) رواه مسلم (١٠١٥).
(٣) الجواب الكافي (ص٩).

١٥
فضل الدُّعاء (٤)

ممَّا ورد في السُّنَّة النَّبويَّة في فضل الدُّعاء: ما رواه النُّعْمَان بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ**»، **ثُمَّ قَرَأَ**: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]. رواه أبو داود والتِّرمذيُّ[١].

قوله: «**الدُّعاء هو العبادة**»؛ هذا من أساليب الحصر، نظيره قول النَّبيِّ ﷺ: «**الحَجُّ عَرَفَةُ**»[٢]، وقوله ﷺ: «**الدِّينُ النَّصِيحَةُ**»[٣]، وإذا كان النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قد أخبر عن الدُّعاء بأنَّه هو العبادة؛ فهذا دليل على علوِّ مكانة الدُّعاء في العبادة ورفيع شأنه فيها، وأنَّه أعظمها وأجلُّها وأحبُّها إلى الله، وأكرمها عنده رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وسيأتي في الحديث «**لَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَمَ عَلَى اللهِ مِنَ الدُّعَاءِ**»[٤].

فـ«**الدُّعاء هو العبادة**»، أي: أعظم العبادة وأجلُّها وأرفعها مكانة. ثمَّ قرأ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ شاهدًا لذلك قول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]؛ فسمَّى جَلَّ وَعَلَا الاستكبار عن دعائه استكبارًا عن عبادته. لم يقل يستكبرون عن دعائي! بل قال: ﴿عَنْ عِبَادَتِي﴾؛ فدلَّ هذا على أنَّ الدُّعاء هو العبادة.

---

(١) رواه أبو داود (٢٩٦٩)، والتِّرمذيُّ (١٤٧٩)، وابن ماجه (٣٨٢٨)، وصحَّحه الألبانِيُّ.
(٢) رواه التِّرمذيُّ (٨٨٩)، والنَّسائيُّ (٣٠١٦)، وابن ماجه (٣٠١٥)، وصحَّحه الألبانِيُّ.
(٣) رواه مسلم (٥٥).
(٤) رواه التِّرمذيُّ (٣٣٧٠)، وابن ماجه (٣٨٢٩)، وحسَّنه الألبانِيُّ.

ووجه ذلك من حيث النَّظر: أنَّ الإنسان إذا دعا ربَّه فقد اعترف لله عَزَّوَجَلَّ بالكمال وإجابة الدُّعاء وأنَّه على كلِّ شيء قدير وأنَّ العطاء أحبُّ إليه من المنع ثمَّ إنَّه لم يلجأ إلى غيره لم يدع غير الله لا ملكًا ولا نبيًّا ولا وليًّا ولا قريبًا ولا بعيدًا، وهذا هو حقيقة العبادة. وبذلك تعرف أنَّك إذا دعوت الله أثبت على هذا الدُّعاء سواءً استُجيب لك أم لا؛ لأنَّك تعبَّدت لله عَزَّوَجَلَّ وعبدت الله عَزَّوَجَلَّ، فإذا قلت: «يا ربِّ اغفر لي، يا ربِّ ارحمني، يا رب ارزقني، يا رب اهدني»، فهذه عبادة تقرِّبك إلى الله عَزَّوَجَلَّ، ويُكتب الله لك بها ثوابٌ عظيم عنده جلَّ في علاه.

ثمَّ كيف يستكبر المرء عن الدُّعاء وحاجته إليه ماسَّة في صلاح دينه ودنياه وأُخراه! فلا يمكن أن يصلح شيء منها إلَّا بالتَّوجُّه إلى الله، ومن الدُّعاء المأثور عن نبيِّنا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قوله: «**اَللَّهُمَّ أَصْلِحْ لِي دِينِي اَلَّذِي هُوَ عِصْمَةُ أَمْرِي، وَأَصْلِحْ لِي دُنْيَايَ اَلَّتِي فِيهَا مَعَاشِي، وَأَصْلِحْ لِي آخِرَتِي اَلَّتِي فِيهَا مَعَادِي، وَاجْعَلْ اَلْحَيَاةَ زِيَادَةً لِي فِي كُلِّ خَيْرٍ، وَاَلْمَوْتَ رَاحَةً لِي مِنْ كُلِّ شَرٍّ**». رواه مسلم[(١)].

وروى الحاكم بإسناد حسن عن ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مرفوعًا: «أفضل العبادة الدُّعاء، وقرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾»[(٢)]؛ ففي هذا دلالةٌ على فضل الدُّعاء وعظيم كرمه عند الله، ورفيع مكانته من العبادة، وأنَّه روحُها ولبُّها وأفضلُها.

والعبادة كلُّها حقٌّ لله وحده لا يجوز صرف شيء منها لغيره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

---

(١) رواه مسلم (٢٧٢٠).

(٢) رواه أبو داود (١٤٧٩)، والتِّرمذيُّ (٢٩٦٩)، والنَّسائيُّ في الكبرى (١١٤٠٠)، وابن ماجه (٣٨٢٨)، وصحَّحه الألبانِيُّ.

قال الله جَلَّ وَعَلَا عن الدُّعاء: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ٥٥ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥-٥٦]، وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ [الإسراء: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [غافر: ٦٥].

إنَّ الواجبَ على كلِّ مسلمٍ أن يدركَ خطورةَ الأمر، وأن يعلمَ أنَّ هذا حقٌّ خالصٌ لله عَزَّوَجَلَّ لا يجوز أن يُشرَكَ معه فيه غيرُه، وكيف يُشرَكُ المخلوقُ الضَّعيفُ العاجزُ بالملِكِ العظيم! الَّذِي بيده أزمَّةُ الأمور، المتفرِّدُ بإجابةِ الدُّعاءِ وكشف الكروب، الَّذِي له الأمرُ كلُّه وبيده الخيرُ كلُّه وإليه يرجعُ الأمرُ كلُّه، لا مُعقِّب لحكمه ولا رادَّ لقضائه، الَّذِي سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ ما تعلَّق به ضعيفٌ إلَّا أفاده القوَّةَ، ولا ذليلٌ إلَّا أناله العزَّةَ، ولا فقيرٌ إلَّا أعطاه الغنى، ولا مستوحشٌ إلَّا آنسَه، ولا مغلوبٌ إلَّا أيَّده ونصره، ولا مضطرٌ إلَّا كشف ضُرَّه، ولا شريدٌ إلَّا آواه؛ فهو سبحانه الَّذِي يجيب المضطرِّين، ويغيثُ الملهوفين، ويُعطي السَّائلين، لا مانعَ لما أعطى، ولا مُعطي لما منع، لا إله إلَّا هو الملكُ الحقُّ المبين.

فإنَّه لا يكون إلهًا مستحقًّا للعبادة إلَّا مَن كان خالقًا رازقًا مالكًا متصرِّفًا مدبِّرًا لجميع الأمور، حيًّا قيُّومًا سميعًا بصيرًا عليمًا حكيمًا، موصوفًا بكلِّ كمال منزَّهًا عن كلِّ نقص، غنيًّا عمَّن سواه، مفتقرًا إليه كلُّ ما عداه، لا معقِّب لحكمه ولا رادَّ لقضائه، ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السَّماء، ولا يعزب عنه مثقال ذرَّة في السَّماوات ولا في الأرض ولا تخفى عليه خافية، وهذه صفات الله جَلَّ وَعَلَا الَّتِي لا تنبغي إلَّا له، ولا يشركه فيها غيره؛ فكذلك لا يستحقُّ أن يُسأل إلَّا هو، لكمال صفاته وغناه جَلَّ وَعَلَا.

وقد أجمع أهلُ العلم على أنَّ مَن صرف شيئًا من الدُّعاء لغير الله فهو مشركٌ بالله؛ فليحذر مَن يريد لنفسه الفوزَ والسَّعادةَ مِن هذا الإثم المبين والخطرِ العظيم.

ثمَّ ينبغي أن يتنبَّه إلى أنَّ هذا التَّفضيل للدُّعاء في قوله ﷺ: «**الدُّعاء هو العبادة**»، وقوله: «**أفضل العبادة الدُّعاء**»؛ لا يعنِي تفضيل الدُّعاء على غيره من العبادات مطلقًا، بل جنس الذِّكر أفضلُ من جنس الدُّعاء من حيث النَّظر إلى كلٍّ منهما مجرَّدًا، وقراءة القرآن أفضلُ من الذِّكر، والذِّكرُ أفضل من الدُّعاء، هذا من حيث النَّظر إلى كلٍّ منها مجرَّدًا، وقد يعرِض للمفضول ما يجعله أولى من الفاضل.

وهذا بابٌ شريفٌ من العلم ينبغي للمسلم أن يدركه وأن يعتني بفهمه؛ ليدرك الأفضل في كلِّ وقت وحال، وليحوز على الأكمل له في عبادته لربِّه وطاعته لمولاه في كلِّ زمان ومكان، وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ ضابطًا دقيقًا للتَّفاضل بين العبادات وتنوُّع ذلك بحسب أجناس العبادات وأوقاتها واختلاف أمكنتها واختلاف القدرة على القيام بها ونحو ذلك، وعلى ضوئه يُدرك المسلمُ الأفضلَ له بحسب تلك الاعتبارات المشار إليها.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**إنَّ الأفضل يتنوَّع:**

تارةً بحسب أجناس العبادات، كما أنَّ جنسَ الصَّلاة أفضل من جنس القراءة، وجنس القراءة أفضل من جنس الذِّكر، وجنس الذِّكر أفضلُ من جنس الدُّعاء.

وتارةً يختلف باختلاف الأوقات كما أنَّ القراءةَ والذِّكرَ والدُّعاءَ بعد الفجر والعصر هو المشروع دون الصَّلاة.

وتارةً باختلاف عمل الإنسان الظَّاهر، كما أنَّ الذِّكرَ والدُّعاءَ في الرُّكوع والسُّجود هو المشروع دون القراءة، وكذلك الذِّكرُ والدُّعاءُ في الطَّواف مشروع بالاتِّفاق، وأمَّا القراءة في الطَّواف ففيها نزاع معروف.

وتارةً باختلاف الأمكنة؛ كما أنَّ المشروعَ بعرفة ومزدلفة وعند الجِمار وعند الصَّفا والمروة هو الذِّكرُ والدُّعاء دون الصَّلاة ونحوها، والطَّواف بالبيت للوارد أفضلُ من الصَّلاة، والصَّلاة للمقيمين بمكَّة أفضل.

وتارةً باختلاف مرتبة جنس العبادة؛ فالجهاد للرِّجال أفضل من الحجِّ، وأمَّا النِّساء فجهادهنَّ الحجُّ، والمرأة المتزوِّجة طاعتها لزوجها أفضلُ من طاعتها لأبويها، بخلاف الأيِّمة فإنَّها مأمورة بطاعة أبويها.

وتارةً يختلف باختلاف حال قدرة العبد وعجزه؛ فما يقدر عليه من العبادات أفضلُ في حقِّه ممَّا يعجز عنه، وإن كان جنسُ المعجوز عنه أفضلَ.

وهذا بابٌ واسعٌ يغلو فيه كثيرٌ من النَّاس ويتَّبعون أهواءهم، فإنَّ من النَّاسِ مَن يرى أنَّ العملَ إذا كان أفضلَ في حقِّه لمناسبةٍ له ولكونه أنفع لقلبه وأطوع لربِّه يريد أن يجعله أفضلَ لجميع النَّاس ويأمرهم بمثل ذلك، والله بعث محمَّدًا ﷺ بالكتاب والحكمة، وجعله رحمةً للعباد وهاديًا لهم يأمر كلَّ إنسانٍ بِما هو أصلح له؛ فعلى المسلم أن يكون ناصحًا للمسلمين، يقصد لكلِّ إنسان ما هو أصلح له.

وبهذا تبيَّن لك أنَّ من النَّاس من يكون تطوُّعه بالعلم أفضل له، ومنهم مَن يكون تطوُّعُه بالجهاد أفضلَ، ومنهم مَن يكون تطوُّعُه بالعبادات البدنيَّة كالصَّلاة والصِّيام أفضلَ له، والأفضل المطلق ما كان أشبه بحال النَّبِيِّ ﷺ باطنًا وظاهرًا، فإنَّ خيرَ الكلام كلام الله، وخير الهدى هدى محمَّد ﷺ». اهـ

كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١).

وهو كما ترى مشتملٌ على تحقيق متقن وتأصيل وافٍ في هذا الباب العظيم لِمَن أراد لنفسه الأفضلَ والأكملَ في العبادات والأمور المُقرِّبة إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وحاصلُه أنَّ الأفضلَ في كلِّ وقتٍ وحالٍ: هو مراعاة سُنَّة النَّبِيِّ ﷺ في ذلك الوقت والحال، والاشتغال بواجب ذلك الوقت ووظيفته ومقتضاه، فبذلك يدرك المسلم الكمال، ويظفر بالأفضل والأكمل.

على أنَّه ينبغي أن يُعلم أنَّ الأعمالَ المتساوية في الجنس تتفاضل بتفاضل ما في القلوب من الإيمان بالله والمحبَّة له والتَّعظيم لشرعه وقصد وجهه بالعمل تفاضلًا لا يحصيه ولا يحيط به إلَّا الله.

ومن لطيف ما يُذكر في هذا الباب: ما أورده الذَّهبيُّ: في سير أعلام النُّبلاء في ترجمة الإمام مالك بن أنس -إمام دار الهجرة رَحِمَهُ ٱللَّهُ- أنَّ عبد الله بن عمر العُمريَّ العابد كتب إلى الإمام مالك يَحُضُّه على الانفراد والعمل، فكتب إليه مالكُ بن أنس رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنَّ الله قسم الأعمالَ كما قسم الأرزاق، فرُبَّ رجل فُتح له في الصَّلاة، ولم يفتح له في الصَّوم، وآخر فتح له في الجهاد، فنَشْرُ العلم من أفضل أعمال البِرِّ، وقد رضيتُ بِما فتح لي، وما أظنُّ ما أنا فيه بدون ما أنت فيه، وأرجو أن يكون كِلانَا على خير وبِرٍّ»(٢).

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٤٢٧)، والفتاوى الكبرى (٢/ ١٦٤).
(٢) سير أعلام النُّبلاء (٨/ ١١٤).

١٦

فضل الدُّعاء (٥)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قالَ: «**لَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَمَ عَلَى اللهِ مِنَ الدُّعَاءِ**». رواه التِّرمذيُّ وابن ماجه[(١)].

في هذا بيان عظيم شأن الدُّعاء، وعلوِّ مكانته، وأنَّه كريمٌ على الله وحبيبٌ إليه سبحانه، وليس شيءٌ أكرم على الله من الدُّعاء، وفيه محبَّة الله عَزَّوَجَلَّ للدُّعاء ولعباده الدَّاعين، وفيه أنَّ الدُّعاء مستجاب لا يردُّ.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُٱللَّهُ: «والكريم الرَّحيم إذا سئل شيئًا بعينه وعلم أنَّه لا يصلح للعبد إعطاؤه أعطاه نظيره، كما يصنع الوالد بولده إذا طلب منه ما ليس له؛ فإنَّه يعطيه من ماله نظيره -ولله المثل الأعلى- وكما فعل النَّبِيُّ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ لما طلبت منه طائفة من بني عمِّه أن يولِّيهم ولاية لا تصلح لهم؛ فأعطاهم من الخمس ما أغناهم عن ذلك وزوَّجهم كما فعل بالفضل بن عبَّاس وربيعة بن الحارث بن عبد المطَّلب، وقد روي في الحديث «لَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَمَ عَلَى اللهِ مِنَ الدُّعَاءِ» وهذا حقٌّ». اهـ[(٢)].

وَعَنْهُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: قالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**مَنْ لَمْ يَدْعُ اللهَ سُبْحَانَهُ غَضِبَ عَلَيْهِ**» رواه التِّرمذيُّ وابن ماجه واللَّفظ له[(٣)].

---

(١) رواه التِّرمذيُّ (٣٣٧٠)، وابن ماجه (٣٨٢٩)، وحسَّنه الألبانِيُّ.

(٢) مجموع الفتاوى (١٤/ ٣٦٨).

(٣) رواه التِّرمذيُّ (٣٣٧٣)، وابن ماجه (٣٨٢٧)، وحسَّنه الألبانِيُّ.

أي: أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يغضب ممَّن يُعرض عن سؤاله ويرغب عن دعائه سبحانه. ومفهوم المخالفة لذلك: أنَّ الله يحبُّ مَن يدعوه؛ إذا كان يغضب ممَّن يترك دعائه فهو يُحبُّ مَن يدعوه ويقبِل عليه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بالدُّعاء، وكلَّما عَظُم إلحاح العبد على الله بالدُّعاء والسُّؤال عَظُم حُبُّ الله له، فهو يحبُّ عباده الملحِّين عليه بالدُّعاء، يقول الشَّاعر:

الله يغضب إن تركت سؤاله ... وبُنَيُّ آدم حين يُسألُ يغضبُ

ابنُ آدم إذا أُلِحَّ عليه بالسُّؤال غضب ممَّن يسأله، بينما ربُّ العالمين جَلَّوَعَلَا يُحبُّ إلحاح الملحِّين، ويحبُّ تضرُّع المتضرِّعين المكثرين من السُّؤال والدُّعاء، بل إنَّه أمر بذلك، قال جَلَّوَعَلَا: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ﴾ [الأعراف: ٥٥]؛ لأنَّ الدُّعاء هيئة ذُلٍّ وافتقار يُحبُّها الله، ويُحبُّ من عبده أن يفتقر إليه، ويتذلَّل بين يديه، وأن يسأله حاجاته كُلَّها الدِّينيَّة والدُّنيويَّة والأخرويَّة؛ لأنَّها كلَّها بيده، وفي الدُّعاء «**اللَّهُمَّ أصلح لي ديني الَّذِي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي الَّتِي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي الَّتِي فيها معادي**»(١)؛ فصلاح الدِّين والدُّنيا والآخرة كلُّه بيد الله. قال الأوزاعيُّ رَحِمَهُٱللَّهُ: «كان يُقال: أفضل الدُّعاء الإلحاح على الله والتَّضرُّع». رواه البيهقيُّ في شعب الإيمان(٢).

وفي الحديث أيضًا دليل على أنَّ الدُّعاءَ من العبد لربِّه من أهمِّ الواجبات وأعظمِ المفروضات؛ لأنَّ تجنُّبَ ما يغضب الله منه لا خلاف في وجوبه، وقد تقدَّم قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، وهو يدلُّ على أنَّ تركَ العبدِ دعاءَ ربِّه يُعدُّ من الاستكبار، وتجنُّبُ ذلك لا شكَّ في وجوبه.

---

(١) رواه مسلم (٢٧٢٠).
(٢) شعب الإيمان للبيهقيِّ (١٠٧٢).

وَعَنْهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**يَنْزِلُ رَبُّنَا** تَبَارَكَ وَتَعَالَى **كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ، فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟**». رواه البخاريُّ ومسلم(١).

هذا الحديث -حديث النُّزول الإلهيِّ- حديثٌ عظيم في بيان وقتٍ شريف للدُّعاء، وأنَّ الدُّعاء فيه مستجاب وأرجى من غيره، وهو الثُّلث الأخير من اللَّيل، قال الله تعالى: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذَّاريات: ١٨]، ويكفي شرفًا لهذا الوقت ومكانةً له؛ أنَّ ربَّ العالمين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ينزل فيه -كما أخبر نبيُّه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- نزولًا يليق بجلاله وكماله إلى السَّماء الدُّنيا. ولهذا جاء في بعض روايات الحديث: «**لَا أَسْأَلُ عَنْ عِبَادِي أَحَدًا غَيْرِي**»(٢)، ويقول جَلَّ وَعَلَا: «مَن يدعوني؟ مَن يسألني؟ مَن يستغفرني؟»؛ يقول ذلك في هذا الوقت كلَّ ليلة، فهو أحرى أوقات إجابة الدُّعاء.

فالحديثُ دليلٌ على فضلِ هذا الوقتِ المباركِ، وأنَّه أفضلُ أوقات الدُّعاء والاستغفار والإقبال على الله بالسُّؤال، وأنَّ الدُّعاءَ في هذا الوقت مستجابٌ، قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ: «والنَّاس في آخر اللَّيل يكون في قلوبهم من التَّوجُّه والتَّقرُّب والرِّقةِ ما لا يوجد في غير ذلك الوقت، وهذا مناسبٌ لنزوله إلى سماء الدُّنيا، وقوله: هل من داعٍ، هل من سائل، هل من تائب» اهـ كلامُه رَحِمَهُ اللَّهُ(٣).

---

(١) رواه البخاريُّ (١١٤٥)، ومسلم (٧٥٨).
(٢) رواه أحمد (١٦٢١٥)، والنَّسائيُّ في الكبرى (١٠٢٣٦)، وصحَّحها الألبانِيُّ كما في الصَّحيحة (٨/ ٣٥٩).
(٣) مجموع الفتاوى (٥/ ١٣٠).

ﮚ **ومِمَّا ورد أيضًا في فضل الدُّعاء:** ما رواه البخاريُّ في الأدب المفرد، وابن حِبَّان في صحيحه عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ موقوفًا، والطَّبرانِيُّ في الأوسط عنه، عن النَّبِيِّ ﷺ مرفوعًا قال: «**أَعْجَزُ النَّاسِ مَنْ عَجزَ عَنِ الدُّعَاءِ، وَأَبْخَلُ النَّاسِ مَنْ بَخِلَ بِالسَّلَامِ**»[1]؛ فالدُّعاءُ أمرُه يسيرٌ جدًّا على كلِّ أحدٍ، فهو لا يتطلَّب جهدًا عند القيام به، ولا يلحق الدَّاعي بسببه تعبٌ ولا مشقَّةٌ؛ ولهذا فإنَّ العجزَ عنه والتَّواني في أدائه هو أشدُّ العَجز، وحَرِيٌّ بِمَن عجز عنه مع يُسرِه وسهولته أن يعجز عن غيره، ولا يَعجزُ عن الدُّعاء إلَّا دَنِيُّ الهمَّةِ ضعيفُ الإيمان.

ﮚ **ومِمَّا جاء في فضل الدُّعاء:** ما رواه الإمام أحمد وابن ماجه وغيرهما عن ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «لَا يَرُدُّ الْقَدَرَ إِلَّا الدُّعَاءُ»[2]؛ فهذا فيه دليل على أنَّ الله سبحانه يدفع بالدُّعاء ما قد قضاه على العبد، وقد ورد في هذا المعنى أحاديثُ عديدة، وحاصل معناها: أنَّ الدُّعاءَ مِن قَدَرِ الله عَزَّ وَجَلَّ؛ إذ إنَّه سبحانه قد يقضي بالأمر على عبدِه قضاءً مقيَّدًا بأن لا يدعوه، فإذا دعاه اندفع عنه. وفي هذا دلالةٌ على أنَّ الدُّعاءَ من أعظم الأسباب الَّتِي تُنال بها سعادة الدُّنيا والآخرة، خلافًا لمَن يعتقد أنَّ الدُّعاءَ لا تأثيرَ له في حصول مطلوبٍ ولا دفع مرهوبٍ، وإنَّما هو مجرَّدُ عبادةٍ محضةٍ، وأنَّ ما حصل به يحصل بدونه، ولا يقول هذا مَن عَرَفَ قدرَ الدُّعاء.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولهذا أُمر النَّاسُ بالدُّعاءِ والاستعانَةِ وغيرِ ذلك مِن الأسباب، ومَن قال: «أنا لا أدعو ولا أسألُ» اتِّكالًا على القَدَرِ كان مخطئًا؛ لأنَّ اللهَ جعلَ الدُّعاءَ والسُّؤالَ من الأسباب الَّتِي ينال بها مغفرتُه

(١) الأدب المفرد (١٠٤٢)، وصحيح ابن حِبَّان (٤٤٩٨)، وصحَّحه الألبانِيُّ.
(٢) رواه أحمد (٢٢٤١٣)، وابن ماجه (٤٠٢٢)، وحسَّنه الألبانِيُّ.

ورحمتُه وهداه ونصرُه ورزقُه، وإذا قدَّر للعبد خيرًا يناله بالدُّعاءِ لَم يَحصل بدون الدُّعاء، وما قدَّر اللهُ وعَلِمَه من أحوالِ العباد وعواقبِهم فإنَّما قدَّره الله بأسبابٍ يسوقُ المقاديرَ إلى المواقيت، فليس في الدُّنيا والآخرة شيء إلَّا بسبب، والله خالقُ الأسباب والمسبَّبَات». اهـ[(١)].

ﮧ **وممَّا ورد في فضل الدُّعاء:** ما رواه مسلم عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا رَوَى عَنِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ: «**يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا؛ فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ**»[(٢)].

وفي الحديث دلالةٌ على أنَّ اللهَ يحبُّ أن يسأله العبادُ جميعَ مصالح دينهم ودنياهم؛ من الطَّعام والشَّراب والكسوة وغير ذلك، كما يسألونه الهدايةَ

---

(١) مجموع الفتاوى (٨/ ٦٩ - ٧٠).

(٢) رواه مسلم (٢٥٧٧).

والمغفرةَ والتَّوفيقَ والإعانةَ على الطَّاعةِ ونحوَ ذلك، ووعدَهم سبحانه على ذلك كلِّه بالإجابة.

وفيه أيضًا دلالةٌ على كمال قدرةِ الله سبحانه وكمال ملكِه، وأنَّ ملكَه وخزائنَه لا تنفدُ ولا تنقصُ بالعطاء، ولو أعطى الأوَّلين والآخرين من الجنِّ والإنس جميعَ ما سألوه في مقامٍ واحد.

وفي ذلك حثٌّ على الإكثار من سؤاله وإنزال جميع الحوائج به، وفي الصَّحيحين عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**يَدُ اللهِ مَلْأَى لَا تَغِيضُهَا**[١] **نَفَقَةٌ سَحَّاءُ اللَّيل والنَّهار، أفرأيتم ما أنفق ربُّكم منذ خلق السَّموات والأرض! فإنَّه لَم يَغِضْ ما في يمينه**»[٢].

وتأمَّل قوله سبحانه في الحديث: «**مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ**»؛ فإنَّ فيه تحقيقًا بأنَّ ما عند الله لا ينقص البتَّة، كما قال تعالى: ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾ [النَّحل: ٩٦]، فإنَّ البحرَ إذا غُمس فيه إبرة ثمَّ أُخرجت لَم تُنقِص من البحر شيئًا، وكذلك لو فُرض أنَّ عصفورًا شرب منه فإنَّه لا يُنقص البحر شيئًا، وهو سبحانه إذا أراد شيئًا من عطاءٍ أو عذاب أو غيرِ ذلك قال له: كن فيكون، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [النَّحل: ٤٠]، فكيف يُتصوَّر فيمن هذا شأنُه أن ينقص ما عنده أو ينفد!!

(١) أي: لا تُنقصها.
(٢) رواه البخاريُّ (٤٦٨٤)، ومسلم (٩٩٣).

١٧
فضل الاستغفار

الاستغفار: هو طلب مغفرة الذُّنوب، والتَّجاوز عن الخطايا والتَّقصير في جنب الله، والله عَزَّوَجَلَّ أمر بالاستغفار وحثَّ عليه في آيٍ كثيرة من كتابه، وبيَّن أنَّه يغفر ذنوب المذنبين، ويقبل استغفار المستغفرين، ويُجيبُ دعاءهم، ويغفر ذنوبهم، ويُقِيل عثراتهم، ويغفر زلَّتهم، قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، فأخبر عن نفسه بغفران الذُّنوب، ومن أسمائه سبحانه: «الغفور»، و«الغفَّار»، و«التَّوَّاب»، ودعا عباده إلى الاستغفار ورغَّبهم فيه وحثَّهم عليه في آيات كثيرة.

قال الله تعالى: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ [نوح: ١٠-١٢].

﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾، أي: يغفر الذُّنوب مهما عظمت، ومَن طلب من الله صادقًا أن يغفر له؛ غفر له سبحانه، وقوله سبحانه: ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ هذه ثمار معجَّلة في الدُّنيا للاستغفار، أمَّا ثوابه في الآخرة فأجلُّ وأعظم.

فينبغي على العبد ألَّا يغفل عن الاستغفار وأن يكون مُكثرًا منه، فالاستغفار فتح باب الرِّزق، وحلول البركة، وزوال الهموم، وحُصول التَّيسير والخير

والفرج، ودفع البلاء والشِّدَّة واللَّأواء، وثماره وآثاره وبركاته على العبد في دنياه وأُخراه لا حدَّ لها ولا عدَّ.

يُروى أنَّ أميرَ المؤمنين عمر بن الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خرج يستسقي فلم يزد على الاستغفار حتَّى رجع، فأُمطروا؛ فقالوا: ما رأيناك استسقيتَ؟ فقال: «لقد طلبتُ المطرَ بِمجاديح السَّماء الَّتِي يستنزل بها المطر، ثمَّ قرأ: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾»(١).

وقال ابن صَبيح: شكا رجلٌ إلى الحسن البصريِّ: الجدوبةَ، فقال له: «**استغفِرِ الله**»، وشكا إليه آخر الفقر، فقال له: «**استغفِرِ الله**»، وقال له آخر: ادع الله أن يرزقني ولدًا، فقال له: «**استغفِرِ الله**»، وشكا إليه آخر جفاف بستانه، فقال له: «استغفِرِ الله»، فقلنا له في ذلك؟ فقال: ما قلت من عندي شيئًا، إنَّ الله تعالى يقول في سورة نوح: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا﴾(٢).

ومعنى الآية، أي: إذا تُبتم إلى الله واستغفرتموه وأطعتموه كثَّر الرِّزق عليكم، وأسقاكم من بركات السَّماء، وأنبتَ لكم من بركات الأرض، وأنبتَ لكم الزَّرعَ، وأدرَّ لكم الضَّرع، وأمدَّكم بأموالٍ وبنينَ، أي: أعطاكم الأموالَ والأولادَ، وجعل لكم جنَّاتٍ فيها أنواع الثِّمار وخلَّلها بالأنهار الجارية بينها، إلى غير ذلك من صنوف الخيرات وأنواع العطايا والهبات.

وقال تعالى: ﴿وَيَـٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ٥٢].

هذه كلُّها آثار عظيمة للاستغفار؛ ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ فهو من

(١) رواه ابن أبي شيبة في المصنَّف (٨٣٤٣)، وابن أبي الدُّنيا في المطر والرَّعد (٨٤).
(٢) انظر: فتح الباري (١١/ ٩٨).

أعظم أسباب نزول الغيث، وحلول البركة، وخروج بركات الأرض من زروع ونبات، وأشجار وثمار نافعات، ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾، أي: ويحصُل بها قوَّة الأبدان وصحَّة الأجساد، فكم فيه من بركة عظيمة.

فجميع الضَّائقات؛ من جفاف الأرض، وحصول الفقر والعوز والحاجة، وتوالي الكُرب، إلى غير ذلك زوالها بأن يكثر العبد من الاستغفار، وكثرة الاستغفار من العبد أمارة الفرج، وحلول الخير، والبركة وزوال الهموم والكرب بإذن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وقال الله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَـٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ [هود: ٣].

وهذه أيضًا من عوائد الاستغفار وثماره وآثاره العظيمة؛ ﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَـٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: يُعطكم من رزقه ما تتمتَّعون به وتنتفعون ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، أي: إلى وقت وفاتكم ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾، أي: يعطي أهل الإحسان والبِرِّ من فضله وبرِّه ما هو جزاءٌ لإحسانهم من حصول ما يحبُّون ودفع ما يكرهون.

وقال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣].

هذه آية عظيمة في شأن الاستغفار؛ ففيها أنَّ العبد في أمانٍ من العذاب ما دام مُكثرًا من الاستغفار، قال ابن عبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «كان فيهم -أي الأمَّة- أمانان: النَّبيُّ ﷺ، والاستغفار؛ فذهب النَّبيُّ ﷺ وبقي الاستغفار»(١)، فهذا أمانٌ باقي في الأمَّة ما داموا مكثرين من الاستغفار، وكلَّما عظمت عناية الأمَّة

(١) جامع البيان للطَّبريِّ (١٣/ ٥١٢).

به دفع الله به عن العباد والبلاد من البلايا والمحن والرَّزايا والنِّقم ما يعلمون وما لا يعلمون.

وفي السُّنَّة أحاديث كثيرة في الحثِّ على الاستغفار والتَّرغيب فيه وبيان فضله:

روى ابن ماجه في سننه عن عبد الله بن بُسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**طُوبَى لِمَنْ وَجَدَ فِي صَحِيفَتِهِ اسْتِغْفَارًا كَثِيرًا**»(١).

وروى الطَّبرانِيُّ في الأوسط والضِّياء المقدسيُّ في الأحاديث المختارة عن الزُّبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ أَحَبَّ أَنْ تَسرَّه صَحِيفَتُهُ فَلْيُكْثِرْ فِيهَا مِنَ الِاسْتِغْفَارِ**»(٢).

وروى أبو داود والتِّرمذيُّ وغيرُهما عن بلال بن يسار بن زيد عن أبيه عن جدِّه أنَّه سمع النَّبيَّ ﷺ، يقول: «**مَنْ قَالَ: أَسْتَغْفِرُ اللهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ، غُفِرَ لَهُ وَإِنْ كَانَ فَرَّ مِنَ الزَّحْفِ**»(٣).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**وَاللهِ إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً**». رواه البخاريُّ(٤).

وثبت عن أبي هريرة سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنَّه قال: «**مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَكْثَرَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَقُولُ: أَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ**»(٥).

---

(١) رواه ابن ماجه (٣٨١٨)، وصحَّحه الألبانِيُّ.
(٢) الطَّبرانِيُّ في الأوسط (٨٣٩)، والضِّياء في المختارة (٨٩٢)، وحسَّنه الألبانِيُّ في صحيح التَّرغيب والتَّرهيب (١٦١٩).
(٣) رواه أبو داود (١٥١٧)، والترمذي (٣٥٧٧)، وصحَّحه الألبانِيُّ.
(٤) رواه البخاريُّ (٦٣٠٧).
(٥) رواه النَّسائِيُّ في الكبرى (١٠٢١٥)، وابن حِبَّان (٩٢٤)، وصحَّحه الألبانِيُّ.

وهذا يدلُّ على كثرة ملازمته ﷺ للاستغفار وعظيم عنايته به، مع أنَّه ﷺ قد غفر الله له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر! إلَّا أنَّه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كان كثير الاستغفار في مجالسه، وكان الصَّحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ يحصون له في مجالسه استغفاراتٍ كثيرة، وكثيرًا ما يسمعونه صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ يقول: «**أَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ**»، ويقول: «**رَبِّ اغْفِرْ لِي، وَتُبْ عَلَيَّ**»، ونحو ذلك.

فكان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ملازمًا للاستغفار في كلِّ أوقاته، حتَّى إنَّه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ختم حياته الشَّريفة وعمره المديد بالاستغفار، كما جاء في حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا تقول: مات ﷺ بين سحري ونحري، وسمعته يقول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي وَارْحَمْنِي وَأَلْحِقْنِي بِالرَّفِيقِ الأَعْلَى**»(١)، فهذا ختمٌ لحياته كلِّها المباركة صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ بالاستغفار، كما أنَّه كان يختم مجالسه بالاستغفار.

وأخرج النَّسائيُّ عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ جَمَعَ النَّاسَ فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ تُوبُوا إِلَى اللهِ، فَإِنِّي أَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ**»(٢).

وعن الأغرِّ المزنيِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ**». رواه مسلم(٣). قوله: «**لَيُغَانُ**»؛ الغين: الغيم، والمراد: ما يغشاه من السَّهو الَّذي لا يسْلم منه البشر.

فهذا فيه أثر الاستغفار على القلب، وأنَّه يجلو عن القلب كلَّ ما يغشاه من قليل أو كثير، فكلَّما كان العبد كثير الاستغفار كان هذا الاستغفار جِلاءً لقلبه وزكاءً لنفسه.

(١) رواه التِّرمذيُّ (٣٤٩٦)، وابن ماجه (١٦١٩)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٢) رواه النَّسائيُّ في الكبرى (١٠١٩٢)، ونحوه عند التِّرمذيِّ (٣٢٥٩)، وابن ماجه (٣٨١٥)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٣) رواه مسلم (٢٧٠٢).

وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «إِنْ كُنَّا لَنَعُدُّ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ فِي الْمَجْلِسِ الْوَاحِدِ مِائَةُ مَرَّةٍ: رَبِّ اغْفِرْ لِي وَتُبْ عَلَيَّ، إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ». رواه أبو داود والتِّرمذيُّ(١).

وقد ثبت عنه ﷺ في الاستغفار صيغٌ عديدة:

- منها قوله: «**أستغفر الله وأتوب إليه**»، قال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَكْثَرَ مِنْ أَنْ يَقُولَ: أستغفرُ اللهَ وأتوبُ إليه مِن رسول الله ﷺ**»(٢).

- ومنها قوله: «**ربِّ اغفر لي، وتُب عليَّ إنَّك أنت التَّوَّاب الرَّحيم**»، وقد تقدَّم في حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

- ومنها ما ثبت في الصَّحيحين: أنَّ أبا بكر قال للنَّبيِّ ﷺ: «**عَلِّمْنِي دُعَاءً أَدْعُو بِهِ فِي صَلَاتِي؟**» قَالَ: «**قُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ وَارْحَمْنِي، إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**»(٣).

- ومنها ما في الصَّحيحين من حديث أبي موسى الأشعريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه كان يدعو بهذا الدُّعاء: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي وَجَهْلِي، وَإِسْرَافِي فِي أَمْرِي، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي جِدِّي وَهَزْلِي، وَخَطَئِي وَعَمْدِي، وَكُلُّ ذَلِكَ عِنْدِي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ، وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**»(٤).

---

(١) رواه أبو داود (١٥١٦)، والتِّرمذيُّ (٣٤٣٤)، وصحَّحه الألبانِيُّ.
(٢) رواه النَّسائيُّ في الكبرى (١٠٢١٥)، وابن حِبَّان (٩٢٤)، وصحَّحه الألبانِيُّ.
(٣) رواه البخاريُّ (٨٣٤)، ومسلم (٢٧٠٥).
(٤) رواه البخاريُّ (٦٣٩٨)، ومسلم (٢٧١٩).

- ومنها ما ثبت في صحيح مسلم أنَّه كان من آخر ما يقوله ﷺ بين التَّشهُّد والتَّسليم: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، وَمَا أَسْرَفْتُ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ**»[(١)].

- ومنها -وهو أتَمُّها وأكملُها- سيِّدُ الاستغفار، وسيأتي عنه حديث لاحقٌ بإذن الله.

(١) رواه مسلم (٧٧١).

١٨
شروط الدُّعاء وآدابه (١)

هذا بابٌ مهمٌّ ينبغي على الدَّاعي أن يعنى به؛ ليكون ذلك موجبًا لقبول دعائه وعدم ردِّ سؤاله؛ ذلك أنَّ الدُّعاء له شروطٌ وآدابٌ تثمر قبول الدُّعاء وعدم ردِّه، وأيضًا ثمَّة موانع تمنع من إجابة الدُّعاء، فعلى العبد أن يُعنى بهذا المقام عناية عظيمة، بأن يعرف موجبات قبول الدُّعاء فيحقِّقها؛ لتكون سببًا لقبول دعائه، وأن يعرف أيضًا موانع قبول الدُّعاء ليتَّقيها ويحذرها؛ لأنَّها موجبةٌ لردِّ دعائه، **وفي هذا الباب آياتٌ وأحاديث كثيرة.**

قال الله تعالى: ﴿فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [غافر: ٦٥].

هذا أهمُّ شرط وأعظم ضابط في هذا الباب؛ ﴿فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ﴾، أي: أخلصوا الدُّعاء لله، فلا تدعوا إلَّا الله، وفي حديث ابن عبَّاس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا قال: قال النَّبيُّ ﷺ: «**إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ**»(١).

ودعاء غير الله كفرٌ وضلال، قال الله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ﴾ [الأحقاف: ٥]، وقال تعالى:

(١) رواه التِّرمذيُّ (٢٥١٦)، وصحَّحه الألبانيُّ.

﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ﴾ [سبأ: ٢٢]، والآيات في هذا المعنى كثيرة. فهذا أعظم ضابط؛ أن يكون الدُّعاء خالصًا لله.

وإذا كان العبد مخلصًا في عبادته مفردًا ربَّه بها موحِّدًا، فهذا أعظم النِّعم وأكبر المنن، ولهذا أُتبع الإخلاص في الآية بالحمد ﴿فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [غافر: ٦٥]، فهذه أكبر نعمة وأعظم مِنَّة؛ أن يكون العبد من أهل الإخلاص والتَّوحيد؛ ولهذا خُتمت بحمده سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ على هذه النِّعمة العظيمة.

وقال تعالى: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ٥٥ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥-٥٦].

جمعت هاتان الآيتان جملة من الآداب العظيمة للدُّعاء، **ولعلِّي أشير إليها باختصار:**

الأوَّل: قوله ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ﴾، أي: وحِّدوه دون سواه؛ فالدُّعاء عبادة لا يلتجئ فيها إلَّا إلى ربِّ العالمين، ولا يستحقُّها أحدٌ سواه.

الثَّاني: قوله ﴿تَضَرُّعٗا﴾، والتَّضرُّع: هو الإلحاح ودوام السُّؤال والطَّلب؛ أي: أَلِحَّ على الله بالدُّعاء، وأكثر من الدُّعاء والسُّؤال، فالله يحبُّ منك أن تُلحَّ عليه، ويحبُّ إلحاحَ الملحِّين وتضرُّع المتضرِّعين.

الثَّالث: ﴿وَخُفۡيَةً﴾، أي: بينك وبين الله؛ فلا ترفع صوتك به، بل تدعوه دعاءً خفيًّا بصوتٍ خافت. وليس المراد بـ«خفية» ألَّا تحرِّك لسانك، بل حرِّك

لسانك بكلمات الدُّعاء ولكن بصوتٍ خافت، قال الله عَزَّوَجَلَّ عن زكريَّا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾ [مريم: ٣]؛ ناداه نداء خفيًّا ليكون أكمل وأتمَّ في إخلاصه لربِّه سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

الرَّابع: قوله ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾، والاعتداء في الدُّعاء بابه واسع، ويمكن جمع ذلك في كلِّ ما خالف السُّنَّة، ففي الآية التَّحذير من الاعتداء في الدُّعاء بمخالفة هدي النَّبيِّ الكريم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وقد قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**سَيَكُونُ بَعْدِي قَوْمٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَعْتَدُونَ فِي الدُّعَاءِ وَالطُّهُورِ**»(١).

الخامس: قوله ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا﴾، أي: بعد أن أصلحها الله بالتَّوحيد والسُّنَّة والهدي القويم الَّذي جاء به النَّبيُّ الكريم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فلا تفسدوها بالشِّرك، ولا تفسدوها بالبدع والمعاصي، بل اعتنوا بهذا الصَّلاح تحقيقًا له ومداومةً عليه وحفظًا له. وقد وسَّط سبحانه النَّهي عن الإفساد في أثناء الأمر بالدُّعاء للإيذان بأن مَن لا يعرف نفسه بالحاجة والافتقار إلى رحمة ربِّه الغني القدير وفضله وإحسانه، ولا يدعوه تضرُّعًا وخُفية ولا خوفًا من عقابه وطمعًا في غفرانه، فإنَّه يكون أقرب إلى الإفساد منه إلى الإصلاح.

السَّادس والسَّابع: قوله ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾، أي: اجمعوا في دعاءكم بين الخوف والطَّمع، الرَّجاء والخوف؛ وهذان ركنان لا بُدَّ منهما في كلِّ عبادة، بأن تدعو الله وتعبده وتقوم بكلِّ طاعةٍ وأنت ترجو رحمة الله وتخاف عذابه.

ثمَّ ختمها بقوله: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، وهذا فيه إشارة إلى تحقيق مقام الإحسان في العبادة، وهو كما قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ**».

قال الشَّيخ ابن سِعديٍّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وحاصل ما ذكر الله من آداب الدُّعاء:

(١) رواه أبو داود (١٤٨٠)، وابن ماجه (٣٨٦٤)، وصحَّحه الألبانيُّ.

الإخلاص فيه لله وحده، لأنَّ ذلك يتضمَّنه الخفية وإخفاؤه وإسراره، وأن يكون القلب خائفًا طامعًا، لا غافلًا ولا آمنًا ولا غير مبال بالإجابة، وهذا من إحسان الدُّعاء؛ فإنَّ الإحسان في كلِّ عبادة بذل الجهد فيها، وأداؤها كاملة لا نقص فيها بوجه من الوجوه، ولهذا قال: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، أي: في عبادة الله، المحسنين إلى عباد الله، فكلَّما كان العبد أكثر إحسانًا كان أقرب إلى رحمة ربِّه، وكان ربُّه قريبًا منه برحمته، وفي هذا من الحثِّ على الإحسان ما لا يخفى»[١].

وقوله سبحانه: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ تضمَّن كما تقدَّم أدبًا عظيما من آداب الدُّعاءِ، ألا وهو إخفاؤُه وإسرارُه وعدمُ الجهرِ به، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، وقد ثبت في الصَّحيحين عن أبي موسى الأشعريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «**رَفَعَ النَّاسُ أَصْوَاتَهُمْ بِالدُّعَاءِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ** ﷺ: **أَيُّهَا النَّاسُ، ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، فَإِنَّكُمْ لا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلا غَائِبًا، إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ**»[٢].

قال الحسن البصريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «لقد أدركنا أقوامًا ما كان على الأرضِ من عملٍ يقدرون أن يعملوه في السِّرِّ فيكون علانيةً أبدًا، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدُّعاء وما يُسمع لهم صوتٌ، إن كان إلَّا همسًا بينهم وبين ربِّهم عَزَّ وَجَلَّ، وذلك أَنَّ الله تعالى يقول: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾، وذلك أنَّ الله ذكَرَ عبدًا صالحًا رضيَ فِعلَه فقال: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾»[٣].

وقال ابن جُريج رَحِمَهُ اللَّهُ: «يكره رفعُ الصَّوت والنِّداءُ والصِّياحُ في الدُّعاء،

---

(١) تيسير الكريم الرَّحمن (ص٢٩١).
(٢) رواه البخاريُّ (٦٣٨٤)، ومسلم (٢٧٠٤).
(٣) رواه ابن جرير في جامع البيان (١٤٧٧٧).

ويؤمر بالتَّضرُّع والاستكانة»(١)، فإخفاء الدُّعاء وعدمُ الجهرِ به أدبٌ لا بُدَّ منه، ويترتَّبُ عليه من الفوائد والفضائل والمنافعِ ما لا يُعدُّ ولا يُحصى.

﴿ وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيميَّة: لإخفاء الدُّعاء فوائدَ عديدةً يتبيَّن من خلالها أهميَّةُ إخفاء الدُّعاء وكثرةُ العوائدِ والفضائل المترتِّبةِ على إخفائِه:

أحدها: أنَّه أعظمُ إيمانًا؛ لأنَّ صاحبَه يعلم أنَّ الله يسمع الدُّعاءَ الخفيَّ.

وثانيها: أنَّه أعظمُ في الأدب والتَّعظيمِ، فإذا كان يسمع الدُّعاءَ الخفيَّ؛ فلا يليق بالأدب بين يديه إلَّا خفض الصَّوت به.

ثالثها: أنَّه أبلغُ في التَّضرُّعِ والخشوع الَّذِي هو روح الدُّعاء ولُبُّه ومقصودُه؛ فإنَّ الخاشعَ الذَّليلَ إنَّما يسألُ مسألةَ مسكين ذليلٍ قد انكسر قلبُه وذلَّت جوارحُه وخشع صوتُه.

رابعها: أنَّه أبلغُ في الإخلاص.

خامسُها: أنَّه أبلغُ في جَمعيَّةِ القلبِ على الذِّلَّةِ في الدُّعاء، فإنَّ رفعَ الصَّوتِ يفرِّقه، فكلَّما خفض صوتَه كان أبلغَ في تجريدِ همَّته وقصدِه للمدعو سبحانه.

سادسها: أنَّه دالٌّ على قربِ صاحبِه للقريب، لا مسألة نداء البعيد للبعيد، ولهذا أثنى الله على عبدِه زكريَّا بقوله: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾، فلمَّا استحضر القلبُ قُرْبَ الله وأنَّه أقربُ إليه من كلِّ قريبٍ أخفى دعاءَه ما أمكنه.

سابعُها: أنَّه أدعى إلى دوامِ الطَّلبِ والسُّؤال؛ فإنَّ اللِّسانَ لا يمَلُّ، والجوارحَ لا تتعب، بخلاف ما إذا رفع صوتَه، فإنَّه قد يملُّ اللِّسان وتضعفُ قواه، وهذا نظير مَن يقرأُ ويكرِّر، فإذا رفع صوتَه فإنَّه لا يطول له، بخلاف مَن خفض صوتَه.

---

(١) جامع البيان للطَّبريِّ (١٢/ ٤٨٧).

ثامنها: أنَّ إخفاءَ الدُّعاء أبعدُ له من القواطعِ والمشوِّشات، فإنَّ الدَّاعيَ إذا أخفى دعاءَه لَم يدرِ به أحدٌ، فلا يحصلُ على هذا تشويشٌ ولا غيره، وإذا جهر به فرطت الأرواحُ البشريَّة ولا بُدَّ، ومانعته وعارضته، ولو لَم يكن إلَّا أنَّ تعلُّقها به يُفزع عليه هِمَّتَه فيضعفُ أثرُ الدُّعاء، ومَنْ له تجربةٌ يعرف هذا، فإذا أسرَّ الدُّعاءَ أمِن هذه المفسدةَ.

تاسعُها: أنَّ أعظمَ النِّعمةِ الإقبالُ والتَّعبُّد، ولكلِّ نعمةٍ حاسد على قَدرِها، دقَّت أو جلَّت، ولا نعمةَ أعظمُ من هذه النِّعمةِ، فإنَّ أنفُسَ الحاسدين متعلِّقةٌ بها، وليس للمحسود أسلمُ من إخفاءِ نعمتِه عن الحاسدِ، وقد قال يعقوب ليوسف عَلَيۡهِمَاٱلسَّلَامُ: ﴿لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ﴾ [يوسف: ٥] الآية.

فهذه جملةٌ من الفوائدِ العظيمةِ والثِّمارِ الكريمةِ التي تترتَّبُ على إخفاءِ الذِّكرِ وعدمِ الجهرِ به، ومِن خلالها يظهرُ للمسلم أهميَّةُ إخفاءِ الدُّعاء وإسرارِه، بخلاف الجهرِ به وإعلانِه، فإنَّه يترتَّبُ عليه ضِدُّ ذلك.

١٩

شروط الدُّعاء وآدابه (٢)

إنَّ من الضَّوابطِ المهمَّةِ للدُّعاء: أن يحذر المسلمُ أشدَّ الحَذر من الاعتداء فيه، والاعتداءُ: هو تجاوز ما ينبغي أن يُقتصرَ عليه، يقول الله تعالى: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥]، فأرشد تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في هذه الآيةِ الكريمةِ عبادَه إلى دعائه الَّذي هو صلاحُ دينهم ودنياهم وأخراهم، ثمَّ نهاهم سبحانه في هذا السِّياق عن الاعتداء بإخباره أنَّه لا يحبُّ المعتدين، فدلَّ ذلك على أنَّ الاعتداء مكروهٌ له مسخوطٌ عنده، لا يُحبُّ فاعلَه، ومَن لا يحبُّه الله فأيُّ خيرٍ ينال! وأيُّ فضلٍ يُؤمَّل!

ثمَّ إنَّ النَّهيَ عن الاعتداء في الآية وإن كان جاء عامًّا يشملُ كلَّ نوع من الاعتداء، إلَّا أنَّه لمجيئِه عقِب الأمر بالدُّعاء يدلُّ دلالةً خاصَّة على المنع من الاعتداءِ في الدُّعاء والتَّحذير منه، وبيانِ أنَّ الدُّعاءَ المشتملَ على الاعتداء لا يحبُّه الله من عباده ولا يرضاه لهم؛ ولهذا روي عن ابن عبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾، قال: «**في الدُّعاء ولا في غيره**»[١]، وعن قتادة: في معنى الآية قال: «**اعْلَمُوا أَنَّ فِي بَعْضِ الدُّعاءِ اعْتِدَاءً؛ فَاجْتَنِبُوا الْعُدْوَانَ وَالِاعْتِدَاءَ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ**»[٢]، وعن الرَّبيع رَحِمَهُ ٱللَّهُ في معنى الآية قال: «**إِيَّاكَ أَنْ تَسْأَلَ رَبَّكَ أَمْرًا قَدْ نُهِيتَ عَنْهُ أَوْ مَا يَنْبَغِي لَكَ**»[٣].

(١) جامع البيان للطَّبريِّ (١٢/ ٤٨٧).
(٢) الدُّرُّ المنثور للسُّيوطيِّ (٣/ ٤٧٥).
(٣) الدُّرُّ المنثور للسُّيوطيِّ (٣/ ٤٧٦).

وقد جاء عن النَّبِيِّ ﷺ ما يدلُّ على أنَّ من الأُمَّة مَن سيقع في الاعتداء في الدُّعاء، وعندما أخبر ﷺ بذلك أخبر به محذِّرًا منه ناهيًا عنه مبيِّنًا لخطره، وهذا من تَمام وكمال نصحه لأمَّته صلوات الله وسلامه عليه، وهو أيضًا من علامات نُبوَّته ﷺ.

روى الإمام أحمد وابن ماجه وغيرُهما عن عبد الله بن مغفَّل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّه سمع ابنه يقول: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْقَصْرَ الْأَبْيَضَ عَنْ يَمِينِ الْجَنَّةِ إِذَا دَخَلْتُهَا**»، فَقَالَ: أَيْ بُنَيَّ، سَلِ اللهَ الْجَنَّةَ وَتَعَوَّذْ بِاللهِ مِنَ النَّارِ، فَإِنِّي سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يقولُ: «**سَيَكُونُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ قَوْمٌ يَعْتَدُونَ فِي الدُّعَاءِ وَالطُّهُورِ**»(١).

وروى الإمام أحمد وأبو داود عن سعد بن أبي وقَّاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّه سمع ابنًا له يدعو يقول: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْجَنَّةَ وَنَعِيمَهَا وَإِسْتَبْرَقَهَا وَنَحْوًا مِنْ هَذَا، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ وَسَلَاسِلِهَا وَأَغْلَالِهَا**»، فقال: لقد سألتَ اللهَ خيرًا كثيرًا، وتعوَّذتَ بالله من شرٍّ كثير، وإنِّي سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**إِنَّهُ سَيَكُونُ قَوْمٌ يَعْتَدُونَ فِي الدُّعَاءِ، وَقَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ:** ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾»، وإنَّ بحسبك أن تقول: اللَّهمَّ إنِّي أسألك الجنَّة وما قرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ»(٢).

فأخبر صلوات الله وسلامه عليه أنَّه سيكون قومٌ من أمَّته يعتدون في الدُّعاء؛ ناهيًا عن ذلك، وليكون المسلمون في حَيطةٍ وحَذرٍ من الوقوع في شيء منه.

إنَّ الاعتداءَ في الدُّعاء بابٌ واسعٌ؛ إذ هو -كما تقدَّم تعريفُه- تجاوز ما ينبغي أن يُقتصرَ عليه، وعلى هذا فكلُّ مخالفةٍ للسُّنَّة ومفارقة للهدي النَّبويِّ الكريم في الدُّعاء يُعدُّ اعتداءً، ومن المعلوم أنَّ المخالفات متنوِّعةٌ وكثيرةٌ لا

(١) رواه أحمد (١٦٧٩٦)، وابن ماجه (٣٨٦٤)، وصحَّحه الألبانِيُّ.
(٢) رواه أحمد (١٤٨٣)، وأبو داود (١٤٨٠)، وقال الألبانِيُّ: حسن صحيح.

يجمعها نوعٌ واحد، ثمَّ هي أيضًا متفاوتةٌ في خطورتها؛ فمِن الاعتداءِ ما قد يبلغ حدَّ الكفر، ومنه ما هو دون ذلك، فمَن اعتدى في دعائه بأن دعا غيرَ الله أو سأله أو طلب منه كشف ضرِّه أو جلب نفعه أو شفاءَ مرضه أو نحو ذلك، فقد وقع في أعظمِ أنواع الاعتداء في الدُّعاء وأشدِّها خطرًا، ولهذا قال الله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴾ [الأحقاف: ٥].

وحاصلُ كلام المفسِّرين في معنى هذه الآية أنَّ الله تعالى حكَم بأنَّه لا أضلُّ مِمَّن يدعو من دون الله مَن لا يستجيب له إلى يوم القيامة، ومعنى الاستفهام في الآية: إنكارُ أن يكون في الضُّلَّال كلِّهم أبلغُ ضلالًا مِمَّن عبَد غيرَ الله ودعاه، حيث يترك دعاء السَّميعِ المجيبِ القدير، ويدعو مِن دونه الضَّعيفَ العاجزَ الَّذي لا قدرة له على الاستجابة، كما قال تعالى: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ [الرَّعد: ١٤]، فهذا أخطرُ أنواع الاعتداء في الدُّعاء وأشدُّها ضررًا.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فهؤلاء أعظمُ المعتدين عدوانًا، فإنَّ أعظم العدوان الشَّرك وهو وضع العبادة في غير موضعها، فهذا العدوان لا بُدَّ أن يكون داخلًا في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾»[(١)].

وأيُّ اعتداءٍ أعظم وأشدُّ من هذا! أن يَصرفَ العبدُ حقَّ الله الخالص -الَّذي لا يجوز أن يُصرف لأحدٍ سواه- إلى مخلوقٍ لا يَملكُ لنفسه ضرًّا ولا رَشدًا، ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا، فضلًا عن أن يَملك شيئًا من ذلك لغيره، قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ

(١) مجموع الفتاوى (١٥/ ٢٣).

﴿لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٤]، وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ [سبأ: ٢٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾، قيل: المراد إنَّه لا يحبُّ المعتدين في الدُّعاء، كالَّذِي يَسأل ما لا يليق به من منازل الأنبياء وغير ذلك، وقد روى أبو داود في سننه عن عبد الله بن مغفَّل أنَّه سمع ابنَه يقول: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْقَصْرَ الْأَبْيَضَ عَنْ يَمِينِ الْجَنَّةِ إِذَا دَخَلْتُهَا**»، فقالَ: يا بُنيَّ سلِ اللهَ الجنَّة وتعوَّذ به من النَّار، فإنِّي سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**سَيَكُونُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ قَوْمٌ يَعْتَدُونَ فِي الطُّهُورِ وَالدُّعَاءِ**»».

ثمَّ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وإن كان الاعتداء مرادًا بها فهو من جملة المراد، والله لا يحبُّ المعتدين في كلِّ شيء دعاءً كان أو غيرَه، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [المائدة: ٨٧]». اهـ[(١)].

وعلى هذا فإنَّ الآيةَ الكريمة تكون دالةً على أمرين اثنين:

أحدهما: محبوبٌ إلى الله مرغَّبٌ فيه، وهو دعاءُ الله عَزَّوَجَلَّ تضرُّعًا وخُفيةً.

والثَّاني: مكروهٌ له مسخوطٌ عنده، مُحذَّرٌ منه أشدَّ التَّحذير، وهو الاعتداء.

فأمر بِما يُحبُّه وندب إليه ورغَّب فيه، وحذَّر ممَّا يُبغضُه وزجر عنه بما هو أبلغ طرق الزَّجر والتَّحذير، وهو إخبارُه سبحانه بأنَّه لا يحبُّ فاعلَه، ومَن لا يحبُّه الله فأيُّ خيرٍ ينال! وأيُّ فضلٍ يؤمّل!

---

(١) مجموع الفتاوى (١٥/ ٢٢).

ومن هنا كان متأكّدًا على كلِّ مسلم أن يكون في حذرٍ بالغٍ وحَيْطةٍ كاملة من الاعتداء في الدُّعاء بتجاوز حدِّ الشَّريعة فيه، وبالبعدِ عن ضوابِطه وأصولِه المعلومة. والاعتداء: مشتقٌّ من العدوان، وهو تجاوز ما ينبغي أن يُقتصر عليه من حدود الشَّريعة وضوابِطها المعلومة، كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة: ٢٢٩]، أي: أنَّ ما فصَّله الله سبحانه لعباده من الشَّرائع والأحكام يجب ملازمتُه والوقوفُ عنده وعدمُ تعدِّيه، ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ [الطَّلاق: ١]، وأيُّ ظلمٍ للنَّفس أنكى وأشدُّ من تجاوز الحدود الشَّرعيَّة وضوابطها المهمَّة المتَّبَعة؟!

ثمَّ كيف يُؤَمِّل المرء الإجابة ويَطمع في القبول وهو متجاوزٌ في دعائه ضوابطَ الشَّريعة ومتعدٍّ حدودَها المقرَّرة؟! فالدُّعاءُ المعتدَى فيه لا يحبُّه الله ولا يرضاه، فكيف يؤمِّل صاحبُه أن يُستجاب منه ويُقبل.

﴿ **ومِن الاعتداء في الدُّعاء:** سؤالُ الله عَزَّوَجَلَّ ما لا يجوز أن يُسألَه؛ من المعونة -مثلًا- على فعلِ المُحرَّمات وارتكاب الذُّنوب وغشيان المعاصي، كأن يسأل الله أن يعينه على سفر يريد به الإثمَ والباطلَ، أو أن يُيسِّرَ له طريقًا أراد به المعصية والعدوان، ونحو ذلك.

﴿ **ومن الاعتداء في الدُّعاء:** أن يسألَ الله ما عُلم من حكمته سبحانه أنَّه لا يفعله، كأن يسأل الله تخليده إلى يوم القيامة، أو أن يسأله أن يرفع عنه لوازمَ البشريَّة من الحاجة إلى الطَّعام والشَّراب والهواء، أو أن يسأل الله إطلاعَه على غَيبِه وما استأثر سبحانه بعلمه، أو أن يسأل الله أن يَهبَ له ولدًا من غير زوجة، ونحو ذلك مِمَّا سؤالُه اعتداءٌ لا يحبُّه الله ولا يحبُّ فاعله.

﴿ **ومن الاعتداء في الدُّعاء:** سؤالُ الله ما لا يليق بالسَّائل من المنازل

والدَّرجات، كأن يسأل الله منازلَ الأنبياء والمرسَلين، أو يكون ملَكًا، أو نحو ذلك.

﴾ **وكذلك من الاعتداء في الدُّعاء:** أن يدعوَ اللهَ غير متضرِّع، بل يدعو دعاءً يكون فيه كالمستغنِي المُدِلِّ على ربِّه.

﴾ **ومن الاعتداء:** أن يَعْبُدَه بِمَا لَم يشرع، ويُثنِي عليه بِما لَم يُثنِ به على نفسِه ولا أذِنَ فيه.

﴾ **ومن الاعتداء في الدُّعاء:** الدُّعاءُ على المؤمنين باللَّعنة والخِزي والهوان، قال بعضُ السَّلف في معنى المعتدين في الآية المتقدِّمة: «هم الَّذِين يدعون على المؤمنين فيما لا يحلُّ، فيقولون: اللَّهمَّ اخزِهم، اللَّهمَّ الْعَنْهم، ونحو ذلك»[(١)]، وجاء عن سعيد بن جُبير في معنى الآية قال: «**لَا تَدْعُوا عَلَى المُؤمِن والمُؤْمِنَةِ بالشَّرِّ؛ اللَّهُمَّ اخْزِهِ وَالْعَنْهُ وَنَحوَ ذَلِكَ، فَإِنَّ ذَلِكَ عُدْوَان**»[(٢)].

﴾ **ومن الاعتداء في الدُّعاء:** رفع الصَّوت به رفعًا يُخلُّ بالأدب، قال عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج: «**إنَّ مِنَ الدُّعَاءِ اعْتِدَاءً؛ يُكْرَهُ رَفْعُ الصَّوْتِ وَالنِّدَاءُ والصِّياحُ بالدُّعاءِ، ويؤمر بالتَّضرُّع والاستكانة**»[(٣)].

وعمومًا فإنَّ الإنسانَ بحسب مفارقته للسُّنَّة وابتعاده عن هدي نبيِّنا محمَّد صلواتُ الله وسلامه عليه يكون نصيبُه من الاعتداء والتَّجاوز، ومَن لزِمَ هديَ النَّبيِّ الكريم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وتقيَّد بسنَّته أمِن من الزَّلل، وحُفظ بإذن الله من الخطل.

---

(١) انظر: تفسير البغويِّ (٣/ ٢٣٧).
(٢) رواه ابن أبي حاتم في التَّفسير (٨٥٩٦).
(٣) جامع البيان للطَّبريِّ (١٢/ ٤٨٧).

٢٠
شروط الدُّعاء وآدابه (٣)

عن فضالة بن عبيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سَمِعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ رَجُلًا يَدْعُو فِي صَلَاتِهِ لَمْ يُمَجِّدِ اللهَ تَعَالَى وَلَمْ يُصَلِّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «عَجِلَ هَذَا»، ثُمَّ دَعَاهُ فَقَالَ لَهُ أَوْ لِغَيْرِهِ: «**إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ فَلْيَبْدَأْ بِتَحْمِيدِ رَبِّهِ جَلَّ وَعَزَّ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ، ثُمَّ يُصَلِّي عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ يَدْعُو بَعْدُ بِمَا شَاءَ**». رواه أبو داود[(١)].

في هذا الحديث أنَّ من أداب الدُّعاء أن يُفتتح بالثَّناء على الله عَزَّوَجَلَّ والصَّلاة والسَّلام على رسوله ﷺ، وأنَّه لا ينبغي للمرء أن يعجل، ولا تحمله شِدَّةُ رغبته وحاجته أن ينسى افتتاح دعائه بالثَّناء على الله سبحانه والصَّلاة والسَّلام على رسوله ﷺ. قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فمفتاح الدُّعاء الصَّلاة على النَّبِيِّ ﷺ كما أنَّ مفتاح الصَّلاة الطُّهور، فصلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم تسليمًا»[(٢)].

ﮰ ولهذا ثلاث مراتب:

أحدها: أن يصلِّي على النَّبِيِّ ﷺ في أوَّل الدُّعاء.

والمرتبة الثَّانية: أن يصلِّي عليه في أوَّله وآخره ويجعل حاجته متوسِّطة بينهما.

والمرتبة الثَّالثة: أن يصلِّي عليه في أوَّل الدُّعاء وأوسطه وآخره.

(١) رواه أبو داود (١٤٨١)، والتِّرمذيُّ (٣٤٧٧)، وصحَّحه الألبانِيُّ.
(٢) جلاء الأفهام (ص٣٧٧).

وقد نقل ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن أحمد بن أبي الحوراء قال: سمعت أبا سليمان الدَّارانِيَّ يقول: «مَن أراد أن يسأل الله حاجته فليبدأ بالصَّلاة على النَّبِيِّ ﷺ وليسأل حاجته، وليختم بالصَّلاة على النَّبِيِّ ﷺ، فإنَّ الصَّلاةَ على النَّبِيِّ ﷺ مقبولةٌ، والله أكرمُ أن يردَّ ما بينهما»[(١)].

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: «**كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَسْتَحِبُّ الْجَوَامِعَ مِنَ الدُّعَاءِ وَيَدَعُ مَا سِوَى ذَلِكَ**». رواه أبو داود[(٢)]، وسنده صحيح على شرط مسلم.

وهذا يتضمَّن حثًّا للمسلمين على أن يعنوا بدعوات النَّبِيِّ الكريم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وأن يحافظوا عليها؛ لأنَّها اختصَّت بأنَّها أتت على المطالب العالية والمقاصد الرَّفيعة، إيمانًا بالله، وثقة به، ويقينًا بما عنده تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وجمعت خير الدُّنيا والآخرة. وكان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ من أكثر دعائه قوله «ربَّنا آتنا في الدُّنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النَّار»، وهذا دعاء جامع لخيري الدُّنيا والآخرة.

وأدعيته عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عمومًا جامعة للخير وفيها المطالب العالية والغايات النَّبيلة وفيها السَّلامة من الخطأ، ولو أنَّك أخذت دعاء أنشأه بعض النَّاس أو أنشأته أنت بنفسك فلا تأمن! ربَّما يكون فيه خطأ أو اعتداء حملك عليه زيادة الحرص وشِدَّة الرَّغبة، فقد يدخل الإنسان في شيء من الأمور يذكرها يكون فيها اعتداء وهو لا يشعر، لكنَّه إذا أخذ بالدُّعاء الَّذِي كان يدعو به النَّبِيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فإنَّه إضافة إلى كونه جامعًا شاملًا للخير ففيه السَّلامة من الخطأ والزَّلل.

روى الفريابيُّ وغيرُه[(٣)] من حديث عائشة أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال لها: «**يَا عائشةُ**

---

(١) جلاء الأفهام (ص٣٣٧).

(٢) رواه أبو داود (١٤٨٢)، وصحَّحه الألبانِيُّ.

(٣) ذكره ابن رجب في جامع العلوم والحكم (٢/ ٥٣٣).

عليكِ بجوامع الدُّعاء: **اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنَ الْخَيْرِ كُلِّهِ عَاجِلِهِ وَآجِلِهِ، مَا عَلِمْتُ مِنْهُ وَمَا لَمْ أَعْلَمْ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّرِّ كُلِّهِ عَاجِلِهِ وَآجِلِهِ، مَا عَلِمْتُ مِنْهُ وَمَا لَمْ أَعْلَمْ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ مَا سَأَلَكَ مِنْهُ مُحَمَّدٌ عَبْدُكَ وَنَبِيُّكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا عَاذَ مِنْهُ عَبْدُكَ وَنَبِيُّكَ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْجَنَّةَ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ وَعَمَلٍ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ وَعَمَلٍ، وَأَسْأَلُكَ مَا قَضَيْتَ لِي مِنْ قَضَاءٍ أَنْ تَجْعَلَ عَاقِبَتَهُ رَشَدًا**»، وخرَّجه الإمام أحمد وابن ماجه وابن حِبَّان في صحيحه والحاكم، وليس عندهم ذكر جوامع الدُّعاء(١)، وعند أحمد والحاكم: «عليكِ بالكوامل...»، وذكره. وخرَّجه أبو بكر الأثرم وعنده أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال لها: «**مَا مَنَعَكِ أَنْ تَأْخُذِي بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ وَفَوَاتِحِهِ...**»، وذكر هذا الدُّعاء(٢).

والعجيب أنَّ هذا الدُّعاء الَّذِي وصفه النَّبِيُّ ﷺ بجوامع الكلام لم يسلم نفسه من الزِّيادة فيه!! فيزيد بعضهم: (وعبادك الصَّالحون) بعد قوله: «أسألكَ مِن خيرِ ما سألكَ منه محمَّدٌ عبدُك ونبيُّك، وأعوذ بك من شرِّ ما عاذ منه عبدُك ونبيُّك»، وهذه الزِّيادة استدراك على هذا الدُّعاء الجامع الكامل، ومن المعلوم أنَّ الصَّالحين من عباد الله ليس عندهم مطالب في أدعيتهم زائدة عن المأثور عنه ﷺ، إذ دعواته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حوَت الخير كلَّه والفضل أجمعه.

ويزيد بعضهم في سؤال الجنَّة: حورها وأشجارها وأنهارها، وفي التَّعوُّذ من النَّار: التَّعوُّذ من حميمها وغسَّاقها؛ وهذا معدود من الاعتداء في الدُّعاء، كما في الحديث الَّذِي رواه أحمد وأبو داود وغيرهما عن ابن سعد بن أبي وقَّاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سَمِعَنِي أَبِي، وَأَنَا أَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْجَنَّةَ،

---

(١) أحمد (٢٥٠١٩)، وابن ماجه (٣٨٤٦)، وابن حبَّان (٨٦٩)، والحاكم في مستدركه (١٩١٤)، وصحَّحه الألبانِيُّ.

(٢) ذكره ابن رجب الحنبليُّ في فتح الباري (٩/ ٣١٠)، وقال: «وهذا إسناد جيد».

وَنَعِيمَهَا، وَبَهْجَتَهَا، وَكَذَا، وَكَذَا، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ، وَسَلَاسِلِهَا، وَأَغْلَالِهَا، وَكَذَا، وَكَذَا»، فَقَالَ: يَا بُنَيَّ، إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَقُولُ: «**سَيَكُونُ قَوْمٌ يَعْتَدُونَ فِي الدُّعَاءِ**»؛ فَإِيَّاكَ أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ، إِنَّكَ إِنْ أُعْطِيتَ الْجَنَّةَ أُعْطِيتَهَا وَمَا فِيهَا مِنَ الْخَيْرِ، وَإِنْ أُعِذْتَ مِنَ النَّارِ أُعِذْتَ مِنْهَا، وَمَا فِيهَا مِنَ الشَّرِّ»[(١)].

وروى الإمام أحمد في المسند عن عبد الله بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: «**إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ عُلِّمَ فَوَاتِحَ الْخَيْرِ وَجَوَامِعَهُ، أَوْ جَوَامِعَ الْخَيْرِ وَفَوَاتِحَهُ وَخَوَاتِمَهُ...**»[(٢)]. والأحاديث في هذا المعنى كثيرة، فإنَّه ﷺ أُعطي جوامع الكلم وخُصَّ ببدائع الحكَم، كما في الصَّحيحين عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ**»[(٣)]، قال الإمام محمَّد بن شهاب الزُّهريُّ رَحِمَهُٱللَّهُ: «جوامع الكلم فيما بلغنا: أَنَّ الله يجمع له الأمور الكثيرة الَّتي كانت تُكتب في الكتب قبله في الأمر الواحد والأمرين ونحو ذلك». اهـ[(٤)].

وحاصلُه أنَّه ﷺ كان يتكلَّم بالكلام الموجَزِ القليلِ اللَّفظ الكثير المعاني، وهكذا الشَّأن في أذكاره وأدعيته صلوات الله وسلامه عليه، كان يُعجبه من ذلك جوامعَ الذِّكر والدُّعاء ويدَع ما بين ذلك.

وإذًا فالواجبُ على كلِّ مسلمٍ أن يعرف عِظَمَ قدر الأدعيةِ النَّبويَّة ورفيع مكانتها، وأنَّها مشتملةٌ على مجامع الخير وأبواب السَّعادةِ ومفاتيح الفلاح في الدُّنيا والآخرة؛ فخيرُ السُّؤال أن يسألَ المسلمُ ربَّه مِن خير ما سأله منه عبدُه ورسولُه ﷺ، وأفضلُ الاستعاذة أن يستعيذ بالله من شرِّ ما استعاذ منه عبدُه

(١) رواه أحمد (١٤٨٣)، وأبو داود (١٤٨٠)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٢) رواه أحمد (٣٨٧٧)، (٤١٦٠)، وانظر: السِّلسلة الصَّحيحة (٣/ ٤٧٢).
(٣) رواه البخاريُّ (٢٩٧٧)، ومسلم (٥٢٣).
(٤) انظر: التَّوضيح لشرح الجامع الصَّحيح لابن الملقِّن (١٨/ ١٠٧).

ورسولُه ﷺ؛ فإنَّ في ذلك فواتحَ الخير وخواتِمَه، وجوامعَه، وأوَّلَه وآخرَه، وظاهره وباطنَه.

ومَن يتأمَّل جميعَ الأدعيةِ الواردةِ في القرآن والسُّنَّةِ يجدها كذلك؛ فإنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ قد اختار لنبيِّه محمَّد ﷺ جوامعَ الأدعيةِ وفواتح الخير وتمام الأمرِ وكماله في الدُّنيا والآخرة، فكيف يدَعُ المسلمُ هذا الخيرَ العميمَ والفضلَ العظيم الَّذِي اشتملت عليه أدعيةُ النَّبِيِّ الكريم ﷺ! ويُقبِلُ على أدعيةٍ أخرى لغيره ممَّن لا تُؤمَنُ غائلتُهم من أئمَّة الضلال المتكلِّفين في الدِّين ما ليس منه، ولهذا يقول الخطَّابِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أولى ما يُدعى به ويُستعمل منه ما صحَّت به الرِّوايةُ عن رسول الله ﷺ وثبت عنه بالأسانيد الصَّحيحة، فإنَّ الغلطَ يعرض كثيرًا في الأدعية الَّتِي يختارها النَّاس لاختلاف معارفهم وتباينِ مذاهبهم في الاعتقاد والانتحال، وبابُ الدُّعاء مطيَّةٌ مظنَّةٌ للخطر، وما تحت قدم الدَّاعي دحضٌ، فليحذر فيه الزَّلل، وليسلك منه الجَدَد الَّذِي يؤمن معه العِثار، وما التَّوفيق إلَّا بالله عَزَّوَجَلَّ». اهـ كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١).

ومَن يتأمَّل الأدعيةَ المأثورة الَّتِي جاءت في كتاب الله تعالى وسنَّة رسوله ﷺ يجدُ فيها الجمالَ والكمالَ والوفاءَ بتحقيق المطالبِ العاليةِ والمقاصدِ الرَّفيعةِ والخيرَ الكاملَ في الدُّنيا والآخرة، مع السَّلامة فيها والأمان من الوقوع في الخطأ والزَّلل؛ لأنَّها معصومة من ذلك؛ وذلك لأنَّها وحيُّ الله وتنزيله.

ولذا نجد أئمَّةَ العلم الأمناءَ النَّاصحين يُرغِّبون النَّاسَ في المحافظةِ على الأدعيةِ المأثورة والأذكار المشروعة، ويعتنون تمام الاعتناءِ بربط النَّاس بكتاب ربِّهم وسنَّةِ نبيِّهم ﷺ؛ لأنَّ في ذلك السَّلامةَ والعصمةَ والفوزَ بكبير الغنيمة، ومن ذلك قول الإمام الجليل شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وينبغي

(١) شأن الدُّعاء للخطَّابِيِّ (ص٢).

للخلق أن يدعوا بالأدعية الشَّرعيَّة الَّتِي جاء بها الكتاب والسُّنَّة؛ فإنَّ ذلك لا ريب في فضله وحُسنِه، وأنَّه الصِّراطُ المستقيم، صراطُ الَّذِين أنعم الله عليهم من النَّبيِّين والصِّدِّيقين والشُّهداء والصَّالحين وحسُن أولئك رفيقًا»[(١)].

فتأمَّل كلامَ هذا الإمام النَّاصح وغيرِه من أهل العلم أهل السُّنَّة والجماعة؛ كيف أنَّهم كرَّسوا جهودَهم وبذلوا أوقاتَهم وأنفاسَهم في سبيلِ تفقيهِ النَّاسِ بالسُّنَّةِ وربطِهِم بِها ودعوتِهم إلى تحقيقها وحسنِ القيام بها؛ إذ هي صراطُ الله المستقيم وحبلُه المتين.

تأمَّل قولَه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ينبغي للخلق أن يدعوا بالأدعية الشَّرعيَّة الَّتِي جاء بها الكتاب والسُّنَّة» تجد فيه تمامَ النَّصيحةِ للخَلْق وصِدقَ القيام بالحقِّ، بخلاف أئمَّةِ الضَّلال ودعاةِ الباطل؛ فإنَّهم يدعون النَّاسَ إلى أنفسهم ويربطونهم بأشخاصهم، فتراهم يُنشئون للنَّاس أورادًا وأدعيةً من قِبَل أنفسهم، ويعظِّمون من شأنِها، ويُعلونَ من قدرها رغبةً في تكثير الأتباع واستقطاب المريدين، كما قال الصَّحابيُّ الجليلُ معاذ بن جبل رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: **«إِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ فِتَنًا يَكْثُرُ فِيهَا الْمَالُ، وَيُفْتَحُ فِيهَا الْقُرْآنُ حَتَّى يَأْخُذَهُ الْمُؤْمِنُ وَالْمُنَافِقُ، وَالرَّجُلُ، وَالْمَرْأَةُ، وَالصَّغِيرُ، وَالْكَبِيرُ، وَالْعَبْدُ، وَالْحُرُّ، فَيُوشِكُ قَائِلٌ أَنْ يَقُولَ: مَا لِلنَّاسِ لَا يَتَّبِعُونِي وَقَدْ قَرَأْتُ الْقُرْآنَ؟ مَا هُمْ بِمُتَّبِعِيَّ حَتَّى أَبْتَدِعَ لَهُمْ غَيْرَهُ، فَإِيَّاكُمْ وَمَا ابْتُدِعَ، فَإِنَّ مَا ابْتُدِعَ ضَلَالَةٌ»**. رواه أبو داود في سننه، والآجريُّ في الشَّريعة، وسنده صحيح[(٢)].

فليكن المسلمُ على تَمام الحذر من مثل هؤلاء، وليحرص تَمام الحرص على لزوم السُّنَّة؛ ففيها السَّلامة والرِّفعة، والتَّوفيق بيد الله وحده لا شريك له.

---

(١) مجموع الفتاوى (١/ ٣٤٦).

(٢) رواه أبو داود (٤٦١١)، والآجرِّيُّ في الشريعة (٩٠)، وصحَّحه الألبانِيُّ موقوفًا.

٢١
شروط الدُّعاء وآدابه (٤)

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النَّبِيِّ ﷺ قال: «**ادْعُوا اللهَ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالْإِجَابَةِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ لَا يَسْتَجِيبُ دُعَاءً مِنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لَاهٍ**». رواه التِّرمذيُّ[(١)].

إنَّ الواجبَ على مَن أراد أن يُحقِّق اللهُ رجاءَه وأن يُجيب دعاءَه؛ أن يدعو ربَّه وهو موقنٌ بأنَّ الله يجيب دعاءه، ويكون عظيمَ الثِّقة بالله، شديدَ الرَّجاء فيما عنده. قال ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومِن أعظم شرائطه -أي: الدُّعاء- حضورُ القلب ورجاءُ الإجابة من الله تعالى، كما خرَّج التِّرمذيُّ من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النَّبِيِّ ﷺ قال: «**ادْعُوا اللهَ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالْإِجَابَةِ، فَإِنَّ اللهَ لَا يَقْبَلُ دُعَاءً مِنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لَاهٍ**»[(٢)]، وفي المسند عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النَّبِيِّ ﷺ قال: «**إِنَّ هَذِهِ الْقُلُوبَ أَوْعِيَةٌ، فَبَعْضُهَا أَوْعَى مِنْ بَعْضٍ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ، فَاسْأَلُوهُ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالْإِجَابَةِ؛ فَإِنَّ اللهَ لَا يَسْتَجِيبُ لِعَبْدٍ دُعَاءً مِنْ ظَهْرِ قَلْبٍ غَافِلٍ**»[(٣)]؛ ولهذا نُهي العبدُ أن يقول في دعائه: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ، وَلَكِنْ لِيَعْزِمِ الْمَسْأَلَةَ؛ فَإِنَّ اللهَ لَا مُكْرِهَ لَهُ**»[(٤)]. ونُهي أن يستعجل ويترك الدُّعاء لاستبطاء الإجابة، وجُعل ذلك من موانع الإجابة، حتَّى لا يقطع رجاءَه من إجابة دعائه ولو طالت المُدَّة؛ فإنَّه سبحانه يحبُّ الملحِّين في الدُّعاء. فما دام

---

(١) رواه التِّرمذيُّ (٣٤٧٩)، وحسَّنه الألبانِيُّ.
(٢) رواه التِّرمذيُّ (٣٤٧٩)، وحسَّنه الألبانِيُّ.
(٣) رواه أحمد في مسنده (٦٦٥٥).
(٤) رواه البخاريُّ (٦٣٣٩)، ومسلم (٢٦٧٩).

العبدُ يُلحُّ في الدُّعاء ويطمع في الإجابة من غير قطع الرَّجاء فهو قريبٌ من الإجابة، ومن أدمَن قَرْعَ الأبواب يوشك أن يُفتح له». اهـ كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)].

وكيف لا يكون المسلمُ واثقًا بربِّه والأمورُ كلُّها بيده ومعقودةٌ بقضائه وقَدَرِه!! فما شاء الله كان كما شاء، في الوقت الَّذي يشاء، على الوجه الَّذي يشاء، من غير زيادة ولا نقصان ولا تقدُّم ولا تأخُّر، وحُكمه سبحانه نافذٌ في السَّموات وأقطارها، وفي الأرض وما عليها وما تحتها، وفي البحار والجوِّ، وفي سائر أجزاء العالَم وذرَّاته، يُقلِّبها ويصرِّفها ويُحدث فيها ما يشاء، ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦۚ﴾ [فاطر: ٢]، أحاط بكلِّ شيء علمًا، وأحصى كلَّ شيء عددًا، ووسع كلَّ شيء رحمةً وحكمة، له الخلقُ والأمر، وله المُلكُ والحمد، وله الدُّنيا والآخرة، وله النِّعمة والفضل، وله الثَّناء الحسن، شملت قدرتُه كلَّ شيء، ووسعت رحمتُه كلَّ شيء، ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرَّحمن: ٢٩]، لا يتعاظمه ذنبٌ أن يغفرَه، ولا حاجةٌ يُسألها أن يعطيها، لو أنَّ أهلَ سماواته وأهل أرضه إنسهم وجِنَّهم حيَّهم وميِّتَهم صغيرَهم وكبيرَهم رطْبهم ويابسهم قاموا في صعيد واحد فسألوه فأعطى كلَّ واحد منهم ما سأله ما نقص ذلك ممَّا عنده مثقال ذرَّة، ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

ولهذا فإنَّ من الضَّوابط المهمَّة والشُّروطِ العظيمةِ الَّتي لا بُدَّ من توفُّرها في الدُّعاء: حضورَ قلب الدَّاعي وعدمَ غفلته؛ لأنَّه إذا دعا بقلبٍ غافل لاهٍ ضعُفت قوَّةُ دعائه وضعُف أثرُه، وأصبح شأنُ دعائه كالقوس الرِّخْو، فإنَّه إذا كان كذلك خرج منه السَّهم خروجًا ضعيفًا، فيضعف بذلك أثرُه، ولهذا ورد عن النَّبيِّ ﷺ الحثُّ على حضور القلب في الدُّعاء، والتَّحذيرُ من الغفلة، والإخبارُ بأنَّ عدمَ ذلك مانعٌ من موانع قبوله كما تقدَّم.

(١) جامع العلوم والحكم (٢/ ٤٠٣).

فلا بُدَّ للمسلم مع الدُّعاء مِن حضور القلب وعدم الغفلة والإيقان بالإجابة؛ وقد عدَّ الإمام العلَّامةُ ابن القيِّم في كتابه الجواب الكافي(١): غفلةَ القلبِ وعدمَ حضوره مانعًا من موانع إجابة الدُّعاء، واحتجَّ على ذلك بالحديث المتقدِّم، ثمَّ قال: «وهذا دواءٌ نافعٌ مزيلٌ للدَّاء، ولكن غفلة القلب تُبطل قوَّتَه»، وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وإذا جُمع مع الدُّعاء حضورُ القلب وجَمعِيَّته بكُلِّيَّتِه على المطلوب، وصادف وقتًا من أوقات الإجابة السِّتَّة: وهو الثُّلث الأخير من اللَّيل، وعند الأذان، وبين الأذان والإقامة، وأدبار الصَّلوات المكتوبة، وعند صعود الإمام يوم الجمعة على المنبر حتَّى تُقضى الصَّلاة من ذلك اليوم، وآخر ساعة بعد العصر، وصادف خشوعًا في القلب، وانكسارًا بين يدي الرَّبِّ، وذُلًّا له وتضرُّعًا ورِقَّةً، واستقبل الدَّاعي القبلةَ، وكان على طهارة، ورفع يديه إلى الله، وبدأ بحمد الله والثَّناء عليه، ثمَّ ثنَّى بالصَّلاة على محمَّد عبده ورسوله ﷺ، ثمَّ قدَّم بين يدي حاجته التَّوبةَ والاستغفار، ثمَّ دخل على الله وألحَّ عليه في المسألة ودعاه رغبة ورهبة، وتوسَّل إليه بأسمائه وصفاته وتوحيده، وقدَّم بين يدي دعائه صدقةً، فإنَّ هذا الدُّعاءَ لا يكاد يُردُّ أبدًا، ولا سيَّما إن صادف الأدعيةَ الَّتِي أخبر النَّبِيُّ ﷺ أنَّها مظنَّةُ الإجابةِ، أو أنَّها متضمِّنَةٌ للاسم الأعظم». اهـ كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢).

عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النَّبِيِّ ﷺ: «**لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ ارْحَمْنِي إِنْ شِئْتَ ارْزُقْنِي إِنْ شِئْتَ وَلْيَعْزِمْ مَسْأَلَتَهُ إِنَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ لَا مُكْرِهُ لَهُ**» متَّفق عليه(٣)، وفي لفظ عند مسلم، قال: «**لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُم: اللَّهُمَّ**

(١) الجواب الكافي (ص٩).
(٢) المصدر السَّابق (ص١٢).
(٣) رواه البخاريُّ (٧٤٧٧)، ومسلم (٢٦٧٩).

اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ، اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي إِنْ شِئْتَ، وَلَكِن لِيَعْزِم المَسْأَلَةَ وَلِيُعظِّم الرَّغْبَة؛ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى لَا يَتَعَاظَمُه شَيْءٌ أَعْطَاه».

وعَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «**إِذَا دَعَا أَحَدُكُمْ فَلْيَعْزِمْ فِي الدُّعَاءِ وَلَا يَقُلِ اللَّهُمَّ إِنْ شِئْتَ فَأَعْطِنِي فَإِنَّ اللهَ لَا مُسْتَكْرِهَ لَهُ**». رواه مسلم[(١)].

وعن أبي سعيد الخدريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «**إِذَا دَعَوْتُم اللهَ فَارْفَعُوا فِي المَسْأَلَة؛ فَإِنَّ مَا عِنْدَه لَا يَنْفَدُ مِنْهُ شَيْءٌ، وَإِذَا دَعَوْتُم فَاعْزِمُوا؛ فَإِنَّ اللهَ لَا مُسْتَكْرِه لَهُ**». رواه ابن أبي شيبة في المصنَّف[(٢)].

فمِمَّا يتنافى مع تمام الإيمان بالله وكمال توحيده سبحانه أن يدعوَه العبدُ وهو غير عازمٍ في مسألته؛ بأن يقول في دعائه: «**اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي إِنْ شِئْتَ**»، أو: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ**»، أو: «**اللَّهُمَّ وَفِّقْنِي إِنْ شِئْتَ**»، ونحوَ ذلك. لِما في هذا القول من إيهام الاستغناء عن الله وعدم الثِّقةِ فيما عنده.

وقد أورد الإمام المجدِّد شيخ الإسلام محمَّد بن عبد الوهَّاب: هذا الحديث في كتاب التَّوحيد وترجم له بقوله: «باب قول: اللَّهُمَّ اغفر لي إن شئت»[(٣)]، وهو: ينبِّه بهذه التَّرجمة إلى أنَّ عدمَ العزم في الدُّعاء وتعليقَه بالمشيئة ممَّا يتنافى مع التَّوحيد الواجب الَّذِي ينبغي أن يكون عليه المسلم؛ لأنَّ قولَ القائلِ: «**اللَّهُمَّ اغفر لي إن شئتَ**» يدلُّ على فتورٍ في الرَّغبة، وقلَّةِ اهتمامٍ في الطَّلَب، وكأنَّ هذا القول يتضمَّن أنَّ هذا المطلوبَ إن حصلَ وإلَّا استغنى عنه، ومَن كان هذه حاله لَم يتحقَّق من حاله الافتقارُ والاضطرارُ الَّذِي هو روحُ العبادة ولُبُّها، وكان ذلك دليلًا على قلَّة معرفته بذنوبه وسوء عاقبتها

(١) رواه مسلم (٢٦٧٨).
(٢) رواه ابن أبي شيبة في المصنَّف (٢٩٣٦٨).
(٣) كتاب التَّوحيد (ص١٢٦).

وقلَّة معرفته برحمة ربِّه، وشِدَّةِ احتياجه إليه، وضعفِ يقينه بالله عَزَّوَجَلَّ وإجابته للدُّعاء.

ولهذا قال في الحديث: «**وليَعزِم المسألةَ**»، أي: ليجْزِم في طلبته، ويحقِّق رغبته، ويتيقَّن الإجابة؛ فإنَّه إذا فعل ذلك دلَّ على علمه بعظيم ما يطلب من المغفرة والرَّحمة، وعلى أنَّه مفتقرٌ إلى ما يطلب مضطرٌّ إليه، وعلى أنَّه محتاجٌ إلى الله مفتقرٌ إليه، لا يستغني عن مغفرته ورحمته طرفةَ عين.

ولهذا فإنَّ الواجبَ على المسلم إذا دعا الله أن يجتهدَ ويُلحَّ في الدُّعاء، ولا يَقُل: «**إن شئتَ**» كالمستثنِي، بل يدعو دعاءَ البائس الفقير؛ بإلحاحٍ، وصِدق، وجِدٍّ، واجتهاد، مع الثِّقة الكاملة بالله والطَّمع فيما عنده، وحسن الظَّنِّ به سبحانه، وهو جَلَّوَعَلَا يقول كما في الحديث القدسيِّ: «**أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي**». أخرجه البخاريُّ ومسلم في صحيحهما[(١)].

وَعَنْ عِكْرِمَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قَالَ: «**حَدِّثِ النَّاسَ كُلَّ جُمُعَةٍ مَرَّةً، فَإِنْ أَبَيْتَ فَمَرَّتَيْنِ، فَإِنْ أَكْثَرْتَ فَثَلَاثَ مِرَارٍ، وَلَا تُمِلَّ النَّاسَ هَذَا الْقُرْآنَ، وَلَا أُلْفِيَنَّكَ تَأْتِي الْقَوْمَ وَهُمْ فِي حَدِيثٍ مِنْ حَدِيثِهِمْ فَتَقُصُّ عَلَيْهِمْ، فَتَقْطَعُ عَلَيْهِمْ حَدِيثَهُمْ فَتُمِلُّهُمْ، وَلَكِنْ أَنْصِتْ، فَإِذَا أَمَرُوكَ فَحَدِّثْهُمْ وَهُمْ يَشْتَهُونَهُ، فَانْظُرِ السَّجْعَ مِنَ الدُّعَاءِ فَاجْتَنِبْهُ، فَإِنِّي عَهِدْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَأَصْحَابَهُ لَا يَفْعَلُونَ إِلَّا ذَلِكَ**»، أي: لَا يَفْعَلُونَ إِلَّا ذَلِكَ الِاجْتِنَابَ. رواه البخاريُّ[(٢)].

مِمَّا ينبغي للمسلم تجنُّبُه في دعائه: تكلُّفُ السَّجْع في الدُّعاء، وتكلُّفُ صنعة الكلام له، قال الإمام البخاريُّ: في كتاب الدَّعوات من صحيحه: «**بابُ ما يُكره من السَّجع في الدُّعاء**»، والسَّجْعُ: هو الكلام المقفَّى من غير مراعاة

(١) رواه البخاريُّ (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥).
(٢) رواه البخاريُّ (٦٣٣٧).

وزن، وتكلُّف ذلك في الدُّعاء أمرٌ مكروه، لَم يكن عليه النَّبِيُّ ﷺ ولا أحدٌ من أصحابه، ولهذا قال ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «فإنِّي عهدتُ رسولَ الله ﷺ وأصحابَه لا يفعلون إلَّا ذلك»، أي: الاجتناب، قال الأزهريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وإنَّما كرهه ﷺ لمشاكلته كلام الكهَّان، كما في قصَّة المرأة من هُذيل»[(١)].

ولذا عُدَّ تكلُّفُ السَّجْع في الدُّعاء في جملة موانع الإجابة، قال القرطبيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومنها: أن يدعو بما ليس من الكتاب والسُّنَّة فيتخيَّر ألفاظًا مُفَقَّرة وكلمات مسجَّعةً قد وجدها في كراريس لا أصل لها ولا معوَّل عليها، فيجعلها شعارَه، ويترك ما دعا به رسوله ﷺ، وكلُّ هذا يمنع من استجابة الدُّعاء»[(٢)].

والسَّجْعُ المذمومُ: هو المتكلَّف الَّذِي يجتهد صاحبُه في تصنُّعه، فيشغله ذلك عن الإخلاص والخشوع، ويُلهيه عن الضَّراعة والافتقار، فأمَّا إن وُجد وحصل بلا تصنُّع ولا تكلُّف ومِن غير قصدٍ إليه فلا بأس به.

قال السَّفارينيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولا يتكلَّف السَّجْع في الدُّعاء، فإنَّه يُشغل القلبَ ويُذهب الخشوعَ، وإن دعا بدعواتٍ محفوظة معه له أو لغيره من غير تكلُّف سجعٍ فليس بممنوع»[(٣)].

وقال الحافظ ابن حجر: في شرحه لحديث ابن عبَّاس المتقدِّم في ذمِّ السَّجْع في الدُّعاء: «ولا يَرِد على ذلك ما وقع في الأحاديث الصَّحيحة؛ لأنَّ ذلك كان يصدر من غير قصدٍ إليه؛ ولأجل هذا يجيء في غاية الانسجام، كقوله ﷺ في الجهاد: «**اللَّهُمَّ مُنزلَ الكتاب، سَرِيع الحِسَاب، هَازِمِ الأَحْزَابِ**»[(٤)]، وكقوله

(١) انظر: فتح الباري (١١/ ١٣٩).
(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبيِّ (٧/ ٢٢٦).
(٣) غذاء الألباب للسَّفارينيِّ (١/ ٤٠٩).
(٤) رواه البخاريُّ (٢٩٣٣)، ومسلم (١٧٤٢).

ﷺ: «**صَدَقَ وَعْدَهُ وَأَعَزَّ جُنْدَهُ...**»[١]. الحديث، وكقوله: «**أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَينٍ لَا تَدْمَعُ، وَنَفْسٍ لَا تَشْبَعُ، وَقَلْبٍ لَا يَخْشَعُ**»[٢]، وكلُّها صحيحة»[٣].

---

(١) روى نحوه أبو داود (٤٥٤٧)، والنَّسائِيُّ (٤٧٩٩)، وابن ماجه (٢٦٢٨)، وحسَّنه الألبانِيُّ.

(٢) رواه مسلم (٢٧٢٢) بلفظ مقارب.

(٣) فتح الباري (١١/ ١٣٩).

٢٢

شروط الدُّعاء وآدابه (٥)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ، فَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾ [المؤمنون: ٥١]، وَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ [البقرة: ١٧٢]، ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ: يَا رَبِّ يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟!». رواه مسلم[1].

يُعدُّ هذا الحديث من جوامع كَلِم الرَّسول ﷺ، وقد جمع فيه صلوات الله وسلامه عليه جملةً طيِّبةً من آداب الدُّعاء، وشروط قبوله، والأمور المانعة من القبول، وقد بدأه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بالإشارةِ إلى خطورة أكلِ الحرام وأنَّه مانعٌ من موانع قبول الدُّعاء. ومفهوم المخالفة لذلك: أنَّ إطابةَ المطعم سببٌ من أسباب قبول الدُّعاء، كما قال وهبُ بن منبِّه رَحِمَهُٱللَّهُ: «مَنْ سرَّه أن يستجيبَ اللهُ دَعْوتَه فليُطِبْ طُعْمَتَه»[2]، ولَمَّا سئل سعدُ بن أبي وقَّاص رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قيل له: تستجاب دعوتك؟ قال: «ما رفعتُ إلى فمي لُقمةً إلَّا وأنا عالِمٌ من أين مجيئُها ومن أين خرجت»[3].

---

(١) رواه مسلم (١٠١٥).

(٢) جامع العلوم والحكم (١/ ٢٧٥).

(٣) المصدر نفسه.

أمَّا من استمرأ -والعياذ بالله- أكلَ الحرام وشُربه ولُبسَه والتَّغذِّي به، فإنَّ فعلَه هذا يكون سببًا موجبًا لعدم إجابةِ دعوته، ولهذا قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في الحديث: «فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟!»، أي: كيف يُستجاب له؟! فهو استفهامٌ وقع على وجه التَّعجُّب والاستبعاد. وقد يكون أيضًا ارتكابُ المحرَّمات الفعليَّة مانعًا من الإجابةِ، وكذلك تركُ الواجبات، كما قال بعض السَّلف: «لا تستبطئ الإجابةَ وقد سددتَ طُرقَها بالمعاصي»[(١)].

ولهذا فإنَّ توبةَ العبد إلى ربِّه، وبُعدَه عن معاصيه، وإقبالَه على طاعته وعبادته، وإطابتَه لمطعمه ومشربِه وملبسه، وانكسارَه بين يديه، وذُلَّه وخضوعَه له سبحانه؛ كلُّ ذلك من موجبات القبول ومن أسباب إجابةِ الدُّعاء، وأضدادُ ذلك من موجبات الرَّدِّ.

۞ لقد ذكر رسول الله ﷺ في الحديث المتقدِّم أربعةَ أسباب عظيمةٍ لقبولِ الدُّعاء تقتضي إجابتَه:

أحدها: إطالة السَّفر؛ والسَّفر بمجرَّده يقتضي إجابةَ الدُّعاء، كما في حديث أبي هريرة عن النَّبيِّ ﷺ: «**ثَلَاثُ دَعَوَاتٍ مُسْتَجَابَاتٌ لَا شَكَّ فِيهِنَّ: دَعْوَةُ الْمَظْلُومِ، وَدَعْوَةُ الْمُسَافِرِ، وَدَعْوَةُ الْوَالِدِ لِوَلَدِهِ**». رواه أبو داود وابن ماجه والتِّرمذيُّ بإسناد حسن[(٢)]، ولفظ التِّرمذيِّ: «**ودعوة الوالد على ولده**». ومتى طال السَّفرُ كان أقربَ إلى إجابةِ الدُّعاء؛ لأنَّه مظِنَّةُ حصولِ انكسار النَّفس بطول الغُربةِ عن الأوطان وتحمُّلِ المشاقِّ، والانكسارُ من أعظم أسباب إجابة الدُّعاء.

الثَّاني: أن يكون متواضِعًا مُتذلِّلًا مستكينًا؛ فهذا أيضًا من مقتضيات

(١) صيد الخاطر لابن الجوزيِّ (ص٢٢١).
(٢) رواه أبو داود (١٥٣٦)، والتِّرمذيُّ (١٩٠٥)، وابن ماجه (٣٨٦٢)، وحسَّنه الألبانِيُّ.

الإجابة كما في الحديث المشهور عن النَّبِيِّ ﷺ قال: «**رُبَّ أَشْعَثَ مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ**». رواه مسلم(١)، وعن ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لَمَّا سُئل عن صلاة رسول الله ﷺ في الاستسقاء؟ قال: «خرج رسول الله ﷺ متبذِّلًا متواضعًا مُتضرِّعًا...». الحديث رواه أبو داود وغيرُه(٢).

الثَّالث: مدُّ اليدين إلى السَّماء؛ وهو مِن آداب الدُّعاء الَّتِي يُرجى بسببها إجابته، ففي سنن أبي داود وغيره عن سلمان الفارسيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النَّبِيِّ ﷺ قال: «**إِنَّ اللهَ حَيِيٌّ كَرِيمٌ، يَسْتَحْيِي مِنْ عَبْدِهِ إِذَا رَفَعَ إِلَيْهِ يَدَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا خَائِبَتَيْنِ**»(٣).

الرَّابع: الإلحاح على الله بتكرير ذكر ربوبيَّته؛ وهو من أعظم ما يطلب به إجابة الدُّعاء، روي عن عطاء أنَّه قال: «ما قال عبدٌ يا ربِّ يا ربِّ ثلاث مرَّات إلَّا نَظر اللهُ إليه، فذُكر ذلك للحَسن فقال: أمَّا تقرؤون القرآن؟ ثمَّ تلا قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم﴾ [آل عمران: ١٩١-١٩٥]». رواه أبو نعيم في الحلية(٤). ولهذا؛ فإنَّ غالبَ الأدعيةِ المذكورةِ في القرآن مفتتحةٌ باسم الربِّ، ولهذا لَمَّا سُئل مالك: عمَّن يقول في الدُّعاء يا سيِّدي، قال: «**يقول: يا ربِّ كما**

---

(١) رواه مسلم (٢٦٢٢).

(٢) رواه أبو داود (١١٦٥)، والتِّرمذيُّ (٥٥٨)، والنَّسائِيُّ (١٥٠٨)، وحسَّنه الألبانِيُّ.

(٣) رواه أبو داود (١٤٨٨)، والتِّرمذيُّ (٣٥٥٦)، وصحَّحه الألبانِيُّ.

(٤) حلية الأولياء لأبي نعيم (٣/ ٣١٣).

قالت الأنبياء في دعائهم»[(١)].

فهذه أربعة أسباب عظيمةٍ لإجابة الدُّعاء انتظمها قول النَّبيِّ ﷺ في ذلك الرَّجل «**يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ: يَا رَبِّ يَا رَبِّ**»، ومع ذلك استبعد صلوات الله وسلامه عليه إجابةَ دعائه؛ لأنَّ مطعمَه حرامٌ وملبسَه حرامٌ، ومَشربَه حرامٌ، وغُذي بالحرام، فكيف يُستجاب لِمَن كانت هذه حاله!

ولهذا فليتق اللهَ عبدُ الله المؤمن في طعامه وشرابه وسائر شؤونه، وليَستعِن بالله على ذلك، فالتَّوفيق بيده وحده.

وَعَنْ ابن لِسَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: «سَمِعَنِي أَبِي وَأَنَا أَقُولُ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْجَنَّةَ وَنَعِيمَهَا وَبَهْجَتَهَا وَكَذا وَكَذا، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ وَسَلَاسِلِهَا وَأَغْلَالِهَا وَكَذَا وَكَذَا**»، فَقَالَ: «**يَا بُنَيَّ، إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ الله يَقُولُ: «سَيَكُونُ قَوْمٌ يَعْتَدُونَ فِي الدُّعَاءِ»، فَإِيَّاكَ أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ؛ إِنَّكَ إِنْ أُعْطِيتَ الْجَنَّةَ أُعْطِيتَهَا وَمَا فِيهَا مِنَ الْخَيْرِ، وَإِنْ أُعِذْتَ مِنَ النَّارِ أُعِذْتَ مِنْهَا وَمَا فِيهَا مِنَ الشَّرِّ**». رواه أحمد وأبو داود[(٢)].

ومثلُه ما رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه وغيرهم عن عبد الله بن مغفَّل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّه سمع ابنَه يقول: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ القَصْرَ الْأَبْيَضَ عَنْ يَمِينِ الْجَنَّةِ إِذَا دَخَلْتُهَا**»، فَقَالَ: «**أَيْ بُنَيَّ، سَلِ اللهَ الْجَنَّةَ وَتَعَوَّذْ بِهِ مِنَ النَّارِ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «سَيَكُونُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ قَوْمٌ يَعْتَدُونَ فِي الطُّهُورِ وَالدُّعَاءِ**»[(٣)].

إنَّ دعوات النَّبِيِّ الكريم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أتت جامعةً للخير كلِّه؛ ففيها المطالب العالية والغايات النَّبيلة وفيها السَّلامة من الخطأ. وإذا كانت بهذا

(١) انظر: جامع العلوم والحكم (١/ ٢٧٤).
(٢) رواه أحمد (١٤٨٣)، وأبو داود (١٤٨٠)، وصحَّحه الألبانِيُّ.
(٣) رواه أحمد (١٦٧٩٦)، وابن ماجه (٣٨٦٤)، وصحَّحه الألبانِيُّ.

الوصف فلا يسوغ أن يُدخل الإنسان في هذه الدَّعوات الجامعة تفاصيل تُنقص من هذه المعنى العظيم الَّتِي تضمَّنته دعواته عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ويتَّضح هذا بالمثال الَّذِي ورد في هذا الحديث، فعندما فصَّل ابن سعد: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْجَنَّةَ وَنَعِيمَهَا وَبَهْجَتَهَا وَكَذا وَكَذا، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ وَسَلَاسِلِهَا وَأَغْلَالِهَا وَكَذَا وَكَذَا**»، قال له والده سعد ﷺ: «**يَا بُنَيَّ، إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ يَقُولُ: «سَيَكُونُ قَوْمٌ يَعْتَدُونَ فِي الدُّعَاءِ»، فَإِيَّاكَ أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ؛ إِنَّكَ إِنْ أُعْطِيتَ الْجَنَّةَ أُعْطِيتَهَا وَمَا فِيهَا مِنَ الْخَيْرِ، وَإِنْ أُعِذْتَ مِنَ النَّارِ أُعِذْتَ مِنْهَا وَمَا فِيهَا مِنَ الشَّرِّ**»؛ محذِّرًا له أن يكون من هؤلاء الَّذِين يعتدون في دعائهم، مرشدًا له الى العناية بدعوات النَّبِيِّ في شمولها وجمعيَّتها للخير كلِّه دون أن يدخل في هذه التَّفاصيل الَّتِي تُدخله في جملة المعتدين بالدُّعاء.

وإذا كان سعد قال ما قاله لابنه لأجل تلك الزِّيادة المستقيمة من حيث المعنى، فكيف الشَّأن بمَن في أيديهم أدعية فيها تفاصيل تتضمَّن شرًّا من ألفاظٍ شركيَّة أو كلمات بدعيَّة أو مخالفات لهدي النَّبِيِّ الكريم عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ!

الحاصل أنَّ المسلم ينبغي له أن يعلم أنَّ في الأمَّة كما أخبر النَّبِيُّ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ مَن سيعتدي في الدُّعاء؛ فليحذر أن يكون من هؤلاء، والاعتداء في الدُّعاء من موجبات رَدِّه، ويكفي في ذلك قول النَّبِيِّ الكريم عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**»، أي: مردود على صاحبه غير مقبول منه.

لقد أخبر صلوات الله وسلامه عليه أنَّه سيكون قومٌ من أمَّته يعتدون في الدُّعاء ناهيًا عن ذلك، وليكون المسلمون في حَيطةٍ وحَذرٍ من الوقوع في شيء منه، ولا سبيل إلى السَّلامةِ من ذلك إلَّا بلزوم السُّنَّة واقتفاء آثار الرَّسولِ ﷺ، كما قال عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا**

عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»(١).

إنَّ الاعتداءَ في الدُّعاء بابٌ واسعٌ؛ إذ هو كما تقدَّم تعريفُه: تجاوز ما ينبغي أن يُقتصرَ عليه. وعلى هذا فكلُّ مخالفةٍ للسُّنَّة ومفارقةٍ للهدي النَّبويِّ الكريم في الدُّعاء يُعدُّ اعتداءً. ومن المعلوم أنَّ المخالفات متنوِّعةٌ وكثيرةٌ لا يجمعها نوعٌ واحد، ثمَّ هي أيضًا متفاوتةٌ في خطورتها، فمِن الاعتداءِ ما يبلغ حدَّ الكفر، ومنها ما هو دون ذلك.

والحاصل أنَّ العبد بحسب مفارقته لسُنَّة النَّبِيِّ ﷺ وبُعده عن هديه يكون نصيبُه من الاعتداء في الدُّعاء، ومَن لزِمَ هديَ النَّبِيِّ الكريم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وتقيَّد بسُنَّته أمِن الخطأ وتحقَّقت له السَّلامة.

---

(١) رواه أحمد (١٧١٤٤)، وأبو داود (٤٦٠٧)، والتِّرمذيُّ (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢)، وصحَّحه الألبانيُّ.

٢٣
شروط الدُّعاء وآدابه (٦)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**لَا يَزَالُ يُسْتَجَابُ لِلْعَبْدِ مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ أَوْ قَطِيعَةِ رَحِمٍ؛ مَا لَمْ يَسْتَعْجِلْ**»، قِيلَ: يَا رَسُولَ الله، مَا الِاسْتِعْجَالُ؟ قَالَ: «**يَقُولُ قَدْ دَعَوْتُ وَقَدْ دَعَوْتُ فَلَمْ أَرَ يَسْتَجِيبُ لِي، فَيَسْتَحْسِرُ عِنْدَ ذَلِكَ وَيَدَعُ الدُّعَاءَ**». رواه مسلم(١).

إنَّ من آداب الدُّعاء العظيمة ألَّا يستعجلَ الدَّاعي ويستبطئ الإجابةَ، فيستحسر ويمَلُّ ويترك الدُّعاءَ، ويقع في اليأس من روْح الله والقنوط من رحمته، فقد دلَّ الحديث على النَّهي عن استعجال الدُّعاء وأنَّ ذلك من موانع إجابته وأسباب عدم قبوله، وفي لفظ للحديث: «**يُسْتَجَابُ لِأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ؛ يَقُولُ دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي**»(٢).

وفي المسند بإسناد جيِّد من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَا يَزَالُ الْعَبْدُ بِخَيْرٍ مَا لَمْ يَسْتَعْجِلْ**»، قَالُوا: وَكَيْفَ يَسْتَعْجِلُ؟ قَالَ: «**يَقُولُ: قَدْ دَعَوْتُ رَبِّي فَلَمْ يَسْتَجِبْ لِي**»(٣)، قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «وفي هذا الحديث أدبٌ من آداب الدُّعاء، وهو أنَّه يُلازِم الطَّلبَ ولا ييأس من الإجابة؛ لِمَا في ذلك من الانقياد والاستسلام وإظهار الافتقار، حتَّى قال بعضُ السَّلف: لأنا

(١) رواه مسلم (٢٧٣٥).
(٢) رواه البخاريُّ (٦٣٤٠)، ومسلم (٢٧٣٥).
(٣) رواه أحمد (١٣٠٠٨)، وهو صحيح لغيره، صحيح التَّرغيب والتَّرهيب (١٦٥٠).

أشدُّ خشية أن أُحْرَم الدُّعاء من أن أُحْرَم الإجابة، وقال الدَّاوديُّ: يُخشى على مَن خالف وقال: قد دعوتُ فلم يستجب لي أن يُحرم الإجابة وما قام مقامها من الادِّخار والتَّكفير»(١).

ونقل عن ابن بطَّال أنَّه قال في شرح الحديث: «**المعنى: أنَّه يسأم فيترك الدُّعاء، فيكون كالمانِّ بدعائه، أو أنَّه أتى من الدُّعاء ما يستحقُّ به الإجابة، فيصير كالمُبخِّل للرَّبِّ الكريم الَّذي لا تعجزه الإجابة ولا يُنقصه العطاء**»(٢).

إنَّ الواجبَ على مَن أراد أن يُحقِّق الله رجاءَه وأن يُجيب دعاءَه أن يدعو ربَّه وهو موقنٌ بالإجابة؛ عظيمُ الثِّقة بالله، شديدُ الرَّجاء فيما عنده، فاستعجالُ الإجابةِ آفةٌ من الآفات تمنع ترتُّبَ أثر الدُّعاء عليه؛ لأنَّ المستعجلَ عندما يستبطئ الإجابةَ يستحسرُ ويدَعُ الدُّعاءَ، ويكون بذلك كما يقول ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «بِمنزلةِ مَن بذرَ بذرًا، أو غرَسَ غرسًا فجعل يتعاهده ويسقيه، فلمَّا استبطأ كمالَه وإدراكَه تركَه وأهمله»(٣).

وَعَنْ عُبادَةَ بنِ الصَّامِتِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**مَا عَلَى الْأَرْضِ مُسْلِمٌ يَدْعُو اللهَ بِدَعْوَةٍ إِلَّا آتَاهُ اللهُ إِيَّاهَا، أَوْ صَرَفَ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهَا؛ مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ أَوْ قَطِيعَةِ رَحِمٍ**»، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: إِذًا نُكْثِر؟ قَالَ: «**اللهُ أَكْثَرُ**». رواه التِّرمذيُّ(٤). وروى الإمام أحمد والبخاريُّ في الأدب المفرد والحاكم وغيرهم عن أبي سعيد الخدريِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَدْعُو بِدَعْوَةٍ لَيْسَ فِيهَا إِثْمٌ وَلَا قَطِيعَةُ رَحِمٍ إِلَّا أَعْطَاهُ اللهُ بِهَا إِحْدَى ثَلَاثٍ: إِمَّا أَنْ**

(١) فتح الباري (١١/ ١٤١).
(٢) شرح صحيح البخاريِّ لابن بطَّال (١٠/ ١٠٠).
(٣) الجواب الكافي (ص١١).
(٤) رواه التِّرمذيُّ (٣٥٧٣)، وقال الألبانيُّ: حسن صحيح.

يُعَجِّلَ لَهُ دَعْوَتَهُ، وَإِمَّا أَنْ يَدَّخِرَهَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ، وَإِمَّا أَنْ يَصْرِفَ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهَا»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ إِذًا نُكْثِرُ؟ قالَ: «**اللهُ أَكْثَرُ**»[(١)].

فقد أخبر النَّبيُّ ﷺ أنَّه لا بُدَّ في الدَّعوةِ الخالية من العدوان من إعطاء السُّؤل معجَّلًا، أو مثلِه من الخير مؤجَّلًا، أو يصرفُ عنه من السُّوء مثله، فالإجابة متحقِّقة لكنَّها تتنوَّع. قال ابن الجوزيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اعلم أنَّ دعاء المؤمن لا يردُّ، غير أنَّه قد يكون الأولى له تأخير الإجابة، أو يعوَّض بما هو أولى له عاجلًا أو آجلا؛ فينبغي للمؤمن أن لا يترك الطَّلب من ربِّه؛ فإنَّه متعبَّد بالدُّعاء كما هو متعبَّد بالتَّسليم والتَّفويض»[(٢)].

وقوله: «**الله أكثر**»، قال الطِّيبيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: الله أكثر إجابة من دعائكم، وقيل إنَّ معناه: فضل الله أكثر، أي: ما يعطيه من فضله وسعة كرمه أكثر ممَّا يعطيكم في مقابل دعائكم، وقيل: الله أغلب في الكثرة فلا تعجزونه في الاستكثار؛ فإنَّ خزائنه لا تنفد وعطاياه لا تفنى، وقيل: الله أكثر ثوابًا وعطاءً ممَّا في نفوسكم فأكثروا ما شئتم، فإنَّه تعالى يقابل أدعيتكم بما هو أكثر منها وأجلُّ»[(٣)].

عن أمِّ المؤمنين عائشةُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قالت: «**كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُعْجِبُهُ الْجَوَامِعُ مِنَ الدُّعَاءِ، وَيَدَعُ مَا بَيْنَ ذَلِكَ**». رواه أبو داود[(٤)]. وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «**إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ عُلِّمَ فَوَاتِحَ الْخَيْرِ وَجَوَامِعَهُ وَخَوَاتِمَهُ**». رواه أحمد[(٥)].

---

(١) رواه أحمد (١١١٣٣)، والبخاريُّ في الأدب المفرد (٧١٠)، وصحَّحه الألبانِيُّ.
(٢) انظر: فتح الباري (١١/ ١٤١).
(٣) انظر: مرقاة المفاتيح (٤/ ١٥٣٨).
(٤) رواه أحمد (٢٥١٥١)، وأبو داود (١٤٨٢)، وصحَّحه الألبانِيُّ.
(٥) رواه أحمد (٣٨٧٧)، (٤١٦٠)، وانظر: السِّلسلة الصَّحيحة (٣/ ٤٧٢).

وقد كان النَّبِيُّ ﷺ يُعلِّم أصحابه الدُّعاء كما يُعلِّمهم السُّورةَ من القرآن، وكان الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يطلبون منه أن يعلِّمهم دعاءً يدعون به مع أنَّهم كانوا أهلَ علمٍ وفصاحةٍ، وكان ﷺ يُصوِّبُ مَن يخطئ منهم ولو في لفظ واحد من ألفاظ الذِّكر والدُّعاء.

فالواجبُ على كلِّ مسلمٍ أن يعرف عِظَمَ قدر الأدعيةِ النَّبويَّة ورفيع مكانتها، وأنَّها مشتملةٌ على مجامع الخير وأبواب السَّعادةِ ومفاتيح الفلاح في الدُّنيا والآخرة، فخيرُ السُّؤال أن يسألَ المسلمُ ربَّه مِن خير ما سأله منه عبدُه ورسولُه محمَّد ﷺ، وأفضلُ الاستعاذة أن يستعيذ بالله من شرِّ ما استعاذ منه عبدُ الله ورسولُه محمَّد ﷺ، وأن يحذر من الزِّيادة والاستدراك على الدَّعوات المأثورة عن النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ بإضافة كلمة يستحسنها، أو زيادة جملة يستجودها.

وفيما يلي ذكرٌ لبعض النَّماذج لما هو شائع من هذا القبيل:

فمن ذلكم: قول بعضهم «يا مقلِّب القلوب والأبصار ثبِّت قلبي على دينك»، وقد ثبت هذا الدُّعاء مرفوعًا إلى النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عن غير واحد من الصَّحابة بدون زيادة «والأبصار»، منها: ما رواه التِّرمذيُّ في جامعه والإمام أحمد في مسنده عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول: «**يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ**»(١). قال التِّرمذيُّ: «وفي الباب عن النَّواس بن سمعان، وأمِّ سلمة، وعبد الله بن عمرو، وعائشة، وأبي ذرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ».

ولعلَّ من زاده أخذه من قوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]، ومقام الآية مقامٌ آخر؛ إذ

(١) رواه أحمد (١٢١٠٧)، والتِّرمذيُّ (٢١٤٠)، وصحَّحه الألبانيُّ.

هي في بيان عقوبة الله للمشركين بتقليب القلوب وجعْل الغشاوة على الأبصار، والحيلولة بينهم وبين الإيمان وعدم التَّوفيق لسلوك الصِّراط المستقيم.

كذلك من الأمثلة: قول: «**لا تكلني إلى نفسي طرفة عين ولا أقلَّ من ذلك**»؛ بزيادة: «**ولا أقلَّ من ذلك**»، روى أبو داود في سننه والإمام أحمد في مسنده وابن حِبَّان في صحيحه من حديث أبي بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**دَعَوَاتُ الْمَكْرُوبِ اللَّهُمَّ رَحْمَتَكَ أَرْجُو فَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَأَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ**»(١)، فزيادة «**ولا أقلّ من ذلك**» لا أصل لها في هذا الحديث، والمقصود من ذكر طرفة العين بيان الافتقار الشَّديد إلى الله عَزَّوَجَلَّ وعدم استغناء العبد عنه في أيِّ لحظة مهما قلَّت.

كذلك من الأمثلة: قول: «**من خير ما سألك منه عبدك ونبيُّك محمَّد ﷺ وعبادك الصَّالحون**»، **بزيادة:** «**وعبادك الصَّالحون**» في السُّؤال والتَّعوُّذ. هذا استدراك على هذا الدُّعاء الجامع الكامل، كما سبق التنبيه عليه.

كذلك من الأمثلة: قول: «**اللهم إنك عفو كريم تحب العفو فاعف عني**». بزيادة: «**كريم**»، وقد روى الترمذي وابن ماجه وأحمد عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: يَا رَسُولَ اللهِ، أَرَأَيْتَ إِنْ وَافَقْتُ لَيْلَةَ الْقَدْرِ؛ مَا أَدْعُو؟ قَالَ: «**تَقُولِينَ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ عَفُوٌّ تُحِبُّ الْعَفْوَ فَاعْفُ عَنِّي**»(٢)، **والكريم** اسمٌ من أسماءِ الله الحسنى، لكن لم يثبت في هذا الموضع، ولا أصلَ له في هذا الحديث.

كذلك من الأمثلة: قول: «**أستغفر الله العظيم من كلِّ ذنب عظيم**»، وقد ثبت في السُّنَّة صيغ كثيرة للاستغفار ليس في شيء منها التَّقييد بالذَّنب العظيم،

---

(١) رواه أحمد (٢٠٤٣٠)، وأبو داود (٥٠٩٠)، وحسَّنه الألبانِيُّ.
(٢) رواه أحمد (٢٥٣٨٤)، والتِّرمذيُّ (٣٥١٣)، وابن ماجه (٣٨٥٠)، وصحَّحه الألبانِيُّ.

بل صحَّ عن رسول الله ﷺ أنَّه كان يقول في سجوده: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي كُلَّهُ؛ دِقَّهُ وَجِلَّهُ، وَأَوَّلَهُ وَآخِرَهُ، وَعَلانِيَتَهُ وَسِرَّهُ**». رواه مسلم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[١]. وروى أيضًا من حديث أبي موسى الأشعريِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه كان يدعو بهذا الدُّعاء: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي وَجَهْلِي وَإِسْرَافِي فِي أَمْرِي وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّى اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي جِدِّى وَهَزْلِي وَخَطَئِي وَعَمْدِي وَكُلُّ ذَلِكَ عِنْدِي اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**»[٢]. قال العلَّامة ابن القيِّم في جلاء الأفهام: «**ومعلومٌ أنَّه لو قيل: اغفر لي كلَّ ما صنعت كان أوجز، ولكن ألفاظ الحديث في مقام الدُّعاء والتَّضرُّع وإظهار العبوديَّة والافتقار واستحضار الأنواع الَّتِي يتوب العبد منها تفصيلًا أحسن وأبلغ من الإيجاز والاختصار**». اهـ كلامه[٣]، فكيف بمَن يقصر طلب المغفرة على الذَّنب العظيم؟!

ومثل هذا كثيرٌ في واقع النَّاس وحالهم، وما ذُكر هو مجرَّد أمثلة فيها التَّنبيه. وفَّقنا الله أجمعين لكلِّ خير، وأصلح لنا شأننا كلَّه إنَّه سميعٌ قريبٌ مجيب.

---

(١) رواه مسلم (٤٨٣).
(٢) رواه البخاريُّ (٦٣٩٨)، ومسلم (٢٧١٩).
(٣) جلاء الأفهام (ص٢٩٨).

٢٤
فضل القرآن الكريم (١)

إنَّ أفضلَ الذِّكر وأجلَّه شأنا وأرفعه مكانةً القرآنُ الكريم؛ إذ هو خير ما ينبغي للعبد أن يذكر الله به، فهو كلامه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الَّذِي هو خيرُ الكلام وأحسنُه وأصدقُه وأنفعُه، وهو وحي الله وتنزيلُه الَّذِي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو أفضل كتابٍ أنزله الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ على أفضل رسولٍ، على عبده ومصطفاه وخيرته من خلقه محمَّد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه.

وفضل القرآن الكريم وشرَفُه أمرٌ لا يخفى على المسلمين، فهو كتابُ الله ربِّ العالمين، وكلام خالق الخلق أجمعين، وهو حبل الله المتين، وهو الذِّكر الحكيم، وهو الصِّراط المستقيم؛ هو الَّذِي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبسُ به الألسن، ولا يشبعُ منه العلماء، ولا يخلَق عن كثرة الرَّدِّ، ولا تنقضي عجائبه، مَن قال به صدق، ومَن عمِل به أُجر، ومَن حكَم به عدَل، ومَن دعا إليه هُدي إلى صراطٍ مستقيم.

والقرآن الكريم كلُّه كتابُ ذكرٍ لله؛ فذكر الله تعالى هو لبُّ القرآن وروحُه وحقيقته وغايةُ مقصوده، يقول الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩]، وقال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥]، والآيات في هذا المعنى كثيرة.

وقد سمَّى الله عَزَّوَجَلَّ كتابَه العزيز ذكرًا، فقال: ﴿ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾ [الأنبياء: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النَّحل: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ [الأعراف: ٦٩]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، وقال تعالى: ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ [ص: ١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١-٤٢]. وفي هذا المعنى آياتٌ كثيرة في القرآن الكريم.

إنَّ تلاوة القرآن وتدبَّره هي أعظم أبواب الهداية؛ فإنَّ الله تَبَارَكَوَتَعَالَى قد أنزل كتابه المبين على عباده هدًى ورحمةً وضياءً ونورًا وبشرى وذكرى للذَّاكرين، وجعله مباركًا وهدًى للعالمين، وجعل فيه شفاء من الأسقام ولا سِيَّما أسقام القلوب وأمراضها من شبهات وشهوات، وجعله رحمةً للعالمين، يهدي للَّتِي هي أقوم، وصرَّف فيه سُبْحَانَهُوَتَعَالَى من الآيات والوعيد لعلَّهم يتَّقون أو يحدث لهم ذكرى.

قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النَّحل: ٨٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [الأنعام: ٩٢]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء: ٩]، وقال تعالى:

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

ولهذا فإنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أمر عباده وحثَّهم على قراءة القرآن وتدبُّره في غير آية من القرآن، قال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النِّساء: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمَّد: ٢٤]، وأخبر سبحانه أنَّه إنَّما أنزله لتُتدبَّر آياتُه، فقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]، وبيَّن سبحانه أنَّ سبب عدم هداية من ضلَّ عن الصِّراط المستقيم هو ترك تدبُّر القرآن والاستكبار عن سماعه، فقال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٦٦-٦٨]، أي: أنَّهم لو تدبَّروا القرآن لأوجب لهم الإيمان، ولمنعهم من الكفر والعصيان، فدلَّ ذلك على أنَّ تدبُّر القرآن يدعو إلى كلِّ خيرٍ ويعصم من كلِّ شَرٍّ.

ووصف الله القرآن بأنَّه أحسنُ الحديث، وأنَّه تعالى ثنَّى فيه من الآيات وردَّد القول فيه ليُفهم، وأنَّ جلود الأبرار عند سماعه تقشعرُّ خشيةً وخوفًا؛ فقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزُّمر: ٢٣].

وعاتب سبحانه المؤمنين على عدم خشوعهم عند سماع القرآن، وحذَّرهم من مشابهة الكفَّار في ذلك، فقال سبحانه: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦]، وأخبر سبحانه عن القرآن أنَّه يزيد

المؤمنين إيمانًا إذا قرأوه وتدبَّروا آياته، فقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢].

وأخبر عن صالح أهل الكتاب أنَّ القرآن إذا تلي عليهم يخرُّون للأذقان سُجَّدًا يبكون ويزيدهم خشوعًا وإيمانًا وتسليمًا، فقال سبحانه: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٩].

وأخبر سبحانه بأنَّه لو أنزل القرآن الكريم على جبل لخشع وتصدَّع من خشية الله، وجعل هذا مثلًا للنَّاس يبيِّن لهم عظمة القرآن وقوَّة أثره، فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

ثُمَّ مع هذا فإنَّ الله تعالى قد حذَّر عباده من الإعراض عن القرآن الكريم أشدَّ التَّحذير، وبيَّن لهم خطورة ذلك، وما يجنيه مَن فَعلَ ذلك من الإثم والوزر الَّذي يحمله معه يوم القيامة؛ بسبب إعراضه عن القرآن وعدم تلقِّيه بالقبول والتَّسليم، يقول الله تعالى: ﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا﴾ [طه: ٩٩-١٠١]، فإذا كان القرآن ذكرًا لرسول الله ﷺ ولأمَّته، فيجب تلقِّيه بالقبول والتَّسليم والانقياد والتَّعظيم، وأنْ يُهتدى بنوره إلى الصِّراط المستقيم، وأن يُقبَل عليه بالتَّعلُّم والتَّعليم، وأمَّا مقابلته بالإعراض والصُّدود أو بما هو أخطر من ذلك من الإنكار والجحود؛ فإنَّه كفرُ لهذه النِّعمة يستحقُّ فاعله العقوبة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا﴾.

وقوله في الآية: ﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾ فيه وصفٌ للقرآن الكريم بأنَّه ذِكر، وقد مرَّ معنا آياتٌ كثيرة في هذا المعنى، وهذا يعني أنَّ القرآن الكريم فيه ذكرٌ للأخبار السَّابقة واللَّاحقة، وذِكرٌ يُتَذكَّرُ به ما لله تعالى من الأسماء الحسنى والصِّفات الكاملة، ويُتذكَّر به أحكام الأمر والنَّهي وأحكام الجزاء، وهذا أيضا ممَّا يدلُّ على أنَّ القرآن مشتملٌ على أحسن ما يكون من الأحكام الَّتِي تشهد العقول والفِطَر بحسنها وكمالها.

إنَّ كتابًا هذا بعض شأنه لحريٌّ بكلِّ مسلم أن يعظِّمه ويقدُره حقَّ قدره، ويتلوه حقَّ تلاوته؛ بتدبُّر آياته والتَّفكُّر والتَّعقُّل لمعانيه، وبالعمل بما يقتضيه، وكما يقول العلَّامة ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فلا شيء أنفع للقلب من قراءة القرآن بالتَّدبُّر والتَّفكُّر؛ فإنَّه جامعٌ لجميع منازل السَّائرين وأحوال العاملين ومقامات العارفين، وهو الَّذِي يورث المحبَّة والشَّوق والخوف والرَّجاء والإنابة والتَّوكُّل والرِّضا والتَّفويض والشُّكر والصَّبر وسائر الأحوال الَّتِي بها حياة القلب وكماله، وكذلك يزجر عن جميع الصِّفات والأفعال المذمومة الَّتِي بها فساد القلب وهلاكه، فلو علِم النَّاس ما في قراءة القرآن بالتَّدبُّر؛ لاشتغلوا بها عن كلِّ ما سواها، فإذا قرأه بتفكُّرٍ حتَّى مرَّ بآيةٍ وهو محتاجٌ إليها في شفاء قلبه كرَّرها ولو مائة مرَّة ولو ليلة، فقراءة آيةٍ بتفكُّرٍ وتفهُّمٍ خيرٌ من قراءة ختمةٍ بغير تدبُّر وتفهُّم، وأنفع للقلب وأدعى إلى حصول الإيمان وذوق حلاوة القرآن».
اهـ كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١).

ومَن كان في قراءته للقرآن على هذا الوصف أثَّر فيه القرآن غاية التَّأثير وانتفع بتلاوته تمام الانتفاع، وكان بذلك من أهل العلم والإيمان الرَّاسخين، وهذا هو مقصود القرآن وغاية مطلوبه، ولهذا يقول شيخ الإسلام ابن تيميَّة

(١) مفتاح دار السَّعادة (١/ ١٨٧).

رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والمطلوب من القرآن هو فهم معانيه والعمل به، فإنَّه إن لم تكن هذه همَّة حافظه؛ لم يكن من أهل العلم والدِّين»[1]. وبهذا يظفر العبد ببركة القرآن.

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]، فهو كتابٌ مُبارك، ونزل في ليلةٍ مباركة، وأُنزل على نبيٍّ مبارك ورسولٍ مبارك صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، فهو خير كتابٍ أُنزل على خير رسولٍ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وبركة هذا القرآن إنَّما تُنال بحسن التَّدبُّر لآياته والتَّأمُّل في معانيه والعمل بهداياته، وهذا التَّدبُّر لكتاب الله هو مفتاح العلوم والمعارف، وبه يُستنتج كلُّ خير، وبه يزداد الإيمان في القلب. فإنَّه يعرِّف بالرَّبِّ المعبود، وما له من صفات الكمال، وما يُنزَّه عنه من سمات النَّقص، ويعرِّف الطَّريق الموصِّلة إليه وصفة أهلها، وما لهم عند القدوم عليه، ويعرِّف العدوَّ الَّذي هو العدوُّ الحقيقيُّ، والطَّريق الموصِّلة إلى العذاب وصفة أهلها، وما لهم عند وجود أسباب العقاب. وكلَّما ازداد العبد تأمُّلًا فيه ازداد علمًا وعملًا وبصيرة.

(١) مجموع الفتاوى (٢٣/ ٥٥).

٢٥
فضل القرآن الكريم (٢)

تقدَّم الحديث عن فضل القرآن الكريم وبيان أنَّه أفضل الذِّكر وأجلُّه شأنًا وأرفعه مكانة، وفيما يلي سوقٌ لطرف من الأحاديث النَّبويَّة في فضل القرآن وبيان عظيم مكانته وثواب العناية به تلاوةً وفهمًا وعملًا.

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**اقْرَءُوا الْقُرْآنَ؛ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لأَصْحَابِهِ، اقْرَءُوا الزَّهْرَاوَيْنِ الْبَقَرَةَ وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ؛ فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا، اقْرَءُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ؛ فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ وَلَا تَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ**». رواه مسلم[(١)].

هذه فضيلةٌ عظيمة من فضائل تلاوة القرآن، وثمرةٌ عظيمة من ثمار العناية به؛ أَنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ، أي: يشفع لقارئه وتاليه عند الله، يتقدَّمه سورة البقرة وآل عمران تحاجَّان عن صاحبهما يوم القيامة، ولكن الرَّسول ﷺ قيَّد قراءة القرآن الَّتِي يُنال بها هذا الفضل بالعمل به، لما رواه مسلم عن النَّوَّاس بْنَ سَمْعَانَ الْكِلَابِيرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**يُؤْتَى بِالْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَهْلِهِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ تَقْدُمُهُ سُورَةُ الْبَقَرَةِ وَآلُ عِمْرَانَ**»، وَضَرَبَ لَهُمَا رَسُولُ اللهِ ﷺ ثَلَاثَةَ أَمْثَالٍ مَا نَسِيتُهُنَّ بَعْدُ قَالَ: «**كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أَوْ ظُلَّتَانِ سَوْدَاوَانِ بَيْنَهُمَا شَرْقٌ أَوْ كَأَنَّهُمَا حِزْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ**

(١) رواه مسلم (٨٠٤).

تُحَاجَّانِ عَنْ صَاحِبِهِمَا»[١].

وفي هذا دلالة على أنَّ أهمَّ شيء في القرآن العمل به، ويؤيِّد هذا قول الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]، أي: يتفهَّمون معانيه ويعملون بهدايته. قال الفضيل رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**إنَّما أنزل القرآن ليعمل به فاتَّخذ النَّاس قراءته عملًا**»، ومعنى قولِه: «**لِيُعْمَلَ به**»[٢]، أي: ليُحِلُّوا حَلَالَه ويحرِّموا حَرَامَه، «**فاتَّخذ النَّاس قراءته عملًا**»، أي: لا يتدبَّرونه ولا يعملون بما فيه.

وقد كان أهلُ العلم وأئمَّة الفضل والخير يولون هذا الموضوع عنايةً خاصَّةً ويعتنون به عنايةً فائقة؛ إذ به تأتي ثمرة القرآن، ويُنال ما يترتَّب عليه من أجورٍ عظيمةٍ وثوابٍ وإحسانٍ، وبدون هذه الآداب لا ينال التَّالي الثَّمرة المرجوة، ولا يحصِّل الخير العظيم والثَّواب الجزيل المأمول، بل ربَّما كان القرآن حجَّةً عليه وخصيمًا له يوم القيامة. فقد ثبت عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**إِنَّ اللهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا وَيَضَعُ آخَرِينَ**»[٣]. وثبت عنه ﷺ أنَّه قال: «**وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ**»[٤]، وكلاهما في صحيح مسلم.

فالقرآن حجَّةٌ لمَن عمل به وتأدَّب بآدابه، وأمَّا من ضيَّع حدوده وأهمل حقوقه وفرَّط في واجباته؛ فإنَّ القرآن يكون حجَّةً عليه يوم القيامة، ولهذا يقول قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لم يجالس هذا القرآن أحدٌ إلَّا قام عنه بزيادة أو نقصان»[٥]، أي: بزيادة في الإيمان والخير إن عمل به، أو نقصان من ذلك إن أهمله وضيَّع حقوقه.

---

(١) رواه مسلم (٨٠٥).
(٢) رواه الآجرِّيُّ في أخلاق أهل القرآن (٣٧)، والخطيب في اقتضاء العلم (١١٦).
(٣) رواه مسلم (٨١٧).
(٤) رواه مسلم (٢٢٣).
(٥) رواه ابن المبارك في الزُّهد (٧٨٨)، والفريابيُّ في فضائل القرآن (٧٧).

قال الآجرِّيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فالمؤمن العاقل إذا تلا القرآن استعرض القرآن فكان كالمرآة يرى بها ما حسُن من فعله وما قبُح منه؛ فما حذَّره مولاه حَذِرَه، وما خوَّفه به من عقابه خافه، وما رغَّبه فيه مولاه رغِب فيه ورجاه، فمَن كانت هذه صفته أو ما قارب هذه الصِّفة فقد تلاه حقَّ تلاوته ورعاه حقَّ رعايته، وكان له القرآنُ شاهدًا وشفيعًا وأنيسًا وحرزًا، ومَن كان هذا وصفه نفع نفسه ونفع أهله، وعاد على والديه وعلى ولده كلُّ خير في الدُّنيا والآخرة»(١).

وَعَنْ عُثْمَانَ بن عَفَّانَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولَ الله ﷺ: «**خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ**». رواه البخاريُّ(٢).

وهذا الحديث فيه شهادة عظيمة من النَّبيِّ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ لأهل القرآن تعلُّمًا وتعليمًا بالخيريَّة، أي: أنَّهم خير عباد الله، فمَن كان منهم مشتغلًا بتعلُّم القرآن وتعليمه فهو من خير عباد الله، وكلَّما زاد حظُّ العبد من هذا الكتاب علمًا وتعلُّمًا وتعليمًا وعملًا؛ زاد نصيبه وحظُّه من الخيريَّة.

وَعَنْ عَبْدِ الله بْن مَسْعُودٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لَا أَقُولُ: (الم) حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ، وَلَامٌ حَرْفٌ، وَمِيمٌ حَرْفٌ**». رواه التِّرمذيُّ(٣).

وهذا فيه فضل قراءة القرآن، وأنَّه كلَّما زاد العبد من القراءة زاد حظُّه ونصيبه من هذا الأجر العظيم. ومثله ما رواه عَبْدُ اللهِ بْنُ عَمْرو رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: يُقَالُ -يَعْنِي لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ-: «**اقْرَأْ وَارْتَقِ وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا؛ فَإِنَّ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَأُ بِهَا**». رواه أبو داود والتِّرمذيُّ(٤).

---

(١) أخلاق أهل القرآن (ص٨٠ - ٨١).

(٢) رواه البخاريُّ (٥٠٢٧).

(٣) رواه التِّرمذيُّ (٢٩١٠).

(٤) رواه أبو داود (١٤٦٤)، والتِّرمذيُّ (٢٩١٤)، وقال الألبانِيُّ: حسن صحيح.

وَعَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الأُتْرُجَّةِ؛ رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا طَيِّبٌ، وَمَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ التَّمْرَةِ؛ لَا رِيحَ لَهَا وَطَعْمُهَا حُلْوٌ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مَثَلُ الرَّيْحَانَةِ؛ رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الحَنْظَلَةِ؛ لَيْسَ لَهَا رِيحٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ**». رواه البخاريُّ ومسلم(١).

وقد أفاد الحديث أنَّ الطَّيِّب كلَّه مع القرآن، سواءً من حيث الطَّعم أو من حيث الرِّيح؛ فمَن كان من أهل القرآن إيمانًا واحتسابًا وعملًا وتلاوةً وتدبُّرًا اجتمع فيه طيب الرَّائحة وطيب الطَّعم، ومَن كان من أهل العمل بالقرآن ولم يكن من أهل التِّلاوة فاز بطيب الطَّعم وفاته طيب الرَّائحة.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ: «فجعل النَّاس أربعة أقسام: أهل الإيمان والقرآن وهم خيار النَّاس، الثَّاني أهل الإيمان الَّذين لا يقرءون القرآن وهم دونهم؛ فهؤلاء هم السُّعداء. والأشقياء قسمان: أحدهما مَن أوتي قرآنًا بلا إيمان فهو منافق، والثَّاني مَن لا أوتي قرآنًا ولا إيمانًا. والمقصود: أنَّ القرآن والإيمان هما نور يجعله الله في قلب مَن يشاء من عباده، وأنَّهما أصلُ كلِّ خير في الدُّنيا والآخرة، وعلمهما أجلُّ العلوم وأفضلها، بل لا علم في الحقيقة ينفع صاحبه إلَّا علمهما، والله يهدي مَن يشاء إلى صراط مستقيم»(٢).

وعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَنَحْنُ فِي الصُّفَّةِ فَقَالَ: «**أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَغْدُوَ كُلَّ يَوْمٍ إِلَى بُطْحَانَ أَوْ إِلَى الْعَقِيقِ فَيَأْتِيَ مِنْهُ بِنَاقَتَيْنِ كَوْمَاوَيْنِ فِي غَيْرِ إِثْمٍ وَلَا قَطْعِ رَحِمٍ**» فَقُلْنَا يَا رَسُولَ اللهِ نُحِبُّ ذَلِكَ. قَالَ: «**أَفَلَا يَغْدُو أَحَدُكُمْ إِلَى الْمَسْجِدِ فَيَعْلَمَ أَوْ يَقْرَأَ آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ خَيْرٌ لَهُ مِنْ**

(١) رواه البخاريُّ (٥٤٢٧)، ومسلم (٧٩٧).
(٢) مفتاح دار السَّعادة (١/ ٥٥).

نَاقَتَيْنِ، وَثَلَاثٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ ثَلَاثٍ، وَأَرْبَعٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَرْبَعٍ، وَمِنْ أَعْدَادِهِنَّ مِنَ الْإِبِلِ». رواه مسلم[(١)].

وذلك أنَّ قراءة القرآن هي الَّتِي تنفع العبد في الدُّنيا والآخرة نفعًا عظيمًا بخلاف الإبل، فأراد ﷺ ترغيبهم في الباقيات وتزهيدهم عن الفانيات؛ بحثِّهم على تعلُّم القرآن وتعليمه وتلاوته.

ومثله حديث أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ إِذَا رَجَعَ إِلَى أَهْلِهِ أَنْ يَجِدَ فِيهِ ثَلَاثَ خَلِفَاتٍ عِظَامٍ سِمَانٍ؟**» **قُلْنَا نَعَمْ. قَالَ**: «**فَثَلَاثُ آيَاتٍ يَقْرَأُ بِهِنَّ أَحَدُكُمْ فِي صَلَاتِهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ ثَلَاثِ خَلِفَاتٍ عِظَامٍ سِمَانٍ**». رواه مسلم[(٢)].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**لاَ حَسَدَ إِلاَّ فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ عَلَّمَهُ اللهُ الْقُرْآنَ فَهُوَ يَتْلُوهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ فَسَمِعَهُ جَارٌ لَهُ، فَقَالَ: «لَيْتَنِي أُوتِيتُ مِثْلَ مَا أُوتِيَ فُلَانٌ فَعَمِلْتُ مِثْلَ مَا يَعْمَلُ**»، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالًا فَهُوَ يُهْلِكُهُ فِي الْحَقِّ فَقَالَ رَجُلٌ: «**لَيْتَنِي أُوتِيتُ مِثْلَ مَا أُوتِيَ فُلَانٌ فَعَمِلْتُ مِثْلَ مَا يَعْمَلُ**». رواه البخاريُّ[(٣)].

فهذا فيه أنَّ غير صاحب القرآن يغبط صاحب القرآن بما أعطيه من العمل بالقرآن؛ فاغتباط صاحب القرآن بعمل نفسه أولى بأن يُسَرَّ ويرتاح ويفرح بذلك، كما قال الله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٧-٥٨]، فأمر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الآية بالفرح بالقرآن الَّذي

(١) رواه مسلم (٨٠٣).
(٢) رواه مسلم (٨٠٢).
(٣) رواه البخاريُّ (٥٠٢٦).

هو أعظم نعمةٍ ومنَّةٍ وفضلٍ تفضَّل الله به على عباده؛ فبذلك فليفرحوا هو خير لهم ممَّا يجمعون من متاعٍ الدُّنيا ولذَّاتها المضمحلَّة الزَّائلة عن قريب.

اللَّهُمَّ اجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا ونور صدورنا وجلاء همومنا وغمومنا، وأصلح لنا شأننا كلَّه يا حيُّ يا قيُّوم يا ذا الجلال والإكرام.

٢٦

فضل التَّحميد والتَّكبير والتَّهليل والتَّسبيح (١)

إنَّ خير الكلام وأفضل الذِّكر بعد القرآن الكريم أربعُ كلمات لهنَّ قدرٌ رفيعٌ وشأنٌ عظيمٌ ومكانةٌ عاليةٌ في دين الله، هنَّ: «**سُبْحَانَ اللهِ**»، و«**الحَمْدُ للهِ**»، و«**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**»، و«**اللهُ أَكْبَرُ**» وهي من القرآن. وقد ورد في فضل هذه الكلمات الأربع نصوصٌ كثيرةٌ تدلُّ دلالةً قويَّةً على عظم شأن وقدر هذه الكلمات وما يترتَّب على القيام بهنَّ من أجورٍ عظيمةٍ وأفضالٍ كريمةٍ وخيراتٍ متواليةٍ في الدُّنيا والآخرة.

عَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدَبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قَالَ: قَالَ رَسولُ اللهِ** ﷺ: «**أَحَبُّ الْكَلَامِ إِلَى اللهِ أَرْبَعٌ؛ سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ. لَا يَضُرُّكَ بِأَيِّهِنَّ بَدَأْتَ**». رواه مسلم[١].

قوله: «**أَحَبُّ**» أفعَل تفضيل؛ فأفضل الكلمات وأعظمها شأنًا عند الله سبحانه هؤلاء الكلمات الأربع: (**سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ للهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ**)، وهذا يفيد أنَّ المسلم يُستحبُّ له أن يُكثر في حياته من ذكر الله عَزَّوَجَلَّ بهؤلاء الكلمات الَّتِي هي أحبُّ الكلام إليه سبحانه.

وإذا عرف المسلم أنَّ هؤلاء الكلمات أحبُّ الكلام إلى الله؛ فإنَّ إقباله عليها سيعظم، وعنايته بها ستكبر، واهتمامه بها سيزيد، ولا بُدَّ مع العناية من ذكر الله بها بالكثرة من عنايةٍ بفهم معانيها ومعرفة مدلولاتها.

(١) رواه مسلم (٢١٣٧).

أمَّا «سُبْحَانَ اللهِ» فهي كلمة تنزيه وتقديس؛ فبقولك: «سبحان الله» تُنزِّه الله وتُقدِّسه وتُبرِّئه ممَّا لا يليق به، فسبحان الله كلمة تنزيهٍ لله عن النَّقائص، وعن العيوب، وعمَّا لا يليق به سبحانه، وعن مماثلة المخلوقات، فالله عَزَّوَجَلَّ مُنزَّه عن ذلك كلِّه، فهي كلمة تنزيه، ولهذا قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الصَّافات: ١٨٠]، أي: تَنزَّه وتَقدَّس ربُّ العِزَّة عمَّا يصفه به أعداء الرُّسل، فالتَّسبيح تنزيهٌ لله وتقديس له، ومن أسمائه تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: «القدُّوس»، و«السَّلام»، و«السُّبُّوح»؛ وهذه كلُّها أسماء تنزيه وتقديس لله وتبرئة له من النَّقائص، فقول المسلم: «سُبْحَانَ اللهِ»، أي: أنزِّه الله، ولا يحسن بالمسلم أن يقول هذه الكلمة وهو لا يدري ما هي، ولا يدري ما تعني، بل الواجب أن يقولها وسائر الأذكار المشروعة وهو يعي معناها ويعرف ما تدلُّ عليه، وإلَّا فإنَّ إتيانه بها سيكون ضعيفَ الأثر.

وَ«الْحَمْدُ للهِ» فيها الثَّناء على الله سبحانه؛ إذا قلت: «الْحَمْدُ للهِ» أثنيت على الله مع حبِّه؛ لأنَّ الحمد: ثناءٌ مع الحبِّ، ثناءٌ عليه سبحانه بأسمائه وصفاته، وثناءٌ عليه سبحانه بنعمه ومِننه وعطاياه، فالله يُحمد على الأسماء والصِّفات، ويُحمد على النِّعم والعطايا والهبات.

وَ«لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» فيها التَّوحيد والإخلاص والبراءة من الشِّرك، وهي قائمةٌ على ركنين اثنين: النَّفي في أوَّلها، والإثبات في آخرها، ولا توحيد إلَّا بهما؛ نفي العبوديَّة عن كلِّ مَن سوى الله، وإثبات العبوديَّة بكلِّ معانيها لله وحده لا شريك له. فهي كلمة التَّوحيد وكلمة الإخلاص، وهي الكلمة الَّتِي جعلها إبراهيم عَلَيْهِٱلسَّلَامُ باقية في عَقِبِه لعلَّهم يرجعون، وهي كلمة التَّقوى، وهي العُروة الوُثقى، وهي كلمة الشَّهادة، وهي مفتاح دار السَّعادة، وهي أعظم النِّعم وأجلُّ المِنن، ولهذا لما ذكر الله في سورة النَّحل الَّتِي يُسمِّيها بعض أهل العلم

«سورة النِّعم»؛ لكثرة ما ذكر جَلَّ وَعَلَا فيها من نعمه على عباده بدأها بنعمة «لا إله إلَّا الله» كلمة التَّوحيد. ولهذا قال سفيان بن عيينة رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما أنعم الله على العباد نعمة أعظم من أن عرَّفهم لا إله إلَّا الله»(١)، فهي أكبر النِّعم، وهي أفضل الحسنات، وأجلُّ الطَّاعات، وأفضل الكلمات.

ولا يكون التَّمسُّك بلا إله إلَّا الله إلَّا بالعلم بمعناها، والعمل بمقتضاها، والصِّدق في قولها؛ فالعلم يَخرج به قائلها عن طريقة النَّصارى الَّذِين يعملون ولا يعلمون، والعمل يَخرج به عن طريقة اليهود الَّذِين يعلمون ولا يعملون، والصِّدق يَخرج فيه عن طريقة المنافقين الَّذِين يُظهرون ما لا يُبطنون، فلا بُدَّ فيها من العلم والعمل والصِّدق، علمٌ بمعناها، وعملٌ بمقتضاها، وصدقٌ في قولها بحيث يقولها من قلبه، ويواطؤ قلبه لسانه.

ثمَّ الكلمة الرَّابعة: «**اللهُ أَكْبَرُ**»؛ والتَّكبير فيه التَّعظيم لله، واعتقاد أنَّه سبحانه الكبير المُتعال الَّذِي لا أكبر منه، ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ﴾ [الأنعام: ١٩]، فالله عَزَّوَجَلَّ هو الكبير المُتعال الَّذِي لا أكبر منه، فالله أكبر، أي: من كلِّ شيء.

ولهذا جاء في الحديث أنَّ النَّبيَّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قال لعَدِيِّ بن حاتم في أوَّل إسلامه: «**يَا عَدِيُّ، مَا يُفِرُّكَ؟**» أي: ما الَّذِي يجعلك تفرُّ عن الإسلام وتهرب منه، «**أَيُفِرُّكَ أَنْ يُقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؟ وَهَلْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ! أَيُفِرُّكَ أَنْ يُقَالَ: اللهُ أَكْبَرُ؟ وَهَلْ شَيْءٌ أَكْبَرُ مِنَ اللهِ!**»(٢)، فكلمة «الله أكبر» تدلُّ على أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ الكبير المُتعال الَّذِي لا أكبر منه، ففي قول: «الله أكبر» تعظيم الله واعتقاد أنَّه لا أكبر منه، وعندما يقولها المسلم مستشعرًا لمعناها مستحضرًا لدلالتها يسقط من قلبه كلُّ شيء كبير، ولهذا شُرع لنا أن نَستفتح بها صلاتنا، بل جُعل تحريمها

(١) رواه ابن أبي الدُّنيا في كتاب الشُّكر (٩٦)، وأبو نعيم في الحلية (٧/ ٢٧٢).
(٢) رواه أحمد (١٩٣٨١)، والتِّرمذيُّ (٢٩٥٣)، وحسَّنه الألبانيُّ.

التَّكبير؛ فيدخل المرء في صلاته وهو للتَّوِّ مُنشغل بأمور كثيرة، كبيرة في قلبه، وعظيمة عنده ومستحوذة على اهتمامه، فإذا قال: «اللهُ أَكْبَرُ» مستحضرًا معناها مستشعرًا دلالتها، كلُّ هذه الأمور تتساقط ولا يبقى في قلبه إلَّا تعظيم الله والإقبال عليه وحسن الخُضوع والتَّذلُّل والخُشوع بين يديه. ومَن يدرك هذه الكلمة على وجهها ومتمِّها تُذهب عن قلبه أمورًا كثيرة من الإكباب على الدُّنيا، والإقبال عليها والافتتان بملهياتها، والانصراف عن الآخرة، فهي كلمةٌ جليلة تدلُّ على معانٍ عظيمة ينبغي على المسلم أن يستحضر معناها، وأن يفهم مدلولها، وأن يحقِّق ما تقتضيه من التَّعظيم والإجلال لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

الحاصل أنَّ هؤلاء الكلمات الأربع هُنَّ أحبُّ الكلام إلى الله، وقد قال بعض أهل العلم لعلَّ السِّرَّ في كون هذه الكلمات الأربع أحبُّ الكلام إلى الله: أنَّها جمعت معاني أسماء الله الحسنى وصفاته العليا؛ لأنَّ «سبحان الله» فيها التَّنزيه لله والتَّبرئة والتَّقديس له عن كلِّ ما لا يليق بجلاله وكماله وعظمته سبحانه. و«الحمد» فيه إثبات نعوت الكمال وصفات الجلال، و«الله أكبر» فيها إثبات عظمة الله وكبريائه، و«لا إله إلَّا الله» فيها إثبات الوحدانيَّة وأنَّه الأحد الواحد المعبود بحقٍّ ولا معبود بحقٍّ سواه، وأن يفرَد وحده عَزَّوَجَلَّ بالعبادة ويخلَص له الدِّين. ومَن وفَّقه الله عَزَّوَجَلَّ للإكثار من هذه الكلمات الأربع مع استحضار ما دلَّت عليه من معنى؛ فإنَّها لا تزال تجدِّد إيمانه وتقوِّي عقيدته وتوحيده وتمتِّن صلته بالله سبحانه.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَأنْ أَقُولَ: «سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ لله، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ؛ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ**». رواه مسلم[١].

(١) رواه مسلم (١٦٩٥).

ومن المعلوم أنَّ الشَّمس تطلع على الدُّنيا كلِّها، ومعنى ذلك أنَّ هؤلاء الكلمات أحبُّ إليه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ من الدُّنيا وما عليها، والدُّنيا مليئة بالأمور الَّتِي هي حبيبة إلى النُّفوس ومرغوبة عند النَّاس قد أَلِفوا حبَّها، فيقول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**لَأَنْ أَقُولَ: سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ للهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ؛ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ**»، أي: أحبُّ إليَّ من هذه الدُّنيا وما فيها.

وقد جاء في حديثٍ آخر أنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال: «**الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ مَا فِيهَا إِلَّا ذِكْرَ اللهِ وَمَا وَالَاهُ**»[(١)]، فلا خير في الدُّنيا إذا خلت من الذِّكر، ولا خير فيها إذا عدمت تسبيح الله، وتحميده، وتكبيره، وتهليله، وتعظيمه، وتمجيده. وأيُّ خيرٍ في الدُّنيا أن يعيش الإنسان عليها وهو خالٍ من ذكر الله عَزَّوَجَلَّ عديم العناية بذكره تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؟! وكأنَّه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يقول للأمَّة: لا تلهكم الدُّنيا ولا تشغلكم عن هذه الكلمات العظيمات الحبيبة إلى الله؛ فإنَّ الملهيات والشَّواغل في الدُّنيا كثيرة لا تنتهي.

وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**يُصْبِحُ عَلَى كُلِّ سُلَامَى مِنْ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ؛ فَكُلُّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ، وَيُجْزِئُ مِنْ ذَلِكَ رَكْعَتَانِ يَرْكَعُهُمَا مِنَ الضُّحَى**». رواه مسلم[(٢)]. السُّلَامَى: المفَاصِل الَّتِي تكُون بيْن العِظَام.

وَعَنْ عائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِنَّهُ خُلِقَ كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْ بَنِي آدَمَ عَلَى سِتِّينَ وَثَلَاثِمَائَةِ مَفْصِلٍ؛ فَمَنْ كَبَّرَ اللهَ، وَحَمِدَ اللهَ، وَهَلَّلَ اللهَ، وَسَبَّحَ اللهَ، وَاسْتَغْفَرَ اللهَ، وَعَزَلَ حَجَرًا عَنْ طَرِيقِ النَّاسِ، أَوْ شَوْكَةً، أَوْ عَظْمًا عَنْ**

---

(١) رواه التِّرمذيُّ (٢٣٢٢)، وابن ماجه (٤١١٢)، وحسَّنه الألبانِيُّ.

(٢) رواه مسلم (٧٢٠).

طَرِيقِ النَّاسِ، وَأَمَرَ بِمَعْرُوفٍ، أَوْ نَهَى عَنْ مُنْكَرٍ عَدَدَ تِلْكَ السِّتِّينَ وَالثَّلَاثِمِائَةِ السُّلَامَى؛ فَإِنَّهُ يَمْشِي يَوْمَئِذٍ وَقَدْ زَحْزَحَ نَفْسَهُ عَنِ النَّارِ». رواه مسلم[(١)].

في كلِّ إنسان ثلاثمائة وستِّين مفصلًا، ومطلوبٌ منه كلَّ يوم صدقة عن كلِّ مفصل شكرًا للمنعِم، لكنَّها ليست قاصرة على صدقة المال، بل كلُّ ما يقرِّب إلى الله من قولٍ أو عمل أو بذل مال أو غير ذلك؛ يكون صدقة، وأعظم ذلك وأجلُّه الكلمات الأربع الَّتِي هي أحبُّ الكلام إلى الله، ولهذا بدأ النَّبِيُّ ﷺ بها، فيستحبُّ للمسلم أن يستكثر من هؤلاء الكلمات في كلِّ أيَّامه شكرًا لإنعام المولى عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) رواه مسلم (١٠٠٧).

٢٧
فضل التَّحميد والتَّكبير والتَّهليل والتَّسبيح (٢)

عَنْ أبي ذرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ قَالُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ: «**يَا رَسُولَ الله، ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالأُجُورِ؛ يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَيَتَصَدَّقُونَ بِفُضُولِ أَمْوَالِهِمْ**»، قَالَ: «**أَوَلَيْسَ قَدْ جعَلَ اللهُ لَكُمْ مَا تَصَّدَّقُونَ؛ إِنَّ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةً، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنْ مُنْكَرٍ صَدَقَةٌ، وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ**»، قَالُوا: «**يَا رَسُولَ الله، أَيَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ؟**»، قَالَ: «**أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ**». رواه مسلم(١).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ فُقَرَاءَ الْمُهَاجِرِينَ أَتَوْا رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالُوا: «**ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالدَّرَجَاتِ الْعُلَى وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ**»، فَقَالَ «**وَمَا ذَاكَ؟**» قَالُوا: «**يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ وَيَتَصَدَّقُونَ وَلاَ نَتَصَدَّقُ وَيُعْتِقُونَ وَلَا نُعْتِقُ**»، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَفَلَا أُعَلِّمُكُمْ شَيْئًا تُدْرِكُونَ بِهِ مَنْ سَبَقَكُمْ وَتَسْبِقُونَ بِهِ مَنْ بَعْدَكُمْ وَلَا يَكُونُ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِنْكُمْ إِلَّا مَنْ صَنَعَ مِثْلَ مَا صَنَعْتُمْ؟**»، قَالُوا بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «**تُسَبِّحُونَ وَتُكَبِّرُونَ وَتَحْمَدُونَ دُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ مَرَّةً**»، فَرَجَعَ فُقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ

---

(١) رواه مسلم (١٠٠٦).

فَقَالُوا: «**سَمِعَ إِخْوَانُنَا أَهْلُ الْأَمْوَالِ بِمَا فَعَلْنَا فَفَعَلُوا مِثْلَهُ**»، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ**». متَّفق عليه[(١)].

مجيء هؤلاء الفقراء إلى النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ناشئ عن حرصٍ ورغبةٍ في الخير وحبٍّ في المنافسة فيه؛ فأتوا رسول الله ﷺ، فقالوا: «**ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالدَّرَجَاتِ الْعُلَى وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ**»، أي: ذهب أهل الأموال وأصحاب الغنى بالأجور وتحصيل الدَّرجات العالية، «**يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَلَهُم فَضْل مِنْ أَمْوَالِهِم يَحُجُّون بِهَا وَيَعْتَمِرُونَ وَيُجَاهِدُونَ وَيَتَصَدَّقُونَ**»، فهم مثلنا يصلُّون ويصومون نشترك وإيَّاهم في هاتين الطَّاعتين، لكن عندهم فضل أموال -أي: أموال زائدة عن حاجتهم- يحجُّون بها ويعتمرون ويصرفون منها في الجهاد ويتصدَّقون في سبيل الله، ونحن فقراء لا نمتلك مثل هذا المال الَّذِي يمتلكه هؤلاء حتَّى نشاركهم في هذا الأجر.

فقال لهم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**أَفَلَا أُعَلِّمُكُمْ شَيْئًا تُدْرِكُونَ بِهِ مَنْ سَبَقَكُمْ وَتَسْبِقُونَ بِهِ مَنْ بَعْدَكُمْ؟**» مَن سبقكم، أي: إلى الدَّرجات العالية والمنازل الرَّفيعة.

قوله: «**وَلَا يَكُونُ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِنْكُمْ إِلَّا مَنْ صَنَعَ مِثْلَ مَا صَنَعْتُمْ**»، أي: ولكن مَن صنع مثل ما صنعتم فلا تسبقونه، ولا يفضل عليه أحد كما لا يفضل عليكم.

قوله: «**قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ**»، أي: نريد ذلك؛ لأنَّهم ما جاءوا أصلًا إلَّا طمعًا في الخير ورغبة فيه.

قال: «**تُسَبِّحُونَ وَتُكَبِّرُونَ وَتَحْمَدُونَ دُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِين مَرَّةً**»،

(١) رواه البخاريُّ (٦٣٢٩)، ومسلم (٥٩٥).

بحيث يكون المجموع تسعًا وتسعين مرَّة، فقوله: «ثلاثًا وثلاثين» شامل لكلِّ تسبيحة، وكلِّ تكبيرة، وكلِّ تحميدة.

فسمع الأنصار الَّذِين هم أهل الدُّثور بهذا فبادروا إلى العمل به؛ فأخذوا يسبِّحون ويكبِّرون ويحمدون أدبار الصَّلوات ثلاثًا وثلاثين مرَّة مثل المهاجرين؛ فأصبحت الشَّكوى السَّابقة باقية، فأتى الفقراء إلى النَّبِيِّ ﷺ وقالوا: «**يَا رَسُولَ اللهِ سَمِعَ إِخْوَانُنَا أَهْلُ الْأَمْوَالِ بِمَا فَعَلْنَا فَفَعَلُوا مِثْلَهُ**»، فقال: «**ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ**».

فأفاد الحديث أنَّ من فوائد الذِّكر بهذه الكلمات: أنَّ إدامته تنوبُ عن الطَّاعات وتقوم مقامها، سواء كانت بَدَنيَّةً أو ماليَّةً، أو بدنيَّةً ماليَّةً كحجِّ التَّطوُّع؛ فقد جعل النَّبِيُّ ﷺ الذِّكر عوضًا لهم عمَّا فاتهم من الحجِّ والعمرة والجهاد، وأخبرهم أنَّهم يسبقونهم بهذا الذِّكر. وقد ظنَّ الفقراء أن لا صدقة إلَّا بالمال، وهم عاجزون عن ذلك، فأخبرهم النَّبِيُّ ﷺ أنَّ جميع أنواع فعل المعروف والإحسان صدقةٌ، وذكر في مقدِّمة هذه الصَّدقات هؤلاء الكلمات الأربع: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلَّا الله، والله أكبر.

وفيه أيضًا دليلٌ على أنَّ هذا الذِّكر ميدان سبق في طاعة الله، وأنَّ أهل الذِّكر بالكثرة هم السَّبَّاقون، كما قال النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**سَبَقَ الْمُفَرِّدُونَ**»(١).

وَعَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: «جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: عَلِّمْنِي كَلَامًا أَقُولُهُ؟ قَالَ: «**قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، اللهُ أَكْبَرُ كَبِيرًا، وَالْحَمْدُ لِلهِ كَثِيرًا، سُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ**»، قَالَ: فَهَؤُلَاءِ لِرَبِّي فَمَا لِي؟ قَالَ: «**قُل: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي،**

(١) رواه مسلم (٢٦٧٦).

وَارْحَمْنِي، وَاهْدِنِي، وَارْزُقْنِي». رواه مسلم[(١)].

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: «جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «**إِنِّي لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ آخُذَ مِنَ الْقُرْآنِ شَيْئًا فَعَلِّمْنِي مَا يُجْزِئُنِي مِنْهُ**»، قَالَ: «**قُلْ: سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ للهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا باللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ**»، قَالَ: «**يَا رَسُولَ اللهِ، هَذَا لِلهِ، فَمَا لِي؟**» قَالَ: «**قُلْ: اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي، وَارْزُقْنِي، وَعَافِنِي، وَاهْدِنِي**»، فَلَمَّا قَامَ قَالَ هَكَذَا بِيَدِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ: «**أَمَّا هَذَا فَقَدْ مَلأَ يَدَهُ مِنَ الْخَيْرِ**». رواه أبو داود[(٢)].

كان الأعراب يتوافدون على النَّبِيِّ ﷺ، وأيضًا على أصحابه من بعده وعلى العلماء لمعرفة الخير، فالخير لا بُدَّ أن يفِد الإنسان إليه، وأن يُقبل عليه، وأن يبحث عنه، وأن يسأل عنه، وأن لا يبقى منقطعًا في هجرته أو في قريته أو في مكانه أو عند غنمه منعزلًا عن الخير، بل ينبغي أن يَقدُم إلى أماكن العلم وأماكن الخير ويسأل عن الخير ثمَّ يرجع إلى مكانه، لا أن يبقى حياته إلى أن يأتيه الموت وهو معطِّلٌ نفسه عن معرفة الخير. فهذا يؤخذ منه منهج وهو: أنَّه ينبغي على من أراد لنفسه الخير من أهل القرى والضَّيعات أن يَقدُم إلى أماكن العلم؛ بأن يخصِّص وقتًا من حياته يَقدُم فيه على أهل العلم ويسأل ويتعلَّم دينه، وقد قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**إِنَّمَا الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ**»[(٣)].

وقد كان الصَّحابة من حول النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يفرحون إذا جاء أعرابيٌّ؛ لأنَّه ستأتي أسئلة وحينئذ سيخرج علم ويستفيد النَّاس ويحصل أمور فيها نفع عظيم وفائدة كبيرة.

---

(١) رواه مسلم (٢٦٩٦).

(٢) رواه أبو داود (٨٣٢)، وحسَّنه الألبانيُّ.

(٣) رواه الطَّبرانِيُّ في الكبير (٩٢٩)، وقال الألبانِيُّ: حسن لغيره، صحيح التَّرغيب والتَّرهيب (١/ ١٣٦).

قال الأعرابيُّ: «**يَا رَسُولَ اللهِ عَلِّمْنِي كَلِمَاتٍ أَقُولُهُنَّ**»، طلب أن يُرشده إلى ذكرٍ يقوله ويُحافظ عليه، فقال له عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، اللهُ أَكْبَرُ كَبِيرًا، وَالْحَمْدُ للهِ كَثِيرًا، وَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ**»؛ فعلَّمه هؤلاء الكلمات العظيمة، وكلُّها ذكرٌ لله.

فقال الأعرابيُّ: «**هَؤُلَاءِ لِرَبِّي، فَمَا لِي؟**» أي: هذا كلُّه ذكرٌ لله، كلُّه تمجيدٌ وثناءٌ وتحميدٌ وتكبير كلُّه لربِّي (**فَمَا لِي؟**) أي: أنا أريد أيضًا شيئًا لي، دعوات أسألها ربِّي.

فقال له النَّبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**قُلِ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، وَارْحَمْنِي، وَاهْدِنِي، وَعَافِنِي، وَارْزُقْنِي**»، وقد أرشده النَّبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ على المواظبة هؤلاء الكلمات، وهذا نستفيد منه: أنَّ كلَّ مسلم يُرشَد ويرغَّب في المواظبة على هذه الكلمات الَّتِي هي أحبُّ الكلام إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

وأرشده عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إلى هذا الدُّعاء الجامع لخيري الدُّنيا والآخرة، وهو دعاء جامعٌ محيط بالخير؛ جزء منه يتعلَّق بثواب الآخرة، وجزء منه يتعلَّق بأمر الإنسان في الدُّنيا ومعاشه فيها، وبدأ صلوات الله وسلامه عليه بما يتعلَّق بالآخرة؛ لأنَّ شأنها أعظم وأمرها أجلُّ، فقال: «قل: اللَّهمَّ اغفر لي وارحمني واهدني وعافني وارزقني».

قوله: «**اللَّهُمَّ**» أصلها: يا الله، حُذف من أوَّلها ياء النِّداء وعُوِّض عنه بالميم الَّتِي في آخرها؛ فهي نداءٌ لله بهذا الاسم العظيم الَّذِي هو من أعظم أسماء الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أو أعظمها.

وقوله: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي**»، أي: ذنبي كلَّه دقَّه وجلَّه، أوَّله وآخره، سِرَّه

وعلنه؛ فسأل الله عَزَّوَجَلَّ مغفرة الذُّنوب وهو سترها؛ لأنَّ الغفر: هو السَّتر والتَّغطية؛ فطلب ستر ذنوبه والصَّفح عنه والتَّجاوز عن خطئه وتقصيره.

قوله: «**وَارْحَمْنِي**» سأله أن يشمله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ برحمته، وأن يدخله برحمته الَّتِي يرحم بها عباده المؤمنين؛ فيصِلون إلى كلِّ خير ويوفَّقون إلى كلِّ مآل حميد في الدُّنيا والآخرة.

وقوله: «**وَاهْدِنِي**»، الهداية: هي العلم بالخير والعمل به، كما في الدُّعاء الَّذِي في سورة الفاتحة ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ [الفاتحة: ٦-٧]، المقصود هنا: اهدني للعلم النَّافع والعمل الصَّالح.

وقوله: «**وَعَافِنِي**» سأل أن يعافيه فيما يستقبل من أيَّامه بأن يحفظه في سمعه، ويحفظه في بصره، ويحفظ ماله، ويحفظ ولده.

وقوله: «**وَارْزُقْنِي**»، أي: الرِّزق الطَّيِّب الحلال الَّذِي يكون به صلاح معاشي.

فلمَّا ولَّى الأعرابيُّ، قال النَّبِيُّ ﷺ: «**لَقَدْ مَلَأَ يَدَيْهِ بِالْخَيْرِ**»؛ لأنَّه تمسَّك بهذا الخير العظيم والفضل العميم الَّذِي أرشد إليه النَّبِيُّ الكريم ﷺ في هذا الذِّكر.

ومَن كان عنده هذا الذِّكر وهذا الدُّعاء مواظبًا عليه معتنيًا به محافظًا عليه؛ فيداه مملوءتان بالخير، كما أخبر بذلك النَّبِيُّ الكريم عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ.

٢٨
فضل التَّحميد والتَّكبير والتَّهليل والتَّسبيح (٣)

عَنْ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قالَ: قالَ رَسولُ الله ﷺ: «**لَقِيتُ إِبْرَاهِيمَ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَقْرِئْ أُمَّتَكَ مِنِّي السَّلَامَ، وَأَخْبِرْهُمْ: أَنَّ الْجَنَّةَ طَيِّبَةُ التُّرْبَةِ، عَذْبَةُ الْمَاءِ، وَأَنَّهَا قِيعَانٌ، وَأَنَّ غِرَاسَهَا: سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ للهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ**». رواه التِّرمذيُّ[١].

لقِي النَّبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ليلة أسري به إبراهيم -أي: الخليل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ- فقال: «**يَا مُحَمَّدُ، أَقْرِئْ أُمَّتَكَ مِنِّي السَّلَامَ، وَأَخْبِرْهُمْ: أَنَّ الْجَنَّةَ طَيِّبَةُ التُّرْبَةِ، عَذْبَةُ الْمَاءِ، وَأَنَّهَا قِيعَانٌ**»، والقِيعان: هي الأرض المستوية المنبسطة الخصبة الصَّالحة للزِّراعة، وماؤها عذب، فهي مهيَّئة للزَّرع.

لو قِيل لأحدنا: يوجد أرض ثمنها لا يكلِّف كثيرًا وصفتها كذا وكذا من الأوصاف الطَّيِّبة، تحرَّك قلبه أن يمتلكها وأن يزرع فيها من النَّخيل وأطايب الأشجار مما تحبُّه نفسه، فانظر هذا التَّرغيب ما أعظمه! وهذا من نصح إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لأمَّة محمَّد ﷺ، قال: «**أَقْرِئْهُمْ مِنِّي السَّلَامَ، وَأَخْبِرْهُمْ: أَنَّ الْجَنَّةَ طَيِّبَةُ التُّرْبَةِ، عَذْبَةُ الْمَاءِ، وَأَنَّهَا قِيعَانٌ**»، أي: جاهزة تمامًا؛ لأن يكثَر فيها الغرس، وغرسها لا يُكلِّفك شيئًا؛ غراسها: التَّسبيح، والتَّحميد، والتَّهليل، والتَّكبير. بينما غرس شجر الدُّنيا يحتاج إلى جهد جهيد؛ يحتاج إلى عمَّالٍ ومعاولَ، وعملٍ، وحفر وأشياء كثيرة حتَّى يغرس هذا الشَّجر.

---

(١) رواه التِّرمذيُّ (٣٤٦٢)، وحسَّنه الألبانيُّ.

دخل أحد النَّاصحين على رجلٍ مسنٍّ له سنوات وهو على فراشه أقعده المرض والكِبَر، فلمَّا سلَّم عليه وجلس معه قليلًا أمسك يده، وقال له: «**يافلان اغرس نخلًا**»، وأخذ يعيدها عليه: (**اغرس نخلًا**)، وهو مقعد لا يتحرَّك، فكأنَّه لم ينتبه، فقال له: «**سبِّح، كبِّر، احمد الله، هلِّل**». يُشير إلى هذا الحديث.

الشَّاهد أنَّ هذا الغرس لا يكلِّف الإنسان شيئًا حتَّى وهو على فراشه، يمكنه غرس هذا النَّخل وبكثرة بالتَّسبيح، والتَّحميد، والتَّهليل، والتَّكبير؛ فهي غراس الجنَّة.

الحاصل: أنَّ الجنَّة أرضها خصبة مهيَّئة للزَّرع والإنبات، وماؤها طيِّب، وإذا كانت الأرض طيِّبة والماء طيِّب يُطمئنُّ إلى نماء الشَّجر فيها وإلى حسن ثمرها، والفلَّاح عندما يريد أن يزرع لا يختار أيَّ أرض! بل يعرف الأماكن الصَّالحة للزِّراعة من غيرها، إذ بعض الأماكن لو زُرع فيها بعضُ الأشجار لا تثمر أو لا تنمو النَّماء الحسن؛ والجنَّة أرضٌ طيِّبة، وماؤها طيِّب، وهي قيعان، والشَّجر ينبت فيها بسرعة وهذه الأوصاف للأرض تغري الفلاحين، فالفلاح الَّذِي له نهمة ورغبة في الأشجار والنَّخيل والزِّراعة وعنده أموال، عندما يُذكَر له أرض بهذه الصِّفة؛ أرض طيِّبة، وماؤها عذب، وهي قيعان منبسطة مستوية ليس فيها تعرُّجات أو علوٌّ وانخفاض؛ اشتراها بأغلى الأثمان.

والجنَّة غراسها: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلَّا الله، والله أكبر. فكُلَّما زاد العبد من هذه الكلمات المباركات زاد غراسه في الجنَّة.

فإذا قال الحريص «إِذًا نُكْثِرُ»، وقد قال ذلك بعض الصَّحابة، فقال النَّبِيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في هذا المقام: «اللهُ أَكْثَرُ»، فهذا باب خير مفتوح، فقل ما شئت من هذا الذِّكر وواظب عليه يزد غرسك في الجنَّة، والله واسع عليم. وكما أنَّ غرس بساتين الجنَّة بالذِّكر فكذلك بناء مساكنها.

عَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِذَا مَاتَ وَلَدُ الْعَبْدِ قَالَ اللهُ لِمَلَائِكَتِهِ: قَبَضْتُمْ وَلَدَ عَبْدِي؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: قَبَضْتُمْ ثَمَرَةَ فُؤَادِهِ، فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: مَاذَا قَالَ عَبْدِي؟ فَيَقُولُونَ: حَمِدَكَ وَاسْتَرْجَعَ** -أي: قال: الحمد لله، إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون- **فَيَقُولُ اللهُ: ابْنُوا لِعَبْدِي بَيْتًا فِي الجَنَّةِ، وَسَمُّوهُ بَيْتَ الحَمْدِ**»(١)؛ فالذِّكر غراسها وبناؤها.

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ العَاصِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا عَلَى الْأَرْضِ رَجُلٌ يَقُولُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، وَسُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ لِلهِ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، إِلَّا كَفَّرَتْ عَنْهُ مِنْ ذُنُوبِهِ وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ**». رواه التِّرمذيُّ وأحمد واللَّفظ له(٢).

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ مَرَّ بِشَجَرَةٍ يَابِسَةِ الوَرَقِ فَضَرَبَهَا بِعَصَاهُ فَتَنَاثَرَ الوَرَقُ، فَقَالَ: «**إِنَّ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسُبْحَانَ اللهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَاللهُ أَكْبَرُ؛ لَتُسَاقِطُ مِنْ ذُنُوبِ الْعَبْدِ كَمَا تَسَاقَطَ وَرَقُ هَذِهِ الشَّجَرَةِ**». رواه التِّرمذيُّ(٣).

والمراد بالذُّنوب المكفَّرة هنا، أي: الصَّغائر، لما ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أنَّ رسول الله ﷺ كان يقول: «**الصَّلَوَاتُ الخَمْسُ وَالجُمُعَةُ إِلَى الجُمُعَةِ وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتُنِبَتِ الكَبَائِرُ**»(٤)، فقيَّد التَّكفير باجتناب الكبائر؛ لأنَّ الكبيرة لا يُكفِّرها إلَّا التَّوبة.

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ شَدَّادٍ أَنَّ نَفَرًا مِنْ بَنِي عُذْرَةَ ثَلَاثَةً أَتَوْا النَّبِيَّ ﷺ فَأَسْلَمُوا،

(١) رواه التِّرمذيُّ (١٠٢١)، وحسَّنه الألبانِيُّ.
(٢) رواه أحمد (٦٩٧٣)، والتِّرمذيُّ (٣٤٦٠)، وحسَّنه الألبانِيُّ.
(٣) رواه التِّرمذيُّ (٣٥٣٣)، وحسَّنه الألبانِيُّ.
(٤) رواه مسلم (٢٣٣).

قَالَ: فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: مَنْ يَكْفِينِيهِمْ؟ قَالَ طَلْحَةُ: أَنَا. قَالَ: فَكَانُوا عِنْدَ طَلْحَةَ، فَبَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ بَعْثًا فَخَرَجَ فيه أَحَدُهُمْ فَاسْتُشْهِدَ، قَالَ: ثُمَّ بَعَثَ بَعْثًا فَخَرَجَ فِيهِ آخَرُ فَاسْتُشْهِدَ، قَالَ: ثُمَّ مَاتَ الثَّالِثُ عَلَى فِرَاشِهِ، قَالَ طَلْحَةُ: فَرَأَيْتُ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةَ الَّذِينَ كَانُوا عِنْدِي فِي الْجَنَّةِ، فَرَأَيْتُ الْمَيِّتَ عَلَى فِرَاشِهِ أَمَامَهُمْ، وَرَأَيْتُ الَّذِي اسْتُشْهِدَ أَخِيرًا يَلِيهِ، وَرَأَيْتُ الَّذِي اسْتُشْهِدَ أَوَّلَهُم آخِرَهُمْ، قَالَ: فَدَخَلَنِي مِنْ ذَلِكَ، قَالَ: فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**وَمَا أَنْكَرْتَ مِنْ ذَلِكَ! لَيْسَ أَحَدٌ أَفْضَلَ عِنْدَ اللهِ مِنْ مُؤْمِنٍ يُعَمَّرُ فِي الإِسْلَامِ لِتَسْبِيحِهِ وَتَكْبِيرِهِ وَتَهْلِيلِهِ**». رواه أحمد[(١)].

وقد دلَّ هذا الحديث العظيم على عِظم فضل من طال عمرُه وحسُن عملُه، ولم يزل لسانُه رَطْبًا بذكر الله عَزَّوَجَلَّ مكثرًا من هؤلاء الكلمات الأربع.

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ وَأَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ اللهَ اصْطَفَى مِنَ الْكَلَامِ أَرْبَعًا: سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، فَمَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ كُتِبَ لَهُ عِشْرُونَ حَسَنَةً وَحُطَّ عَنْهُ عِشْرُونَ سَيِّئَةً، وَمَنْ قَالَ: اللهُ أَكْبَرُ فَمِثْلُ ذَلِكَ، وَمَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فَمِثْلُ ذَلِكَ، وَمَنْ قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ مِنْ قِبَلِ نَفْسِهِ كُتِبَ لَهُ بِهَا ثَلَاثُونَ حَسَنَةً، أَوْ حُطَّ عَنْهُ ثَلَاثُونَ سَيِّئَةً**». رواه أحمد[(٢)].

فيه أنَّ الله اختار هؤلاء الكلمات واصطفاهنَّ لِعباده، ورتَّب على ذِكره بهنَّ أجورًا عظيمةً وثوابًا جزيلًا، وقد زاد في ثواب الحمد عندما يقوله العبد مِن قِبَل نفسه: لأنَّ الحمد لا يقع غالبًا إلَّا بعد سبب؛ كأكلٍ أو شُربٍ أو حدوث

(١) رواه أحمد (١٤٠١)، وقال الألبانيُّ: حسن لغيره، صحيح التَّرغيب والتَّرهيب (٣٣٦٧).

(٢) رواه أحمد (٨٠١٢)، وصحَّحه الألبانيُّ، صحيح التَّرغيب والتَّرهيب (١٥٥٤).

نعمة، فكأنَّه وقع في مقابلة ما أُسديَ إليه وقت الحمد، فإذا أنشأ العبد الحمد من قِبَل نفسه دون أن يدفعه لذلك تجدُّدُ نعمةٍ؛ زاد ثوابه.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**خُذُوا جُنَّتَكُمْ**»، **قُلْنَا يَا رَسُولَ اللهِ: مِنْ عَدُوٍّ قَدْ حَضَرَ؟ قَالَ: «لَا؛ جُنَّتَكُمْ مِنَ النَّارِ، قُولُوا: سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ؛ فَإِنَّهَا يَأْتِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُنْجِيَاتٍ وَمُقَدِّمَاتٍ، وَهُنَّ الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ**». رواه الحاكم في المستدرك(١).

فمن فضائلهنَّ: أنَّهُنَّ جُنَّةٌ لقائلهنَّ من النَّار، ويأتين يوم القيامة مُنجياتٌ لقائلِهنَّ ومقدَّماتٌ له في المنازل والدَّرجات، ووصفهُنَّ بأنَّهُنَّ الباقيات الصَّالحات، وقد قال الله تعالى: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٦]، والباقيات، أي: الَّتي يبقى ثوابُها، ويدوم جزاؤُها، وهذا خيرُ أمَلٍ يؤمِّله العبد وأفضل ثواب يرجوه.

وعن أَبِي سَلْمَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**بَخٍ بَخٍ -وَأَشَارَ بِيَدِهِ بِخَمْسٍ- مَا أَثْقَلَهُنَّ فِي الْمِيزَانِ: سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، وَالْوَلَدُ الصَّالِحُ يُتَوَفَّى لِلْمَرْءِ الْمُسْلِمِ فَيَحْتَسِبُهُ**». رواه الحاكم وابن حِبَّان(٢). فأخبر ﷺ أنَّهنَّ ثقيلاتٌ في الميزان، وقوله في الحديث: «**بَخٍ بَخٍ**»، هي: كلمة تُقال عند الإعجاب بالشَّيء وبيان تفضيله.

فهذه بعض الفضائل الواردة في السُّنَّة النَّبويَّة لهؤلاء الكلمات الأربع، وقد ورد لكلِّ كلمة منهنَّ فضائلُ مخصوصةٌ سيأتي تفاصيلها إن شاء الله، ومَن

(١) رواه الحاكم في المستدرك (١٩٨٥)، وحسَّنه الألبانِيُّ في صحيح التَّرغيب والتَّرهيب (١٥٦٧).

(٢) رواه الحاكم في المستدرك (١٨٨٥)، وابن حِبَّان في صحيحه (٨٣٣)، وصحَّحه الألبانِيُّ في صحيح التَّرغيب والتَّرهيب (١٥٥٧).

يتأمَّل هذه الفضائل المتقدِّمة يجد أنَّها عظيمةٌ، ودالَّةٌ على عظيم قدرِ هؤلاء الكلمات ورِفعة شأنهنَّ وكثرة فوائدهنَّ وعوائدهنَّ على العبد المؤمن، فما أعظمَ هؤلاء الكلمات، وما أجلَّ شأنَهُنَّ، وما أكبَرَ الخير المترتِّب عليهِنَّ. نسأل الله أن يوفِّقنا للمحافظة عليهنَّ، وأن يجعلنا من أهلهنَّ الَّذِين ألسنتهم رطبةٌ بذلك، إنَّه سميعٌ قريبٌ مجيب.

٢٩

فضل التَّهليل

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ؛ كَانَتْ لَهُ عَدْلَ عَشْرِ رِقَابٍ، وَكُتِبَتْ لَهُ مِائَةُ حَسَنَةٍ، وَمُحِيَتْ عَنْهُ مِائَةُ سَيِّئَةٍ، وَكَانَتْ لَهُ حِرْزًا مِنَ الشَّيْطَانِ يَوْمَهُ ذَلِكَ حَتَّى يُمْسِي، وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ؛ إِلَّا أَحَدٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ**». رواه البخاريُّ ومسلم(١).

جمع عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في قوله: «**مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**»؛ بين التَّوحيد وبراهينه، التَّوحيدِ الَّذِي خلقنا الله عَزَّوَجَلَّ لأجله وأوجدنا لتحقيقه، وبراهينِه ودلائله الدَّالَّة على وجوب إخلاصه لله وإفراده به سبحانه دون سواه.

أمَّا التَّوحيد ففي قوله «**لا إله إلَّا الله**»، فهذه الكلمة العظيمة هي كلمة التَّوحيد، وهي أجلُّ الكلمات وأفضلها وأعظمها على الإطلاق، ولا يوجد في الكلمات كلمةٌ أفضل منها، كما قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**وَخَيْرُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**»(٢)، ولا توحيد إلَّا بها، وهي قائمة على ركنين: النَّفي والإثبات؛

---

(١) رواه البخاريُّ (٣٢٩٣)، ومسلم (٢٦٩١).
(٢) رواه التِّرمذيُّ (٣٥٨٥)، وقال الألبانِيُّ: «حسن لغيره»، وانظر: صحيح الترغيب والترهيب (١٥٣٦).

«لا إله» نفي، «إلَّا الله» إثبات؛ فلا يكون المرء موحِّدًا إلَّا بهذا النَّفي والإثبات، فعندما يقول المسلم: «لا إله إلَّا الله» لا بُدَّ مع قولها أن يعرف ما الَّذِي نفته؟ وما الَّذِي أثبتته؟ ليكون نفيه وإثباته عن علم، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزُّخرف: ٨٦]، قال المفسِّرون: «إلَّا مَن شهد بلا إله إلَّا الله، وهم يعلمون معنى ما شهدوا به»، وقال الله تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمَّد: ١٩].

والنَّفي الَّذِي اشتملت عليه هذه الكلمة هو نفي عامٌّ، «لا إله» نفيٌ عامٌّ للعبوديَّة عن كلِّ مَن سوى الله، «إلَّا الله» إثبات خاصٌّ للعبوديَّة بكلِّ معانيها لله وحده، ففي قول: «**لا إله إلا الله**» نفي للعبوديَّة عن كلِّ مَن سوى الله، وإثباتٌ للعبوديَّة بكلِّ معانيها لله وحده. فـ«**لا إله إلا الله**»، أي: لا معبود بحقٍّ إلَّا الله، ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣].

ولمَّا كان مقام التَّوحيد مقامًا عظيمًا وشأنه شأنًا جليلًا؛ أكَّده في هذا التَّهليل المبارك بركنيه النَّفي والإثبات، وذلك في قوله: «**وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ**»، فهي مُؤكِّدة للتَّوحيد، فقوله: «وحده» تأكيدٌ للإثبات، وقوله: «لا شريك له» تأكيدٌ للنَّفي.

وأمَّا براهين التَّوحيد ففي قوله: «**لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**»؛ فهذه براهينُ للتَّوحيد، بمعنى: أنَّ مَن عرف أنَّ المُلك لله، وأنَّ الحمد لله، وأنَّ الله على كلِّ شيء قدير، وأنَّ مشيئته نافذة، وأنَّ قدرته شاملة، إلى غير ذلك من المعاني؛ فإنَّ الواجب عليه أن يُخلص العبادة لله؛ فلا يدعو إلَّا الله، ولا يستغيث إلَّا بالله، ولا يطلب المدد والعون والنَّصر والشِّفاء إلَّا من الله.

يُستحبُّ للمسلم أن يقول هذه الكلمة في اليوم مائة مرَّة، ولا يكون قوله

لها مجرَّد ألفاظٍ يأتي بها لسانُه دون أن يستشعر معناها، بل عليه أن يردِّدها مستشعرًا للتَّوحيد الَّذِي دلَّت عليه، والإخلاص والبراءة من الشِّرك، والتَّعظيم والتَّمجيد لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ. وقد تقدَّم فضل «**مَنْ قَالَهَا فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ**»، فهل تُقال في الصَّباح الباكر، أو تؤخَّر؟ **الأَوْلى أن يؤتى بها في الصَّباح الباكر مع أذكار الصَّباح لسببين:**

الأوَّل: مسارعةً للخيرات، ومبادرةً في تحصيل هذا الخير العظيم والثَّواب العميم، والمرء لا يدري ما يعرض له.

الثَّاني: تحصيل ما يترتَّب على هذه الكلمة من الأجور العظيمة والأفضال الكريمة من أوَّل النَّهار، ومن ذلك أن تكون حرزًا له من الشَّيطان.

✍ وقد ذكر النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في ثواب هذا التَّهليل في اليوم مائة مرَّة فضائل عظيمة:

الفضيلة الأولى: «**كَانَتْ لَهُ عَدْلَ عَشْرِ رِقَابٍ**»، أي: له ثواب يعادل عشر رقاب، كأنَّه أعتق عشر رقاب في سبيل الله، لو أراد المرء أن يعتق في يوم من أيَّامه رقابًا في سبيل الله لاحتاج إلى المال، ثمَّ إذا توفَّر المال قد لا تتوفَّر الرِّقاب للعتق في سبيل الله، لكنَّه إذا قال هذه الكلمة في اليوم مائة مرَّة؛ كانت له عدل عشر رقاب، وهذا فضل الله سبحانه، وهو يدلُّ أيضًا على عظيم مكانة هذه الأذكار عند الله ومحبَّته أن يُكثِر العباد منها؛ ليكثر بها ثوابهم عنده سبحانه.

الفضيلة الثَّانية: «**كُتِبَتْ لَهُ مِائَةُ حَسَنَةٍ**»، أي: بكلِّ كلمة من هؤلاء الكلمات يُكتب له حسنة عند الله، لكن ما نوع هذه الحسنة؟ يوضِّح ذلك حديث أبي ذرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في مسند الإمام أحمد عندما سأل النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فقال: «أفمن الحسنات لا إله إلَّا الله»؟ قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**هِيَ أَحْسَنُ الْحَسَنَاتِ**»[1]،

(١) رواه الطَّبريُّ (١٤٢٩٢)، وحسَّنه الألبانِيُّ في كلمة الإخلاص لابن رجب (ص ٥٥).

فالحسنة الَّتِي تُكتب له هي أحسن الحسنات وأجلُّها وأفضلها.

الفضيلة الثَّالثة: «**وَمُحِيَتْ عَنْهُ مِائَةُ سَيِّئَةٍ**»، أي: يُمحى عنه مائة سيِّئةٍ من سيِّئاته الَّتِي اقترفها وفعلها.

الفضيلة الرَّابعة: «**وَكَانَتْ لَهُ حِرْزًا مِنَ الشَّيْطَانِ يَوْمَهُ ذَلِكَ حَتَّى يُمْسِيَ**»، أي: تكون حافظًا وواقيًا وحصنًا حصينًا من الشَّيطان، فلا يقربه الشَّيطان يومه ذلك حتَّى يمسي؛ لأنَّه أصبح في حصنٍ حصين، وحرزٍ متين، يقيه من الشَّيطان الرَّجيم فلا يقربه.

الفضيلة الخامسة: «**وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ؛ إِلَّا أَحَدٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ**»، أي: إلَّا رجل أتى بهذا العمل، ثمَّ استزاد من أبواب البِرِّ الكثيرة من صلاة وصدقة وبرٍّ للوالدين وصلة للأرحام إلى غير ذلك.

ومن فضائل لا إله إلَّا الله: أنَّها ترجحُ بصحائف الذُّنوبِ يوم القيامة، كما في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا المُخرَّج في المسند والتِّرمذيِّ وابن ماجه وغيرهم بإسناد جيِّد عن النَّبِيِّ ﷺ أنَّه قال: «**يُصَاحُ بِرَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُنْشَرُ لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ سِجِلًّا كُلُّ سِجِلٍّ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ** عَزَّوَجَلَّ: **أَلَكَ عُذْرٌ، أَوْ حَسَنَةٌ؟ فَيَهَابُ الرَّجُلُ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: بَلَى إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَاتٍ، وَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ، فَيُخْرَجُ لَهُ بِطَاقَةٌ فِيهَا «أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ»، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ مَا هَذِهِ الْبِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلَّاتِ؟ فَيَقُولُ: إِنَّكَ لَا تُظْلَمُ، قَالَ: فَيُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِي كِفَّةٍ، وَالْبِطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ فَطَاشَتِ السِّجِلَّاتُ، وَثَقُلَتِ الْبِطَاقَةُ**»[١].

---

(١) رواه أحمد (٦٩٩٤)، والتِّرمذيُّ (٢٦٣٩)، وابن ماجه (٤٣٠٠)، وصحَّحه الألبانِيُّ في صحيح التَّرغيب والتَّرهيب (١٥٣٣).

ولا ريب أنَّ هذا قد قام بقلبه من الإيمان ما جعل بطاقته الَّتِي فيها «لا إله إلَّا الله» تطيش بتلك السِّجلَّات، إذ النَّاس متفاضلون في الأعمال بحسب ما يقوم بقلوبهم من الإيمان، وإلَّا فكم من قائل لـ«لا إله إلَّا الله» لا يحصل له مثل هذا؛ لضعف إيمانه بها في قلبه، فقد ورد في الصَّحيحين[(١)] من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَفِي قَلْبِهِ وَزْنُ شَعِيرَةٍ مِنْ خَيْرٍ، وَيَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَفِي قَلْبِهِ وَزْنُ بُرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ، وَيَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَفِي قَلْبِهِ وَزْنُ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ**»؛ فدلَّ ذلك على أنَّ أهل «لا إله إلَّا الله» متفاوتون فيها بحسب ما قام في قلوبهم من إيمان.

❀ **ومن فضائل هذه الكلمة:** أنَّها لو وُزِنتْ بالسَّموات والأرض رجحت بهنَّ، كما في المسند عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النَّبيِّ ﷺ: «**أَنَّ نُوحًا قَالَ لِابْنِهِ عِنْدَ مَوْتِهِ: آمُرُكَ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؛ فَإِنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَالْأَرَضِينَ السَّبْعَ لَوْ وُضِعَتْ فِي كِفَّةٍ، وَوُضِعَتْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فِي كِفَّةٍ؛ رَجَحَتْ بِهِنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَلَوْ أَنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ فِي حَلقَةٍ مُبْهَمَةٍ لَقَصَمَتْهُنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**»[(٢)].

❀ **ومن فضائلها:** أنَّها ليس لها دون الله حجاب، بل تخرق الحُجب حتَّى تصل إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، ففي التِّرمذيِّ بإسناد حسن عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**مَا قَالَ عَبْدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مُخْلِصًا إِلَّا فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ حَتَّى تُفْضِيَ إِلَى الْعَرْشِ مَا اجْتَنَبَ الْكَبَائِرَ**»[(٣)].

❀ **ومن فضائلها:** أنَّها نجاةٌ لقائلها من النَّار، ففي صحيح مسلم: أنَّ النَّبيَّ

---

(١) رواه البخاري (٤٤)، ومسلم (١٩٣).
(٢) رواه أحمد (٦٥٨٣)، وقال الألبانيُّ: صحيح لغيره، صحيح التَّرغيب والتَّرهيب (١٥٣٠).
(٣) رواه التِّرمذيُّ (٣٥٩٠)، وحسَّنه الألبانيُّ.

ﷺ سمع مؤذِّنًا يقول: أشهد أن لا إله إلَّا الله، فقال: «**خَرَجَ مِنَ النَّارِ**»(١). وفي الصَّحيحين من حديث عِتبان رَضِيَٱللَّهُعَنهُ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**إِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ**»(٢).

ومن فضائل هذه الكلمة: أنَّ النَّبيَّ ﷺ جعلها أفضل شُعب الإيمان، ففي الصَّحيحين من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنهُ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً: أَعْلَاهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ**»(٣).

ومن فضائلها: أنَّ النَّبيَّ ﷺ أخبر أنَّها أفضلُ الذِّكر، كما في التِّرمذيِّ وغيره من حديث جابر رَضِيَٱللَّهُعَنهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**أَفْضَلُ الذِّكْرِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَفْضَلُ الدُّعَاءِ الْحَمْدُ للهِ**»(٤).

وفضائل هذه الكلمة وموقعها من الدِّين فوق ما يصفُه الواصفون ويَعُدُّهُ العادُّون.

---

(١) رواه مسلم (٣٨٢).
(٢) رواه البخاريُّ (٤٢٥)، ومسلم (٣٣).
(٣) رواه البخاريُّ (٩)، ومسلم (٣٥).
(٤) رواه التِّرمذيُّ (٣٣٨٣)، وابن ماجه (٣٨٠٠)، وحسَّنه الألبانيُّ.

٣٠
فضل التَّسبيح والتَّحميد

عَنْ أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ؛ سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ**». رواه البخاريُّ ومسلم[(١)].

هذا حديث عظيم ختم به الإمام البخاريُّ كتابه الصَّحيح، وكان قد بدأه بحديث «**إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ**»، إشارةً منه رَحِمَهُ اللَّهُ إلى أنَّ العمل أوَّل ما يبدأ يكون نيَّةً، وآخر أمره يوزن يوم القيامة ثُمَّ تكون المجازاة.

وقد بدأ النَّبيُّ ﷺ هذا الحديث بأسلوب مشوِّقٍ، وهذا من كمال نصحه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، لأنَّ «سبحان الله وبحمده» مبتدأ، وخبره «كلمتان حبيبتان»، ولكنَّ النَّبيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أخَّر المبتدأ لِيُشوِّق إليه، وأَكْثَرَ من وصف الخبر تشويقًا وترغيبًا.

قوله: «**خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ**»، أي: ليستْ تكلِّفُ اللِّسانَ جهدًا أو مشقَّةً، بل هي خفيفة عليه، وبعض الكلام قد يكون في تركيبه ثِقلٌ وكلماتٌ صعبةُ النُّطقِ، فيكون فيها شيء من الثِّقل، لكنَّ هاتين الكلمتين خفيفتان على اللِّسان، لا ثقل فيهما عليه ولا كَلفة.

وقوله: «**ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ**»، أي: عندما تُوضع يوم القيامة في الميزان لها ثقل عظيم فيه، وفي هذا إثباتُ ميزانِ يوم القيامة، وهو ميزان حقيقيٌّ له كِفَّتان:

(١) رواه البخاريُّ (٦٤٠٦)، ومسلم (٢٦٩٤).

كِفَّة توضع فيه الحسنات، وكِفَّة توضع فيه السَّيِّئات، وهاتان الكلمتان يثقل بهما ميزانُ حسناتِ العبدِ يومَ القيامة.

وقوله: «**حَبِيبَتَانِ للرَّحْمَنِ**»، أي: أنَّ الله سبحانه يحبُّ أن يسمعها من عبده، مع أنَّه غنيٌّ عن تسبيح العبد، فلا تنفعه طاعةُ مَن أطاع ولا تضرُّه معصيةُ مَن عصى، ولكنْ من عظيم كرمه وكمال إحسانه يحبُّ أن يسمعها من عبده.

وذُكر هنا اسمُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ «**الرَّحمن**»، إشارة إلى عظم حظٍّ قائلها من رحمة الله؛ فمَن حافظ عليها؛ فله نصيبٌ وافر من رحمة الله الَّتِي خصَّ بها عباده المؤمنين، ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]. وقد خصَّ لفظ «الرَّحمن» بالذِّكر؛ لأنَّ المقصودَ من الحديث بيانُ سِعة رحمة الله على عباده؛ حيث يجازي على العمل القليل الثَّواب الجزيل والأجر العظيم.

وقد جمع هنا مع التَّسبيح في الجملة الأولى الحمد، وفي الجملة الثَّانية التَّعظيم، والحمد فيه إثباتُ المحامد كلِّها لله، والتَّعظيم فيه إثبات العظمة لله، والعظيم: اسم من أسمائه الحسنى وهو دالٌّ على عظمة الله في أسمائه، وعظمته في ذاته، وعظمته في صفاته، وعظمته في شرعه.

والتَّسبيح تارةً يأتي في القرآن مقترنًا بالحمد، وتارة يأتي مقترنًا بالأسماء والصِّفات؛ وهنا في هذا الحديث اجتمع النَّوعان، فقوله: «**سبحان الله وبحمده**» جاء التَّسبيح مقترنًا بالحمد، وقوله: «**سبحان الله العظيم**» جاء مقترنًا بالصِّفات. وهذا فيه التَّنبيه إلى أنَّ تسبيح الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لا بُدَّ معه من حمده وإثبات صفاته، ففي قوله: «**سبحان الله وبحمده**» نزَّه وحمِد، وفي قوله: «**سبحان الله العظيم**» نزَّه وعظَّم. وفي هذا دلالة على أنَّ التَّسبيح لا بُدَّ معه من إثبات عظمة الله، وكماله في صفاته ونعوته سبحانه؛ وذلك لأنَّ التَّسبيح هو تنزيهُ الله عن النَّقائص والعيوب، والتَّحميدُ فيه إثباتُ المحامد كلِّها لله،

والإثبات أكملُ مِنَ السَّلب، ولهذا لم يَرِد التَّسبيحُ مجرَّدًا، ولكن ورد مقرونًا بما يدُلُّ على إثبات الكمال؛ فتارةً يُقرنُ بالحمد كما في هذه النُّصوص، وتارةً يُقرنُ باسمٍ من الأسماء الدَّالة على العظمة والجلال، كقول: «**سبحان الله العظيم**»، وقول: «**سبحان ربِّي الأعلى**»، ونحو ذلك.

والتَّنزيه لا يكون مدحًا إلَّا إذا تضمَّن معنًى ثبوتيًّا؛ ولهذا عندما نزَّه الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى نفسه عمَّا لا يليق به ممَّا وصفه به أعداء الرُّسل سلَّم على المرسلين الَّذِين يثبتون لله صفات كماله ونعوت جلاله على الوجه اللَّائق به، وذلك في قوله: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصَّافَّات: ١٨٠-١٨٢]. وفي هذه الآية أيضًا حمدَ اللهُ نفسَه بعد أن نزَّهها؛ وذلك لأنَّ الحمدَ فيه إثباتُ كمال الصِّفات، والتَّسبيحَ فيه تنزيه الله عن النَّقائص والعيوب؛ فجُمع في الآية بين التَّنزيه عن العيوب بالتَّسبيح، وإثبات الكمال بالحمد. وهذا المعنى يرِد في القرآن والسُّنَّة كثيرًا، فالتَّسبيحُ والحمدُ أصلان عظيمان وأساسان متينان، يقوم عليهما المنهجُ الحقُّ في توحيد الأسماء والصِّفات.

فينبغي للعبد أن يُجاهِد نفسه على الإكثار من هاتين الكلمتين في كلِّ أوقاته، وهي لا تختصُّ بوقت معيَّنٍ وإنَّما تُقال متى شاء العبد، يُحرِّك لسانه بها ليثقِّل ميزانه، وليفعل أمرًا حبيبًا إلى الرَّحمن سبحانه.

۞ **ومن فضائل التَّسبيح والتَّحميد:** ما رواه التِّرمذيُّ، وابن حِبَّان، والحاكم، وغيرهم، من طريق أبي الزُّبير عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**مَنْ قَالَ سُبْحَانَ اللهِ العَظِيمِ وَبِحَمْدِهِ غُرِسَتْ لَهُ نَخْلَةٌ فِي الجَنَّةِ**»[1].

۞ **ومن فضائلهما:** ما رواه الطَّبرانِيُّ والحاكم من حديث نافع بن جُبير

---

(١) رواه التِّرمذيُّ (٣٤٦٤)، وصحَّحه الألبانِيُّ.

ابن مطعم عن أبيه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ قَالَ سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ، فَقَالَهَا فِي مَجْلِسِ ذِكْرٍ كَانَتْ كَالطَّابِعِ يُطْبَعُ عَلَيْهِ، وَمَنْ قَالَهَا فِي مَجْلِسِ لَغْوٍ كَانَتْ كَفَّارَةً لَهُ**»(١).

وروى التِّرمذيُّ وابن حبَّان والحاكم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**مَنْ جَلَسَ فِي مَجْلِسٍ فَكَثُرَ فِيهِ لَغَطُهُ، فَقَالَ قَبْلَ أَنْ يَقُومَ مِنْ مَجْلِسِهِ ذَلِكَ: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ، إِلَّا غُفِرَ لَهُ مَا كَانَ فِي مَجْلِسِهِ ذَلِكَ**»(٢).

وعن أبي ذرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**أَفْضَلُ الْكَلَامِ مَا اصْطَفَى اللهُ لِمَلَائِكَتِهِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ**». رواه مسلم(٣). وفي لفظ آخر للحديث أنَّ أبا ذرٍّ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَلَا أُخْبِرُكَ بِأَحَبِّ الْكَلَامِ إِلَى اللهِ؟**» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَخْبِرْنِي بِأَحَبِّ الْكَلَامِ إِلَى اللهِ. قَالَ: «**إِنَّ أَحَبَّ الْكَلَامِ إِلَى اللهِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ**»(٤)؛ فدلَّ هذا الحديث على عظيم مكانة هذه الكلمة عند الله عَزَّوَجَلَّ.

ومِن فضائلهما: ما أخبر به النَّبيُّ ﷺ أنَّ مَن قال: سبحان الله وبحمده في يوم مائة مرَّة حُطَّت عنه ذنوبُه ولو كثُرت، ففي الصَّحيح من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**مَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ حُطَّتْ خَطَايَاهُ وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ**»(٥).

(١) رواه الطَّبرانيُّ (١٩١٩)، والحاكم في مستدركه (١٩٧٠)، وصحَّحه الألبانيُّ في السِّلسلة الصَّحيحة (٨١)، وفي صحيح الجامع (٦٤٣٠).
(٢) رواه التِّرمذيُّ (٣٤٣٣)، وابن حبَّان (٥٩٤)، والحاكم في مستدركه (١٩٦٩)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٣) رواه مسلم (٢٧٣١).
(٤) رواه مسلم (٢٧٣١).
(٥) رواه البخاريُّ (٦٤٠٥)، ومسلم (٢٦٩١).

وثبت عنه ﷺ أنَّ مَن قالها في الصَّباح مائة مرَّة وفي المساء مائة مرَّة؛ لم يأتِ أحدٌ يومَ القيامة بأفضلَ ممَّا جاء به، إلَّا مَن قال مثل ذلك وزاد عليه؛ فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ قَالَ حِيْنَ يُصْبِحُ وَحِينَ يُمْسِي: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ مِائَةَ مَرَّةٍ لَمْ يَأْتِ أَحَدٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ، إِلَّا أَحَدٌ قَالَ مِثْلَ مَا قَالَ أَوْ زَادَ عَلَيْهِ**»(١).

فالتَّسبيح في هذه الأحاديث قرين التَّحميد، وفي القرآن يقول الله تعالى: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ [البقرة: ٣٠]، وقال سبحانه: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤]، وقال سبحانه: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: ٣]، فكان النَّبيُّ ﷺ يقول في ركوعه وسجوده: «**سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي**»؛ يتأوَّل القرآن، كما ثبت في الحديث(٢) عن أمِّ المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فجعل قوله: «**سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ**» تأويل ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾، وقد قال الله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ [غافر: ٥٥]، وقال: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الرُّوم: ١٧-١٨]، والنُّصوص في اقترانهما كثيرة.

وممَّا ورد في فضل التَّسبيح: ما رواه مسلم عَنْ سَعْدِ بنِ أَبِي وَقَّاصٍ قَالَ: «كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَ: «**أَيَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَكْسِبَ كُلَّ يَوْمٍ أَلْفَ حَسَنَةٍ؟**» فَسَأَلَهُ سَائِلٌ مِنْ جُلَسَائِهِ: كَيْفَ يَكْسِبُ أَحَدُنَا أَلْفَ حَسَنَةٍ؟ قَالَ: «**يُسَبِّحُ مِائَةَ تَسْبِيحَةٍ؛ فَيُكْتَبُ لَهُ أَلْفُ حَسَنَةٍ، أَوْ يُحَطُّ عَنْهُ أَلْفُ خَطِيئَةٍ**»(٣).

(١) رواه مسلم (٢٦٩٢).
(٢) البخاريُّ (٨١٧)، ومسلم (٤٨٤).
(٣) مسلم (٢٦٩٨).

وهذا أسلوب تشويق وترغيب، وكثيرًا ما يأتي مثل هذا الأسلوب في حديثه صلوات الله وسلامه عليه، وهذا من كمال نُصحه لأمَّته، وشدَّة حرصِه على نفعهم وارتفاعهم وعنايتهم بذكر الله وبطاعته عمومًا.

قوله: «**أَيَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَكْسِبَ كُلَّ يَوْمٍ أَلْفَ حَسَنَةٍ؟**» لمَّا قال ذلك عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ تحرَّكت قلوب الصَّحابة شوقا لمعرفة هذا الأمر، فقال سَائِلٌ مِنْ جُلَسَائِهِ: «كَيْفَ يَكْسِبُ أَحَدُنَا أَلْفَ حَسَنَةٍ؟» أي: ما الطَّريقة الَّتِي نحصِّل بها هذا القدر من الحسنات؟ فقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**يُسَبِّحُ مِائَةَ تَسْبِيحَةٍ**»، أي: يقول: «سبحان الله» مائة مرَّة، «**فَتُكْتَبُ لَهُ أَلْفَ حَسَنَةٍ، أَوْ تُحَطُّ عَنْهُ أَلْفَ خَطِيئَةٍ**»؛ تُكتب له ألف حسنة؛ لأنَّ الحسنة بعشر أمثالها، فهو إذا قال: (سبحان الله) مائة مرَّة، والحسنة بعشر أمثالها؛ فهذه ألف حسنة.

وهذا ثواب عظيم وأجر جزيل ربَّما أنَّ المرء يحصِّله في دقيقتين أو ثلاث، والذُّنوب المكفَّرة هنا: هي الصَّغائر، أمَّا كبائر الذُّنوب فلا بُدَّ فيها من التَّوبة، كما قال تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النِّساء: ٣١]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [النَّجم: ٣٢].

٣١
فضل لا حول ولا قوَّة إلَّا باللَّه

إنَّ من الكلمات العظيمة الَّتي جاءت النُّصوصُ بتفضيلها وبيانِ عِظم شأنها: الحَوْقَلة؛ وهي قول «لَا حَوْل ولَا قوَّة إلَّا باللهِ»، وقد جاءت في بعض الأحاديث مضمومة إلى الكلمات الأربع الَّتي هي أحبُّ الكلام إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وقد سبق حديثٌ مُفصَّل عنها.

ومن النُّصوص الَّتي وردت فيها هذه الكلمة مضمومة إلى أولئك الكلمات:

- ما رواه التِّرمذيُّ والحاكم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَا عَلَى الأَرْضِ أَحَدٌ يَقُولُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَاللهُ أَكْبَرُ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، إِلَّا كُفِّرَتْ عَنْهُ خَطَايَاهُ وَلَوْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ البَحْرِ**»(١).

- وأيضًا ما رواه أبو داود والنَّسائيُّ والدَّارَقطنيُّ وغيرهم عن ابن أبي أوفى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: **جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ** ﷺ **فَقَالَ: «إِنِّي لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَتَعَلَّمَ الْقُرْآنَ، فَعَلِّمْنِي شَيْئًا يُجْزِينِي»، قَالَ: «تَقُولُ: سُبْحَانَ اللهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَاللهُ أَكْبَرُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ»، فَقَالَ الأَعْرَابِيُّ: هَكَذَا، وَقَبَضَ بِيَدِهِ، فَقَالَ: «هَذَا لِلَّهِ، فَمَا لِي؟» قَالَ: «تَقُولُ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، وَارْحَمْنِي، وَعَافِنِي، وَارْزُقْنِي، وَاهْدِنِي»، فَأَخَذَهَا الأَعْرَابِيُّ، وَقَبَضَ كَفَّيْهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ** ﷺ: «**أَمَّا هَذَا فَقَدْ مَلأَ يَدَيْهِ مِنَ الْخَيْرِ**»(٢).

(١) رواه التِّرمذيُّ (٣٤٦٠)، والحاكم في المستدرك (١٨٥٣)، وحسَّنه الألبانيُّ.
(٢) رواه أبو داود (٨٣٢)، والنَّسائِيُّ (٩٢٤)، والدَّار قطنيُّ (١١٩٦)، وحسَّنه الألبانيُّ.

- ورُوي من حديث أبي سعيد الخدريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**اسْتَكْثِرُوا مِنَ الْبَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ**»، قيل: **وَمَا هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قال: «التَّكْبِيرُ، وَالتَّهْلِيلُ، وَالتَّسْبِيحُ، وَالتَّحْمِيدُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ**»، رواه أحمد وابن حبَّان والحاكم(١) وغيرُهم وفي سنده كلام.

لكن جاء عدُّ: «**لَا حَوْلَ ولا قوَّة إلَّا بالله**» في جملة: «**الباقيات الصَّالحات**» عن غير واحد من الصَّحابة والتَّابعين؛ فقد روى الإمام أحمد في مسنده أنَّ أمير المؤمنين عثمان بن عفَّان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سُئل عن الباقيات الصَّالحات ما هي؟ فقال: «**هِيَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وسُبْحانَ اللهِ، والحَمْدُ للهِ، واللهُ أكْبَرُ، ولَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا باللهِ**»(٢)، وروى ابن جرير عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّه سُئل عن الباقيات الصَّالحات؟ فقال: «**لَا إلَه إلَّا اللهُ، واللهُ أكبرُ، وسُبْحانَ اللهِ ولَا حَولَ ولَا قوَّة إلَّا باللهِ**»(٣)، وروى مالك عن سعيد بن المسِّيب قال: «**البَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ: سُبْحانَ اللهِ، والحَمْدُ للهِ، ولَا إِلَه إلَّا اللهُ، واللهُ أكبرُ، ولَا حَوْلَ ولَا قُوَّة إلَّا باللهِ**»(٤).

وروى ابن جرير الطَّبريُّ عن عمارة بن صيَّاد قال: «سألني سعيد ابن المسيِّب عن الباقيات الصَّالحات، فقلت: الصَّلاة والصِّيام، قال: لم تُصب، فقلت: الزَّكاة والحجُّ، فقال: لم تُصب، ولكنَّهنَّ الكلمات الخمس: لا إله إلَّا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله، ولا حول ولا قوَّة إلَّا بالله»(٥).

وأثر ابن المسيِّب هذا يوهم أنَّ «الباقيات الصَّالحات» محصورة في

(١) رواه أحمد (١١٧١٣)، والحاكم في المستدرك (١٨٨٩)، وابن حبَّان (٨٤٠)، وضعَّفه الألبانيُّ في ضعيف الجامع (١/ ١١٩).
(٢) رواه أحمد (٥١٣).
(٣) رواه الطَّبريُّ (١٨/ ٣٣).
(٤) رواه مالك في الموطَّأ (١٠٠١).
(٥) رواه الطبريُّ (١٨/ ٣٥).

هؤلاء الكلمات الخمس، والَّذي عليه المحقِّقون من أهل العلم أنَّ «الباقيات الصَّالحات» هنَّ جميع أعمال الخير، كما جاء عن ابن عبَّاس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا في قوله: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ [الكهف: ٤٦]، قال: «**هي ذكر الله؛ قول لا إله إلَّا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله، وتبارك الله، ولا حول ولا قوَّة إلَّا بالله، وأستغفر الله، وصلَّى الله على رسول الله، والصِّيام والصَّلاة والحجُّ والصَّدقة والعتق والجهاد والصِّلة وجميع أعمال الحسنات، وهنَّ الباقيات الصَّالحات الَّتي تبقى لأهلها في الجنَّة ما دامت السَّموات والأرض**»(١).

وقد ورد في فضل هذه الكلمة -أعني لا حول ولا قوَّة إلَّا بالله- وبيان عظيم مكانتها عند الله وما يترتَّب عليها من أجرٍ وثواب نصوصٌ خاصَّة عن رسول الله ﷺ.

- منها ما رواهُ أحمد عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**أَكْثِرُوا مِنْ قَوْلِ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ؛ فَإِنَّها كَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الجَنَّةِ**»(٢).

- ومنها ما رواه البخاريُّ ومسلم عن أبي موسى الأشعريِّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: كنَّا مع النَّبيِّ ﷺ في سفر فكنَّا إذا علونا كبَّرنا، وفي رواية: فجعلنا لا نصعد شرفًا ولا نعلو شرفًا ولا نهبط في وادٍ إلَّا رفعنا أصواتنا بالتَّكبير، فقال النَّبيُّ ﷺ: «**أَيُّهَا النَّاسُ ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا، وَلَكِنْ تَدْعُونَ سَمِيعًا بَصِيرًا**»، ثمَّ أتى عليَّ وأنا أقول في نفسي: لا حول ولا قوَّة إلَّا بالله، فقال: «**يَا عَبْدَ اللهِ بْنَ قَيْسٍ، قُلْ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، فَإِنَّهَا كَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الجَنَّةِ**»، أَوْ قَالَ: «**أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى كَلِمَةٍ هِيَ كَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الجَنَّةِ؟ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ**»(٣).

---

(١) رواه الطبريُّ (١٨/ ٣٥).
(٢) رواه أحمد (٨٤٠٦).
(٣) رواه البخاريُّ (٦٣٨٤)، ومسلم (٢٧٠٤).

قال بعض أهل العلم في التَّعليق على هذا الحديث: كان عَلَيْهِ السَّلَامُ معلِّمًا لأمَّته فلا يراهم على حالة من الخير إلَّا أحبَّ لهم الزِّيادة؛ فأحبَّ للَّذين رفعوا أصواتهم بكلمة الإخلاص والتَّكبير أن يضيفوا إليها التَّبرِّي من الحول والقوَّة فيجمعوا بين التَّوحيد والإيمان بالقدر، وقد جاء في الحديث: «إذا قال العبد لا حول ولا قوَّة إلَّا بالله، قال الله: أسلم عبدي واستسلم» رواه الحاكم[(١)] بإسناد قال عنه الحافظ ابن حجر: قويٌّ. وفي رواية: «ألا أدلُّك على كلمة من تحت العرش من كنز الجنَّة؟ تقول: لا حول ولا قوَّة إلَّا بالله، فيقول الله عَزَّوَجَلَّ: أسلم عبدي واستسلم» رواه الحاكم[(٢)]، وقال: صحيح ولا يُحفظ له علَّة، ووافقه الذَّهبيُّ.

- وروى الإمام أحمد والتِّرمذيُّ وابن حبَّان وغيرهم عن أبي أيُّوب الأنصاريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبيَّ ﷺ ليلة أُسري به مرَّ على إبراهيم -على نبيِّنا و عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- فقال: «**مُرْ أُمَّتَكَ فَلْيُكْثِرُوا مِنْ غِرَاسِ الْجَنَّةِ**»، قَالَ: وَمَا غِرَاسُ الْجَنَّةِ؟ قَالَ: «**لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ**»[(٣)].

- وروى أحمد والتِّرمذيُّ والحاكم وغيرهم عن قيس بن سعد بن عبادة أنَّ أباه دفعه إلى النَّبيِّ ﷺ يخدمه قال: فمرَّ بي النَّبيُّ ﷺ وقال لي: «أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ الجَنَّةِ؟» قُلْتُ: بَلَى؟ قَالَ: «**لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ**»[(٤)].

فهذه بعض الأحاديث المشتملة على بيان فضل هذه الكلمة العظيمة،

(١) رواه الحاكم في المستدرك (١٨٥٠).
(٢) الحاكم في المستدرك (٥٤)، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٢٦١٤).
(٣) رواه أحمد (٢٣٥٥٢)، وابن حبَّان (٨٢١)، و صحَّحه الألبانيُّ في صحيح التَّرغيب والتَّرهيب (١٥٨٣).
(٤) رواه أحمد (١٥٤٨٠)، والتِّرمذيُّ (٣٥٨١)، والحاكم في المستدرك (٧٧٨٧)، وصحَّحه الألبانيُّ.

وما يترتَّب عليها من أجور عظيمة، وخيرات جليلة، وفوائد متنوِّعة في الدُّنيا والآخرة. وهي كلمة إسلامٍ واستسلامٍ، وتفويض وتبرُّؤٍ من الحَول والقوَّة إلَّا بالله، وأنَّ العبدَ لا يملك من أمرِه شيئًا، وليس له حيلةٌ في دفعِ شرٍّ، ولا قوَّةٌ في جلبِ خيرٍ إلَّا بإرادة الله. فلا تحوُّل للعبد من معصية إلى طاعة، ولا من مرض إلى صحَّة، ولا من وهنٍ إلى قوَّة، ولا من نقص إلى كمال وزيادة، إلَّا بالله، ولا قوَّة له على القيام بشأنٍ من شؤونه، أو تحقيق هدفٍ من أهدافه أو غاية من غاياته إلَّا بالله العظيم، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فأزِمَّةُ الأمور بيده سبحانه، وأمورُ الخلائق معقودة بقضائه وقدره يصرِّفها كيف يشاء ويقضي فيها بما يريد، لا رادَّ لقضائه ولا معقِّب لحكمه، فما شاء كان كما شاء في الوقت الَّذي يشاء على الوجه الَّذي يشاء من غير زيادة ولا نقصان؛ ولا تقدُّم ولا تأخُّر، له الخلق والأمر، وله الملك والحمد، وله الدُّنيا والآخرة، وله النِّعمة والفضل، وله الثَّناء الحسن، شملت قدرتُه كلَّ شيء، ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ﴾ [فاطر: ٢]؛ ومَن كان هذا شأنه فإنَّ الواجبَ الإسلامُ لألوهيَّته، والاستسلامُ لعظمته، وتفويض الأمور كلِّها إليه، والتبرُّؤُ من الحول والقوَّة إلَّا به، ولهذا تعبَّد اللهُ عبادَه بذكره بهذه الكلمة العظيمة الَّتي هي بابٌ عظيم من أبواب الجنَّة وكنزٌ من كنوزها.

فهي كلمةٌ عظيمةٌ تعني: الإخلاص لله وحده بالاستعانة، كما أنَّ كلمةَ التَّوحيد «لا إله إلَّا الله» تعني: الإخلاص لله بالعبادة؛ فلا تتحقَّق «لا إله إلَّا الله» إلَّا بإخلاص العبادة كلِّها لله، ولا تتحقَّق «لا حول ولا قوَّة إلَّا بالله» إلَّا بإخلاص الاستعانة كلِّها لله. وقد جمع الله بين هذين الأمرين في سورة الفاتحة، أفضل سورة في القرآن، وذلك في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

[الفاتحة: ٥]؛ فالأوَّل تبرُّؤٌ من الشِّرك، والثَّاني تبرُّؤٌ من الحول والقوَّةِ وتفويضٌ إلى الله. والعبادة متعلِّقة بألوهيَّة الله، والاستعانة متعلِّقة بربوبيَّته.

العبادةُ غاية، والاستعانة وسيلة، فلا سبيل إلى تحقيق تلك الغاية العظيمة إلَّا بهذه الوسيلة العظيمة الَّتي هي الاستعانة بالله الَّذي لا حول ولا قوَّة إلَّا به؛ ولهذا يخطئ مَن يستخدمها في غير بابها، أو يجعلها في غير مقصودها، قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وذلك أنَّ هذه الكلمة -أي: لا حول ولا قوَّة إلَّا بالله- هي كلمة استعانة لا كلمة استرجاع، وكثيرٌ من النَّاس يقولها عند المصائب بمنزلة الاسترجاع، ويقولها جزعًا لا صبرًا»(١).

۞ وعلى هذا المعنى المُشار إليه يدور فهمُ السَّلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ لهذه الكلمة العظيمة:

أخرج ابن أبي حاتم في تفسيره عن ابن عبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا في معنى «لا حول ولا قوَّة إلَّا بالله»، قال: «لا حول بنا على العمل بالطَّاعة إلَّا بالله، ولا قوَّة لنا على ترك المعصية إلَّا بالله»(٢).

ورُوي عن عليِّ بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في معناها، أي: «أنَّا لا نملك مع الله شيئًا، ولا نملك من دونه، ولا نملك إلَّا ما ملَّكنا مِمَّا هو أملك به منَّا»(٣).

ورُوي عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنَّه قال في معناها: «أي: لا حول عن معصية الله إلَّا بعصمته، ولا قوَّة على طاعته إلَّا بمعونته»(٤).

وعن زهير بن محمَّد أنَّه سُئل عن تفسير «لا حول ولا قوَّة إلَّا بالله»، قال:

(١) الاستقامة (٢/ ٨١).
(٢) ذكره السُّيوطيُّ في الدُّرِّ المنثور في التَّفسير بالمأثور (٥/ ٣٩٣).
(٣) ذكره ابن علاَّن في الفتوحات الرَّبانيَّة (١/ ٢٤٢).
(٤) ذكره النَّوويُّ في شرح مسلم (١٧/ ٢٦).

«لا تأخذ ما تحبُّ إلَّا بالله، ولا تمتنع ممَّا تكره إلَّا بعون الله»[١].

ولهذا يُشرع للمسلم أن يقول هذه الكلمة في استقباله لمصالح دينه ودنياه، وقد أرشد نبيُّنا ﷺ مَن يخرج من بيته أن يقول: «بِسْمِ اللهِ، تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ»، وإذا نادى المُنادي للصَّلاة: «حيَّ على الصَّلاة، حيَّ على الفلاح» يُشرع للمسلم أن يقول حينئذٍ: «لا حول ولا قوَّة إلَّا بالله»، طلبًا للعون من الله سبحانه، فهي كلمة استعانةٍ وتفويض.

(١) ذكره السُّيوطيُّ في الدُّرِّ المنثور في التَّفسير بالمأثور (٥/ ٣٩٤).

٣٢
فضل الصَّلاة على النَّبيِّ ﷺ

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والمقصود من هذه الآية: أنَّ الله سبحانه أخبر عباده بمنزلة عبده ونبيِّه عنده في الملأ الأعلى بأنَّه يثني عليه عند الملائكة المقرَّبين، وأنَّ الملائكة تصلِّي عليه؛ ثمَّ أمر تعالى أهل العالم السُّفليِّ بالصَّلاة والتَّسليم عليه، ليجتمع الثَّناء عليه من أهل العالمَين العلويِّ والسُّفليِّ جميعًا»[١]. فأمر الله المؤمنين بالصَّلاة على النَّبيِّ ﷺ اقتداء بالله وملائكته، وجزاءً له على بعض حقوقه عليهم، وتكميلًا لإيمانهم، وتعظيمًا له ﷺ ومحبَّة وإكرامًا، وزيادةً في حسنات المؤمنين، وتكفيرًا من سيِّئاتهم.

﴿ وقد ورد في فضل الصَّلاة على النَّبيِّ ﷺ أحاديث عديدة:

عَنْ عَبْدِ الله بنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «**مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً صَلَّى الله عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا**». رواه مسلم[٢].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**مَنْ صَلَّى عَلَيَّ وَاحِدَةً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ عَشْرًا**». رواه مسلم[٣].

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ٤٥٧).
(٢) رواه مسلم (٣٨٤).
(٣) رواه مسلم (٤٠٨).

وَعَنْ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**أَوْلَى النَّاسِ بِي يَوْمَ القِيَامَةِ أَكْثَرُهُمْ عَلَيَّ صَلَاةً**». رواه التِّرمذيُّ(١).

وعن حُسَيْن بن عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**الْبَخِيلُ مَنْ ذُكِرْتُ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ**». قال أبو سعيد -أحد رواة الحديث- «ﷺ كثيرًا»(٢).

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ نَسِيَ الصَّلَاةَ عَلَيَّ، خَطِئَ طَرِيقَ الْجَنَّةِ». أخرجه ابن ماجه(٣).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**رَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ ذُكِرْتُ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ، وَرَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ دَخَلَ عَلَيْهِ رَمَضَانُ ثُمَّ انْسَلَخَ قَبْلَ أَنْ يُغْفَرَ لَهُ، وَرَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ أَدْرَكَ عِنْدَهُ أَبَوَاهُ الكِبَرَ فَلَمْ يُدْخِلَاهُ الجَنَّةَ**». رواه التِّرمذيُّ(٤).

وعن أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا ذَهَبَ ثُلُثَا اللَّيْلِ قَامَ فَقَالَ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا اللهَ اذْكُرُوا اللهَ جَاءَتِ الرَّاجِفَةُ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ، جَاءَ الْمَوْتُ بِمَا فِيهِ، جَاءَ الْمَوْتُ بِمَا فِيهِ**»، **قَالَ أُبَيٌّ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي أُكْثِرُ الصَّلَاةَ عَلَيْكَ فَكَمْ أَجْعَلُ لَكَ مِنْ صَلَاتِي؟ فَقَالَ: «مَا شِئْتَ» قَالَ: قُلْتُ: الرُّبُعَ؟ قَالَ: «مَا شِئْتَ، فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ»، قُلْتُ: النِّصْفَ؟ قَالَ: «مَا شِئْتَ، فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ»، قَالَ: قُلْتُ: فَالثُّلُثَيْنِ؟ قَالَ: «مَا شِئْتَ، فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ»، قُلْتُ: أَجْعَلُ لَكَ صَلَاتِي كُلَّهَا؟ قَالَ: «إِذًا تُكْفَى هَمَّكَ، وَيُغْفَرُ لَكَ ذَنْبُكَ»**. رواه التِّرمذيُّ(٥).

---

(١) رواه التِّرمذيُّ (٤٨٤).
(٢) رواه أحمد (١٧٣٦)، وصحَّحه الألبانِيُّ في صحيح الجامع (٢٨٧٨).
(٣) رواه ابن ماجه (٩٠٨)، وحسَّنه الألبانيُّ.
(٤) رواه التِّرمذيُّ (٣٥٤٥)، وحسَّنه الألبانيُّ.
(٥) رواه التِّرمذيُّ (٢٤٥٧)، وحسَّنه الألبانيُّ.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقول السَّائل: كم أجعل لك من صلاتي؟ يعني: من دعائي؛ فإنَّ الصَّلاة في الُّلغة هي الدُّعاء، قال تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ﴾ [التَّوبة: ١٠٣]. وقال النَّبيُّ ﷺ «**اللَّهُمَّ صلِّ على آل أبي أوفى**»، وقالت امرأة: صلِّ عليَّ يا رسول الله وعلى زوجي، فقال ﷺ: «صلَّى الله عليك وعلى زوجك». فيكون مقصود السَّائل، أي: يا رسول الله، إنَّ لي دعاءً أدعو به أستجلب به الخير وأستدفع به الشَّرَّ؛ فكم أجعل لك من الدُّعاء؟ قال: «ما شئت»، فلمَّا انتهى إلى قوله: أجعل لك صلاتي كلَّها؟ قال «إذاً تُكفى همَّك ويُغفر ذنبُك»، وفي الرِّواية الأخرى «إذًا يكفيك الله ما أهمَّك من أمر دنياك وآخرتك»؛ وهذا غاية ما يدعو به الإنسان من جلب الخيرات ودفع المضرَّات؛ فإنَّ الدُّعاء فيه تحصيل المطلوب واندفاع المرهوب»[(١)].

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ، ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ؛ فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا، ثُمَّ سَلُوا اللهَ لِيَ الْوَسِيلَةَ فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ لَا تَنبَغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللهِ وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ، فَمَنْ سَأَلَ لِيَ الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ**». رواه مسلم[(٢)].

وقد صنَّف أهل العلم مصنَّفات مفردة في الأحاديث الواردة في الصَّلاة والسَّلام عليه ﷺ، وأحسنها وأكثرها فائدة «جلاء الأفهام في الصَّلاة والسَّلام على خير الأنام» للعلَّامة ابن القيِّم؛ وهو كتاب قيِّمٌ في بابه ذكر فيه الأحاديث الواردة عن النَّبيِّ ﷺ في هذه العبادة العظيمة، والكلام عليها صحَّةً وضعفًا، فقهًا واستنباطًا، وقد قال عنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مقدِّمته: «وهو كتاب فردٌ في معناه، لم

(١) قاعدة جليلة في التَّوسُّل والوسيلة (١/ ٣١٤)، ومجموع الفتاوى (١/ ٣٤٩).
(٢) رواه مسلم (٣٨٤).

يُسبق إلى مثله في كثرة فوائده وغزارتها، بَيَّنَّا فيه الأحاديث الواردة في الصَّلاة والسَّلام عليه ﷺ، وصحيحها من حسنها ومعلولها، وبيَّنَّا ما في معلولها من العلل بيانًا شافيًا، ثمَّ أسرار هذا الدُّعاء وشرفه وما اشتمل عليه من الحِكم والفوائد، ثمَّ مواطن الصَّلاة عليه ﷺ ومحالِّها، ثمَّ الكلام في مقدار الواجب منها، واختلاف أهل العلم فيه، وترجيح الرَّاجح وتزييف الزَّائف، ومخبَر الكتاب فوق وصفه، والحمد لله ربِّ العالمين». اهـ كلامه[(١)].

هذا وقد علَّم النَّبيُّ ﷺ أمَّتَه كما ثبت في أحاديث صحيحة كيف يصلُّون عليه، وخير الهدي هديه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

عَنْ أَبِي مُحَمَّدٍ كَعْبِ بنِ عُجْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ قَدْ عَلِمْنَا كَيْفَ نُسَلِّمُ عَلَيْكَ، فَكَيْفَ نُصَلِّي عَلَيْكَ؟ قَالَ: «**قُولُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ**». رواه البخاريُّ ومسلم[(٢)].

وَعَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الْبَدْرِيِّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: أَتَانَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَنَحْنُ فِي مَجْلِسِ سَعْدِ ابْنِ عُبَادَةَ، فَقَالَ لَهُ بَشِيرُ بْنُ سَعْدٍ: أَمَرَنَا اللهُ تَعَالَى أَنْ نُصَلِّيَ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ فَكَيْفَ نُصَلِّي عَلَيْكَ؟ قَالَ: فَسَكَتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى تَمَنَّيْنَا أَنَّهُ لَمْ يَسْأَلْهُ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**قُولُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ فِي الْعَالَمِينَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، وَالسَّلَامُ كَمَا قَدْ عَلِمْتُمْ**». رواه مسلم[(٣)].

---

(١) جلاء الأفهام (ص٢٧).

(٢) رواه البخاريُّ (٦٣٥٧)، ومسلم (٤٠٦).

(٣) رواه مسلم (٤٠٥).

وَعَنْ أَبِي حُمَيْدٍ السَّاعِدِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالُوا: يَا رَسُولَ الله كَيْفَ نُصَلِّي عَلَيْكَ؟ قَالَ: «**قُولُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى أَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى أَزْوَاجِهِ، وَذُرِّيَّتِهِ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ**». رواه البخاريُّ ومسلم[(١)].

والصَّلاة على النَّبِيِّ ﷺ هي من الله ثناؤُه عليه في الملأ الأعلى وتعظيمه، وصلاة الملائكة والمؤمنين عليه هي طلب ذلك له ﷺ من الله تعالى؛ والمراد: طلب الزِّيادة لا طلب أصل الصَّلاة؛ حكى البخاريُّ في صحيحه عن أبي العالية: أنَّه قال في معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾: «صلاة الله: ثناؤه عليه عند الملائكة، وصلاة الملائكة: الدُّعاء»[(٢)].

ومعنى قوله: «**اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ**»، البركة: النَّماء والزِّيادة، والتَّبريك: الدُّعاء بذلك، فهو دعاءٌ يتضمَّن طلب إعطائه ﷺ من الخير وإدامته له ومضاعفته له وزيادته.

وهذه الكيفيَّات الَّتي علَّمها ﷺ أصحابه عندما سألوه عن كيفيَّة الصَّلاة عليه ﷺ هي أفضل كيفيَّات الصَّلاة عليه ﷺ، وأكملها الصِّيغة الَّتي فيها الجمع بين الصَّلاة على النَّبيِّ ﷺ وآله، والصَّلاة على إبراهيم ﷺ وآله.

وممَّن استدلَّ بتفضيل الكيفيَّة الَّتِي أجاب النَّبيُّ ﷺ أصحابه بها: الحافظ ابن حجر في فتح الباري، فقد قال فيه: «قلت: واستُدِلَّ بتعليمه ﷺ لأصحابه الكيفيَّة بعد سؤالهم عنها بأنَّها أفضل كيفيَّات الصَّلاة عليه؛ لأنَّه لا يختار

---

(١) رواه البخاريُّ (٣٣٦٩)، ومسلم (٤٠٧).

(٢) رواه البخاريُّ معلَّقًا في صحيحه (٦/ ١٢٠).

لنفسه إلَّا الأشرف الأفضل، ويترتَّب على ذلك: لو حلف أن يصلِّي عليه أفضل الصَّلاة، فطريق البرِّ أن يأتي بذلك».

ثمَّ ذكر أنَّ النَّوويَّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ صوَّب ذلك في الرَّوضة، وذكر كيفيَّات أخرى يحصل بها بِرُّ الحلف، ثمَّ قال: «والَّذي يرشد إليه الدُّليل أنَّ البرَّ يحصل بما في حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ لقوله: «مَن سرَّه أن يكتال بالمكيال الأوفى إذا صلَّى علينا فليقل: اللَّهمَّ صلِّ على محمَّد النَّبيِّ وأزواجه أمَّهات المؤمنين وذرِّيَّته وأهل بيته كما صلَّيت على إبراهيم...» الحديث، والله أعلم». اهـ كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ [(١)].

وقد درج السَّلف الصَّالح ومنهم المحدِّثون بذكر الصَّلاة والسَّلام عليه ﷺ **عند ذكره بصياغتين مختصرتين:**

إحداهما: «ﷺ»، **والثَّانية:** «عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ».

قال ابن الصَّلاح في كتابه علوم الحديث: «ينبغي له -أي: كاتب الحديث- أن يحافظ على كَتْبِهِ الصَّلاة والتَّسليم على رسول الله ﷺ عند ذكره؛ ولا يسأم من تكرير ذلك عند تكريره؛ فإنَّ ذلك من أكبر الفوائد الَّتي يتعجَّلها طلبة الحديث وكتبَته، ومَن أغفل ذلك حُرم حظًّا عظيمًا» [(٢)].

---

(١) فتح الباري (١١/ ١٦٦).
(٢) مقدِّمة ابن الصَّلاح (٢٩٨).

٣٣
أذكار طرفي النَّهار (١)

إنَّ أذكار طرفَيْ النَّهار تُعَدُّ من أعظم الأذكار الموظَّفة المقيَّدة شأنًا وأعظمها مكانة، وهي أوسع الأذكار المأثورة المقيَّدة وأكثرها أحاديث، وقد تنوَّعت هذه الأحاديث الَّتي وردت في أذكار طرفَيْ النَّهار في أبواب الدِّين المختلفة؛ توحيدًا وعقيدةً وعبادةً وخُلُقًا كما سيأتي.

وجديرٌ بالمسلم أن يكون مواظبًا على الأذكار المأثورة عن النَّبيِّ ﷺ في هذين الوقتين، مقدِّما لها على سائر أموره، ولا ينبغي للعبد أن يخِلَّ بها؛ لشدَّة حاجة العبد إليها في كلِّ يوم وليلة؛ لأنَّها حفظٌ له ورفعةٌ لدرجاته وتكفيرٌ لسيِّئاته وتكثير لحسناته ووقايةٌ له من الشُّرور والآفات، وثمارها ومنافعها لا تُعدُّ ولا تُحصى.

روى الطَّبريُّ عن عمرو بن أبي سلمة قال: «سألتُ الأوزاعيَّ عن قراءة القرآن أعْجَبُ إليك أم الذِّكر؟ فقال: سل أبا محمَّد -يعني سعيد بن المسيِّب- فسألته، فقال: بل القرآن، فقال الأوزاعيُّ: إنَّه ليس شيءٌ يعدل القرآن، ولكن إنَّما كان هدي مَن سلف يذكرون الله تعالى قبل طلوع الشَّمس وقبل الغروب»(١)؛ فأشار رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى أنَّ القرآن هو أفضل الأذكار ولا يعدله شيء، لكنَّ الأذكار الواردة في الصَّباح والمساء وأدبار الصَّلوات وغيرها تكون في وقتها أفضل.

(١) ذكره القرطبيُّ في التَّذكار في أفضل الأذكار (ص٥٩).

هذا وينبغي التَّنبُّه إلى أنَّ هذه الأذكار ليست مجرَّد كلماتٍ تُقال أو ألفاظٍ يُؤتى بها فقط، بل هي أذكار جاءت لتجدُّد التَّوحيد وتقوِّي العقيدة وتُمتِّن الصِّلة بالله رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وتقوِّي التَّوكُّل عليه والثِّقة به؛ لتكون صلةً متجدِّدة بالله، ثناءً عليه، وتعظيمًا وتمجيدًا وتقديسًا، وتوحيدًا بتجدُّد اللَّيالي والأيَّام.

ومَن كان يأتي بهذا الأذكار دون أن يعي مقاصدها ويحقِّق ما دلَّت عليه من توحيدٍ، واعتقادٍ، وإيمانٍ، وتوكُّلٍ؛ فإنَّها تكون في حقِّه ضعيفة الأثر إن لم تكن عديمة الأثر؛ إذ لا ينتفع بها إلَّا مَن قالها محقِّقًا معانيها وغاياتها ومقاصدها.

ووقت هذه الأذكار: مَا بَيْنَ الصُّبحِ وَطُلُوعِ الشَّمْسِ، وَما بَيْنَ العَصْرِ وَغُرُوبِ الشَّمْسِ؛ يُقال لهما: «طرفا النَّهار» لأنَّهما أوَّل النَّهار وآخره، يُبدأ بهما النَّهار ويُختم. وأوَّل النَّهار: هو الوقت الَّذي يسبق طلوع الشَّمس، وآخر النَّهار: هو الوقت الَّذي يسبق غروبها؛ وهذان الوقتان هما خيرا أوقات الذِّكر وأفضلها وأعظمها شأنًا.

﴾ وقد جاء في التَّرغيب في ذكر الله تَبَارَكَوَتَعَالَى في هذين الوقتين نصوصٌ كثيرة في الكتاب والسُّنَّة:

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤١-٤٢]. والبُكرة: أوَّل النَّهار قبل طلوع الشَّمس، والأَصِيل: آخر النَّهار مَا بَيْنَ العَصْر وَغُروبِ الشَّمْس.

وقد قال النَّبيُّ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «**بُورِكَ لِأُمَّتِي فِي بُكُورِهَا**»(١)، وشأن البكور شأنٌ عظيم؛ لأنَّه مفتاح اليوم وبدايته، وما يكون في أوَّل النَّهار ينسحب على باقيه، كما قال بعض أهل العلم: «**أوَّل النَّهار شبابه، وآخر النَّهار شيخوخته،**

(١) رواه أبو داود (٢٦٠٦)، والتِّرمذيُّ (١٢١٢)، وابن ماجه (٢٢٣٦)، وصحَّحه الألبانِيُّ.

ومن شبَّ على شيءٍ شاب عليه»[١]، أي: أنَّ الَّذي يكون عليه الإنسان في الصَّباح الباكر هو الَّذي يكون عليه طيلة يومه؛ فما يكون في أوَّل النَّهار يكون كذلك في آخره؛ إنْ نشاطًا فنشاط، وإنْ كسلًا فكسل.

وإذا ضيَّع المرء أوَّل اليوم -الَّذي هو وقت البركة والفضيلة وحلول الأرزاق- فإنَّ يومه يضيع؛ ولهذا ينبغي تعلُّم الأذكار المشروعة المأثورة الثَّابتة عن رسولنا ﷺ والَّتي يُستحبُّ أن تُقال في الصَّباح الباكر، وأن يُعوِّد المرء نفسه عليها حتَّى تصبح أمرًا مُعتادًا مألوفًا لا يستطيع المرء أن ينفكَّ عنه، ولا يستطيع تركه.

وهكذا أيضًا آخر النَّهار -وهو الوقت الَّذي بعد صلاة العصر إلى قبل غروب الشَّمس- يحافظ على أذكاره المشروعة فيه؛ ليكون مُفتتَح يومِه ومختتَمه ذكرُ الله.

وقد أمَر الله عَزَّوَجَلَّ بذكره وتسبيحه في هذين الوقتين، لكنْ ما الأذكار الَّتي تُقال؟ وما ألفاظها؟ وما أعدادها؟ جاءت السُّنَّة النَّبويَّة شارحةً لذلك ومبيِّنة؛ ولهذا فإنَّ امتثال أمر الله تَبَارَكَوَتَعَالَى بذكره في هذين الوقتين يكون باتِّباع سنَّة النَّبيِّ ﷺ والتَّعرُّف على هديه صلوات الله وسلامه عليه في ذكر الله تَبَارَكَوَتَعَالَى في هذين الوقتين العظيمين؛ فقد بيَّنت السُّنَّة الأذكار الَّتي يحسن بالمسلم أن يواظب عليها في هذين الوقتين، فالأحاديث الصَّحيحة الواردة في تعيين الأذكار الَّتي تُقال في هذين الوقتين عديدة، وسيأتي عرض لجملة منها مع بيان معانيها وإيضاح هداياتها ومقاصدها.

وَقَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَـٰرِ﴾ [غافر: ٥٥].
الإِبْكَار: أوَّل النَّهار، والعَشِيُّ: آخِرَه.

---

(١) ذكر نحوه ابن القيِّم في مفتاح دار السَّعادة (٢/ ٢١٦).

وَقَالَ تعالى: ﴿فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ [الرُّوم: ١٧].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ [ق: ٣٩].

ففيها الأمر بالجمع بين ذكر الله تعالى في أوَّل النَّهار وهو الإبكار، وآخر النَّهار وهو العشيُّ، ويُقال له: الآصال.

وعن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**لَأَنْ أَقْعُدَ مَعَ قَوْمٍ يَذْكُرُونَ اللهَ تَعَالَى مِنْ صَلَاةِ الْغَدَاةِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أُعْتِقَ أَرْبَعَةً مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَلَأَنْ أَقْعُدَ مَعَ قَوْمٍ يَذْكُرُونَ اللهَ مِنْ صَلَاةِ الْعَصْرِ إِلَى أَنْ تَغْرُبَ الشَّمْسُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أُعْتِقَ أَرْبَعَةً**». رواه أبو داود[(١)].

وفيما يلي عرضٌ لشيء من هذه الأذكار المشروعة والأدعية المأثورة الَّتي تُقال في هذين الوقتين الفاضلين، مع بيان شيء من معانيها العظيمة ودلالتها القويمة.

روى أبو داود والتِّرمذيُّ وغيرهما عن عثمان بن عفَّان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قالَ رَسولُ الله ﷺ: «**مَا مِنْ عَبْدٍ يَقُولُ فِي صَبَاحِ كُلِّ يَوْمٍ وَمَسَاءِ كُلِّ لَيْلَةٍ: «بِسْمِ اللهِ الَّذِي لَا يَضُرُّ مَعَ اسْمِهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فَيَضُرَّهُ شَيْءٌ**»[(٢)].

هذا من الأذكار العظيمة الَّتي ينبغي أن يُحافظ عليها المسلمُ كلَّ صباح ومساء، ليكون بذلك محفوظًا بإذن الله من أن يصيبه فجأةُ بلاءٍ أو ضرُّ مصيبة أو نحو ذلك. جاء في سنن التِّرمذيِّ عن أبان بن عثمان: وهو راوي الحديث عن عثمان أنَّه قد أصابه طرف فالج -وهو شللٌ يصيب أحد شقَّيْ الجسم- فجعل

(١) رواه أبو داود (٣٦٦٧)، وحسَّنه الألبانيُّ.
(٢) رواه أبو داود (٥٠٨٨)، والتِّرمذيُّ (٣٣٨٨)، وصحَّحه الألبانيُّ.

رجلٌ منهم ينظر إليه فقال له أبان: «ما تَنظر؟ أمَا إنَّ الحديثَ كما حدَّثتُك، ولكنِّي لَم أَقُلْه يومئذٍ ليُمضي اللهُ عليَّ قَدَرَه»(١).

والسُّنَّة في هذا الذِّكر أن يُقال ثلاثَ مرَّات كلَّ صباح ومساء، كما أرشدَ النَّبيُّ ﷺ إلى ذلك.

وقوله في هذا الحديث: «**بسم الله**»، أي: بسم الله أستعيذ؛ فكلُّ فاعل يُقَدِّر فعلًا مناسبًا لحاله عندما يُبَسمِل، فالآكِلُ يُقدِّر: بسم الله آكُل، والذَّابحُ يُقدِّرُ: بسم الله أَذبَحُ، والكاتبُ يُقدِّرُ: بسم الله أكتُبُ، وهكذا.

وقوله: «**الَّذِي لَا يَضُرُّ مَعَ اسْمِهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ**»، أي: لا سبيل إلى وصول الضُّرِّ إليه لا من جهة الأرض ولا من جهة السَّماء؛ فإنَّه لا يضرُّ مع اسم الله شيء، وما دام أنَّ المرء ذاكر لله فهو في حصن حصين وحرز مكين، ولهذا يُسمِّي بعض أهل العلم أذكار الصَّباح والمساء وغيرها «حصن المسلم» أو «الحصن الحصين» أو نحو ذلك؛ لأنَّه لا يضرُّ المرء شيء مادام ذاكرًا لله، والله عَزَّوَجَلَّ كافٍ عبده إذا التجئ إليه واعتصم به: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطَّلاق: ٣].

وقوله: «**وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ**»، أي: السَّميع لأقوال العباد، والعليمُ بأفعالِهم؛ الَّذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السَّماء.

وقوله: «**فَيَضُرَّهُ شَيْء**»، «شيء» نكرة وتعمُّ هنا، تعمُّ جميع الأشياء؛ فيشمل الشَّيطان، والأسقام، والأمراض، ويشمل أيضًا اعتداء ذوات السُّموم كالحيَّة والعقرب إلى غير ذلك؛ فما يضرُّه شيء. ولو قُدِّر أنَّ عقربًا أو حيَّةً لدغته فإنَّه لا يضرُّه سمُّها.

قوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**مَا مِنْ عَبْدٍ يَقُولُ فِي صَبَاحِ كُلِّ يَوْمٍ وَمَسَاءِ كُلِّ لَيْلَةٍ**»،

(١) رواه التِّرمذيُّ (٣٣٨٨)، وصحَّحه الألبانيُّ.

هذا فيه تأكيدٌ على المواظبة على هذا الذِّكر في كلِّ يوم؛ في الصَّباح ثلاث مرَّات، وفي المساء ثلاث مرَّات. فإذا وُفِّق العبد للمواظبة عليه لا يضرُّه شيء في أيَّامه، ولا في لياليه؛ لأنَّه يكون محفوظًا بحفظ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، ولا بُدَّ مع المواظبة من اليقين بالله والثِّقة به، والسَّيف -كما يقال- بضاربه، فهذا ذكر عظيم ومؤثِّر، لكنْ إذا كان الإنسان ليس عنده ثقة ولا يقين فالتَّأثير فيه يضعف تمامًا.

٣٤
أذكار طرفي النَّهار (٢)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أَنَّهُ قالَ: جَاءَ رَجُلٌ إلى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله مَا لَقِيتُ مِنْ عَقْرَبٍ لَدَغَتْنِي الْبَارِحَةَ، قَالَ: «**أَمَا لَوْ قُلْتَ حِينَ أَمْسَيْتَ: «أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ» لَمْ تَضُرَّكَ**». رواه مسلم[(١)]. وَفِي رِوَايَةٍ لِلتِّرْمِذِيِّ: «**مَنْ قَالَ حِينَ يُمْسِي ثَلَاثَ مَرَّاتٍ: «أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ» لَمْ يَضُرَّهُ حُمَةٌ تِلْكَ اللَّيْلَةَ**». رواه التِّرمذيُّ[(٢)]. و«الحُمَةُ»: لَدْغَةُ كُلِّ ذِي سُمٍّ كالعَقْرَبِ ونَحْوِها.

قوله: «**مَا لَقِيتُ مِنْ عَقْرَبٍ لَدَغَتْنِي الْبَارِحَةَ**»، أي: لقيت أمرًا عظيمًا ووجعًا شديدًا لا أقدر على وصفه لعظم شدَّته، فما سأله عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ عن العقرب بشيء، كما هي حال كثير من النَّاس في هذا المقام! تنصرف همَّتهم للسُّؤال عن العقرب؛ حجمها، أو لونها، أو من أين أتت؟ ونحو ذلك لكنْ وجَّهه إلى ما يقيه في هذه الحال من سمِّها الموجع وألمه الشَّديد، وأنَّه لو قُدِّر أنَّ عقربًا أو حيَّةً لدغته؛ فإنَّه لا يضرُّه سمُّها.

ولهذا جاء عند التِّرمذيِّ قصَّةٌ نافعة تتعلَّق بالحديث يرويها سهيل بن أبي صالح أحد رواة الحديث، يقول: «فكان أهلنا تعلَّموها فكانوا يقولونها كلَّ ليلة، فلُدغت جارية منهم فلم تجد لها وجعا»[(٣)]، فهذه الجارية لدغتها

---

(١) رواه مسلم (٢٧٠٩).
(٢) رواه التِّرمذيُّ (٣٦٠٤)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٣) المصدر السَّابق.

العقرب ولم تشعر بشيء لكونها قد تحصَّنت بهذا التَّعوُّذ.

فقوله: «**لَمْ تَضُرَّكَ**»، أي: وإنْ لُدغت لا يضرُّك السُّمُّ، ولا يكون له نفوذ مؤثِّر في بدنك، فبالمواظبة عليه كلَّ ليلة يكون العبد محصَّنًا في لياليه بإذن الله عَزَّوَجَلَّ من هذه الهوامِّ وذوات السُّموم، ولو قدِّر أنَّ شيئًا منها لدغه فإنَّها لا تضرُّه.

قوله في الحديث: «**أعوذ**»، أي: ألتجئ، فالاستعاذةُ الالتجاءُ والاعتصامُ، وحقيقتُها: الهرَبُ مِن شيءٍ تَخافُه إلى مَن يَعْصِمُك منه ويَحمِيكَ من شَرِّه، فالعائِذُ بالله قد هَرَب مِمَّا يؤذيه أو يُهلكُه إلى ربِّه ومالكِه، واعتصم به والتجأَ إليه.

والمراد «**بكلمات الله التَّامَّة**»، قيل: هي القرآن الكريم، وقيل: هي كلماته الكونيَّة القدريَّة، والمراد بالتَّامَّات، أي: الكاملات الَّتي لا يَلحقُها نَقصٌ ولا عيبٌ، كما يلحق كلامَ البشَر. والأقرب أنَّ المراد هنا: الكلمات الكونيَّة ولذا يأتي في بعض الأحاديث قوله: «اللَّاتي لا يجاوزهنَّ برٌّ ولا فاجر».

وقوله: «**مِن شرِّ ما خَلقَ**»، أي: مِن كلِّ شرٍّ، في أيِّ مخلوق قام به الشَّرُّ من حيوان أو غيره، إنسيًّا كان أو جِنِّيًّا، أو هامَّةً أو دابَّةً أو ريحًا أو صاعقة، أيَّ نوعٍ كان من أنواع الشَّرِّ.

وفي الحديث دلالةٌ على مشروعية الاستعاذة بصفات الله، وأنَّ الاستعاذة عبادةٌ لا يجوز صرفُها لغير الله، وأنَّ كلامَ الله -ومنه القرآن- ليس بمخلوق، إذ لو كان مخلوقًا لَم يُستعذ به؛ لأنَّ الاستعاذة بالمخلوق لا تجوز بل هي شركٌ بالله.

وقوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**مَنْ قَالَ إِذَا أَمْسَى ثَلَاثَ مَرَّاتٍ**»، من أهل العلم مَن قال: إنَّ هذا دعاءٌ إنَّما يُقال في المساء فقط، وربَّما يُقال: إنَّ الحكمة في أنَّه

يُقال في المساء فقط؛ لأنَّ الغالب أنَّ هذه الحشرات والحيَّات والعقارب تظهر في اللَّيل وتختفي في النَّهار، وأمر آخر: أنَّ الإنسان إذا نام وكان حوله حيَّات وعقارب يُخشى عليه منها؛ لأنَّه لا يشعر بها، وأمَّا إذا كان غير نائم فإنَّه يراها ويشاهدها؛ فالأمر أخفُّ وأيسر، وغالب لدغها في اللَّيل ولهذا خُصَّت هذه الدَّعوة في المساء، قال: «مَنْ قَالَ إِذَا أَمْسَى».

وبعض أهل العلم يقول: لا بأس أن تقولها في جملة أذكار الصَّباح؛ لأنَّ المعنى الَّذي تطلبه بقولها في المساء أيضًا تطلبه في الصَّباح، وعلى كلِّ حال ظاهر الحديث أنَّها تُقال في المساء.

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِفَاطِمَةَ: «**مَا يَمْنَعُكِ أَنْ تَسْمَعِي مَا أُوصِيكِ بِهِ، أَنْ تَقُولِي إِذا أَصْبَحْتِ وَإِذَا أَمْسَيْتِ: يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ، أَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، وَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ**». رواه النَّسائيُّ في الكبرى(١).

هذا حديثٌ عظيم في باب أذكار طرفَيْ النَّهار مشتملٌ على وصيَّة عظيمة، الموصي هو سيِّد ولد آدم -صلوات الله وسلامه وبركاته عليه-، والموصَى بذلك بنته سيِّدة نساء العالمين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وأرضاها وعن الصَّحابة أجمعين؛ فهذه وصيَّة لها شأنٌ عظيم ينبغي لكلِّ مسلمٍ ومسلمة أن يُعنى بها.

قال لها عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**مَا يَمْنَعُكِ أَنْ تَسْمَعِي مَا أُوصِيكِ بِهِ**»، وهذا فيه حثٌّ لها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن تنتبه وأن تعتني بهذه الوصيَّة العظيمة الَّتي يوصيها بها عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

قال: «**أَنْ تَقُولِي إِذَا أَصْبَحْتِ وَإِذَا أَمْسَيْتِ**»، أي: في الصَّباح وفي المساء

(١) رواه النَّسائيُّ في السُّنن الكبرى (١٠٣٣٠)، وصحَّحه الألبانيُّ في السِّلسلة الصَّحيحة (٢٢٧).

«**يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ أَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، وَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ**»، وهذه الكلمة الَّتي جاءت في هذه الوصيَّة والَّتي يُستحبُّ أن تُّقال في الصَّباح وفي المساء هي كلمة تفويض. فيُستحبُّ للمسلم أن يفتتح يومه بالتَّفويض، وأن يبدأ أيضًا مساءه وليله بالتَّفويض؛ تفويض أمره إلى الله.

وقوله: «**يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ، أَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، وَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ**»، تبدأ يومك مفوِّضًا أمرك إلى الله، متبرِّئًا من حول نفسك وقوَّتها، سائلًا ربَّك جلَّ في علاه ألَّا يكلك إلى نفسك؛ لأنَّه لو وكلك إلى نفسك في يومك، أو وكلك إلى نفسك في ليلتك وكلك إلى ضعف وعجز؛ فالتَّوفيق ألَّا يكلك الله إلَّا إليه، والخذلان -والعياذ بالله- أن يُوكل العبد إلى نفسه. ولهذا يُستحبُّ كلَّ يوم أن تبدأ يومك بالتفويض وأنْ تبرأ من حول نفسك وقوَّتها، وأنْ تُعلن ضعفك؛ «**لَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي**» كأنَّك تقول: أنا ضعيف عاجز في كلِّ أوقاتي في ضعف، أبرأ من حول نفسي وقوَّتها، لا حول لي ولا قوَّة إلَّا بك.

قوله: «**فَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ**»، أي: ولا وقتًا يسيرًا، ولا لحظةً يسيرة، فالمراد بطرفة العين: الوقت اليسير؛ ولهذا لا يصلح أن يُضاف إليها (ولا أقلَّ من ذلك)، فهذا من الخطأ، وفيه استدراك على الحديث؛ لأنَّ طرفة العين هي أقلُّ شيء.

قوله: «**أَنْ تَقُولِي إِذَا أَصْبَحْتِ وَإِذَا أَمْسَيْتِ: يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ**»، هذا توسُّل إلى الله بهذين الاسمين العظيمين، ومن أهل العلم مَن يرى أنَّهما اسم الله الأعظم الَّذي اذا دُعي به أجاب، وإذا سُئل به أعطى.

وقوله: «**بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ**»، أي: أطلب منك يا الله متوسِّلًا إليك برحمتك أن تُغيثني، طالبًا منك نجاتي وسلامتي وعافيتي.

وقوله: «**أَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ**»، هذه تتناول جميع شؤونك الدِّينيَّة والدُّنيويَّة، وجميع مصالحك، وأنت بهذا الدُّعاء في الصَّباح وأيضًا في المساء تُقرُّ أنَّ جميع مصالحك متعطِّلة إلَّا إذا يسَّرها الله لك، وغير ناجحة إلَّا إذا وفَّقك الله وأعانك على تحصيلها.

وقوله: «**وَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي**»، أي: إلى فهمي، ولا إلى علمي، ولا إلى قدرتي، ولا إلى مهارتي، ولا إلى خبرتي، إلى آخره، كلُّ هذا لا تكلني إليه، بل لا تكلني إلَّا إليك؛ فعلمي قليل، وقوَّتي ضعيفة، وقدرتي ضعيفة، وكلُّ أحوالي ضعيفة، لا حول لي ولا قوَّة إلَّا بك، فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين.

والإنسان إذا وُكِلَ إلى نفسه يضيع، ومَن اعتمد على غير الله -على نفسه أو على مخلوق من المخلوقات- فهو في ضياع، والمسلم لا يلجأ إلَّا إلى الله، ولا يستعين إلَّا بالله، ولا يفوِّض أموره إلَّا إلى الله، فلا غنى له عن ربِّه طرفة عين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]، فالعبد فيه فقر ذاتيٌّ لسيِّده ومولاه، والله عَزَّوَجَلَّ فيه غنى كامل عن المخلوقات، ولهذا لا غنى للإنسان عن الله طرفة عين، ولو وُكل إلى نفسه ولو لحظةً واحدة ضاع.

فقوله: «**وَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ**»، أي: لا تكلني إلَّا إليك، وإذا فوَّض العبد أمره إلى ربِّه وُفِّق وكُفي وهُدي، كما في دعاء الخروج من المنزل عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**إِذَا خَرَجَ الرَّجُلُ مِنْ بَيْتِهِ، فَقَالَ: بِسْمِ اللهِ تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ**»، قَالَ يُقَالُ حِينَئِذٍ: هُدِيتَ وَكُفِيتَ وَوُقِيتَ، فَتَتَنَحَّى لَهُ الشَّيَاطِينُ، فَيَقُولُ لَهُ شَيْطَانٌ آخَرُ: كَيْفَ لَكَ بِرَجُلٍ قَدْ هُدِيَ وَكُفِيَ وَوُقِيَ». رواه أبو داود[1].

وقال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطَّلاق: ٣]، وقال تعالى:

---

(١) رواه أبو داود (٥٠٩٥)، وصحَّحه الألبانيُّ.

﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزُّمر: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [الزُّمر: ٣٨]، فالَّذي يتوكَّل على الله عَزَّوَجَلَّ ويعتمد تمام الاعتماد عليه ويلجأ إليه تمام الالتجاء يُسدَّد ويُوفَّق ويُعان ويُهدى إلى صراط الله المستقيم، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [آل عمران: ١٠١]

قال الشَّوكانيُّ: في بيان مكان تلك الوصيَّة؛ وصيَّة النَّبيِّ ﷺ لبنته فاطمة فيما تقوله كلَّ صباح ومساء: «والحديث من جوامع الكلم؛ لأنَّ صلاحَ الشَّأن كلِّه يتناول جميعَ أمور الدُّنيا والآخرة، فلا يفرُّ شيء منها؛ فيفوز قائلُ هذا إذا تفضَّل اللهُ عليه بالإجابة بخيرَيْ الدُّنيا والآخرة، مع ما في الحديث من تفويض الأمور إلى الرَّبِّ سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ؛ فإنَّ ذلك من أعظم الإيمان وأجلِّ خصاله وأشرف أنواعه»(١).

(١) تحفة الذَّاكرين للشَّوكانِيِّ (ص١٠٧).

٣٥
أذكار طرفَيْ النَّهار (٣)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ قَالَ حِينَ يُصْبِحُ وَحِينَ يُمْسِي: «سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ» مِائَةَ مَرَّةٍ؛ لَمْ يَأْتِ أَحَدٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ، إِلَّا أَحَدٌ قَالَ مِثْلَ مَا قَالَ أَوْ زَادَ عَلَيْهِ**». رواه مسلم(١).

هذا من أذكار الصَّباح والمساء العظيمة، أن يقول المسلم في صباح كلِّ يوم ومسائه: «**سبحان الله وبحمده**» مائة مرَّة، جمعٌ بين التَّسبيح والتَّحميد. والتَّسبيح: تنزيه لله وتقديس وتبرئة له من كلِّ ما لا يليق به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ممَّا ينافي كماله وعظمته وجلاله، قال الله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصَّافات: ١٨٠]، وقال تعالى: ﴿قَالُوا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ﴾ [يونس: ٦٨]، والحمد: هو إثبات الكمال لله سبحانه.

وقوله: «**سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ**» أي: أسبِّح الله حال كوني حامدًا له؛ فهو تسبيحٌ مع إثبات الكمال لله سبحانه.

قوله: «**لَمْ يَأْتِ أَحَدٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ، إِلَّا أَحَدٌ قَالَ مِثْلَ مَا قَالَ أَوْ زَادَ عَلَيْهِ**»؛ هذا فضلٌ عظيم، وليس معنى قوله: «**أَوْ زَادَ عَلَيْهِ**» أن يقول: سبحان الله وبحمده مائة وعشر مرَّات مثلًا، بل تُعدُّ المائة كما جاءت في الحديث، والزِّيادة تكون بأنواع الأذكار الأخرى المطلقة والمقيَّدة.

فهذا فيه التَّأكيد على أهميَّة العناية بهذا التَّسبيح في الصَّباح مائة مرَّة وفي

(١) رواه مسلم (٢٦٩٢).

المساء مائة مرَّة، والشَّارع له حكمة في هذا العدد، فيعدُّها المرء مائة كما ورد، وإذا ختم المائة وأكملها ولا يزال يرغب في التَّسبيح والتَّهليل والذِّكر؛ فالباب مفتوح للذِّكر المُطلق، لأنَّ هناك ذكرًا مُطلقًا وذكرًا مُقيَّدًا، فالمقيَّد يُؤتى به مقيَّدًا كما جاء بالعدد الَّذي جاء، والذِّكر المطلق لا يُحدُّ بعدد.

وهذا الذِّكر له أهميَّته؛ من جهة عظم الموعود المترتِّب يوم القيامة على المحافظة عليه، ولأنَّ التَّسبيح نُصَّ في القرآن في مواضع على أهمِّيَّة العناية به في الصَّباح والمساء، وقد مرَّ معنا جملةٌ طيِّبة من هذه الآيات الَّتي فيها الأمر تعيينًا وتحديدًا بالتَّسبيح في الصَّباح والمساء، ممَّا يدلُّ على علوِّ شأنه ورفيع قدره وعظيم ثوابه عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ومِن فضائل التَّسبيح بهذا العدد: ما أخبر به النَّبيُّ ﷺ؛ أنَّ مَن قال «**سبحان الله وبحمده**» في يوم مائة مرَّة حُطَّت عنه ذنوبُه ولو كثُرت. ففي الصَّحيح من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**مَنْ قَالَ «سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ» فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ حُطَّتْ خَطَايَاهُ وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ البَحْرِ**»[(١)].

ومن أذكار الصَّباح والمساء: ما رواه أبو داود والتِّرمذيُّ وغيرهما عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ خُبَيْبٍ قَالَ: خَرَجْنَا فِي لَيْلَةٍ مَطِيرَةٍ وَظُلْمَةٍ شَدِيدَةٍ نَطْلُبُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يُصَلِّي لَنَا، قَالَ: فَأَدْرَكْتُهُ، فَقَالَ: «**قُلْ**»، فَلَمْ أَقُلْ شَيْئًا، ثُمَّ قَالَ: «قُلْ»، فَلَمْ أَقُلْ شَيْئًا، قَالَ: «قُلْ»، قُلْتُ: مَا أَقُولُ؟ قَالَ: «**قُلْ**: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] **وَالْمُعَوِّذَتَيْنِ حِينَ تُمْسِي وَتُصْبِحُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ تَكْفِيكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ**»[(٢)].

قوله: «**ليلة مطيرة وظلمةٍ شديدة**»، أي: مطرها غزير وظلمتها شديدة، والغالب في كثير من النَّاس أن يحصل له فيها خوف وقلق، ولهذا فمن فوائد

(١) رواه البخاريُّ (٦٤٠٥)، ومسلم (٢٦٩١).
(٢) رواه أبو داود (٥٠٨٢)، والتِّرمذيُّ (٣٥٧٥)، وحسَّنه الألبانيُّ.

الحديث: أنَّ التَّعليم بالمناسبة أمكن في تمكُّن الفائدة لدى المتلقِّي والسَّامع، فعبد الله بن خُبيب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يذكر أنَّهم كانوا في ليلة مطيرة وشديدة الظُّلمة، وفي مثلها قد يحصل لكثير من النَّاس شيء من المخاوف أو الفزع، فعلَّمهم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بالمناسبة ما يُقال في هذا الموطن ممَّا يكون به وقاية العبد وسلامته.

قوله: «**فَقَالَ: «قُلْ»، فَلَمْ أَقُلْ شَيْئًا، ثُمَّ قَالَ: «قُلْ»، فَلَمْ أَقُلْ شَيْئًا، قَالَ: «قُلْ»، قُلْتُ: مَا أَقُولُ؟**». تكرَّر ذلك ثلاث مرَّات يقول له: (قل)، ولا يدري ماذا يقول؟ لكنْ نفسه تتطلَّع أن يعرف ماذا يقول؟ خاصَّة في هذا الموقف؛ ليلة مظلمة وخوف وقلق، وهو من أساليب التَّشويق الَّتي تكثر في أحاديث النَّبيِّ ﷺ، وهذا من حرصه الدَّاخل في عموم قوله: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التَّوبة: ١٢٨].

فقال: ما أقول؟ قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**قل: قل هو الله أحد، والمعوِّذتين**»، أي: قل أعوذ بربِّ الفلق، وقل أعوذ بربِّ النَّاس؛ وهذه السُّور الثَّلاث يُقال لها «المعوِّذات»، وإنْ كانت سورة الإخلاص ليس فيها تعوُّذ، لكنَّها يُطلق عليها المعوِّذات تغليبًا.

وقوله: «**حين تمسي وتصبح ثلاث مرَّات تكفيك من كلِّ شيء**»، أي: كفاية تامَّة من كلِّ شيء تخافه أو تخشى الضَّرر من جهته، وكذا المخاوف الَّتي تلحق القلب في بعض الأحوال.

وهذه السُّور الثَّلاث لها شأنٌ عظيم؛ فسورة الإخلاص وصفها النَّبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بأنَّها تعدل ثلث القرآن، كما جاء في صحيح مسلم قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**أَيَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَقْرَأَ ثُلُثَ الْقُرْآنِ فِي لَيْلَةٍ؟**» فقالوا: وَكَيْفَ

يَقْرَأُ ثُلُثَ القُرْآنِ فِي لَيْلَةٍ؟ قالَ: «**يَقْرَأُ: قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ؛ فَهِيَ تَعْدِلُ ثُلُثَ القُرْآنِ**»(١)، أي: أنَّ لها هذا الثَّواب، لا أنَّ مَن قرأها يكون قد قرأ ثلث القرآن، أو أنَّه يُستغنى بقراءتها مثلًا ثلاثًا عن قراءة القرآن، وإنَّما هذا بيانٌ لثواب هذه السُّورة ومكانتها وعظيم منزلتها وأنَّها تعدلُ ثلث القرآن.

وقد قال العُلماء في معنى ذلك: أنَّ القرآن يشمل من حيث الجُملة أمورًا ثلاثة: التَّوحيد وبيان أسماء الله وصفاته، والأحكام: الأوامر والنَّواهي، والقصص والأخبار. وسورة قل هو الله أحد أُخلصت لبيان صفة الرَّبِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولهذا تُسمَّى سورة الإخلاص.

وقد جاء في الصَّحيحين من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنَّ النَّبيَّ ﷺ أمَّر رجلًا على سريَّة، فكان يقرأ بهم في الصَّلاة ويختم في كلِّ ركعة بـ«قل هو الله أحد»، فأشكل هذا الأمر على مَن معه من الصَّحابة، فأتوا إلى النَّبيِّ ﷺ وسألوه، فقال لهم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**سَلُوهُ لِأَيِّ شَيْءٍ يَصْنَعُ ذَلِكَ؟**» فسألوه، قال: «**لِأَنَّهَا صِفَةُ الرَّحْمَنِ وَأَنَا أُحِبُّ أَنْ أَقْرَأَ بِهَا**»، فذكر الصَّحابة ذلك للنَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فقال: «**أَخْبِرُوهُ أَنَّ اللهَ يُحِبُّهُ**»(٢). يُستفاد من هذا: أهمِّيَّة محبَّة أسماء الله وصفاته الواردة في القرآن والسُّنَّة، والفرح بسماعها وتلاوتها وفهمها وتدبُّرها.

وأمَّا «**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الفَلَقِ**»، و«**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ**»، ويُقال لهما «المعوِّذتان»؛ لما فيهما من التَّعوُّذ بالله سبحانه؛ التَّعوُّذ بربِّ النَّاس والتَّعوُّذ بربِّ الفلق من الشُّرور والآفات. وقد جاء في فضلهما ما ثبت في صحيح مسلم أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال لعقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**أُنْزِلَ عَلَيَّ آيَاتٌ لَمْ يُرَ مِثْلُهُنَّ قَطُّ الْمُعَوِّذَتَيْنِ**»(٣)؛ فأبلغ ما يكون في التَّعويذ؛ التَّعويذ بهاتين السُّورتين.

---

(١) رواه مسلم (٢٥٩).

(٢) رواه مسلم (٨١٣).

(٣) رواه مسلم (٨١٤).

قوله: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ [الفلق: ١]، أي: الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فالق الحَبِّ والنَّوى، وفالق الإصباح، ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ [الفلق: ٢]، أي: من شرِّ كُلِّ مخلوقٍ قام فيهِ شرٌّ، وهذا يشمل جميع ما خلق الله؛ من إنس وجنٍّ وحيوانات، فيُستعاذ بخالقها، من الشَّرِّ الَّذي فيها، ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ [الفلق: ٣]، أي: من شرِّ ما يكون في اللَّيل حين يغشى النَّاس وتنتشر فيه كثير من الأرواح الشِّرِّيرة والحيوانات المؤذية، ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾ [الفلق: ٤]، أي: السَّواحر اللَّاتي ينفُثن في العقد ويفعلن السِّحر، ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق: ٥]، أي: من شرِّ كلِّ حاسد باشر حسد إنسانٍ؛ فتضمَّنت السُّورة الاستعاذة من جميع أنواع الشُّرور عمومًا وخصوصًا.

وسورة النَّاس: فيها التَّعوُّذ ﴿بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [النَّاس: ١]، ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾ [النَّاس: ٢]، ﴿إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ [النَّاس: ٣]؛ ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾ [النَّاس: ٤]، الَّذي هو الشَّيطان الرَّجيم ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ [النَّاس: ٥]، أي: يلقي الوساوس في صدور النَّاس، وهو أصل الشُّرور كلِّها ومادَّتها، فيحسِّن لهم الشَّرَّ ويريهم إيَّاه في صورة حسنة، وينشِّط إرادتهم لفعله، ويقبِّح لهم الخير ويثبِّطهم عنه، ويريهم إيَّاه في صورة غير صورته، وهو دائمًا بهذه الحال يوسوس ويخنس؛ إذا غفل العبد عن ذكر الله وسوس، وإذا ذكر ربَّه خنس.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والمقصود: الكلام على هاتين السُّورتين وبيان عظيم منفعتهما وشدَّة الحاجة بل الضَّرورة إليهما، وأنَّه لا يستغني عنهما أحد قطُّ، وأنَّ لهما تأثيرًا خاصًّا في دفع السِّحر والعين وسائر الشُّرور، وأنَّ حاجة العبد إلى الاستعاذة بهاتين السُّورتين أعظم من حاجته إلى النَّفس والطَّعام والشَّراب واللِّباس»[١].

(١) بدائع الفوائد (٢/ ١٩٩).

الحاصل: أنَّ هذه السُّور الثَّلاث سورٌ عظيمة الشَّأن جليلة القدر يُستحبُّ للمسلم أن يقرأها يوميًّا؛ ثلاث مرَّاتٍ إذا أصبح، وثلاث مرَّاتٍ إذا أمسى، ويُستحبُّ له كذلك أن يقرأها أدبار الصَّلوات المكتوبة مرَّةً مرَّةً، ويُستحبُّ له أيضًا أن يقرأها عندما يأوي إلى فراشه؛ يقرأها وينفث في يده ويمسح ما استطاع من بدنه، كلُّ ذلك من المواضع الَّتي يُستحبُّ فيها قراءة هذه السُّور الثَّلاث.

وينبغي للعبد عندما يقرأ هذه السُّور وغيرها من الأذكار أن يأتي بها مع الثِّقة بالله، لا على وجه التَّجربة، فليس هذا حال المسلم الواثق بالله؛ بل ينبغي أن يقولها مع الثِّقة بالله وحسن التَّوجُّه إليه وصدق الرَّغبة فيما عنده، فمَن قرأ هذه السُّور الثَّلاث ثلاث مرَّاتٍ في الصَّباح وثلاث مرَّاتٍ في المساء كفته من كلِّ شيء، كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ؛ لا يحتاج الأمر إلى تجربة مجرِّب.

٣٦
أذكار طرفَيِ النَّهار (٤)

عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «سَيِّدُ الِاسْتِغْفَارِ أَنْ تَقُولَ: «اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ بِذَنْبِي فاغْفِرْ لِي؛ فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ»، وَمَنْ قَالَهَا مِنَ النَّهَارِ مُوقِنًا بِهَا فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يُمْسِيَ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَمَنْ قَالَهَا مِنَ اللَّيْلِ وَهْوَ مُوقِنٌ بِهَا، فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ فَهْوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ». رواه البخاريُّ[(١)].

بدأ النَّبيُّ ﷺ هذا الحديث بتعلية شأن هذا الاستغفار، وبيان رفيع مكانته، فوصفه بأنَّه سيِّد الاستغفار، وفي هذا دليلٌ على أنَّه أفضل صيغ الاستغفار؛ لأنَّ السَّيِّد هو المقدَّم على غيره لكمال أوصافه وجمال نعوته. وإنَّما كان هذا الاستغفارُ سيِّدَ الاستغفار وأفضلَه: لما حواه من المعاني العظيمة الجامعة من التَّوحيد، والتَّعظيم لله، والإفراد له بالوحدانيَّة، والبراءة من الحول والقوَّة، والاعتصام به سبحانه، والاعتراف بالضَّعف، والإقرار بالذَّنب، والاعتراف بالنِّعمة، وأنَّ كلَّ نعمةٍ في العبد فهي من الله، وأنَّه المنعم بها، ثمَّ بعد ذلك أتى طلب الغفران.

قوله: «**اللَّهُمَّ**»، هي بمعنى يا الله، حُذِف ياء النِّداء من أوَّلها، وعُوِّضت

(١) رواه البخاريُّ (٦٣٠٦).

بالميم السَّاكنة في آخرها، ولا يُجمع بين العِوض والمُعوَّض، فلا يقال يا اللَّهُمَّ؛ لأنَّ الميم عِوض عن الياء، فلا يُجمع بينها وبين الياء.

و«الله» معناها كما يقول ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أي: «ذو الألوهيَّة والعبوديَّة على خلقه أجمعين»(١). فجمَع هذا الاسم في دلالته بين الألوهيَّة الَّتي هي وصف الرَّبِّ، والعبوديَّة الَّتي هي فعل العبد.

قوله: «**أنت ربِّي لا إله إلَّا أنت**»، هذا جمعٌ بين نوعي التَّوحيد: توحيد الرُّبوبيَّة، وتوحيد الألوهيَّة، «أنت ربِّي» هذا توحيد الرُّبوبيَّة، أي: خالقي ورازقي وموجدي من العدم، والمتصرِّف المدبِّر، الَّذي بيدك الأمر لا شريك لك، «لا إله إلَّا أنت» هذا توحيد الألوهيَّة، أي: أنت المعبود بحقٍّ ولا معبود بحقٍّ سواك.

وقوله: «**خلقتني وأنا عبدك**» هذا تأكيد للنَّوعين، فقوله: «خلقتني» هذا متعلِّق بقوله أنت ربِّي، وقوله: «وأنا عبدك» هذا متعلِّق بلا إله إلَّا أنت، «خلقتني»، أي: أنت الرَّبُّ الخالق المدبِّر لا شريك لك، «وأنا عبدك»، أي: أفردك وحدك بالعبادة والذُّلِّ والخضوع، مثلها قول الله تعالى في سورة الأنعام: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ﴾ [الأنعام: ١٠٢].

قوله: «**وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت**» هذا ميثاقٌ عظيم بين العبد وبين الله يجب على العبد أن يوفي به، نظير قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، هذا عهدٌ بين العبد وبين الله، وميثاقٌ عظيم نعبدك ولا نعبد غيرك، ونستعين بك ولا نستعين بغيرك.

وقوله: «**ما استطعت**»، أي: أنا على ما عاهدتك عليه من لزوم طاعتك

(١) رواه الطَّبريُّ في التَّفسير (١/ ١٢٣).

والقيام بعبادتك والإقبال عليك ما استطعت؛ وهذا فيه أنَّ الأوامر بحسب الاستطاعة ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التَّغابن: ١٦]، «صلِّ قائمًا فإنْ لم تستطع فقاعدًا، فإن لم تستطع فعلى جنب».

وقوله: «**أعوذ بك من شرِّ ما صنعت**» هذا تعوُّذ بالله عَزَّوَجَلَّ من جميع الأعمال السَّيِّئة الَّتي وقعت من العبد وفعلها.

وقوله: «**أبوء لك بنعمتك عليَّ**»، أي: اعترف بأنَّك أنت المنعم المتفضِّل، وأنَّ النِّعمة كلَّها منك وبيدك.

فلو أنَّ العبد أُوتي عُمُر الدُّنيا، وقطع ذلك العمر مستغرقًا في طاعة الله وعبادته ولم يعصِه في لحظة واحدةٍ، ولا لفظةٍ ما أدَّى شكر عُشر معشار نعمه سبحانه؛ بل لو أنفق كلَّ عمره مضاعفًا إلى ما لا نهاية من الأعمار ما أدَّى شكر نعمةٍ واحدة، كيف والشُّكر نعمة تحتاج إلى مثلها من الشُّكر! فلا سبيل إلى تأدية شكر عُشر معشار نعمه إلَّا بالاعتراف بالعجز والتَّقصير، ولهذا جاء في سيِّد الاستغفار «أبوء لك بنعمتك عليَّ وأبوء بذنبي فاغفر لي؛ فإنَّه لا يغفر الذُّنوب إلَّا أنت». ولفظُ النِّعمة وإن كان مفردًا في هذا الدُّعاء لكنَّه مضاف؛ فيعمُّ كلَّ نعمة الظَّاهرة والباطنة من نعمة الإيمان، والوجود من العدم، والسَّمع، والبصر، والعقل، والعلم، والصِّحة، وغير ذلك من النِّعم اللَّاتي أنعم الله بها على عباده.

قوله: «**وأبوء بذنبي**»، أي: اعترف بذنوبي وخطاياي، وأنَّني عبدٌ مذنبٌ ومقصِّر في جنبك يا الله، والاعتراف بالذَّنب بوَّابة التَّوبة ومدخلها العظيم، وهو نعمة عظيمة، والبلاء: عندما يذنب المرء ولا يحسُّ أنَّه مذنب، فيتمادى في الذَّنب، أمَّا مَن إذا أذنب تألَّم قلبه وندم، فهذه أمارة خيرٍ وبوَّابة صلاح وهو أوَّل مراحل التَّوبة.

قوله: «فَاغْفِرْ لِي» هذا السُّؤال، لكن قُدِّم بين يديه التَّوحيد، والعهد بلزوم الطَّاعة، والاستعاذة بالله من الأعمال السَّيِّئة الَّتي فعلها العبد، والاعتراف بالنِّعمة، والاعتراف بالذَّنب.

وقوله: «فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ» هذا فيه اعتقاد العبد، وإيمانه بأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يغفر الذُّنوب مهما عظمت ومهما كبُرت، لا يتعاظمه ذنب أن يغفره ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزُّمر: ٥٣].

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فتضمَّن هذا الاستغفار -أي الَّذي في سيِّد الاستغفار- الاعترافَ من العبد بربوبيَّة الله وإلهيَّته وتوحيده، والاعتراف بأنَّه خالقُه، العالِمُ به؛ إذ أنشأه نشأةً تستلزمُ عجزَه عن أداء حقِّه وتقصيره فيه، والاعتراف بأنَّه عبدُه الَّذي ناصيتُه بيده وفي قبضتِه، لا مهربَ له منه، ولا وليَّ له سواه، ثمَّ التزامُ الدُّخول تحت عهده -وهو أمره ونهيه- الَّذي عَهدَه إليه على لسان رسوله ﷺ، وأنَّ ذلك بحسب استطاعتي لا بحسب أداء حقِّك، فإنَّه غير مقدور للبشر، وإنَّما هو جهد المقلِّ وقدر الطَّاقة، ومع ذلك فأنا مصدِّقٌ بوعدك الَّذي وعدته لأهل طاعتك بالثَّواب ولأهلِ معصيتك بالعقاب، فأنا مقيمٌ على عهدِك مُصدِّقٌ بوعدِك، ثمَّ أفزع إلى الاستعاذة والاعتصام بك من شرِّ ما فرَّطتُ فيه من أمركَ ونهيكَ، فإنَّك إن لَم تعِذْني من شرِّه وإلَّا أحاطت بي الهلكة، فإنَّ إضاعةَ حقِّك سببُ الهلاكِ، وأنا أُقرُّ لك وألتزم بنعمتك عليَّ وأقِرُّ وألتزم وأنجع بذنبي، فمنك النِّعمةُ والإحسانُ والفضلُ، ومنِّي الذَّنبُ والإساءةُ، فأسألكَ أن تغفر لي بمحوِ ذنبي، وأن تُعفيني من شرِّه، إنَّه لا يغفر الذُّنوبَ إلَّا أنتَ، فلهذا كان هذا الدُّعاءُ سيِّدَ الاستغفار»(١).

(١) مدارج السَّالكين (١/ ٢٣٦).

قوله: «**وَمَنْ قَالَهَا مِنَ النَّهَارِ مُوقِنًا بِهَا فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يُمْسِيَ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَمَنْ قَالَهَا مِنَ اللَّيْلِ وَهْوَ مُوقِنٌ بِهَا، فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ فَهْوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ**»، فيه أنَّ قائل هذا الدُّعاء ليس بينه وبين الجنَّة إلَّا أن يموت، وأنَّ الجنَّة قريبة منه، ومثله يأتي في كثير من الدَّعوات والأذكار والأعمال الصَّالحة، كقوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في آية الكرسيِّ: «**مَن قرأ آية الكرسيِّ دُبر كُلِّ صلاةٍ مكتوبة، لم يكن بينه وبين الجنَّة إلَّا أن يموت**»، فهذا يدلُّ على أنَّ الجنَّة قريبة، ليس بين العبد وبينها إلَّا أن يموت؛ ففيه شاهد للحديث الصَّحيح «الجنَّة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله، والنَّار مثل ذلك»[١].

قوله: «**موقنًا بها**» اشترط اليقين؛ **وهذا يدلُّ على أنَّ مَن يقول هذه الكلمات على قسمين:**

١- قسم: يُردِّد ألفاظًا لا يدري ما هي، وربَّما أنَّه ينقضها ويفعل ما يضادُّها.

٢- وقسم: يقولها عن يقين، واليقين: انتفاء الشَّكِّ، مثله ما قال ﷺ في الشَّهادتين: «**أَشْهَدُ أَنْ لا إلَه إلَّا اللهُ وأَنِّي رَسولُ اللهِ، لا يلقَى اللهَ بهما عبدٌ غيرَ شاكٍّ فيهما إلَّا دخَلَ الجنَّة**»، فاشترط اليقين من أجل دخول الجنَّة، قال «غير شاكٍّ فيهما»، ومثله قول النَّبيِّ ﷺ لأبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**مَنْ لَقِيتَ مِنْ وَرَاءِ هَذَا الْحَائِطِ يَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مُسْتَيْقِنًا بِهَا قَلْبُهُ فَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ**»[٢]، والله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ [الحجرات: ١٥]، أي: أيقنوا ولم يشكُّوا. فهذه مسألة مهمَّة تتعلَّق بالأذكار؛ أن يستحضر العبد معانيها، وأن يُحقِّق ما تدلُّ عليه من الإيمان؛ لينال هذا الموعود العظيم والثَّواب الجزيل الَّذي أخبر به صلوات الله وسلامه عليه.

(١) رواه البخاريُّ (٦٤٨٨).
(٢) رواه مسلم (٣١).

وهذا الحديث فيه تعليمٌ للمسلم كيف يتوسَّل إلى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بين يدي دعائه ومناجاته؛ بأن يتوسَّل إلى الله بتوحيده، وبمحبَّته لدينه، وبالتزامه بشرعه، وباعترافه بنعمته، وبإقراره بالذَّنب، وباعترافه بأنَّه لا يغفر الذُّنوب إلَّا هو؛ هذه كلُّها وسائل عظيمة، فكيف يهمل بعض النَّاس هذه التوسُّلات العظيمة المُباركة المشروعة! ويشتغلوا بتوسُّلاتٍ لم تُشرع ولا دليل عليها في كتاب الله ولا في سنَّة نبيِّه ﷺ.

وفيه أنَّ من آداب الدُّعاء: أن يقدِّم الدَّاعي بين يدي دعائه الحمد والثَّناء على الله، والاعتراف بالعبادة، والخضوع لله، والتَّذلُّل بين يديه، والاعتراف بالذَّنب والخطأ والتَّقصير؛ فكلَّما كان الدُّعاء كذلك كان أكمل.

٣٧
أذكار طرفَيْ النَّهار (٥)

إنَّ من أذكار طرفَيْ النَّهار العظيمة: ما رواه مسلم في صحيحه عَنْ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعودٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قالَ: «كَانَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ إِذَا أَمْسَى قَالَ: «**أَمْسَيْنَا وَأَمْسَى الْمُلْكُ لِلهِ، وَالْحَمْدُ لِلهِ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، رَبِّ أَسْأَلُكَ خَيْرَ مَا فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ وَخَيْرَ مَا بَعْدَهَا، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ وَشَرِّ مَا بَعْدَهَا، رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكَسَلِ وَسُوءِ الْكِبَرِ، رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابٍ فِي النَّارِ وَعَذَابٍ فِي الْقَبْرِ**»، وَإِذَا أَصْبَحَ قَالَ ذَلِكَ أَيْضًا: «**أَصْبَحْنَا وَأَصْبَحَ الْمُلْكُ لِلهِ**»[(١)].

قوله: «**أمسينا**» هذا فيه استشعار العبد للنِّعمة العظيمة والمنَّة الجسيمة أن جعله الله من أهل المساء وتفضَّل عليه بذلك؛ أن دخل في المساء وكان من أهله، فمن النَّاس مَن يصبح ولا يمسي، ومنهم مَن يمسي ولا يصبح، فمَن كان من أهل المساء بالصِّحَّة والعافية عليه أن يستشعر حصول هذه النِّعمة له بفضل الله ومنِّه تَبَارَكَوَتَعَالَى.

وقوله: «**وأمسى الملك لله**»، هذا فيه تجديد الاعتراف بأنَّ الملك كلَّه لله عَزَّوَجَلَّ والإقرار له جَلَّوَعَلَا بذلك.

قوله: «**والحمد لله**»، هذا فيه حمد الله على النِّعمة بعد استشعار العبد لها.

قوله: «**لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على**

(١) رواه مسلم (٢٧٢٣).

كلِّ شيءٍ قدير»، هذه كلمة التَّوحيد، وقد أُتبعت بأمرين: التَّأكيدِ على معناها ومدلولها، وذكرِ شيءٍ من براهينها ودلائلها؛ فقوله: «**وحده لا شريك له**»، هذا فيه التَّأكيد على معناها ومدلولها، وقوله: «**له الملك وله الحمد وهو على كلِّ شيءٍ قدير**»، هذا ذكر لبراهين التَّوحيد ودلائله.

قوله: «**ربِّ أسألك خير ما في هذه اللَّيلة**»، هذا هو المطلوب وما تقدَّم وسائل بين يديه، أي: أسألك خير ما أنزلته هذه اللَّيلة من منن وعطايا وبركات دينيَّة ودنيويَّة، «**وخير ما بعدها**»، أي: من اللَّيالي والأيَّام.

وقوله: «**وأعوذ بك من شرِّ ما في هذه اللَّيلة**»، أي: من كلِّ شرٍّ كائن وواقع في هذه اللَّيلة، «**وشرِّ ما بعدها**»، أي: من اللَّيالي والأيَّام.

وتأمَّل عظم شأن هذا الدُّعاء؛ وأنت مُقبل على ليلة ولا تدري ما الَّذي سيحصل لك فيها؟ وما أنت مقبل عليه فيها؛ حياة أو موت، هداية أو ضلال، غنى أو فقر، عزٌّ أو ذلٌّ، الأمر بيد الله ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾ [الرَّحمن: ٢٩]، فتبدأ بتفويض الأمر لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في حصول الخير فيها والوقاية من الشَّرِّ.

قوله: «**ربِّ أعوذ بك من الكسل**»، الكسل: هو عدم انبعاث النَّفس للقيام بمصالح المرء الدِّينيَّة والدُّنيويَّة مع القدرة عليها، وبه تتعطَّل مصالح المرء، فالتَّعوُّذ بالله من الكسل وظيفةٌ يوميَّة في كلِّ صباح ومساء، ليسْلم المرء من الكسل ولينهض بمصالحه. والكسل قد يُقعد الإنسان عن العمل من أساسه، أو يقعده عن الإتيان به على تمامه وكماله؛ فقد يكسل فلا يعمل، وقد يكسل ويعمل لكنْ بضعفٍ ووهن، وكلُّه ممَّا يُتعوَّذ بالله منه.

قوله: «**وسوء الكبر**»، أي: ما يلحق الإنسان في كِبره من الخرَف عندما يُردُّ إلى أرذل العمر، بل ربَّما ذهاب العقل. فتضمَّن هذا التَّعوُّذ سؤال الله أن يُمتِّعه

في كبره وهرمه بسلامة فكره وعقله، ليكون ممَّن قال فيهم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**خيرُكُم مَنْ طَالَ عُمْرُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ**»(١)، لا أن يكون كبره على فساد في عقله، وخرَف في أمورٍ باطلة، وأشياء تؤذيه وتؤذي مَن حوله. ولهذا يحتاج العبد أن يُلحَّ على الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أن يجعل كبره على خير، وأن يجعل خواتيمه على خير. ومثله قوله في حديث آخر: «**وأَعُوذُ بكَ مِن أنْ أُرَدَّ إلى أرْذَلِ العُمُرِ**»، أي: وما يكون فيه من الأمور الَّتي تسوء الإنسان.

قوله: «**ربِّ أعوذ بك من عذابٍ في النَّار وعذاب في القبر**»، خَصَّ هذين العذابين لأنَّهما أشدُّ العذاب؛ أمَّا عذاب القبر فهو أوَّل منازل الآخرة، وإذا نجا المرء من عذاب القبر نجا ممَّا بعده، وقد جاء في السُّنَّة أحاديث عديدة في التَّعوُّذ بالله من عذاب القبر، وأنَّ عذاب القبر حقٌّ.

الحاصل أنَّ هذا ذكرٌ عظيم ووِردٌ مبارك كان النَّبيُّ ﷺ يقوله مواظبًا عليه كلَّ صباحٍ وكلَّ مساء.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُعَلِّمُ أَصْحَابَهُ يَقُولُ: «**إِذَا أَصْبَحَ أَحَدُكُمْ فَلْيَقُلْ: «اللَّهُمَّ بِكَ أَصْبَحْنَا، وَبِكَ أَمْسَيْنَا، وَبِكَ نَحْيَا وَبِكَ نَمُوتُ، وَإِلَيْكَ النُّشُورُ**»، وَإِذَا أَمْسَى فَلْيَقُلْ: «**اللَّهُمَّ بِكَ أَمْسَيْنَا، وَبِكَ أَصْبَحْنَا، وَبِكَ نَحْيَا وَبِكَ نَمُوتُ، وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ**». رواه التِّرمذيُّ وابن ماجه والبخاريُّ في الأدب المفرد، والنَّسائيُّ(٢).

هذا أيضًا من الأذكار العظيمة الَّتي يُشرع للمسلم أن يقولها كلَّ صباحٍ وكلَّ مساء، وهو قائم على الاعتراف بالنِّعمة واستشعار المنَّة واستحضار العاقبة،

---

(١) رواه بنحوه التِّرمذيُّ (٢٣٢٩)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٢) رواه والتِّرمذيُّ (٣٣٩١)، وابن ماجه (٣٨٦٨)، والبخاريُّ في الأدب المفرد (١١٩٩)، والنَّسائي في السُّنن الكبرى (١٠٣٢٣)، وصحَّحه الألبانيُّ.

فهو قائمٌ على استحضار المرء منَّة الله عليه بإدراك الصَّباح وإدراك المساء، مقرًّا أنَّ حياته وموته بيد الله، وأنَّه طوع تدبير الله وتصريفه مع استشعار المآل والمصير إليه تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

قوله: «**اللَّهمَّ بك أصبحنا**» بك، أي: بتيسيرك ومنك يا الله، «**أصبحنا**»: أدركنا الصَّباح وكنَّا من أهله، فهذه منَّتك يا الله وفضلك، «**وبك أمسينا**»، أي: أدركنا المساء، فهذا فيه اعتراف العبد بالمنَّة وفضل الله عليه. والباء المتكرِّرة في هذه الجمل باء الاستعانة، فهو في كلِّ ذلك مستعينٌ بالله ملتجئٌ إليه عَزَّوَجَلَّ.

قوله: «**وبك نحيا وبك نموت**»، أي: لك مماتنا ومحيانا ونحن في ذلك طوع تدبيرك يا الله، فالحياة بيدك، والموت بيدك، ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾ [عبس: ٢١-٢٢].

ولمَّا كانت القومة من النَّوم شبيهةً بالبعث والنُّشور، قال: في خاتمته «**وإليك النُّشور**» للمناسبة والتَّشابه.

قال: «**وإذا أمسى، فليقل: اللَّهمَّ بك أمسينا وبك أصبحنا وبك نحيا وبك نموت وإليك المصير**»، أي: بمنِّك وفضلك وتيسيرك.

ولمَّا كان المساء يعقبه النَّوم الَّذِي هو شبيهٌ بالموت، بل هو موت كما في الحديث: «الحمد لله الَّذي أحيانا بعد ما أماتنا»، ناسب أن يُقال في المساء «**وإليك المصير**»، فالمصير هو المرجع إلى الله عَزَّوَجَلَّ، والمرجع يكون بدايته الموت، فللمناسبة أيضًا قال في خاتمته: «وإليك المصير».

وقوله في أوَّله: «**كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُعَلِّمُ أَصْحَابَهُ يَقُولُ**»، هذا فيه كمال نصحه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وحرصه على التَّعليم ونفع النَّاس ما ينفعهم في دينهم ودنياهم وذكرهم لربِّهم ومولاهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وسيأتي معنا أحاديث عديدة

في باب الذِّكر والدُّعاء أنَّ الصَّحابة يأتون إليه ﷺ ويسألونه أن يعلِّمهم شيئًا يذكرون الله به، وشيئًا يدعون الله به، فكان يُعلِّمهم صلوات الله وسلامه عليه، بل جاء في بعض الدَّعوات والأذكار يقول الصَّحابة: «كان يعلِّمنا إيَّاها كما يعلِّمنا السُّورة من القرآن»، وهذا يدلُّنا على ضرورة العناية بالأذكار النَّبويَّة بألفاظها المأثورة عنه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ دون زيادة أو تغيير؛ لأنَّ تغيير اللَّفظ قد يُغيِّر المعنى، وبعض النَّاس قد يجتهد في زيادة لفظةٍ في الدُّعاء من نفسه فتغيِّر المعنى أو ربَّما تُضْعِفه، فمثلًا: بعض النَّاس يقول: «أستغفر الله العظيم من كُلِّ ذنبٍ عظيم»، يريد أنْ يكمل السَّجع فيفوِّت على نفسه كمال الاستغفار، حيث خصَّ طلب المغفرة للذَّنب العظيم فقط.

الحاصل أنَّ بعض النَّاس قد يجتهد اجتهادًا يؤثِّر على الدُّعاء إمَّا بضعفه، أو بتغيُّر معناه، أو بنقص مقصوده، فلماذا يُدخل نفسه في هذه المداخل ويفوِّت عليها كمال الدَّعوات النَّبويَّة الَّتي جاءت عن النَّبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ المعصوم من الخطأ والزَّلل! المشتملة على غاية المطالب وأجلِّ المقاصد.

فينبغي على المسلم أن يعوِّد نفسه على التَّقيُّد بالدَّعوات المأثورة عن النَّبيِّ ﷺ دون أن يزيد فيها، وإن دعته نفسه لزيادةٍ يرى أنَّها جميلة أو مفيدة أو حسنة فليتركها؛ فما صحَّ عن النَّبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فيهِ الكفايةُ والكمال والوفاء.

وقد يختار المرء لنفسه صيغةً معيَّنةً من الدُّعاء يرى أنَّ فيها تحقيق سعادته في الدُّنيا والآخرة، ويخفى عليه ما قد تتضمَّنه من شرٍّ أو خطر إمَّا في الدُّنيا أو الآخرة، بينما الأدعية النَّبويَّة ليس فيها إلَّا الخير والصَّلاح والسَّلامة في الدُّنيا والآخرة، روى مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنَّ رسول الله ﷺ عَادَ رَجُلًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ قَدْ خَفَتَ فَصَارَ مِثْلَ الْفَرْخِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «هَلْ كُنْتَ تَدْعُو بِشَيْءٍ أَوْ تَسْأَلُهُ إِيَّاهُ؟» قَالَ: «**نَعَمْ؛ كُنْتُ أَقُولُ: اللَّهُمَّ مَا كُنْتَ**

مُعَاقِبِي بِهِ فِي الآخِرَةِ فَعَجِّلْهُ لِي فِي الدُّنْيَا»، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**سُبْحَانَ اللهِ لَا تُطِيقُهُ -أَوْ لَا تَسْتَطِيعُهُ- أَفَلَا قُلْتَ اللَّهُمَّ آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**»، قَالَ: فَدَعَا اللهَ لَهُ فَشَفَاهُ[1]. فجمع له صلوات الله وسلامه عليه في هذا الدُّعاء العظيم الَّذي أرشده إليه بين خيري الدُّنيا والآخرة والسَّلامة فيهما من جميع الشُّرور.

---

(١) رواه مسلم (٢٦٨٨).

٣٨
أذكار طرفَيْ النَّهار (٦)

إنَّ من الأدعية العظيمة المأثورة في الصَّباح والمساء: ما رواه التِّرمذيُّ وأبو داود عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ قَالَ: «**يَا رَسُولَ الله مُرْنِي بِكَلِمَاتٍ أَقُولُهُنَّ إِذَا أَصْبَحْتُ وَإِذَا أَمْسَيْتُ**»، قَالَ: «**قُل: «اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ رَبَّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكَهُ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي، وَشَرِّ الشَّيْطَانِ وَشِرْكِهِ**»، وَفِي رِوَايَةٍ أُخرَى: «**وَأَنْ أَقْتَرِفَ عَلَى نَفْسِي سُوءاً، أَوْ أَجُرَّهُ إِلَى مُسْلِمٍ**»، قَالَ: «**قُلْهَا إِذَا أَصْبَحْتَ وَإِذَا أَمْسَيْتَ وَإِذَا أَخَذْتَ مَضْجَعَكَ**»(١).

قوله: «**وَشِرْكِهِ**»، أي: مَا يَدْعُو إِلَيْه مِن الشِّرْك، ويُرْوَى بفَتْح الشِّين وَالرَّاء «**وَشَرَكِهِ**»، أي: حَبَائِله.

هذا حديثٌ عظيم فيما يُشرع أن يُقال في الصَّباح والمساء وعندما يأوي المرء إلى فراشه لينام؛ فهو يقال ثلاث مرَّات: مرَّة في الصَّباح، ومرَّة في المساء، ومرَّة عندما يأوي المرء إلى فراشه.

ولنتأمَّل هنا قول أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**يَا رَسُولَ الله مُرْنِي بِكَلِمَاتٍ أَقُولُهُنَّ إِذَا أَصْبَحْتُ وَإِذَا أَمْسَيْتُ**»، وأبو بكر -كما لا يخفى- هو خير الأمَّة وأعلمها وأفقهها -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه- ومع هذا العلم والفقه والخيريَّة يطلب من النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يُعلِّمه شيئًا يقوله إذا أصبح وإذا أمسى! قارن هذا بما يفعله مَن يكتبون

(١) رواه أبو داود (٥٠٦٧)، والتِّرمذيُّ (٣٣٩٢)، وصحَّحه الألبانيُّ.

للنَّاس أورادًا يخترعونها وينشئونها ويضعون لها أعدادًا في الصَّباح وفي المساء وعند النَّوم إلى غير ذلك، هكذا إنشاءً من عقولهم واختراعهم حدَثًا في دين الله، وإشغالًا للعوامِّ بما لم يُنزل به الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ سلطانًا، لتدرك الفرق بين أئمَّة الهدى وغيرهم؛ فإنَّ أئمَّة الهدى أتباعٌ للهدى وأتباع لإمام الهدى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ومَن سواهم أتباعٌ لعقولهم وآرائهم وتخرُّصاتهم وظنونهم.

فصدِّيق الأمَّة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه وهو مَن هو، جاء إلى النَّبيِّ ﷺ وقال: «**مرني بكلمات أقولهنَّ إذا أصبحت وإذا أمسيت**»، وفي الصَّحيحين أَنَّهُ قَالَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: «**عَلِّمْنِي دُعَاءً أَدْعُو بِهِ فِي صَلَاتِي**»، قَالَ: «**قُلِ اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَبِيرًا وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ وَارْحَمْنِي إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**»(١).

وهكذا غيره من الصَّحابة في أدعيةٍ وأذكار كثيرة يأتون إلى النَّبيِّ ﷺ ويقولون علِّمنا، ثمَّ يأتي أناس في قرون متأخِّرة يكتبون للنَّاس أشياء من عقولهم ينشرونها بين العوامِّ، لتُقال في الصَّباح وفي المساء وعند النَّوم وعند الدُّخول وعند الخروج إلى آخره، فأماتوا بذلك سننًا وأحيوا بدعًا ما أنزل الله بها من سلطان.

وقوله: «**أَقُولُهُنَّ إِذَا أَصْبَحْتُ وإِذَا أَمْسَيتُ**»، هذا يفيد أنَّه متقرِّرٌ في نفوس الصَّحابة أنَّ وقت الصَّباح الباكر، والمساء الَّذي هو آخر النَّهار، وقت ذكرٍ ودعاء؛ يُشغَل بالذِّكر والدُّعاء وحُسن الالتجاء إلى الله، يدركون ذلك وهو متقرِّرٌ عندهم، ولذا طلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من النَّبيِّ ﷺ أن يُعلِّمه شيئًا يقوله في هذين الوقتين.

قوله: «**قُل: «اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ رَبَّ**

---

(١) رواه البخاريُّ (٨٣٤)، ومسلم (٢٧٠٥).

كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكَهُ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ»؛ هذه كلُّها توسُّلات بين يدي مطلوبٍ عظيم.

أوَّل هذه التَّوسُّلات قوله: «**اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ**»، أي: موجدهما ومبدعهما وخالقهما، تفرَّدتَ بذلك وحدك يا الله.

وقوله: «**عَالِمِ الغَيْبِ والشَّهَادَةِ**»، أي: يا مَن أحطت علمًا بكلِّ شيء ووسع علمك كلَّ شيء، وقوله: «عالم الغيب»، أي: بالنِّسبة لنا، أمَّا الله عَزَّوَجَلَّ فقد أحاط علمًا بكلِّ شيء، الغيب عنده شهادة، والسِّرُّ عنده علانية، لا تخفى عليه خافية.

وقوله: «**ربَّ كلِّ شَيْء**»، الرَّبُّ هو: الخالق المدبِّر.

وقوله: «**ومليكه**»، أي: مالك كلِّ شيء فالملك كلُّه بيد الله.

وقوله: «**أشهد أن لا إله إلَّا أنت**» هذه شهادة التَّوحيد، وأغلب الأذكار والأدعية المأثورة تتضمَّن هذه الكلمة العظيمة؛ لأنَّها عماد الدِّين وأساسه الَّذي عليه قيامه.

قوله: « **أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي، وَشَرِّ الشَّيْطَانِ وَشِرْكِهِ، وَأَنْ اقْتَرِفَ عَلَى نَفْسِي سُوءًا أَوْ أَجُرَّه إِلَى مُسْلِم**»، هذا هو المطلوب؛ وهو أربعة أشياء جاء التَّعوُّذ بالله منها: التَّعوُّذ من شرِّ النَّفس، والتَّعوُّذ من شرِّ الشَّيطان وشركه، والتَّعوُّذ من أن يقترف على نفسه سوءًا، والتَّعوُّذ من أن يجرَّ السُّوء إلى أحد المسلمين.

وقد جمع هذا التَّعوُّذ بين مصدري الشَّرِّ ونتيجتيه؛ فإنَّ قوله: «أعوذ بك من شرِّ نفسي وشرِّ الشَّيطان»؛ **هذا تعوُّذ من مصدري الشَّرِّ:**

الأوَّل: النَّفس الأمَّارة بالسُّوء؛ فإنَّها تأمر صاحبها بالسُّوء و تدفعه إلى الشَّرِّ

﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ﴾ [يوسف: ٥٣]، ولهذا يحتاج العبد إلى أن يكثر من التَّعوُّذ بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ من شرِّ هذه النَّفس.

والثَّاني: شرُّ الشَّيطان؛ فهو منبع الشُّرور وأساسها الدَّاعي إلى كلِّ شرٍّ وفساد.

وقوله: «**من شرِّ الشَّيطان وشِرْكِه**»، أي: ما يدعو إليه من الشِّرك، ﴿إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦]، أي: كفَّارًا مشركين.

وفي رواية «**شَرَكِه**»، والشَّرَك، أي: الحبائل والمصائد الَّتي ينصبها الشَّيطان ليصطاد بها النَّاس ليخرجهم من الدِّين وليوقعهم فيما يُسخط الله ربَّ العالمين، وفي الحديث قال النَّبيُّ ﷺ: «إنَّ الشَّيطان قاعدٌ لابن آدم بأطرقه»[(١)]، أي: جالس له في كلِّ طريق يسلكه؛ يضع مصائده ليحرمه من الطَّاعة، أو يوقعه في المعصية.

وقوله: «**وَأَنْ اقْتَرِفَ عَلَى نَفْسِي سُوءًا أَوْ أَجُرَّه إِلَى مُسْلِمٍ**» هاتان نتيجتا الشَّرِّ؛ **لأنَّ الشَّرَّ الَّذي منبعه النَّفس الأمَّارة والشَّيطان يُفضي إلى نتيجتين:**

الأُولى: أن يقترف على نفسه سوءًا؛ باقتراف المعاصي وارتكاب الخطايا والآثام.

والثَّانية: أن يجرَّ هذا السُّوء إلى أحد من المسلمين بإيذائه أو بدعوته إلى شرٍّ.

فالحاصل أنَّ هذا تعوُّذٌ عظيم من أمورٍ أربعة هما مصدرا الشَّرِّ ونتيجتاه. قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فذَكَرَ -أي: النَّبيُّ ﷺ- مَصْدَرَي الشَّرِّ وهما: النَّفسُ والشَّيطان، وذَكَر مَوْرِدَيْه ونِهَايَتَيْه وهما عَوْدُه على نفسه أو على أخيه المسلم؛

(١) رواه أحمد (١٥٩٥٨)، والنَّسائيُّ (٣١٣٤)، وصحَّحه الألبانيُّ.

فجمع الحديثُ مصادرَ الشَّرِّ ومَوارِدَه في أوجز لفظه وأخصره وأجمعه وأبينه».

اهـ كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١).

ثمَّ إنَّ في هذا الحديث فائدة عظيمة من جهة الارتباط بين توحيدي الرُّبوبيَّة والعبادة؛ وتوحيد الرُّبوبيَّة يُعَدُّ بوَّابةً ومدخلًا لتوحيد العبادة؛ لأنَّ إقرار العبد بأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ هو وحده فاطرُ السَّموات والأرض وربُّ كلِّ شيءٍ ومليكه وعالمُ الغيب والشَّهادة؛ يوجب أن تُخلَص له العبادة وأن يُفرَد بها وحده دون سواه؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَأَنَاْ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢]، وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١-٢٢]، أي: لا تجعلوا لله شركاء في العبادة وأنتم تعلمون أنَّه لا خالق لكم غير الله، فكما أنَّه سبحانه تفرَّد وحده بالخلق، والرِّزق والمُلك والتَّدبير؛ فالواجب أن يُفرَد وحده بالعبادة.

وهكذا في الحديث ذكر أوَّلًا معاني الرُّبوبيَّة: «**فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرضِ، عَالِمَ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، رَبَّ كُلِّ شَيءٍ وَمَلِيكَهُ**»، ثمَّ ذكر بعد ذلك توحيد العبادة: «**أَشْهَدُ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ**»، أي: أنَّك المعبود بحقٍّ ولا معبود بحقٍّ سواك، أُخلص لك ديني وأُفردك وحدك بالعبادة، كما أنَّك وحدك تفرَّدت بالخلق والإيجاد لا شريك لك.

ولهذا فإنَّ هذه الأذكار النَّبويَّة والمحافظة عليها تُجدِّد التَّوحيد؛ فلا يزال العبد بهذه الأذكار يُجدِّد توحيده وإيمانه وإسلامه، وفي الحديث يقول النَّبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**إِنَّ الإِيمَانَ لَيَخلَقُ فِي جَوْفِ أَحَدِكُم كَمَا يَخْلَقُ الثَّوبُ؛ فَاسْأَلُوا**

---

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٢٠٩).

اللهَ أَنْ يُجَدِّدَ الْإِيمَانَ فِي قُلُوبِكُمْ»[(١)].

وأعظم ما يجدِّد التَّوحيد تكرار كلمة التَّوحيد «لا إله إلَّا الله»، تلك الكلمة العظيمة الَّتي جعلها إبراهيم الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ باقيةً في عقبه يتوارثها الأنبياء وأتباعُهم بعضهم عن بعض، وهي الَّتي ورَّثها إمام الحنفاء محمَّد ﷺ لأتباعه إلى يوم القيامة، وهذا سرُّ تكرارها وكثرتها في أذكار الصَّباح والمساء، وأذكار الصَّلوات، وأذكار النَّوم وغيرها من الأذكار المأثورة عن النَّبيِّ ﷺ.

ومن ذلكم ما رواه أبو داود وابن ماجه عَنْ أَبِي عَيَّاشٍ الزُّرَقِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: **«مَنْ قَالَ إِذَا أَصْبَحَ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»؛ كَانَ لَهُ عِدْلُ رَقَبَةٍ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَكُتِبَ لَهُ عَشْرُ حَسَنَاتٍ، وَحُطَّ عَنْهُ عَشْرُ سَيِّئَاتٍ، وَرُفِعَ لَهُ عَشْرُ دَرَجَاتٍ، وَكَانَ فِي حِرْزٍ مِنَ الشَّيْطَانِ حَتَّى يُمْسِي، وَإِنْ قَالَهَا إِذَا أَمْسَى كَانَ لَهُ مِثْلُ ذَلِكَ حَتَّى يُصْبِحَ»**[(٢)].

هذا الحديث فيه فضل قول: «**لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كلِّ شيءٍ قدير**» في الصَّباح وفي المساء، فيه قولها مرَّةً واحدة، وجاء في بعض الأحاديث عشر مرَّات، وفي بعضها مائة مرَّة؛ فهذا ميدان منافسة، فأفضلها مائة مرَّة، والعشر مرَّات يترتَّب عليها فضلٌ العظيم، ولا أقلَّ من أن يقولها المسلم مرَّةً واحدة في أوراد الصَّباح وفي أوراد المساء؛ ليفوز بهذا الموعود العظيم: «**كَانَ لَهُ عِدْلُ رَقَبَةٍ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَكُتِبَ لَهُ عَشْرُ حَسَنَاتٍ، وَحُطَّ عَنْهُ عَشْرُ سَيِّئَاتٍ، وَرُفِعَ لَهُ عَشْرُ دَرَجَاتٍ، وَكَانَ فِي حِرْزٍ مِنَ الشَّيْطَانِ**».

---

(١) رواه الطَّبرانيُّ في المعجم الكبير (١٤٦٦٨)، والحاكم في المستدرك (٥)، وصحَّحه الألبانيُّ في السِّلسلة الصَّحيحة (١٥٨٥)، وفي صحيح الجامع (١٥٩٠).

(٢) رواه أبو داود (٥٠٧٧)، وابن ماجه (٣٨٦٧)، وصحَّحه الألبانيُّ.

٣٩
أذكار طرفَيْ النَّهار (٧)

عَنْ ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قالَ: لَمْ يَكُنْ رَسُولُ الله ﷺ يَدَعُ هَؤُلَاءِ الدَّعَوَاتِ حِينَ يُمْسِي وَحِينَ يُصْبِحُ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ فِي دِينِي وَدُنْيَايَ وَأَهْلِي وَمَالِي، اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَاتِي، وَآمِنْ رَوْعَاتِي، اللَّهُمَّ احْفَظْنِي مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ وَمِنْ خَلْفِي، وَعَنْ يَمِينِي وَعَنْ شِمَالِي، وَمِنْ فَوْقِي، وَأَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ أَنْ أُغْتَالَ مِنْ تَحْتِي**». رواه أبو داود وابن ماجه[(١)].

هذا من الأوراد العظيمة المأثورة عن النَّبيِّ ﷺ في الصَّباح والمساء، يقول ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «لَمْ يَكُنْ رَسُولُ الله ﷺ يَدَعُ هَؤُلَاءِ الدَّعَوَاتِ حِينَ يُمْسِي وَحِينَ يُصْبِحُ»، أي: أنَّه مواظب عليها يوميًّا في الصَّباح وفي المساء، والله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١].

قوله: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ**»، العافية شأنها عظيم؛ فإنَّه لم يُعط أحد بعد اليقين خيرًا من المعافاة كما قال ذلك النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وجاء في الحديث أنَّ العبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عمَّ النَّبيِّ ﷺ قال قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ عَلِّمْنِي شَيْئًا أَسْأَلُهُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ، قَالَ: «**سَلِ اللهَ العَافِيَةَ**»، فَمَكَثْتُ أَيَّامًا ثُمَّ جِئْتُ

(١) رواه أبو داود (٥٠٧٤)، وابن ماجه (٣٨٧١)، وصحَّحه الألبانيُّ.

فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ عَلِّمْنِي شَيْئًا أَسْأَلُهُ اللهَ، فَقَالَ لِي: «يَا عَبَّاسُ يَا عَمَّ رَسُولِ اللهِ، سَلِ اللهَ العَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ»(١)، فالَّذي يكرمه الله ويؤتيه العافية في الدُّنيا والآخرة قد تحقَّقت له السَّلامة والنَّجاة والوقاية من الشُّرور في الدَّارين.

وقوله: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ فِي دِينِي وَدُنْيَايَ وَأَهْلِي وَمَالِي**»، العفو: أي الصَّفح والتَّجاوز عن الذُّنوب، قال تعالى: ﴿وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الشُّورى: ٢٥]، والعافية؛ أعاد سؤال الله العافية اهتمامًا بها.

- **والعافية في الدِّين:** أن يسلم للمرء دينه؛ بأن يُحفظ له إيمانه من شيءٍ يثلمه، أو أمرٍ ينقصه، أو بدعةٍ تحرفه عن الجادَّة والصِّراط المستقيم.
- **والعافية في الدُّنيا:** بأن تسلم للمرء دنياه، من الآفات والشُّرور والمحن.
- **والعافية في الأهل:** بسلامتهم وحفظهم ووقايتهم من الشُّرور.
- **والعافية في المال:** بحفظه من الآفات الَّتي تفسده أو تتلفه أو تخرجه عن الْحِلِّ، كالوقوع في الرِّبا أو الغشِّ أو غير ذلك.
- **وقد ذكر هنا شيئين:** العفو، والعافية؛ فأحد هذين اللَّفظين يتعلَّق بما مضى، والآخر يتعلَّق بما سيأتي. فسؤال الله العفو: هو الطَّلب من الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى أن يعفو عنه ما مضى من خطأ وتقصير وذنب ونحو ذلك. والعافية: الطَّلب منه عَزَّوَجَلَّ أن يقيه وأن يسلِّمه من الشُّرور ومن الآثام فيما بقي من حياته.

وهذان اللَّفظان من الألفاظ الَّتي يقول عنها أهل العلم «إذا اجتمعت افترقت، وإذا افترقت اجتمعت»؛ فإذا ذُكر العفو وحده شمل معنى العافية، وإذا ذُكرت العافية وحدها شملت معنى العفو، وإذا ذُكرا معًا -كما هنا- أصبح العفو متعلِّقًا بالماضي والعافية متعلِّقة بالمستقبل، مثلًا: قول عائشة

(١) رواه أحمد (١٧٨٣)، والتِّرمذيُّ (٣٥١٤)، وصحَّحه الألبانيُّ.

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا للنَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**أرأيت إذا علمتُ ليلة القدر أيَّ ليلة هي ماذا أقول؟**»، قال: «**قولي: اللَّهُمَّ إنَّك عفو تحبُّ العفو فاعْفُ عنِّي**»[(١)]، فسؤال العفو هنا يشمل معنى العافية، فهو يشمل ما مضى بمغفرة الذُّنوب، وما سيأتي بتجنيب العبد الشُّرور والآثام.

وقوله: «**اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَاتِي**» جمع عورة، والمراد بها: كلُّ ما يسوء المرء أن ينكشف، ويدخل في ذلك العورة الَّتي أُمر العبد بسترها، وهي في الرَّجل من السُّرَّة إلى الرُّكبة، والمرأة كلُّها عورة. وفي هذا الدُّعاء المتكرِّر في الصَّباح والمساء دلالةٌ على أنَّ الأمر في غاية الأهمِّيَّة، بل هو في زماننا هذا متأكِّد؛ لأنَّ المرأة خاصَّةً في كثير من المجتمعات يُحاك حولها خِطَطٌ لكشف عوراتها وهتك سترها وإيقاعها في الرَّذيلة، فتحتاج أن تسأل الله كثيرًا أن يرزقها ستر العورة، وأن تُجاهد نفسها على ذلك؛ لتسلم بإذن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى من هذه الفتن.

قوله: «**وَآمِنْ رَوْعَاتِي**»، هذا سؤال الله الأمن من كلِّ شيء يُخيف العبد أو يخشى أن يسبِّب له خوفًا وفزعًا، أي: سلِّمني يا الله من كلِّ شيء يفزعني أو يخيفني. والرَّوْعَاتُ: جَمع رَوْعَة، وهو الخوفُ والحزن، ففي هذا سؤالُ الله أن يُجَنِّبَه كلَّ أمر يُخيفُه أو يُحزنُه أو يُقْلقُه، وذكر الرَّوْعات بصيغة الجمع إشارةٌ إلى كثرتها وتعدُّدِها.

والأمن نعمة عظمى وكبرى، ولولا وجود الأمن بين النَّاس ما استطاعوا القيام بأمورهم الدِّينيَّة ولا بمصالحهم الدُّنيويَّة، بل تصبح أمورهم فوضى؛ فلا يطمئنُّون، ولا يتمكَّنون من أداء العبادات في المساجد، ولا يتمكَّنون من الجلوس في حِلق العلم ومجالس الذِّكر، ولا يتمكَّنون من المحافظة على

(١) رواه التِّرمذيُّ (٣٥١٣)، وابن ماجه (٣٨٥٠)، وصحَّحه الألبانيُّ.

أعراضهم وبيوتهم وأموالهم، كلُّ ذلك إذا اختلَّ الأمن؛ ضاع، والله عَزَّوَجَلَّ هو الَّذي يؤمِّن الخائف، ويُجير المستجير ويحفظ عباده.

وقد ثبت في المعجم الكبير للطَّبرانيِّ عن خَبَّابٍ الْخُزَاعِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَتِي، وَآمِنْ رَوْعَتِي، وَاقْضِ عَنِّي دَيْنِي**»[(١)]، وهذا يدلُّ على مزيد اهتمام بهذه الدَّعوة، فهي من الدَّعوات المقيَّدة الَّتي يؤتى بها كلَّ صباح ومساء، وأيضًا من الدَّعوات المطلقة الَّتي يؤتى بها في الأوقات المختلفة.

وقوله: «**اللَّهُمَّ احْفَظْنِي مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ وَمِنْ خَلْفِي، وَعَنْ يَمِينِي وَعَنْ شِمَالِي، وَمِنْ فَوْقِي، وَأَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ أَنْ أُغْتَالَ مِنْ تَحْتِي**»؛ هذا تحصين للمرء من جميع جهاته، وحفظٌ تامٌّ من الأمام والخلف واليمين والشِّمال والفوق والتَّحت. ومَن يدعو بهذا الدُّعاء في كلِّ صباح ومساء يصبح بفضل الله مُحصَّنًا من كلِّ جهاته من جميع الشُّرور عامَّة، ومن شرِّ الشَّيطان خاصَّة، فإنَّه أكثر شيء يُخشى منه في هذا الباب، وهو يأتي الإنسان من جهات عديدة لصدِّه عن دين الله وحرفه عن الصِّراط المستقيم؛ ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧]، فمَن دعا بهذا الدُّعاء صادقًا ملتجئًا إلى الله حفظه الله ولا يجد الشَّيطان منفذًا إليه من أيِّ جهة أتاه؛ لأنَّه محفوظٌ بحفظ الله من كلِّ جهاته.

وقوله: «**وأعوذ بعظمتك أن أُغتال من تحتي**»، أي: أن يكون موتي وهلاكي غيلةً من تحتي، والغيلة: أن يُفاجئ الإنسان شيء من تحته؛ كالبراكين أو الزِّلزال أو الفيضانات أو الطُّوفان أو نحو ذلك من الأمور، فيسأل الله الحفظ والسَّلامة من ذلك كلِّه، ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤].

---

(١) رواه الطَّبرانيُّ في المعجم الكبير (٣٧١٠)، وصحَّحه الألبانيُّ في صحيح الجامع (١٢٦٢).

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولمَّا كانت الصِّحَّة والعافية من أجلِّ نعم الله على عبده وأجزل عطاياه وأوفر منحه، بل العافية المطلقة أجلُّ النِّعم على الإطلاق فحقيق لمَن رُزق حظًّا من التَّوفيق مراعاتُها وحفظها وحمايتها عمَّا يضادُّها، وقد روى البخاريُّ في صحيحه من حديث ابن عبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول ﷺ: «**نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصِّحَّةُ وَالفَرَاغُ**»(١)، وفي التِّرمذيِّ وابن ماجه وغيرهما من حديث عبيد الله بن محصن الأنصاريِّ قال: قال ﷺ: «**مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ مَعَافًى فِي جَسَدِهِ آمِنًا فِي سِرْبِهِ عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا**»(٢)، وفي التِّرمذيِّ أيضًا من حديث أبي هريرة عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**أَوَّل مَا يُسْأَلُ عَنْهُ العَبْدُ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنَ النَّعِيمِ أَنْ يُقَالَ لَهُ: أَلَمْ نُصَحِّ لَكَ جِسْمَكَ وَنروكِ مِنَ المَاءِ البَارِدِ**»(٣)، ومن ها هنا قال مَن قال من السَّلف في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [التَّكاثر: ٨] قال: عن الصِّحَّة.

وفي مسند الإمام أحمد أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال للعبَّاس: «**يَا عَبَّاسُ سَلِ اللهَ العَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ**»(٤)، وفيه عن أبي بكر الصِّدِّيق قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**سَلُوا اللهَ اليَقِين والمُعَافَاة، فَمَا أُوتِي أَحَدٌ بَعْدَ اليَقِين خَيْرًا مِنَ العَافِيَةِ**»(٥)، فجمع بين عافيتي الدِّين والدُّنيا، ولا يتمُّ صلاح العبد في الدَّارين إلَّا باليقين والعافية؛ فاليقين يدفع عنه عقوبات الآخرة، والعافية تدفع عنه أمراض الدُّنيا في قلبه وبدنه. وفي سنن النَّسائيِّ من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يرفعه «**سَلُوا اللهَ العَفْوَ وَالعَافِيَةَ وَالمُعَافَاةَ، فَمَا أُوتِي أَحَدٌ بَعْدَ يَقِينٍ خَيرًا**

(١) رواه البخاريُّ (٦٤١٢).
(٢) رواه ابن ماجه (٤١٤١)، والتِّرمذيُّ (٢٣٤٦)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٣) رواه التِّرمذيُّ (٣٣٥٨)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٤) رواه أحمد (١٧٨٣)، والتِّرمذيُّ (٣٥١٤)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٥) رواه أحمد (٥)، وابن ماجه (٣٧٤٩)، وصحَّحه الألبانيُّ.

مِن مُعَافَاةٍ»[(١)]، وهذه الثَّلاثة تتضمَّن إزالة الشُّرور الماضية بالعفو، والحاضرة بالعافية، والمستقبلة بالمعافاة؛ فإنَّها تتضمَّن المداومة والاستمرار على العافية». اهـ كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)].

روى ابن أبي الدُّنيا في كتابه الشُّكر عن مسعر قال: كان عبد الأعلى التَّيميُّ، يقول: «أكثروا سؤال العافية؛ فإنَّ المبتلى وإن اشتدَّ بلاؤه ليس بأحقَّ بالدُّعاء من المعافى الَّذِي لا يأمن البلاء، وما المبتلون اليوم إلَّا من أهل العافية بالأمس، وما المبتلون بعد اليوم إلَّا من أهل العافية اليوم، ولو كان بلاء يجرُّه إلى خير ما كنَّا من رجال البلاء، إنَّه رُبَّ بلاء في الدُّنيا قد أجهد في الدُّنيا وأجزى في الآخرة، فما يأمن مَن أطال المقام على معصية الله أن يكون قد بقي له في بقيَّة عمره من البلاء ما يحذره في الدُّنيا ويفضحه في الآخرة، ثمَّ يقول عند ذلك: الحمد لله الَّذي إن نعدُّ نعمه لا نُحصيها، وإنْ ندأب له عملًا لا نجزيها، وإنْ نعمَّر فيها لا نبليها»[(٣)].

وكان الحسن البصريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إذا ابتدأ حديثه، يقول: «الحمد لله، اللَّهُمَّ ربَّنا لك الحمد بما خلقتنا ورزقتنا وهديتنا وعلَّمتنا وأنقذتنا وفرَّجت عنَّا، لك الحمد بالإسلام، ولك الحمد بالقرآن، ولك الحمد بالأهل والمال والمعافاة، كبتَّ عدوَّنا، وبسطت رزقنا، وأظهرت أمننا، وجمعت فرقتنا، وأحسنت معافاتنا، ومن كلِّ ما سألناك ربَّنا أعطيتنا؛ فلك الحمد على ذلك حمدًا كثيرًا، لك الحمد بكلِّ نعمة أنعمت بها علينا في قديم أو حديث أو سرٍّ أو علانية أو خاصَّة أو عامَّة أو حيٍّ أو ميِّت أو شاهد أو غائب، لك الحمد حتَّى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت»[(٤)].

---

(١) رواه النَّسائيُّ في السُّنن الكبرى (١٠٦٥١).
(٢) زاد المعاد (٤/ ١٩٦).
(٣) رواه ابن أبي الدُّنيا في كتاب الشُّكر (ص١٥٧).
(٤) رواه البيهقيُّ في شعب الإيمان (٤٢٦٦).

٤٠ أذكار طرفَيْ النَّهار (٨)

من أذكار الصَّباح: ما رواه مسلم عَنْ جُوَيْرِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَرَجَ مِنْ عِنْدِهَا بُكْرَةً حِينَ صَلَّى الصُّبْحَ وَهِيَ فِي مَسْجِدِهَا، ثُمَّ رَجَعَ بَعْدَ أَنْ أَضْحَى وَهِيَ جَالِسَةٌ، فَقَالَ: «**مَا زِلْتِ عَلَى الْحَالِ الَّتِي فَارَقْتُكِ عَلَيْهَا؟**» قَالَتْ: **نَعَمْ**، **قَالَ النَّبِيُّ** ﷺ: «**لَقَدْ قُلْتُ بَعْدَكِ أَرْبَعَ كَلِمَاتٍ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ لَوْ وُزِنَتْ بِمَا قُلْتِ مُنْذُ الْيَوْمِ لَوَزَنَتْهُنَّ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ عَدَدَ خَلْقِهِ، وَرِضَا نَفْسِهِ، وَزِنَةَ عَرْشِهِ، وَمِدَادَ كَلِمَاتِهِ**»[(١)].

هذا الذِّكر العظيم الثَّابت عن نبيِّنا ﷺ يسمِّيه العلماء: «الذِّكر المضعَّف»؛ لأنَّه ذكرٌ ألفاظه قليلة وثوابه عظيم، فجويرية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا جلست في مصلاها من بعد الصُّبح إلى الضُّحى تذكر الله، وما زالت على تلك الحال في ذكرٍ لله حتَّى رجع إليها النَّبيُّ ﷺ، فقال لها: لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرَّات: «**سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ عَدَدَ خَلْقِهِ، وَرِضَا نَفْسِهِ، وَزِنَةَ عَرْشِهِ، وَمِدَادَ كَلِمَاتِهِ**»، لو وُزِنَتْ بما قلتِ منذ اليوم لوزنتهنَّ. والَّذي قالته منذ اليوم ذكرٌ كثير استمرَّت فيه من الصَّباح إلى الضُّحى، وأخبرها عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنَّه قال بعدها تلك الكلمات الَّتي لو وُزنت بما قالته لوزنته، يعني: لو وُضع ذكرها الَّذي ذكرت الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى به في ميزان وهذا الذِّكر في ميزان لكان معادلًا له مساويًا له. وهذا فهمٌ ذكره بعض أهل العلم.

(١) رواه مسلم (٢٧٢٦).

وقيل: «**لوزنتهنَّ**»، أي: لرجحت عليهنَّ، أي: لكانت أثقل منهنَّ في الميزان.

فهذا ذكرٌ مُضَعَّف قليلةٌ ألفاظه مضعَّفٌ ثوابه عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قوله: «**وَهِيَ فِي مَسْجِدِهَا**»، المسجد: قد يطلق على المبنى الَّذي بُني وأُعِدَّ للصَّلاة ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ [النُّور: ٣٦]، ويطلق على المكان الَّذي يُسجد فيه ويصلَّى فيه، كما في الحديث: «**جُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا**»، فالمراد بقوله: «**وهي في مسجدها**»، أي: مصلَّاها.

قوله: «**سبحان الله وبحمده**»، أي: أنزِّه الله وأقدِّسه عن كلِّ ما لا يليق به حامدًا له مثنيًا عليه بما هو أهله.

قوله: «**عَدَدَ خَلْقِهِ**»، هذا تضعيف للعدد والكمية، أي: عدد ما خلَق الله، وهذا لا يُحصيه إلَّا الله عَزَّوَجَلَّ.

قوله: «**وَرِضَا نَفْسِهِ**»، وهذه تضعيف للصفة والكيفية، أي: يكون بهذا التَّسبيح والحمد رضا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ والفوز برضوانه، والله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التَّوبة: ٧٢]، أي: أكبر من كلِّ شيء.

قوله: «**وَزِنَةَ عَرْشِهِ**»، وهذا تضعيف للعِظَم والثِّقل وكِبَر المقدار، العرش أكبر المخلوقات وهو سقفها، وهو أثقل الأوزان؛ ولهذا وصفه الله سبحانه في القرآن بـ ﴿ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [التَّوبة: ١٢٩]، ووصفه بـ ﴿ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ﴾ [البروج: ١٥]، أي: الواسع؛ لأنَّ المجد هو السَّعة، فالعرش هو أوسع المخلوقات وأكبرها، وهذا يدلُّ على عِظَم شأن هذا التَّسبيح الَّذي زنته زِنة عرش الرَّحمن.

قوله: «**وَمِدَادَ كَلِمَاتِهِ**»، وهذا يشمل الأقسام الثلاثة المتقدمة، والمداد: هو الحِبر الَّذي يُكتب به، وكلمات الله ليس لها حدٌّ وليس لها إحصاء؛ لأنَّ

كلام الله لا يتناهى؛ لأنَّ الله تعالى متكلِّمٌ بلا ابتداء، ويتكلَّم بلا انتهاء، فلا حصر لكلامه ولا نهاية له.

والمقصودُ: أنَّ الله سبحانه يستحقُّ التَّسبيح بذلك القدر والعدد، كقوله ﷺ: «**ربَّنا ولَكَ الحَمدُ، مِلءَ السَّمَواتِ وَمِلءَ الأَرْضِ وَمِلءَ مَا بَيْنَهُما وَمِلءَ مَا شِئْتَ مِن شَيْءٍ بَعْدُ**»، وليس المراد أنَّ العبدَ سبَّح تسبيحًا بذلك القدر والعدد؛ فإنَّ فعل العبد محصور، وإنَّما المراد ما يستحقُّه الرَّبُّ من التَّسبيح؛ فذاك الَّذي يعظم قدرُه.

قال العلَّامة ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ -في شرح له لهذا الحديث وبيان ما فيه من لطائف جليلةٍ ومعارف عظيمة-: «وهذا يُسمَّى الذِّكرُ المضاعف، وهو أعظمُ ثناءٍ من الذِّكر المفرد، وهذا إنَّما يظهرُ في معرفة هذا الذِّكر وفهمه، فإنَّ قولَ المسبِّح: (**سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ عَدَدَ خَلْقِهِ**)؛ تضمَّن إنشاءً وإخبارًا، تضمَّن إخبارًا عمَّا يستحقُّه الرَّبُّ من التَّسبيح عددَ كلِّ مخلوق كان أو هو كائنٌ إلى ما لا نهايةَ له، فتضمَّن الإخبارَ عن تنزيه الرَّبِّ وتعظيمه والثَّناءِ عليه هذا العددَ العظيمَ الَّذي لا يبلغهُ العادُّون ولا يُحصيه المُحصون.

وتضمَّن إنشاءَ العبدِ لتسبيحٍ هذا شأنُه، لا أنَّ ما أتى به العبدُ من التَّسبيح هذا قدرُه وعددُه، بل أخبر أنَّ ما يستحقُّه الرَّبُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من التَّسبيح هو تسبيحٌ يبلغ العددَ الَّذي لو كان في عدد ما يزيد عليه لذَكره؛ فإنَّ تجدُّدَ المخلوقات لا يتناهى عددًا، ولا يُحصَى الحاضر.

وكذلك قوله: (**وَرِضَا نَفْسِهِ**) يتضمَّن أمرَين عظيمَين؛ أحدهما: أن يكون المرادُ تسبيحًا هو في العظمة والجلال مساوٍ لرضا نفسه، كما أنَّه في الأوَّل مخبرٌ عن تسبيحٍ مساوٍ لعدد خلقه، ولا ريبَ أنَّ رضا نفس الرَّبِّ أمرٌ لا نهاية له في العظمة والوصف. والتَّسبيحُ ثناءٌ عليه سبحانه يتضمَّن التَّعظيم والتَّنزيه،

فإذا كانت أوصافُ كماله ونعوتُ جلاله لا نهايةَ لها ولا غاية، بل هي أعظمُ من ذلك وأجلُّ؛ كان الثَّناءُ عليه بها كذلك؛ إذ هو تابعٌ لها إخبارًا وإنشاءً، وهذا المعنى ينتظمُ المعنى الأوَّل من غير عكس. وإذا كان إحسانُه سبحانه وثوابُه وبركتُه وخيرُه لا منتهى له وهو من موجباتِ رضاه وثمرتهِ فكيف بصفة الرِّضا؟!

وقوله: (**وَزِنَةَ عَرْشِهِ**) فيه إثباتُ العرش، وإضافته إلى الرَّبِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأنَّه أثقلُ المخلوقات على الإطلاق؛ إذ لو كان شيءٌ أثقلَ منه لوُزن به التَّسبيح. فالتَّضعيفُ الأوَّل للعدد والكمِّيَّة، والثَّاني للصِّفةِ والكيفيَّة، والثَّالث للعِظَم والثِّقَل وكِبَر المقدار.

وقوله: (**وَمِدَادَ كَلِمَاتِهِ**) هذا يعمُّ الأقسام الثَّلاثة ويشملها؛ فإنَّ مدادَ كلماته سبحانه لا نهايةَ لقدره ولا لصفته ولا لعدده، قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: ٢٧]، ومعنى هذا أنَّه لو فرض البحرُ مدادًا، وجميعُ أشجار الأرض أقلامًا، والأقلامُ تستمدُّ بذلك المداد، فتفنى البحار والأقلام، وكلمات الرَّبِّ لا تفنى ولا تنفد.

والمقصودُ: أنَّ في هذا التَّسبيح من صفات الكمال ونعوت الجلالِ ما يوجب أن يكون أفضلَ من غيره...». اهـ كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)].

فالحاصل أنَّ هذا ذكرٌ عظيم يُستحبُّ للمسلم أن يقوله ثلاث مرَّاتٍ في كلِّ صباح تأسِّيًا بالنَّبيِّ الكريم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ولنستشعر عِظم نعمة الله علينا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بأنْ هدانا إلى هذه الكلمات العظيمة والذِّكر المضاعف الَّذي

(١) المنار المنيف في الصَّحيح والضَّعيف (ص٣٥).

رتَّب عليه سبحانه الأُجورَ الكثيرة والثَّواب الجزِيل، كلماتٌ قلائل لا تأخذ من العبد وقتًا وفيها ثواب مضاعف، ومع ذلك كثير من النَّاس يأتي عليه صباحٌ وآخر، بل وصباحات وهو لا يقول هذا التَّسبيح! إمَّا أنَّه لا يعرفه، أو لأنَّه يعرفه ولكنَّه غيرُ مهتمٍّ به.

۞ **وهنا أنبِّه على فائدة تخصُّ النِّساء في البيوت، ألا وهي:** أن ينظرن في طريقة نساء الصَّحابة أمَّهات المؤمنين وهنَّ قدوة للمسلمات، فجويرية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تجلس في مصلَّاها تذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حتَّى الضُّحى، وهذا خير عظيم يفوت كثيرًا من النِّساء اللَّاتي إذا صلَّت الواحدة منهنَّ تصلِّي عَجِلة، ثمَّ تطوي مصلَّاها وتقوم منه، ومن الخير لها أن تتأسَّى بنساء الصَّحابة؛ بأنْ تبدأ يومها بالصَّلاة والجلوس في المصلَّى تذكر الله، وتطمئنُّ في مصلَّاها ولا تكون عَجِلة، وإذا كان وراءها أعمالٌ تضطرُّها للقيام فلتأخذ نصيبها وحظَّها من هذا الجلوس طلبًا لبركة الإبكار وأذكار الصَّباح وطمأنينة القلب، ثمَّ بعد ذلك تنهض لأعمالها ومصالحها وأولادها مستصحبةً معها هذه البركة الَّتي حصَّلتها في البكور.

۞ **وأمرٌ آخر أُنبِّه عليه، وهو:** هل النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عندما أرشدها إلى الأربع كلمات، هل أراد منها أن تكتفي بها وتترك مصلَّاها والجلوس فيه والذِّكر الكثير الَّذي كانت تقوله؟ أو أراد أن يُرشدها إلى ذكرٍ عظيم مضاعف تعتني به مع الأذكار الَّتي كانت تُحافظ عليها؟ ومن المعلوم أنَّ الذِّكر بابٌ واسع، وفي الصَّباح خاصَّةً وردت أذكار عديدة يُشرع للمسلم أن يأتي بها في صباحه؛ من تسبيح، وتهليل، وتحميد، ودعوات، وأذكار متنوِّعات من جُملتها هذا الذِّكر المضاعف الَّذي أرشد إليه النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

فلمَّا قال لها عليه الصَّلاة «**قُلْتُ بَعْدَكِ أَرْبَعَ كَلِمَاتٍ**»؛ لم يقله لها تزهيدًا

منه عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لها في الذِّكر الَّذي كانت جالسةً في مصلَّاها من أجله، ولا تزهيدًا أيضًا في هذا الجلوس، فقد ثبت عنه ﷺ التَّرغيب في هذا الجلوس قولًا وفعلًا في أحاديث عديدة:

ففي صحيح مسلم عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا صَلَّى الْفَجْرَ جَلَسَ فِي مُصَلَّاهُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ حَسَنًا»(١)، وروى أبو داود في سننه عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَأَنْ أَقْعُدَ مَعَ قَوْمٍ يَذْكُرُونَ اللهَ تَعَالَى مِنْ صَلَاةِ الْغَدَاةِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أُعْتِقَ أَرْبَعَةً مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَلَأَنْ أَقْعُدَ مَعَ قَوْمٍ يَذْكُرُونَ اللهَ مِنْ صَلَاةِ الْعَصْرِ إِلَى أَنْ تَغْرُبَ الشَّمْسُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أُعْتِقَ أَرْبَعَةً**»(٢).

فالحاصل أنَّه عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لمَّا ذكر لها فضل هؤلاء الكلمات الأربع أراد أن تُدرجها في جملة الأذكار الَّتي تعتني بها في صباحها الباكر.

---

(١) رواه مسلم (٦٧٠).
(٢) رواه أبو داود (٣٦٦٧)، وحسَّنه الألبانيُّ.

٤١ أذكار طرفَيْ النَّهار (٩)

من أذكار الصَّباح: ما رواه أحمد عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبْزَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا أَصْبَحَ يَقُولُ: «**أَصْبَحْنَا عَلَى فِطْرَةِ الإِسْلَامِ، وَعَلَى كَلِمَةِ الْإِخْلَاصِ، وَعَلَى دِينِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ، وَعَلَى مِلَّةِ أَبِينَا إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا مُسْلِمًا، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**»[(١)].

هذا الذِّكر العظيم قائمٌ على تجديد التَّوحيد؛ يجدِّد المسلم في كلِّ صباح من خلاله توحيده، ويكرِّره كلَّ يوم ليكون تجديدًا مستمرًّا للتَّوحيد مع كرِّ الأيَّام. وينبغي للمسلم أن يقوله عن يقين وإخلاص ليدخل يومه دخولًا قائمًا على هذه الأسس العظيمة والأركان المتينة: الفطرة، والإخلاص، والاتِّباع، والاهتداء بهدي نبيِّنا ﷺ، وملَّة أبينا إبراهيم الحنيفيَّة السَّمحة.

قوله: «**أَصْبَحْنَا عَلَى فِطْرَةِ الْإِسْلَامِ**»، أي: الَّتي فطر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى النَّاس عليها، قال الله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الرُّوم: ٣٠]. قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: في معنى الآية: «يقول تعالى فسَدِّد وجهك واستمرَّ على الدِّين الَّذي شرعه الله لك من الحنيفيَّة ملَّة إبراهيم الَّذي هداك الله لها وكمَّلها لك غاية الكمال، وأنت مع ذلك لازمٌ فطرتَك السَّليمة الَّتي

(١) رواه أحمد (١٥٣٦٠)، والدَّارميُّ (٢٧٣٠)، وصحَّحه الألبانيُّ في السِّلسلة الصَّحيحة (٢٩٨٩).

فطر الخلقَ عليها، فإنَّه تعالى فطر خلقَه على معرفته وتوحيده، وأنَّه لا إله غيره». اهـ كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)].

فهذا الأصل في جميع النَّاس؛ ومَن خرج عن هذا الأصل فلعارضٍ عَرَضَ لفطرته فأفسدها، كما في حديث عياض المجاشعيِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النَّبيِّ ﷺ فيما يرويه عن ربِّه أنَّه قال: «**إنِّي خَلقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُم الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهم عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهم أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنزِلْ بِهِ سُلْطَانًا**». رواه مسلم في صحيحه[(٢)]. وفي الصَّحيحين من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَا من مَوْلُودٍ إلَّا يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ**»[(٣)].

ولا شكَّ أنَّ نعمة الله على عبده عظيمةٌ أن يُصبحَ حين يُصبحُ وهو على فطرةٍ سليمة لَم يُصبها تَلَوُّثٌ أو تَغَيُّرٌ أو انحرافٌ.

قوله: «**وَعَلَى كَلِمَةِ الْإِخْلَاصِ**»، أي: لا إله إلَّا الله؛ كلمة التَّوحيد؛ لأنَّ فيها إخلاص الدِّين لله ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البيِّنة: ٥]، ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾ [الزُّمر: ٣]، فالإخلاص لا يكون إلَّا بـ«لا إله إلَّا الله»، فهي كلمة الإخلاص وهي رأس الدِّين وأساسُه ورَأسُ أمره، لأجلها خُلقت الخليقة وأُرْسِلَت الرُّسُل وأُنزِلت الكُتب، وبها افترق النَّاسُ إلى مؤمنين وكفَّار، وهي زُبدة دعوة المرسلين وخلاصة رسالتِهم، وهي أعظم نعم الله على عباده، وفي هذا يقول سفيان بن عيينة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما أنعم الله على عبدٍ من العباد نعمةً أعظم من أن عرَّفهم لا إله إلَّا الله»[(٤)].

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ٣١٣).
(٢) رواه مسلم (٢٨٦٥).
(٣) رواه البخاريُّ (١٣٥٩)، ومسلم (٢٦٥٨).
(٤) ذكره ابن رجب في كلمة الإخلاص (ص٥٣).

وكلمة «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**» هي كلمةُ إخلاصٍ وتوحيد، ونبذٍ للشِّرك وبراءةٍ منه ومن أهله، قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الزُّخرف: ٢٦-٢٨].

وإذا أصبح العبدُ وهو على هذه الكلمة العظيمة لَم يُغيِّر ولَم يُبَدِّل فقد أصبح على خير حال، ولعِظَم شأن بدء اليوم بهذه الكلمة العظيمة جاء الحثُّ على الإكثار من قولها مرَّات عديدة كلَّ صباح، وقد سبق ذكرُ أجر مَن قالها حين يصبح عشر مرَّات، وأجرِ مَن قالها مائة مرَّة.

وقوله: «**وَعَلَى دِينِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ**»، أي: وأصبحنا على ذلكم الدِّين العظيم الَّذي رضيه الله لعباده دينًا، وبعث به نبيَّه الكريم محمَّدًا ﷺ، وقال فيه سبحانه: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ﴾ [المائدة: ٣]، وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥].

فهذا هو دين النَّبيِّ الكريم محمَّد ﷺ؛ وهو الاستسلامُ لله بالتَّوحيد والانقياد له بالطَّاعة والبراءة من الشِّرك وأهله، وإنَّ نعمة الله جَلَّ وَعَلَا على عبده عظيمة أن يصبح على هذا الدِّين العظيم والصِّراط المستقيم؛ صراط الَّذين أنعم الله عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضَّالِّين.

يقول الله تعالى مذكِّرًا عباده الَّذين حَبَاهم بهذه النِّعمة ومَنَّ عليهم بها: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ﴾ [الحجرات: ٧]، ويقول تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ﴾ [النُّور: ٢١]؛ فللَّه ما أعظَمَها من منَّة وما أجلَّها من نعمة.

وقوله: «**وَعَلَى مِلَّةِ أَبِينَا إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**»، أي: وأصبحت على هذه الملَّة المباركة ملَّة إبراهيم خليل الرَّحمن عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وهي الحنيفيَّةُ السَّمحة والتَّمسُّكُ بالإسلام والبعد عن الشَّرك، ولهذا قال «**حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**»، وهي ملَّة مباركةٌ لا يتركها ولا يرغب عنها إلَّا مَن حَكَمَ على نفسه بالغيِّ والسَّفَه، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِي ٱلدُّنْيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [البقرة: ١٣٠].

وقد أمر الله عَزَّوَجَلَّ نبيَّه ﷺ باتِّباع هذه الملَّة وهداه إليها، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١]، وقال تعالى مُمْتَنًّا على عباده بهذه النَّعمة: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا﴾ [الحجُّ: ٧٨].

هذه ثلاث صفات لملَّة إبراهيم جُمعت في هذا الحديث:

الصِّفة الأولى: الحنيفيَّة السَّمحة، والحنيف هو المائل، ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النَّحل: ١٢٠]، الحنيف: هو المائل عن الضَّلال، المائل عن الباطل، المائل عن الشِّرك إلى الحقِّ والهدى والتَّوحيد، فالحنيفيَّة هي البعد والتَّجافي عن الضَّلال والباطل، والاستقامة على الحقِّ والهدى.

الثَّانية: مُسْلِمًا، أي: مستسلمًا منقادًا مستقيمًا محافظًا على أوامر الله، فالإسلام: هو الاستسلام لله بالتَّوحيد، والانقياد له بالطَّاعة، والبراءة من الشِّرك.

الثَّالثة: (وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)، أي: لا في أقواله ولا في أعماله، ولا

في جميع أحواله؛ لأنَّه إمام الموحِّدين الحنفاء. وقد وصفه الله بهذه الصِّفة في خمسة مواضع من القرآن:

- قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُواْۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: ١٣٥].

- وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَـٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧].

- وقال تعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُۗ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٩٥].

- وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١].

- وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النَّحل: ١٢٣].

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وتأمَّل هذه الألفاظ -أي: الَّتي وردت في الحديث- كيف جعل الفطرة للإسلام؛ فإنَّه فطرة الله الَّتي فطر النَّاس عليها، وكلمة الاخلاص هي شهادة أن لا اله إلَّا الله، والملَّة لإبراهيم؛ فإنَّه صاحب الملَّة وهي التَّوحيد وعبادة الله تعالى وحده لا شريك له ومحبَّته فوق كلِّ محبَّة، والدِّين لنبيِّنا ﷺ وهو دينه الكامل وشرعه التَّامُّ الجامع لذلك كلِّه». اهـ كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١).

ومن فوائد هذا الحديث العظيمة: أنَّ هذه المعاني هي أسس اليوم الَّتي عليها بناؤه؛ المحافظةُ على الفطرة، وإخلاص التَّوحيد لله، واتِّباع

(١) جلاء الأفهام (ص٢٦٨).

هدي النَّبيِّ ﷺ، واتِّباع ملَّة إبراهيم الملَّة الحنيفيَّة الَّتي هي البراءة من الشِّرك والخلوص منه، وهي قِوام المسلم ونظام حياته. فتضمَّنت هذه الكلمات قاعدة الدِّين وبناء الإسلام وأساس الإيمان، بل تضمَّنت أساس السَّعادة والفلاح في الدُّنيا والآخرة، ولهذا ينبغي للمسلم أن يُحافظ على هؤلاء الكلمات محافظةً تامَّة في كلِّ صباح مع استشعار المعاني وتحقيق الدَّلالات.

وممَّا يؤكِّد ذلك أنَّ النَّبيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لمَّا ذكر الأحوال عند الفتن ذكر أنَّ من النَّاس مَن يُمسي مؤمنًا ويُصبح كافرًا، ويُمسي كافرًا ويصبح مؤمنًا؛ من كثرة الفتن الَّتي يراها، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا**». رواه مسلم(١)، فيأتي هذا الذِّكر العظيم المبارك في كلِّ صباح ليكون صمَّام السَّلامة والأمان والنَّجاة.

ولهذا فإنَّ النِّعمة على العبد عظيمة أن يصبح حين يصبح ولم تتغيَّر فطرته ولم تتبدَّل، بأن يصبح عَلَى فِطْرَةِ الإِسْلَامِ، وَعَلَى كَلِمَةِ الإِخْلَاصِ، وَعَلَى دِينِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ، وَعَلَى مِلَّةِ أَبِينَا إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ؛ ولهذا شُرع للعبد أن يقولها كلَّ صباح حفاظًا على هذه الأسس غير مبدَّل ولا مغيِّر.

(١) رواه مسلم (١١٨).

٤٢
أذكار طرفَيِ النَّهار (١٠)

إنَّ من الدَّعوات العظيمة الَّتي يستحبُّ للمسلم أن يواظب عليها كلَّ صباح: ما رواه أحمد وابن ماجه عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ إِذَا صَلَّى الصُّبْحَ حِينَ يُسَلِّمُ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ عِلْمًا نَافِعًا، وَرِزْقًا طَيِّبًا، وَعَمَلًا مُتَقَبَّلًا**»(١).

هذه الثَّلاثة الَّتي جمعها هذا الدُّعاء هي أهدافُ المسلم في يومه، بل أهدافه في يومه منحصرة في هذه الثَّلاثة: العلم النَّافع، والرِّزق الطَّيِّب، والعمل الصَّالح، ليس له فيه أهداف غيرها. وكأنَّه في افتتاحه ليومه بذكر هذه الأمور الثَّلاثة دون غيرها يُحدِّدُ أهدافَه ومقاصدَه في يومه، ولا ريب أنَّ هذا أجمعُ لقلب الإنسان وأضبط لسيره ومسلكه، بخلاف مَن يصبح دون أن يستشعر أهدافَه وغاياته ومقاصدَه الَّتي يعزم على القيام بها في يومه، ونجِد المعتنين بالتَّربية والآداب يُوصُون بتحديد الأهداف في كلِّ عملٍ يقوم به الإنسان، وفي كلِّ سبيل يسلكه؛ ليكون ذلك أدعَى لتحقيق أهدافه، وأسلَمَ من التَّشتُّت والارتباك، وأَضبطَ له في مساره وعمله، وما من شكٍّ أنَّ مَن يسيرُ وَفْقَ أهدافٍ محدَّدةٍ ومقاصدَ معيَّنةٍ أكملُ وأضبطُ وأسلمُ مِمَّن يسير دون تحديد أهداف ودون تعيين مقصد.

والإتيان بهذه الدَّعوة في أوَّل اليوم في غاية المناسبة؛ لأنَّ أوَّل اليوم هو

(١) رواه أحمد (٢٦٦٠٢)، وابن ماجه (٩٢٥)، وصحَّحه الألبانيُّ.

باكورته وفي اليوم يحصِّل العبد العلم والرِّزق والعمل؛ فناسب أن يبدأ يومه مُستحضرًا أهدافه فيه، ليدخل فيه وهو محدِّدٌ أهدافه، ثمَّ يسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يوفِّقه لتحقيق هذه الأهداف. فليس في الإتيان بهذا الدُّعاء في مفتتح اليوم تحديدٌ للأهداف فيه فحسب، بل هو تضَرَّعٌ إلى الله ولجوءٌ إليه بأن يَمُنَّ بتحصيل هذه المقاصد العظيمة والأهداف النَّبيلة؛ إذ لا حول للعبد ولا قوَّة ولا قدرة عنده على جَلب نفع أو دَفع ضُرٍّ إلَّا بإذن ربِّه سبحانه، إليه يلجأ، وبه يستعين، وعليه يتوكَّل.

بدأ هذه الأهداف بسؤال الله العلم النَّافع قبل سؤاله الرِّزق الطَّيِّب والعمل الصَّالح؛ لأنَّ العلم النَّافع هو الأساس الَّذي به تُعرف الأمور ويُميَّز به بين الرِّزق الطَّيِّب وغير الطَّيِّب، وبين العمل الصَّالح وغير الصَّالح، وهذا فيه دلالة على أنَّ العلم مقدَّمٌ على القول والعمل وبه يُبدأ، كما قال الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ﴾ [محمَّد: ١٩]؛ فبدأ بالعلم قبل القول والعمل.

فلا بُدَّ أن يُبدأ بالعلم قبل القول والعمل، وإذا لم يُبدأ به اختلطت الأمور والتبست الأحكام ولم ينضبط للإنسان أمره لا في عمله ولا في رزقه، والمسلم مأمورٌ بأن يكون عمله صالحًا؛ فلا يقبل الله عَزَّوَجَلَّ منه أيَّ عمل يتقرَّب به إليه إلَّا إذا كان صالحًا، ومطلوبٌ منه أن يكون رزقه طيِّبًا؛ فلا يصحُّ للمسلم أن يَطْعَم كلَّ ما يقع في يده من طعام أو شراب، بل لا بُدَّ أن يكون طيِّبًا؛ ومعرفة العمل الصَّالح من غيره والرِّزق الطَّيِّب من غيره لا بُدَّ فيه من العلم النَّافع ولهذا بدأ به، فالأصل أن يتعلَّم المسلم دينه وأحكام شرعه قبل أن يعمل، وكثير من النَّاس يؤخِّرون السُّؤال والتَّفقُّه والتَّعلُّم إلى ما بعد العمل! بينما الأصل أن يكون السُّؤال عن الحكم قبل العمل، فبالعلم يُبدأ؛ ليُعبد اللهُ على

بصيرة، فصار متأكِّدًا أن يكون في أولى أولويات المرء واهتماماته في يومه أن يكون له فيه حظٌّ من العلم.

وبهذا يُعلم أنَّ طلب العلم هدفٌ يوميٌّ للمسلم، فيحرص أن يكون له نصيبٌ من العلم في كلِّ يوم؛ فلا يفوِّت يومًا بلا نصيب منه ولو قدرًا يسيرًا.

ثمَّ على الدَّاعي بهذا الدُّعاء أن يُتبع الدُّعاء ببذل السَّبب؛ فإذا قال: «اللَّهمَّ إنِّي أسألك العلم النَّافع» في بكوره، عليه أن يُجاهد نفسه على تحصيل نصيب من العلم وحظٍّ منه في يومه. فلو أنَّ إنسانًا دعا بهذا الدُّعاء بعد الصُّبح ثمَّ نام حتَّى الظُّهر لن يأتيه العلم على فراشه! لأنَّه لم يبذل السَّبب، قد قال ﷺ: «**إِنَّمَا الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمْ**»، وقال عَلَيهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ**»؛ فلا بدَّ مع الدُّعاء من حرصٍ، وبذل وسع، وجدٍّ واجتهاد، وصبر ومصابرة؛ ولهذا قال عَلَيهِ ٱلسَّلَامُ: «**مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ رِضًا بما يصنع، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ حتَّى الْحِيتَانُ فِي الْمَاءِ، وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا إِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ؛ فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ**»، فأمر ببذل السَّبب وهو سلوك الطَّريق لطلب العلم.

وقوله: «**علمًا نافعًا**»، أي: نافعًا في نفسه، ونافعًا لمتعلِّمه بأن ينتفع به؛ لأنَّ من العلم ما ليس بنافع، ومنه ما هو نافع لكنْ لا ينتفع به مَن تعلَّمه، فسأل الله أن يمُنَّ عليه بالعلم النَّافع. وهذا أيضًا فيه فائدة مهمَّة وهي: أنَّ المسلم عندما يطلب العلم عليه أن يطلب العلم النَّافع الَّذي يقرِّبه إلى الله، الَّذي مدح الله عَزَّوَجَلَّ أهله وأثنى عليهم وذكَر فضلهم وسابقتهم وميَّزهم على مَن سواهم، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزُّمر: ٩]، وقال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ [المجادلة: ١١]، وقال تعالى: ﴿أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [الرَّعد: ١٩]، وهو العلم الَّذي به يعرف المسلم الغاية الَّتي خُلق لأجلها والسَّبيل إلى تحقيقها على الوجه الَّذي يُرضي الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

والعلوم على نوعين: علوم نافعة، وعلوم ضارَّة؛ أمَّا العلم النَّافع: فهو المقرِّب إلى الله، وأمَّا العلوم الضَّارَّة: فهي الَّتي تضرُّ الإنسان وترديه في دينه ودنياه؛ كتعلُّم السِّحر والشَّعوذة والطَّلاسم ونحوها. وكان ﷺ يتعوَّذ بالله من العلم الَّذي لا ينفع، ويسأل الله العلم النَّافع، ومن أدعيته صلوات الله وسلامه عليه: «**اللَّهُمَّ انْفَعْنِي بِمَا عَلَّمْتَنِي، وَعَلِّمْنِي مَا يَنْفَعُنِي، وَزِدْنِي عِلْمًا**»(١)، ومنها: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ**»(٢).

فالمسلم ينبغي أن يتحرَّى العلم الَّذي ينفع، قال ﷺ «**إِنَّ اللهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ**»، وعليه أن يصحِّح نيَّته في طلبه؛ بأن يطلب العلم لينتفع به، ولينال به رضا الله عَزَّوَجَلَّ وثوابه.

قوله: «**ورزقًا طيِّبًا**»، أي: حلالًا ليس فيه شبهةٌ، أو مخالفةٌ لشرع الله أو ارتكابٌ لأمرٍ حرَّمه الله، بتحصيل هذا المال، مثلًا: من طريقٍ لم يشرعه الله. فالرِّزق الَّذي يحصِّله النَّاس على نوعين: طيِّب، وخبيث. والله عَزَّوَجَلَّ أحلَّ لعباده الطَّيِّبات وحرَّم عليهم الخبائث. وإذا كان الرِّزق كذلك فإنَّ مَن يطلب الرِّزق ينبغي أن يكون على علمٍ بالرِّزق الطَّيِّب ليحصِّله، وعلى علمٍ بالرِّزق الخبيث ليحذره ويجتنبه.

---

(١) رواه التِّرمذيُّ (٢٥٩٩)، وابن ماجه (٣٨٣٣)، وصحَّحه الألبانيُّ.

(٢) رواه مسلم (٢٧٢٢).

قوله: «**وعملًا متقبَّلًا**»، وفي بعض الرِّوايات: «**وعملًا صالحًا**»، والعمل الصَّالح هو المتقبَّل، والمتقبَّل هو الَّذي قامت فيه شروط قبول العمل، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩]، أي: متقبَّلًا مرضيًّا عند الله، مدَّخرًا لهم أجرًا وثوابًا عنده. **ولا يكون العمل كذلك إلَّا بشرطين:**

١- أن يخلص فيه العامل لله.

٢- وأن يكون على وفق سنَّة رسول الله ﷺ.

ولهذا قال الفضيل ابن عياض: في معنى الآية: «أي: أخلَصُه وأصوَبُه»، قيل يا أبا عليٍّ وما أخلصه وأصوبه؟ قال: «إنَّ العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يُقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يُقبل حتَّى يكون خالصًا صوابًا، والخالص: ما كان لله، والصَّواب: ما كان على السُّنَّة»(١)

فالعمل الصَّالح: هو الخالص الصَّواب، وإذا اختلَّ الشَّرطان أو أحدُهما لم يكن العمل صالحًا. **وأحوال العمل من حيث الإخلاص والمتابعة أربعة:**

الحالة الأولى: عملٌ خالص لله موافق لسُنَّة رسول الله ﷺ؛ وهذا وحده هو الَّذي يوصف بالصَّلاح، ولا يوصف سواه بهذه الصِّفة العظيمة.

الحالة الثَّانية: عملٌ خالص لله لكنَّه ليس على وفق سنَّة رسول الله ﷺ؛ وهذا يكثر عند المتعبِّدة بالأهواء والبدع.

والحالة الثَّالثة: أن يأتي بالعمل موافقًا للسُّنَّة لكنَّه لا يكون خالصًا لله، بل يكون فيه الرِّياء أو السُّمعة أو نحو ذلك. وقد جاء في الحديث: أنَّ النَّبيَّ عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ خرج يومًا على الصَّحابة وهم يتذاكرون، قال: «ما تذاكرون؟»

---

(١) حلية الأولياء (٨/ ٩٥).

قالوا نتذاكر فتنة المسيح الدَّجال، قال: «**أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَا هُوَ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي مِنْ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ؟**» قَالَ قُلْنَا بَلَى، فَقَالَ: «**الشِّرْكُ الْخَفِيُّ؛ أَنْ يَقُومَ الرَّجُلُ يُصَلِّي فَيُزَيِّنُ صَلَاتَهُ لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ**»[1]، فهو يصلِّي ويزيِّن صلاته ويحسِّنها -ومن المعلوم أنَّ تزيين الصَّلاة إنَّما يكون بالتزام السُّنَّة وهدي النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- لكنَّه يزيِّنها ليس لله وإنَّما لما يرى من نظر رجل. فالعمل قد يكون على السُّنَّة في هيئته وصفته ولكنَّه لا يكون خالصًا لله، وهو بهذا ليس صالحًا؛ لأنَّه افتقد شرطًا لصلاح العمل وهو الإخلاص لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

الحالة الرَّابعة: أن يكون العمل ليس خالصًا لله ولا على سنَّة رسول الله ﷺ، أي: أن يتعبَّد بعبادات محدثة، وفي الوقت نفسه يتقرَّب بها إلى غير الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

الحاصل أنَّ هذا دعاءٌ عظيمُ النَّفع كبيرُ الفائدة، يَحسُنُ بالمسلم أن يُحافظَ عليه كلَّ صباح تأسيًا بالنَّبيِّ الكريم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لينَالَ هذه الخيراتِ العظيمةَ والأفضالَ الكريمةَ، والله وحده الموفِّق.

---

(١) رواه ابن ماجه (٤٢٠٤)، وحسَّنه الألبانيُّ.

٤٣
أذكار النَّوم (١)

النَّوم آية من آيات الله العظيمة الدَّالة على كمال تدبيره وعظمة تقديره سبحانه، وأنَّه جَلَّ وَعَلَا المستحقُّ للعبادة وحده، يقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ [الرُّوم: ٢٣]، والنَّوم كما أنَّه آية من آيات الله فهو أيضًا رحمة من الله سبحانه بالعباد؛ حيث يسَّر لهم وقتًا يستريحون فيه، وهيَّأ لهم هذا النَّوم الَّذي تكون به راحتهم، يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [القصص: ٧٣].

وقد جاءت السُّنَّة النَّبويَّة بأورادٍ مباركة وأذكارٍ عظيمة ثابتة عن نبيِّنا ﷺ فيما يُستحبُّ للمسلم أن يقوله عندما يأوي إلى فراشه لينام، وهذه الأوراد لها ثمارها العظيمة وآثارها المباركة، فينبغي على العبد أن يحرص على أن يأتي بما تيسَّر منها اغتنامًا لخيراتها وتحصيلًا لبركاتها.

والمسلم النَّاصح لنفسه الحريص على الخير ينام على ذكرِ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؛ فإذا وضع جنبه على فراشه أخذ يشتغل بذكر الله؛ فمرَّة يسبِّح، ومرَّة يقرأ آيات، ومرَّة يأتي بأدعية، وهكذا. فينام وهو ذاكر لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وذلك فضل الله يؤتيه مَن يشاء والله ذو الفضل العظيم. وشتَّان بين مَن ينام وهو على هذه الأذكار العظيمة المباركة، وبين مَن ينام على غير ذلك.

ومن السُّنَّة أن يأويَ المرء إلى فراشه على طهارة، وأن ينفض فراشه،

وأن يضطجع على شقِّه الأيمن، وأن يضع كفَّه اليمنى تحت خدِّه الأيمن، ثمَّ ينشغل بالذِّكر، بادئًا بالتَّسمية «**بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ وَضَعْتُ جَنْبِي**»[(١)]، ويمضي في الأذكار إلى أن ينام على هذه الحال العظيمة المباركة.

ومَن يتأمَّل أذكار النَّوم يجدْ أنَّها في الجملة تتعلَّق بأمور:

إمَّا تَذَكُّرٌ للموت: ولهذا نجد في أدعية النَّوم تذكير بالموت، مثل: «**اللَّهُمَّ إِنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِي فَارْحَمْهَا وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا**»، ومثل: «**اللَّهُمَّ قِنِي عَذَابَكَ يَوْمَ تَبْعَثُ عِبَادَكَ**»، ومثل: «**اللَّهُمَّ أَنْتَ خَلَقْتَ نَفْسِي وَأَنْتَ تَتَوَفَّاهَا لَكَ مَمَاتُهَا وَمَحْيَاهَا**»؛ فهذا نوع.

أو نظرٌ لما مضى من وقته، وما أكرمه الله به من طعام وشراب ولباس ومسكن: فهذه نِعَم تستوجب الحمد، فيقول إذا أوى إلى فراشه: «**الحَمْدُ للهِ الَّذِي أَطْعَمَنَا وَسَقَانَا، وَكَفَانَا وَآوَانَا، فَكَمْ مِمَّنْ لَا كَافِيَ لَهُ وَلَا مُؤْوِي**».

أو تذكُّرٌ لأصول الإيمان العظيمة: بقراءة آية الكرسيِّ والآيتين الأخيرتين من سورة البقرة، وما جاء في حديث البراء: «**آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ**».

أو تعوُّذات بالله بأن يُحفظ العبد من الشُّرور المتنوّعة كما في قراءة «قل أعوذ بربِّ الفلق»، و «قل أعوذ بربِّ النَّاس» عند النَّوم.

عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «**أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ جَمَعَ كَفَّيْهِ، ثُمَّ نَفَثَ فِيهِمَا فَقَرَأَ**: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ [الفلق: ١]، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [النَّاس: ١]، **ثُمَّ يَمْسَحُ بِهِمَا مَا اسْتَطَاعَ مِنْ جَسَدِهِ، يَبْدَأُ بِهِمَا عَلَى رَأْسِهِ وَوَجْهِهِ وَمَا أَقْبَلَ مِنْ جَسَدِهِ يَفْعَلُ**

(١) رواه البخاريُّ (٦٣٢٠)، ومسلم (٢٧١٤).

ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ»[١].

فهذا تعوُّذٌ وتحصين يحصِّن العبد نفسه، ليُحفظ في منامه من أن يمسَّه مكروه أو يناله شرٌّ أو أن يصيبه شيء من الهوامِّ المؤذية، خاصَّةً أنَّ الإنسان عندما يكون نائمًا؛ فإنَّه يكون غافلًا لا يدري بما حوله، فإذا أتى بهذا الوِرد أصبح في حرزٍ وحفظٍ وكفايةٍ ووقاية، ولا يزال عليه من الله حافظ.

وقد كان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يحافظ على هذا الورد كلَّ ليلة كما قالت عائشة: «**كَانَ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ**»، فكان يحافظ عليه كلَّ ليلة حتَّى جاء في بعض طرق هذا الحديث، قالت: «**فلمَّا اشْتكَى كَانَ يَأْمُر أَنْ أَفْعَلَ ذَلِكَ بِهِ**»، وهذا يدلُّ على شدَّة محافظته عليه ﷺ.

وقولها: «**جَمَعَ كَفَّيْهِ**»، أي: ضمَّ يديه وألصق إحداهما بالأخرى مفتوحتان إلى جهة وجهه ليباشر النَّفث فيهما. ثمَّ كان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ينفث ثمَّ يمسح بيده ما استطاع من جسده، وهذه التِّلاوة والنَّفث والمسح هذا كلُّه تحصين للعبد من أن يصيبه أذى.

قوله: «**يَبْدَأُ بِهِمَا عَلَى رَأْسِهِ وَوَجْهِهِ**» بدأ بالأشرف «**وَمَا أَقْبَلَ مِنْ جَسَدِهِ**» فهو مسحٌ للبدن كلِّه، لكنَّه يبدأ بالرَّأس والوجه، والسُّنَّة أن يفعل ذلك ثلاث مرَّات، كما فعل ذلك النَّبيُّ ﷺ.

وكان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يواظب على ذلك مواظبةً تامَّة حتَّى في مرض وفاته، كما جاء في الصَّحيحين لمَّا ثقل عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كان يقرأ ويأمر عائشة أن تُمِرَّ بيده على ما استطاعت من جسده عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، حيث لا يتمكَّن مع ثقل المرض أن يباشر تحريكها بنفسه.

---

(١) رواه البخاريُّ (٥٠١٧).

ومَا تحصَّن متحصِّنٌ ولا استعاذ مستعيذٌ بمثل هذا التعوُّذ المبارك الَّذي جاء عن النَّبِيِّ ﷺ، فعن عقبة بن عامر الجهنيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أُنْزِلَ عَلَيَّ آيَاتٌ لَمْ أَرَ مِثْلَهُنَّ: الْمُعَوِّذَتَيْنِ ثُمَّ قَرَأَهُمَا**»(١)، فهي تعوُّذات عظيمة وتحصُّنات مباركة، يقرأ المسلم هذه السُّور الثَّلاث وينفث فِي يده، ثمَّ يمسح بيده مَا استطاع من بدنه ما أقبل منه وأدبر؛ تحصينًا كاملًا لجميع البدن.

ولهذا جاء فِي الحديث الصَّحيح أنَّ زكريَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ قال لقومه: «**آمُرُكُمْ بِذِكْرِ اللهِ، فَإِنَّ مَثَلَ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ مَثَلِ رَجُلٍ انْطَلَقَ خَلْفَهُ الْعَدُوُّ سِرَاعًا فَأَوَى إِلَى حِصْنٍ حَصِينٍ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ عَدُوُّهُ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهِ**»(٢)؛ فهذا مثل الذَّاكر، كَأنَّه دخل فِي حصنٍ مغلق فلا يستطيع عدوُّه أن يدخل عليه فِيه.

ومن أوراد النَّوم: ما رواه عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «**وَكَّلَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ بِحِفْظِ زَكَاةِ رَمَضَانَ، فَأَتَانِي آتٍ فَجَعَلَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ فَأَخَذْتُهُ، وَقُلْتُ: وَاللهِ لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: إِنِّي مُحْتَاجٌ، وَعَلَيَّ عِيَالٌ وَلِي حَاجَةٌ شَدِيدَةٌ، قَالَ: فَخَلَّيْتُ عَنْهُ، فَأَصْبَحْتُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ البَارِحَةَ»، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، شَكَا حَاجَةً شَدِيدَةً، وَعِيَالًا، فَرَحِمْتُهُ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، قَالَ: «أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ، وَسَيَعُودُ»، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ سَيَعُودُ، لِقَوْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِنَّهُ سَيَعُودُ، فَرَصَدْتُهُ، فَجَاءَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ، فَأَخَذْتُهُ، فَقُلْتُ: لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: دَعْنِي فَإِنِّي مُحْتَاجٌ وَعَلَيَّ عِيَالٌ، لَا أَعُودُ، فَرَحِمْتُهُ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، فَأَصْبَحْتُ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ شَكَا حَاجَةً شَدِيدَةً، وَعِيَالًا، فَرَحِمْتُهُ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، قَالَ: «أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وَسَيَعُودُ»، فَرَصَدْتُهُ الثَّالِثَةَ، فَجَاءَ يَحْثُو**

(١) رواه أحمد (١٧٣٥٥)، والدَّارميُّ (٣٤٨٤)، وصحَّحه الألبانيُّ في السِّلسلة الصَّحيحة (٣٤٩٩)، وفي صحيح الجامع (١٤٩٩).

(٢) رواه التِّرمذيُّ (٢٨٦٣)، وصحَّحه الألبانيُّ.

مِنَ الطَّعَامِ، فَأَخَذْتُهُ، فَقُلْتُ: لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَهَذَا آخِرُ ثَلَاثِ مَرَّاتٍ، أَنَّكَ تَزْعُمُ لَا تَعُودُ، ثُمَّ تَعُودُ قَالَ: دَعْنِي أُعَلِّمْكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللهُ بِهَا، قُلْتُ: مَا هُوَ؟ قَالَ: إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ، فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] حَتَّى تَخْتِمَ الآيَةَ، فَإِنَّكَ لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللهِ حَافِظٌ، وَلَا يَقْرَبَنَّكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، فَأَصْبَحْتُ فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ البَارِحَةَ»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، زَعَمَ أَنَّهُ يُعَلِّمُنِي كَلِمَاتٍ يَنْفَعُنِي اللهُ بِهَا، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، قَالَ: «مَا هِيَ»، قُلْتُ: قَالَ لِي: إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ مِنْ أَوَّلِهَا حَتَّى تَخْتِمَ الآيَةَ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾، وَقَالَ لِي: لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللهِ حَافِظٌ، وَلَا يَقْرَبَكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ -وَكَانُوا أَحْرَصَ شَيْءٍ عَلَى الخَيْرِ- فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَمَا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ، تَعْلَمُ مَنْ تُخَاطِبُ مُنْذُ ثَلَاثِ لَيَالٍ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ»، قَالَ: لَا، قَالَ: ذَاكَ شَيْطَانٌ». رواه البخاريُّ(١).

فهذا أيضًا من الأوراد العظيمة المأثورة عن نبيِّنا ﷺ والَّتي يُستحبُّ المحافظة عليها كلَّ ليلة إذا أوى المسلم إلى فراشه؛ أن يقرأ آية الكرسيِّ، وأنَّ مَن قرأها إذا أوى إلى فراشه؛ فإنَّه لا يزال عليه من الله حافظ، ولا يقربه الشَّيطان حتَّى يصبح، ففيها تحصينٌ تامٌّ للعبد.

وآية الكرسيِّ أعظم آية في كتاب الله سبحانه، كما جاء في صحيح مسلم من حديث أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يَا أَبَا الْمُنْذِرِ أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ»، قَالَ: قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «يَا أَبَا الْمُنْذِرِ أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟» قَالَ: قُلْتُ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ

(١) رواه البخاريُّ (٢٣١١).

ٱلْقَيُّومُۚ﴾، قَالَ: فَضَرَبَ فِي صَدْرِي وَقَالَ: «**وَاللهِ لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ**»(١)، أي: هنيئًا لك هذا العلم الَّذي ساقه الله لك ويسَّره لك.

وفي هذه الآية تقرير التَّوحيد بذِكر براهينه، حيث ذُكر فيها أكثرُ من عشرة براهين، وفيها ذكرٌ لخمسة أسماء حسنى لله، وفيها من صفات الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ ما يزيد على العشرين صفة.

ففيها من توحيد الله وتمجيده وتعظيمه وبيان تفرُّده بالكمال والجلال ما يحقِّق لِمَن قرأها الحفظَ والكفايةَ، فهي آيةٌ عظيمةٌ فيها من المعاني الجليلة والدَّلالات العميقة والمعارف الإيمانيَّة ما يدلُّ على عِظمها وجلالة شأنها. لكن ينبغي أن يقرأها المرء بصدقٍ، لا أن يقرأها بغفلةٍ وعدم استشعارٍ للتَّوحيد الَّذي دلَّت عليه؛ فإنَّه إن قرأها بصدقٍ كان لها عظيم الأثر في تحقيق الحفظ للعبد والكفاية.

---

(١) رواه مسلم (٨١٠).

٤٤
أذكار النَّوم (٢)

عن أبي مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النَّبيُّ ﷺ: «**مَنْ قَرَأَ بِالْآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي لَيْلَةٍ كَفَتَاهُ**». متَّفق عليه[١]، أي: قول الله تعالى ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ﴾ [البقرة: ٢٨٥] إلى آخر السُّورة.

وهاتان الآيتان عظيمتان؛ الأولى منهما: فيها تقرير الإيمان بذكر أصوله: ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾، وفيها أيضًا: الاستسلام لله ﴿وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ﴾، أي: استسلمنا وانقدنا لأمره طاعةً وذلًّا وخضوعًا.

والثَّانية: فيها الإخبار بأنَّ الله لا يكلِّف العباد ما لا يطيقون أو ما يشقُّ عليهم.

وتضمَّنت دعواتٍ عظيمات مباركات مستجابات؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ أخبر أنَّ الله قال: «قد فعلت»، أي: أجبت لمَن دعا بهذه الدَّعوات؛ فيُستحبُّ للمسلم أن يواظب مواظبةً مستمرَّةً على قراءة هاتين الآيتين كلَّ ليلة. ومعنى «**كَفَتَاهُ**»، أي: من شرِّ ما يؤذيه، وأمَّا قول مَن قال: معنى «**كَفَتَاهُ**»، أي: تكفيانه عن قيام اللَّيل؛ فهذا غير صحيح.

وقد ورد عن عليِّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّه قال: «**مَا أَرَى أَحَدًا يَعْقِلُ بَلَغَهُ الإِسْلَامُ يَنَامُ حَتَّى يَقْرَأَ آيَةَ الكُرْسِيِّ، وَخَوَاتِيمَ سُورَةِ البَقَرَةِ؛ فَإِنَّهَا مِنْ كَنْزٍ**

(١) رواه البخاريُّ (٥٠٠٩)، ومسلم (٨٠٨).

تَحْتَ العَرْشِ»[(١)]، وقوله: «إنَّها من كنزٍ تحت العرش» هذا ثابت عن نبيِّنا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ من حديث أبي ذرٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أُعْطِيتُ خَوَاتِيمَ سُورَةِ البَقَرَةِ مِنْ بَيْتِ كَنْزٍ مِنْ تَحْت العَرْشِ، لَمْ يُعْطَهُنَّ نَبِيٌّ قَبْلِي**». رواه أحمد[(٢)].

فهما ممَّا خصَّ الله تعالى به رسوله محمَّدًا ﷺ وأمَّته، وكما في الحديث عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «لمَّا أُسْرِي بِرَسُولِ اللهِ ﷺ انْتُهِي بِهِ إِلَى سِدْرَةِ المُنْتَهَى، وَهِيَ فِي السَّمَاءِ السَّادِسَةِ إِلَيْهَا يَنْتَهِي مَا يُعْرَجُ بِهِ مِنَ الأَرْضِ فَيُقْبَض مِنْهَا، وَإِلَيْهَا يَنْتَهِي مَا يُهْبط بِهِ مِنْ فَوْقِهَا فيُقْبَض مِنْهَا، قال: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ [النَّجم: ١٦]، قال: فراش من ذهب، قالَ: فأُعطي رسول الله ﷺ ثلاثًا: أُعطي الصَّلوات الخمس، وأُعْطِي خَوَاتِيمَ سُورَةِ البَقَرَةِ، وَغُفِرَ لِمَنْ لَا يُشْرِكُ بِاللهِ مِنْ أُمَّتِهِ شَيْئًا المُقْحمات». رواه مسلم[(٣)].

وعن ابن عبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: بينما جبريل قاعد عند النَّبيِّ ﷺ سمع نقيضًا من فوقه، فرفع رأسه، فقال: «**هَذَا بَابٌ مِنَ السَّمَاءِ فُتِحَ اليَوْمَ، لَمْ يُفْتَحْ قَطُّ إِلَّا اليَوْمَ، فَنَزَلَ مِنْهُ مَلَكٌ، فَقَالَ: هَذَا مَلَكٌ نَزَلَ إِلَى الأَرْضِ لَمْ يَنْزِلْ قَطُّ إِلَّا اليَوْمَ، فَسَلَّمَ، وَقَالَ: أَبْشِرْ بِنُورَيْنِ أُوتِيتَهُمَا لَمْ يُؤْتهما نَبِيٌّ قَبْلَكَ: فَاتِحَة الكِتَابِ، وَخَوَاتِيم سُورَةِ البَقَرَةِ، لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهُمَا إِلَّا أُعْطِيتَهُ**». رواه مسلم[(٤)].

قوله: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، إخبار عن النَّبيِّ ﷺ، وشهادة من الله له عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بإيمانه بما أُنزل إليه من ربِّه؛ وذلك

---

(١) رواه الدَّارميُّ في السُّنن (٣٤٢٧).

(٢) رواه أحمد (٢١٣٤٤) وصحَّحه الألبانيُّ في السِّلسلة الصَّحيحة (١٤٨٢)، وفي صحيح الجامع (١٠٦٠).

(٣) رواه مسلم (١٧٣).

(٤) رواه مسلم (٨٠٦).

يتضمَّن إعطاءه ثواب أكمل أهل الإيمان زيادةً على ثواب الرِّسالة والنُّبوَّة؛ لأنَّه ﷺ شارك المؤمنين في الإيمان ونال منه أعلى مراتبه، وامتاز عنهم بالرِّسالة والنُّبوَّة.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ﴾ عطفٌ على ﴿ٱلرَّسُولُ﴾، وهو شهادة للمؤمنين بأنَّهم آمنوا بما آمن به رسولهم ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾، شهادة لهم جميعًا بالإيمان بالقواعد الخمسة الَّتِي لا يكون أحد مؤمنًا إلَّا بها، وهي: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر.

وقوله: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾، حكايةٌ عن أهل الإيمان أنَّهم يقولون هذا، أي: أنَّهم لا يفرِّقون بين أحد من رسل الله، بل يؤمنون بجميعهم.

وقوله: ﴿وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ﴾، أي: سمعنا قولك يا ربَّنا وفهمناه وقمنا به، وامتثلنا العمل بمقتضاه. وهذا إقرار منهم بركني الإيمان الَّذَين لا يقوم إلَّا بهما وهما: السَّمع المتضمِّن للقبول، والتَّسليم والطَّاعة المتضمِّنة لكمال الانقياد وامتثال الأمر.

ثمَّ قالوا: ﴿غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾؛ لأنَّهم علموا أنَّهم لن يفوا مقام الإيمان حقَّه مع القبول والطَّاعة الَّذي يقتضيه منهم، وأنَّهم لا بدَّ أن تميل بهم غلبات الطِّباع ودواعي البشريَّة إلى بعض التَّقصير في واجبات الإيمان، وأنَّه لا يلمُّ شعث ذلك إلَّا مغفرة الله لهم؛ فسألوه غفرانه الَّذي هو غاية سعادتهم ونهاية كمالهم، فقالوا: ﴿غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا﴾، ثمَّ اعترفوا أنَّ مصيرهم ومردَّهم إلى مولاهم الحقِّ الَّذي لا بُدَّ لهم من الرُّجوع إليه، فقالوا: ﴿وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾، وهذا إيمانٌ باليوم الآخر. فتضمَّنت هذه الكلمات إيمانهم به، ودخولهم تحت

طاعته وعبوديَّته، واعترافهم بربوبيَّته، واضطرارهم إلى مغفرته، واعترافهم بالتَّقصير في حقِّه، وإقرارهم بالرُّجوع إليه يوم الحساب.

وقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، أي: لا يكلِّف الله أحدًا فوق طاقته، بل جميع ما كلَّف عباده به أمرًا ونهيًا فهم مطيقون له قادرون عليه، وهذا من لطفه تعالى بخلقه ورأفته بهم وإحسانه إليهم.

وقوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، أي: للنَّفس ما كسبت من خير، وعليها ما اكتسبت من شرٍّ؛ وذلك في الأعمال الَّتي تحت التَّكليف. وفي هذا بيانٌ أنَّ ثمرة التَّكليف وغايته عائدة على العباد، وأنَّه سبحانه يتعالى عن انتفاعه بكسبهم وتضرُّره باكتسابهم، كما في الحديث القدسيِّ: «يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي، فَتَنْفَعُونِي»[(١)]، بل لهم كسبهم ونفعه، وعليهم اكتسابهم وضرره، كما قال تعالى: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [الإسراء: ١٥]، فلم يأمرهم تعالى بما أمرهم به حاجةً منه إليهم، بل رحمةً وإحسانًا وتكرُّمًا، ولم ينههم عمَّا نهاهم عنه إلَّا حميةً لهم وحفظًا وصيانةً وعافية.

وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]؛ إرشادٌ من الله تعالى للمؤمنين إلى هذا الدُّعاء، وذلك أنَّ ما كَلَّف به عباده عهودٌ ووصايا تجب مراعاتها والمحافظة عليها وعدم الإخلال بشيء منها، لكنْ غلبات الطِّباع البشريَّة تأبى إلَّا النِّسيان والخطأ والضَّعف والتَّقصير، فكان في هذا الدُّعاء سؤال المؤمنين ربَّهم مسامحته إيَّاهم في ذلك كلِّه ورفْع موجبه عنهم. وفي الحديث عن ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**إِنَّ اللهَ وَضَعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ وَالنِّسْيَانَ وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ**». رواه ابن ماجه[(٢)].

---

(١) رواه مسلم (٢٥٧٧).

(٢) رواه ابن ماجه (٢٠٤٥)، وصحَّحه الألبانيُّ.

وهذا من عظيم منِّ الله وواسع فضله سبحانه أنْ تجاوز عن عباده ما وقع منهم من قبيل الخطأ والنِّسيان أو على سبيل الإكراه؛ فله الحمد على فضله وإحسانه، وله الشُّكر سبحانه على منِّه وإكرامه.

وقوله: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، أي: لا تكلِّفنا من الأعمال الشَّاقَّة وإنْ أطقناها، كما شرعْته للأمم السَّابقة قبلنا من الأغلال والآصار الَّتي كانت عليهم. وهذا سؤالٌ للتَّخفيف في أمره تعالى ونهيه، وقد بُعث نبيُّنا ﷺ بذلك، كما قال ﷺ: «**إِنِّي أُرْسِلْتُ بِحَنِيفِيَّةٍ سَمْحَةٍ**». رواه أحمد من حديث أمِّ المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا(١).

وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، سؤالٌ في القضاء والقدر والمصائب والبلاء، أي: لا تبتلينا بما لا قِبل لنا به؛ وذلك أنَّهم لمَّا علِموا أنَّهم غير منفكِّين عمَّا يأمرهم به وينهاهم عنه، سألوه التَّخفيف في قضائه وقدره كما سألوه التَّخفيف في أمره ونهيه.

وقوله تعالى: ﴿وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، أي: اعفُ عنَّا فيما بيننا وبينك ممَّا تعلمه من تقصيرنا وزللنا، واغفر لنا فيما بيننا وبين عبادك، فلا تُظهرهم على مساوينا وأعمالنا القبيحة، وارحمنا فيما يُستقبل بأن لا نقع في ذنوب أُخر، ولهذا يقال: **إنَّ المذنب محتاج إلى ثلاثة أشياء:**

١- أن يعفو الله عنه فيما بينه وبينه.

٢- وأن يستره عن عباده فلا يفضحه به بينهم.

٣- وأن يسلِّمه فيما بقي فلا يقع في نظيره.

---

(١) رواه أحمد (٢٤٨٥٥)، وقال الألبانِيُّ في السِّلسلة الصَّحيحة (٤/ ٤٤٣): إسناده جيِّد.

وهذه الثَّلاثة الَّتي تضمَّنها هذا الدُّعاء -وهي: العفو، والمغفرة، والرَّحمة- هي مدار سعادة العبد وفلاحه، فالعفو متضمِّن لإسقاط حقِّ الله ومسامحتهم به، والمغفرة متضمِّنة لوقايتهم شرَّ ذنوبهم وإقباله عليهم ورضاه عنهم، والرَّحمة متضمِّنة للأمرين مع زيادة الإحسان والعطف والبِرِّ، فالثَّلاثة تتضمَّن النَّجاة من الشَّرِّ والفوز بالخير.

وقوله تعالى: ﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، أي: أنت وليُّنا وناصرنا، وعليك توكُّلنا وأنت المستعان، ولا حول ولا قوَّة لنا إلَّا بك. وهذا توسُّلٌ باعترافهم أنَّه سبحانه مولاهم الحقُّ الَّذي لا مولى لهم سواه، فهو ناصرهم وهاديهم وكافيهم ومُعينهم ومجيب دعواتهم ومعبودهم الحقُّ لا معبود لهم سواه.

وقوله تعالى: ﴿فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦] دعاءٌ بالنَّصر على الأعداء، ويتضمَّن ذلك قهرهم، وشفاء صدورهم منهم، وإذهاب غيظ قلوبهم، كما يتضمَّن التَّمكُّن من إعلان عبادة ربِّهم وإظهار دينه وإعلاء كلمته.

٤٥
أذكار النَّوم (٣)

عن حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «**كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ قَالَ: بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ أَمُوتُ وَأَحْيَا، وَإِذَا قَامَ قَالَ: الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النُّشُورُ**». رواه البخاريُّ[(١)].

هذا ذكرٌ كان النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يحافظ عليه كلَّما أوى إلى فراشه، جاء في بعض رواياته: «**كَانَ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ**»، وفي بعضها: «**كَانَ إِذَا أَخَذَ مَضْجعَهُ**»، أي: نام على جنبه.

قوله: «**بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ أَمُوتُ وَأَحْيَا**»؛ الباء للاستعانة، والمعنى: أنام مستعينًا بك طالبًا حفظك. «**أَمُوتُ وَأَحْيَا**»، أي: أنا على هذا الحال ذاكرًا لاسمك معظِّمًا لجنابك، على ذلك أموت وأحيا، فبذكر اسمكَ أحيا ما حييتُ وعليه أموتُ. وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ المسلمَ لا غنى له عن ذكر ربِّه طرْفةَ عينٍ؛ عند نومِه وفي يقظَته وفي جميع شؤونه، فها هو عند النَّوم يختمُ أعمالَه بذكر الله، وعند الانتباه يكون أوَّلَ أعماله ذكرُ الله، ثمَّ هو في جميع أحايينه محافظًا على ذكر الله، فعلى ذكره سبحانه يحيا، وعليه يموت، وعليه يُبعثُ يومَ القيامة.

وقدَّم الموت في الذِّكر على الحياة؛ لأنَّه هو الَّذي سيصير إليه المرء بالنَّوم الَّذي هو شبيهٌ بالموت مذكِّرٌ به. وقدَّم ذكر الحياة عند الاستيقاظ؛ لأنَّه الشَّيء الَّذي حصل له حياةٌ بعد موت.

---

(١) رواه البخاريُّ (٦٣١٢).

وذكر الموت عند إرادة النَّوم فيه دلالةٌ على أنَّ النَّوم نفسَه موتٌ ووفاة كما قال الله: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ﴾ [الزُّمر: ٤٢]؛ ولهذا قال في تمامه عند الاستيقاظ: «**الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا**»، إشارةً إلى أنَّ النَّوم الَّذي كان عليه الإنسان يُعدُّ موتًا، والنَّائم يشبه الميِّت.

وقوله إذا استيقظ: «**الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا**»، فيه حمد الله على هذه النِّعمة أنْ يسَّر له الاستيقاظ من هذا النَّوم، فكم من إنسانٍ اضطجع ونام وكانت هي نومته لم يقم منها، فيحمد الله على أن أقامه صحيحًا معافًى، يتابع مصالحه الدِّينيَّة والدُّنيويَّة بعد أنْ أخذ حظًّا من الرَّاحة ونصيبًا من السُّكون الَّذي يسَّره الله له؛ فيحمد الله على هذه النِّعمة العظيمة والمِنَّةِ الجسيمة نعمة الإحياءُ بعد الإماتة، أي: الاستيقاظُ بعد النَّوم، ومن المعلوم أنَّ الإنسانَ حالَ نومِه يتعطَّلُ عن الانتفاع بهذه الحياة والتَّمكُّنِ من أداء العبادات، فإذا استيقظ زال عنه ذلك المانعُ، وأُعطي فسحةً في العمر ليعمل الصَّالحات وليتقرَّب إلى الله جَلَّ وَعَلَا؛ فعليه أن يستشعر هذه النِّعمة، وأن يحمد الله على هذه المنَّة، ولهذا شُرِع له أن يبادر إلى الحمد، فهو يحمدُ اللهَ جَلَّ وَعَلَا على هذا الإنعام ويشكرُه سبحانه على هذا العطاء والإكرام.

﴿ **ومن فوائدِ النَّومِ العظيمة:** أنَّه يُذكِّرُ الإنسانَ بالموت الَّذي هو نهايةُ كلِّ إنسانٍ ومآلُ كلِّ حيٍّ إلَّا الحيَّ الَّذي لا يموت، فالنَّومة موتةٌ، وَالقَوْمَة منه حياة. وإذا كان شأن النَّوم كذلك؛ فإنَّ النَّومة من أعظم المذكِّرات للعبد بالموت، الموت الَّذي يُفارق به العبدُ هذه الحياةُ الدُّنيا، فالنَّومة تذكِّرك يوميًّا الموتة الَّتي تنتقل بها من هذه الحياة، بل أحيانًا عندما ينام الإنسان يجد نفسه دخل جنَّةً وبساتين وأنهارًا فيقوم فرحًا يُرى الفرحُ على وجهه، وأحيانًا ينام ويدخل في عذاب وشدائد فيقوم فزعًا يُرى الفزعُ على وجهه، وهذا كلُّه يذكِّر بالموت وما بعده وما يكون فيه من نعيم أو عذاب.

وفي الاستيقاظ من النَّوم دلالةٌ على قدرة الله سبحانه على بعث الأجساد بعد موتها وإحيائها بعد وفاتها؛ ولهذا قال عند الاستيقاظ: «**الحمدُ لله الَّذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النُّشور**»، والنُّشورُ هو البعثُ يوم القيامة والإحياءُ بعد الإماتة، فنبَّهَ بإعادة اليقظَة بعد النَّوم -الَّذي هو موتٌ كما تقدَّم- على إثبات البعث بعد الموت يوم القيامة؛ يوم يقوم النَّاسُ لربِّ العالمين. ولهذا ثبت في مسند الإمام أحمد والأدب المفرد من حديث البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان النَّبيُّ ﷺ إذا أراد أن ينام وضع يدَه تحت خدِّه الأيمن وقال: «**اللَّهُمَّ قِنِي عَذَابَكَ يَوْمَ تَبْعَثُ عِبَادَكَ**»[(١)].

ومن فوائد ذلك: أنَّه يأتي مذكِّرًا للعبد؛ كما أنَّك قمت من فراشك من هذه الموتة بمنَّة الله فسيحصل لك بعثٌ ونشورٌ وقيام من القبور لربِّ العالمين، فإذا قال: «**وإليه النُّشور**» مستحضرًا هذا المعنى فُتح له باب الاستعداد والتَّهيُّؤ للنُّشور والقيامِ بين يدي الله والمجازاةِ على الأعمال، وكأنَّه قيل لك: النُّشور إلى الله وقد أُعطيت فرصةً للعمل فاستعدَّ وتهيَّأ وأقبِلْ على الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النَّبيُّ ﷺ: «**إِذَا أَوَى أَحَدُكُمْ إِلَى فِرَاشِهِ فَلْيَنْفُضْ فِرَاشَهُ بِدَاخِلَةِ إِزَارِهِ؛ فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي مَا خَلفه عَلَيْه، ثُمَّ يَقُولُ: بِاسْمِكَ رَبِّي وَضَعْتُ جَنْبِي، وَبِكَ أَرْفَعُهُ، إِنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِي فَارْحَمْهَا، وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ**». متَّفق عليه[(٢)].

وهذا الحديث من الأذكار العظيمة المأثورة عن نبيِّنا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فيما يُستحبُّ للمسلم أن يقوله إذا أوى إلى فراشه، وفيه أنَّ أوَّل ما يبدأ به: ينفض فراشه بداخلة إزاره، وذلك ليزيل ما قد يكون عليه من شيءٍ يُخشى أن يضرَّ النَّائم.

(١) رواه أحمد (١٨٦٦٠)، والبخاريُّ في الأدب المفرد (١٢١٥)، وصحّحه الألبانيُّ.
(٢) رواه البخاريُّ (٦٣٢٠)، ومسلم (٢٧١٤).

ꕥ **والإزار:** هو ما يأتزر به الإنسان ويلفُّه على جزء بدنه الأسفل، وهو اللِّباس الَّذي يلبسه المحرِم، ومن المعلوم أنَّ ما يُلفُّ على البدن له طرف، وإذا فَكَّ اللَّابس طرفه؛ فإنَّه يستطيع أن ينفض به الفراش، بخلاف الثَّوب لو أراد المرء أن ينفض بطرفه فراشه ما استطاع، بينما الأمر في الإزار أيسر! يحلُّ طرفه وينفض الفراش بداخِلته، والمراد بالدَّاخلة: طرف الإزار الَّذي يلي الجسد، وجاء في رواية: «**بِصَنِفَةِ إزارِهِ**»، وهي الحاشية الَّتي تلي الجلد.

وإذا كان على المرء قميص أو ثوب ولم يمكِّنه أن يفعل هذا؛ فلينفض فراشه بما تيسَّر له، والنَّبيُّ ﷺ لمَّا ذكر هذا الأمر بيَّن العلَّة، فقال: «**فإِنَّهُ لَا يَدْرِي مَا خلَفَهُ عَلَيْهِ**»، فقد يخلفه على فراشه حشرة مؤذية، أو قذر، أو شيء يسير من الطَّعام فربَّما كان سببًا لاستجلاب الهوامِّ أو الحشرات إلى فراشه، وإذا كان في البيت الفويسقة وهي الفأرة فقد تستجلب بعض الأذى إلى الفراش، كما أنَّها تؤذي بإفساد حاجة الإنسان، وتؤذي أيضًا بإضرام النَّار في البيت؛ روى أبو داود في سننه عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: جَاءَتْ فَأْرَةٌ فَأَخَذَتْ تَجُرُّ الْفَتِيلَةَ فَجَاءَتْ بِهَا فَأَلْقَتْهَا بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَلَى الْخُمْرَةِ الَّتِي كَانَ قَاعِدًا عَلَيْهَا فَأَحْرَقَتْ مِنْهَا مِثْلَ مَوْضِعِ الدِّرْهَمِ، فَقَالَ: «**إِذَا نِمْتُمْ فَأَطْفِئُوا سُرُجَكُمْ؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَدُلُّ مِثْلَ هَذِهِ عَلَى هَذَا فَتَحْرِقُكُمْ**»(١).

وقد يفعل ذلك الشَّيطان روى البخاريُّ في الأدب المفرد عن أَبي أُمَامَةَ قال: «**إِنَّ الشَّيْطَانَ يَأْتِي إِلَى فِرَاشِ أَحَدِكُمْ بَعْدَمَا يَفْرِشُهُ أَهْلُهُ وَيُهَيِّئُونَهُ، فَيُلْقِي عَلَيْهِ الْعُودَ أَوِ الْحَجَرَ أَوِ الشَّيْءَ، لِيُغْضِبَهُ عَلَى أَهْلِهِ، فَإِذَا وَجَدَ ذَلِكَ فَلَا يَغْضَبْ عَلَى أَهْلِهِ، قَالَ: لِأَنَّهُ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ**»(٢).

(١) رواه أبو داود (٥٢٤٧)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٢) رواه البخاريُّ في الأدب المفرد (١١٩١)، وصحَّحه الألبانيُّ.

وقد يكون هذا من أحد الأولاد الصِّغار الجُهَّال مرَّ على الفراش وبيده طعام فوقع شيء منه على الفراش، وقد يدفعه الشَّيطان إلى مثل هذا. فهذه الأمور كلُّها أمور متوقَّعة، وقد أرشدَ النَّبيُّ ﷺ هذا الإرشاد الكريم المبارك أن ينفض المرء فراشه بهذه الطَّريقة الموصوفة في الحديث بهذه الأريحيَّة وبهذا الأدب الَّذي وجَّه إليه نبيُّنا الكريم ﷺ، وقال: «**فإِنَّهُ لَا يَدْري ما خلَفَهُ عليْهِ**»، دون بحثٍ ومن أين؟ ولماذا؟ وكثرةِ لوم وغضبٍ شديد على أهله، بل تُترك هذه الرُّعونة الَّتي قد تكون من بعض الرِّجال في البيوت بعدم احتمال أدنى شيء أو أقلَّ القليل.

قوله: «**بِاسْمِكَ ربِّي**»، ذكر هذا الاسم العظيم متوسِّلًا إلى الله تَبَارَكَوَتَعَالَى به، **وربوبيَّة الله تَبَارَكَوَتَعَالَى لخلقه نوعان:**

١- **ربوبيَّة عامَّة**؛ ومن معانيها: الخلق، والرِّزق، والملك، والإنعام، والتَّدبير... إلى غير ذلك.

٢- **وربوبيَّة خاصَّة**، أي: بعباده المؤمنين وحزبه المتَّقين، وهذه تعني تربيتهم على الإيمان والهداية والاستقامة والمحافظة على طاعة الله. وكثيرًا ما يأتي في دعوات الأنبياء نداءُ الله رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ بهذا الاسم «ربِّي»، توسُّلًا إليه بهذه التَّربية الخاصَّة؛ تربية التَّوفيق والهداية والمنَّة بالإسلام والاستقامة على طاعة الله تَبَارَكَوَتَعَالَى.

قوله: «**وَضَعْتُ جَنْبِي، وَبِكَ أَرْفَعُه**»، أي: أنَّ اضطجاعي على الفراش وكذلك قيامي ونهوضي منه كلَّه بك، أي: بمعونتك يا الله، وتيسيرك ومَنِّك وفضلك؛ فينام مستعينًا بالله مستشعرًا أنَّه طوع تدبيره وتصريفه رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

وقوله: «**إِنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِي فَارْحَمْهَا، وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ**

بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ»، هذا فيه أنَّ مَن أراد أن ينام لا يدري أروحه تُرسل أو تقبض في نومته، فيسأل الله إن قُبضت أن يرحمها، وإن أُرسلت أن يحفظها وأن يتولَّاها بما يتولَّى به عباده الصَّالحين. وهذا فيه أنَّ روح العابد بيد الله الَّذي أوجدها من العدم، فهو سبحانه إن شاء أمسكها حال نوم الإنسان فيصبح في عداد الموتى، وإن شاء أرسلها فيبقى على قيد الحياة، لله سبحانه مماتُها ومحياها.

وقوله: «**بِما تحفَظُ بِهِ عبادَكَ الصَّالِحينَ**»، لم يطلب مجرَّد الحفظ الَّذي تصلح به الأجساد، بل طلب الحفظ الَّذي خصَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى به عبادَه الصَّالحين؛ حفظهم بالإيمان والاستقامة والطَّاعة والرِّعاية لأوامر الله والبعد عن نواهيه، وحفظهم من أنواع الأذى والشُّرور.

٤٦

أذكار النَّوم (٤)

عن البراء بن عازب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قال: قال النَّبيُّ ﷺ: «**إِذَا أَخَذْتَ مَضْجَعَكَ فَتَوَضَّأْ وُضُوءَكَ لِلصَّلَاةِ، ثُمَّ اضْطَجِعْ عَلَى شِقِّكَ الأَيْمَنِ، ثُمَّ قُل: «اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ وَوَجَّهْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ، لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ، آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ»، وَاجْعَلْهُنَّ مِنْ آخِرِ كَلَامِكَ؛ فَإِنْ مُتَّ مِنْ لَيْلَتِكَ مُتَّ وَأَنْتَ عَلَى الْفِطْرَةِ» قَالَ: فَرَدَّدْتُهُنَّ لأَسْتَذْكِرَهُنَّ، فَقُلْتُ: «آمَنْتُ بِرَسُولِكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ»، قَالَ: «لَا، قُلْ: آمَنْتُ بِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ»**(١).

هذا من أوراد النَّوم العظيمة الثَّابتة عن نبيِّنا عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، وقد اشتمل على بعض الآداب الَّتي يحسُن بالمسلم أن يأتي بها عندما يأوي إلى فراشه، وأوَّل ذلك: أن يتوضَّأ وضوءه للصَّلاة؛ لينام على طهارة، وليكون على أكمل أحواله عند نومه، وأيضًا من أجل أن يأتي بأذكار النَّوم وهو على طهارة، وهذا أكمل، ثمَّ ينام على شقِّه الأيمن؛ لأنَّه ﷺ كان يعجبه التَّيمُّن وهو أكمل أحوال الإنسان في نومه، وقد تقدَّم قول النَّبيِّ ﷺ: «**بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ وَضَعْتُ جَنْبِي**».

قوله: «**اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ**»، أي: إنَّني -يا الله- قد رضيتُ تمام الرِّضا أن تكون نفسي تحت مشيئتك، تَتَصرَّف فيها بما شئتَ وتقضي فيها بما أردتَ من إمساكها أو إرسالها، فأنت الَّذي بيدك مقاليد السَّموات والأرض،

(١) رواه مسلم (٢٧١٠).

ونواصي العباد جميعهم معقودةٌ بقضائك وقدرك؛ تقضي فيهم بما أردتَ، وتحكم فيهم بما تشاء، لا رادَّ لقضائك ولا معقِّب لحكمك.

وقوله: «**وَوَجَّهْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ**»، أي: جعلت وجهتي وتوجُّهي وقصد قلبي إليك مخلصًا لا أبتغي إلَّا وجهك.

وقوله: «**وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ**»، أي: جعلتُ شأنِي كلَّه إليك؛ وفي هذا الاعتمادُ على الله عَزَّوَجَلَّ وحسن التَّوكُّل عليه، إذ لا حول للعبد ولا قوَّة إلَّا به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وقوله: «**وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ**»، أي: أسندتُه إلى حفظك ورعايتك؛ لمَا علِمتُ أنَّه لا سند يُتقوَّى به سواك، ولا ينفع أحدًا إلَّا حماك. وفي هذا إشارةٌ إلى افتقار العبد إلى الله عَزَّوَجَلَّ في شأنه كلِّه في نومه ويقظته وحركته وسكونه وسائر أحواله.

وقوله: «**رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ**»، أي: إنَّني أقول ما سبق كلَّه وأنا راغبٌ راهب؛ راغبٌ تمام الرَّغبة في فضلك الواسع وإنعامك العظيم، وراهبٌ منك ومن كلِّ أمرٍ يوقع في سخطك، وهذا هو شأن الأنبياء والصَّالحين من عباد الله؛ يجمعون في دعائهم بين الرَّغب والرَّهَب، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠].

وقوله: «**لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَى مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ**»، أي: لا ملاذ ولا مهرَبَ ولا مَخْلَصَ من عقوبتك إلَّا بالفزع إليك والاعتماد عليك، كما قال تعالى: ﴿فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الذَّاريات: ٥٠]، وكلُّ شيء تخافه تفرُّ منه، إلَّا ربَّ العالمين إذا تحقَّق فيك الخوف منه فررت إليه ولجأت إليه؛ لأنَّك تعلم أنَّ زوال خوفك وحصول نجاتك لا يكون إلَّا باللُّجوء إليه سبحانه.

وقوله: «**آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ**»، أي: آمنتُ بكتابك العظيم القرآن الكريم الَّذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تَنْزِيلٌ من حكيم حميد، وأقررت أنَّه وحيك وتَنْزيلك على عبدك ورسولك نبيِّنا محمَّد ﷺ، وأنَّه مشتملٌ على الحقِّ والهدى والنُّور. وآمنت كذلك بنبيِّك الَّذي أرسلتَ وهو محمَّد ﷺ عبد الله ورسوله وخيرته من خلقه، المبعوث رحمةً للعالمين، وبكلِّ ما جاء به، فهو لا ينطق عن الهوى إن هو إلَّا وحيٌ يوحى، فكلُّ ما جاء به فهو صدقٌ وحقٌّ.

وقوله: «**الَّذِي أَرْسَلْتَ**»، أي: إلى الثَّقلين بشيرًا ونذيرًا وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، فبلَّغ الرِّسالةَ، وأدَّى الأمانة، ونصح الأمَّة، وجاهد في الله حقَّ جهاده حتَّى أتاه اليقين.

قوله: «**وَاجْعَلْهُنَّ مِنْ آخِرِ كَلاَمِكَ**»، أرشد صلوات الله وسلامه عليه إلى أن يجعل المسلمُ هذا الدُّعاءَ في آخر الدَّعوات والأذكار الَّتي يقولها عند نومه؛ لتكون هذه الكلمات آخرَ كلام المسلم عند نومه. وفي هذا إشارة إلى أنَّ للنَّوم أذكارًا عديدة متنوِّعة لا يُكتفى بواحد منها، بل يؤتى منها بما استطاع المرء، ثمَّ ليكن آخر ما يقول منها هذا الدُّعاء.

قوله: «**فَإِنْ مُتَّ مِنْ لَيْلَتِكَ مُتَّ وَأَنْتَ عَلَى الْفِطْرَةِ**»، أي: على الإسلام، فالإسلام هو دين الفطرة، كما قال الله تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾ [الرُّوم: ٣٠]، وقال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ حَتَّى تَكُونُوا أَنْتُمْ تَجْدَعُونَهَا**»(١)، وفي الحديث القدسيِّ يقول الله تعالى: «**خَلَقْتُ**

(١) رواه البخاريُّ (١٣٥٨)، ومسلم (٢٦٥٨).

عِبَادِي حُنَفَاءَ، فَأَتَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ»(١).

وقد جاء في بعض روايات هذا الحديث أنَّه ﷺ قال: «**وَإِنْ أَصْبَحْتَ أَصَبْتَ خَيْرًا**»، أي: إن لَم تَمُت من ليلتك تلك أصبت في الصَّباح خيرًا، ثوابًا لك على اهتمامك بهذا الأمر. ونستفيد من هذا فائدة عظيمة، وهي: أنَّ المحافظة على هذه الأذكار بركة على العبد في حياته ومماته؛ فيُكتب له البركة في حياته وإصابة الخير، ويُكتب له التَّوفيق للموت على الفطرة، فيفوز بالسَّعادة ويتحقَّق له الفلاح.

وقد جمع هذا الدُّعاء الأصول الثَّلاثة الَّتي يُسأل عنها العبد إذا أدرج في قبره: «**مَن ربُّك؟ وما دينك؟ ومَن نبيُّك؟**»، وقد يموت المرء في نومته تلك، فكم هو عظيمٌ أن ينام على هذه الفطرة جامعًا هذه الأصول: التَّوحيدَ والإخلاص والإقرار بالدِّين، وبالكتاب، وبالرَّسول عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

وقوله: «**أَصَبْتَ خَيْرًا**»، نكَّر الخير الَّذي يُصاب ويُنال؛ تفخيمًا لأمره وبيانًا لعظمه، وفضل الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ واسع، والعطيَّة على قدر المعطي.

وفي قول النَّبيِّ ﷺ للبراء لَمَّا ردَّد الدُّعاءَ من أجل استذكاره: «**لَا، قُلْ آمَنْتُ بِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ**»؛ دليلٌ على أهميَّة التَّقيُّد بهذه الأذكار بألفاظها الواردة؛ لكمالها في مبناها ومعناها.

وهذا نستفيد منه: أنَّ المرء لو اجتهد في إنشاء ذكرٍ لا يأمن من خطأ أو نقص أو خلل، مهما كان علمه ومكانته، فالبراء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ لم يُنشئ ذكرًا من نفسه! بل أتى بالذِّكر الَّذي تلقَّاه من النَّبيِّ عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وتغيَّرت عنده لفظةٌ واحدةٌ فيه، فقال له النَّبيُّ ﷺ: «**لَا**»، وصحَّح له، فكيف بمَن يدع الأذكار المشروعة كلِّيَّةً

(١) رواه مسلم (٢٨٦٥).

ويستبدلها بأشياء يُنشئها ويستحسنها؟! وحقيق هؤلاء أن يقال لهم: لا ثم لا، وبهذا ندرك الحرمان الَّذي يناله مَن يبتعد عن الذِّكر المشروع المأثور عن نبيِّنا الكريم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ويستعيض عنها بأورادٍ محدثة وأذكارٍ مبتدعة.

ويستفاد منه أيضًا: ضرورة المحافظة على الدَّعوات المأثورة والأذكار الواردة بألفاظها النَّبويَّة الثَّابتة عن النَّبيِّ ﷺ، وهذا لا يتمُّ إلَّا بهذه الطَّريقة الواردة في هذا الحديث؛ تسمع الذِّكر أوَّلًا من حافظٍ له متقن، ثمَّ تعرض عليه حفظك له حتَّى تستثبت من سلامته من الغلط. وهذا العرض له مكانة معروفة عند المحدِّثين، عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ أَنَّهُ قَالَ لِابْنِهِ هِشَام: «**كَتَبْتَ؟**» قَالَ: «**نَعَمْ**»، قَالَ: «**عَرَضْتَ كِتَابَكَ؟**» قَالَ: «**لَا**»، قَالَ: «**لَمْ تَكْتُبْ**»[(١)].

والغرض من عرضها التَّأكُّد من صحَّتها وسلامتها ودقَّة ألفاظها، فتغيُّر الحركة الإعرابيَّة مثلاً يغيُّر المعنى، وتبدُّل كلمة بأخرى يغيِّره، وأحيانًا نطق الكلمة على غير نطقها الصَّحيح لغةً يُغيِّر المعنى، كأنْ يمدَّ في الكلمة مدًّا في غير موضعه، فالحاجة إذاً إلى العرض شديدة حتَّى يضبط هذه الأذكار ضبطًا صحيحًا بألفاظها المأثورة عن نبيِّنا صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ.

وفي فتاوى اللَّجنة الدَّائمة للإفتاء قال مشايخنا الكرام: «الأصل في الأذكار وسائر العبادات الوقوف عند ما ورد من عباراتها وكيفيَّاتها في كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ، لما رواه البخاريُّ وغيره عن البراء بن عازب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال النَّبيُّ ﷺ: «**إِذَا أَتَيْتَ مَضْجعَكَ فَتَوَضَّأْ وُضُوءَكَ لِلصَّلَاةِ، ثُمَّ اضْطَجِعْ عَلَى شِقِّكَ الأَيْمَنِ، ثُمَّ قُلْ: اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ، لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ،**

(١) ذكره البيهقيُّ في المدخل إلى السُّنن الكبرى (٧٧٨)، والخطيب البغداديُّ في الكفاية (١/ ٢٣٧).

آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ؛ فَإِنْ مُتَّ مِنْ لَيْلَتِكَ فَأَنْتَ عَلَى الفِطْرَةِ، وَاجْعَلْهُنَّ آخِرَ مَا تَقُولُ»، فقلت أستذكرهنَّ: وبرسولك الَّذي أرسلت، قال: «**لَا، وَنبيِّك الَّذِي أَرْسَلْتَ**»[1]، فأبى النَّبيُّ ﷺ على البراء بن عازب أن يضع كلمة: ورسولك، مكان كلمة: ونبيِّك، في الذِّكر والدُّعاء عند النَّوم»[2].

(١) رواه البخاريُّ (٢٤٧)، ومسلم (٢٧١٠).
(٢) فتاوى اللَّجنة الدَّائمة (٦/ ٩٠).

٤٧
أذكار النَّوم (٥)

عن عليِّ بن أبي طالبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّ فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أتت النَّبيَّ ﷺ تسأله خادمًا، فقال: «**أَلَا أُخْبِرُكِ مَا هُوَ خَيْرٌ لَكِ مِنْهُ؟ تُسَبِّحِينَ اللهَ عِنْدَ مَنَامِكِ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَتَحْمَدِينَ اللهَ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَتُكَبِّرِينَ اللهَ أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ**»، **ثُمَّ قَالَ سُفْيَانُ: إِحْدَاهُنَّ أَرْبَعٌ وَثَلَاثُونَ، فَمَا تَرَكْتُهَا بَعْدُ**»، قيل: ولا ليلة صفِّين؟ قال: «**ولا ليلة صفِّين**». متَّفق عليه(١).

في هذا الحديث قصَّة مجيء فاطمة بنت النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ورضي عنها إلى والدها صلوات الله وسلامه عليه تسأله خادمًا ليخفِّف عنها؛ لما كانت تجده من المشقَّة في العمل، وقد رُوي في سنن أبي داود عن عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّه قال في وصف ما كانت تجده من مشقَّة في أعمالها: «**إِنَّهَا جَرَّتْ بِالرَّحَى حَتَّى أَثَّرَ فِي يَدِهَا، وَاسْتَقَتْ بِالْقِرْبَةِ حَتَّى أَثَّرَ فِي نَحْرِهَا، وَكَنَسَتِ الْبَيْتَ حَتَّى اغْبَرَّتْ ثِيَابُهَا**»(٢).

فأرشدها النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إلى أمرٍ هو خيرٌ لها من خادم، وشوَّقها إليه. قال: «**أَلَا أُخْبِرُكِ مَا هُوَ خَيْرٌ لَكِ مِنْ خَادِمٍ**»؛ فلمَّا تهيَّأت نفسها وتحفَّزت لمعرفة هذا الأمر الَّذي هو خير لها من خادم، قال لها: «**تُسَبِّحِينَ اللهَ عِنْدَ مَنَامِكِ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَتَحْمَدِينَ اللهَ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَتُكَبِّرِينَ اللهَ أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ**»، فيكون مجموع ذلك مائة.

---

(١) رواه البخاريُّ (٥٣٦٢)، ومسلم (٢٧٢٧).
(٢) رواه أبو داود (٢٩٨٨).

ففرحت بذلك وعنيت به رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وفرح به أيضًا زوجها عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حتَّى إنَّه أخبر عن شدَّة مواظبته عليه أنَّه ما تركه منذ سمعه من رسول الله ﷺ، قيل له: «**وَلَا لَيْلَةَ صِفِّين؟**» وهي اللَّيلة الَّتي دار فيه القتال بينه وبين أهل الشَّام، فقال: «**وَلَا لَيْلَةَ صِفِّين**»، أي: ما تركه ولا تلك اللَّيلة مع شدَّة الأمر فيها.

وقد أخذ العلماء من هذا الحديث: أنَّ من فضائل الذِّكر وفوائدِه العظيمة أنَّه يعطي الذَّاكرَ قوَّةً في بدنه وصحَّته ونشاطه وهمَّته، وفي هذا يقول ابنُ القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «الذِّكر يعطي الذَّاكر قوَّة حتَّى إنَّه ليفعل مع الذِّكر ما لم يظنَّ فعله بدونه، وقد شاهدتُ من قوَّة شيخ الإسلام ابن تيميَّة في سننه وكلامه وإقدامه وكتابه أمرًا عجيبًا؛ فكان يكتب في اليوم من التَّصنيف ما يكتبه النَّاسخ في جمعه وأكثر، وقد شاهد العسكر من قوَّته في الحرب أمرًا عظيمًا...»، ثمَّ أورد حديثَ عليٍّ المتقدِّم، وقال عقِبَه: «فقيل إنَّ من داوم على ذلك وجد قوَّةً في بدنِه مُغنيةً عن خادم»[(١)].

وذكر: في فوائد الذِّكر «أنَّه قوت القلب والرُّوح فإذا فقده العبد صار بمنزلة الجسم إذا حيل بينه وبين قوَّته»، قال: وحضرت شيخ الاسلام ابن تيميَّة: مرَّة صلَّى الفجر، ثمَّ جلس يذكر الله إلى قريب من انتصاف النَّهار، ثمَّ التفت إليَّ وقال: هذه غدوتي، ولو لم أتغدَّ الغداء سقطت قوَّتي أو كلامًا قريبًا منه[(٢)]. ونقل: عن شيخ الإسلام ابن تيميَّة أنَّه قال: «بَلَغنا أنَّه مَن حافظ على هؤلاء الكلمات لَم يأخذه إعياءٌ فيما يعانيه من شغلٍ وغيره»[(٣)].

وهذا يُفسِّر لنا حالَ كثير من الصُّلحاء المحافظين على طاعة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في نشاطهم وعلوِّ همَّتهم، وتبكيرهم إلى بيوت الله، وقطع المسافة الطَّويلة ذهابًا

---

(١) الوابل الصَّيِّب (ص٧٧).
(٢) الوابل الصَّيِّب (ص٤٢).
(٣) الوابل الصَّيِّب (ص٩٧).

إليها، مع شدَّة ضعف أبدانهم وكبر سنِّهم! فهذا كلُّه من آثار المواظبة على ذكر الله والمحافظة عليه، فالله عَزَّوَجَلَّ يمدُّ أجسامهم بقوَّة ونشاط، ويحفظها لهم.

وقد جاء في رواية لهذا الحديث في صحيح مسلم عن عَلِيٍّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أَنَّ فَاطِمَةَ اشْتَكَتْ مَا تَلْقَى مِنَ الرَّحَى فِي يَدِهَا، وَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ سَبْيٌ فَانْطَلَقَتْ فَلَمْ تَجِدْهُ وَلَقِيَتْ عَائِشَةَ فَأَخْبَرَتْهَا، فَلَمَّا جَاءَ النَّبِيُّ ﷺ أَخْبَرَتْهُ عَائِشَةُ بِمَجِيءِ فَاطِمَةَ إِلَيْهَا فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَيْنَا وَقَدْ أَخَذْنَا مَضَاجِعَنَا فَذَهَبْنَا نَقُومُ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ «عَلَى مَكَانِكُمَا»، فَقَعَدَ بَيْنَنَا حَتَّى وَجَدْتُ بَرْدَ قَدَمِهِ عَلَى صَدْرِي، ثُمَّ قَالَ: «**أَلَا أُعَلِّمُكُمَا خَيْرًا مِمَّا سَأَلْتُمَا؛ إِذَا أَخَذْتُمَا مَضَاجِعَكُمَا أَنْ تُكَبِّرَا اللهَ أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ وَتُسَبِّحَاهُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ وَتَحْمَدَاهُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمَا مِنْ خَادِمٍ**»[(١)].

تأمَّل رعاك الله: ما أن سمع ﷺ بمجيء ابنته إليه وطلبها لهذا الأمر إلَّا وبادر بالذَّهاب إليها في بيتها؛ وهذا من كمال خُلقه وحُسن ملاطفته وتمام إحسانه لأهله وولده وعظيم عنايته بهم، بخلاف حال كثير من النَّاس في مثل هذا المقام من ضعف الاحتمال وقلَّة الاهتمام، والأخلاق متفاوتة، ونبيُّنا ﷺ أوتِيَ كمالَ الخُلق، وجمالَ الأدب، وحسنَ المعاشرة، كما وصفه الله جَلَّوَعَلَا بذلك في قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

وعن عبد الله عمرو رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا عن النَّبِيِّ ﷺ قال: «**خَصْلَتَانِ -أَوْ خَلَّتَانِ- لَا يُحَافِظُ عَلَيْهِمَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ إِلَّا دَخَلَ الجَنَّةَ، هُمَا يَسِيرٌ وَمَنْ يَعْمَلُ بِهِمَا قَلِيلٌ؛ يُسَبِّحُ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ عَشْرًا، وَيَحْمَدُ عَشْرًا، وَيُكَبِّرُ عَشْرًا؛ فَذَلِكَ خَمْسُونَ وَمَائَةٌ بِاللِّسَانِ وَأَلْفٌ وَخَمْسُمِائَةٍ فِي المِيزَانِ، وَيُكَبِّرُ أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ إذا أَخَذَ مَضْجِعَهُ، وَيَحْمَدُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَيُسَبِّحُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ؛ فَذَلِكَ مِائَةٌ بِاللِّسَانِ وَأَلْفٌ فِي الْمِيزَانِ**»، **فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَعْقِدُهَا بِيَدِهِ. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ**

(١) رواه مسلم (٢٧٢٧).

كَيْفَ هُمَا يَسِيرٌ وَمَنْ يَعْمَلُ بِهِمَا قَلِيلٌ؟ قَالَ: «يَأْتِي أَحَدَكُمُ الشَّيْطَانُ فِي مَنَامِهِ فَيُنَوِّمُهُ قَبْلَ أَنْ يَقُولَهُ، وَيَأْتِيهِ فِي صَلَاتِهِ فَيُذَكِّرُهُ حَاجَةً قَبْلَ أَنْ يَقُولَهَا». رواه أبو داود والتِّرمذيُّ(١).

وهذا كذلك من أذكار النَّوم وهو مطابقٌ لحديث عليٍّ المتقدِّم من التَّسبيح والتَّحميد ثلاثًا وثلاثين والتَّكبير أربعًا وثلاثين، والحسنة بعشر أمثالها فهو مائة باللِّسان وألف في الميزان.

وقول الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: «**كَيْفَ هُمَا يَسِيرٌ وَمَنْ يَعْمَلُ بِهِمَا قَلِيلٌ؟**» قالوا ذلك مستفهمين استفهام تعجُّب؛ إذا كان هذا الثَّواب الجزيل لمَن يعمل هذا العمل القليل فكيف يقِلُّ العاملون به؟! وأيُّ شيء يصرفهم عن ذلك مع عظم الثَّواب؟! فبيَّن لهم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنَّ الشَّيطان يوسوس للمرء في الصَّلاة حتَّى يغفل عن الذِّكر عقيبها، ويُنوِّمه عند الاضطجاع على فراشه قبل أن يقولها.

وعن البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا **قال: كَانَ رَسُولُ اللهِ** ﷺ **إِذَا أَرَادَ أَنْ يَنَامَ وَضَعَ يَدَهُ تَحْتَ خَدِّهِ الْأَيْمَنِ، وَيَقُولُ: «اللَّهُمَّ قِنِي عَذَابَكَ يَوْمَ تَبْعَثُ عِبَادَكَ»**. رواه أحمد(٢).

فيه إثبات سُنَّتين عند النَّوم: النَّوم على الجنب الأيمن، ووضع اليد تحت الخدِّ الأيمن، وهذه أنفع نومة للعبد، ثمَّ يقول: «**اللَّهُمَّ قِنِي عَذَابَكَ يَوْمَ تَبْعَثُ عِبَادَكَ**»، يقول ذلك؛ لأنَّ النَّوم يذكِّر بالوقوف بين يدي الله؛ لأنَّه يذكِّر بالموت بل هو موتةٌ صغرى، والموت يذكِّر بما بعده. قد قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ «تذكَّروا هادم اللَّذَّات»، فناسب المقام سؤال الله عَزَّوَجَلَّ النَّجاة والسَّلامة من العذاب.

قوله: «**اللَّهُمَّ قِنِي**»، أي: من الوقاية، أي: أسألك أن تَقِيَني وأن تُسلِّمني وأن

---

(١) رواه أبو داود (٥٠٦٥)، والتِّرمذيُّ (٣٤١٠)، وصحَّحه الألبانيُّ.

(٢) رواه أحمد (١٨٤٧٢)، وصحَّحه الألبانيُّ في صحيح الأدب المفرد (٩٢٥).

تنجِّيني من عذابك يوم تبعث عبادك يوم الحساب والمجازاة على الأعمال.

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ، قَالَ: «الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَطْعَمَنا وَسَقَانا، وَكَفَانَا وَآوَانَا، فَكَمْ مِمَّن لَا كَافِي لَهُ وَلَا مُؤْوِي»**. رواه مسلم(١).

في هذا الدُّعاء تذكُّرٌ من المسلم عندما يريد أن ينام لِمَاضي أيَّامه وسالف أوقاته وما أمدَّه اللهُ فيها من المطعم والمشرب والكفاية والإيواء، في حالِ وجود عددٍ من النَّاس منهم مَن لا يجد طعامًا يُشبعه ويغذِّيه، أو شرابًا يسدُّ ظمأه ويرويه، أو لباسًا يسترُه ويواريه، أو مسكنًا يستكنُّ فيه ويؤويه، بل منهم مَن أدركه حتفُه في مجاعاتٍ مهلِكة وقحطٍ مفجع؛ فمَن أكرمَه اللهُ بالطَّعام والشَّراب ومنَّ عليه بالكفاية والإيواء يجبُ أن يستشعرَ عِظم نعمة الله عليه وكبَرَ منَّته سبحانه بأن يسَّرَ له هذا الغذاء والشَّراب وأكرمه بالكفاية والإيواء.

وشكرُ النِّعمة مؤذنٌ بدوامها والمزيد، فاللهُ جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم: ٧]، فالشُّكرُ معه المزيدُ دائمًا وأبدًا؛ ولذا قيل: «فَمَتَى لَمْ تَرَ حَالَكَ فِي مَزِيدٍ فَاسْتَقْبِلِ الشُّكْرَ»(٢)، أي: فإنَّك إذا استقبلته كان المزيدُ حليفك.

قولُه: «**الحَمْدُ للهِ الَّذِي أَطْعَمَنَا وَسَقَانَا...**» إلى آخره فيه الثَّناءُ على الله عَزَّ وَجَلَّ وحمدُه سبحانه على سوابغ نعمائه وتوالي فضله وعطائه، وجزيل مواهبه، وسعة إحسانه، وكريم أياديه، وهو سبحانه أهلُ الحمد والثَّناء.

قوله: «**وَكَفَانَا**» من الكفاية، أي: دفع عنَّا شرَّ المؤذيات ووقانا أذى الغوائل والعاديات، وقيل: معناه كفانا مُهِمَّاتنا وقضى لنا حاجاتِنا، ولا مانع

(١) رواه مسلم (٢٧١٥).
(٢) انظر: مدارج السَّالكين (٢/ ٢٣٦).

من أن يكون كلا المعنيين مرادًا، إذ كلٌّ منهما داخلٌ في معنى الكفاية، مندرجٌ تحت مدلولها.

وقوله: «وَآوَانَا»، أي: هيَّأ لنا مأوى نأوي إليه، ورزقنا مسكنًا نسكن فيه، وردَّنا إلى المنْزل لنستريح فيه، ولم يجعلنا منتشرين كالبهائم بلا مسكنٍ ولا مأوى، قال الله تعالى مُمْتَنًّا على عباده بهذه النِّعمة: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ [النَّحل: ٨٠]، أي: تسكنون فيها، وتُكنُّكم من الحرِّ والبرد، وتستركم من الأعين، وتجتمعون فيها أنتم ومَن تعولون، وفيها من المصالح والمنافع ما لا يمكن الإحاطةُ به. فالحمدُ لله الَّذي مَنَّ فأفضل وأعطى فأجزل، له الحمد حمدًا كثيرًا طيِّبًا مباركًا فيه كما يُحبُّ سبحانه ويرضى.

وعلى هذا فإنَّ المسلمَ عندما يأوي إلى فراشه ينبغي أن يكون متذكِّرًا أمرين:

١- ما مضى من أيَّامه في نعمة وطيب عيش؛ فيحمدُ اللهَ على ما أمدَّه فيها من الصِّحَّة والعافية والمطعم والمشرب والمسكن وغير ذلك.

٢- وأن يتذكَّر ما يستقبل من أوقاته؛ وهو فيها بين أمرين: إمَّا أن تُقبضَ روحُه؛ فهو يسألُ اللهَ إن كان ذلك المغفرةَ والرحمةَ، أو أن يُفسَح له في أجله؛ فهو يسأل الله في هذه الحال أن يحفظه بما يحفظ به عبادَه الصَّالحين.

٤٨

أذكار النَّوم (٦)

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أَنَّهُ أَمَرَ رَجُلًا إِذَا أَخَذَ مَضْجَعَهُ، قَالَ: قل: «**اللَّهُمَّ خَلَقْتَ نَفْسِي وَأَنْتَ تَوَفَّاهَا لَكَ مَمَاتُهَا وَمَحْيَاهَا، إِنْ أَحْيَيْتَهَا فَاحْفَظْهَا، وَإِنْ أَمَتَّهَا فَاغْفِرْ لَهَا، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَافِيَةَ**»، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ أَسَمِعْتَ هَذَا مِنْ عُمَرَ؟ فَقَالَ: «**مِنْ خَيْرٍ مِنْ عُمَرَ مِنْ رَسُولِ اللهِ** ﷺ». رواه مسلم[(١)].

في هذا من الفائدة أنَّ مَن أكرَمه اللهُ سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ بتعلُّم الأذكار والأدعية المأثورة وحافظ عليها؛ عليه أنْ يعلِّمَها غيرَه، لأنَّ كثيرًا من النَّاس بحاجةٍ إلى مَن يعلِّمهم الذِّكر المأثور؛ فلا يبخل عليهم، وليكنْ نهجُ المسلم كنهجِ الصَّحابة، فها هو ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا يأمر رجلًا أن يقول هذه الدَّعوات إذا أخذ مضجعه، وقد قال ﷺ: «**الدَّالُّ عَلَى الخَيْرِ كَفَاعِلِهِ**»[(٢)]، وهذا من أحسن الهدايا والتُّحف الَّتي يقدِّمها المسلم لإخوانه، وقد كان الصَّحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ يتهادَون السنن المأثورة؛ يَلقى أحدُهم أخاه فيقول له: ألا أهدي لك هديَّة؟ فيقول: بلى. فيقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول كذا؛ فيُهديه حديثًا.

قوله: «**اللَّهُمَّ خَلَقْتَ نَفْسِي وَأَنْتَ تَوَفَّاهَا**»، هذا الإقرار بالتَّوفِّي والإحياء وأنَّه لله وبيده سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ جاءَ مقدِّمةً بين يدَيْ مطلوبه وحاجته؛ فهو أوَّلاً يقرُّ لله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ بأنَّ الأمور بيده، «أَنْتَ خَلَقْتَ نَفْسِي»، أي: أنت الَّذي أوجدتها من

(١) رواه مسلم (٢٧١٢).
(٢) روى مسلم نحوه (١٨٩٣).

العدم وخلقتني بعد أنْ لم أكن، ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ۝١ إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ١-٢]، فهو يقرُّ ويعترف لله بأنَّه هو الَّذي خلق نفسه وأوجدها من العدم، أي: أنت يا الله تفرَّدت بإيجادها، وأنت يا الله تتوفَّاها، أي: تُميتها متى شئتَ، فموتي وقبض روحي ومفارقتي لهذه الحياة بيدك، فالأمر إليك وحدك.

قوله: «**لَكَ مَمَاتُهَا وَمَحْيَاهَا**»، أي: موتي لك وحياتي لك ملكًا وتدبيرًا، ولهذا لمَّا وَاسى النَّبيُّ ﷺ إحدى بناته في وفاة ابنٍ لها قال لها: «**للهِ مَا أَخَذَ وَلَهُ مَا أَعْطَى**»، أي: الأمر كلُّه لله، وطَوْع تصريفه وتدبيره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وعلى هذا يكون المعنى: إقرار العبد بربوبيَّة الله وتصرُّفه في العباد إماتةً وإحياءً وخلقًا وتدبيرًا.

وقد يكون المعنى: (**لَكَ مَمَاتُهَا وَمَحْيَاهَا**)، أي: أحيا وأموت لك مخلصًا قائمًا بالطَّاعة أبتغي بها وجهك؛ وهذا فيه إشارة إلى فعل العبد في مماته ومحياه، أنَّه يحيا على الإسلام والطَّاعة، ويموت على الإيمان والتَّوحيد والإخلاص، كما ورد في الدُّعاء في الصَّلاة على الجنازة: «**اللَّهُمَّ مَنْ أَحْيَيْتَهُ مِنَّا فَأَحْيِهِ عَلَى الإِسْلَامِ، وَمَنْ تَوَفَّيْتَهُ فَتَوَفَّهُ عَلَى الإِيمَانِ**»(١).

قوله: «**إِنْ أَحْيَيْتَهَا فَاحْفَظْهَا**»، هذا هو المطلوب، وما تقدَّم وسيلة بين يديه، «إن أحييتها»، أي: إن كتبتَ لنفسي حياة وفسحةً في العمر «فاحفظها»، أي: بما تحفظ به عبادك الصَّالحين.

«**وَإِنْ أَمَتَّهَا فَاغْفِرْ لَهَا**»، وهذا نظير ما تقدَّم في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

---

(١) رواه أبو داود (٣٢٠١)، والتِّرمذيُّ (١٠٢٤)، وابن ماجه (١٤٩٨)، وصحَّحه الألبانيُّ.

«**فَإِنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِي فَارْحَمْهَا، وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ**».

وزاد هنا سؤالَ الله العافية؛ قال: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ العَافِيَةَ**»، والعافية شأنها عظيم، ومَن أُعطِيَ العافية فقد أوتيَ الخيرَ كلَّه، والعافية المطلوبة هنا مطلقة، فتشمل العافية في البدن والولد والمال، وفي الدِّين والآخرة والدُّنيا.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان رسول الله ﷺ يأمرنا إذا أخذنا مضجعنا أن نقول: «**اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَوَاتِ وَرَبَّ الأَرْضِ وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَى وَمُنْزِلَ التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ دَابَّةٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا، اللَّهُمَّ أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ، اقْضِ عَنَّا الدَّيْنَ وَأَغْنِنَا مِنَ الْفَقْرِ**». رواه مسلم[(١)].

هذا دعاءٌ عظيم، يحسنُ بالمسلم أن يُحافظَ عليه كلَّ ليلةٍ عندما يأوي إلى فراشه، وهو مشتملٌ على توسُّلاتٍ عظيمة إلى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى بربوبيَّته لكلِّ شيء؛ للسَّموات السَّبع، والأرضين السَّبع، والعرش العظيم، وبإنزاله لكلامه العظيم ووحيه المبين، بأن يحيط الإنسانَ برعايته ويكلأه بعنايته، ويحفظَه من جميع الشُّرور. ومشتملٌ على توسُّل إلى الله جَلَّ وَعَلَا ببعض أسمائه العظيمة الدَّالَّة على كماله وجلاله وعظمته وإحاطته بكلِّ شيء، بأن يقضي عن الإنسان ديْنَه ويُغنيه من فقره.

قوله: «**اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَوَاتِ، وَرَبَّ الأَرْضِ، وَرَبَّ العَرْشِ العَظِيمِ**»، أي: يا خالقَ هذه الكائنات العظيمة ومبدعها وموجدها من العدم. وقد خصَّ هذه المخلوقات بالذِّكر: لعظمها، وكبرها، ولكثرة ما فيها من الآيات البيِّنات

(١) رواه مسلم (٢٧١٣).

والدَّلالات الباهرات على كمال خالقها وعظمةِ مُبدِعها، وإلَّا فإنَّ جميعَ المخلوقات صغيرها وكبيرها، دقيقها وجليلها فيها آيةٌ بيِّنةٌ على كمال الخالق وعظمة المبدع سبحانه.

ولهذا عقَّب هذا الدُّعاء بقوله: «**رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ**»، وهذا تعميمٌ بعد تخصيص؛ لئلَّا يُظنَّ أنَّ الأمر مختصٌّ بما ذُكر.

وقوله: «**رَبَّ العَرْشِ العَظِيمِ**»، فيه دلالة على عظمة العرش، وأنَّه أعظمُ المخلوقات، وقد جاء في الحديث عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «مَا الكُرْسِيُّ فِي العَرْشِ إِلَّا كَحَلقَةٍ مِنْ حَدِيدٍ أُلْقِيَتْ بَيْنَ ظَهْرَيْ فَلَاةٍ مِنَ الأَرْضِ»(١)، وإذا كان هذا المخلوق بهذه العظمة والمجد والسَّعَة، فكيف بخالقه ومُبدِعه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ!

وقوله: «**فَالِقَ الحَبِّ وَالنَّوَى**»، من الفلْق وهو الشَّقُّ، أي: الَّذي يشقُّ حبَّة الطَّعام ونوى التَّمر وغيره لتخرج الأشجار والزُّروع؛ فإنَّ النباتات إمَّا أشجارٌ أصلها النَّوى، أو زروعٌ أصلها الحَبُّ، والله سبحانه لكمال قُدرته وبديع خلقه هو الَّذي يفتح هذا الحبَّ والنَّوى اليابس الَّذي، كالحجر لا ينمو ولا يزيد، فينفرج وتخرج منه الزُّروعُ العظيمةُ والأشجارُ الكبيرة. وفي هذا آيةٌ باهرةٌ على كمال المُبدِع وعظمةِ الخالقِ سبحانه، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ [الأنعام: ٩٥].

وقوله: «**وَمُنْزِلَ التَّوْرِاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالفُرْقَانِ**»، هذا فيه توسُّلٌ إلى الله عَزَّوَجَلَّ بإنزاله لهذه الكتب العظيمة المشتملة على هداية النَّاسِ وفلاحهم وسعادتهم في الدُّنيا والآخرة، وقد خصَّ هذه الكتبَ الثَّلاثة؛ لأنَّها أعظمُ كتب أنزلها الله، وذكَرها مرتَّبةً ترتيبًا زمنيًّا، فذكر أوَّلًا التوراةَ الَّتي أُنزلت على موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ،

(١) رواه أبو الشَّيخ الأصبهانيُّ في كتاب العظمة (٢/ ٥٨٧).

ثمَّ الإنجيل الَّذي أُنزل على عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثمَّ الفرقان وهو القرآن الكريم الَّذي أُنزل على محمَّد ﷺ، وهو خاتمة الكتب المنزَّلة وناسخ لما قبله.

ثمَّ قال بعد ذكره لهذه الوسائل العظيمة: «**أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ دَابَّةٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا**»، وهذا شروعٌ في ذكر رغبة الإنسان وحاجته ومطلوبه من ربِّه سبحانه، وقوله: «أعوذ بك»، أي: ألتجئُ وأعتصمُ بك وأحتمي بجنابك «من شرِّ كلِّ دابَّةٍ أنت آخذٌ بناصيتها»، والدَّابَّة هي كلُّ ما يدبُّ على الأرض، وهو يشمل الَّذي يمشي على بطنه أو على رجلين أو على أربع، قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ﴾ [النُّور: ٤٥].

وقوله: «**أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا**»، فيه دلالةٌ على أنَّ المخلوقات كلَّها داخلةٌ تحت قهره وسلطانه، فهو سبحانه آخذٌ بنواصيها قادرٌ عليها، يتصرَّف فيها كيف يشاء ويحكم فيها بما يريد. قال اللهُ تعالى فيما ذكره عن هود عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ [هود: ٥٦]، والنَّاصيةُ: مقدَّم الرَّأس.

ثمَّ قال متوسِّلًا إلى الله سبحانه ببعض أسمائه الحسنى وصفاته العظيمة: «**اللَّهُمَّ أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ البَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ**»، وفي هذا دلالةٌ على أوَّليَّةِ الله سبحانه وأنَّه قبل كلِّ شيء، وأبديَّتِه سبحانه وبقائِه بعد كلِّ شيء، وعلوِّه على خلقه واستوائِه على عرشه وفوقيَّتِه، وأنَّه الظَّاهرُ الَّذي لا شيء فوقَه، وقُربِه سبحانه من خلقه وإحاطتِه بهم، وأنَّه جَلَّ وَعَلَا الباطنُ الَّذي لا شيءَ دونه. ومدارُ هذه الأسماء الأربعة على بيان إحاطة الرَّبِّ سبحانه، وهما إحاطتان: زمانيَّة ومكانيَّة؛ أمَّا الزمانيَّة فقد دلَّ عليها اسمُه «الأوَّل» و«الآخر»، وأمَّا المكانيَّة فقد دلَّ عليها اسمُه «الظَّاهر» و«الباطن»، هذا مقتضى تفسير النَّبيِّ ﷺ، ولا تفسير أكمل من تفسيره.

وقوله: «**اقْضِ عَنَّا الدَّيْنَ، وَأَغْنِنَا مِنَ الفَقْرِ**»، هو سؤال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وطلب منه سبحانه بعد تلك التَّوسُّلات.

وقوله: «**اقْضِ عَنَّا الدَّيْنَ**»، أي: أَدِّ عنَّا حقوق الله وحقوق العباد من جميع الأنواع، وفي هذا تبرِّي الإنسان من الحَول والقوَّة، وأنَّه لا حول ولا قوَّة له إلَّا بالله العظيم.

وقوله: «**وَأَغْنِنَا مِنَ الفَقْرِ**»، الغنى: هو عدم الحاجة، والفقر: خلوُّ ذات اليد، والفقير هو مَن وجد بعضَ كفايته، أو لَم يجد شيئًا أصلًا.

ثم من المعلوم أنَّ الدَّينَ والفقرَ كلاهما هَمٌّ عظيمٌ، قد يؤرِّق الإنسانَ ويمنعه من النَّوم، فإذا لَجأ العبدُ إلى الله وطلب منه سبحانه مدَّه وعونه متوسِّلًا إليه بتلك التوسُّلات العظيمة، فإنَّ نفسَه عندئذٍ تسكن وتطمئنُّ، وقلبَه يرتاح ويهدأ؛ لأنَّه وَكَلَ أمرَه إلى مَن بيده أزمَّة الأمور ومقاليد السَّموات والأرض، ولَجأ إلى مَن أمرُه إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون، وكيف لا يطمئنُّ القلبُ وقد تعلَّق بِمَن هذا شأنه.

٤٩
أذكار الانتباه من النَّوم (١)

عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَنْ تَعَارَّ مِنَ اللَّيْلِ فَقَالَ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، الْحَمْدُ لِلهِ، وَسُبْحَانَ اللهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ»، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، أَوْ دَعَا؛ اسْتُجِيبَ له، فَإِنْ تَوَضَّأَ وَصَلَّى قُبِلَتْ صَلَاتُهُ**». رواه البخاريُّ(١).

الاستيقاظ من النَّوم ليلًا غالبًا يكون عن طول نوم، بخلاف النَّوم الَّذي يكون في النَّهار فإنَّه لفترة محدودة، ولهذا خُصَّ نوم اللَّيل بهذا الذِّكر؛ لأنَّه مع طول النَّوم والاستغراق فيه والانقطاع عن الذِّكر ناسب أن يكون مع انتباه الإنسان من هذا النَّوم الطَّويل مبادرةً لذكر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى. وهذا من أمارات الخير في العبد، وفيه دلالة على ملازمته الشَّديدة لذكر الله؛ لأنَّ نومه وإن طال لا يفصله عن الذِّكر، فبمجرَّد أن يقوم من نومه يعود إلى أُلفِه ذكر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى. وهذا لا يتهيَّأ لكلِّ أحد، وإنَّما يتهيَّأ لمَن كان ملازمًا لذكر الله، قد لانت نفسه بالذِّكر، واستدامتهُ واعتادتهُ وألفته واطمأنَّت به، فإذا كان المرء بهذه الصِّفة تهيَّأ له حين قومته، الرُّجوع إلى الذِّكر مباشرة؛ لأنَّ ذكر الله هو غاية مقصوده؛ عليه ينام وعليه يقوم.

قوله: «**مَن تَعَارَّ مِنَ اللَّيْلِ**»، أي: مَن أستيقظ من نوم اللَّيل، سواء استيقظ في وقت استيقاظه، أو استيقظ في أثناء اللَّيل لعارض.

(١) رواه البخاريُّ (١١٥٤).

قوله: «**فَقالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وله الحَمْدُ، وهو علَى كُلِّ شيءٍ قَدِيرٌ، الحَمْدُ لِلَّهِ، وسُبْحَانَ اللهِ، ولَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، واللهُ أَكْبَرُ، ولَا حَوْلَ ولَا قُوَّةَ إِلَّا باللهِ العظيم، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، أَوْ دَعَا، اسْتُجِيبَ له، فإنْ تَوَضَّأَ وصَلَّى قُبِلَتْ صَلَاتُهُ**»؛ اجتمعت هنا خيرات عظيمة، وأعمالٌ مباركة، وأذكار نافعة في هذا الَّذي أرشد إليه ووجَّه إليه النَّبيُّ عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

بدأ أوَّلًا بالتَّهليل: «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**»، وَ«لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» هي كلمة التَّوحيد الَّتي عليها قيام الدِّين، ولا توحيد إلَّا بما دلَّت عليه هذه الكلمة، وهي قائمة على رُكنين: نفي وإثبات؛ نفي عامٌّ في أوَّلها، وإثبات خاصٌّ في آخرها، نفيٌ للعبوديَّة عن كلِّ مَن سوى الله، وإثبات للعبوديَّة بكلِّ معانيها لله وحده، فهو عَزَّوَجَلَّ الَّذي يُفرَد بالطَّاعة، ويُخصُّ بالعبادة، وتُصرف له بجميع أنواعها دون سواه.

وقوله: «**وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ**»، فيه تأكيد لمعنى «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**»، ففي قوله: «وحده» تأكيد للإثبات، وقوله: «لا شريك له» تأكيد للنَّفي.

ثمَّ أتبع ذلك بذكر براهينها، فقال: «**لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**»؛ فإنَّ مَن له الملك كلُّه المستحقَّ للحمد كلِّه الَّذي هو على كلِّ شيء قدير؛ هو الَّذي لا إله إلَّا هو، المعبود بحقٍّ، ولا يُصرف شيء من العبادة إلَّا له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ثمَّ يقول: «**الحَمْدُ للهِ وَسُبْحَانَ اللهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَاللهُ أكبَرُ**»، وهؤلاء الكلمات الأربع هنَّ أحبُّ الكلام إلى الله، وقد جاء في الحديث عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**أَحَبُّ الْكَلَامِ إِلَى اللهِ أَرْبَعُ كَلِمَات: سُبْحَانَ اللهِ وَالحَمْدُ للهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ**»، وقال عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**لَأَنْ أَقُولَ سُبْحَانَ اللهِ، وَالحَمْدُ للهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ؛ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ**»، أي: من الدُّنيا وما فيها.

و«**الحَمْدُ للهِ**»، فيها الثَّناء على الله وإثبات الكمال له سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

و«**سُبْحَانَ اللهِ**»، فيها تنزيه الله عن النَّقائص، وعمَّا لا يليق به عَزَّوَجَلَّ.

و«**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**»، فيها توحيد الله وإخلاص الدِّين له، والبراءة من الشِّرك.

و«**اللهُ أَكبَرُ**»، فيها تعظيم الله، واعتقاد أنَّه لا أكبر منه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

ثمَّ يقول: «**وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ**»، أي: لا تحوُّل من حال إلى حال، ولا حصول قوَّةٍ للعبد يمارس بها أعماله ومصالحه إلَّا بالله، بمدده وعونه وتوفيقه؛ فلا تحوُّل من مرضٍ إلى صحَّة، ومن ضلالٍ إلى هداية، ومن ضعفٍ إلى قوَّة، ومن فقرٍ إلى غنًى إلَّا بالله، فهي كلمة استعانة، ولهذا يُشرع قولها في استقبال الأعمال والمهامِّ والمصالح الدِّينيَّة والدُّنيويَّة، كما في الذِّكر الَّذي يشرع للمسلم أن يقوله عندما يخرج من بيته: «**بِسْمِ اللهِ، تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ**»، لأيِّ مصلحة دينيَّة أو دنيويَّة،، ويشرع لمَن سمع النِّداء: «حيَّ على الصَّلاة، حيَّ على الفلاح» أن يقول: «**لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ**»؛ طلبًا للعون من الله، فالإتيان بها في هذا الموضع في غاية المناسبة.

وهكذا من استيقظ من النَّوم وبادر إلى ذكر الله بما تقدَّم يشرع له أن يقول: «لا حول ولا قوَّة إلَّا بالله»؛ لأنَّه سينهض من فراشه للوضوء والصَّلاة ومن ثمَّ لمصالحه المتنوِّعة؛ فيحتاج إلى الاستعانة بالله، ليقوم بهمَّةٍ وعزيمةٍ ونشاط بمدد من الله سبحانه وعون.

وقوله: «**العَلِيِّ العَظِيم**»، أي: الَّذي لا أعلى منه ولا أعظم منه؛ فكلُّ شيء تحت قهره وسلطانه وعظمته، لا إله إلَّا هو ولا ربَّ سواه؛ فيستشعر علوَّ الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ وعظمته، وهذا يدفع بقلبه إلى قوَّة الارتباط به وكمال الالتجاء إليه وتعظيمه سبحانه.

«**ثُمَّ قالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، أَوْ دَعَا**»، «أو» قيل: إنَّها للشَّك، وقيل -وهو الأقرب-: أنَّها للتَّنويع، أي: سواء استغفر أو دعا؛ فإنَّه يُستجاب له، إن استغفر غُفر له، وإن دعا وسأل الله حاجة من حاجاته أجاب الله دُعاءه، ومن الخير للعبد أن يجمع بين الأمرين: يدعو ويستغفر.

وحريٌّ بالعبد في هذا الموضع، وفي هذا الوقت الشَّريف، وفي هذه الحال المباركة؛ حالِ انتباه العبد من نومه على ذكر الله بهذه الكلمات العظيمة الَّتي هي أعظم الكلمات على الإطلاق؛ أن يستغفر، وأن يدعو ربَّه معتنيًا بهذين الأمرين العظيمين؛ فإنَّ دعاءه مستجاب. وقد روى أبو داود في سننه وأحمد في المسند وغيرُهما عن معاذ بن جبل رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَبِيتُ عَلَى ذِكْرِ اللهِ طَاهِرًا فَيَتَعَارَّ مِنَ اللَّيلِ فَيَسْأَلُ اللهَ خَيْرًا مِنَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ إِلَّا أَعْطَاهُ اللهُ إِيَّاهُ**»[(١)].

قوله: «**فإنْ تَوَضَّأَ وصَلَّى قُبِلَتْ صَلَاتُهُ**»، وصلاة مسبوقة بتلك الأعمال الجليلة، والخصال العظيمة حريٌّ أن تُقبل. وقد أخرج الإمام البخاريُّ: هذا الحديث في كتاب التَّهجُّد من صحيحه، «باب: فضل مَن تعارَّ من اللَّيل فصلَّى»، أي: أنَّ مَن صلَّى في ذلك الوقت وبادر إلى الصَّلاة في تلك الحال فصلاتُه حريَّةٌ بالقبول، والقبول في هذا الموطن أرجى منه في غيره.

۞ الحاصل أنَّ هذه الأعمال يُؤتى بها على هذا التَّرتيب الَّذي جاء في هذا الحديث العظيم المبارك:

أوَّلًا: يقول: «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**».

ثانيًا: يأتي بالكلمات الأربع: «**الحمدُ للهِ، وسبحانَ اللهِ، ولَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، واللهُ أكبرُ**».

---

(١) رواه أحمد (٢٢٠٤٨)، وأبو داود (٥٠٤٢)، وصحَّحه الألبانِيُّ.

ثالثًا: يقول: «**لَا حَوْلَ ولَا قُوَّة إلَّا باللهِ العليِّ العظيم**»، وهي كلمة استعانة كما تقدَّم.

رابعًا: يستغفر ويدعو، يقول: «استغفر الله»، أو بأيِّ صيغة من صيغ الاستغفار المأثورة، أو يدعو: «ربَّنا آتنا في الدُّنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النَّار»، أو أيِّ دعاء من الأدعية الجامعة لخيري الدُّنيا والأخرة؛ فإنَّه إن استغفر غُفر له، وإن دعا استجيب له.

خامسًا: أن يبادر إلى الوضوء، بأن ينهض من فراشه بعد هذه الأمور الأربعة ويتوضَّأ ليكون على طهارة؛ لأنَّه بنومه تنتقض طهارته، وقد تقدَّم أنَّه يُستحبُّ له أن ينام على طهارة، والطَّهارة تنتقض بالنَّوم، فيُستحبُّ له أن يبادر إلى التَّطهُّر.

سادسًا: أن يصلِّي ما تيسَّر له من صلاة اللَّيل؛ فإنَّ صلاته مقبولة.

وتكون هذه الأعمال اليسيرة الَّتي لن تأخذ منه وقتًا، بركةً له في يومه كلِّه، وسبب خيرٍ له، وباب قبول، وتوفيق، وسداد أمر في يومه كلِّه.

وقد أورد الحافظ ابن حجر في شرحه لهذا الحديث فائدةً لطيفةً حول العناية بهذا الذِّكر، عن أبي عبد الله الفِربريِّ الرَّاوي عن البخاريِّ، قال: «أجريت هذا الذِّكر على لساني عند انتباهي، ثمَّ نِمتُ فأتاني آتٍ -أي: في المنام- فقرأ: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [الحجُّ: ٢٤]»[١].

وما من شكٍّ أنَّ مَن يُهدى إلى هذه الأعمال العظيمة والأذكار المباركة قد هُديَ إلى الطَّيِّب من القول وهُديَ إلى صراطٍ مستقيم، بل كانت أعماله هذه بابَ خيرٍ له وبركة في حياته؛ فليجتهد المسلم ولا يحرم نفسه من هذا الخير العظيم. والله الموفِّق وحده لا شريك له.

---

(١) فتح الباري (٣/ ٤١).

٥٠
أذكار الانتباه من النَّوم (٢)

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِذَا اسْتَيْقَظَ أَحَدُكُمْ فَلْيَقُلْ: الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي عَافَانِي فِي جَسَدِي، وَرَدَّ عَلَيَّ رُوحِي، وَأَذِنَ لِي بِذِكْرِهِ**». رواه التِّرمذيُّ[(١)].

هذه صيغة حمدٍ مباركة يُستحبُّ للمسلم أن يقولها إذا استيقظ من النَّوم.

قوله: «**الحمدُ للهِ الَّذي رَدَّ عَلَيَّ رُوحِي**»، فيه أنَّ روح الإنسان تُقبض في المنام، كما قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ [الزُّمر: ٤٢]، أي: فيمسك سبحانه من هاتين النَّفسين النَّفس ﴿ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ﴾ وهي نفس مَن قضى أن يموت في منامه، ﴿وَيُرْسِلُ﴾ النَّفس ﴿ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ﴾، أي: إلى أن تستكمل رزقها وأجلها. فعلى صاحب هذه النَّفس المرسلة أن يقول: «**الحَمْدُ للهِ الَّذِي رَدَّ عَلَيَّ رُوحِي**»، أي: أرسلها وأعادها إليَّ، وأعطاني فسحةً في العمر بعد هذه الموتة الَّتي حصلت لي، موتة النَّوم.

قوله: «**وَعَافَانِي فِي جَسَدِي**»، أي: كتب لي في جسدي المعافاة، بحيث أنَّني قمتُ من منامي وجسدي معافى من الأمراض والأسقام وأذى الهوامِّ؛ فيحمد الله عَزَّوَجَلَّ على هذه العافية.

---

(١) رواه التِّرمذيُّ (٣٤٠١)، وحسَّنه الألبانيُّ.

قوله: «**وَأَذِنَ لِي بِذِكْرِهِ**»، المراد بالإذن هنا: الإذن الكونيّ القدريّ؛ لأنَّ الإذن تارةً يراد به الإذن الشَّرعيّ، كقوله تعالى: ﴿ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡۖ﴾ [يونس: ٥٩]، أي: هل الله شرع لكم ذلك؟ وتارةً يراد به الإذن الكونيّ، كقوله: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٥١]، أي: بمشيئته وقضائه وقدره.

فالمراد بقوله: «**وَأَذِنَ لِي بِذِكْرِهِ**»، أي: قدَّر لي ذلك وكتبه لي كونًا وقدرًا أن أقوم ذاكرًا له. وأمَّا شرعًا ودينًا، فالإذن للجميع والدَّعوة للجميع، لكن لا يفعل ذلك إلَّا مَن قدَّر الله له ذلك وكتبه له، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [يونس: ٢٥]، وهذه نعمة عظيمة ومنَّة كبيرة منَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى بها على عبده.

وتأمَّل؛ الآذن بالذِّكر هو الله، والمنتفع بالذِّكر هو العبد، والمثيب على الذِّكر هو الله، فهو سبحانه من عظيم فضله وواسع إنعامه يبتدئُ عبادَه بالنِّعم ويثيبُهم عليها أعظمَ الثَّواب، فله الحمدُ شكرًا، وله المنُّ فضلًا، وله سبحانه الحمدُ في الآخرة والأولى.

وعمومًا الَّذي ينبغي للمسلم عند قيامه من نومه هو المبادرة إلى ذكر الله والوضوء والصَّلاة؛ ليبارَك له في يومه، وليكون فيه نشيطًا ذا همَّةٍ عاليةٍ وحرصٍ على الخير، وليسْلم بذلك من الكسل وخُبث النَّفس وتسلُّط الشَّيطان.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**يَعْقِدُ الشَّيْطَانُ عَلَى قَافِيَةِ رَأْسِ أَحَدِكُمْ إِذَا هُوَ نَامَ ثَلَاثَ عُقَدٍ، يَضْرِبُ كُلَّ عُقْدَةٍ مَكَانَهَا، عَلَيْكَ لَيْلٌ طَوِيلٌ فَارْقُدْ؛ فَإِنِ اسْتَيْقَظَ فَذَكَرَ اللهَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِنْ تَوَضَّأَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِنْ صَلَّى انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَأَصْبَحَ نَشِيطًا طَيِّبَ النَّفْسِ، وَإِلَّا أَصْبَحَ خَبِيثَ النَّفْسِ كَسْلَانَ**». رواه البخاريُّ ومسلم(١).

---

(١) رواه البخاريُّ (١١٤٢)، ومسلم (٧٧٦).

وفي المسند للإمام أحمد من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ : «**مَا مِنْ ذَكَرٍ وَلَا أُنْثَى إِلَّا وَعَلَى رَأْسِهِ جَرِير مَعْقُودٌ ثَلَاث عُقَد -أي: حَبْل مَعْقُودٌ ثَلَاث عُقَد- حِينَ يَرْقد، فَإِنِ اسْتَيْقَظَ فَذَكَرَ اللهَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِذَا قَامَ فَتَوضَّأَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِذَا قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ انْحَلَّتْ عُقَدُه كُلُّهَا**»(١).

دلَّ هذان الحديثان على أنَّ الشَّيطانَ يعقد على مؤخَّر رأس الإنسان عندما ينام ثلاث عقد، ويضرب على كلِّ عقدةٍ مكانها: «**عَلَيْكَ لَيْلٌ طَوِيلٌ فَارْقُدْ**» تخذيلًا له وتثبيطًا لعزمه ونقضًا لهمَّته، فإذا ذكر العبدُ ربَّه انحلَّتْ عقدةٌ من هذه العقد، فإذا قام وتوضَّأ انحلَّتْ العقدةُ الثَّانية، فإذا صلَّى انحلَّت عنهُ جميع العقد، وذهب عنه الكسل، وعلَت همَّتُه، وطابت نفسُه، وأصبح نشيطًا حريصًا على الخير مقبلًا عليه؛ وذلك لأنَّه تخلَّص من عقد الشَّيطان، وتخفَّف من أعباء الغفلة والنِّسيان، وحصل له الفوز برضا الرَّحمن.

وجاء في حديث آخر أنَّ الشَّيطانَ قد يعقد على مواضع الوضوء من المسلم، فإذا قام وتوضَّأ انحلَّت عنه تلك العقد.

فقد أخرج أحمد وابن حبَّان في صحيحه -واللَّفظ له- من حديث عُقبة ابن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**رَجُلٌ مِنْ أُمَّتِي يَقُومُ اللَّيْلَ يُعَالِجُ نَفْسَهُ إِلَى الطَّهُورِ وَعَلَيْهِ عُقَدٌ، فَإِذَا وَضَّأَ يَدَيْهِ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِذَا وَضَّأَ وَجْهَهُ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، وَإِذَا مَسَحَ رَأْسَهُ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، وَإِذَا وَضَّأَ رِجْلَيْهِ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَيَقُولُ اللهُ** جَلَّ وَعَلَا **لِلَّذِي وَرَاءَ الحِجَابِ: انْظُرُوا إِلَى عَبْدِي هَذَا يُعَالِجُ نَفْسَهُ لِيَسْأَلَنِي، مَا سَأَلَنِي عَبْدِي هَذَا فَهُوَ لَهُ، مَا سَأَلَنِي عَبْدِي هَذَا فَهُوَ لَهُ**»(٢).

---

(١) رواه أحمد (١٤٣٨٧)، وصحَّحه الألبانيُّ في صحيح التَّرغيب والتَّرهيب (٦١٤).

(٢) رواه أحمد (١٧٧٩٠)، وابن حبَّان (٢٥٥٥)، وصحَّحه الألبانِيُّ في صحيح التَّرغيب والتَّرهيب (٦٣١).

فهذه عُقدٌ أربع تنحلُّ عن المسلم بالوضوء، فبغسل اليدين تنحلُّ عُقدة، وبغسل الوجه تنحلُّ عُقدة، وبمسح الرَّأس تنحلُّ عُقدة، وبغسل الرِّجلَين تنحلُّ عُقدة. وهي عُقدٌ حقيقيَّة يعقدها الشَّيطان على الإنسان ليثبِّطه عن الخير، وليثنيه عن القيام إلى طاعة الله.

وثبت في الصَّحيحين عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِذَا اسْتَيْقَظَ أَحَدُكُمْ مِنْ مَنَامِهِ فَلْيَتَوَضَّأْ وَلْيَسْتَنْثِرْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَبِيتُ عَلَى خَيَاشِيمِهِ**»(١).

وقد ذكر أهل العلم أنَّ مَن ذَكَرَ اللهَ تعالى عند النَّوم وأتى بالأذكار المشروعة والتعوُّذات المأثورة لا يدخل في هذه الأحاديث، بل يسْلم من هذه العُقد؛ لأنَّه قد نُصَّ في بعض أذكار النَّوم أنَّ مَن أتى بها لا يزال عليه من الله حافظ، ولا يقربه شيطانٌ حتَّى يُصبح.

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ ذُكِرَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ رَجُلٌ فَقِيلَ مَا زَالَ نَائِمًا حَتَّى أَصْبَحَ مَا قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ، فَقَالَ: «**بَالَ الشَّيْطَانُ فِي أُذُنِهِ**». رواه البخاريُّ ومسلم(٢).

أي: ما قام لذكر الله، ولا قام للوضوء، ولا قام للصَّلاة، لم يقم لهذه الأشياء بل نام حتَّى أصبح، فيستيقظ والعُقد كما هي على حالها لم تُحلَّ، إضافةً إلى هذا يقوم وقد بال الشَّيطان في أذنه، ومن الَّذي يرضى لنفسه بمثل هذه الفعلة الذَّميمة!! ومَن ينام حتَّى يصبح تاركًا ذكر الله والوضوء والصَّلاة فهو شاء أم أبى قد رضي لنفسه بذلك، وحسْبُ مَن كان كذلك خيبةً وخسارة وشرًّا، وقد جاء عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّه قال: «حسب الرَّجل من الخَيْبة

(١) رواه البخاريُّ (٣٢٩٥)، ومسلم (٢٣٨).
(٢) رواه البخاريُّ (١١٤٤)، ومسلم (٧٧٤).

والشرِّ أن ينام حتَّى يُصبح وقد بال الشَّيطان في أذنه، فلم يذكر الله ليله حتَّى يصبح»[(١)].

وهنا نُدرك البركة العظيمة والخير العميم الَّذي يكتسبه المسلم بحفظه للأذكار ومحافظته عليها، ومحافظته على سُنَّة النَّبيِّ الكريم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ فالسُّنَّة خيرٌ وبركة؛ خير للمرء في نومته، وخير له في قومته، وخير له في حياته كلِّها، فلا يحرم المسلم نفسه من مثل هذا الخير العظيم والفضل العميم.

وعَنْ كُرَيْبٍ مَوْلَى ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَخْبَرَهُ أَنَّهُ بَاتَ لَيْلَةً عِنْدَ مَيْمُونَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ -وَهِيَ خَالَتُهُ- قَالَ: «**فَاضْطَجَعْتُ فِي عَرْضِ الْوِسَادَةِ وَاضْطَجَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَهْلُهُ فِي طُولِهَا، فَنَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى انْتَصَفَ اللَّيْلُ أَوْ قَبْلَهُ بِقَلِيلٍ أَوْ بَعْدَهُ بِقَلِيلٍ، اسْتَيْقَظَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَجَعَلَ يَمْسَحُ النَّوْمَ عَنْ وَجْهِهِ بِيَدِهِ، ثُمَّ قَرَأَ الْعَشْرَ الآيَاتِ الْخَوَاتِمَ مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ، ثُمَّ قَامَ إِلَى شَنٍّ مُعَلَّقَةٍ فَتَوَضَّأَ مِنْهَا فَأَحْسَنَ وُضُوءَهُ، ثُمَّ قَامَ فَصَلَّى**». قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**فَقُمْتُ فَصَنَعْتُ مِثْلَ مَا صَنَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، ثُمَّ ذَهَبْتُ فَقُمْتُ إِلَى جَنْبِهِ فَوَضَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدَهُ الْيُمْنَى عَلَى رَأْسِي وَأَخَذَ بِأُذُنِي الْيُمْنَى يَفْتِلُهَا فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ أَوْتَرَ، ثُمَّ اضْطَجَعَ حَتَّى جَاءَ الْمُؤَذِّنُ فَقَامَ فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ خَفِيفَتَيْنِ، ثُمَّ خَرَجَ فَصَلَّى الصُّبْحَ**»[(٢)].

فيُستحبُّ لمَن انتبه من نومه أن يمسح على وجهه وأن يقرأ هذه الآيات العشر من آخر آل عمران إذا قام من اللَّيل لتهجُّده اقتداء بالنَّبيِّ ﷺ، ولكن ينبغي له أن يقرأها بتدبُّر لها وعقلٍ لمعانيها. فعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ

---

(١) رواه المرْوَزيُّ في قيام اللَّيل (١/ ١٠٣).

(٢) رواه البخاريُّ (١٨٣)، ومسلم (٧٦٣).

قال: «**لَقَدْ نَزَلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ آيَةٌ، وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا** ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٩٠] **الآيَةَ كُلَّهَا**» رواه ابن حبَّان في صحيحه(١).

قيل للأوزاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ما غاية التَّفكُّر فيهنَّ؟ قال: «يقرؤهنَّ، وهو يعقلهنَّ»(٢). وقد وردت أحاديث وآثار عن السَّلف في استحباب التَّفكُّر مطلقًا.

---

(١) رواه ابن حبَّان (٦٢٠)، وصحَّحه الألبانيُّ في السِّلسلة الصَّحيحة (٦٨)، وفي صحيح التَّرغيب والتَّرهيب (١٤٦٨).

(٢) ذكره ابن كثير في تفسيره (٢/ ١٦٧)، والسُّيوطيُّ في الدُّرِّ المنثور (٢/ ٤٠٩).

٥١

ما يقال عند الفزع في النَّوم

عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**إِذَا فَزِعَ أَحَدُكُمْ فِي النَّوْمِ فَلْيَقُلْ: «أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ الله التَّامَّاتِ مِنْ غَضَبِهِ وَعِقَابِهِ وَشَرِّ عِبَادِهِ، وَمِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَنْ يَحْضُرُونِ»؛ فَإِنَّهَا لَنْ تَضُرَّهُ**». رواه أبو داود والتِّرمذيُّ[١].

وروى الإمام أحمد في مسنده عن الوليد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّه قال: يا رسول الله ﷺ إنِّي أجدُ وحشةً، قال: «**إِذَا أَخَذْتَ مَضْجِعَكَ فَقُلْ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّةِ مِن غَضَبِهِ وَعِقَابِهِ وَشَرِّ عِبَادِهِ، وَمِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأن يَحْضُرُونِ؛ فَإِنَّهُ لَا يَضُرُّكَ، وبالحَرِيِّ أَنْ لَا يَقْرَبك**»[٢].

وروى ابن السُّنِّيِّ في عمل اليوم واللَّيلة عن محمَّد بن المنكدر، قال: جاء رجلٌ إلى النَّبيِّ ﷺ فشكا إليه أهاويلَ يراها في المنام، فقال: «**إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فراشك فَقُلْ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّةِ مِنْ غَضَبِهِ وَعِقَابِهِ، وَمِن شَرِّ عِبَادِهِ، وَمِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَنْ يَحْضُرُونِ**»[٣].

في هذه الأحاديث أنَّ رسول الله ﷺ كان يُعلِّمهم من الفزع كلمات تُقال

(١) رواه أبو داود (٣٨٩٣)، والتِّرمذيُّ (٣٥٢٨)، وحسَّنه الألبانيُّ.

(٢) رواه أحمد (١٦٥٧٣)، وقال الألبانيُّ في السِّلسلة الصَّحيحة (٦/ ٥٣٦): رجال إسناده ثقات رجال الشَّيخين، لكنَّه منقطع.

(٣) رواه ابن السُّنِّيِّ في عمل اليوم واللَّيلة (١/ ٦٧١)، وصحَّحه الألبانيُّ في السِّلسلة الصَّحيحة (٢٦٤).

إذا حصل الفزع والقلق، بأن يقول هذه الكلمات أو هذا التَّعوُّذ المأثور عن النَّبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، قال: «**كَانَ يُعَلِّمُهُم مِنَ الفَزَعِ كَلِمَات**»، أي: كلمات تُقال عند الفزع فيُذهبه الله.

قوله: «**أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ**»، الاستعاذة التجاء إلى الله واحتماءٌ به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وفزع إليه.

وقوله: «**بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ**»، قيل: المراد «بكلمات الله»، أي: القرآن، وقيل: «كلماته»، أي: الكونيَّة القدريَّة، كما قال الله تعالى ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

ومعنى «التَّامَّات»، أي: الَّتي لا يلحقها نقص، وقال الله تعالى في شأن القرآن: ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ﴾ [فصِّلت: ٤٢]، وقال في شأن كلماته الكونيَّة: ﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦۚ﴾ [الرَّعد: ٤١]، فكلمات الله تامَّةٌ لا يلحقها نقص.

قوله: «**من غضبه وعقابه**»، أي: غضب الرَّبِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والرَّبُّ يغضب ويرضى كما أخبر عن نفسه في كتابه، وكما أخبر عنه رسولُهُ ﷺ، قال تعالى: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الفتح: ٦]، وقال تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ [المجادلة: ٢٢]؛ فهو يغضب ويرضى، وثمَّة أمور توجب غضب الله وحلول عقابه على عبده؛ وهذا فيه إشارة وتنبيه إلى البعد عن المعاصي والذُّنوب، وأيضًا فيه تنبيه وإشارةٌ إلى أنَّ الذُّنوب والمعاصي أعظم أسباب القلق؛ لأنَّها إذا وُجدت وُجد الغضب ووُجد العقاب، وقد يكون القلق والفزع والهموم نوعًا من العقوبة المعجَّلة، فيبادر المرء إلى التَّعوُّذ بالله من غضبه ومن عقابه، وهذا يتضمَّن البعد عن موجبات الغضب وموجبات العقاب، وهي الذُّنوب الَّتي تسخط الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وتوجب حلول العقوبة ونزولها.

وقوله: «**وشرِّ عباده**»، أي: وأعوذ بك يا الله من شرِّ كلِّ مَن قام به شرٌّ من عبادك. وليس معناه أنَّ كلَّ عبد فيه شرٌّ، بل المراد: مَن كان فيه شرٌّ منهم، فيشمل الشَّياطين، والجنَّ، والبغاة، والفجَّار ونحوهم.

وقوله: «**وَمِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَن يَحْضُرُونَ**»، أي: نفخ الشَّيطان ونفثه ووساوسه وما يُلقيه في النَّفس؛ وهذا فيه إشارة إلى أعظم موجبات القلق، وأعظم مداخل الشَّيطان على النَّفس، فيُدخل في نفس الإنسان أشياء وأمورًا ليملأ قلبه قلقًا وفزعًا وخوفًا، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [المجادلة: ١٠].

وقوله: «**وَأَن يَحْضُرُون**»، أي: وأن يقربوا المكان الَّذي أنا فيه، قال الله تعالى في أواخر سورة المؤمنون: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٧-٩٨]، فاشتمل هذا على أمرين: تعوُّذٌ بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ من همزات الشَّيطان، وتعوُّذٌ به تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ من أن يقرب الشَّيطان المكان الَّذي فيه العبد؛ ليكون في سلامةٍ تامَّة من الشَّيطان من وساوسه، ومن قربانه للمكان الَّذي هو فيه.

فهذا تعوُّذٌ عظيم مبارك يُشرع لمَن أصابه قلق، أو هلع، أو فزع، أو اضطراب في منامه، أن يأتي به، فهو يشرع إذا كان الإنسان يصيبه الفزع في منامه. ومَن يتأمَّل هذا التَّعوُّذ الوارد في هذه الحالة -حالة الفزع في النَّوم- يجد أنَّ الإنسان عندما يصيبه فزع أو خوف إمَّا أن يكون خوفًا من غضب الله أو عقابه، أو يكون فزعًا من شرِّ بعض النَّاس يخشى أن يعتدوا عليه أو يؤذوه أو يتعرَّضوا له بسوء، أو خوفًا من شرِّ الشَّيطان وأن يحضر العبد فيؤذيه. فانتظم هذا التَّعوُّذ ذلك كلَّه.

وإنَّ مِمَّا يُغضبُ الرَّبَّ ويوجبُ عقابه؛ أن يلجأ العبدُ في مُلِمَّاته وعند خوفه وفزعه إلى غيرِه سبحانه، وكيف يليقُ بالعبد الضَّعيف أن يلجأ إلى عبدٍ ضعيف مثلِه! وكيف يلجأ المخلوقُ إلى مخلوقٍ مثلِه، ويَدَعُ ربَّ العالَمين وخالقَ الخلق أجمعين!! وهنا ندرك ضَحالة عقولِ وتفاهةَ أفكارِ مَن يذهبون في مُلِمَّاتِهم وعند فزَعهم إلى الكهنة والعرَّافين والدَّجاجلة والمشعوذين والسَّحرة والمنجِّمين وغيرِهم من إخوان الشَّياطين، يشْكون إليهم حالَهم، ويُنزِلون بأبوابهم حاجتَهم، ويطلبون منهم تخليصَهم من كربتِهم وإنجاءهم من فزعهم، إلى غير ذلك من الأمور الَّتي لا تُطلبُ إلَّا من الله ولا يُلجأ فيها إلَّا إليه وحده، ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النَّمل: ٦٢]، فهل يجيب المضطَرَّ الَّذي أقلقته الكروبُ وتعسَّر عليه المطلوب واضطُرَّ للخَلاص مِمَّا هو فيه إلَّا اللهُ وحده؟! وهل يكشف السُّوءَ الَّذي يُصيب الإنسانَ ويَحِلُّ به إلَّا الله وحده؟! ولكنْ تذَكُّرُ النَّاسِ لهذا الأمر قليلٌ، وتدبُّرُهم له ضعيف، وإلَّا لَمَا أقبلوا على غيره، ولَمَا لجأوا إلى أحدٍ سواه.

وقد روى أبو داود في سننه عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يُعَلِّمُهُمْ مِنَ الْفَزَعِ كَلِمَاتٍ: «**أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّةِ مِنْ غَضَبِهِ وَشَرِّ عِبَادِهِ وَمِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَنْ يَحْضُرُونِ**»، قال: «**وَكَانَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَمْرٍو يُعَلِّمُهُنَّ مَنْ عَقَلَ مِنْ بَنِيهِ، وَمَنْ لَمْ يَعْقِلْ كَتَبَهُ فَأَعْلَقَهُ عَلَيْهِ**»(١). أي: كان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يُحفِّظها مَن يعقل من بنيه ويُلقِّنه إيَّاه، وهذا أمر مشروع لكلِّ واحد أن يُلقِّن ابنه الأذكار، وإذا كان يُصيب ابنَه في منامه شيءٌ من الخوف، يُحفِّظه هذا التَّعوُّذ، ويقول له: «يا بنيَّ متى ما أصابك خوف في منامك تعوَّذ بهذا التَّعوُّذ؛ فإنَّ الله يُذهبه عنك».

(١) رواه أبو داود (٣٨٩٣)، قال الألبانيُّ: «حسن دون قوله: وكان عبدالله...».

وقوله: «**وَمَنْ لَمْ يَعْقِلْ كَتَبَهُ فَأَعْلَقَهُ عَلَيْهِ**»، أي: يكتبه في لوحًا فيعلِّقه عليه.

وهذا الَّذي جاء عن عبد الله بن عمرو رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا في هذه الرِّواية مخالفٌ لما جاء في الأحاديث عن النَّبيِّ ﷺ من النَّهي عن تعليق التَّمائم وبيان أنَّها من الشِّرك، وهذا الأثر لم يثبت عن عبد الله بن عمرو رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ؛ لأنَّ فيه عنعنة ابن إسحاق، ولكن التَّعوُّذ ثابت لمجيئه من طريق يثبت بها.

ﮊ ومَن يستدلُّ بهذا الفعل على مشروعيَّة تعليق التَّمائم من القرآن ومن الدَّعوات المأثورة؛ لا حجَّة له فيه من جهتين:

الجهة الأولى: أنَّه لم يثبت سنده إلى عبد الله بن عمرو رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

الجهة الثَّانية: على فرض ثبوته، يحتمل أن يكون المراد بفعل ابن عمرو رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أنَّه يعلِّقه عليه حتَّى يبقى في لوحٍ أمامه بحيث يقرأه إلى أن يحفظه، مثل: الألواح الَّتي يُكتب فيها القرآن من أجل الحفظ، بحيث إذا تمَّ حفظ اللَّوح محُي وكتب له بدله نصًّا آخر، فيُعلَّق عليه حتَّى يكون معه ليحفظه، لا على أنَّه تميمة. فهو يكتبها لأبنائه تيسيرًا لهم ليحفظوها، ثمَّ يُستغنى عن اللَّوح إذا حفظ الولد ما فيه.

أمَّا أن يُعلِّق آيات من القرآن توضع في خرقة أو في جلد أو تعوُّذات، ثمَّ توضع في جلد، ثمَّ يعلِّقها الإنسان على بدنه؛ فهذا لا يجوز لأسباب كثيرة ذكرها العلماء، منها:

أوَّلًا: بعدًا عن امتهان القرآن الكريم.

ثانيًا: لعموم الأدلَّة المانعة من تعليق التَّمائم، «**مَنْ تعلَّق تَمِيمَةً؛ فَلَا أَتَمَّ اللهُ لَهُ**»[1].

(١) رواه أحمد (١٧٤٠٤).

ثالثاً: لأنَّ هذا فيه وسيلة للشِّرك والوقوع في الباطل.

رابعاً: أنَّ الَّذِي شُرع لنا في هذا الباب: الرُّقية، بأن يقرأ وينفث على نفسه أو على مريضه.

قال الشَّيخ عبد العزيز ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أمَّا إذا كانت من القرآن أو من دعوات معروفة طيِّبة؛ **فهذه اختلف فيها العلماء:**

- **فقال بعضهم:** يجوز تعليقها، ويُروى هذا عن جماعة من السَّلف جعلوها كالقراءة على المريض.

- **والقول الثَّاني:** أنَّها لا تجوز، وهذا هو المعروف عن عبد الله بن مسعود وحذيفة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا وجماعة من السَّلف والخلف، قالوا: لا يجوز تعليقها ولو كانت من القرآن؛ سدًّا للذَّريعة، وحسمًا لمادَّة الشِّرك، وعملًا بالعموم؛ لأنَّ الأحاديث المانعة من التَّمائم أحاديث عامَّة لم تستثنِ شيئًا. والواجب الأخذ بالعموم، فلا يجوز شيء من التَّمائم أصلًا؛ لأنَّ ذلك يفضي إلى تعليق غيرها والتباس الأمر، فوجب منع الجميع، وهذا هو الصَّواب لظهور دليله». اهـ كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١].

(١) مجموع فتاوى ابن باز (١/ ٥١).

٥٢

ما يقوله مَن رأى في منامه ما يُحبُّ أو يكره

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**إِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ رُؤْيَا يُحِبُّهَا فَإِنَّمَا هِيَ مِنَ اللهِ؛ فَلْيَحْمَدِ اللهَ عَلَيْهَا وَلْيُحَدِّثْ بِهَا، وَإِذَا رَأَى غَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا يَكْرَهُ فَإِنَّمَا هِيَ مِنَ الشَّيْطَانِ؛ فَلْيَسْتَعِذْ مِنْ شَرِّهَا، وَلَا يَذْكُرْهَا لأَحَدٍ فَإِنَّهَا لَا تَضُرُّهُ**». رواه البخاريُّ[1].

وَعَنْ أبي سَلَمَةَ بن عبد الرَّحمن، قال: لَقَدْ كُنْتُ أَرَى الرُّؤْيَا فَتُمْرِضُنِي حَتَّى سَمِعْتُ أَبَا قَتَادَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: وَأَنَا كُنْتُ لَأَرَى الرُّؤْيَا تُمْرِضُنِي، حَتَّى سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**الرُّؤْيَا الْحَسَنَةُ مِنَ اللهِ؛ فَإِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ مَا يُحِبُّ فَلَا يُحَدِّثْ بِهِ إِلَّا مَنْ يُحِبُّ، وَإِذَا رَأَى مَا يَكْرَهُ فَلْيَتَعَوَّذْ بِاللهِ مِنْ شَرِّهَا وَمِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ، وَلْيَتْفِلْ ثَلَاثًا، وَلَا يُحَدِّثْ بِهَا أَحَداً؛ فَإِنَّهَا لَنْ تَضُرَّهُ**». رواه البخاريُّ ومسلم واللَّفظ للبخاريِّ[2].

وَعَنْ جابرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**إِذَا رَأَى أَحَدُكُمُ الرُّؤْيَا يَكْرَهُهَا فَلْيَبْصُقْ عَنْ يَسَارِهِ ثَلَاثًا، وَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ ثَلَاثًا، وَلْيَتَحَوَّلْ عَنْ جَنْبِهِ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ**». رواه مسلم[3].

دلَّت هذه الأحاديث على جملة من الفوائد تتعلَّق بالرُّؤيا وما ينبغي أن

(١) رواه البخاريُّ (٦٩٨٥).
(٢) رواه البخاريُّ (٧٠٤٤)، ومسلم (٢٢٦١).
(٣) رواه مسلم (٢٢٦٢).

يكون عليه المؤمن تجاه ما يراه في منامه من أمورٍ يفرح برؤيتها ويُسرُّ، أو أمور يحزن لرؤيتها ويضجر.

ومن فوائد هذه الأحاديث ما يلي:

أوَّلًا: تعظيمُ شأن الرُّؤيا الصَّالحة يراها المسلم، وأنَّها من الله عَزَّوَجَلَّ؛ ساقها إلى عبده المؤمن في حياته بشارةً له بالخير، وتأنيسًا لقلبه وطَمْأَنَةً لفؤاده، كما قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [يونس: ٦٤]، قال غيرُ واحد من السَّلف: «هِيَ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الرَّجُلُ الصَّالِحُ أَوْ تُرَى لَهُ»(١).

ثانيًا: بيان أنَّ ما يراه المؤمن في منامه مِمَّا يكرهه إنَّما هو من الشَّيطان؛ ليَحزُن الَّذين آمنوا وليس بضارِّهم شيئًا إلَّا بإذن الله.

ثالثاً: بيان ما ينبغي أن يفعلَه المسلمُ عندما يرى في منامه ما يُحبُّ ويتلخَّصُ ذلك في عدَّة أمور:

١- أنَّ المسلمَ ينبغي له أن يفرحَ ويستبشرَ بالرُّؤيا الصَّالحة يراها أو تُرى له، وأن لا يغترَّ، فالرُّؤيا كما قال بعض السَّلف «**تَسُرُّ الْمُؤْمِنَ وَلَا تَغُرُّهُ**»(٢).

٢- أن يحمدَ اللهَ عَزَّوَجَلَّ على هذا الخير الَّذي ساقه إليه، والفضلِ الَّذي منحه إيَّاه، حيث أكرمَه بهذه الرُّؤيا المبشِّرة.

٣- أن يُحدِّثَ بها مَن يُحبُّ من إخوانه وجُلسائه الَّذين شأنهم معه أنَّهم يتعاونون معه على الخير ويتواصون معه على البرِّ والإحسان؛ فتكون الرُّؤيا الَّتي رآها سببًا لزيادة الخير فيهم، وحافزًا للمُضيِّ في مجالاته.

٤- أن لا يُحدِّث بها مَن يكره؛ درءًا لمفسدة حصول الأذى منه أو الحسد أو نحو ذلك.

---

(١) ذكره الطَّبريُّ في تفسيره (١٥/ ١٢٧).
(٢) قاله أحمد، كما في مناقب الإمام أحمد لابن الجوزيِّ (ص٣٧٩).

رابعًا: ومن الفوائد الَّتِي اشتملت عليها الأحاديث المتقدِّمة؛ بيان ما ينبغي أن يفعله المسلم إذا رأى في منامه ما يكره، ويتلخَّص ذلك في الأمور التَّالية:

١- أن يعلمَ أنَّ ذلك إنَّما هو من الشَّيطان يريد به تحزين المؤمن وإدخال الهمِّ والغمِّ والفزع عليه، فعليه أن لا يلتفت إلى مكر الشَّيطان، وأن لا يشغل بالَه بذلك.

٢- أن يتعوَّذ بالله من شرِّها وشرِّ الشَّيطان الرَّجيم، والتَّعوُّذ: التجاءٌ إلى الله واعتصامٌ به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١].

٣- أن يتفل عن يساره ثلاثًا، وقد قيل: لأنَّ الشَّيطانَ يأتي ابنَ آدم مِن قِبَل يساره، لأنَّه يريد أن يُوسوس في القلب، والقلبُ قريبٌ من جهة اليسار، فيأتي الشَّيطان من جهته القريبة، والله أعلم.

٤- أن يتحوَّلَ عن جنبه الَّذِي كان عليه، وقيل في الحكمة من هذا: أنَّ في ذلك تفاؤلًا بالتَّحوُّل من هذه الحال المسيئة المحزنة إلى حالٍ مُفرحة، كما قال العُلماء في الحكمة من تحويل الرِّداء في الاستسقاء، تفاؤلًا بتغيُّرِ الحال من الجدب إلى الغيث.

٥- ألَّا يُحدِّث أحدًا بما رأى في منامه من أمورٍ يكرهها، وقد جاء في صحيح مسلم عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: جاء رجلٌ إلى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «يا رسول الله رأيتُ في المنام كأنَّ رأسي قُطع»، قال: فضحك النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقال: «**إِذَا لَعِبَ الشَّيْطَانُ بِأَحَدِكُمْ فِي مَنَامِهِ فَلَا يُحَدِّثْ بِهِ النَّاسَ**»، وفي رواية أخرى قال: جاء أعرابيٌّ إلى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «**يَا رَسُولَ اللهِ! رَأَيْتُ فِي المَنَامِ كَأَنَّ رَأْسِي ضُرِبَ فتَدَحْرَجَ فاشتَدَدتُ على أَثَرِه**»، فقال رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للأعرابيِّ: «**لَا تُحَدِّثِ النَّاسَ بتلعُّب الشَّيطان بِكَ فِي مَنَامِكَ**»(١).

(١) رواه مسلم (٢٢٦٨).

ثمَّ إنَّ النَّبِيَّ ﷺ قد أخبر أنَّ مَن فعل ما تقدَّم لا تضرُّه رؤياه، بل يكون فعلُه لهذه الأمور سببًا واقيًا بإذن الله من شرِّ الرُّؤيا ومن شرِّ الشَّياطين.

قال أبو سلمة بن عبد الرَّحمن الرَّاوي للحديث عن أبي قتادة: «**فَلَمَّا سَمِعْتُ بِهَذَا الحَدِيثِ فَمَا كُنْتُ أُبَالِي بِهَا**»، أي: لِأَنَّ النَّبيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال: «**إِنَّهَا لَنْ تَضُرَّكَ**». وهذا نستفيد منه فائدة تتعلَّق بمسلك السَّلف رَحِمَهُمُ اللَّهُ، ألا وهي: شدَّة قربهم من النُّصوص، ويقينهم بكلام النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وشدَّة طمأنينتهم له، فكانت تلك الرُّؤى الَّتي رآها ثقيلة عليه وتمرضه، ولمَّا سمع هذا الحديث أصبح لا يُبالي، وهذا يدلُّ على قوَّة أثر السُّنَّة في نفوس السَّلف، وشدَّة انتفاعهم بها.

وعلى العبد مع ذلك كلِّه أن يكون متَّقيًا لله، محافظًا على طاعته، بعيدًا عن معاصيه؛ ليكون بذلك محفوظًا بحفظ الله مُحاطًا برعايته وعنايته سبحانه. وقد قال ابن سيرين رَحِمَهُ اللَّهُ: «اتَّقِ اللهَ فِي اليَقَظَةِ، وَلَا تُبَالِ مَا رَأَيْتَ فِي النَّوْمِ»[(١)].

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**الرُّؤْيَا الْحَسَنَةُ مِنَ الرَّجُلِ الصَّالِحِ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ**». رواه البخاريُّ[(٢)].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِذَا اقْتَرَبَ الزَّمَانُ لَمْ تَكَدْ رُؤْيَا الْمُسْلِمِ تَكْذِبُ، وَأَصْدَقُكُمْ رُؤْيَا أَصْدَقُكُمْ حَدِيثًا، وَرُؤْيَا الْمُسْلِمِ جُزْءٌ مِنْ خَمْسٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ، وَالرُّؤْيَا ثَلَاثَةٌ: فَرُؤْيَا الصَّالِحَةِ بُشْرَى مِنَ اللهِ، وَرُؤْيَا تَحْزِينٌ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَرُؤْيَا مِمَّا يُحَدِّثُ الْمَرْءُ نَفْسَهُ؛ فَإِنْ رَأَى أَحَدُكُمْ مَا يَكْرَهُ فَلْيَقُمْ فَلْيُصَلِّ وَلَا يُحَدِّثْ بِهَا النَّاسَ**». رواه مسلم[(٣)].

---

(١) ذكره أبو نعيم في حلية الأولياء (٢/ ٢٧٣).
(٢) رواه البخاريُّ (٦٩٨٣).
(٣) رواه مسلم (٢٢٦٣).

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ورؤيا الأنبياء وحيٌ؛ فإنَّها معصومة من الشَّيطان وهذا باتِّفاق الأمَّة، ولهذا أقدم الخليل على ذبح ابنه إسماعيل عليهما السَّلام بالرُّؤيا. وأمَّا رؤيا غيرهم فتُعرض على الوحي الصَّريح، فإن وافقته وإلَّا لم يُعمل بها. فإن قيل فما تقولون إذا كانت رؤيا صادقة أو تواطأت؟ قلنا متى كانت كذلك استحال مخالفتها للوحي، بل لا تكون إلَّا مطابقةً له منبِّهةً عليه أو منبِّهةً على اندراج قضيَّة خاصَّة في حكمه لم يعرف الرَّائي اندراجها فيه، فيتنبَّه بالرُّؤيا على ذلك. ومَن أراد أن تصدق رؤياه فليتحرَّ الصِّدق وأكل الحلال والمحافظة على الأمر والنَّهي، ولينم على طهارة كاملة، مستقبل القبلة، ويذكر الله حتَّى تغلبه عيناه؛ فإنَّ رؤياه لا تكاد تكذب ألبتَّة. وأصدق الرُّؤيا: رؤيا الأسحار؛ فإنَّه وقت النُّزول الإلهيِّ واقتراب الرَّحمة والمغفرة وسكون الشَّياطين، وعكسه رؤيا العتمة عند انتشار الشَّياطين والأرواح الشَّيطانيَّة».

وعَنْ أَنَسٍ: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**مَنْ رَآنِي فِي المَنَامِ فَقَدْ رَآنِي؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَتَخَيَّلُ بِي**»، وَقَالَ: «**وَرُؤْيَا المُؤْمِنِ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ**». رواه البخاريُّ[(١)].

وفي هذا فضلُ الرُّؤيا الحسنة الَّتي يُكرِم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بها عبدَه المؤمن، وهي منَ المبشِّرات، ومنها رؤية النَّبيِّ ﷺ في المنام.

وعَنْ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَنْ رَآنِي فِي المَنَامِ فَقَدْ رَآنِي؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَتَمَثَّلُ بِي**». رواه التِّرمذيُّ[(٢)].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**مَنْ رَآنِي فِي المَنَامِ فَقَدْ**

(١) رواه البخاريُّ (٦٩٩٤).
(٢) رواه التِّرمذيُّ (٢٢٧٦)، وصحَّحه الألبانيُّ.

رَآنِي؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَتَصَوَّرُ، أَوْ قَالَ: لَا يَتَشَبَّهُ بِي». متَّفق عليه(١)

أي: مَن رأى النَّبيَّ ﷺ بصفته المعهودة المعروفة، لا بصفةٍ أخرى، إذ قد يأتي الشَّيطان للإنسان بصفةٍ أخرى، ويقول إنَّه الرَّسُول، لٰكِن لا يمكن للشَّيطان أبداً أن يأتي لشخصٍ في المنام بصفةِ نبيِّنا ﷺ.

عَنْ يَزِيدَ الفَارِسِيِّ -وَكَانَ يَكْتُبُ المَصَاحِفَ- قَالَ: رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فِي المَنَامِ زَمَنَ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: فَقُلْتُ: لِابْنِ عَبَّاسٍ: إِنِّي رَأَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ فِي النَّوْمِ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «**إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَانَ يَقُولُ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَشَبَّهَ بِي، فَمَنْ رَآنِي فِي النَّوْمِ فَقَدْ رَآنِي»، هَل تَسْتَطِيعُ أَنْ تَنْعَتَ هَذَا الرَّجُلَ الَّذِي رَأَيْتَهُ فِي النَّوْمِ؟ قَالَ: نَعَمْ، أَنْعَتُ لَكَ رَجُلًا بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ، جِسْمُهُ وَلَحْمُهُ أَسْمَرُ إِلَى الْبَيَاضِ، أَكْحَلُ العَيْنَيْنِ، حَسَنُ الضَّحِكِ، جَمِيلُ دَوَائِرِ الوَجْهِ، مَلَأَتْ لِحْيَتُهُ مَا بَيْنَ هَذِهِ إِلَى هَذِهِ، قَدْ مَلَأَتْ نَحْرَهُ**» -قَالَ عَوْفٌ: وَلَا أَدْرِي مَا كَانَ مَعَ هَذَا النَّعْتِ- فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**لَوْ رَأَيْتَهُ فِي اليَقَظَةِ مَا اسْتَطَعْتَ أَنْ تَنْعَتَهُ فَوْقَ هَذَا**». رواه أحمد(٢).

أراد ابن عبَّاس بهٰذا أن ينظر في الوصف؛ فإن كان مطابقًا لما يعرفه من وصف النَّبيِّ ﷺ فإنَّه يكون قد رآه؛ لأنَّ الشَّيطانَ لا يتمثَّل به، وإن كانَ رأى رجلًا بصفةٍ أخرى فلا يكون رأى النَّبيَّ ﷺ. وكان الَّذي رآه يزيد الفارسيُّ مطابقًا لصفة النَّبيِّ ﷺ.

ثمَّ إنَّ هذه الرُّؤيا في المنام للنَّبيِّ ﷺ وعموم الرُّؤى لا يجوز أن يبنى عليه أحكام شرعيَّة، قال الشَّاطبيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وربَّما قال بعضهم رأيت النَّبيَّ ﷺ في النَّوم، فقال لي: كذا، وأمرني: بكذا، فيعمل بها ويترك بها، معرضًا عن الحدود

(١) رواه البخاريُّ (٦٩٩٣)، ومسلم (٢٢٦٦)، وأحمد في المسند (٩٣١٦)، واللَّفظ له.
(٢) رواه أحمد (٣٤١٠)، وحسَّنه الألبانيُّ في مختصر الشَّمائل (٣٤٧).

الموضوعة في الشَّريعة! وهو خطأ؛ لأنَّ الرُّؤيا من غير الأنبياء لا يُحكم بها شرعًا على حال، إلَّا أن تُعرض على ما في أيدينا من الأحكام الشَّرعيَّة، فإن سوَّغتها عُمل بمقتضاها وإلَّا وجب تركها والإعراض عنها، وإنَّما فائدتها البشارة أو النَّذارة خاصَّة، وأمَّا استفادة الأحكام فلا». اهـ كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)].

---

(١) الاعتصام (٢/ ٩٣).

٥٣
أذكار الخروج من المنزل (١)

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**إِذَا خَرَجَ الرَّجُلُ مِنْ بَيْتِهِ، فَقَالَ: «بِسْمِ اللهِ، تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ»، يُقَالُ حِينَئِذٍ: هُدِيتَ وَكُفِيتَ وَوُقِيتَ، وَتَنَحَّى عَنْهُ الشَّيْطَانُ، فَيَقُولُ لَهُ شَيْطَانٌ آخَرُ: كَيْفَ لَكَ بِرَجُلٍ قَدْ هُدِيَ وَكُفِيَ وَوُقِيَ؟**». رواه أبو داود والتِّرمذيُّ[(١)].

هذا ذكرٌ مبارك نافعٌ للمسلمِ يُستحبُّ أن يقوله في كلِّ مرَّةٍ يخرج فيها من بيته لقضاء شيء من مصالِحه الدِّينيَّة أو الدُّنيويَّة؛ وذلك ليكون محفوظًا في سيره، مُعانًا في قضاء مصالحه، مسدَّدًا في وجهته وحاجته، والعبدُ لا غِنى له عن ربِّه طرفة عين، أن يكون له حافظًا ومؤيِّدًا ومُسدِّدًا وهاديًا، ولا ينال العبدُ ذلك إلَّا بالتَّوجُّه إلى الله عَزَّوَجَلَّ في حصوله ونيله، فأرشد صلوات الله وسلامه عليه مَن خرج من مَنْزله إلى أن يقول هذا الذِّكرَ المبارك ليُهدى في طريقه، وليُكفى هَمَّه وحاجتَه، وليوقى الشُّرور والآفات.

قوله: «**إِذَا خَرَجَ الرَّجُلُ مِنْ بَيْتِهِ**»، أي: حال خروجه من بيته، لا يقوله وهو في وسط المنزل لم يخرج بعد، ولا يقوله أيضًا بعدما يمضي في الطَّريق، لكن لو فاته ذلك في أوَّل الخروج، فلا بأس أن يأتي به إذا خرج، ومثلُ البيت المنزل الَّذي يُسافر منه المسافر.

وقوله: «**بِسْمِ اللهِ**»، أي: بسم الله أخرج، فكلُّ فاعلٍ يقدِّر فعلًا مناسبًا لحالِه

---

(١) رواه أبو داود (٥٠٩٥)، والتِّرمذيُّ (٣٤٢٦)، وصحَّحه الألبانِيُّ.

عندما يبسمل، والباء في «بسم الله» للاستعانة، أي: أخرج طالبًا من الله العون والحفظ والتَّسديد.

وقوله: «**تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ**»، أي: اعتمدتُ عليه، وفوَّضتُ جميعَ أموري إليه، فالتَّوكُّلُ هو الاعتمادُ والتَّفويض وهو من أعمال القلوب، ولا يجوز صرفُه لغير الله، بل يجب إخلاصُه لله وحده، قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]، أي: عليه وحده لا على غيره؛ فجعل ذلك شرطًا في الإيمان.

والتَّوكُّلُ أجمعُ أنواع العبادة، وأعلى مقامات التَّوحيد، وأعظمُها؛ لِمَا ينشأ عنه من الأعمال الصَّالحة، والطَّاعات المتنوِّعة، فإنَّه إذا اعتمد العبدُ على الله في جميع أموره الدِّينيَّة والدُّنيويَّة دون مَن سواه صحَّ إخلاصُه، وقويت صلتُه بربِّه، وزاد إقباله عليه، وكفاه اللهُ همَّه، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطَّلاق: ٣]، أي: كافيه، ومَن كان الله كافيه فلا مطمع فيه لعدوٍّ، ولو كادت له السَّموات والأرض ومَن فيهنَّ لجعل الله له فرَجًا ومخرجًا، ورزقه من حيث لا يحتسب. وفي هذا دلالةٌ على عِظَمِ فضل التَّوكُّل وأنَّه أعظمُ أسباب جلب المنافع ودفع المضارِّ.

وقوله: «**لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ**»، هي كلمة إسلامٍ واستسلامٍ وتفويضٍ إلى الله، وتبرُّؤ من الحول والقوَّة إلَّا به، وأنَّ العبدَ لا يملك من أمره شيئًا، وليس له حيلةٌ في دفع شرٍّ ولا قوَّةٌ في جلب خيرٍ إلَّا بإرادته سبحانه، وقولُ: «**لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا باللهِ**» تُنال به الإعانة من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ومعنى «**لَا حَوْلَ وَلَا قوَّة إلَّا باللهِ**»، أي: لا تحوُّل من حال إلى حال ولا حصول قوَّة للعبد إلَّا بالله، ولا تحوُّل من مرض إلى صحَّة، ولا من فقر إلى

غنى، ولا من جهل إلى علم، ولا من تقاعس عن العبادة إلى الجدِّ فيها؛ إلَّا بالله عَزَّوَجَلَّ.

ولو تأمَّل المسلم هذا الذِّكرَ لوجده من أوَّله إلى آخره مشتملًا على الالتجاء إلى الله، والاعتصام به، والاعتماد عليه، وتفويض الأمور كلِّها إليه، ومَن كان كذلك حظي بحفظ الله له وعونِه وتوفيقِه وتسديدِه.

وقوله: «**يُقَالُ حِينَئِذٍ**»، وفي رواية: «**يُقَالُ لَهُ: هُدِيتَ وَكُفِيتَ وَوُقِيتَ**»، يجوز أن يكون القائلُ هو الله، ويجوز أن يكون مَلَكًا من الملائكة.

وقوله: «**هُدِيتَ**»، أي: إلى طريق الحقِّ والصَّواب بسبب استعانتك بالله على سلوك ما أنت بصددِه، ومَن يهده الله فلا مُضِلَّ له.

وقوله: «**وَكُفِيتَ**»، أي: كُفيت كلَّ همٍّ دنيويٍّ أو أُخرويٍّ.

وقوله: «**وَوُقِيتَ**»، أي: حُفظتَ من شرِّ أعدائك من الشَّياطين وغيرهم.

وقوله: «**فَيَتَنَحَّى عَنْهُ الشَّيْطَانُ**»، أي: يبتعد عنه الشَّيطان؛ لأنَّه مَن كان هذا شأنه فلا سبيل للشَّيطان عليه؛ لأنَّه قد أصبح في حِصنٍ حصين وحِرزٍ مكين يُحمى فيه من الشَّيطان الرَّجيم.

وقوله: «**فَيَقُولُ شَيْطَانٌ آخَرُ: كَيْفَ لَكَ بِرَجُلٍ قَدْ هُدِيَ وَكُفِيَ وَوُقِيَ**»، أي: يقول أحد الشَّياطين لهذا الشَّيطان الَّذي كان يريد إغواء هذا الشَّخص وإيذاءه: كيف لك برجل قد هُدي وكُفي ووقي؟ أي: كيف لك السبيلُ إلى إغواء وإيذاء رجل نال هذه الخصال: الهدايةَ، والكفايةَ، والوقايةَ.

وهذا يدلُّنا على عِظَم شأن هذا الذِّكر المبارك وأهمِّيَّةِ المحافظةِ عليه عند خروج المسلم من منْزله في كلِّ مرَّة يخرج فيها؛ لينال هذه الأوصافَ المباركةَ والثِّمارَ العظيمة المذكورة في هذا الحديث.

وهذا القول «**كُفِيتَ وَوُقِيتَ وَهُدِيتَ**» وإن كان مَن خرج من بيت لا يسمعُ صوتًا ولا قائلًا، لكنِ المؤمن من ذلك على يقين، فهذا من جملة الإيمان بالغيب الَّذي مدح الله أهله بقوله: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٢-٣]، فيخرج على الثِّقة بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وحسن الاعتماد عليه جَلَّ وَعَلَا، مطمئنَّةً نفسه بحصول الكفاية والهداية والوقاية.

وكلُّ واحدةٍ من هذه الثَّلاث لها متعلَّق؛ وذلك أنَّ مَن خرج من بيته لمصلحة دينيَّة أو دنيويَّة يحمل همَّ تحقُّق الأمر الَّذي خرج لأجله وانشغل باله به، ويحمل همَّ السَّلامة من شرِّ الأشرار وكيد المؤذين وعدوان المعتدين، ويحمل أيضًا همَّ السَّداد والتَّوفيق والإصابة، فيقال له في ذلك كلِّه: «هُديت وكُفيت ووُقيت».

«**هُدِيتَ**»، أي: الطَّريق المستقيم والجادَّة السَّوية وسلِمت من الضَّلال، ويدخل في ذلك اهتدائه إلى المصالح الَّتي خرج لأجلها من مصالح دينه ودنياه.

«**وَكُفِيتَ**»، أي: ما أهمَّك؛ لأنَّ مَن يخرج يخرج مهتمًّا لأمرٍ ما يحمل همَّ فعله وهمَّ تحقُّقه وصلاحه، فيقال له: «كُفيت»، أي: أمر هذا الَّذي أهمَّك.

«**وَوُقِيتَ**»، أي: ممَّا تخشى أن يحصل لك من ضررٍ، أو أذى، أو ظلمٍ، أو عدوانٍ، أو نحو ذلك.

ثمَّ إنَّ المرء في كلِّ مرَّة يخرج فيها من بيته فإنَّ الشَّيطان عند بيته قاعدٌ بانتظار خروجه، وقد قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**إِنَّ الشَّيْطَانَ قَاعِدٌ لِابْنِ آدَمَ بِأَطْرُقِهِ**»، أي: في كلِّ طريق يسلكه فهو قاعد له فيه، لا يَكلُّ ولا يَملُّ. وهذا يؤكِّد الحاجة الشَّديدة والضَّرورة الملحَّة ألَّا ينسى المسلم هذه الكلمات في كلِّ مرَّة يخرج فيها من بيته؛ لأنَّك في كلِّ مرَّة تخرج فيها من بيتك تحتاج إلى هذه الأمور

العظام: الهداية، والكفاية، والوقاية. وتحتاج أيضًا أن يبتعد عنك الشَّيطان، ولهذا قال: «تنحَّى عنه الشَّيطان»، بمعنى: ابتعد، ومَن خرج على هذه الحال خرج محصَّنًا بالذِّكر، ومَن كان لله ذاكرًا فليس للشَّيطان عليه سبيل، ولهذا قال: «**تَنَحَّى عَنْهُ الشَّيْطَانُ، فَيَقُولُ لِشَيْطَانٍ آخَرَ: كَيْفَ لَكَ بِرَجُلٍ قَدْ هُدِيَ وَكُفِيَ وَوُقِيَ**»، إنَّما سبيلُه على الغافلين، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ [الزُّخرف: ٣٦].

وتأمَّل هنا أنَّ مَن يذكر الله هذا الذِّكر عندما يخرج من بيته، يسْلم من هذا الشَّيطان الَّذي يرصده ليخرج، ويسْلم أيضًا من أعوانه وإخوانه من الشَّياطين. وهذا فيه فائدة: أنَّ الَّذي يرصد الإنسان لإغوائه ليس شيطانًا واحداً بل شياطين، ولهذا إذا خرج المسلم من بيته مسمِّيًا ذاكرًا لله؛ أعلمَ الشَّياطين بعضُهم بعضًا أنَّ هذا لا سبيل لهم عليه، فلا يتعرَّض له أحدٌ منهم؛ لأنَّه خرج وهو في حصنٍ حصين وحرزٍ متين يحميه بإذن الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ من الشَّيطان الرَّجيم.

ومن فوائد هذا الحديث: أنَّ التَّوكُّل لا بُدَّ فيه من بذل السَّبب، أمَّا التَّوكُّل مع تعطيل الأسباب فهو تواكل، فهذا المذكور في الحديث خرج من بيته واتَّجه إلى مصالح دينه ودنياه وهذا بذَل السَّبب، وهو مع بذل السَّبب معتمدٌ على الرَّبِّ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ الَّذي بيده أزمَّة الأمور، فلم يأتِ بالتَّوكُّل مع تعطُّل الأسباب، ولم يأتِ بالأسباب معتمدًا عليها؛ بل جاء بالأمرين معًا، على حدِّ قول النَّبيِّ ﷺ: «**احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلاَ تَعْجِزْ**»، وقال ﷺ: «**لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرُزِقْتُمْ كَمَا يُرْزَقُ الطَّيْرُ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا**»، فالطَّير بذلت السَّبب فهي تغدو تبحث عن الرِّزق لا تبقى في عشِّها تنتظر مجيئه، ولهذا يُخطئ بعض النَّاس في فهم التَّوكُّل؛ فيظنُّ أنَّ التَّوكُّل أن يبقى الإنسان معطِّلًا الأسباب اعتمادًا على التَّوكُّل، وهذا تفريط وإضاعة.

وقد قال سعيد بن جبير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «التَّوكُّل على الله جماع الإيمان»[١]؛ وذلك أنَّ حقيقة التَّوكُّل هو عمل القلب وعبوديَّته اعتمادًا على الله وثقةً به والتجاءً إليه وتفويضًا إليه ورضًا بما يقضيه له؛ لعلمه بكفايته سبحانه وحسن اختياره لعبده إذا فوَّض إليه أموره، مع قيامه بالأسباب المأمور بها واجتهاده في تحصيلها، وهو مصاحبٌ للمؤمن في أموره كلِّها الدِّينيَّة والدُّنيويَّة؛ فهو مصاحبٌ له في صلاته، وصيامه، وحجِّه، وبرِّه، وغير ذلك من أمور دينه، ومصاحب له في جلبه للرِّزق، وطلبه للمباح وغير ذلك من أمور دنياه.

(١) رواه ابن أبي شيبة في المصنَّف (٢٩٥٨٩)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٨٧٨٤)، وأبو نعيم في الحلية (٤/ ٢٧٤).

٥٤ أذكار الخروج من المنزل (٢)

ممَّا يُستحبُّ أن يُقال أيضًا عند الخروج من المنزل: ما رواه أبو داود وابن ماجه عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: مَا خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ بَيْتِي قَطُّ إِلَّا رَفَعَ طَرْفَهُ إِلَى السَّمَاءِ، فَقَالَ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَضِلَّ أَوْ أُضَلَّ، أَوْ أَزِلَّ أَوْ أُزَلَّ، أَوْ أَظْلِمَ أَوْ أُظْلَمَ، أَوْ أَجْهَلَ أَوْ يُجْهَلَ عَلَيَّ**»[(١)].

ومَن تأمَّل هذا الدُّعاء وجده موافقًا للَّذِي قبله في الغاية والمقصود، فقوله في الحديث الأوَّل: «**هُدِيتَ**» موافقٌ لقوله في هذا الحديث: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَضِلَّ أَوْ أُضَلَّ**»، وقوله: «كُفيت» موافقٌ لقوله: «**أَظْلِمَ أَوْ أُظْلَمَ**»، وقوله: «ووُقيت» موافقٌ لقوله: «**أَزِلَّ أَوْ أُزَلَّ، أَوْ أَجْهَلَ أَوْ يُجْهَلَ عليَّ**»؛ فيكون العبدُ بذلك متعوِّذًا بالله مِمَّا يُبعده من الهداية والكفاية والوقاية، ولا بأس لو أنَّ العبدَ جمع بين هذين الدُّعاءين.

وقول أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «**مَا خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ بَيْتِي قَطُّ إِلَّا رَفَعَ طَرْفَهُ إِلَى السَّمَاءِ فَقَالَ...**»، وذكرت الدُّعاء؛ يفيد مواظبة النَّبِيِّ ﷺ عليه في كلِّ مرَّة يخرج فيها من بيته. وفي هذا دلالةٌ على أهمِّيَّة مواظبة المسلم على هذا الدُّعاء في كلِّ مرَّة يخرج فيها من منزله تأسيًّا بالنَّبِيِّ ﷺ، وفي ذلك الخيرُ والبركةُ والسَّلامة والغنيمة.

---

(١) رواه أبو داود (٥٠٩٤)، وابن ماجه (٣٨٨٤)، قال الألبانيُّ صحيح دون قوله رفع طرفه إلى السَّماء.

وقولها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «**إِلَّا رَفَعَ طَرْفَهُ إِلَى السَّمَاءِ**»، فيه دلالةٌ على علوِّ الله على خلقه، وأنَّ الرَّبَّ العظيم الَّذي ندعوه ونسأله ونرجوه مستوٍ على عرشه بائنٌ من خلقه، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٥٩].

فَرَفْعُ الطَّرفِ إلى السَّماءِ فيه إيمانٌ بعلوِّ الله، كما أنَّ رَفعَ الأيدي إلى السَّماء فيه إيمانٌ بعلوِّ الله، قال حافظُ المغرب أبو عمر بن عبد البرِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «التَّمهيد» وهو بصدد ذكره الأدلَّةَ على علوِّ الله: «ومن الحُجَّةِ أيضًا في أنَّه عَزَّوَجَلَّ على العرش فوق السَّموات السَّبع: أنَّ الموحِّدين أجمعين من العرب والعجم إذا كربهم أمرٌ، أو نزلت بهم شِدَّةٌ، رفعوا وجوهَهم إلى السَّماء يستغيثون ربَّهم تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وهذا أشهر وأعرفُ عند الخاصَّة والعامَّة من أن يُحتاج فيه إلى أكثر من حكايتِه؛ لأنَّه اضطرارٌ لَم يُؤنِّبهم عليه أحدٌ ولا أنكره عليهم مسلم». اهـ كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١].

وأيضًا في رفع الطَّرف إلى السَّماء دلالةٌ على أهمِّيَّة استشعار مراقبة الله وأنَّه سبحانه مطَّلعٌ على عباده، عليمٌ بهم لا تخفى عليه منهم خافية، وأنَّ أزمَّة الأمور بيده، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

وقوله ﷺ في هذا الدُّعاء: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ...**» إلى آخره. الاستعاذةُ سبق بيانُ معناها وأنَّها اعتصامٌ بالله والتجاءٌ إليه، وفي هذا الدُّعاء التجاءٌ إلى الله عَزَّوَجَلَّ بأن يَحميَ العبدَ من أن يقع في شيء من هذه الأمور المذكورة، وهي: أنْ يَضِلَّ أَوْ يُضَلَّ، أَوْ يَزِلَّ أَوْ يُزَلَّ، أَوْ يَظْلِمَ أَوْ يُظْلَمَ، أَوْ يَجْهَلَ أَوْ يُجْهَلَ عليه.

ومن المعلوم أنَّ مَن يخرجُ من بيته لابدَّ له في خروجه من مخالطةِ النَّاس ومعاشرتِهم، والنَّاس أجناس وأصناف ومعادن، وأخلاقهم متفاوتة، ومَن يعاشرهم يُخشَى عليه منهم، ويُخشَى عليهم منه، فهذا محتمل، وذاك محتمل،

(١) التَّمهيد (٧/ ١٣٤).

والنَّاصِحُ لنفسه يخاف أن يُبتلى بسبب هذه المخالطة والمعاشرة بالعدول عن الطَّريق القويم والمسلك المستقيم الَّذي ينبغي أن يكون عليه المسلم، وذلك قد يكون متعلِّقًا بالدِّين بأن يَضِلَّ أو يُضلَّ، أو متعلِّقًا بأمر الدُّنيا بأن يَظلم أو يظلم، أو متعلِّقًا بشأن المخالَطين والمعاشَرين بأن يزِلَّ أو يُزَلَّ أو يَجهلَ أو يُجهَل عليه؛ فاستعاذ من جميع هذه الأحوال بهذه الألفاظ البليغة والكلمات الوافية الدَّقيقة.

قال الطِّيبيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنَّ الإنسان إذا خرج من منزله لا بُدَّ أن يعاشر النَّاس ويزاول الأمور، فيخاف أن يعدل عن الصِّراط المستقيم، فإمَّا أن يكون في أمر الدِّين فلا يخلو من أن يضلَّ أو يُضلَّ، وإمَّا أن يكون في أمر الدُّنيا؛ فإمَّا بسبب جريان المعاملة معهم بأن يظلم أو يُظلم، وإمَّا بسبب الاختلاط والمصاحبة فإمَّا أن يجهل أو يُجهل، فاستُعيذ من هذه الأحوال كلِّها بلفظ سلس موجز، ورُوعي المطابقة المعنويَّة والمشاكلة اللَّفظيَّة». اهـ كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)].

قوله: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَضِلَّ أَوْ أُضَلَّ**»، فيه تعوُّذٌ بالله من الضَّلال وهو ضِدُّ الهداية، وسؤاله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الإعاذة من الضَّلال متضمِّنٌ طلبَ التَّوفيق للهداية.

وقوله: «**أن أضلَّ**»، أي: أن أضلَّ في نفسي بأن أرتكب أمرًا يُفضي بي إلى الضَّلال، أو أقترف ذنبًا يجنح بي عن سبيل الهداية.

وقوله: «**أَوْ أُضَلَّ**»، أي: أن يضلَّنِي غيري من شياطين الإنس والجنِّ الَّذين لا همَّ لهم إلَّا إضلال النَّاس وصدّهم عن سواء السَّبيل. وهذا فيه أنَّ ضلال المرء قد يكون من نفسهِ الأمَّارة بالسُّوء فتحرفه إلى طريق الضَّلال، وقد يكون بسبب إضلال شياطين الإنس والجنِّ له.

---

(١) انظر: مرقاة المفاتيح (٤/ ١٦٩٤).

وقوله: «**أَوْ أَزِلَّ أَوْ أُزَلَّ**» من الزلَّة وهي العَثرة؛ وذلك بأن يهويَ الإنسانُ عن طريق الاستقامة، ومن ذلك قولهم: «زلَّت قدَم فلان»، أي: وقع من علوٍّ إلى هبوط، ويُقال: «طريقٌ مزلَّة»، أي: تزلُّ عليه الأقدامُ ولا تثبت، والمراد هنا: الوقوعُ في الذَّنب من حيث لا يشعر؛ تشبيهًا بزلَّة الرِّجل، وقوله: «أَزِلَّ»، أي: من نفسي، وقوله: «أُزَلَّ»، أي: أن يوقعنِي غيري في الزَّلَل.

وقوله: «**أَوْ أَظْلِمَ أَوْ أُظْلَمَ**» من الظُّلم، وهو وضع الشَّيء في غير موضعه.

وقوله: «**أَوْ أَظْلِمَ**»، أي: نفسي بإيقاعِها في الخطأ وجرِّها إلى الإثم، وغيري بأن أعتدي عليه، أو أتصرَّف في ملكه بغير حقٍّ، أو أناله بشيء من الأذى والسُّوء.

وقوله: «**أَوْ أُظْلَمَ**»، أي: أن يظلِمنِي أحدٌ من النَّاسِ في نفسي أو مالي أو عِرضي.

وقوله: «**أَوْ أَجْهَلَ أَوْ يُجْهَلَ عَلَيَّ**» من الجهل، وهو ضدُّ العلم.

وقوله: «**أَجْهَلَ**»، أي: أفعلُ فِعل الجهلاء، أو أشتغل في شيء لا يعنِينِي، أو أجهلَ الحقَّ الواجب عليَّ.

وقوله: «**أَوْ يُجْهَلَ عَلَيَّ**»، أي: أن يجهل غيري عليَّ بأن يُقابِلَنِي مقابلة الجهلاء بالسَّفاهة والوقاحة والسِّباب ونحو ذلك.

ومَن سلِم من الغلط مع غيره في شيء من هذه الخصال، ومِن أن يَغلطَ معه غيرُه في شيء منها فقد عوفِي وعوفِي النَّاسُ منه. فالحديث فيه التَّعوُّذُ من هذه الأمور من الطَّرفين: من طرف المتعوِّذ نفسِه، ومن طرف النَّاس الَّذين يلقاهم ويحتكُّ بهم، وكان بعضُ السَّلف يقول في دعائه: «**اللَّهُمَّ سَلِّمْنِي وَسَلِّمْ**

مِنِّي»[١]، ومَن كان هذا شأنُه سالِمًا من شرِّ النَّاس، والنَّاسُ سالِمون من شرِّه فهو على خيرٍ عظيم.

الحاصل أنَّ هذا دعاءٌ عظيم ينبغي على المسلم أن يُحافظَ عليه كلَّ مرَّة يخرج فيها من بيته؛ ليكون ملتجئًا إلى الله معتصمًا به سبحانه من أن يناله شيءٌ من تلك الأمور. ثمَّ عليه مع هذا الالتجاء أن يأخذَ بالأسبابِ؛ فيحذرَ أشدَّ الحَذر من الضَّلال والزَّلل والظُّلم والجهل، فيكون بذلك جامعًا بين فعل الأسباب والاستعانة عليها بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ثمَّ إنَّ التَّوقيت للمجيء بهذا الدُّعاء توقيتٌ في غاية المناسبة؛ وهو أنَّه يُشرع للمسلم أن يقوله كلَّ مرَّة يخرج فيها من بيته لأيِّ مصلحة دينيَّة أو دنيويَّة، لتتحقَّق له هذا المغانم والأرباح. ولو أنَّ مَن خرج من منزله نسيه عند الخروج فلا حرج أن يأتي به بعد مضيِّه في الطَّريق؛ لأنَّ المعنى -وهو طلب السَّلامة من الضَّلال والزَّلل والجهل والظُّلم- لا يزال مطلوبًا محتاجًا إليه.

ثمَّ مَن يدعو بهذا الدُّعاء عليه أن يبذل السَّبب، بأن يحرص عند ملاقاة النَّاس على حُسْن المعاملة وطيب المعاشرة، والبُعْد عن إيذاء النَّاس أو الاعتداء عليهم. ومن الأسباب المطلوبة هنا: ألَّا يُلقِي بنفسه في مواضع الفِتَن، ثمَّ يقول: «قد دعوتُ عندما خرجتُ من البيت بدعاء الخروج الَّذي تكون به السَّلامة»، ثمَّ هو يُلقِي بنفسه في مواضع التَّهلكة!! فالواجب مع الدُّعاء أن يسلُك المسالك السَّديدة، والطُّرُق السَّليمة، والأماكن الطَّيِّبة، ويبتعد عن أماكن الشَّرِّ والرَّيْب والفساد.

فمع الالتجاء لا بُدَّ أن يأخذَ بالأسبابِ؛ فيحذرَ أشدَّ الحَذر من الضَّلال

(١) روى البخاريُّ في التَّاريخ الكبير (٣/ ٥١١): «كَانَ ابْنُ الْمُسَيِّبِ لا يَكَادُ يفتى فُتْيَا وَلاَ يَقُولُ شَيْئًا إِلَّا قَالَ: اللَّهُمَّ سَلِّمْنِي وَسَلِّمْ مِنِّي».

والزَّلل والظُّلم والجهل، فيكون بذلك جامعًا بين فعل الأسباب والاستعانة عليها بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

هذا ولو واظب المسلمون في كلِّ مرَّة يخرجون فيها من بيوتهم على هذا التَّعوُّذ المبارك مستشعرين أهمِّيَّة الاحتراز من هذه الأمور؛ لسلِمت المجتمعات المسلمة من كثير من الفتن والشُّرور الَّتي لا تزال تتكرَّر وتقع فيه؛ بسبب التَّفريط بالسُّنَّة وضعف العناية بها.

عن عون بن عبد الله قال: «بَيْنَا رَجُلٌ فِي بُسْتَانٍ بِمِصْرٍ فِي فِتْنَةِ ابْنِ الزُّبَيْرِ جَالِسٌ مَهْمُومٌ حَزِينٌ يَنْكُتُ فِي الْأَرْضِ، إِذْ رَفَعَ رَأْسَهُ فَإِذَا صَاحِبُ مِسْحَاةٍ قَائِمٌ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ صَاحِبُ الْمِسْحَاةِ: مَا لِي أَرَاكَ مَهْمُومًا حَزِينًا؟ فَكَأَنَّهُ ازْدَرَاهُ، فَقَالَ: لَا شَيْءَ، فَقَالَ صَاحِبُ الْمِسْحَاةِ: إِنْ يَكُنْ لِلدُّنْيَا فَالدُّنْيَا عَرَضٌ حَاضِرٌ يَأْكُلُ مِنْهُ الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ، وَإِنَّ الْآخِرَةَ أَجَلٌ صَادِقٌ يَحْكُمُ فِيهِ مَلِكٌ قَادِرٌ يَفْصِلُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، حَتَّى ذَكَرَ أَنَّ لَهَا مَفَاصِلَ مِثْلَ مَفَاصِلِ اللَّحْمِ، مَنْ أَخْطَأَ مِنْهَا شَيْئًا أَخْطَأَ الْحَقَّ، فَلَمَّا سَمِعَ بِذَلِكَ قَالَ: اهْتِمَامِي بِمَا فِيهِ الْمُسْلِمُونَ، قَالَ: فَقَالَ: فَإِنَّ اللهَ سَيُنْجِيكَ بِشَفَقَتِكَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ؛ وَسَلْ، مَنْ ذَا الَّذِي سَأَلَ اللهَ فَلَمْ يُعْطِهِ؟ وَدَعَا اللهَ فَلَمْ يُجِبْهُ؟ وَتَوَكَّلَ عَلَيْهِ فَلَمْ يَكْفِهِ؟ وَوَثِقَ بِهِ، فَلَمْ يُنْجِهِ؟ قَالَ: فَطَفِقْتُ أَقُولُ: اللَّهُمَّ سَلِّمْنِي وَسَلِّمْ مِنِّي، قَالَ: فَتَجَلَّتْ وَلَمْ أُصِبْ مِنْهَا بِشَيْءٍ»(١).

ولفظ الدعاء المأثور أشمل وأوفى.

(١) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٣٥٩٧٩).

٥٥
أذكار دخول المنزل

يُستحبُّ للمسلم عند دخوله المنزل أن يقول: «بِسْمِ اللهِ»، ثمَّ إذا دخل أن يجتهد في الإكثار من ذكر الله في بيته؛ فقد روى البخاريُّ ومسلم عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**مَثَلُ البَيْتِ الَّذِي يُذْكَرُ فِيهِ اللهُ، وَالبَيْت الَّذِي لَا يُذْكَرُ فِيهِ اللهُ مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ**»(١)، ويُشرع إذا دخل أن يُلقي السَّلام، سواءٌ كان في البيت أحدٌ أو لم يكن فيه أحد، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَـٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾ [النُّور: ٦١].

قوله تعالى: ﴿فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾، أي: لِيُسلِّم بعضكم على بعض، فجعل المؤمنين بمثابة النَّفسِ الواحدة لمَّا كانوا مَثَل الجسدِ الواحد في توادِّهم وتعاطفهم وتراحمهم، فمَن دخل بيتًا عليه أن يُسلِّم سواء كان في البيت أحدٌ أو لم يكن فيه أحد. قال ابنُ سعديٍّ: في تفسير هذه الآية: «﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا﴾ نكرة في سياق الشَّرط، يشمل بيت الإنسان وبيت غيره، سواء كان في البيت ساكنٌ أم لا، فإذا دخلها الإنسان ﴿فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾، أي: فليسلِّم بعضكم على بعض؛ لأنَّ المسلمين كأنَّهم شخص واحد، من توادِّهم وتراحمهم وتعاطفهم، فالسَّلام مشروعٌ لدخول سائر البيوت من غير فرقٍ بين بيت وبيت، ثمَّ مدح هذا السَّلام، فقال: ﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَـٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾، أي: سلامكم بقول: «**السَّلام عليكم ورحمة الله وبركاته**»، أو «السَّلام علينا

(١) رواه البخاريُّ (٦٤٠٧)، ومسلم (٧٧٩)، واللَّفظ له.

وعلى عباد الله الصَّالحين» إذ تدخلون البيوت ﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، أي: قد شرعها لكم وجعلها تحيَّتكم؛ ﴿مُبَٰرَكَةً﴾ لاشتمالها على السَّلامة من النَّقص، وحصول الرَّحمة والبركة والنَّماء والزِّيادة، ﴿طَيِّبَةً﴾؛ لأنَّها من الكلم الطَّيِّب المحبوب عند الله، الَّذي فيه طيب نفسٍ للمحيَّا، ومحبَّةٍ وجلب مودَّة». اهـ كلامه[(١)].

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**إِذَا دَخَلَ الرَّجُلُ بَيْتَهُ فَذَكَرَ اللهَ عِنْدَ دُخُولِهِ وَعِنْدَ طَعَامِهِ، قَالَ الشَّيْطَانُ: لَا مَبِيتَ لَكُمْ وَلَا عَشَاءَ، وَإِذَا دَخَلَ فَلَمْ يَذْكُرِ اللهَ عِنْدَ دُخُولِهِ، قَالَ الشَّيْطَانُ: أَدْرَكْتُمُ الْمَبِيتَ، وَإِذَا لَمْ يَذْكُرِ اللهَ عِنْدَ طَعَامِهِ، قَالَ: أَدْرَكْتُمُ الْمَبِيتَ وَالْعَشَاءَ**». رواه مسلم[(٢)].

في هذا الحديث مشروعيَّة ذكر الله عند دخول المنزل وعند تناول الطَّعام، وأنَّ مَن يذكر الله عند دخوله وعند طعامه يسْلم من الشَّيطان ومن مشاركته له في بيته ومِن مشاركته له في طعامه، قال الله تعالى: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الإسراء: ٦٤-٦٥]، قال الشَّيخ ابن سعديٍّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «ذكر كثيرٌ من المفسِّرين أنَّه يدخل في مشاركة الشَّيطان في الأموال والأولاد ترك التَّسمية عند الطَّعام والشَّراب والجماع، وأنَّه إذا لم يُسمِّ الله في ذلك؛ شارك فيه الشَّيطان كما ورد فيه الحديث»[(٣)].

فقوله: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ هذا في حقِّ الغافل عن ذكر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؛ فيشاركه الشَّيطان في ماله وولده، وقد أفاد الحديث أنَّ هذه المشاركة

---

(١) تفسير السِّعديِّ (ص٥٧٥).
(٢) رواه مسلم (٢٠١٨).
(٣) تفسير السِّعديِّ (ص٤٦١).

تحصل بترك التَّسمية، أمَّا الذَّاكرون الله فليس للشَّيطان عليهم سبيل، بل هم محفوظون بحفظ الله، وكفى به حافظًا ووكيلًا.

قوله: «**إِذَا دَخَلَ الرَّجُلُ بَيْتَهُ فَذَكَرَ اللهَ عِنْدَ دُخُولِهِ وَعِنْدَ طَعَامِهِ، قَالَ الشَّيْطَانُ: لَا مَبِيتَ لَكُمْ وَلَا عَشَاءَ**»، هذا فيه انتفاء هذه المشاركة، في المال والأولاد والطَّعام، أي: أنَّها تنتفي بحصول الذِّكر لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

وقوله: «**وَإِذَا دَخَلَ فَلَمْ يَذْكُرِ اللهَ عِنْدَ دُخُولِهِ، قَالَ الشَّيْطَانُ: أَدْرَكْتُمُ الْمَبِيتَ**»، ففيه أنَّ مَن ترك ذكر الله فإنَّه قد فتح بذلك بابًا للشَّيطان ليُشاركه في بيته وليشاركه في ولده وطعامه. ومَن هذا الَّذي يرضى لهذا السَّيِّئ الخبيث أن يشاركه في ماله وولده وطعامه! وقد قال ﷺ: «**لا تُصاحب إلَّا مؤمنًا، ولا يأكل طعامك إلَّا تقي**»[١]. والَّذي يترك التَّسمية قد رضي ذلك شاء أم أبى؛ ولهذا يحتاج المقام من العبد ألَّا يغفل عن ذكر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في كلِّ مرَّةٍ يدخل فيها، يُسمِّي هو والدَّاخلون معه من ولدٍ وأهل، الكلُّ يُشرَع في حقِّه ذلك، حتَّى تحصل الكفاية للجميع، وحتَّى يسلم الجميع من الشَّيطان ومن مشاركته.

وفي هذا أيضًا: أنَّ الشَّيطان كما أنَّه جالس عند بيت المسلم ينتظر خروجه؛ ليمنعه من الطَّاعة وليصدَّه عن الخير وليدفعه إلى المعصية، فهو أيضًا جالسٌ له عند بيته ينتظر دخوله ليدخل معه إلى بيته؛ ليشاركه في ماله وولده ومبيته وغير ذلك من أموره الَّتي في بيته، فهو يجلس عند البيت منتظرًا الدَّاخل ومنتظرًا الخارج؛ ينتظر الخارج ليصدَّه، وينتظر الدَّاخل ليدخل معه.

وقوله: «**قَالَ الشَّيْطَانُ: أَدْرَكْتُمُ المَبِيتَ**»، ثمَّ عند الطَّعام يقول: «**أَدْرَكْتُمُ المَبِيتَ وَالعَشَاءَ**» يفيد أنَّ الَّذي سيُشارك عند ترك التَّسمية ليس شيطانًا واحداً بل شياطين، ولهذا يناديهم ويخبرهم أنَّ الباب مفتوحٌ لهم على مصراعيه.

(١) رواه أبو داود (٤٨٣٤)، والتِّرمذيُّ (٢٣٩٥)، وحسَّنه الألبانيُّ

وفعلًا يشاركون يمدُّ الواحد منهم يده إلى الطَّعام، ويأكل وإن لم يره الآكلون، روى مسلم في صحيحه عَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ: «كُنَّا إِذَا حَضَرْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ طَعَامًا لَمْ نَضَعْ أَيْدِيَنَا حَتَّى يَبْدَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَيَضَعَ يَدَهُ، وَإِنَّا حَضَرْنَا مَعَهُ مَرَّةً طَعَامًا فَجَاءَتْ جَارِيَةٌ كَأَنَّهَا تُدْفَعُ؛ فَذَهَبَتْ لِتَضَعَ يَدَهَا فِي الطَّعَامِ فَأَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِيَدِهَا، ثُمَّ جَاءَ أَعْرَابِيٌّ كَأَنَّمَا يُدْفَعُ فَأَخَذَ بِيَدِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ الشَّيْطَانَ يَسْتَحِلُّ الطَّعَامَ أَنْ لَا يُذْكَرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ، وَإِنَّهُ جَاءَ بِهَذِهِ الْجَارِيَةِ لِيَسْتَحِلَّ بِهَا فَأَخَذْتُ بِيَدِهَا، فَجَاءَ بِهَذَا الأَعْرَابِيِّ لِيَسْتَحِلَّ بِهِ فَأَخَذْتُ بِيَدِهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ يَدَهُ فِي يَدِي مَعَ يَدِهَا**»(١).

فالمشاركة حاصلةٌ بمجرَّد ترك التَّسمية، فلو تركها واحد من الأولاد استحلَّ به الشَّيطان الطَّعام، وهذا يؤكِّد أنَّ التَّسمية مطلوبةٌ من الجميع، ويعوَّد الصِّغار على العناية بها ويُذكَّرون إذا غفَلوا، ومَن الَّذي يرضى أن يجلس يأكل الطَّعام هو وأولاده ومعهم الشَّيطان أو الشَّياطين!

وجاء في السُّنَّة عن النَّبيِّ ﷺ أنَّ مَن نسيَ التَّسمية في أوَّل طعامه؛ فعليه أن يقولها في أثناء الطَّعام بلفظ: «**بِسْمِ اللهِ أَوَّلَهُ وَآخِرَهُ**»، أي: أوَّلَ الطَّعام وآخر الطَّعام. **فعَنْ عَائِشَةَ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا **أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا أَكَلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَذْكُرِ اسْمَ اللهِ تَعَالَى، فَإِنْ نَسِيَ أَنْ يَذْكُرَ اسْمَ اللهِ تَعَالَى فِي أَوَّلِهِ، فَلْيَقُلْ: بِسْمِ اللهِ أَوَّلَهُ وَآخِرَهُ**». رواه أبو داود(٢).

وروى أبو داود عَنْ أُمَيَّةَ بْنِ مَخْشِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ جَالِسًا وَرَجُلٌ يَأْكُلُ فَلَمْ يُسَمِّ، حَتَّى لَمْ يَبْقَ مِنْ طَعَامِهِ إِلَّا لُقْمَةٌ فَلَمَّا رَفَعَهَا إِلَى فِيهِ، قَالَ: «بِسْمِ اللهِ أَوَّلَهُ وَآخِرَهُ»، فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ، ثُمَّ قَالَ: «مَا زَالَ الشَّيْطَانُ يَأْكُلُ**

(١) رواه مسلم (٢٠١٧).
(٢) رواه أبو داود (٣٧٦٧)، وصحَّحه الألبانيُّ.

مَعَهُ، فَلَمَّا ذَكَرَ اسْمَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ **اسْتَقَاءَ مَا فِي بَطْنِهِ**»[(١)]، لكن هذا الحديث غير ثابت عن النَّبيِّ ﷺ؛ لأنَّ في سنده رجلًا مجهولًا، وقد ذكرته لشهرته تنبيهًا على ضعفه وعدم ثبوته.

وقوله: «**بِسْمِ اللهِ**»، الباء باء الاستعانة، أي: أدخل مستعينًا بالله، والجارُّ والمجرور في قوله: «**بِسْمِ اللهِ**» متعلِّقٌ بمحذوفٍ، تقديره: أدخل، وعند الطَّعام تقديره آكل.

والحاصل أنَّ ذِكر الله عَزَّوَجَلَّ طاردٌ للشَّيطان حافظٌ للإنسانِ، والذَّاكرُ لله محفوظٌ من الشَّيطان بحفظ الله، بل إنَّ الشَّيطانَ ييأسُ منه ويُدرك أنَّه لا سبيل له عليه، وإذا غفل عن الذِّكرِ لازمَه الشَّيطان وشاركه في طعامه وشرابه ومبيته، والله تعالى يقول: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ [الزُّخرف: ٣٦].

وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ الله ﷺ: «**يَا بُنَيَّ، إِذَا دَخَلْتَ عَلَى أَهْلِكَ فَسَلِّمْ؛ يَكُنْ بَرَكَةً عَلَيْكَ وَعَلَى أَهْلِ بَيْتِكَ**». رواه التِّرمذيُّ[(٢)].

قوله «**يا بنيَّ**»، هذا من التَّلطُّف في الخطاب وحُسن التَّودُّد منه صلوات الله وسلامه عليه.

قال: «**يَا بُنَيَّ، إِذَا دَخَلْتَ عَلَى أَهْلِكَ فَسَلِّمْ**»، وهذا فيه مشروعيَّة السَّلام إذا دخل المرء على أهله.

قال: «**يَكُنْ بَرَكَةً عَلَيْكَ وَعَلَى أَهْلِ بَيْتِكَ**»، أي: يكن السَّلامُ بركةً عليك أيَّها المُسلِّم، وعلى أهل بيتك، فما ينبغي للمسلم أن يفوِّت على نفسه حلول هذه البركة عليه وعلى أهل بيته في كلِّ مرَّةٍ يدخل فيها بيته.

---

(١) رواه أبو داود (٣٧٦٨)، وضعَّفه الألبانيُّ.

(٢) رواه التِّرمذي (٢٦٩٨).

ومن البركة العظيمة الَّتي ينالها مَن يسلِّم إذا دخل بيته: ما روى أبو داود **عَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «ثَلَاثَةٌ كُلُّهُمْ ضَامِنٌ عَلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ رَجُلٌ خَرَجَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللهِ فَهُوَ ضَامِنٌ عَلَى اللهِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُ فَيُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ أَوْ يَرُدَّهُ بِمَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ وَغَنِيمَةٍ، وَرَجُلٌ رَاحَ إِلَى الْمَسْجِدِ فَهُوَ ضَامِنٌ عَلَى اللهِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُ فَيُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ أَوْ يَرُدَّهُ بِمَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ وَغَنِيمَةٍ، وَرَجُلٌ دَخَلَ بَيْتَهُ بِسَلَامٍ فَهُوَ ضَامِنٌ عَلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ»**[(١)]. وروواه ابن حبَّان بلفظ: **«ثَلَاثَةٌ كُلُّهُمْ ضَامِنٌ عَلَى اللهِ، إِنْ عَاشَ رُزِقَ وَكُفِيَ، وَإِنْ مَاتَ أَدْخَلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ: مَنْ دَخَلَ بَيْتَهُ فَسَلَّمَ فَهُوَ ضَامِنٌ عَلَى اللهِ، وَمَنْ خَرَجَ إِلَى الْمَسْجِدِ فَهُوَ ضَامِنٌ عَلَى اللهِ، وَمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَهُوَ ضَامِنٌ عَلَى اللهِ»**[(٢)].

فتأمَّل أيَّها المسلِّم هذه البركة العظيمة إن كتب الله لك حياةً رزقك وكفاك، وإن توفَّاك أدخلك الجنَّة.

(١) رواه أبو داود (٢٤٩٤)، وصحَّحه الألبانيُّ.

(٢) رواه ابن حبَّان (٤٩٩)، وصحَّحه الألبانيُّ في صحيح الأدب المفرد (١٠٩٤)، وفي صحيح التَّرغيب والتَّرهيب (٣٢١).

٥٦
أذكار دخول الخلاء والخروج منه والأذكار المتعلِّقة بالوضوء

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا دَخَلَ الْخَلَاءَ قَالَ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْخُبُثِ وَالْخَبَائِثِ». رواه البخاريُّ ومسلم[١].

الْخَلَاءَ: موْضِع قَضاءِ الحاجَة. والخُبث: جمع خبيث، والخبائث: جمع خبيثة.

وقد جاء في بعض طرق الحديث ذِكر البسملة في أوَّله، قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد روى العُمريُّ هذا الحديثَ من طريق عبد العزيز بن المختار، عن عبد العزيز بن صُهيب، بلفظ الأمر: «إذا دخلتم الخلاءَ، فقولوا: بسم الله، أعوذ بالله من الخبث والخبائث»، وإسنادُه على شرط مسلم وفيه زيادة التَّسمية»[٢].

ويشهد لهذا ما رواه ابنُ ماجه وغيرُه عن عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا: «سِترُ ما بين الجِنِّ وعورات بَنِي آدم إذا دخل الخلاءَ أن يقول: بسم الله»[٣]، وهو حديثٌ صحيحٌ بمجموع طرقه.

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا خَرَجَ مِنَ الْخَلَاءِ، قَالَ:

---

(١) رواه البخاريُّ (١٤٢)، ومسلم (٣٧٥).
(٢) فتح الباري (١/ ٢٤٤).
(٣) رواه ابن ماجه (٢٩٧)، وصحَّحه الألبانيُّ.

«**غُفْرَانَكَ**». رواه أبو داود والتِّرمذيُّ واللَّفظ له[١].

وقوله: «**غُفْرَانَكَ**» في هذا المقام قيل في معناه، أي: خوفًا من تقصيره في أداء شكر هذه النِّعمة الجليلة أن أطعمه، ثمَّ هضمه، ثمَّ سهَّل خروجه، فرأى شكره قاصرًا عن بلوغ حقِّ هذه النِّعمة، فتداركه بالاستغفار.

ولا يجوز للمسلم أن يتكلَّم وقت قضائه الحاجة، ولا يشتغل بشيء من الذِّكر والدُّعاء، ففي صحيح مسلم عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «أنَّ رجلًا مرَّ ورسول الله ﷺ يبول، فسلَّم عليه؛ فلَم يردَّ عليه»[٢]. وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَجُلًا مَرَّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ يَبُولُ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِذَا رَأَيْتَنِي عَلَى مِثْلِ هَذِهِ الْحَالَةِ فَلَا تُسَلِّمْ عَلَيَّ؛ فَإِنَّكَ إِنْ فَعَلْتَ ذَلِكَ لَمْ أَرُدَّ عَلَيْكَ**»[٣].

ففي هذا دلالةٌ على أنَّ المسلمَ لا ينبغي له أن يتكلَّم وقت قضاء الحاجة؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ لَم يرُدَّ عليه بشيء كما في الحديث الأوَّل، وقال كما في الحديث الثَّاني: «**إِنْ فَعَلْتَ ذَلِكَ لَمْ أَرُدَّ عَلَيْكَ**». ولا ينبغي له كذلك أن يشتغل بشيء من الذِّكر والدُّعاء، والسَّلامُ ذِكرٌ ودعاء؛ لأنَّ النَّبيِّ ﷺ لَم يردَّ السَّلام على هذا المسلِّم.

✿ ومن الأذكار المتعلِّقة بالوضوء: التَّسمية في أوَّله.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَا وُضُوءَ لَهُ، وَلَا وُضُوءَ لِمَنْ لَمْ يَذْكُرِ اسْمَ اللهِ عَلَيْهِ**». رواه أبو داود وابن ماجه[٤]. وهو

(١) رواه أبو داود (٣٠)، والتِّرمذيُّ (٧)، وابن ماجه (٣٠٠)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٢) رواه مسلم (٣٧٠).
(٣) رواه ابن ماجه (٣٥٢)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٤) رواه أبو داود (١٠١)، وابن ماجه (٣٩٩)، وصحَّحه الألبانيُّ.

حديثٌ حسن بشواهده، وقد حسَّنه غيرُ واحد من أهل العلم، وهو دالٌّ على مشروعيَّة التَّسمية في أوَّل الوضوء.

وقد اختلف العلماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ في حكمها؛ فذهب الجمهور إلى أنَّها مستحبَّة. وذهب بعضُ أهل العلم إلى القول بوجوبها، إذا كان عالمًا بالحكم ذاكرًا له، فإن جهل حكمها أو نسيها فلا حرج عليه ولا يلزمُه إعادة الوضوء.

وقد سئل الإمام الشَّيخُ عبد العزيز بنُ باز: عن حكمِ مَن ترك التَّسمية في الوضوء ناسيًا، فقال: «قد ذهب جمهورُ أهل العلم إلى صحَّة الوضوء بدون تسمية، وذهب بعضُ أهل العلم إلى وجوب التَّسمية مع العلم والذِّكر، لما روي عنه ﷺ أنَّه قال: «**لَا وُضُوءَ لِمَنْ لَمْ يَذْكُرِ اسْمَ اللهِ تَعَالَى عَلَيْهِ**»[(١)]، لكنْ مَن تركها ناسيًا أو جاهلًا فوضوؤه صحيح، وليس عليه إعادتُه ولو قلنا بوجوب التَّسمية؛ لأنَّه معذورٌ بالجهل والنِّسيان، والحُجَّة في ذلك قول الله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقد صحَّ عن رسول الله ﷺ أنَّ الله سبحانه قد استجاب هذا الدُّعاءَ، وبذلك تعلم أنَّك إذا نسيتَ التَّسميةَ في أوَّلِ الوضوء ثمَّ ذكرتها في أثنائه؛ فإنَّك تُسَمِّي، وليس عليك أن تعيد أوَّلًا؛ لأنَّك معذورٌ بالنِّسيان». اهـ كلامه رَحِمَهُ اللَّهُ[(٢)].

۞ **وأمَّا الدُّعاء على أعضاء الوضوء في أثناء الوضوء**، كلُّ عضوٍ بدعاء مخصوص؛ بأن يجعلَ لغسل اليدِ دعاءً، ولغسل الوجه دعاءً، ولغسل القَدم دعاءً ونحو ذلك؛ فهذا لَم يثبت فيه شيءٌ عن النَّبِيِّ ﷺ، وليس للمسلم أن يعملَ بشيء من ذلك، ومن ذلك قول بعضِهم عند المضمضة: «اللَّهُمَّ اسقِنِي من حوض نبيِّك كأسًا لا أظمأ بعده أبدًا»، وعند الاستنشاق: «اللَّهُمَّ لا تحرمنِي

---

(١) رواه التِّرمذيُّ (٢٥)، وابن ماجه (٣٩٧)، وحسَّنه الألبانِيُّ.

(٢) مجموع فتاوى ابن باز (١٠/ ١٠٠).

رائحةَ نعيمك وجنَّاتك»، وعند غسل الوجه: «اللَّهُمَّ بيِّض وجهي يوم تبيضُّ وجوه وتسودُّ وجوه»، وعند غسل اليدين: «اللَّهمَّ أعطِنِي كتابي بيميني، اللَّهمَّ لا تُعطِنِي كتابي بشمالي»، وعند مسح الرَّأس: «اللَّهمَّ حرِّم شعري وبَشَرِي على النَّار»، وعند مسح الأذنين: «اللَّهمَّ اجعلنِي من الَّذين يستمعون القولَ فيتَّبعون أحسنه»، وعند غسل الرِّجلين: «اللَّهمَّ ثبِّت قدميَّ على الصِّراط»؛ فكلُّ ذلك مِمَّا لا أصل له عن النَّبِيِّ الكريم ﷺ. والواجبُ على المسلم الاقتصارُ على ما جاءت به السُّنَّة، والبُعدُ عمَّا أحدثه النَّاسُ بعد ذلك.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأمَّا الأذكار الَّتي يقولها العامَّةُ على الوضوء عند كلِّ عُضوٍ فلا أصل لها عن رسول الله ﷺ، ولا عن أحدٍ من الصَّحابة والتَّابعين ولا الأئمَّة الأربعة، وفيها حديثٌ كذب على رسول الله ﷺ». اهـ كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١).

وَعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رَضِيَٱللَّهُعَنهُ قَالَ: كَانَتْ عَلَيْنَا رِعَايَةُ الإِبِلِ فَجَاءَتْ نَوْبَتِي فَرَوَّحْتُهَا بِعَشِيٍّ، فَأَدْرَكْتُ رَسُولَ الله ﷺ قَائِمًا يُحَدِّثُ النَّاسَ؛ فَأَدْرَكْتُ مِنْ قَوْلِهِ: «**مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَتَوَضَّأُ فَيُحْسِنُ وُضُوءَهُ، ثُمَّ يَقُومُ فَيُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ مُقْبِلٌ عَلَيْهِمَا بِقَلْبِهِ وَوَجْهِهِ إِلَّا وَجَبَتْ لَهُ الجَنَّةُ**»، قَالَ: فَقُلْتُ: مَا أَجْوَدَ هَذِهِ! فَإِذَا قَائِلٌ بَيْنَ يَدَيَّ يَقُولُ: الَّتِي قَبْلَهَا أَجْوَدُ! فَنَظَرْتُ فَإِذَا عُمَرُ، قَالَ: إِنِّي قَدْ رَأَيْتُكَ حِينَ جِئْتَ آنِفًا، قَالَ: «**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يَتَوَضَّأُ فَيُبْلِغُ -أَوْ فَيُسْبِغُ- الْوُضُوءَ، ثُمَّ يَقُولُ: «أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُ الله وَرَسُولُهُ» إِلَّا فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةُ يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ**». رواه مسلم(٢).

قوله: «**فَرَوَّحْتُهَا بِعَشِيٍّ**»، أي: رَدَدْتُهَا إلى مَكَان راحَتِها في آخِرِ النَّهار.

---

(١) الوابل الصَّيِّب (ص١٤٠).

(٢) رواه مسلم (٢٣٤).

ورواه التِّرمذيُّ، وزاد: «**اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِنَ التَّوَّابِين واجْعَلْنِي مِنَ المُتَطَهِّرين**»(١)، وهي زيادةٌ ثابتةٌ كما بيَّن أهل العلم.

وفي هذا الحديث يذكر عُقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حِرصَ الصَّحابةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ على أوقاتِهم وتعاونَهم بينهم التَّعاون الَّذي يُحقِّق الفائدةَ للجميع، ومِن ذلك أنَّهم كانوا يتناوبون رعْيَ إبلِهم، فيجتمع الجماعةُ ويَضمُّون إبلَهم بعضَها إلى بعض، فيرعاها كلَّ يوم واحدٌ منهم؛ ليكون ذلك أرفقَ بهم، ولينصرفَ الباقون في مصالِحهم وحاجاتهم، وليتهيَّأ لهم فرصةٌ أكبرُ للاستفادة من النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وحضور مجالِسه.

ولَمَّا كانت نوبةُ عقبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وعندما عاد بالإبل إلى مراحها في آخر النَّهار وفرغ من أمرها، جاء إلى مجلس رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ ليدرك شيئًا من فوائده ولينهل من معينه المبارك، فأدرك فائدة عظيمةً فرح بها، وهي قول النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَتَوَضَّأُ فَيُحْسِنُ وُضُوءَهُ، ثُمَّ يَقُومُ فَيُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ مُقْبِلٌ عَلَيْهِمَا بِقَلْبِهِ وَوَجْهِهِ إِلَّا وَجَبَتْ لَهُ الجَنَّةُ**»، فقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -مُبديًا إعجابه بهذه الفائدة العظيمة-: «ما أجودَ هذه»، فسمعه عمرُ بنُ الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وكان قد رآه حين دخل، فقال له: «الَّتِي قَبْلَهَا أَجْوَدُ»، يُشير إلى فائدة قالها النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل دخول عقبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفي هذا دلالةٌ على ما كان عليه الصَّحابةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من الحِرصِ على الخير والتَّعاون في الدَّلالة على أبوابِ العلم وأمور الإيمان، فذكر له عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يَتَوَضَّأُ، فَيُبْلِغُ -أَوْ فَيُسْبِغُ- الوُضُوءَ، ثُمَّ يَقُولُ: أَشْهَدُ أن لَا إِلَهَ إِلَّا الله وأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ إِلَّا فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الجَنَّةِ الثَّمَانِيَةِ، يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ**».

وفي هذا فضلُ إسباغ الوضوء بإكمالِه وإتمامه على الوجه المسنون،

(١) رواه التِّرمذيُّ (٥٥)، وصحَّحه الألبانيُّ.

وفضل المحافظةِ على هذا الذِّكر العظيمِ عقِب الوضوء، وأنَّ مَن فعل ذلك فُتحت له أبواب الجنَّة الثَّمانية ليدخل من أيِّها شاء.

ويُستحبُّ أن يضمَّ إليه: «**اللَّهمَّ اجْعَلْنِي مِنَ التَّوَّابين واجْعَلْنِي مِنَ المُتَطَهِّرين**»؛ لثبوت هذه الزِّيادة عند التِّرمذيِّ كما تقدَّم.

وله أن يقول كذلك: «**سُبْحَانَك اللَّهُمَّ وبِحَمْدِكَ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إليك**»؛ لِما رواه النَّسائيُّ في عمل اليوم واللَّيلة والحاكم في مستدركه وغيرُهما عن أبي سعيد الخدريِّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ تَوَضَّأَ ثمَّ قال: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ»، كُتب في رَقٍّ، ثمَّ طُبع بطَابَعٍ، فلَم يُكسر إلى يوم القيامة**»[(١)]، والطَّابَع: الخاتم. يريد أنَّه يُختم عليه، ولا يُفتح إلى يوم القيامة.

فهذا جملةُ ما ثبت عن النَّبِيِّ ﷺ من الذِّكر المتعلِّقِ بالوضوء، قال ابن القيِّم رَحِمَهُٱللَّهُ: «ولم يُحفظ عنه -أي: رسول الله ﷺ- أنَّه كان يقول على وضوئه شيئًا غير التَّسمية، وكلُّ حديث في أذكار الوضوء الَّذي يُقال عليه فكذبٌ مختلق لَم يقلْ رسول الله ﷺ شيئًا منه»[(٢)]، ثمَّ استثنى: حديثَ التَّسمية وحديثَيْ عمر وأبي سعيد المتقدِّمَين.

وحريٌّ بالمسلم أن يحافظ على الطَّهارة بسننها العظيمة وآدابها المباركة ليفوز بما يترتَّب عليها من خيراتٍ وأجور.

---

(١) رواه النَّسائيُّ في السُّنن الكبرى (٩٨٢٩)، وفي عمل اليوم واللَّيلة (٨١)، والحاكم في مستدركه (٢٠٧٢)، وصحَّحه الألبانيُّ في السِّلسلة الصَّحيحة (٢٣٣٣)، وفي صحيح التَّرغيب والتَّرهيب (١٤٧٣).

(٢) زاد المعاد (١/ ١٨٨).

٥٧
أذكار التَّوجُّه للمسجد ودخوله والخروج منه

يُستحبُّ للمسلم إذا خرج من بيته للمسجد أن يخرج متطهِّرًا؛ فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ تَطَهَّرَ فِي بَيْتِهِ ثُمَّ مَشَى إِلَى بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ لِيَقْضِيَ فَرِيضَةً مِنْ فَرَائِضِ اللهِ؛ كَانَتْ خطْوَتَاهُ إِحْدَاهُمَا تَحُطُّ خَطِيئَةً وَالْأُخْرَى تَرْفَعُ دَرَجَةً». رواه مسلم(١).

وألَّا يُشبِّك بين أصابعه؛ فعَنْ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا تَوَضَّأَ أَحَدُكُمْ فَأَحْسَنَ وُضُوءَهُ، ثُمَّ خَرَجَ عَامِدًا إِلَى الْمَسْجِدِ فَلَا يُشَبِّكَنَّ بَيْنَ أَصَابِعِهِ؛ فَإِنَّهُ فِي صَلَاةٍ». رواه التِّرمذيُّ(٢).

وألَّا يسعى سعيًا، بل يمشي مشيًا؛ فعن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أنَّه قَالَ: «إِذَا نُودِيَ بِالصَّلَاةِ فَأْتُوهَا وَأَنْتُمْ تَمْشُونَ وَعَلَيْكُمُ السَّكِينَةُ، فَمَا أَدْرَكْتُمْ فَصَلُّوا وَمَا فَاتَكُمْ فَأَتِمُّوا». رواه مسلم(٣).

ثمَّ إذا وصل إلى باب المسجد استُحبَّ له أن يُقدِّم قدمه اليمنى؛ لأنَّ النَّبيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يُحبُّ التَّيمُّن؛ فعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُحِبُّ التَّيَمُّنَ مَا اسْتَطَاعَ فِي شَأْنِهِ كُلِّهِ فِي طُهُورِهِ وَتَرَجُّلِهِ وَتَنَعُّلِهِ» متَّفق عليه(٤).

---

(١) رواه مسلم (٦٦٦).
(٢) رواه التِّرمذيُّ (٣٨٦)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٣) رواه مسلم (٦٠٢).
(٤) رواه البخاريُّ (٤٢٦)، ومسلم (٢٦٨).

ثمَّ يأتي بالأذكار المأثورة لدخول المسجد، وسيأتي إيرادها.

وإذا دخل المسجد يُبادر إلى أداء تحيَّة المسجد، فعن أَبي قَتَادَةَ بْن رِبْعِيٍّ الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمُ الْمَسْجِدَ فَلَا يَجْلِسْ حَتَّى يُصَلِّيَ رَكْعَتَيْنِ**». رواه البخاريُّ(١).

ثمَّ إذا جلس في المسجد عليه أن يجلس متأدِّبًا بآداب المسجد، ويشغل وقته فيه بما يقرِّبه من الله عَزَّ وَجَلَّ **وينال به رحمته**؛ لأنَّه قال -وهو يدخل مع باب المسجد-: «وافتح لي أبواب رحمتك»، وأبواب الرَّحمة تحتاج إلى عمل وتقرُّب وحُسن تعبِّد وحُسن صلة بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَى وقيام بطاعته، بأن يُعنى بالأعمال الَّتي تُدنيه من رحمة الله؛ كتلاوة القرآن، وكثرة الذِّكر، والصَّلاة، وحضور حلق العلم ومجالس الذِّكر.

وأن يحتسب خطواته الَّتي خطاها إلى المسجد وجلوسه فيه منتظرًا الصَّلاة، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو اللهُ بِهِ الْخَطَايَا وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ؟**» قَالُوا بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ: «**إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ، وَكَثْرَةُ الْخُطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ، وَانْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ**». رواه مسلم(٢).

ويُستحبُّ له إذا خرج من بيته متوجِّهًا إلى المسجد أن يدعو بما ورد في حديث عَبْدِ الله بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَرَجَ إِلَى الصَّلَاةِ وَهُوَ يَقُول: «**اللَّهُمَّ اجْعَلْ فِي قَلْبِي نُورًا، وَفِي لِسَانِي نُورًا، وَاجْعَلْ فِي سَمْعِي نُورًا، وَاجْعَلْ فِي بَصَرِي نُورًا، وَاجْعَلْ مِنْ خَلْفِي نُورًا، وَمِنْ أَمَامِي نُورًا، وَاجْعَلْ مِنْ فَوْقِي**

(١) رواه البخاريُّ (١١٦٣).
(٢) رواه مسلم (٢٥١).

نُورًا، وَمِنْ تَحْتِي نُورًا، اللَّهُمَّ أَعْطِنِي نُورًا». رواه مسلم[(١)].

والدُّعاء بهذا الدُّعاء العظيم عند الخروج إلى المسجد في غاية المناسبة؛ لأنَّ النَّبيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أخبر عن الصَّلاة أنَّها نور، قال ﷺ: «والصَّلَاةُ نُورٌ» رواه مسلم[(٢)]، وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ ذَكَرَ الصَّلَاةَ يَوْمًا، فَقَالَ: «**مَنْ حَافَظَ عَلَيْهَا كَانَتْ لَهُ نُورًا وَبُرْهَانًا وَنَجَاةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ لَمْ يُحَافِظْ عَلَيْهَا لَمْ يَكُنْ لَهُ نُورٌ وَلَا بُرْهَانٌ وَلَا نَجَاةٌ، وَكَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ قَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَأُبَيِّ بْنِ خَلَفٍ**». رواه أحمد[(٣)].

فلمَّا كانت الصَّلاة نورًا استُحبَّ لمَن خرج إلى هذا النَّور أن يسأل الله النُّور في طريقه إليها، وأن يكون أيضًا سؤاله النُّور سؤالًا تفصيليًّا، بحيث يشمل النُّور كلَّ أجزائه وجميع أعضائه ويحيط به من كلِّ جانب. قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فسأل ربَّه تَبَارَكَ وَتَعَالَى أن يجعل النُّور في ذرَّاته الظَّاهرة والباطنة، وأن يجعله محيطًا به من جميع جهاته، وأن يجعل ذاته وجملته نورًا»[(٤)].

وَعَنْ أَبِي حُمَيْدٍ أَوْ عَنْ أَبِي أُسَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمُ الْمَسْجِدَ فَلْيَقُلْ: «اللَّهُمَّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ»، وَإِذَا خَرَجَ فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ**». رواه مسلم[(٥)].

قوله: «**إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمُ الْمَسْجِدَ**»، هذا يفيد أنَّ هذه الكلمات تُقال حال الدُّخول عند باب المسجد.

---

(١) رواه مسلم (٧٦٣).
(٢) رواه مسلم (٢٢٣).
(٣) رواه أحمد (٦٥٧٦).
(٤) الوابل الصَّيِّب (ص٥٠).
(٥) رواه مسلم (٧١٣).

وقوله عند الدُّخول: «**اللَّهُمَّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ**»؛ لعلَّ الحكمة في ذلك: أنَّ الدَّاخل للمسجد داخلٌ للعبادة والطَّاعة والصَّلاة والذِّكْر، وهذه الأمور أمورٌ تُفعَل طلبًا لرحمة الله؛ فناسب عند الدُّخول أن يسأل الله أن يفتح له أبواب الرَّحمة. وهذا يتضمَّن أن يُهيِّئ له من العبادة والطَّاعة وحُسْن الخشوع والتذلُّل في بيت الله ما ينال به رحمة الله.

ويدخل في سؤال الله جَلَّوَعَلَا أن يفتح أبواب رحمته: أن يفتح له أبواب البرِّ الَّتي تُنال بها الرَّحمة؛ بأن يشرح صدره للصَّلاة بخشوع وطمأنينة، وأن يشرح صدره للجلوس في حِلق العلم والاستفادة فيها من الفقه في دين الله، وأن يشرح صدره للجلوس لقراءة القرآن وتدبُّر معانيه، والجلوس لذكر الله عَزَّوَجَلَّ دون سآمة أو ملل، فكلُّ هذه المعاني تدخل تحت هذه الدَّعوة، فهي أبوابٌ وليست بابًا واحدًا، ونيل هذه الأبواب يحتاج أيضًا إلى أشياء مساندة تقدَّمت الإشارة إليها؛ ألَّا يأتي وهو يسعى، بل يأتي مشيًا وهو ملازم السَّكينة، ولا يشبِّك بين أصابعه، إلى غير ذلك من الآداب الَّتي تُهيِّئ له مجالًا رحبًا لينال من هذه الأبواب العظيمة للرَّحمة.

ثمَّ عليه بعد ذلك أن يبذل السَّبب الَّذي ينال به رحمة الله، بمجاهدة نفسه على فعل الطَّاعات والقُرَب الَّتي ينال بها هذه الرَّحمة.

وأمَّا عند الخروج فالمشروع أن يقول: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ**»؛ لأنَّ المسلم إذا خرج من المسجد سيخرج لحاجاته ومصالحه من أمور دُنياه؛ فناسَبَ أن يسأل الله تَبَارَكَوَتَعَالَى أن يفتح له أبواب الفَضْل.

وعن أنس بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: «**كان رسول الله ﷺ إذا دخل المسجدَ قال: بِسْمِ اللهِ، اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّد، وَإذا خَرَجَ قالَ: بِسْمِ اللهِ، اللَّهُمَّ صَلِّ**

عَلَى مُحَمَّدٍ». رواه ابن السُّنِّيِّ في عمل اليوم واللَّيلة[(١)].

وعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**إذا دَخَلَ أَحَدُكُمُ المَسْجِدَ فليُسلِّم على النَّبِيِّ وَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحمَتِكَ**»، **وَإِذَا خَرَجَ فليُسلِّم على النَّبِيِّ وَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ اعْصِمْنِي مِنَ الشَّيْطَانِ**». رواه النَّسائيُّ وابن ماجه والحاكم[(٢)]، وجاء في بعض رواياته: «**اللَّهُمَّ بَاعِدْنِي مِنَ الشَّيْطَانِ**»[(٣)].

والتَّسمية استعانةٌ بالله، والباء في قول «**بِسْمِ اللهِ**» باء الاستعانة، فإذا قُلتَ: «بِسْمِ اللهِ» عند دخول المسجد، فالمعنى: أدخل مستعينًا بالله، طالبًا مدده وتوفيقه تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ.

«**وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللهِ** ﷺ» عند الدُّخول، هذا حقٌّ من حقوقه المتأكِّدة؛ لأنَّ الله قد جعله واسطةً وسببًا في معرفة هذه الطَّاعات العظيمة الَّتي تُنال بها رحمة الله.

وَعَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ إِذَا دَخَلَ الْمَسْجِدَ قَالَ: «**أَعُوذُ بِاللهِ الْعَظِيم، وَبِوَجْهِهِ الْكَرِيم، وَسُلْطَانِهِ الْقَدِيم، مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيم**»، قَالَ: «فَإِذَا قَالَ ذَلِكَ، قَالَ الشَّيْطَانُ: حُفِظَ مِنِّي سَائِرَ الْيَوْمِ». رواه أبو داود[(٤)].

وهذا الحديث يدلُّ على مشروعيَّة التَّعوُّذ بالله من الشَّيطان الرَّجيم عند دخول المسجد، والحكمة في ذلك: أنَّ الشَّيطان أحرص ما يكون على إغواء العبد في صلاته وإشغاله فيها، حتَّى تنتهي وما عقل شيئًا منها.

(١) رواه ابن السُّنِّيِّ في عمل اليوم واللَّيلة (٨٨)، وحسَّنه الألبانيُّ في تخريج الكلم الطَّيِّب (ص٦٤).
(٢) رواه النَّسائيُّ في السُّنن الكبرى (٩٨٣٨)، وابن ماجه (٧٧٣)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٣) رواه النَّسائيُّ في السُّنن الكبرى (٩٨٣٨)، وفي عمل اليوم واللَّيلة (٩٠).
(٤) رواه أبو داود (٤٦٦)، وصحَّحه الألبانيُّ.

وتأمَّل هذا الفضل العميم الَّذي يناله مَن يأتي بهذا التَّعوُّذ؛ وهو: أنَّه يُحفظ من الشَّيطان سائر اليوم، أي: يومه كلِّه.

وقد أفاد هذا الحديث مشروعيَّة التَّعوُّذ بالله من الشَّيطان عند الدُّخول، وقد تقدَّم مشروعيَّة التَّعوُّذ من الشَّيطان عند الخروج من المسجد. والحكمة من التَّعوُّذ بالله من الشَّيطان عند دخول المسجد: أن يسلم العبد من وساوسه في الصَّلاة والذِّكر ومجالس العلم، وأمَّا عند الخروج؛ فالحاجة ماسَّة إلى هذا التَّعوُّذ؛ لأنَّ العبد إذا خرج من بيت الله مُصلِّيًا، راكعًا، ساجدًا، تاليًا، ذاكرًا، مُحصِّلًا أبواب الرَّحمة، فإنَّ الشَّيطان يريد أن يمحو أثر هذا الخير، وأن يوقِعه في المساءة، فهو كما أنَّه حريصٌ على العبد في دخوله للمسجد ليُفوِّت نصيبه من الرَّحمة، فهو كذلك حريص عليه عند خروجه من المسجد ليأخذ به إلى أبواب الشَّرِّ.

ثمَّ إنَّ مجموع ما دلَّت عليه هذه الرِّوايات: أن يقول المسلم عند دخوله المسجد: «**بِسْمِ اللهِ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللهِ، اللَّهُمَّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ، أَعُوذُ بِاللهِ الْعَظِيمِ، وَبِوَجْهِهِ الكَرِيمِ، وَبِسُلْطَانِهِ القَدِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**». وأن يقول عند الخروج: «**بِسْمِ اللهِ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللهِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ، اللَّهُمَّ اعْصِمْنِي مِنَ الشَّيْطَانِ**»؛ فهذه أكمل الصِّيغ من مجموع الأدلَّة الَّتي وردت في هذا الباب.

٥٨
أذكار الأذان (١)

الأذان -وهو الإعلام بدخول وقت الصَّلاة- نداءٌ عظيم مشتملٌ على التَّوحيد والتَّكبير والتَّعظيم لله، والمناداة للصَّلاة، والمناداة لثوابها وما يترتَّب عليها من الخير؛ فهو نداءٌ مبارك، كلماتُ إيمانٍ وتوحيدٍ وإخلاصٍ لله، وقد ورد في فضله أحاديث عن النَّبيِّ الكريم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَال: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «**لَا يَسْمَعُ مَدَى صَوْتِ الْمُؤَذِّنِ جِنٌّ وَلَا إِنْسٌ وَلَا شَيْءٌ إِلَّا شَهِدَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**». رواه البخاريُّ[(١)].

قوله: «**إِلَّا شَهِدَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»، أي: شهد له بذلك كلُّ مَن يسمع صوت المؤذِّن؛ بأن يُنطقه الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى يوم القيامة بالشَّهادة له، فتشهد له الجبال، وتشهد له الأشجار، ويشهد له الجنُّ والإنس، وكلُّ مَن يسمع صوته يشهدون له يوم القيامة بهذا النِّداء الطَّيِّب والصَّوت المدوِّي الَّذي ينادي للصَّلاة تهليلًا وتكبيرًا وتعظيمًا لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى. وقوله: «**مَدَى صَوْتِهِ**»، أي: قدر ما يبلغه صوت المؤذِّن.

❀ **ومن فضائل الأذان:** ما رواه البخاريُّ ومسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي النِّدَاءِ وَالصَّفِّ الْأَوَّلِ، ثُمَّ لَمْ يَجِدُوا**

(١) رواه البخاريُّ (٦٠٩).

إِلَّا أَنْ يَسْتَهِمُوا عَلَيْهِ لَاسْتَهَمُوا، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي التَّهْجِيرِ لَاسْتَبَقُوا إِلَيْهِ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي الْعَتَمَةِ وَالصُّبْحِ لَأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْوًا»(١).

والاستهامُ: الاقتراعُ.

والتَّهجيرُ: التَّبكير إلى صلاة الظُّهر، وقيل: إلى كلِّ صلاة.

والعتمة: صلاة العِشاء.

ومن فضائل الأذان: ما رواه البخاريُّ ومسلم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ أَدْبَرَ الشَّيْطَانُ لَهُ ضُرَاطٌ حَتَّى لَا يَسْمَعَ التَّأْذِينَ، فَإِذَا قُضِيَ التَّأْذِينُ أَقْبَلَ، حَتَّى إِذَا ثُوِّبَ بِالصَّلَاةِ أَدْبَرَ، حَتَّى إِذَا قُضِيَ التَّثْوِيبُ أَقْبَلَ، حَتَّى يَخْطِرَ بَيْنَ الْمَرْءِ وَنَفْسِهِ يَقُولُ لَهُ: اذْكُرْ كَذَا وَاذْكُرْ كَذَا لِمَا لَمْ يَكُنْ يَذْكُرُ مِنْ قَبْلُ، حَتَّى يَظَلَّ الرَّجُلُ مَا يَدْرِي كَمْ صَلَّى**»(٢).

وقد دلَّ الحديث على أنَّ الأذان يطردُ الشَّيطان، وأنَّه إذا سمعه ولَّى هاربًا حتَّى لا يسمع التَّأذين، فهو حينما يسمعه يهرب نفورًا عن سماعه، فإذا قُضي يرجع موسوسًا؛ ليُفسد على المصلِّي صلاته.

وقوله: «**حَتَّى يَخْطِرَ بَيْنَ الْمَرْءِ وَنَفْسِهِ**»، أي: حتَّى يمرَّ بين المرء ونفسه فيحول بينه وبين ما يريده منها من الإقبال على صلاته، والخشوع فيها، وضبط ما قضى منها وما بقي عليه، فيقول له: «اذكر كذا، اذكر كذ» لما لم يكن ذكره في صلاته فيشغله بذلك عنها حتَّى يبقى متحيِّرًا لا يدري كم صلَّى.

والنُّصوص في فضل الأذان كثيرة.

وَعَنْ أبي سعيد الخدريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**إِذَا سَمِعْتُمُ النِّدَاءَ**

---

(١) رواه البخاريُّ (٦١٥)، ومسلم (٤٣٧).
(٢) رواه البخاريُّ (٦٠٨)، ومسلم (٣٨٩).

فَقُولُوا مِثْلَ ما يَقُولُ الْمُؤَذِّنُ». رواه البخاريُّ ومسلم[١].

هذا يُشرع في حقِّ كلِّ مَن سمع النِّداء، أيًّا كان عمله وقت النِّداء؛ فكلُّ شيء يتوقَّف، ويَنشغل المرء بسماع النِّداء وبالإجابة؛ إذا كان يلقي علمًا، أو يقرأ قُرءانًا، أو يسبِّح ويذكر الله، فكلُّ هذه الأعمال تتوقَّف، فأفضل عمل تقوم به وقت النِّداء سماع الأذان، وأن تقول مثلما يقول المؤذِّن، فهو أفضل من تلاوة القرآن، وأفضل من قول: «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلَّا الله، والله أكبر» الَّتي هي أحبُّ الكلام إلى الله، وأفضل من الكلام في مسائل العلم وبيان الدِّين، فكيف بما هو دون ذلك!

وهذا مبنيٌّ على قاعدة ذكرها العلماء، وهي: أنَّ الأفضل في كلِّ وقتٍ الأوفقُ للسُّنَّة في ذلك الوقت، فإذا نادى المنادي للصَّلاة فأفضل شيء تفعله أن تستمع وتقول مثلما يقول، وهذا فيه فائدة عظيمة وثواب عظيم، وسيأتي في الحديث أنَّ مَن فعل ذلك دخل الجنَّة. وفيه أيضًا ثمار مباركة على المسلم.

وهذا يجده العبد من نفسه عندما يحسن الاستماع للمؤذِّن ويردِّد معه، وفرق بين مَن كان كذلك وبين مَن يشتغل بأموره غير مبالٍ بالمؤذِّن، وغير مردِّدٍ معه. ومَن ينظر إلى حال نفسه إذا أحسن الاستماع والتَّرديد مع المؤذِّن، وحاله إذا لم يفعل ذلك يجد الفرق شاسعًا؛ لأنَّ هذا الاستماع والتَّرديد يُكسب القلب سكونًا وطمأنينةً، وحبًّا للمسجد، وتحرُّكًا وشوقًا له، وتبكيرًا في الذَّهاب إليه، إلى غير ذلك من الخيرات الكثيرة الَّتِي تنشأ عن هذا الاستماع والتَّرديد. ولهذا فإنَّ غالب مَن يأتون إلى المساجد والإمام راكع أو في نهاية الصَّلاة لم يَرْعَوْا للأذان اهتمامًا، ومَن يأتون المساجد مُبكِّرين؛ فلسماع الأذان والتَّرديدِ مع المؤذِّن أثرٌ في ذلك، فما ينبغي للمسلم أن يُفرِّط في هذه الخيرات العظيمة الَّتي يُحصِّلها عندما يستمع للمؤذِّن ويردِّد معه.

(١) رواه البخاريُّ (٦١١)، ومسلم (٣٨٣).

ﰊ **وممَّا ينبَّه عليه في هذا المقام:** أنَّ المشروع للمسلم عندما يسمع النِّداء أن يقول مثل ما يقول المؤذِّن تمامًا بدون زيادة ولا نقصان، إلَّا عند الحيعلة يقول «لا حول ولا قوَّة إلَّا بالله»، لكنَّ بعض النَّاس يُكلِّف نفسه بعض الزِّيادات، فيقول، مثلًا عند قول المؤذِّن «الله أكبر»: عَزَّوَجَلَّ، أو حقًّا أو نحو ذلك من الألفاظ، فيفرِّط في المشروع ويشتغل بما لم يُشرع.

ويحسن بالمسلم عندما يردِّد مع المؤذِّن كلمات الأذان أن يستحضر معانيها، وألَّا تكون معاملته مع هذه الألفاظ معاملةً لفظيَّةً مجرَّدة، بل عليه أن يستحضر المعاني، فـ«لا إله إلَّا الله» توحيد، و«الله أكبر» تعظيم لله، و«حيَّ على الصَّلاة» نداء للصَّلاة، و«حيَّ على الفلاح» نداء لنيل ثوابها؛ ليجمع في هذا الذِّكر بين ذكر القلب وذكر اللِّسان.

وَعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **«إِذَا قَالَ الْمُؤَذِّنُ: «اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ»، فَقَالَ أَحَدُكُمُ: اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ، ثُمَّ قَالَ: «أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»، قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، ثُمَّ قَالَ: «أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله»، قَالَ: أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله، ثُمَّ قَالَ: «حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ»، قَالَ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بالله، ثُمَّ قَالَ: «حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ»، قَالَ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بالله، ثُمَّ قَالَ: «اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ»، قَالَ: اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ، ثُمَّ قَالَ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»، قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مِنْ قَلْبِهِ؛ دَخَلَ الْجَنَّةَ»**. رواه مسلم[(١)].

هذا الحديث فيه تفصيلٌ للإجمال الَّذي تقدَّم في حديث أبي سعيد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

وقوله: «**الله أكبر**» هذا فيه تكبير الله عَزَّوَجَلَّ واعتقاد أنَّه لا أكبر منه عَزَّوَجَلَّ، ومعنى: «الله أكبر»، أي: من كلِّ شيء، كما قال النَّبيُّ ﷺ لعَديٍّ **«ما يُفرك يا**

(١) رواه مسلم (٣٨٥).

عديٌّ، **أَيُفِرُّكَ أَنْ يُقَالَ: اللهُ أَكْبَرُ!، وَهَلْ شَيْءٌ أَكْبَرُ مِنْ اللهِ؟**»(١). والبدء بالتَّكبير في ألفاظ الأذان، وكذلك البدء بالتَّكبير في الصَّلاة يُذهِب عن القلب الأشياء الَّتي كبُرت في القلب وملأته واشتدَّ انْهِمَاكه بها؛ فإذا اطمأنَّ المرء عند سماع الأذان وردَّد مع المؤذِّن مستشعرًا المعاني والدَّلالات؛ خرجت هذه الأشياء من قلبه وحلَّ محلَّها الطُّمأنينة والتَّعظيم لله والانشغال بذكره سبحانه كما يحبُّ من عباده.

وقوله: «**أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**»، أي: أُقِرُّ وأعترف بأن الله عَزَّوَجَلَّ هو المعبود بحقٍّ ولا معبود بحقٍّ سواه، فـ«لا إله إلَّا الله» فيها نفيٌ وإثبات؛ نفيٌ عامٌّ في أوَّلها للعبوديَّة عن كلِّ مَن سوى الله، وإثبات خاصٌّ في آخرها للعبوديَّة بكلِّ معانيها لله وحده؛ وهذا هو التَّوحيد.

وقوله: «**أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ**»، الشَّهادة للنَّبيِّ ﷺ بالرِّسالة، تعني: طاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، والانتهاء عمَّا نهى عنه وزجر، كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [النِّساء: ٦٤].

وقوله: «**حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ**»، أي: هلمُّوا إليها دعوا أعمالكم، واتركوا مصالحكم وأقبِلوا على هذه الصَّلاة؛ ولهذا يُشرع لمَن سمع النِّداء أن يترك أعماله وأن يقبل على صلاته.

ويُشرع في حقِّ السَّامع أن يقول هنا: «لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ»، وهي كلمة استعانة يطلب قائلها عونَ الله عَزَّوَجَلَّ، فلا يمكن أن يصلِّي وأن يتمَّ صلاته إلَّا إذا أعانه الله.

وقوله: «**حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ**»، المراد بالفلاح: الثَّواب والأجر والخير

---

(١) رواه أحمد (١٩٣٨١)، والتِّرمذيُّ (٢٩٥٣)، وحسَّنه الألبانِيُّ.

المترتِّب على أداء الصَّلاة، والفلاح -كما قال العلماء- أجمع كلمه لحيازة خيرَيْ الدُّنيا والآخرة، وهذا فيه إشارة إلى أنَّ الصَّلاة يترتَّب عليها خيراتٌ لا حدَّ لها ولا عدّ؛ دنيويَّة وأُخرويَّة.

ثمَّ ختم النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هذا الحديث بأنَّ مَن قالها مِنْ قَلْبِهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ؛ فينبغي أن يكون القلب حاضرًا، لا أن يقولها المرء بلسانه والقلب غافل، فليس المطلوب أن تُردَّد هذه الألفاظ باللِّسان مع انشغال القلب وانصرافه عنها! بل عليه أن يقولها من قلبه، وذلك بالاجتهاد في طرد الغفلة، وحسن السَّماع للأذان، وأن يجمع قلبه للسَّماع لهذه الدَّعوة التَّامَّة العظيمة المباركة، وأن يقول مثلما يقول المؤذِّن مجاهدًا نفسه على استحضار معاني هذه الكلمات العظيمة وهداياتها القويمة، محقِّقًا في قلبه ما تقتضيه من التَّوحيد والتَّكبير، والتَّعظيم، والشَّهادة لله بالوحدانيَّة، ولنبيِّه ﷺ بالرِّسالة، والاستعانة بالرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ على تحقيق هذه الأمور، بإخلاصٍ لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وصدقٍ معه، ففي قوله: «**من قلبه**» دلالةٌ على اشتراط الإخلاص؛ لأنَّه أصلٌ لا بُدَّ منه في قبول الأعمال والأقوال كلِّها.

وقوله: «**دخَل الجنَّة**» يفيد أنَّ سماع الأذان والعناية به بوَّابةٌ عظيمة ومدخل كريمٌ لنيل الجنَّة بما يفتحه على العبد من إقبالٍ على الأعمال الصَّالحة والقرُبات النَّافعة الَّتي يدعو إليها حُسن سماع الأذان والقولُ كما يقول المؤذِّن.

٥٩
أذكار الأذان (٢)

عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ، ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ؛ فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا، ثُمَّ سَلُوا اللهَ لِيَ الْوَسِيلَةَ؛ فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ لَا تَنْبَغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللهِ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ؛ فَمَنْ سَأَلَ لِيَ الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ**». رواه مسلم[١].

دلَّ هذا الحديث على: أنَّه يُشرع للمسلم بعد سماعه المؤذِّن وقوله مثلما يقول؛ أن يأتي عقبَ ذلك بالصَّلاة على النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وخير ما يُؤتى به من ذلك وأفضله: الصَّلاةُ الإبراهيميَّة الَّتي علَّمها النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أصحابه عندما سألوه كيف يُصلُّون عليه؟ عن ابْنَ أَبِي لَيْلَى قَالَ لَقِيَنِي كَعْبُ بْنُ عُجْرَةَ، فَقَالَ: **أَلَا أُهْدِي لَكَ هَدِيَّةً؟ خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقُلْنَا قَدْ عَرَفْنَا كَيْفَ نُسَلِّمُ عَلَيْكَ فَكَيْفَ نُصَلِّي عَلَيْكَ؟** قَالَ: «**قُولُوا اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ**». متَّفق عليه[٢].

قوله: «**ثُمَّ سَلُوا اللهَ لِيَ الْوَسِيلَةَ**»، أي: اطلبوا من الله أن يمُنَّ عليَّ بالوسيلة،

---

(١) رواه مسلم (٣٨٤).
(٢) رواه البخاريُّ (٦٣٥٧)، ومسلم (٤٠٦).

وقد بيَّن عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في حديثٍ آخر الصِّيغة لهذا السُّؤال، وستأتي من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قريبًا.

قوله: «**فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ لَا تَنْبَغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللهِ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ**»، أي: مكانة ودرجة عالية رفيعة في الجنَّة خصَّها الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى لواحد من عباد الله، قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ**»، أي: أن أكون صاحب هذه المنزلة.

ثمَّ ذكر الثَّواب الَّذي يناله مَن يحافظ على هذه الدَّعوة العظيمة، قال: «**فَمَنْ سَأَلَ لِيَ الوَسِيلَةَ حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ**»، أي: حلَّت له شفاعة النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وهذا فيه إثبات الشَّفاعة له ﷺ، وأنَّه يشفع لأهل الإخلاص؛ لمَن لا يشرك بالله شيئًا.

وقد أفاد الحديث أنَّ شفاعة النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ تُنال بأسباب، وفي الحديث بيان سبب من أسباب نيلها، وأعظم أسباب نيلها أمران، **بل أصلان لابدَّ منهما:**

الأوَّل: إخلاص العبادة لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى؛ ولهذا جاء في الحديث عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَوْمَ القِيَامَةِ؟» قال: «**مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ**». رواه البخاريُّ[١]. وروى مسلم أيضًا في صحيحه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ فَتَعَجَّلَ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَهُ، وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ فَهِيَ نَائِلَةٌ إِنْ شَاءَ اللهُ مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا**»[٢].

---

(١) رواه البخاريُّ (٦٥٧٠).

(٢) رواه مسلم (١٩٩).

الأمر الثَّاني: اتِّباع النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، والسَّير على منهاجه، والقيام بالأعمال الصَّالحة الَّتي أمر بها ودعا إليها، عن رَبِيعَةَ بْنِ كَعْبٍ الأَسْلَمِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ كُنْتُ أَبِيتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَأَتَيْتُهُ بِوَضُوئِهِ وَحَاجَتِهِ، فَقَالَ لِي: «**سَلْ**»، فَقُلْتُ: «**أَسْأَلُكَ مُرَافَقَتَكَ فِي الْجَنَّةِ**»، قَالَ: «**أَوَغَيْرَ ذَلِكَ؟**» قُلْتُ: «**هُوَ ذَاكَ**». قَالَ: «**فَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ**». رواه مسلم[(١)].

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ النِّدَاءَ: «اللَّهُمَّ رَبَّ هَذِهِ الدَّعْوَةِ التَّامَّةِ وَالصَّلَاةِ الْقَائِمَةِ، آتِ مُحَمَّدًا الْوَسِيلَةَ وَالْفَضِيلَةَ، وَابْعَثْهُ مَقَامًا مَحْمُودًا الَّذِي وَعَدْتَهُ»؛ حَلَّتْ لَهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ**». رواه البخاريُّ[(٢)].

قوله: «**اللَّهُمَّ رَبَّ هَذِهِ الدَّعْوَةِ التَّامَّةِ**» الإشارة في قوله: «هذه» إلى الأذان، فالأذان دعوة تامَّة؛ لما اشتمل عليه من الألفاظ الكاملة والأذكار العظيمة والتَّعظيم لله والتَّوحيد، والشَّهادة للنَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بالرِّسالة، فهي دعوةٌ تامَّة جمعت الخير كلَّه.

وقوله: «**والصَّلاة القائمة**»، أي: المنادَى لها والمأمور بإقامتها؛ فهي صلاة قائمة، أمرَ الله عَزَّ وَجَلَّ بإقامتها والمحافظة عليها والمداومة على الإتيان بها، وهي قائمة أيضًا لا ينسخها شيء، بل هي باقية مستمرَّة.

وقوله: «**آت محمَّدًا** ﷺ **الوَسِيلَةَ**»، تقدَّم أنَّ «الوسيلة» منزلة عالية في الجنَّة لا تنبغي إلَّا لواحد من عباد الله.

قوله: «**والفضيلة**»، أي: المكانة السَّنيَّة والرُّتبة العليَّة وعظمة الخيرات والفضائل الَّتي يمنُّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى عليه بها.

---

(١) رواه مسلم (٤٨٩).

(٢) رواه البخاريُّ (٦١٤).

قوله: «**وابعثه مقامًا محمودًا الَّذي وعدته**»، أي: في قولك ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ [الإسراء: ٧٩]، وقد نكَّر المقام تفخيمًا له وتعليةً لشأنه، ومن هذا المقام المحمود: الشَّفاعة العظمى يوم القيامة؛ فإنَّ النَّاس يلحقهم من الكرب والغمِّ ما لا يطيقون في ذلك اليوم العظيم فيأذن الله جَلَّ وَعَلَا في ذلك اليوم للنَّبيِّ ﷺ بالشَّفاعة، يقول: «**ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَسَلْ تُعْطَه، وَاشْفَعْ تُشَفَّع**»[(١)].

وَعَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ الْمُؤَذِّنَ: «أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، رَضِيتُ بِاللهِ رَبًّا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا، وَبِالإِسْلَامِ دِينًا»؛ غُفِرَ لَهُ ذَنْبُهُ**».
رواه مسلم[(٢)].

وهذا يؤتى به عندما يفرغ المؤذِّن من قول: «أشهد أنَّ محمَّدًا رسول الله»، فقد رواه أبو عوانة في مستخرجه بلفظ: «مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ المُؤَذِّنَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، قال: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ رَضِيتُ بِاللهِ...» الحديث[(٣)]، وهو صريحٌ في أنَّ السَّامعَ يقول ذلك بعد جواب المؤذِّن على الشَّهادتين، يقوله مرَّة واحدة.

قوله: «**رَضِيتُ بِاللهِ رَبًّا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا**»، الرِّضا بالله ربًّا يقتضي الإخلاص، والإقبال على الله، ومحبَّته سبحانه، ومحبَّة دينه، والإقبال على طاعته. والرِّضا بمحمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يتطلَّب انشراح الصَّدر لما جاء به والإقبال على سنته، ومحبَّته، وتقديم محبَّته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ على محبَّة النَّفس والنَّفيس والوالد والولد والنَّاس أجمعين. والرِّضا بالإسلام دينًا: يتطلَّب

(١) رواه البخاريُّ (٤٤٧٦)، ومسلم (١٩٣).
(٢) رواه مسلم (٣٨٦).
(٣) رواه أبو عوانة في مستخرجه (٩٩٥).

محبَّة هذا الدِّين، وأن يُقبِل عليه، وأن يُحافظ عليه. وهذه المذكورات هي الأصول الثَّلاثة الَّتي يُسأل النَّاس عنها عندما يُدخَلون قبورهم.

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَجُلًا قَالَ: **يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ الْمُؤَذِّنِينَ يَفْضُلُونَنَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ** ﷺ: «**قُلْ كَمَا يَقُولُونَ، فَإِذَا انْتَهَيْتَ فَسَلْ تُعْطَهْ**». رواه أبو داود(١).

وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا يُرَدُّ الدُّعَاءُ بَيْنَ الْأَذَانِ وَالْإِقَامَةِ**». رواه أبو داود والتِّرمذيُّ(٢).

وقد أفاد الحديثان أنَّ الدُّعاء مستجاب بعد الأذان، وبين الأذان والإقامة.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأمَّا هَدْيُه ﷺ في الذِّكر عند الأذان وبعدَه، **فشرع لأُمَّته منه خمسة أنواع:**

أحدها: أن يقول السَّامع كما يقول المؤذِّن، إلَّا في لفظ: «حيَّ على الصَّلاة»، «حيَّ على الفلاح»؛ فإنَّه صحَّ عنه إبدالُهما بـ «لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ»، ولم يجئ عنه الجمعُ بينها وبين: «حيَّ على الصَّلاة»، «حيَّ على الفلاح»، ولا الاقتصارُ على الحيعلة، وهَدْيُه ﷺ الَّذي صحَّ عنه إبدالُهما بالحوقلة، وهذا مقتضى الحكمة المطابقةِ لحال المؤذِّن والسَّامع؛ فإنَّ كلمات الأذان ذِكْرٌ، فَسُنَّ للسَّامع أن يقولها، وكلمات الحيعلة دعاءٌ إلى الصَّلاة لمَن سمعه، فَسُنَّ للسَّامع أن يَسْتَعِينَ على هذه الدَّعوة بكلمة الإعانة وهي: «لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ».

الثَّاني: أن يقول: «وأَنَا أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ،

(١) رواه أبو داود (٥٢٤)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٢) رواه أبو داود (٥٢١)، والتِّرمذيُّ (٢١٢)، وصحَّحه الألبانيُّ.

رَضِيتُ بِالله رَبًّا، وَبالإِسْلَامِ دِينًا، وبِمُحَمَّدٍ ﷺ رَسُولًا»، وَأَخْبَرَ أَنَّ مَنْ قَالَ ذلِكَ غُفِرَ لَهُ ذَنْبُهُ.

الثَّالث: أن يُصلِّيَ على النَّبيِّ ﷺ بعدَ فَراغه من إجابة المؤذِّن، وأكْمَلُ ما يُصلَّى عليه بِهِ ويَصلُ إليه، هي الصَّلاة الإبراهيميَّة كما علَّمه أُمَّته أن يُصلُّوا عليه، فلا صلاةَ عليه أكملُ منها.

الرَّابع: أن يقولَ بعد صلاته عليه: «**اللَّهُمَّ رَبَّ هذِهِ الدَّعْوَةِ التَّامَّةِ، والصَّلاةِ القَائِمَةِ، آتِ مُحَمَّدًا الوَسِيلَةَ والفَضِيلَةَ، وابْعَثْهُ مَقَامًا مَحْمُودًا الَّذِي وَعَدْتَهُ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ المِيعَادَ**»، هكذا جاء بهذا اللَّفظ: «مقامًا محمودًا»، بلا ألف ولا لام، وهكذا صحَّ عنه ﷺ.

الخامس: أن يدعوَ لنفسه بعد ذلك ويسألَ الله من فضله؛ فإنَّه يُسْتَجَاب له، كما في السُّنن عنه ﷺ: «**قُلْ كَمَا يَقُولُونَ -يَعْنِي المُؤَذِّنِينَ- فَإِذَا انْتَهيْتَ فَسَلْ تُعْطَهْ**»[١].

(١) زاد المعاد (٢/ ٣٥٦).

٦٠
أدعية الاستفتاح (١)

الصَّلاة لها مفتاح وافتتاح واستفتاح؛ أمَّا مفتاحها: فهوَ الطُّهور، وأمَّا افتتاحها: فهوَ تكبيرة الإحرام، وأمَّا استفتاحها: فهوَ ما يقال بين تكبيرة الإحرام وقراءة الفاتحة مِن الذِّكر والدُّعاء، عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مِفْتَاحُ الصَّلَاةِ الطُّهُورُ، وَتَحْرِيمُهَا التَّكْبِيرُ، وَتَحْلِيلُهَا التَّسْلِيمُ**». رواه أبو داود والتِّرمذيُّ وابن ماجه[١].

والتَّكبير هو أوَّل ما يَبدأ به المسلم صلاته، يقول: «**اللهُ أَكْبَرُ**»، فإذا كبَّر دخل في الصَّلاة، وحرُمت عليه الأمور الَّتي تحرم على المصلِّي، كالكلام والحركة ونحو ذلك. قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فتحريمها تكبير الرَّبِّ تعالى الجامع لإثبات كلِّ كمال له، وتنزيهِ عن كلِّ نقص وعيب، وإفرادِه وتخصيصِه بذلك، وتعظيمِه وإجلاله؛ فالتَّكبير يتضمَّن تفاصيل أفعالِ الصَّلاة وأقوالها وهيئاتها، فالصَّلاة من أوَّلها إلى آخرها تفصيلٌ لمضمون «الله أكبر»، وأيُّ تحريم أحسن من هذا التَّحريم المتضمِّن للإخلاص والتَّوحيد»[٢].

وأمَّا الاستفتاح فقد ورد فيه صيغ عديدة ثبتت بها السُّنة عن نبيِّنا الكريم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا كَبَّرَ فِي الصَّلَاةِ سَكَتَ

(١) رواه أبو داود (٦١)، والتِّرمذيُّ، وابن ماجه (٢٧٥)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٢) الصَّلاة وأحكام تاركها (١٥٣).

هُنَيَّةً قَبْلَ أَنْ يَقْرَأَ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي أَرَأَيْتَ سُكُوتَكَ بَيْنَ التَّكْبِيرِ وَالْقِرَاءَةِ، مَا تَقُولُ؟ قَالَ: «**أَقُولُ: اللَّهُمَّ بَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ كَمَا بَاعَدْتَ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ، اللَّهُمَّ نَقِّنِي مِنْ خَطَايَايَ كَمَا يُنَقَّى الثَّوْبُ الأَبْيَضُ مِنَ الدَّنَسِ، اللَّهُمَّ اغْسِلْنِي مِنْ خَطَايَايَ بِالثَّلْجِ وَالمَاءِ وَالْبَرَدِ**». رواه البخاريُّ ومسلم واللَّفظ له[1].

قوله: «**كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا كَبَّرَ فِي الصَّلَاةِ سَكَتَ هُنَيَّةً قَبْلَ أَنْ يَقْرَأَ**»، أي: وقتًا قصيرًا، وجاء في رواية: «إسكاتةً»، أي: سكتة يسيرة، «**قبل أن يقرأ**»، أي: قبل أن يشرع في قراءة الفاتحة.

قوله: «**فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي**»، أي: أفديك بأبي وأمِّي.

«**أَرَأَيْتَ سُكُوتَكَ بَيْنَ التَّكْبِيرِ وَالْقِرَاءَةِ، مَا تَقُولُ؟**» وهذا فيه حرص الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ على الخير وبحثهم عنه، فلاحظ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يسكت إسكاتةً يسيرة بين التَّكبير والقراءة، فسأل بهذا الأسلوب اللَّطيف قال: «**بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي أَرَأَيْتَ سُكُوتَكَ بَيْنَ التَّكْبِيرِ وَالْقِرَاءَةِ، مَا تَقُولُ؟**» سؤالًا عن هديه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وطريقته؛ ليأتسى به صلوات الله وسلامه عليه.

قال: «**أقول: اللَّهُمَّ بَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ كَمَا بَاعَدْتَ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ، اللَّهُمَّ نَقِّنِي مِنْ خَطَايَايَ كَمَا يُنَقَّى الثَّوْبُ الأَبْيَضُ مِنَ الدَّنَسِ، اللَّهُمَّ اغْسِلْنِي مِنْ خَطَايَايَ بِالثَّلْجِ وَالمَاءِ وَالْبَرَدِ**»، وكلُّه دعاء قائم على سؤال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى أن يُقيله من خطاياه، وأن ينقِّيه منها، وأن يباعد بينه وبينها.

قال في الجملة الأولى: «**اللَّهُمَّ بَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ كَمَا بَاعَدْتَ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ**»، بدأ بسؤال المباعدة بينه وبين خطاياه كما بين المشرق

(١) رواه البخاريُّ (٧٤٤)، ومسلم (٥٩٨).

والمغرب؛ لأنَّهما أوسع الجهات الموجودة، وهي غاية ما يبالَغ فيه في تباعد الجهات.

وقوله في الجملة الثَّانية: «**اللَّهُمَّ نَقِّنِي مِنْ خَطَايَايَ**»، أي: طهِّرني منها «**كَمَا يُنَقَّى الثَّوْبُ الْأَبْيَضُ مِنَ الدَّنَسِ**»، وخصَّ الثَّوب الأبيض؛ لأنَّه يتميَّز عن غيره من الثِّياب بأنَّ الوسخ يظهر عليه، والنَّقاء يظهر فيه، بخلاف الأسود.

ويستفاد من هذا الدُّعاء فائدة مهمَّة في المسلك الَّذي ينبغي أن يكون عليه المسلم، ألا وهي: أنَّه ينبغي على المسلم أن يحرص على أن يكون دينه نقيًّا كنظافة الثَّوب الأبيض لا يلوِّثه شيء ولا يكدِّره دنس، بل يحافظ على نقائه، وطُهره، وصفائه.

وقال في الجملة الثَّالثة: «**اللَّهُمَّ اغْسِلْنِي مِنْ خَطَايَايَ بِالثَّلْجِ وَالْمَاءِ وَالْبَرَدِ**»، ذكر هذه الأمور الثَّلاثة في التَّنقية؛ لأنَّ الماء ينظِّف وينقِّي، والثَّلج والبرد يبرِّد، والخطيئة لها دنسٌ وحرارة، وهذا أكمل ما يكون في التَّنقية من الذُّنوب.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وفي هذا الحديث من الفقه: أنَّ الدَّاء يُداوَى بضدِّه؛ فإنَّ في الخطايا من الحرارة والحريق ما يُضادُّه: الثَّلجُ، والبَرَدُ، والماءُ البارد. ولا يقال: إنَّ الماء الحارَّ أبلغُ في إزالة الوسخ؛ لأنَّ في الماء البارد من تصليب الجسم وتقويته ما ليس في الحارِّ، والخطايا تُوجب أثرين: التَّدنيس، والإرخاء، فالمطلوبُ مداواتها بما ينظِّفُ القلب ويُصلِّبُهُ، فذكر الماء البارد والثَّلج والبَرَد إشارةً إلى هذين الأمرين»[(١)].

وقال الكرمانيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يُحتمل أن يكون في الدَّعوات الثَّلاث إشارةً إلى الأزمنة الثَّلاثة؛ فالمباعدة للمستقبل، والتَّنقية للحال، والغَسْل للماضي»[(٢)].

---

(١) زاد المعاد (٤/ ٢٦٩).
(٢) انظر: فتح الباري (٢/ ٣٢٠)، ومرقاة المفاتيح (٣/ ٨٩).

واستفتاح الصَّلاة بهذا الاستفتاح في غاية المناسبة؛ لأنَّ الصَّلاة من أعظم أسباب حصول الرَّحمة والمغفرة ونيل ثواب الله، فكم هو عظيمٌ في ملاقاة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بهذه الصَّلاة أن يدخل المسلم هذه العبادة الشَّريفة العظيمة الجليلة بهذا النَّقاء، سائلًا الله أن يُنقِّيه من خطاياه وأن يباعد بينه وبينها.

وكما أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان يستفتح بهذا الدُّعاء صلاته فقد ورد كذلك في أدعيته المطلقة، فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان يقول: « **اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الكَسَلِ وَالهَرَمِ، وَالمَأْثَمِ وَالمَغْرَمِ، وَمِنْ فِتْنَةِ القَبْرِ، وَعَذَابِ القَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ النَّارِ وَعَذَابِ النَّارِ، وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الغِنَى، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الفَقْرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ المَسِيحِ الدَّجَّالِ، اللَّهُمَّ اغْسِلْ عَنِّي خَطَايَايَ بِمَاءِ الثَّلْجِ وَالبَرَدِ، وَنَقِّ قَلْبِي مِنَ الخَطَايَا كَمَا نَقَّيْتَ الثَّوْبَ الأَبْيَضَ مِنَ الدَّنَسِ، وَبَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ كَمَا بَاعَدْتَ بَيْنَ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ**». رواه البخاريُّ ومسلم(١).

وعَنْ عائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا اسْتَفْتَحَ الصَّلَاةَ قَالَ: «**سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، وَتَبَارَكَ اسْمُكَ، وَتَعَالَى جَدُّكَ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ**». رواه أبو داود، والتِّرمذيُّ ورواه مسلم عن عمر بن الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ موقوفًا عليه(٢).

ورد هذا الاستفتاح من طرق عديدة عن غير واحد من الصَّحابة، وهو ثابت بمجموعها عن النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وهو بالنظر إلى معناه أفضل أنواع الاستفتاحات الثَّابتة؛ لأنَّه أجمعها في باب الثَّناء على الله، فقد جمع الباقيات الصَّالحات «التَّسبيحَ، والتَّحميد، والتَّكبير، والتَّهليل»، كلُّ ذلك اجتمع في هذه

(١) رواه البخاريُّ (٦٣٦٨)، ومسلم (٥٨٩).
(٢) رواه أبو داود (٧٧٦)، والتِّرمذيُّ (٢٤٣)، وصحَّحه الألبانيُّ، ورواه مسلم عن عمر موقوفًا (٣٩٩).

الصِّيغة العظيمة؛ فالتَّسبيح والتَّحميد في قوله: «**سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ**»، والتَّكبير يدلُّ عليه: «**وَتَعَالَى جَدُّكَ**» فهذا فيه عظمة الله عَزَّوَجَلَّ، «**وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ**» فيه توحيد الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، وأيضًا التَّكبير جاء في الافتتاح، فاجتمع في هذا الاستفتاح؛ الكلمات الأربع الَّتي هي أحبُّ الكلام إلى الله سبحانه؛ فسبب تفضيله على غيره، كما يقول ابن تيميَّة رَحِمَهُٱللَّهُ: «هو أنَّ فضل بعض الذِّكر على بعض، هو لأجل ما اختصَّ به الفاضل، لا لأجل إسناده»(١).

وقد كان عمر بن الخطَّاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يرفع به صوته يُعلِّمه النَّاس، عَنْ عَبْدَةَ «أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ كَانَ يَجْهَرُ بِهَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ، يَقُولُ: **سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ تَبَارَكَ اسْمُكَ وَتَعَالَى جَدُّكَ وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ**». رواه مسلم(٢). قال ابن تيميَّة رَحِمَهُٱللَّهُ: «ولهذا شاع هذا الاستفتاح حتَّى عمِل به أكثر النَّاس»(٣).

قوله: «**سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ**»، هذا فيه تسبيح الله وحمده سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

ومعنى «**سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ**»، أي: أُنزِّهك يا الله، «**وَبِحَمْدِكَ**» هذا فيه ثناء على الله عَزَّوَجَلَّ، فجمع بين التَّسبيح والحمد؛ وفي الجمع بينهما جمعٌ بين تقديس الله عَزَّوَجَلَّ وتنزيه وإثبات الكمال له، وهذا الَّذي يقوم عليه توحيد الأسماء والصِّفات؛ التَّنزيه، والإثبات. تنزيه الله عَزَّوَجَلَّ عن النَّقائص وعمَّا لا يليق به سبحانه، وإثبات الكمال له سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

قوله: «**وَتَبَارَكَ اسْمُكَ**»، أي: تعالى شأنكَ وعظم قدرك.

قوله: «**وَتَعَالَى جَدُّكَ**» هذا فيه إثبات العظمة والجلال والكبرياء والتَّعالي لله سبحانه، وأنَّه لا أكبر منه، ولا أعظم منه، ولا أجلَّ منه سُبْحَانَهُوَتَعَالَى. وهذان

(١) مجموع الفتاوى (٢٢/ ٣٤٢).
(٢) رواه مسلم (٣٩٩).
(٣) مجموع الفتاوى (٢٤/ ١٩٦)، والفتاوى الكبرى (٢/ ٣٥٥).

اللَّفظان ثابتان في القرآن قال تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِى ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ [الرَّحمن: ٧٨]، وقال تعالى في أوَّل سورة الجنِّ: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ [الجنّ: ٣].

قوله: «**وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ**» هذا فيه توحيد الله عَزَّوَجَلَّ في العبادة، وأنَّه المعبود بحقٍّ، ولا معبود بحقٍّ سواه.

وبهذا يُعلم أنَّ هذا الاستفتاح كما أنَّه جمع الكلمات الأربع الَّتي هي أحبُّ الكلام إلى الله؛ فإنَّه قد جمع أنواع التَّوحيد الثَّلاثة الَّتي عليها قيام الدِّين: توحيد الرُّبوبيَّة، وتوحيد الألوهيَّة، وتوحيد الأسماء والصِّفات. وهذا يدلُّ على كمال هذا الاستفتاح في معناه مع كماله في مبناه، حيث اشتمل على أعظم الثَّناء والتَّمجيد لله عَزَّوَجَلَّ، واشتمل على تحقيق التَّوحيد بأنواعه؛ توحيد الله عَزَّوَجَلَّ في ربوبيَّته، وتوحيده سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في أسمائه وصفاته، وتوحيده تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ في ألوهيَّته، ولأجل هذا كان هذا الاستفتاحُ أفضلَ أنواع الاستفتاحات.

قال ابن تيميَّة رَحِمَهُٱللَّهُ: «فأفضل أنواع الاستفتاح ما كان ثناءً محضًا، مثل: «سبحانك اللَّهمَّ وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدُّك ولا إله غيرك»، وقوله: «الله أكبر كبيرًا والحمد لله كثيرًا وسبحان الله بكرةً وأصيلًا»، ولكن ذاك فيه من الثَّناء ما ليس في هذا؛ فإنَّه تضمَّن ذكر الباقيات الصَّالحات الَّتي هي أفضل الكلام بعد القرآن، وتضمَّن قوله: (تبارك اسمك وتعالى جدُّك) وهما من القرآن أيضًا، ولهذا كان أكثر السَّلف يستفتحون به، وكان عمر بن الخطَّاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يجهر به يعلِّمه النَّاس»(١).

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٢/ ٣٩٤).

٦١
أدعية الاستفتاح (٢)

عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ أَنَّهُ كَانَ إِذَا قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ، قَالَ: «**وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ، وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، اللَّهُمَّ أَنْتَ الْمَلِكُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَنْتَ رَبِّي وَأَنَا عَبْدُكَ، ظَلَمْتُ نَفْسِي، وَاعْتَرَفْتُ بِذَنْبِي، فَاغْفِرْ لِي ذُنُوبِي جَمِيعًا؛ إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، وَاهْدِنِي لِأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ، لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ، وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا لَا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ، لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ، أَنَا بِكَ وَإِلَيْكَ، تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ**». رواه مسلم[(١)].

قوله: «**كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ**»، أي: المكتوبة وغيرها، وليس في طرق الحديث ما يدلُّ على أنَّه خاصٌّ بصلاة اللَّيل، بل هو عامٌّ يستفتح به كلَّ صلاة. وقد رواه الدَّارقطنيُّ بسندٍ صحيح، بلفظ: «**كانَ رسولُ اللهِ ﷺ إذا قامَ إلى الصَّلاة المكتوبة**»[(٢)]، وهذا الاستفتاح قائمٌ على الإخبار بالعبوديَّة والدُّعاءِ والاستغفار.

قوله: «**وَجَّهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حنيفًا**»، أي: لله

---

(١) رواه مسلم (٧٧١).
(٢) رواه الدَّارقطنيُّ في سننه (١١٣٨).

وحده دون سواه، ففيه التَّوجُّه لله عَزَّوَجَلَّ بالإخلاص، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [لقمان: ٢٢]، أي: بلا إله إلَّا الله.

قوله: «للَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ والأَرْض»، أي: للَّذِي أبدعهما وأوجدهما من العدم، وهو الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

«حنيفًا»، أي: مائلًا، والحنيف: هو المائل عن الشِّرك إلى التَّوحيد، وعن المعصية إلى الطَّاعة، قال الله عَزَّوَجَلَّ في وصف نبيِّه إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النَّحل: ١٢٠]؛ ولهذا يُسمَّى دين إبراهيم «الحنيفيَّة».

«وَمَا أَنَا مِنَ المُشْرِكِينَ»، أي: بريءٌ منه ومن أهلِه، ولا يصحُّ التَّوحيد إلَّا بهذا، ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الممتحنة: ٤].

قوله: «إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للهِ رَبِّ العَالَمِينَ»، ذكر الصَّلاة والنُّسك؛ لأنَّهما أفضل العبادات، فالصَّلاة أفضل العبادة البدنيَّة، والنُّسك أفضل العبادات الماليَّة، وخصَّهما دون غيرهما بالذِّكر؛ لشرفهما وعِظَم فضلهما، ومَن أخلص في صلاته ونُسُكِه استلزم ذلك إخلاصه لله في سائر أعمالِه، وقد جمع الله بينهما في قوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢]، وقوله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢].

وقوله: «وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي»، أي: ما أحيا عليه من العبادة والطَّاعة، وما أموت عليه من الإيمان والخضوع، كلُّه لله ربِّ العالمين، وهذا فيه الإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ.

قوله: «**لَا شَرِيكَ لَهُ**»، أي: ليس له شريك في شيء من ذلك؛ لا شريك له في صلاتي، ولا شريك له في نُسكي، ولا شريك له فيما أحيا عليه، وما أموت عليه. ليس لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ شريكٌ في ذلك.

قوله: «**وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ**»، أي: وبذلك الإخلاص وحُسن التَّوجُّه والتَّذلُّل والخضوع أمُرت، أي: أمرني الله عَزَّوَجَلَّ، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾.

قوله: «**وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ**»، هذا فيه الانتساب للإسلام، قال الله تعالى: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الحجُّ: ٧٨] وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصِّلت: ٣٣].

قوله: «**اللَّهُمَّ أَنْتَ المَلِكُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ**»، فيه جمعٌ بين التَّوحيدين العلميِّ والعمليِّ؛ العلميُّ في قوله: «**أَنْتَ المَلِكُ**»، أي: الملك كلُّه لك، لا شريك لك في شيء من ذلك، والعمليُّ في قوله: «**لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ**»، أي: المعبود بحقٍّ ولا معبود بحقٍّ سواك، والمعنى: كما أنَّك تفرَّدت وحدك بالملك لا شريك لك فُنفردك بالعبادة وحدك لا ندَّ لك.

ثمَّ أكَّد هذا التَّوحيد بنوعيه، فقال: «**أَنْتَ رَبِّي وَأَنَا عَبْدُكَ**»، فقوله: «**أَنْتَ رَبِّي**» هذا التَّوحيد العلميُّ، وقوله: «**وَأَنَا عَبْدُكَ**» هذا التَّوحيد العمليُّ.

قوله: «**ظَلَمْتُ نَفْسِي، وَاعْتَرَفْتُ بِذَنْبِي**»، هذا اعتراف العبد بحاله وما عنده من الذَّنب والتَّقصير. فقوله: «**ظَلَمْتُ نَفْسِي**»، ظُلم النَّفس يكون بفعل الذَّنب، ويكون بتقصير العبد في الطَّاعة والعبادة.

قوله: «**فَاغْفِرْ لِي ذُنُوبِي جَمِيعًا**»، هذا طلب للغفران جاء بعد تلك الوسائل العظيمة.

قوله: «**إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنوبَ إِلَّا أنت**»، أي: أنت وحدك الَّذي تغفر الذُّنوب، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، أي: لا يغفرها أحدٌ سواك.

قوله: «**واهدني لأحسن الأخلاق، لا يهدي لأحسنها إلَّا أنت، واصرف عنِّي سيِّئها، لا يصرف عنِّي سيِّئها إلَّا أنت**»، فيه سؤال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يهدي عبده إلى أحسن الأخلاق وأطيبها وأزكاها، لا يهدي لأحسنها سواه، عن طاوس بن كيسان رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «إنَّ هذه الأخلاق منائح يمنحها الله عَزَّوَجَلَّ مَن يشاء من عباده، فإذا أراد الله بعبد خيرًا منحه منها خُلقًا صالحًا»(١).

كثير من النَّاس يشتكي من رعونة أخلاقه وفظاظتها، ومع ذلك هو مقصِّر في دعاء ربِّه أن يهديه لأحسن الأخلاق وأن يُعيذه من سيِّئها!! ومَن صدق مع الله في هذا الدُّعاء أعطاه سبحانه من عظيم الخلق ما لا يحتسب وما لا يظنُّ أنَّه يُحصِّله، والله واسع الفضل.

ومن دعا بهذا الدُّعاء عليه ببذل السَّبب، وذلك بمجاهدة النَّفس على التَّحلِّي بالأخلاق الفاضلة والآداب الحسنة والبُعد عن أضدادها. وفي الدُّعاء بهذه الدَّعوة في الصَّلاة في فاتحتها تنبيهٌ إلى أنَّ الصَّلاة بوَّابة عظيمة ومَدخلٌ مبارك لإصلاح الأخلاق وتحسينها والبعُدِ عن سيِّئها، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

قوله: «**لبَّيك وسعديك**»، التَّلبية: استجابةٌ لله سبحانه وامتثالٌ لأمره، فمعنى «لبَّيك»، أي: استجبت لندائك وامتثلت أمرك، «وسعديك»، أي: إسعادًا بعد إسعاد، والمراد: طاعةً بعد طاعة، والمعنى: إنِّي سامعٌ مطيعٌ ممتثل، ولك عليَّ المنَّة في ذلك، والحمد فيه عائد إليك.

(١) رواه ابن أبي الدُّنيا في مكارم الأخلاق (ص٣٢).

قوله: «**والخير كلُّه في يديك**»، أي: خزائن الخير كلُّها بيدك، ولهذا جاء في أدعية النَّبيِّ ﷺ قوله: «اللَّهمَّ إنِّي أسألك من كلِّ خير خزائنه بيدك، وأعوذ بك من كلِّ شرٍّ خزائنه بيدك»(١)، فالخير كلُّه بيد الله فلا يُطلب إلَّا منه سبحانه، ولا يُلتجأ في طلبه إلَّا إليه.

قوله: «**والشَّرُّ ليس إليك**»، فيه تنزيه الله عن الشَّرِّ أن يُنسب إليه، فالشَّرُّ لا يُنسب إلى الله بوجه من الوجوه، لا في ذاته، ولا في أسمائه، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، وإنَّما الشَّرُّ يدخل في مخلوقاته ومفعولاته، فالشَّرُّ في المقضيِّ لا في القضاء، فتبارك وتعالى عن نسبة الشَّرِّ إليه، بل كلُّ ما نُسب إليه فهو خير.

قوله: «**أنا بك وإليك**»، «بك»، أي: مستجير، «وإليك»، أي: ملتجأ. وقيل: «**بك**» أحيا وأموت، «**وإليك**»، أي: المصير والمرجع. وكلُّ هذا يحتمله اللَّفظ.

قوله: «**تباركت**»، أي: استحققتَ الثَّناء وتكاثر خيرك، وأصل الكلمة للدَّوام والثُّبوت.

«**وتعاليت**»، أي: ارتفعت عظمتك وظهر قهرك وقدرتك.

قوله: «**أستغفرك وأتوب إليك**»، فيه الجمع بين الاستغفار والتَّوبة، والاستغفار: هو طلب محو الذُّنوب والإقالة منها والعفو عنها. والتَّوبة: يُراد بها ترك العبد للذُّنوب وإقلاعه عنها، وعزمه على عدم فعل شيء منها.

الشَّاهد: أنَّ هذا الاستفتاح استفتاحٌ عظيم، وهو ثابت عن نبيِّنا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. والنَّبِيُّ ﷺ لَم يكن يداومُ على نوعٍ من الاستفتاحات، بل يستفتح بهذا تارةً، وبهذا تارةً.

(١) رواه الحاكم في مستدركه (١٩٢٤)، والطَّبرانيُّ في الدُّعاء (١٤٤٥)، وصحَّحه الألبانيُّ في السِّلسلة الصَّحيحة (١٥٤٠)، وفي صحيح الجامع (١٢٦٠).

ﮩ **ومَن يتأمَّل في الاستفتاحات المأثورة عن النَّبِيِّ ﷺ يجدُ أنَّها على ثلاثة أنواع:**

١- نوعٌ فيه الثَّناءُ على الله.

٢- ونوعٌ فيه إخبارٌ من العبد عن عبادة الله.

٣- ونوعٌ فيه دعاءٌ وطلب.

وأعلى ذلك ما كان ثناءً على الله، ويليه ما كان خبرًا من العبد عن عبادة الله، ويليه ما كان دعاءً من العبد.

٦٢
أدعية الاستفتاح (٣)

عَنْ عائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالَتْ: كانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ افْتَتَحَ صَلاتَهُ: «**اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ؛ إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**». رواه مسلم[(١)].

خُصَّت صلاة اللَّيل باستفتاحاتٍ ثبتت عن النَّبيِّ ﷺ، منها هذا الاستفتاح، ولا بأس أن يستفتح المسلم صلاته من اللَّيل بالاستفتاحات العامَّة الَّتي تقدَّمت، كقوله: «**وجَّهت وجهي**»، أو «**سبحانك اللَّهمَّ**»، أو «**اللَّهمَّ باعد بيني وبين خطاياي**».

قوله: «**اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ**»، تخصيص هؤلاء الثَّلاثة من الملائكة بالذِّكر فيه دليلٌ على شرفهم وفضيلتهم وتقدُّمهم على غيرهم من الملائكة؛ وذلك أنَّ النَّبيَّ ﷺ لم يكن ليختار في هذه الوسيلة إلَّا المخلوقات العظام.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فذكَر هؤلاء الثَّلاثة من الملائكة؛ لكمال اختصاصهم واصطفائهم وقربهم من الله، وكم من مَلَك غيرهم في السَّموات فلم يسمِّ إلَّا هؤلاء الثَّلاثة؛ فجبريل صاحب الوحي الَّذي به حياة القلوب

(١) رواه مسلم (٧٧٠).

والأرواح، وميكائيل صاحب القطر الَّذي به حياة الأرض والحيوان والنَّبات، وإسرافيل صاحب الصُّور الَّذي إذا نفخ فيه أحيَت نفختُه بإذن الله الأموات وأخرجتهم من قبورهم». اهـ كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1].

ﮩ **فجبريل:** وكَّل الله إليه النُّزول بالوحي الَّذي هو حياة القلوب ولا حياة لها إلَّا به، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [الشُّعراء: ١٩٢-١٩٤]، وقال تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾ [القدر: ٤]، فالرُّوح هو جبريل، وسُمِّيَ «روحًا»؛ لأنَّه ينزل بالوحي الَّذي به حياة القلوب، وكما أنَّ الوحي نفسه روح؛ لأنَّ به حياة القلوب، فكذلك مَن ينزل به سُمِّيَ «روحًا».

ﮩ **وميكائيل:** هو الملك الَّذي وكَّل الله إليه القطر، ونزول المطر الَّذي به حياة العباد والنَّبات والحيوان، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

ﮩ **وإسرافيل:** وُكِّل إليه نوع آخر من الحياة؛ حيث وُكِّل إليه النَّفخ في الصُّور، والصُّور كما قال ﷺ: «**قرنٌ يُنفخ فيه**»، وإذا نُفخ في الصُّور صعق مَن في السَّماوات ومَن في الأرض إلَّا ما شاء الله، وإذا نُفخ فيه نفخة ثانية قام النَّاس لربِّ العالمين، وبهذه النَّفخة حياة النَّاس وقيامُهم لربِّ العالمين، قال الله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزُّمر: ٦٨-٦٩].

والَّذي يطلبه العبد في هذا الاستفتاح حياة قلبه بالاستقامة على شرع الله ودينه، والبعد عن الأهواء والبدع والضَّلالات والانحرافات؛ فكان في غاية

---

(١) زاد المعاد (١/ ٤٤).

المناسبة، وتمام الموافقة أن يُؤتى بهذا التَّوسُّل بين يدي هذا المطلب العظيم والمقصد الجليل.

قوله: «**فاطرَ السَّماوات والأرض**»، هذا توسُّلٌ آخر إلى الله عَزَّوَجَلَّ بكونه فاطر السَّماوات والأرض، أي: مبدعهما وموجدهما من العدم.

قوله: «**عالمَ الغيب والشَّهادة**»، هذا توسُّل ثالث إلى الله عَزَّوَجَلَّ بشمول علمه وسعته، وأنَّه تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ وسع كلَّ شيء علمًا، علِم الأمور الظَّاهرة والخفيَّة، وعلِم السَّرائر والمعلنات، ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩]؛ والمراد بالغيب: ما غاب عنَّا، أمَّا الله فالغيب عنده شهادة، والسِّرُّ عنده علانية.

قوله: «**أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ**»، هذ توسُّلٌ رابع يُتوسَّل به إلى الله، وهو الإقرار بأن الحكم لله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ ليس لغيره، قال الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [يوسف: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]، فالحكم لله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ بنوعيه: الكونيِّ القدريِّ، والشَّرعيِّ الدِّينيِّ؛ يحكم تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ في عباده بما يشاء كونًا وقدرًا، لا رادَّ لحكمه ولا معقِّب لقضائه، ويحكم فيهم بما يريد شرعًا ودينًا من الأمر والنَّهي والاباحة والتَّحريم ونحو ذلك.

وهذا كما أنَّه وسيله بين يدي مطلوبٍ عظيم؛ فإنَّ فيه أيضًا ترويضٌ للنَّفس على حُسن تلقِّي أحكام الله بالقبول وتلقِّيها بالانقياد والامتثال، كما قال الإمام محمَّد بن شهاب الزُّهريُّ رَحِمَهُٱللَّهُ: «من الله الرِّسالة، وعلى الرَّسول البلاغ، وعلينا التَّسليم»[(١)]، فإذا آمنتَ أنَّ الحكم لله وقلت في مناجاتك لربِّك «أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون»؛ فهذا فيه رياضه للنَّفس على أن تمتثل أوامر الله الَّذي له الحكم لا شريك له.

(١) رواه البخاريُّ في خلق أفعال العباد (ص٧٦).

قوله: «**اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ**»، هذا هو المطلوب، أن يهديه لما اختلف فيه من الحقِّ بإذنه، والنَّاس قد يقع بينهم اختلاف في الحقِّ، فتجد لهم أقوالًا عديدة في المسألة الواحدة أو الحكم الواحد، ويحتار المرء في بعض المسائل لا يدري ما الصَّواب فيها؟ وقد تشتبه بعض الأحكام على كثير من النَّاس، كما في الحديث: «**إِنَّ الْحَلَالَ بَيِّنٌ وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيِّنٌ وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ**»، وقد يخفى حكمها، وقد ينشأ المرء منذ صغره على عمل مخالف للسُّنَّة تربَّى عليه وترعرع، ثمَّ يتهيَّأ له أن يقرأ كتابًا أو يسمع عالمًا يبيِّن للنَّاس أنَّ هذا الأمر خلاف السُّنَّة، فيبقى مشكلًا عنده؛ هل يأخذ بالسُّنَّة الَّتي استبانت له واتَّضح دليلها ويترك ما عليه الآباء؟ أو يبقى على ما هو عليه؟ فيصبح في اضطراب، فما أحوجنا إلى هذا الدُّعاء والإكثار منه.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والهداية هي العلم بالحقِّ مع قصده وإيثاره على غيره، فالمهتدي هو العامل بالحقِّ المريد له، وهي أعظم نعمة لله على العبد؛ ولهذا أمرنا سبحانه أن نسأله هداية الصِّراط المستقيم كلَّ يوم وليلة في صلواتنا الخمس، فإنَّ العبد محتاج إلى معرفة الحقِّ الَّذي يرضى الله في كلِّ حركة ظاهرة وباطنة، فإذا عرفها فهو محتاجٌ إلى مَن يلهمه قصد الحقِّ فيجعل إرادته في قلبه ثمَّ إلى مَن يقدِّره على فعله، ومعلومٌ أنَّ ما يجهله العبد أضعاف أضعاف ما يعلمه، وإنَّ كلَّ ما يعلم أنَّه حقٌّ لا تطاوعه نفسه على إرادته، ولو أراده لعجز عن كثير منه، فهو مضطرٌّ كلَّ وقتٍ إلى هداية تتعلَّق بالماضي وبالحال والمستقبل؛ أمَّا الماضي فهو محتاجٌ إلى محاسبة نفسه عليه، وهل وقع على السَّداد؟ فيشكر الله عليه ويستديمه، أم خرج فيه عن الحقِّ فيتوب إلى الله تعالى منه ويستغفره ويعزم على أن لا يعود، وأمَّا الهداية في الحال فهي مطلوبة منه، فإنَّه ابن وقته فيحتاج ان يعلم حكم ما هو متلبِّس به من الأفعال

هل هو صواب أم خطأ؟ وأمَّا المستقبل فحاجته في الهداية أظهر ليكون سيره على الطريق، وإذا كان هذا شأن الهداية عُلم أنَّ العبد أشدُّ شيء اضطرارًا إليها»[(١)].

وكان ابن تيميَّة: كثير الوصيَّة بهذا الدُّعاء، وإذا ألححتَ -أيَّها العبد- على الله ورجوته أن يهديك إلى ما اختلف فيه من الحقِّ بإذنه تيسَّرت لك أبواب الخير وبان لك الحقُّ وظهر.

وقوله: «**إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**»، هذا توسُّل خامس، وهو إقرارك واعترافك وإيمانك أنَّ هدايتك إلى الصِّراط المستقيم بيد الله، قال الله لنبيِّه: ﷺ ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ﴾ [النَّحل: ٣٧]، فالهداية إلى الصِّراط المستقيم ليست بيد أيِّ أحد كائن مَن كان إلَّا ربَّ العالمين سبحانه ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٩]، ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [النَّحل: ٩٣]، فالهداية بيده سبحانه، ولهذا تقول في توسُّلك هذا: «**إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**»، نسأل الله أن يهدينا أجمعين، وأن يصلح قلوبنا، وأن يأخذنا بنواصينا إلى صراطه المستقيم.

وقد أمر الله تعالى نبيَّه محمَّدًا ﷺ بهذا الدُّعاء في القرآن الكريم، قال الله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الزُّمر: ٤٦]، أمره به بعدما ذكر عن المشركين ما ذكر من المذمَّة لهم في حبِّهم الشِّرك ونفرتهم عن التَّوحيد. والمعنى: ادع -أيَّها

(١) انظر: مفتاح دار السَّعادة (١/ ٨٣).

النَّبيُّ- الله وحده لا شريك له، الَّذي هو فاطر السَّماوات والأرض، أي: خالقهما على غير مثال سبق ﴿عَـٰلِمَ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ﴾، أي: السِّرُّ والعلانية ﴿أَنتَ تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾، أي: في دنياهم، وستفصل بينهم يوم معادهم، وقيامهم من قبورهم.

وفي هذا تعليم للعباد أن يحسنوا الالتجاء إلى الله تعالى، والدُّعاء بأسمائه الحسنى والتَّوسُّل إليه بها.

وممَّا يُنبَّه عليه في هذا المقام: أنَّ العبد إذا دعا بهذا الدَّعاء أو غيره من الأدعية عليه أن يُتبِع الدُّعاء ببذل السَّبب، فإذا قال: «اهدني لما اختلف فيه» عليه أن يأخذ بالأسباب؛ وذلك بمجاهدة النَّفس على سلوك طريق العلم، وتلقِّيه عن أهله، وتحرِّي الحقِّ والصَّواب، وعدم التَّردُّد في قبوله.

٦٣
أدعية الاستفتاح (٤)

عَنْ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ يَتَهَجَّدُ، قَالَ: **«اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ الْحَقُّ، وَوَعْدُكَ الْحَقُّ، وَقَوْلُكَ الْحَقُّ، وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، وَالنَّبِيُّونَ حَقٌّ، وَمُحَمَّدٌ ﷺ حَقٌّ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ، اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ، فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، أَنْتَ المقَدِّمُ وَأَنْتَ المُؤَخِّرُ، لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ»**. رواه البخاريُّ ومسلم[١].

وزادَ في روايةٍ: **«ولا حولَ ولا قوةَ إلَّا بالله»**.

فهذا متنٌ عظيمٌ جامعٌ مشتَملٌ على اثنتين وعشرين جملةً، كان نبيُّنا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يكرِّره كلَّ ليلة يستفتح به صلاتَه من اللَّيل.

وما مِن ريب أنَّ هذه العنايةَ المستمرَّة بهذه الكلمات العظيمات استفتاحًا لصلاة اللَّيل بها تدلُّ على عِظم شأنها وجلالة قَدْرها، لاسيَّما إذا كانت في جوف اللَّيل وهَدأة الخلق وهَجْعة النَّاس وسُكون الكَون، وهو وقت قُربٍ ورَحمة؛ تُفتَح فيه أبوابُ السَّماء بالرَّحماتِ، وينزلُ فيه الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إلى سَماء الدُّنيا بالعَطايا والهباتِ، إذ يقفُ العبدُ الصَّالح النَّاصح بينَ يدي ربِّه

(١) رواه البخاريُّ (١١٢٠)، ومسلم (٧٦٩).

تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ في هذا الوقتِ الشَّريفِ الفاضِل، ليُصلِّي لربِّه ما تيسَّر مِن صلاة مستفتِحًا لها بهذه الكَلمات العَظيمات الَّتي تفيضُ إيمانًا وتصديقًا وتوحيدًا وإخلاصًا واستسلامًا لله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ وتوسُّلًا بأسمائِه وصفاتِه عَزَّوَجَلَّ، وبالخضوع له والتَّذلُّل لعزَّتِه وجلاله، والانكسارِ بينَ يدَيْه، ممَّا يكونُ له الأثر البالغُ في تجديد الإيمان، وترسيخ الاعتقَاد، وتثبيتِ التَّوحيد.

قوله: «**اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ**»، بدأ ﷺ هذه المناجاة لربِّ الأرض والسَّموات بحمد الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، والحمدُ: هو الثَّناء على الله بما هو أهلُه مع حبِّه جلَّ في عُلاه.

وقوله: «**أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ**»، أي: القائم بشؤون السَّموات والأرض ومَن فيهنَّ تصريفًا وتدبيرًا وتسخيرًا، فالأمر بيد الرَّبِّ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، وطوع تدبير القيُّوم؛ فالسَّموات والأرض ومَن فيهنَّ كلُّ هذه الكائنات قائمة بأمر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

قوله: «**وَلَكَ الحَمْدُ، أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ**»، فيه إثبات النُّور اسمًا لله عَزَّوَجَلَّ، وصفةً له تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ الَّذي لو كشفَ الحجابَ عن وجهه لأحرقَت سُبُحاتُ وجهه ونورُ جلالِه ما انتهى إليه بصرُه من خلقِه، وممَّا يدلُّ عليه في تضمُّنه إثباتُ أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ مُنيرُ السَّموات والأرض بقُدرتِه.

قوله: «**أَنْتَ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ**»، فيه إثبات أنَّ السَّموات والأرض ومَن فيهنَّ ملْكٌ لله، ليس له عَزَّوَجَلَّ شريكٌ في الملك ولا في مقدار ذرَّة، بل الملك كلُّه لله، يدبِّرُ أمر الممالك كيف يشاء؛ يخلقُ ويرزُق، ويميتُ ويحيي، ويقضي وينفِّذ، ويعزُّ ويذِلُّ، ويخفضُ ويرفَع، لا رادَّ لحكمه، ولا معقِّبَ لقضائه.

قوله: «**وَلَكَ الحَمْدُ أَنْتَ الحَقُّ**»، و«الحقُّ»: اسمٌ من أسماء الله الحسنى،

ومعناه، أي: الَّذي لا شكَّ فيه ولا ريبَ، لا في ذاتِه، ولا في أسمائه وصفاتِه، ولا في ربوبيَّته، ولا في ألوهيَّته، فهو المعبود بحقٍّ، ولا معبودَ بحقٍّ سواه، وهو تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ حقٌّ، وأسماؤه وصفاته حقٌّ، وأفعاله وأقواله حقٌّ، ودينه وشرعه حقٌّ، وأخباره كلُّها حقٌّ، ووعده حقٌّ، ولقاؤه حقٌّ، وله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وحده دعوةُ الحقِّ؛ فلا يُدعى إلَّا الله، ولا يُصرفُ شيءٌ من العبادة إلَّا للحقِّ المبين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قوله: «**وَوَعْدُكَ الحَقُّ**»، والله سبحانه صادقُ الوعد، لا يخلف الميعاد، وهذا فيه أيضًا إيمانٌ بأنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يُوفِي عبادَه وأولياءَه وأصفياءَه كلَّ ما وعدَهُم به من عطايا وهباتٍ وخيراتٍ وكراماتٍ في الدُّنيا والآخرة، قال الله تعالى: ﴿سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النِّساء: ١٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الرُّوم: ٦].

قوله: «**وَقَوْلُكَ الحَقُّ**»، أي: لا باطلَ فيه، كما قال الله سبحانه: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [البقرة: ١٤٧]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْۖ﴾ [البقرة: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَۗ﴾ [البقرة: ١٤٩]، وقال تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصِّلت: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النِّساء: ٨٢].

قوله: «**وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ**»، وهذا أمرٌ عظيمٌ ينبغي أن يكونَ حاضرًا في ذهن العَبد، قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ﴾ [البقرة: ٢٢٣]، وقال تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، وقال تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌۚ﴾ [الأحزاب: ٤٤]؛ فيكون على عقيدةٍ ثابتة أنَّه سيقفُ بينَ يدي الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، فهذا يُثمر عملًا واستعدادًا وتزوُّدًا ليوم المعاد.

قوله: «**وَالجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ**»، فيه الإيمان بالجنَّة والنَّار، وهما مِن وعده الصَّادق الَّذي أقسمَ على صدقِه ووقوعِه في غير ما موضِع مِن كتابه، قال الله تعالى في وعد المؤمنين بالجنَّة: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التَّوبة: ٧٢]، وقال في وعْدِ الكافرين بالنَّار: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [التَّوبة: ٦٨].

قوله: «**وَالنَّبِيُّونَ حَقٌّ**»، وهذا الإيمانُ بالرُّسل الكرام، وهو أصلٌ من أصُول الإيمان؛ فإنَّ الإيمانَ يقوم على ستَّة أصولٍ منها الإيمان بالرُّسل، قال الله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، والإيمان بهم: إيمانٌ بأنَّهم صفوةُ الخلق، وأنَّ الله اجتباهم، وأنَّهم قد بعثَهُم الله بالحقِّ والهدى، وأنَّهم جميعهم صادقون مصدوقون، برَرَةٌ راشدون، أتقياء ناصحون، هداةٌ مهتدون، بعثَهُم به مُعرِّفين، وإليه داعين، ولمَن أجابَهُم مبشِّرين، ولمَن خالفَهم مُنذرين، فبلَّغوا أمَمَهم ما أمرهُم الله به البلاغَ المبين، فما تركوا خيرًا إلَّا دلُّوا أممَهم عليه، ولا شرًّا إلَّا حذَّروهم منه.

قوله: «**وَمُحَمَّدٌ ﷺ حَقٌّ**»، فيه الإيمان الخاصُّ بنبوَّة محمَّد ﷺ، خِيرة الله من خلقه، وصفوته من عباده، وأكرم الخلق على ربِّه، إمام المتَّقين، وقائد الغرِّ المحجَّلين، وسيِّد ولد آدم أجمعين، وخاتم النَّبيِّين: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، أرسله الله بالحقِّ والهدى بشيرًا ونذيرًا وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا؛ فبلَّغ البلاغ المبين، وما ترك خيرًا إلَّا دلَّ أمَّته عليه، ولا شرًّا إلَّا حذَّرها منه.

قوله: «**وَالسَّاعَةُ حَقٌّ**» السَّاعة، أي: الَّتي يَنفخ فيها ملكُ الصُّور في الصُّور وينتَهي هذا العالم، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍۚ﴾ [الرُّوم: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [الرُّوم: ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ [الرُّوم: ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ [الحجُّ: ٧]، ويقال لها «ساعة»؛ لأنَّها تقع في لحظة واحدة فينتهي كلُّ شيء، وتنقضي الحياةُ الدُّنيا بكلِّ تفاصيلها وتبدأ الحياةُ الآخرة.

قوله: «**اللَّهمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ**»، أي: انقدت، قال تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ﴾ [الزُّمر: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿فَلَهُۥٓ أَسْلِمُواْۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ [الحجُّ: ٣٤]، والإسلام: هو الاستِسلام لله بالتَّوحيد، والانقيادُ له بالطَّاعة، والخلوص من الشِّرك.

قوله: «**وَبِكَ آمَنْتُ**» إلهًا وربًّا ومعبودًا، ولا معبود بحقٍّ سواك، قال الله تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٣٦]، وهذا أعظم أركان الدِّين، وأصل أصول الإيمان، ومعناه الإيمان بوحدانيَّة الله تعالى وتفرُّده بأسمائه وصفاته، والإيمان بأنَّه الإله الحقُّ المبين، وأنَّ ما عُبِد مِن دونه فعبادتُه أبطل الباطل وأضلُّ الضَّلال.

قوله: «**وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ**»، فيه التَّوكُّل على الله وحده، وحقيقة التَّوكُّل هو: عملُ القَلب وعبوديَّته اعتمادًا على الله وثقةً به والتجاءً إليه وتفويضًا إليه ورضًا بما يقضيه له؛ لعلمِه بكفايتِه سبحانه وحُسن اختيارِه لعبدِه إذا فوَّض إليه أمورَه، مع قيامِه بالأسباب المأمور بها واجتهادِه في تحصيلها، دونَ تعدٍّ إلى فعل سببٍ غير مأمور أو سلوك طريق غير مشروع.

قوله: «**وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ**»، الإنابة: هي الرُّجوع إلى الله بالإقبال عليه وعلى

طاعته، كما قال تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ﴾ [الزُّمر: ٥٤]، وقد ذكَر اللهُ الإنابةَ في مواضع كثيرة منَ القرآن وأثنى على المنيبين وأمر بالإنابة إليه.

قوله: «**وَبِكَ خَاصَمْتُ**»، أي: أنَّني مستعينٌ بك -يا الله- في محاجَّتي ومخاصَمتي لأعدائك، وردِّي عليهم، وبياني لفسَادِ عقائدِهم وضلالهم وباطِلِهم، ملتجئٌ إليك وحدَك.

قوله: «**وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ**»، هذا فيه أنَّ التَّحاكم إنَّما يكون إلى شرع الله، قال تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [الشُّورى: ١٠].

قوله: «**فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ**»، أي: فاغفر لي يا الله جميعَ الذُّنوب؛ فإنَّ رحمتَك واسعةٌ، وصفحَك كريمٌ، وأنت الغفورُ الرَّحيم، ولا يغفرُ الذُّنوبَ إلَّا أنتَ، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

قوله: «**أَنْتَ المقَدِّمُ، وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ**»، وهذا توسُّلٌ إلى الله بهذَيْن الاسمَيْن العظيمَيْن لله سبحانه، وقد ورَدَا في هذا الحديث في سياق طلب الغُفران للذُّنوب جميعِها، وفي هذا بيانٌ أنَّ العبد ليسَ إليه شيءٌ من أمر سعادتِه أو شقاوتِه، أو خفضِه أو رفعِه، أو تقدُّمِه أو تأخُّرِه، إن اهتدى فبهداية الله إيَّاه، وإن ثبتَ على الإيمان فبتثبيته سبحانه، وإن ضلَّ فبصرفِه عن الهدى، وأنَّ الَّذي يتولَّى قلوبَ العباد هو الله، يتصرَّف فيها بما شاء، لا يمتنع عليه شيء منها، يقلِّبها كيف يشاء.

قوله: «**لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ**»، هذا ختمٌ لهذه المناجاة العظيمة بأعظم الكلمات

على الإطلاق؛ كلمة التَّوحيد «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»، الَّتي لأجلها خُلقت الخليقةُ، وأُرسلت الرُّسلُ، وأُنزلت الكتبُ، وبها افترق النَّاس إلى مؤمنين وكفَّار، وسُعداء أهل الجنَّة، وأشقياء أهل النَّار. وفضائل هذه الكلمَة وموقعُها منَ الدِّين فوقَ ما يصفُه الواصفون ويعرفُه العارفون.

قوله: «**وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ**»، هي كلمة إسلامٍ واستِسلامٍ، وتفويضٍ وتبرُّؤٍ من الحَول والقوَّة إلَّا بالله، وأنَّ العبدَ لا يملكُ من أمرِه شيئًا، وليس له حيلةٌ في دفعِ شرٍّ ولا قوَّةٌ في جلبِ خيرٍ إلَّا بإرادته تعالى، فلا تحوُّل للعبد مِن معصية إلى طاعة، ولا مِن مرض إلى صحَّة، ولا مِن وهنٍ إلى قوَّة، ولا مِن نقصٍ إلى كمالٍ وزيادةٍ إلَّا بالله، ولا قوَّة له على القيام بشأنٍ مِن شؤونِه أو غاية مِن غاياته إلَّا بالله العظيم.

ألا ما أهنَأَ وألذَّ وأطيَبَ ليلٍ يقوم المرءُ المسلم في جوفه ليصلِّيَ لربِّه ومولاه ما كتَبَ الله له من صلاةٍ، مستفتحًا بهذا الاستفتاح العظيم، مستشعرًا معانيه العظيمَة ودلالاتِه الجليلة، مجدِّدًا إيمانَه وتوحيدَه، مقوِّيًا صلتَه بربِّه ومولَاه، راجيًا نيلَ ما يترتَّبُ عليه من الأحوال الزَّكيَّة، والمقامات العليَّة، والنَّتائج العظيمة، والآثار المباركة، والعَوائد الحميدة، وبالله وحدَه التَّوفيق لا شريكَ له.

٦٤

أدعية الرُّكوع والقيام منه والسُّجود والجلسة بين السَّجدتين (١)

عَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَافْتَتَحَ الْبَقَرَةَ، فَقُلْتُ يَرْكَعُ عِنْدَ الْمِائَةِ، ثُمَّ مَضَى، فَقُلْتُ: يُصَلِّي بِهَا فِي رَكْعَةٍ، فَمَضَى، فَقُلْتُ: يَرْكَعُ بِهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ النِّسَاءَ فَقَرَأَهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ آلَ عِمْرَانَ فَقَرَأَهَا، يَقْرَأُ مُتَرَسِّلًا، إِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا تَسْبِيحٌ سَبَّحَ، وَإِذَا مَرَّ بِسُؤَالٍ سَأَلَ، وَإِذَا مَرَّ بِتَعَوُّذٍ تَعَوَّذَ، ثُمَّ رَكَعَ فَجَعَلَ يَقُولُ: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ»، فَكَانَ رُكُوعُهُ نَحْوًا مِنْ قِيَامِهِ، ثُمَّ قَالَ: «سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ»، ثُمَّ قَامَ طَوِيلًا قَرِيبًا مِمَّا رَكَعَ، ثُمَّ سَجَدَ فَقَالَ: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلَى» فَكَانَ سُجُودُهُ قَرِيبًا مِنْ قِيَامِهِ». رواه مسلم(١).

في هذا الحديث مشروعيَّة أن يقولَ المسلمُ في ركوعه «سبحان ربِّي العظيم» وفي سجوده «سبحان ربِّي الأعلى»، قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فشُرِعَ للرَّاكع أن يَذكرَ عَظمة ربِّه في حال انخفاضه هو وتطامنه وخضوعه، وأنَّه سبحانه يوصَف بوصف عظمته عمَّا يضادُّ كبرياءه وجلاله وعظمته، فأفضل ما يقول الرَّاكع على الإطلاق: (سبحان ربِّي العظيم)؛ فإنَّ الله سبحانه أمر العباد بذلك، وعيَّن المبلِّغُ عنه السَّفيرُ بينه وبين عباده هذا المحلَّ لهذا الذِّكر لمَّا نزلت: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٧٤] قال: «اجعلوها في ركوعكم»(٢).

وقال: عن السُّجود: «وشُرِع فيه من الثَّناء على الله ما يناسبه، وهو قول

(١) رواه مسلم (٧٧٢).
(٢) انظر: الصَّلاة وأحكام تاركها (ص١٤٥).

العبد: (سبحان ربِّي الأعلى)، فهذا أفضل ما يُقال فيه، ولم يرِد عن النَّبيِّ ﷺ أمره في السُّجود بغيره، حيث قال: (اجعلوها في سجودكم)... وكان وصف الرَّبِّ بالعلوِّ في هذه الحال في غاية المناسبة لحال السَّاجد الَّذي قد انحطَّ إلى السُّفل على وجهه، فذكر علوَّ ربِّه في حال سقوطه، وهو كما ذكر عظمته في حال خضوعه في ركوعه، ونزَّه ربَّه عمَّا لا يليق به ممَّا يضادُّ عظمته وعلوَّه»(١).

وَعَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طالِب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في حَدِيثٍ طَوِيل: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ إِذَا رَكَعَ قَالَ: «**اللَّهُمَّ لَكَ رَكَعْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَلَكَ أَسْلَمْتُ، خَشَعَ لَكَ سَمْعِي، وَبَصَرِي، وَمُخِّي وَعَظْمِي، وَعَصَبِي**»، وَإِذَا رَفَعَ قَالَ: «**اللَّهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ مِلْءَ السَّمَوَاتِ وَمِلْءَ الأَرْضِ وَمِلْءَ مَا بَيْنَهُمَا وَمِلْءَ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ**». **وَإِذَا سَجَدَ قَالَ**: «**اللَّهُمَّ لَكَ سَجَدْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَلَكَ أَسْلَمْتُ، سَجَدَ وَجْهِي لِلَّذِي خَلَقَهُ، وَصَوَّرَهُ وَشَقَّ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ، تَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخَالِقِينَ**». رواه مسلم(٢).

قوله: «**لك ركعت**»، تقديم الجارِّ والمجرور في قوله: «لك» على الفعل والفاعل؛ يفيد الاختصاص، أي: لك وحدك يا الله ركوعي، وهذا فيه إعلان الإخلاص والبراءة من الشِّرك.

قوله: «**وبك آمنت**»، أي: أقرَرْتُ وصدَّقت.

وقوله: «**ولك أسلمت**»، أي: انقدت وأطعت.

وإذا جُمع بين الإيمان والإسلام في سياقٍ واحد، فإنَّ للإيمان معنًى يخصُّه وللإسلام معنًى يخصُّه، كما جاء ذلك مبيَّنًا في حديث جبريل المشهور عندما سأل النَّبيَّ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ عن الإسلام، قال: «**أخبرني عن الإسلام**»، قال:

(١) انظر: الصَّلاة وأحكام تاركها (ص١٤٩).
(٢) رواه مسلم (٧٧١).

«الإسلام أن تشهد أن لا إله إلَّا الله وأنَّ محمَّدًا رسول الله، وتقيم الصَّلاة وتؤتي الزَّكاة، وتصوم رمضان وتحجَّ بيت الله الحرام»، قال: «أخبرني عن الإيمان»، قال: «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وأن تؤمن بالقدر خيره وشرِّه»؛ ففسَّر الإسلام بأعمال الدِّين الظَّاهرة وشرائعه التَّعبُّديَّة، وفسَّر الإيمان بعقائد الدِّين الباطنة وأصوله الَّتي مكانها القلب.

قوله: «**خَشَعَ لَكَ سَمْعِي، وَبَصَرِي، وَمُخِّي وَعَظْمِي، وَعَصَبِي**»، هذا الذِّكر المفصَّل لهذه الأعضاء من الإنسان -السَّمع والبصر والمخِّ والعظم والعصب- فيه استشعار خضوع الإنسان بكلِّ أجزائه لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فالخشوع هو خضوع العبد وتمام ذلِّه وانكساره بين يدي ربِّه تَبَارَكَ وَتَعَالَى؛ وهذا فيه فائدة أن تُجاهد نفسك على حفظ هذه الأشياء من الغفلة والخروج عن الخشوع، فلا يتناسب مع قولك: «خَشَعَ لَكَ سَمْعِي، وَبَصَرِي، وَمُخِّي وَعَظْمِي، وَعَصَبِي» أن تجيل بصرك، أو تنصت إلى صوت بعيد يتحدَّث فتصغي ماذا يقول من باب الفضول؛ فلا بُدَّ أن تستحضر هذا الخشوع التَّامَّ في كلِّ أجزائك فتكون خاشعًا فعلًا في سمعك وفي بصرك، وفي مخِّك، وفي عظمك، وفي عصبك، وفي جميع أجزائك.

قوله: «**وإذا رفع رأسه من الرُّكوع، يقول: سمع الله لمن حمده ربَّنا ولك الحمد ملء السَّماوات وملء الأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت من شيء بعد**»، المراد بالسَّمع: سمع الإجابة، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩]، أي: مجيب الدُّعاء.

قوله: «**ربَّنا وَلَكَ الحَمْدُ**»، أي: الحمد لك وحدك ملكًا واستحقاقًا، حمدًا على أسمائك الحسنى وصفاتك وكمالك وعظمتك، وحمدًا على نعمك ومننك الَّتِي لا تُعدُّ ولا تُحصى، ومن أعظم نعمه أنْ منَّ عليك بالصَّلاة وجعلك من هؤلاء المصلِّين الرَّاكعين السَّاجدين.

يقول ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولا يُهمل أمر هذه الواو في قوله: (ربَّنا ولك الحمد)؛ فإنَّه قد نُدب الأمر بها في الصَّحيحين، وهي تجعل الكلام في تقدير جملتين قائمتين بأنفسهما؛ فإنَّ قوله: (ربَّنا) متضمِّن في المعنى أنت الرَّبُّ والملك القيُّوم الَّذي بيديه أزمَّة الأمور وإليه مرجعها، فعطف على هذا المعنى المفهوم من قوله: (ربَّنا) قوله: (ولك الحمد) فتضمَّن ذلك معنى قول الموحِّد: «له الملك وله الحمد»[(١)].

قوله: «**ملء السَّماوات وملء الأرض**» هذا بيان لحال الحمد وصفته، أي: حمدًا يملأ السَّماوات كثرةً ويملأ الأرض ويملأ ما بينهما، فهذا حمدٌ يملأ الأشياء الموجودة الكائنة، ثمَّ أضاف إليه حمدًا يملأ الأشياء الَّتي لم تكن، قال «**وَمِلْءَ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ**»، فهو حمدٌ يملأ الموجود ويملأ ما لم يوجد كثرةً، فهو حمدٌ لا حصر له ولا حدَّ ولا عدّ. وكم هو جميل بك -أيُّها المسلم- وأنت تحمد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن تستحضر هذه السَّعة في الحمد.

قوله: «**وَإِذَا سَجَدَ، يَقُولُ فِي سُجُودِهِ: اللَّهمَّ لَكَ سجَدْتُ**»، وهذه كذلك تفيد الاختصاص، وأنَّ السُّجود خاصٌّ بالله لا يجوز أن يصرف لغيره سُبْحَانَهُ.

قوله: «**وَبِكَ آمَنْتُ وَلَكَ أَسْلَمْتُ**»، تقدَّم معناه.

قوله: «**سجد وجهي للَّذي خلقه وصوَّره وشقَّ سمعه وبصره تبارك الله أحسن الخالقين**»، السُّجود لا يكون إلَّا للخالق الَّذي خلق وجه العبد وصوَّره وخلقه في أحسن تقويم، وجعل له السَّمع والبصر، ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التِّين: ٤]، ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [غافر: ٦٤]، ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠]، فهو عَزَّوَجَلَّ وحده الَّذي منَّ على العبد بهذه النِّعمة، وهذا

(١) انظر: الصَّلاة وأحكام تاركها (ص١٤٦).

الوجه الجميل، والصُّورة الحسنة، والهيئة الطَّيِّبة، فلمَّا يضع وجهه على الأرض يضعه ذُلًّا لله وخضوعًا له معترفًا بنعمته ومنَّته وفضله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ويُسمَّى هذا الحمد «الحمد المضاعف»؛ لأنَّ لفظه قليل وثوابه مضاعف مضاعفةً عظيمة.

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَانَ يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: «**سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ رَبُّ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ**». رواه مسلم(١).

قوله: «**سبُّوحٌ قُدُّوسٌ**»، هذان اسمان عظيمان دالَّان على تنزيه الله عن النَّقائص والعيوب، وتبرئته عن كلِّ ما يُضادُّ كماله وينافي عظمته، كالسِّنَة والنَّوم واللُّغوب والوالد والولد وغيرها، وعن أن يشبهه أحد من خلقه أو أن يشبه هو أحدًا من خلقه، تعالى وتقدَّس وتنزَّه عن الشَّبيه والنَّظير والمثال ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشُّورى: ١١]، فهو المنزَّه عن كلِّ ما ينافي صفات المجد والعظمة والكمال، وهو المنزَّه عن الضِّدِّ والنِّدِّ والكفُؤ والأمثال.

قوله: «**ربُّ الملائكةِ والرُّوح**»، فيه الإقرار بربوبيَّته سُبْحَانَهُ للملائكة، هذا الخلق العظيم، وهم عبادٌ مكرمون، ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التَّحريم: ٦].

«**والرُّوح**»، هو جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وخصَّه بالذِّكر هنا تشريفًا له وتعليةً لقدره، مع أنَّه داخل في عموم قوله «**ربُّ الملائكة**»! وقد سُمِّيَ جبريل روحًا؛ لأنَّه كان ينزل بالوحي -كلام الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- على رسول الله ﷺ، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ١٩٤

(١) رواه مسلم (٤٨٧).

﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشُّعراء: ١٩٢-١٩٥]، وقال تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ [القدر: ٤]، فكان ينزل بالوحي الَّذي به حياة القلوب.

وقلوب العباد لا يمكن أن تحيا إلَّا بالوحي، أمَّا بدونه فلا حياة لها، قال الله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، ميتًا مع أنَّه كان يمشي ويأكل ويشرب ويتحرَّك ويقوم ويجلس! فالحياة الحقيقيَّة إنَّما تُنال بالوحي والاستجابة لأمر الله، قال تعالى: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]، فقوله: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ وصفٌ ملازم لكلِّ ما دعا اللهُ ورسوله إليه، وبيان لفائدته وحكمته؛ فإنَّ حياة القلب والرُّوح بعبوديَّة الله تعالى ولزوم طاعته وطاعة رسوله ﷺ على الدَّوام.

٦٥
أدعية الرُّكوع والقيام منه والسُّجود والجلسة بين السَّجدتين (٢)

عَنْ عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ: «**كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي»؛ يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ**».

رواه البخاريُّ ومسلم[1].

قولها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «**يتأوَّل القرآن**»، تعني: أنَّه لمَّا نزل عليه ﷺ قول الله تَعَالَى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ [النَّصر:١]، فكان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يأتي بما يؤول إليه وهو فعل ما طُلب منه في القرآن؛ لأنَّ التَّأويل يُراد به تارةً التَّفسير، وتارةً يراد ما يؤول إليه الشَّيء.

وهذا ذكرٌ يُقال في الرُّكوع والسُّجود؛ إذا ركع المسلم يقوله وإذا سجد يقوله، وهو تسبيح لله عَزَّوَجَلَّ مع حمد وثناء، ثمَّ طلب لمغفرة الذُّنوب.

وَعَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ الأَشْجَعِيِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَالَ: «**قُمْتُ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ لَيْلَةً فَقَامَ فَقَرَأَ سُورَةَ الْبَقَرَةِ؛ لَا يَمُرُّ بِآيَةِ رَحْمَةٍ إِلَّا وَقَفَ فَسَأَلَ، وَلَا يَمُرُّ بِآيَةِ عَذَابٍ إِلَّا وَقَفَ فَتَعَوَّذَ، قَالَ: ثُمَّ رَكَعَ بِقَدْرِ قِيَامِهِ؛ يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ: (سُبْحَانَ ذِي الْجَبَرُوتِ وَالْمَلَكُوتِ وَالْكِبْرِيَاءِ وَالْعَظَمَةِ)، ثُمَّ سَجَدَ بِقَدْرِ قِيَامِهِ، ثُمَّ قَالَ**

(١) رواه البخاريُّ (٨١٧)، ومسلم (٤٨٤).

فِي سُجُودِهِ مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ قَامَ فَقَرَأَ بِآلِ عِمْرَانَ، ثُمَّ قَرَأَ سُورَةً سُورَةً». رواه أبو داود والنَّسائيُّ(١).

هذا فيه أنَّ السُّنَّة الَّتي مضى عليها هديه ﷺ في صلاة اللَّيل أن يقف مع آيات النَّعيم سائلًا، وآيات العذاب متعوِّذًا، وآيات التَّعظيم لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مسبِّحًا، وهذا من تمام التَّدبُّر لكلام الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في قيام العبد ليلًا بكتاب الله؛ فيجمع بين التِّلاوة والتَّدبُّر لكلام الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وسؤال الله من فضله، والتَّعوُّذ به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من عذابه.

فهذا هديه ﷺ إذا مرَّ بآية نعيم، أي: فيها ذِكر للجنَّة أو ذكر للثَّواب أو ذكر لإنعام الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ على عباده سأل الله من فضله، وإذا مرَّ بآيةٍ فيها ذكر النَّار، أو ذكر العذاب، أو ذكر سخط الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وعقوبته تعوَّذ. وهذا ممَّا يُعين العبد على تدبُّر القرآن والتَّفكُّر في معانيه؛ فإذا كان في صلاة نافلة فإنَّه يُسنُّ أن يسأل عند آية الرَّحمة ويتعوَّذ عند آية الوعيد ولاسيَّما في صلاة اللَّيل؛ لأنَّه ثبت ذلك عن النَّبيِّ ﷺ، وأمَّا في الفريضة فالظَّاهر من حال النَّبيِّ ﷺ أنَّه لا يفعل ذلك؛ لأنَّ الواصفين لصلاته ﷺ لم يذكروا أنَّه كان في الفريضة يتعوَّذ عند آية الوعيد أو يسأل عند آية الرَّحمة.

ومثل هذا ما جاء في حديث حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، **قَالَ: «صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَافْتَتَحَ الْبَقَرَةَ، فَقُلْتُ يَرْكَعُ عِنْدَ الْمِائَةِ، ثُمَّ مَضَى فَقُلْتُ يُصَلِّي بِهَا فِي رَكْعَةٍ فَمَضَى فَقُلْتُ يَرْكَعُ بِهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ النِّسَاءَ فَقَرَأَهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ آلَ عِمْرَانَ فَقَرَأَهَا يَقْرَأُ مُتَرَسِّلًا؛ إِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا تَسْبِيحٌ سَبَّحَ وَإِذَا مَرَّ بِسُؤَالٍ سَأَلَ وَإِذَا مَرَّ بِتَعَوُّذٍ تَعَوَّذَ، ثُمَّ رَكَعَ فَجَعَلَ يَقُولُ: (سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ)، فَكَانَ رُكُوعُهُ نَحْوًا مِنْ قِيَامِهِ، ثُمَّ قَالَ: (سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ)، ثُمَّ قَامَ طَوِيلًا قَرِيبًا مِمَّا رَكَعَ، ثُمَّ**

---

(١) رواه أبو داود (٨٧٣)، والنَّسائيُّ (١١٣٢)، وصحَّحه الألبانيُّ.

سَجَدَ، فَقَالَ: (سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلَى)، فَكَانَ سُجُودُهُ قَرِيبًا مِنْ قِيَامِهِ». رواه مسلم[(١)].

وفي هذا أنَّ هديه ﷺ في صلاته تعديل الأركان، وأن يكون ركوعه وقيامه وسجوده والقيام منه متقاربًا.

قوله: «سُبْحَانَ ذِي الجَبَرُوتِ والمَلَكُوتِ»، أي: تَنَزَّه وتقدَّس، و«الجبروت» و«الملكوت» فَعَلُوت من الجبر والملك، كالرَّحموت والرَّغَبوت والرَّهَبوت، فَعَلُوتٌ من الرَّحمة والرَّغبة والرَّهبة. والعرب تقول: (رهبوت خير من رحموت)، أي: أن تُرهب خيرٌ من أن تُرحم. فالجبروت والملكوت يتضمَّن من معاني أسماء الله وصفاته ما دلَّ عليه معنى الملك الجبَّار، قال الله تعالى في آخر سورة يس ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٨٣].

قوله: «والكبرياءِ والعظمة»، أي: وذي الكبرياء والعظمة، وهما وصفان متقاربان خاصَّان بالله لا يستحقُّهما أحدٌ سواه، كما ثبت في الحديث الصَّحيح عن النَّبِيِّ ﷺ: «قال الله عَزَّوَجَلَّ: الكبْرياءُ ردَائِي، والعظَمةُ إزاري، فمَن نازعَني واحدًا منهما قذَفْته في النَّار»، فجعل العظَمةَ بِمنْزلة الإزار، والكبرياء بمنْزلة الرِّداء، إشارةً إلى اختصاص الرَّبِّ سبحانه بهما، وتنْزيهه سبحانه عن الشَّريك في شيء من ذلك.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «إِذَا قَالَ الإِمَامُ «سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ»، فَقُولُوا: «اللَّهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ»؛ فَإِنَّهُ مَنْ وَافَقَ قَوْلُهُ قَوْلَ المَلَائِكَةِ؛ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»، وفي لفظ: «اللَّهُمَّ رَبَّنا وَلَكَ الْحَمْدُ». رواه

(١) رواه مسلم (٧٧٢).

البخاريُّ ومسلم[(١)].

وقد تقدَّم قول ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: أن لا يُهمل أمرَ هذه الواو في قوله: (**ربَّنا ولك الحمد**)؛ لأنها تجعل الكلامَ في تقدير جملتين قائمتين بأنفسهما.

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ، قَالَ: «**رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ مِلْءَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمِلْءَ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ، أَهْلَ الثَّنَاءِ وَالْمَجْدِ، أَحَقُّ مَا قَالَ الْعَبْدُ، وَكُلُّنَا لَكَ عَبْدٌ، اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ**». رواه مسلم[(٢)].

قوله: «**مِلْءَ السَّمَواتِ والأرْضِ، ومِلْء ما شِئْتَ مِن شيءٍ بَعْدُ**» هذا وصفٌ للحمد وقدره أنَّه يملأ السَّماوات، ويملأ الأرض، ويملأ ما بين السَّماء والأرض، ويملأ كذلك ما شاء الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى من شيء بعد؛ فيكون وصَف هذا الحمد بأنَّه يملأ الأشياء الموجودة، ويملأ الأشياء الَّتي لم توجد بعد.

قوله: «**أهل الثَّناء والمجد**»، أي: أنت يا الله أهلٌ أن يُثنَى عليك وتُمَجَّد لعظمة صفاتك وكمال نعوتك وتوالي نعمك وكثرة آلائك.

وقوله: «**أحقُّ ما قال العبد**»، أي: إنَّ هذا الثَّناء عليك والتَّمجيد هو أحقُّ شيء قاله العبد وتلفَّظ به، فقوله: «أحقُّ» خبرٌ لمبتدأ محذوف تقديره: هذا الثَّناء والتَّمجيد. وقد جاءت هذه الجملة تقريرًا لحمده وتمجيده والثَّناء عليه، ولبيان أنَّ ذلك أحقُّ شيء نَطق به العبدُ وأفضلُ أمر تكلَّم به.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ: «هذا لفظ الحديث «أحقُّ» أفعل

(١) رواه البخاريُّ (٧٩٦)، ومسلم (٤٠٩).
(٢) رواه مسلم (٤٧٧).

تفضيل، وقد غلط فيه طائفةٌ من المصنِّفين، فقالوا: (حقُّ ما قال العبد)، وهذا ليس لفظ الرَّسول، وليس هو بقول سديد؛ فإنَّ العبدَ يقول الحقَّ والباطل، بل الحقُّ ما يقوله الرَّبُّ، كما قال تعالى: ﴿فَٱلۡحَقُّ وَٱلۡحَقَّ أَقُولُ﴾ [ص: ٨٤]، ولكن لفظه «أحقُّ ما قال العبد» خبر مبتدأ محذوف، أي: الحمدُ أحقُّ ما قال العبد، أو هذا -وهو الحمد- أحقُّ ما قال العبد، ففيه بيَّن أنَّ الحمد أحقُّ ما قاله العبد، ولهذا أوجب قولَه في كلِّ صلاة، وأَنْ تُفْتَتَحَ به الفاتحة، وأوجب قولَه في كلِّ خطبة وفي كلِّ أمر ذي بال». اهـ[(١)].

وقوله: «**وكُلُّنا لك عبد**»، فيه اعتراف بالعبوديَّة، وأنَّ ذلك حكم لجميع النَّاس، فكلُّهم معبَّدون مُذَلَّلون لله سبحانه، هو ربُّهم وخالقُهم لا ربَّ لهم ولا خالقَ سواه.

قوله: «**لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ**»، فيه الاعتراف بتفرُّد الله تعالى بالعَطاء والمنع، والقبض والبسط، والخفض والرَّفع، لا شريك له في شيء من ذلك، فما يكتبه سبحانه لعبده من خير ونعمة أو بلاء ونقمة فلا رادَّ له ولا مانع لوقوعه، وما يَمنعه سبحانه عن عبده من الخير والنِّعمة أو البلاء والنِّقمة فلا سبيل لوقوعه، كما قال تعالى: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ﴾ [يونس: ١٠٧]، وكما قال سبحانه: ﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢]، فهو سبحانه المتفرِّدُ بالعطاء والمنع، وإذا أعطى سبحانه لَم يُطق أحد منعَ مَن أعطاه، وإذا مَنع لَم يُطق أحد إعطاء مَن منعه.

قوله: «**وَلَا يَنْفَعُ ذَا الجدِّ مِنْكَ الجدُّ**»، أي: لا ينفع عنده، ولا يُخلِّص من عذابه، ولا يُدني من كرامته جدود بني آدم، أي: حظوظهم من الملك والرِّئاسة

(١) انظر: الحسنة والسَّيِّئة (ص٧٧).

والغنى وطيب العيش وغير ذلك، وإنَّما ينفعهم عنده التَّقرُّب إليه بطاعته وإيثار مرضاته.

وَعَنْ رِفَاعَةَ بْنِ رَافِعٍ الزُّرَقِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كُنَّا يَوْمًا نُصَلِّي وَرَاءَ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرَّكْعَةِ، قَالَ: «**سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ**»، قَالَ رَجُلٌ وَرَاءَهُ: «**رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ، حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ**»، فَلَمَّا انْصَرَفَ قَالَ: «**مَنِ الْمُتَكَلِّمُ؟**» قَالَ: أَنَا، قَالَ: «**رَأَيْتُ بِضْعَةً وَثَلَاثِينَ مَلَكًا يَبْتَدِرُونَهَا، أَيُّهُمْ يَكْتُبُهَا أَوَّلُ**». رواه البخاريُّ[1].

قوله: «**حمدًا كثيرًا طيِّبًا مُباركًا فيه**»، أي: أحمده حمدًا، و«حمدًا» مفعول مطلق مؤكِّد لعامله. وقوله: «**كثيرًا طيِّبًا مباركًا فيه**» هذه صفات للحمد، أي: أحمدك حمدًا موصوفًا بالكثرة والطِّيب والبركة.

قوله: «**لقد رأيت بضعة وثلاثين ملكًا يبتدرونها**»، أي: يتسابقون إلى كتابتها في صحائف الحسنات.

(١) رواه البخاريُّ (٧٩٩).

٦٦
أدعية الرُّكوع والقيام منه والسُّجود والجلسة بين السَّجدتين (٣)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ؛ فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ**». رواه مسلم[(١)].

السُّجود هيئة ذُلٍّ وخضوع لله، بل هي أكملُ هيئات الذُّلِّ والخضوع؛ حيث إنَّ العبد يهوي إلى الأرض ويضع جبهته عليها ويُمكِّن وجهه منها، واضعًا يديه على الأرض، وركبتيه على الأرض، وأطراف قدميه على الأرض ساجدًا على هذه الأعضاء، فهي حال كمال في الذُّلِّ والخضوع والانكسار بين يدي الله جَلَّ وَعَلَا، وحال قربٍ من الله، ولهذا نُدب في هذه الحال إلى الإكثار من الدُّعاء، قال: «فأكثروا الدُّعاء».

وفي صحيح مسلم من حديث ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال ﷺ: «**وَأَمَّا السُّجُودُ فَاجْتَهِدُوا فِي الدُّعَاءِ فَقَمِنٌ أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ**»[(٢)].

فَفِي هذَيْن الحديثين خصَّ السُّجُود بِالْأَمر بِالدُّعَاءِ فِيهِ، وقوله: «**فَقَمِنٌ أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ**»، أي: حريٌّ، وجدير أن يستجاب لكم؛ وهذا فيه أنَّ لإجابة الدُّعاء أسبابًا، من أعظمها عندما يخرُّ العبد ساجدًا لله، فَقَمِنٌ أن يُستجاب له لشرف هذه الحال؛ حالِ الخضوع التَّامِّ والذُّلِّ الكامل بين يدي الله عَزَّوَجَلَّ.

(١) رواه مسلم (٤٨٢).
(٢) رواه مسلم (٤٧٩).

وقد ثبت عن النَّبيِّ ﷺ أنواعًا من الأدعية كان ﷺ يدعو بها في سجوده، سيأتي ذكر شيء منها.

وَعَنْ أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ فِي سُجُودِهِ: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي كُلَّهُ، دِقَّهُ وَجِلَّهُ، وَأَوَّلَهُ وَآخِرَهُ، وَعَلَانِيَتَهُ وَسِرَّهُ**». رواه مسلم(١).

هذه صيغة من صيغ الاستغفار العظيمة كان عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ يقولها في سجوده، يسأل ربَّه غفران الذُّنوب كلِّها؛ الدَّقيق منها والجليل، المتقدِّم منها والمتأخِّر، والسِّرِّ منها والمعلن.

وتأمَّل هذا التَّنويع «دقَّه وجلَّه»، «أوَّله وآخره»، «سرَّه وعلنه»؛ استحضارًا من العبد لأنواع الذُّنوب، وهذا أبلغ في الاستغفار.

قال ابن القيِّم: في كلامه على حديث عليٍّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ فيما كان يقوله النَّبيُّ ﷺ بين التَّشهُّد والتَّسليم: «اللَّهمَّ اغفر لي ما قدَّمت وما أخَّرت وما أسررت وما أعلنت وما أسرفت وما أنت أعلم به منِّي، أنت المقدِّم وأنت المؤخِّر لا إله إلَّا أنت» رواه مسلم، قال: «ومعلومٌ أنَّه لو قيل: «اغفر لي كلَّ ما صنعت» كان أوجز، ولكن لفظ الحديث في مقام الدُّعاء والتَّضرُّع وإظهار العبوديَّة والافتقار باستحضار الأنواع الَّتي يتوب العبدُ منها تفصيلًا أحسن وأبلغ من الإيجاز والاختصار، وكذلك قوله ﷺ في الحديث الآخر: «**اللَّهمَّ اغفر لي ذنبي كلَّه دقَّه وجلَّه، سرَّه وعلانيته، أوَّلَه وآخره**»، وفي الحديث: «**اللَّهمَّ اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري وما أنت أعلم به منِّي، اللَّهمَّ اغفر لي جدِّي وهَزلي وخطئي وعمدي وكلُّ ذلك عندي**»؛ وهذا كثيرٌ في الأدعية المأثورة؛ فإنَّ الدُّعاءَ عبوديَّةٌ لله وافتقارٌ إليه وتذلُّل بين يديه، فكلَّما كثَّره العبدُ وطوَّله وأعاده وأبداه ونوَّع جُملَه كان ذلك أبلغَ في عبوديَّته وإظهار فقره

(١) رواه مسلم (٤٨٣).

وتذلُّلِه وحاجته، وكان ذلك أقربَ له من ربِّه وأعظمَ لثوابه، وهذا بخلاف المخلوق! فإنَّك كلَّما كثَّرت سؤاله وكرَّرت حوائجك إليه أبرمته وثقَّلت عليه وهِنتَ عليه، وكلَّما تركت سؤاله كان أعظمَ عنده وأحبَّ إليه، والله سبحانه كلَّما سألته كنتَ أقربَ إليه وأحبَّ إليه، وكلَّما أَلْححتَ عليه في الدُّعاء أحبَّكَ، ومَن لَم يسأل الله يغضب عليه.

فالله يغضب إن تركتَ سؤاله وبُنَيُّ آدم حين يُسأل يغضب»[(١)].

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فهذا التَّعميم وهذا الشُّمولُ؛ لتأتي التَّوبةُ على ما علمَه العبدُ مِن ذنوبِه وما لَم يعلمه»[(٢)].

ولا ريبَ أنَّ هذا من النُّصحِ في التَّوبة المأمورِ به في قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ [التَّحريم: ٨]، وقد بيَّن ابن القيِّم: **أنَّ النّصحَ في التَّوبةِ يتضمَّن ثلاثةَ أشياء:**

الأوَّل: تعميمُ جميع الذُّنوب واستغراقُها بها، بحيث لا تَدَعُ ذنبًا إلَّا تناولَتْه.

والثَّاني: إجماع العزم والصِّدق بكلِّيَّته عليها، بحيث لا يبقى عنده تردُّدٌ ولا تلوُّمٌ ولا انتظارٌ، بل يجمع عليها كلَّ إرادته وعزيمتِه مبادرًا بها.

الثَّالث: تخليصُها من الشَّوائب والعلل القادحة في إخلاصِها، ووقوعُها لمحضِ الخوفِ من الله وخشيتِه والرَّغبة فيما لديه والرَّهبة ممَّا عنده، لا كمَن يتوب لحِفظ جاهه وحُرمتِه ومنصِبه ورئاستِه، ولحفظ حاله، أو لحفظ قوَّته وماله، أو استدعاء حمدِ النَّاس، أو الهربِ من ذمِّهم، أو لئلَّا يتسلَّط عليه

(١) انظر: جلاء الأفهام (ص٢٩٨).
(٢) انظر: مدارج السَّالكين (١/ ٢٨٣).

السُّفهاء، أو لقضاء نهمته من الدُّنيا، أو لإفلاسِه وعجزه، ونحوِ ذلك من العلل الَّتي تقدح في صحَّتها وخلوصِها لله عَزَّوَجَلَّ؛ فالأوَّل: يتعلَّق بما يتوب منه، والثَّالث: يتعلَّق بمَن يتوب إليه، والأوسطُ: يتعلَّق بذات التَّائبِ ونفسِه، وبهذه الأمورِ الثَّلاثة يكون العبدُ قد أتى بأكمل ما يكون من التَّوبةِ، والتَّوفيق بيد الله وحده[(١)].

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنهَا قَالَتْ: فَقَدْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَيْلَةً مِنَ الْفِرَاشِ، فَالْتَمَسْتُهُ فَوَقَعَتْ يَدِي عَلَى بَطْنِ قَدَمَيْهِ وَهُوَ فِي الْمَسْجِدِ، وَهُمَا مَنْصُوبَتَانِ، وَهُوَ يَقُولُ: «**اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ، لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ**». رواه مسلم[(٢)].

بطن القدم: هو الَّذي يلي الأرض، وظاهر القدم: هو الجزء الأعلى الَّذي يُشرع المسح عليه.

وقد دلَّ هذا الحديثُ العظيمُ على أنَّه لا مَفَرَّ إلَّا إلى الله، ولا مَلجَأَ منه إلَّا إليه، فأزمَّةُ الأمور كلُّها بيده، ونواصي العباد معقودةٌ بقضائه وقدَره، الأمرُ كلُّه له، والحمدُ كلُّه له، والملك كلُّه له، والخيرُ كلُّه في يديه، فمنه تعالى المنْجَا وإليه المَلْجَأ، وبها الاستعاذة من شرِّ ما هو كائن بمشيئته وقدرته، فالإعاذة فعله والمستعاذ منه فعله أو مفعوله الَّذي خلقه بمشيئته، وهذا كلُّه تحقيقٌ للتَّوحيد والقدر، وأنَّه لا ربَّ غيره، ولا خالق سواه، ولا يملك المخلوق لنفسه ولا لغيره ضرًّا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا، بل الأمر كلُّه لله، ليس لأحد سواه منه شيء.

وقوله في ختام هذا الدُّعاء: «**لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى**

(١) انظر: مدارج السَّالكين (١/ ٣١٧).
(٢) رواه مسلم (٤٨٦).

نَفْسِكَ»، فيه الاعتراف بأنَّ شأنَ الله سبحانه وعظمتَه وكمالَ أسمائه وصفاته أعظمُ وأجَلُّ من أن يُحصيها أحدٌ من الخلق، أو يبلغ أحد حقيقةَ الثَّناء عليه غيره سبحانه.

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَالِلَّهُعَنْهُمَا قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ بَيْنَ السَّجْدَتَيْنِ: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي وَارْحَمْنِي وَعَافِنِي وَاهْدِنِي وَارْزُقْنِي**». رواه أبو داود والتِّرمذيُّ، ولفظ التِّرمذيِّ: «وَاجْبُرْنِي» بدل قوله: «وَعَافِنِي»[(١)].

فهذه ستَّة أمورٍ تُطلب في الجلسة بين السَّجدتين، قد أحاطت بالخير كلِّه وجمعته كلَّه.

قوله: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي**»، هذا فيه طلب مغفرة الذُّنوب بسترها والتَّجاوز عنها.

قوله: «**وارحمني**»، هذا سؤالٌ لرحمة الله تَبَارَكَوَتَعَالَى الَّتي من آثارها نيل ثواب الله ودخول الجنَّة والبعد عن غضبه وعقابه سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

قوله: «**واهدني**»، يتناول الهداية إلى كلِّ خير؛ الهداية إلى الصِّراط المستقيم، والثَّبات على الحقِّ، والفوز بالجنَّة، والنَّجاة من النَّار.

قوله: «**واجبرني**»، بسدِّ النَّقص والحاجة والفقر والضَّعف ونحو ذلك.

قوله: «**وعافني**»، بالوقاية من الشُّرور والآفات والمعاصي والآثام.

قوله: «**وارزقني**»، يشمل الرِّزق الدُّنيويَّ الَّذي هو الطَّعام والشَّراب واللِّباس والمسكن والملبس والمركب، والرِّزق الدِّينيَّ الَّذي هو الإيمان والطَّاعة والعبادة.

---

(١) رواه أبو داود (٨٥٠)، والتِّرمذيُّ (٢٨٤)، وصحَّحه الألبانيُّ.

فهذه أمورٌ ستَّة تُطلب في القعدة بين السَّجدتين، وهي محيطة وجامعة ومستوعبة للخير كلِّه، فسؤالُ المغفرة فيه الوقاية من شَرِّ الذُّنوب، وسؤالُ الرَّحمة فيه تَحصيلُ الخير والبِرِّ والإحسان، وسؤال الله أن يَجْبُرَه فيه سدُّ حاجته وجَبْرُ كسره، وأن يردَّ عليه ما ذهب من الخير وأن يعوِّضه، وسؤال العافية فيه السَّلامة من الآفات والفتن والنَّجاة من البلايا والمحن، وسؤال الهداية فيه التَّوصل إلى أبواب السَّعادة والفلاح في الدُّنيا والآخرة، وسؤال الرِّزق فيه نيل ما به قوام البدن من الطَّعام والشَّراب، وما به قوام الرُّوح من العلم والإيمان.

فجاء هذا الدُّعاء العظيم المشروع في هذه الجلسة جامعًا لأصول السَّعادة محيطًا بأبواب الخير، مشتملًا على سُبُل الفلاح في الدُّنيا والآخرة، فما أعظمَه من دعاء، وما أحسنَ إحاطته وجمعه.

وَعَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ كانَ يَقُولُ بَيْنَ السَّجْدَتَيْنِ: «**رَبِّ اغْفِرْ لِي، رَبِّ اغْفِرْ لِي**». رواه ابن ماجه[(١)].

قوله: «**ربِّ اغفر لي، ربِّ اغفر لي**» ليس المراد أن يقولها مرَّتين فقط، وإنَّما هذا إشارة إلى التَّكرار والإكثار من طلب المغفرة في هذا الجلوس بين السَّجدتين.

(١) رواه ابن ماجه (٨٩٧)، وصحَّحه الألبانيُّ.

٦٧

ذكر التَّشهد والصَّلاة على النَّبيِّ ﷺ

لقد ثبت عن النَّبيِّ ﷺ في التَّشهُّد أحاديثُ عديدة فيها صيَغٌ متقاربة للتَّشهُّد، كلُّها جائزةٌ مشروعة.

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنَّا إِذَا صَلَّيْنَا خَلْفَ النَّبِيِّ ﷺ قُلْنَا: «**السَّلَامُ عَلَى جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ، السَّلَامُ عَلَى فُلَانٍ وَفُلَانٍ**»، فَالْتَفَتَ إِلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «**إِنَّ اللهَ هُوَ السَّلَامُ، فَإِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ فَلْيَقُلْ**: «**التَّحِيَّاتُ للهِ، وَالصَّلَوَاتُ وَالطَّيِّبَاتُ، السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ، السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللهِ الصَّالِحِينَ**»، فَإِنَّكُمْ إِذَا قُلْتُمُوهَا أَصَابَتْ كُلَّ عَبْدٍ لِلهِ صَالِحٍ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، «**أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ**». رواه البخاريُّ ومسلم(١).

وعن عبد الله بن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّه قال: كان رسول الله ﷺ يُعَلِّمُنَا التَّشَهُّدَ كَمَا يُعَلِّمُنَا السُّورَةَ مِنَ الْقُرْآنِ، فَكَانَ يَقُولُ: «**التَّحِيَّاتُ الْمُبَارَكَاتُ الصَّلَوَاتُ الطَّيِّبَاتُ لِلَّهِ، السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ، السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللهِ الصَّالِحِينَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ**». رواه مسلم(٢).

وعن أبي موسى الأشعريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبيَّ ﷺ علَّمهم التَّشهُّد: «**التَّحِيَّاتُ**

(١) رواه البخاريُّ (٨٣١)، ومسلم (٤٠٢).

(٢) رواه مسلم (٤٠٣).

الطَّيِّبَاتُ الصَّلَوَاتُ لِلَّهِ، السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ، السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللهِ الصَّالِحِينَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ». رواه مسلم(١).

وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله ﷺ في التَّشهُّد: «التَّحِيَّاتُ لِلَّهِ الصَّلَوَاتُ الطَّيِّبَاتُ، السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ». رواه أبو داود(٢).

وعن عبد الرَّحمن بن عبدٍ القاريِّ أَنَّهُ سَمِعَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ يُعَلِّمُ النَّاسَ التَّشَهُّدَ، يَقُولُ: «قُولُوا التَّحِيَّاتُ لِلَّهِ الزَّاكِيَاتُ لِلَّهِ الطَّيِّبَاتُ، الصَّلَوَاتُ لِلَّهِ، السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ، السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللهِ الصَّالِحِينَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ». رواه مالك في الموطَّأ(٣).

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فأيُّ تشهُّد أُتي به من هذه التَّشهُّدات أجزأه. وذهب الإمام أحمد وأبو حنيفة إلى تشهُّد ابن مسعود، وذهب الشَّافعيُّ إلى تشهُّد ابن عبَّاس، وذهب مالك إلى تشهُّد عمر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والكلُّ كافٍ مُجزئٌ». اهـ كلامه رَحِمَهُ اللَّهُ(٤).

وأكملُ هذه الصِّيغ الصِّيغةُ الواردة في حديث ابن مسعود، فهي أكملُ من الصِّيغة الواردة في حديث ابن عبَّاس وغيره من الأحاديث الواردة في هذا الباب؛ وذلك كما يقول ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «لأنَّ تشهُّد ابن مسعود يتضمَّن

(١) رواه مسلم (٤٠٤).
(٢) رواه أبو داود (٩٧١)، وصحَّحه الألبانِيُّ.
(٣) رواه مالك في الموطَّأ (١٤٦)، والبيهقيُّ في السُّنن الكبرى (٢٨٣٨)، والحاكم في مستدركه (٩٧٩)، وصحَّحه الألبانِيُّ في أصل صفة الصَّلاة (٣/ ٩٠١).
(٤) انظر: الوابل الصَّيِّب (ص١١٠).

جُملًا متغايرة، وتشهُّد ابن عبَّاس جملةٌ واحدة»[١]، فتكون كلُّ جملة في حديث ابن مسعود ثناءً مستقلًّا لوجود الواو في قوله: «التَّحيَّات لله والصَّلوات والطَّيِّبات»، بخلاف ما إذا حذفت فإنَّها تكون صفة لما قبلها، فتعدُّد الثَّناء في حديث ابن مسعود صريحٌ، فهو أولى وأكمل.

ثمَّ إنَّه هو المشهور بين كثير من أهل العلم، ومن حيث الإسناد هو أصحُّ ما ورد في هذا الباب، ولهذا يقول التِّرمذيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «حديث ابن مسعود قد رُوي عنه من غير وجه، وهو أصحُّ حديث رُوي عن النَّبِيِّ ﷺ في التَّشهُّد، والعمل عليه عند أكثر أهل العلم من أصحاب النَّبِيِّ ﷺ ومَن بعدهم من التَّابعين»[٢].

وعلى كلٍّ فإنَّ العمل به أو بغيره من التَّشهُّدات الواردة كلُّ ذلك جائز وسائغ.

قوله: «**التَّحيَّات**» جمع تحيَّة، والمراد التَّعظيمات بكافَّة صِيَغها وجميع هيئاتها من ركوع وسجود وذلٍّ وخضوع وخشوع وانكسار، كلُّ ذلك لله وحده لا شريك له، وهي له سبحانه ملكًا واستحقاقًا.

وقوله: «**والصَّلوات**»، قيل: المراد به الصَّلاة الشَّرعيَّة ذات الرُّكوع والسُّجود، وقيل: المراد الدُّعاء؛ فإنَّ معنى الصَّلاة لغة الدُّعاء، وكلُّ ذلك لله، فالصَّلاة كلُّها لله فلا يُصرف شيء منها لغيره، والدُّعاء كلُّه لله فلا يُصرف شيء منه لأحد سواه.

وقوله: «**والطَّيِّبات**» جمع طيِّبة، والمراد: الأقوال الطَّيِّبات والأعمال الطَّيِّبات كلُّها لله، يُتقرَّب بها إليه، ولا يُتقرَّب بشيء منها لأحد سواه، فهو سبحانه يُتَقَرَّبُ إليه بكلِّ طيِّبٍ من قول أو فعل.

(١) انظر: الصَّلاة وأحكام تاركها (ص١٦٨).
(٢) انظر: سنن التِّرمذيِّ تحت حديث رقم (٢٨٩).

وقوله: «**السَّلام عليك أيُّها النَّبِيُّ ورحمة الله وبركاته**»، هذا دعاءٌ للنَّبِيِّ ﷺ بالسَّلام والرَّحمة والبركة، والَّذي يُدعى له لا يُدعى مع الله.

وقوله: «**السَّلام علينا وعلى عباد الله الصَّالحين**»، فيه دعاءٌ للنَّفس ولعموم المؤمنين بالسَّلامة من كلِّ آفة وعيب ونقص وسوء، وهو مِن جوامع كَلِمِ النَّبِيِّ ﷺ.

قال بعض أهل العلم: «عَلَّمَهم أن يُفردوه ﷺ بالذِّكر؛ لشَرَفِه ومزيد حقِّه عليهم، ثمَّ علَّمهم أن يُخَصِّصوا أنفسَهم أوَّلًا؛ لأنَّ الاهتمامَ بها أهمُّ، ثمَّ أمرَهم بتعميم السَّلام على الصَّالحين إعلامًا منه بأنَّ الدُّعاء للمؤمنين ينبغي أن يكون شاملًا لهم»(١).

وقوله: «**أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ**»، فيه الشَّهادة لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى بالوحدانيَّة، ولنبيِّه ﷺ بالعبوديَّة والرِّسالة، فهو صلوات الله وسلامه عليه عَبدٌ لا يُعبد؛ بل رسول يُطَاع ويُتَّبع.

أمَّا كيفيَّة الصَّلاة على النَّبيِّ ﷺ فقد بيَّنها رسول الله ﷺ لأصحابه حين سألوه عن ذلك، وقد وردت هذه الكيفيَّة من طرق كثيرة عن جماعة من الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

عَنْ عبدِ الرَّحْمَنِ بْنَ أَبِي لَيْلَى قَالَ: لَقِيَنِي كَعْبُ بْنُ عُجْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ: أَلَا أُهْدِي لَكَ هَدِيَّةً سَمِعْتُهَا مِنَ النَّبِيِّ ﷺ؟ فَقُلْتُ: بَلَى، فَأَهْدِهَا لِي، فَقَالَ: سَأَلْنَا رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ كَيْفَ الصَّلَاةُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ؟ فَإِنَّ اللهَ قَدْ عَلَّمَنَا كَيْفَ نُسَلِّمُ عَلَيْكُمْ، قَالَ: «قُولُوا: **اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، اللَّهُمَّ**

(١) قاله البيضاويُّ كما في فتح الباري (٢/ ٣١٣).

بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ». رواه البخاريُّ ومسلم[١].

وَعَنْ أبي حُمَيْدٍ السَّاعِدِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُمْ قَالُوا: يَا رَسُولَ الله كَيْفَ نُصَلِّي عَلَيْكَ؟ فقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «قُولُوا: **اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ**». رواه البخاريُّ ومسلم[٢].

وعن أبي مسعود الأنصاريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: أَتَانَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَنَحْنُ فِي مَجْلِسِ سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ، فَقَالَ لَهُ بَشِيرُ بْنُ سَعْدٍ: أَمَرَنَا اللهُ تَعَالَى أَنْ نُصَلِّيَ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ فَكَيْفَ نُصَلِّي عَلَيْكَ؟ قَالَ فَسَكَتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى تَمَنَّيْنَا أَنَّهُ لَمْ يَسْأَلْهُ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**قُولُوا اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ فِي الْعَالَمِينَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ. وَالسَّلَامُ كَمَا قَدْ عَلِمْتُمْ**». رواه مسلم[٣].

وهذه الكيفيَّة الَّتي علَّم ﷺ أصحابه إيَّاها عندما سألوه عن كيفيَّة الصَّلاة عليه ﷺ هي أفضل كيفيَّات الصَّلاة عليه ﷺ. وأكملها الصِّيغة الَّتي فيها الجمع بين الصَّلاة على النَّبيِّ ﷺ وآله، والصَّلاة على إبراهيم ﷺ وآله.

قال الحافظ ابن حجر: «واستُدِلَّ بتعليمه ﷺ لأصحابه الكيفيَّة بعد سؤالهم عنها بأنَّها أفضل كيفيَّات الصَّلاة عليه؛ لأنَّه لا يختار لنفسه إلَّا الأشرف الأفضل، ويترتَّب على ذلك: لو حلف أن يُصلِّي عليه أفضل الصَّلاة،

(١) رواه البخاريُّ (٣٣٧٠)، ومسلم (٤٠٦).
(٢) رواه البخاريُّ (٣٣٦٩)، ومسلم (٤٠٧).
(٣) رواه مسلم (٤٠٥).

فطريق البِرِّ أن يأتي بذلك»[(١)].

والصَّلاة على النَّبِيِّ ﷺ هي من الله: ثناؤُه عليه في الملأ الأعلى وتعظيمه، وصلاة الملائكة والمؤمنين عليه: هي طلب ذلك له ﷺ من الله، والمراد طلب الزِّيادة لا طلب أصل الصَّلاة.

وقد حكى البخاريُّ في صحيحه عن أبي العالية: أنَّه قال في معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦] قال: «صلاة الله: ثناؤه عليه عند الملائكة، وصلاة الملائكة: الدُّعاء»[(٢)].

وقول كعب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «**ألا أُهدي لك هديَّةً سمعتُها من النَّبيِّ ﷺ**»، فيه عِظَمُ عناية السَّلف رَحِمَهُمُٱللَّهُ بسُنَّة النَّبِيِّ ﷺ وشدَّة فرَحِهم بها، بل كانوا يعدُّونها من نفائس الأمور وثَمين الأشياء، وهي عندهم تُعدُّ هديَّةً ثمينة يَفرحون بها ويُسَرُّون بسماعها ويَهْنَأون بتهاديها.

ومعنى قوله: «**اللَّهمَّ بارك على محمَّدٍ وعلى آل محمَّد**»، البركة: النَّماء والزِّيادة، والتَّبريك الدُّعاء بذلك، يقول: باركه الله، وبارك فيه، وبارك عليه، وبارك له؛ فهو دعاءٌ يتضمَّن إعطاءَه ﷺ من الخير وإدامته له، ومضاعفته له وزيادته.

---

(١) انظر: فتح الباري (١١/ ١٦٦).
(٢) رواه البخاريُّ (٦/ ١٢٠).

٦٨

الأدعية في الصَّلاة وبعد التَّشهُّد (١)

عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنهُ قال قال رسول الله ﷺ: «**إِذَا تَشَهَّدَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ مِنْ أَرْبَعٍ، يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ، وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ**». رواه مسلم[(١)].

وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنهَا: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَدْعُو فِي الصَّلَاةِ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَفِتْنَةِ الْمَمَاتِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْمَأْثَمِ وَالْمَغْرَمِ**»، فَقَالَ لَهُ قَائِلٌ: «**مَا أَكْثَرَ مَا تَسْتَعِيذُ مِنَ الْمَغْرَمِ!**»، فَقَالَ: «**إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا غَرِمَ حَدَّثَ فَكَذَبَ، وَوَعَدَ فَأَخْلَفَ**». رواه البخاريُّ ومسلم[(٢)].

الحديث الأوَّل فيه الأمر بالتَّعوُّذ في الصَّلاة من هذه الأشياء، والحديث الثَّاني فيه فعْل النَّبيِّ ﷺ لذلك، فاجتمع في هذا السُّنَّة القوليَّة، والسُّنَّة الفعليَّة.

قوله: «**يدعو في صلاته**»، أي: في آخر الصَّلاة بعد التَّشهُّد كما يبيِّن ذلك الحديث الَّذي قبله.

قوله: «**من عذاب جهنَّم**»، قدَّم التَّعوُّذ من عذاب جهنَّم؛ لأنَّه الغايةُ الَّتي لا أعظم في الهلاك منها، وجهنَّم: اسم للنَّار الَّتي أعدَّها الله للكفَّار يوم القيامة.

---

(١) رواه مسلم (٥٨٨).

(٢) رواه البخاريُّ (٨٣٢)، ومسلم (٥٨٩).

قوله: «**ومن عذاب القبر**»، فيه أنَّ عذاب القبر حقٌّ، وأنَّ المسلم ينبغي عليه أن يتعوَّذ بالله منه.

قوله: «**ومن فتنة المحيا والممات**»، أي: الحياة والموت، والمراد التَّعوُّذ من جميع فتن الدَّارين؛ في الحياة من كلِّ ما يَضُرُّ بدين الإنسان أو بدنه أو دنياه، وفي الموت من شدائده وما يكون بعده من أهوال.

قوله: «**ومن فتنة المسيح الدَّجَّال**»، المسيح الدَّجَّال هو منبع من منابع الكفر والضَّلال، ومصدر من مصادر الفتن والأوجال، يكون خروجه على النَّاس آخر الزَّمان، وهو شرط من أشراط السَّاعة، سُمِّي مسيحًا؛ لأنَّ إحدى عينيه مَمسوحة، فهو أعور عينه اليمنى، وسُمِّيَ دجَّالًا من الدَّجل وهو الكذب، وفتنة خروجه من أعظم الفتن، وما من نَبِيٍّ بعثه الله إلَّا حذَّر منه قومه وأنذر.

قوله: «**اللَّهمَّ إنِّي أعوذ بك من المأثم والمغرم**»، المأثم: هو الأمر الَّذي يأثم به الإنسان من جميع المعاصي والذُّنوب، والمغرَم: ما يلزم الإنسان أداؤه بسبب جناية أو معاملة أو نحو ذلك، فالمأثم إشارة إلى حقِّ الله، والمغرم: إشارةٌ إلى حقوق العباد.

قوله: «**فقال قائل: ما أكثر ما تستعيذ من المغرم؟**»، وفي رواية للنَّسائيِّ أنَّ السَّائل عن ذلك عائشة، ولفظها: «قلت: يا رسول الله! ما أكثر ما تستعيذ من المغرم»[(١)]، وهو سؤال عن الحكمة من كثرة استعاذته من المغرم.

فقال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الرَّجل إذا غرم حدَّث فكذب ووعد فأخلف**»، أي: صار عليه ديون تحمَّلها فكان بذلك من الغارمين، والغارم: هو المتحمِّل لحقوق النَّاس، فشُرع له أن يستعيذ من المغرم؛ لأنَّه عندما يكون كذلك

(١) رواه النَّسائيُّ (٥٤٥٤)، وصحَّحه الألبانيُّ.

يحدِّث فيكذب ويعِد فيخلف، إذا أتاه الدَّائنون يطالبونه بالسَّداد؛ فإنَّه يضطرُّ لأنْ يكذب عليهم وأن يعدهم فيخلف.

﴿ **ويستفاد من الحديث:** أنَّ المرء لا ينبغي له أن يُحمِّل نفسه ديونًا، وهذا أمر تهاون فيه كثير من النَّاس، وربَّما يستدين البعض أموالًا كثيرة في أمور هي من الكماليَّات، ويُرهق نفسه في ديون ربَّما يعيش وقتًا طويلًا لا يسدِّدها. والدَّيْن أمره عظيم وشأنه خطير ولا يليق بالمسلم أن يتهاون به، فعن عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَا تُخِيفُوا أَنْفُسَكُمْ بَعْدَ أَمْنِهَا**»، قَالُوا: «**وَمَا ذَاكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟**»، قَالَ: «**الدَّيْنُ**». رواه أحمد(١).

وَعَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: عَلِّمْنِي دُعَاءً أَدْعُو بِهِ فِي صَلَاتِي؟ قَالَ: «قُلْ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ وَارْحَمْنِي، إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**». رواه البخاريُّ ومسلم(٢).

جمع هذا الدُّعاء الشَّريف العظيم القدر بين التَّوسُّل إلى الله بالاعتراف بحال العبد وظلمه لنفسه، والتَّوسُّل إليه عَزَّوَجَلَّ بفضله وجوده وأنَّه المنفرد بغفران الذُّنوب، ثمَّ سؤال حاجته بعد التَّوسُّل بهذين الأمرين.

قال ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ: «فهذا فيه وصف العبد لحال نفسه المقتضي حاجته إلى المغفرة، وفيه وصف ربِّه الَّذي يوجب أنَّه لا يقدر على هذا المطلوب غيره، وفيه التَّصريح بسؤال العبد لمطلوبه، وفيه بيان المقتضي للإجابة وهو وصف الرَّبِّ بالمغفرة والرَّحمة؛ فهذا ونحوه أكمل أنواع الطَّلب»(٣).

---

(١) رواه أحمد (١٧٣٢٠)، وصحَّحه الألبانيُّ في السِّلسلة الصَّحيحة (٢٤٢٠)، وفي صحيح التَّرغيب والتَّرهيب (١٧٩٧).

(٢) رواه البخاريُّ (٨٣٤)، ومسلم (٢٧٠٥).

(٣) انظر: مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٤٧)، والفتاوى الكبرى (٥/ ٢٢٥).

ولنتأمَّل هنا صدِّيق الأمَّة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه، وهو خير أمَّة محمَّد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وعالِمها وفقيهها، يأتي إلى النَّبيِّ ﷺ، ويقول: «**يَا رَسُولَ اللهِ! عَلِّمْنِي دُعَاءً أَدْعُو اللهَ بِهِ فِي صَلَاتِي**» فهذا فيه لفت إلى أهميَّة الدُّعاء المأثور، وعِظم مكانته في قلوب الصَّحابة.

أليس أبو بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لديه القدرة على أن يُنشئ دعاءً يدعو الله به في صلاته صحيحَ المعنى، كامل المبنى، قويم الدَّلالة، يطلب فيه من خيري الدُّنيا والآخرة؟! بلى، لكن مع هذا لم يفعل، بل أتى النَّبيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وطلب منه أن يعلِّمه، فشتَّان بين هذا وبين مَن أنشأوا دعوات متكلَّفة وأدعية مخترعة انشغلوا بها وهجروا بسببها المأثور.

قوله: «**عَلِّمْنِي دُعَاءً أَدْعُو بِهِ فِي صَلَاتِي**»، هذا يفيد أنَّ هذا الدُّعاء يُستحبُّ أن يُدعى به في الصَّلاة، قيل في السُّجود؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ أمر بالإكثار من الدُّعاء في السُّجود، وقال: «**إِنَّه قَمِنٌ أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ**»، وقيل: في نهاية التَّشهُّد قبل السَّلام؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**ثُمَّ لْيَتَخَيَّرْ مِنَ الدُّعَاءِ مَا شَاءَ**»، والأمر في ذلك واسع، سواء أتى به في سجوده، أو أتى به قبل السَّلام.

وفي رواية عند مسلم قال: «**أَدْعُو بِهِ فِي صَلَاتِي وَفِي بَيْتِي**»(١)، وهذه الزِّيادة وهي ثابتة تفيد أنَّ هذا الدُّعاء كما أنَّه من الدَّعوات المقيَّدة بالصَّلاة، فهو أيضًا من الدَّعوات المُطلقة الَّتي يدعو بها المسلم متى شاء.

قوله: «**قُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ، وَارْحَمْنِي، إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**»، هذه دعوة عظيمة علَّمها النَّبيُّ ﷺ صدِّيق الأمَّة أن يقولها في صلاته وفي بيته، وقد علَّم الله آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يدعو بهذا؛ ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا

(١) رواه مسلم (٢٧٠٥).

﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، وقال موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي﴾ [القصص: ١٦]، وقال يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، وكان النَّبيُّ ﷺ إذا استوى على الدَّابَّة فحمد الله وسبَّح وكبَّر، قال: «**لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ ظَلَمْتُ نَفْسِي؛ فَاغْفِرْ لِي**»، وفي صحيح مسلم وغيره أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان يقول في استفتاحه: «**اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي وَأَنَا عَبْدُكَ ظَلَمْتُ نَفْسِي وَاعْتَرَفْتُ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي ذُنُوبِي جَمِيعًا إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ**»(١).

فهذا وسيلة مباركة لنيل مغفرة الله، ولهذا بدأ به هنا، قال: «**قُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا**»، فجعل اعترافه بظلمه لنفسه وتقصيره وسيلة له عند الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بأن يغفر له ذنبه.

قوله: «**وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ**»، هذا نظير قول الله سبحانه: ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يغفر الذُّنوب ويعفو عن السَّيِّئات مهما عظمت، قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ﴾ [الزُّمر: ٥٣]، لا يتعاظمه سبحانه ذنبٌ أن يغفره.

وهذا يُكسب العبد قوَّة رجاء بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وحُسن صلةٍ به، وقوَّة إنابةٍ إليه، وقوَّة طمعٍ في مغفرته ورحمته؛ لأنَّ هذا الإقرار بأنَّه لا يغفر الذُّنوب إلَّا الله، وأنَّ الذُّنوب مهما عظمت ومهما كبرت يغفرها سبحانه، ولا يغفرها إلَّا الله الَّذي بيده الغفران والصَّفح والعفو، وليس بيد أحدٍ سواه.

قوله: «**فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ**»، هذا طلب المغفرة، وهو طلبُ الصَّفح والعفو والسَّتر عن الذَّنب والخطيئة والزَّلَّة.

(١) رواه مسلم (٧٧١).

وقوله: «**مِنْ عِنْدِكَ**»، أي: مغفرةً تمنُّ بها عليَّ وتتفضَّل بها عليَّ، فأنا مقصِّرٌ كثير الذُّنوب كثير الخطايا، فأسألك يا الله أن تمنَّ عليَّ تفضُّلًا وتكرُّمًا بمغفرة من عندك.

قوله: «**وَارْحَمْنِي**»، هذا طلب الرَّحمة، فجمع بين طلب المغفرة وطلب الرَّحمة، وإذا اجتمعتا تكون المغفرة متعلِّقةً بما مضى من أعمال العبد من تقصير وزلَّة، وذنب وخطيئة يطلب غفرانها، وتكون الرَّحمة متعلِّقةً بما يأتي، بمعنى: أدخلني برحمتك في عبادك الصَّالحين؛ بأن أُسدَّد وأوفَّق، ويكون حليفي في مستقبلي الصَّلاح والاستقامة والبعد عن الذُّنوب والخطايا. فتعلَّق قوله: «**فَاغْفِرْ لِي وَارْحَمْنِي**» بماضي العبد ومستقبله، ما مضى من أيَّامي وأوقاتي وأعمالي أطلب منك يا الله أن تغفره لي، وما أستقبل من حياتي أسألك أن تُدخلني برحمتك في عبادك الصَّالحين؛ فيكون السَّداد، والتَّوفيق، والصَّلاح، والاستقامة، والمعافاة، حليفي فيما استقبل من أيَّام حياتي.

ثمَّ ختم هذا الدُّعاء بالتَّوسُّل إلى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى بهذين الاسمين العظيمين: «**الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**».

٦٩

الأدعية في الصَّلاة وبعد التَّشهُّد (٢)

عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في حديثٍ طَوِيل: **أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ مِنْ آخِرِ مَا يَقُولُ بَيْنَ التَّشَهُّدِ وَالتَّسْلِيم: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، وَمَا أَسْرَفْتُ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ»**. رواه مسلم[(١)].

هذه صيغة عظيمة في الاستغفار تتناول ذنوب العبد كلَّها المتقدِّمَ منها والمتأخِّر، وما وقع منها سرًّا وما وقع علانية.

قوله: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ**»، أي: قبل هذا الوقت من الذُّنوب.

«**وَمَا أَخَّرْتُ**»، أي: عنه.

«**وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ**»، أي: ما كان منها مستورًا لا يطَّلع عليه إلَّا الله، وما كان علانية يطَّلع عليه النَّاس.

«**وَمَا أَسْرَفْتُ**»، أي: ما تجاوزت فيه الحدَّ.

«**وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي**»، العبد يذنب وينسى ذنوبه، ويعصي وينسى معاصيه، وكلُّ ذلك محفوظ عليه، ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ أَحْصَىٰهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المجادلة: ٦].

«**أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ**»، هذا فيه أنَّ تقدُّم الإنسان إلى الخير من

---

(١) رواه مسلم (٧٧١).

الإيمان والعافية والنِّعمة لا يكون إلَّا من الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، كذلك تأخُّره عن الخير ونيل مغفرة الله عَزَّوَجَلَّ ورحمته ونعمته لا يكون إلَّا من الله؛ فأزمَّة العباد بيده، وأمورهم معقودة بقضائه وقدره، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

قوله: «**لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ**»، هذا إعلان بالتَّوحيد في تمام هذا الاستغفار، والتَّوحيد من موجبات المغفرة، بل هو أعظم موجبات المغفرة كما في الحديث القدسيِّ: «**يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا، ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً**»(١)، وكثيرًا ما يأتي إعلان التَّوحيد في الأدعية والاستغفارات المأثورة عن النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وَعَنْ أَبِي صَالِحٍ عَنْ بَعْضِ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِرَجُلٍ: «**كَيْفَ تَقُولُ فِي الصَّلَاةِ؟**». قَالَ: «**أَتَشَهَّدُ وَأَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْجَنَّةَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ، أَمَا إِنِّي لَا أُحْسِنُ دَنْدَنَتَكَ وَلَا دَنْدَنَةَ مُعَاذٍ**»، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**حَوْلَهَا نُدَنْدِنُ**». رواه أبو داود وابن ماجه(٢).

قوله: «**كَيْفَ تَقُولُ فِي الصَّلَاةِ؟**» أي: ما الدُّعاء الَّذي تدعو به في صلاتك؟

قال الرَّجل: «**أتشهَّد**»، أي: آتي بالتَّشهُّد الَّذي يكون في آخر الصَّلاة، «**وَأَقُولُ** -أَيْ: بَعْدَ التَّشَهُّدِ- **اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الجَنَّةَ وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ**»، أي: أقتصر على هاتين الكلمتين: أسأل الله الجنَّة، وأتعوَّذ به من النَّار.

ثمَّ استدرك الرَّجل؛ لأنَّه يعلم أنَّ النَّبيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بعد التَّشهُّد يدعو بأدعية متنوِّعة وعديدة، تُعرف من مكثه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في جلوس التَّشهُّد، ومعاذٌ وغيرُه من الصَّحابة يحافظون على مثل هذه الأدعية، فاستدرك الرَّجل

---

(١) رواه التِّرمذيُّ (٣٥٤٠)، وصحَّحه الألبانيُّ.

(٢) رواه أبو داود (٧٩٢)، وابن ماجه (٩١٠)، وصحَّحه الألبانيُّ.

وقال: «**أَمَا إِنِّي لَا أُحْسِنُ دَنْدَنتك وَلَا دَنْدَنة مُعَاذ**»، أي: الشَّيء الَّذي تقوله وكذلك يقوله معاذ لا أحسنه.

فقال النَّبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ -وما أجمل ما قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ- قال: «**حَوْلَهَا نُدَنْدِنُ**»، أي: الَّذي تقوله هذا جئتَ فيه بما حوله ندندن، فنحن ندندن حول الجنَّة والنَّار.

وَعَنْ عَطَاءِ بْنِ السَّائِبِ عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «**صَلَّى بِنَا عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ صَلَاةً فَأَوْجَزَ فِيهَا، فَقَالَ لَهُ بَعْضُ الْقَوْمِ: لَقَدْ خَفَّفْتَ أَوْ أَوْجَزْتَ الصَّلَاةَ! فَقَالَ: أَمَّا عَلَى ذَلِكَ فَقَدْ دَعَوْتُ فِيهَا بِدَعَوَاتٍ سَمِعْتُهُنَّ مِنْ رَسُولِ الله ﷺ، فَلَمَّا قَامَ تَبِعَهُ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ -هُوَ أَبِي غَيْرَ أَنَّهُ كَنَى عَنْ نَفْسِهِ- فَسَأَلَهُ عَنِ الدُّعَاءِ، ثُمَّ جَاءَ فَأَخْبَرَ بِهِ الْقَوْمَ: «اللَّهُمَّ بِعِلْمِكَ الْغَيْبَ، وَقُدْرَتِكَ عَلَى الْخَلْقِ، أَحْيِنِي مَا عَلِمْتَ الْحَيَاةَ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا عَلِمْتَ الْوَفَاةَ خَيْرًا لِي، اللَّهُمَّ وَأَسْأَلُكَ خَشْيَتَكَ فِي الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، وَأَسْأَلُكَ كَلِمَةَ الْحَقِّ فِي الرِّضَا وَالْغَضَبِ، وَأَسْأَلُكَ الْقَصْدَ فِي الْفَقْرِ وَالْغِنَى، وَأَسْأَلُكَ نَعِيمًا لَا يَنْفَدُ، وَأَسْأَلُكَ قُرَّةَ عَيْنٍ لَا تَنْقَطِعُ، وَأَسْأَلُكَ الرِّضَا بَعْدَ الْقَضَاءِ، وَأَسْأَلُكَ بَرْدَ الْعَيْشِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ، وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ؛ فِي غَيْرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ، وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ، اللَّهُمَّ زَيِّنَّا بِزِينَةِ الإِيمَانِ، وَاجْعَلْنَا هُدَاةً مُهْتَدِينَ**». رواه النَّسائيُّ[(١)].

هذا حديثٌ عظيمُ النَّفع كبيرُ الفائدة، مشتملٌ على معانٍ عظيمة ودلالات نافعة متعلِّقة بالعقيدة والعبادة والأخلاق، وإنَّما تعظم فائدةُ المسلم من مثل هذه الدَّعوات المباركة بوقوفه على معانيها، وفهمِه لدلالاتها ومراميها، ومجاهدِته نفسَه على تحقيقها.

قوله: «**اللَّهُمَّ بِعِلْمِكَ الغَيْبَ وَقُدْرَتِك عَلَى الخَلْق؛ أَحْيِنِي مَا عَلِمْت الحَيَاةَ**

---

(١) رواه النَّسائيُّ (١٣٠٥)، وصحَّحه الألبانيُّ.

خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إذَا عَلِمْتَ الوَفَاة خَيْرًا لِي»، فيه تفويضُ العبد أموره إلى الله، وطلبُ الخيرة في أحواله منه سبحانه، متوسِّلًا إليه سبحانه بعلمه الَّذي أحاط بكلِّ شيء، وأنَّه سبحانه يعلم خفايا الأمور وبواطنَها، كما يعلم ظاهَرها وعَلَنَها، وبقدرته النَّافذة في جميع الخلق، فلا مُعَقِّب لحكمه ولا رادَّ لقضائه.

قوله: «**وأَسْأَلُك خَشْيَتَك فِي الغَيْب وَالشَّهَادَة**»، أي: أن أخشاك يا الله في السِّرِّ والعلانية، والظَّاهر والباطن، وفي حال كوني مع النَّاس أو غائبًا عنهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك: ١٢].

قوله: «**وأَسْأَلُك كَلِمَةَ الحَقِّ فِي الرِّضَا والغَضَبِ**»، فيه سؤالُ الله قولَ الحقِّ حال رضا الإنسان وحال غضبه، وقولُ الحقِّ في النَّاس حال الغضب عزيز؛ لأنَّ الغضبَ يحمل صاحبه على أن يقول خلافَ الحقِّ ويفعل غير العدل، وقد مدح الله من عباده مَن يغفر إذا غضب، قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشُّورى: ٣٧].

قوله: «**وَأَسْأَلُكَ القَصْد فِي الفَقْرِ والغِنَى**»، أي: أن أكون مقتصدًا في حال فقري وغناي، والقصد: هو التَّوسُّط والاعتدال؛ فإن كان فقيرًا لَم يقتِّر خوفًا من نفاد الرِّزق، ولم يُسرف بتحميل نفسه ما لا طاقة له به، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩]، وإن كان غنيًّا لَم يحمله غناه على السَّرف والطُّغيان، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧]، والقوام: القصد والتَّوسُّط، وهو في كلِّ الأمور حسن.

قوله: «**وَأَسْأَلُك نَعِيمًا لا يَنْفَدُ**»، النَّعيم الَّذي لا ينفد هو نعيم الآخرة، كما قال الله تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ﴾ [النَّحل: ٩٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾ [ص: ٥٤].

قوله: «**وَأَسْأَلُكَ قُرَّةَ عَيْنٍ لَا تَنْقَطِع**»، قرَّة العين من جملة النَّعيم، والنَّعيم منه ما هو منقطع ومنه ما لا ينقطع، ومَن قرَّت عينه بالدُّنيا؛ فَقُرَّة عينه منقطعة وسروره فيها زائلٌ، وهو مع ذلك مَشُوبٌ بالخوف من الفواجع والمنغِّصات؛ ولهذا فإنَّ المؤمن لا تقرُّ عينُه في الدُّنيا إلَّا بمحبَّة الله وذكره والمحافظة على طاعته، كما قال ﷺ: «**وجُعِلَتْ قرَّةُ عَيْنِي في الصَّلَاةِ**»، ومَن حصلت له قرَّة العين بهذا؛ فقد حصلت له قرَّةُ العين الَّتي لا تنقطع في الدُّنيا ولا في البرزخ ولا في الآخرة.

قوله: «**وَأَسْأَلُكَ الرِّضَا بَعْدَ القَضَاء**»، سأل الرِّضا بعد القضاء؛ لأنَّه حينئذ تبيَّن حقيقة الرِّضا، وأمَّا الرِّضا قبل القضاء فإنَّه عزمٌ من العبد على الرِّضا، وإنَّما يتحقَّق الرِّضا إذا وقع القضاء.

قوله: «**وَأَسْأَلُكَ بَرِدَ العَيْشِ بَعْدَ المَوْتِ**»، هذا يدلُّ على أنَّ العيشَ وطيبَه وبرده إنَّما يكون بعد الموت، فإنَّ العيش قبل الموت منغَّصٌ، ولو لَم يكن له منغِّصٌ غير الموت لكفى، فكيف وله منغِّصات كثيرة من الهموم والغموم والأسقام والهرم ومفارقة الأحبَّة وغير ذلك.

وقوله: «**وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ، فِي غَيْرِ ضَرَّاء مُضِرَّة وَلَا فِتْنَة مُضِلَّة**»، هذا قد جُمع فيه بين أطيب شيء في الدُّنيا وهو الشَّوقُ إلى لقاء الله، وأطيب شيء في الآخرة وهو النَّظرُ إلى وجهه الكريم، ولَمَّا كان تَمامُ ذلك موقوفًا على عدم وجود ما يضُرُّه في الدُّنيا، أو يفتنه في الدِّين، قال: «في غير ضراء مضرَّة ولا فتنة مضلَّة».

وقوله: «**اللَّهمَّ زيِّنَّا بِزِينَةِ الإِيمَانِ وَاجْعَلْنَا هُدَاةً مُهْتَدِين**»، زينة الإيمان تشمل زينة القلب بالاعتقاد الصَّحيح والأعمال القلبيَّة الفاضلة، وزينة اللِّسان بالذِّكر وتلاوة القرآن والأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر ونحو ذلك، وزينة

الجوارح بالأعمال الصَّالحة والطَّاعات المقرِّبة إلى الله، قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾ [الحجرات: ٧].

وقوله: «**واجْعَلْنَا هُدَاةً مُهْتَدِين**»، أي: بأن نَهديَ أنفسنَا ونهديَ غيرَنا، وهذا أفضلُ الدَّرجات؛ أن يكون العبد عالمًا بالحقِّ متَّبِعًا له، معلِّمًا لغيره مرشدًا له؛ فبهذا يكون هاديًا مهديًّا، نسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يهدينا أجمعين، وأن يجعلنا هُداةً مُهتدين.

٧٠

الأذكار بعد السَّلام (١)

عَنْ ثَوْبَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: **كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا انْصَرَفَ مِنْ صَلَاتِهِ اسْتَغْفَرَ ثَلَاثًا، وَقَالَ: «اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ، وَمِنْكَ السَّلَامُ، تَبَارَكْتَ ذَا الْجَلَالِ وَالإِكْرَامِ»**. قَالَ الْوَلِيدُ: فَقُلْتُ لِلأَوْزَاعِيِّ: كَيْفَ الِاسْتِغْفَارُ؟ قَالَ: «**تَقُولُ: أَسْتَغْفِرُ اللهَ، أَسْتَغْفِرُ اللهَ**». رواه مسلم[١].

الاستغفار: هو طلب المغفرة بالعفو عن التَّقصير والصَّفح عن الذَّنب. والمناسبة لمجيء الاستغفار دبر الصَّلاة: أنَّ العبد يلحظ تقصيره في صلاته، وما قد يكون فيها من نقصٍ وعدم إتيانه بها على التَّمام والكمال، ومثله الاستغفار في تمام الحجِّ، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٩٩]؛ لأنَّ المسلم إذا جاء بالطَّاعة فمهما بذل واجتهد في تكميلها وتتميمها والنَّصح فيها لا بُدَّ من التَّقصير والنَّقص والخطأ؛ ولهذا نُدب إلى الاستغفار عند الفراغ من الصَّلاة ليكون جبرًا لتقصيره، ولهذا استُحبَّ للمسلم أن يُبادر فور انقضاء صلاته إلى الاستغفار ثلاثًا.

فالحكمةُ من الإتيان بالاستغفار بعد الصَّلاةِ هي إظهارُ هَضْم النَّفس، وأنَّ العبدَ لَم يَقُم بحقِّ الصَّلاة، ولَم يأتِ بما ينبغي لها على التَّمام والكمال، بل لا بُدَّ أن يكونَ قد وَقَعَ في شيء من النَّقص والتَّقصير، والمقصِّرُ يستغفرُ

(١) رواه مسلم (٥٩١).

لعلَّه أن يُتجاوَزَ عن تقصيره، ويكونَ في استغفاره جَبْرٌ لِمَا فيه من نقص أو تقصير.

قوله: «**اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ، وَمِنْكَ السَّلَامُ**»، أي: السَّلام اسمك والسَّلامة وصفك، المنزَّه عن النَّقص والعيب، ونحن عبادك فقراء إليك، وعرضةٌ للشَّرِّ والآفات والمصائب، والسَّلام منك يُطلب، وإليك فيه يُلتجأ، ولا يُلتجأ في طلبه إلى أحدٍ سواك.

قوله: «**تباركت**»، أي: تعاظمتَ يا الله، فلك العظمةُ الكاملة والكبرياء التَّامُّ، وعظُمَت أوصافُك وكثرت خيراتُك وعمَّ إحسانُك.

قوله: «**ذَا الْجَلَالِ وَالإِكْرَامِ**»، أي: يا صاحب الجلال والإكرام، وهما وصفان عظيمان للرَّبِّ سبحانه دالَّان على كمال عظمته وكبريائه ومجده، وعلى كثرة صفاته الجليلة وتعدُّد عطاياه الجميلة، ممَّا يستوجب على العباد أن تمتلئ قلوبُهم محبَّةً وتعظيمًا وإجلالًا له.

وَعَنْ وَرَّادٍ مَوْلَى الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ قَالَ: كَتَبَ الْمُغِيرَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إِلَى مُعَاوِيَةَ ابْنِ أَبِي سُفْيَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: **أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَانَ يَقُولُ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ**». رواه البخاريُّ ومسلم(١).

وَعَنْ عَبْدِ الله بنِ الزُّبَيْرِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ كانَ يَقولُ في دُبُرِ كُلِّ صَلاةٍ حِينَ يُسَلِّمُ: **«لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَلَا نَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاهُ، لَهُ النِّعْمَةُ وَلَهُ**

(١) رواه البخاريُّ (٨٤٤)، ومسلم (٤١٤).

الْفَضْلُ، وَلَهُ الثَّنَاءُ الْحَسَنُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ»، وَقَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُهَلِّلُ بِهِنَّ دُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ». رواه مسلم[(١)].

قوله: «كَانَ يَقولُ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ حِينَ يُسَلِّمُ»، يفيد أنَّ من السُّنَّة أن يُبادر به بعد السَّلام عقب الاستغفار ثلاثًا، وقول: «اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ، وَمِنْكَ السَّلَامُ، تَبَارَكْتَ يَا ذَا الجَلَالِ والإِكْرَامِ»، ولذا قال في تمامه: يهلِّل بهنَّ دبر كلِّ صلاة.

❑ وقد جمع هذا التَّهليل المبارك أنواع التَّوحيد الثَّلاثة:

﴿ أمَّا توحيد العبادة فقد تكرَّرت فيه كلمة التَّوحيد «لا إله إلَّا الله» ثلاث مرَّات، وأُتبعت في كلِّ مرَّة بما يقرِّر معناها، ويؤكِّد حقيقتها، ويوضِّح مدلولها.

- فقوله بعد التَّهليلة الأولى: «وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ»، تأكيد لما قرَّرته من النَّفي والإثبات؛ فقوله «وحده» تأكيد للإثبات، وقوله: «لا شريك له» تأكيد للنَّفي.

- وقوله بعد التَّهليلة الثَّانية: «وَلَا نَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاهُ»، فيه بيانٌ لمعناها وتفسير لمدلولها، وأنَّها تعني نفي العبادة بجميع أنواعها وأفرادها عن كلِّ مَن سوى الله، وإثباتها لله وحده لا شريك له.

- وقوله بعد التَّهليلة الثَّالثة: «مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ»، تقريرٌ لمدلولها كذلك، وأنَّها كلمة الإخلاص، فلا يستفيد منها قائلها إلَّا إذا أخلص دينه لله، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البيِّنة: ٨].

وكلُّ ذلك تقريرٌ لتوحيد العبادة، ويمكن أيضًا أن يُلخَّص منه تعريفٌ جامعٌ لتوحيد العبادة، فيقال هو: أن لا نعبد إلَّا الله وحده لا شريك له مخلصين له الدِّين.

---

(١) رواه مسلم (٥٩٤).

ﮪ **وأمَّا توحيد الرُّبوبيَّة**؛ ففي قوله: «**لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**»، وفي قوله: «**لَهُ النِّعْمَةُ وَلَهُ الفَضْلُ**»؛ إذ إنَّ تفرُّده سبحانه بالملك والقدرة على كلِّ شيء، والنِّعمة والفضل كلُّه من معاني ربوبيَّته سبحانه، وممَّا يُحمد عليه سبحانه: أنَّه ربُّ العالمين لا ربَّ لهم سواه ولا مالك إلَّا هو، والنِّعمة بيده والفضل فضله يؤتيه مَن يشاء والله ذو الفضل العظيم.

ﮪ **وأمَّا توحيد الأسماء والصِّفات**؛ ففي قوله: «**وَلَهُ الحَمْدُ**»؛ لأنَّه سبحانه يُحمد كذلك على أسمائه الحسنى وصفاته العليا. وأيضًا في قوله: «**وَلَهُ الثَّنَاءُ الحَسَنُ**»؛ لأنَّه سبحانه يُثنَى عليه بأسمائه الحسنى وصفاته العليا، كما قال أعلم خلقه به نبيُّنا محمَّدٌ ﷺ: «**اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ**». رواه مسلم[(١)]. وكذلك قوله ﷺ في حديث الشَّفاعة: «**ثُمَّ يَفْتَحُ اللهُ عَلَيَّ مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَى أَحَدٍ قَبْلِي**». رواه البخاريُّ ومسلم[(٢)]. قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وتلك المحامد هي بأسمائه وصفاته»[(٣)].

وقد ذُكر كلٌّ من توحيد الرُّبوبيَّة وتوحيد الأسماء والصِّفات في هذا التَّهليل المبارك للاستدلال بهما على توحيد العبادة، وبيانِ أنَّ المتفرِّد بالملك والحمد والقدرة على كلِّ شيء والنِّعمة والفضل، والمتفرِّدَ بالثَّناء الحسن لعظمة أسمائه وكمال صفاته هو وحده المستحقُّ للعبادة لا شريك له، وأنَّه المعبود بحقٍّ ولا معبود بحقٍّ سواه، وأنَّ عبادة مَن سواه ضلالٌ وباطلٌ وكفرٌ وطغيان.

---

(١) رواه مسلم (٤٨٦).
(٢) رواه البخاريُّ (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤).
(٣) بدائع الفوائد (١/ ٢٩٤).

وبهذا يُعلم أنَّ هذه الكلمات ليست ألفاظًا مجرَّدةً لا تدلُّ على معنى، بل لها معانٍ عظيمة ودلالات عميقة تنتظم التَّوحيد بأنواعه الثَّلاثة، والواجب على كلِّ مَن يردِّد هذه الكلمات أن يستحضر ما دلَّت عليه، وأن يعرف ما تضمَّنته بحيث يكون مستمسكًا بالتَّوحيد محافظًا عليه مراعيًا لحقوقه، مجانبًا تمامَ المجانبة لنواقضه وما يضادُّه، مُعلنًا له لا تأخذه في الله لومة لائم، ولو كره الكافرون. وكم هو جميلٌ وعظيم أن نضبط هذه التَّهليلات وما أُتبعت به كلُّ واحدة منها من تأكيدٍ للتَّوحيد وتجديد له وترسيخٍ له في القلوب.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: **«مَنْ سَبَّحَ اللهَ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَحَمِدَ اللهَ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَكَبَّرَ اللهَ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ؛ فَتِلْكَ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ، وَقَالَ تَمَامَ الْمِائَةِ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»؛ غُفِرَتْ خَطَايَاهُ وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ»**. رواه مسلم[(١)].

قوله: **«مَنْ سَبَّحَ اللهَ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ وَحَمِدَ اللهَ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ وَكَبَّرَ اللهَ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ»**، أي: قال عقب كلِّ صلاة: «سبحان الله» ثلاثًا وثلاثين مرَّةً، و«الحمد لله» ثلاثًا وثلاثين مرَّةً، و«الله أكبر» ثلاثًا وثلاثين مرَّةً.

«وَقَالَ -تَمَامَ المِئَةِ-: لَا إِلَه إِلَّا اللهُ وَحْدَه لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْك، وَلَهُ الحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»، وهذه كلمة التَّوحيد وتقدَّم الكلام على معناها.

«غُفِرَتْ خَطَايَاهُ وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ البَحْرِ»، أي: تُغفر له ذنوبه ولو كانت كثرةً مثل زبد البحر. والمقصود بالذُّنوب الَّتي تُغفر: الصَّغائر، أمَّا الكبائر لا

(١) رواه مسلم (٥٩٧).

يُكفِّرها إلَّا التَّوبة، وهذا ثوابٌ عظيم لِمَن يُحافظ على هذه التَّسبيحات دبر كلِّ صلاة ينبغي على كلِّ ناصح لنفسه ألَّا يفرِّط فيه.

والسُّنَّة أن يعقد هذه التَّسبيحات بيده كما كان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يفعل؛ فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «**رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَعْقِدُ التَّسْبِيحَ بِيَمِينِهِ**»، رواه أبو داود[(١)].

وَعَنْ أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ الْفُقَرَاءُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالُوا: «ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ مِنَ الأَمْوَالِ بِالدَّرَجَاتِ الْعُلَا وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ؛ يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَلَهُمْ فَضْلٌ مِنْ أَمْوَالٍ يَحُجُّونَ بِهَا وَيَعْتَمِرُونَ وَيُجَاهِدُونَ وَيَتَصَدَّقُونَ!»، قَالَ: «**أَلَا أُحَدِّثُكُمْ بِأَمْرٍ إِنْ أَخَذْتُمْ بِهِ أَدْرَكْتُمْ مَنْ سَبَقَكُمْ وَلَمْ يُدْرِكْكُمْ أَحَدٌ بَعْدَكُمْ، وَكُنْتُمْ خَيْرَ مَنْ أَنْتُمْ بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِ، إِلَّا مَنْ عَمِلَ مِثْلَهُ؟ تُسَبِّحُونَ وَتَحْمَدُونَ وَتُكَبِّرُونَ خَلْفَ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ**»، رواه البخاريُّ ومسلم[(٢)].

هذا الإتيان من فقراء المهاجرين ناشئ عن حرصٍ ورغبة في الخير وحبٍّ في المنافسة فيه، قالوا: ذهب أهل الدُّثور، أي: الأموال الكثيرة بالدَّرجات العالية والنَّعيم المقيم؛ «**يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَلَهُمْ فَضْلٌ مِنْ أَمْوَالٍ يَحُجُّونَ بِهَا وَيَعْتَمِرُونَ وَيُجَاهِدُونَ وَيَتَصَدَّقُونَ**»، أي: ونحن فقراء لا نمتلك مثل هذا المال الَّذي يمتلكه هؤلاء حتَّى نشاركهم في هذه الأجور.

فقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**أَلَا أُحَدِّثُكُمْ بِأَمْرٍ إِنْ أَخَذْتُمْ بِهِ أَدْرَكْتُمْ مَنْ سَبَقَكُمْ وَلَمْ يُدْرِكْكُمْ أَحَدٌ بَعْدَكُمْ، وَكُنْتُمْ خَيْرَ مَنْ أَنْتُمْ بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِ، إِلَّا مَنْ عَمِلَ مِثْلَهُ؟**» شدَّ

---

(١) رواه أبو داود (١٥٠٢)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٢) رواه البخاريُّ (٨٤٣) واللَّفظ له، ومسلم (٥٩٥).

انتباههم وشوَّقهم، ثمَّ قال: «**تُسَبِّحُونَ وَتَحْمَدُونَ وَتُكَبِّرُونَ خَلْفَ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ**»، أي: تسبِّحون دبر كلِّ صلاة ثلاثًا وثلاثين تسبيحةً، وتحمدون ثلاثًا وثلاثين تحميدةً، وتكبِّرون ثلاثًا وثلاثين تكبيرةً؛ بحيث يكون المجموع تسعًا وتسعين، فقوله ثلاثًا وثلاثين شامل لكلِّ تسبيحة وتكبيرة وتحميدة كما في الحديث الَّذي قبله.

٧١

الأذكار بعد السَّلام (٢)

عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**خَصْلَتَانِ -أَوْ خَلَّتَانِ- لَا يُحَافِظُ عَلَيْهِمَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ؛ هُمَا يَسِيرٌ وَمَنْ يَعْمَلُ بِهِمَا قَلِيلٌ؛ يُسَبِّحُ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ عَشْرًا، وَيَحْمَدُ عَشْرًا، وَيُكَبِّرُ عَشْرًا، فَذَلِكَ خَمْسُونَ وَمِائَةٌ بِاللِّسَانِ، وَأَلْفٌ وَخَمْسُمِائَةٍ فِي الْمِيزَانِ، وَيُكَبِّرُ أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ إِذَا أَخَذَ مَضْجَعَهُ، وَيَحْمَدُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَيُسَبِّحُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، فَذَلِكَ مِائَةٌ بِاللِّسَانِ وَأَلْفٌ فِي الْمِيزَانِ**»، فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَعْقِدُهَا بِيَدِهِ، قَالُوا: يَا رَسُولَ الله! كَيْفَ هُمَا يَسِيرٌ وَمَنْ يَعْمَلُ بِهِمَا قَلِيلٌ؟ قَالَ: «**يَأْتِي أَحَدَكُمْ -يَعْنِي الشَّيْطَانَ- فِي مَنَامِهِ فَيُنَوِّمُهُ قَبْلَ أَنْ يَقُولَهُ، وَيَأْتِيهِ فِي صَلَاتِهِ فَيُذَكِّرُهُ حَاجَةً قَبْلَ أَنْ يَقُولَهَا**». رواه أبو داود والتِّرمذيُّ[(١)].

قوله: «**خَصْلَتَانِ أَوْ خَلَّتَانِ**»، أي: نوعان من الذِّكر والعمل.

قوله: «**لا يُحَافِظُ عَلَيْهِمَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ إِلَّا دَخَلَ الجَنَّةَ**»، فيه اشتراط المحافظة، أي: المواظبة والمداومة على هاتين الخصلتين، لا أن يأتي بهما مرَّةً أو مرَّتين ثمَّ ينقطع.

«**وَهُمَا يَسِيرٌ**»، أي: على مَن وفَّقه الله ويسَّره له تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

«**وَمَنْ يَعْمَل بِهِمَا قَلِيلٌ**»، أي: مع كون أمرهما يسيرًا إلَّا أنَّ العامل بهما قليل.

---

(١) رواه أبو داود (٥٠٦٥)، والتِّرمذيُّ (٣٧٠٩)، وصحَّحه الألبانيُّ.

قوله «**يُسَبِّحه عَشْرًا وَيَحْمَدُه عَشْرًا وَيُكَبِّره عَشْرًا**»، أي: يقول «سبحان الله» بعد انتهاء الصَّلاة عشر مرَّات، و«الحمد لله» عشر مرَّات، و«الله أكبر» عشر مرَّات، وهذا الاختلاف عن الأحاديث السَّابقة الَّتي فيها هذا الذِّكرُ ثلاثًا وثلاثين يُسمِّيه أهل العلم اختلافَ التَّنوُّع وليس التَّضادَّ؛ لأنَّ هذا وارد وله ثوابه، وذاك وارد وله ثوابه، والعمل بأيٍّ منهما خير.

قوله: «**وَذَلِكَ خَمْسُونَ وَمِئَة بِاللِّسَانِ**»، عشر وعشر وعشر هذه ثلاثون، فإذا ضربت بخمس عدد الصَّلوات المكتوبة فالنَّاتج مئة وخمسون.

قوله: «**وَأَلْفٌ وَخَمْسُمِائَةٍ فِي المِيزَانِ**»؛ لأنَّ الحسنة بعشر أمثالها؛ فإذا ضُربت عشر في مئة وخمسين فالنَّاتج ألف وخمسمائة.

«**وَيُكَبِّر أَرْبعًا وَثَلَاثِينَ إِذَا أَخَذَ مَضْجعَهُ وَيَحْمَدُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ وَيُسَبِّحُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ؛ فَذَلِكَ مِئَةٌ بِاللِّسَانِ وَأَلْفٌ فِي المِيزَانِ**»، أي: يواظب كلَّ مرَّة عندما يأوي إلى فراشه على أربع وثلاثين تكبيرةً وثلاث وثلاثين تسبيحةً وثلاث وثلاثين تحميدةً، فالمجموع مئة باللِّسان، لكنَّها في الميزان ألف؛ لأنَّ الحسنة بعشر أمثالها. وهو نظير ما جاء في حديث فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عندما أتت النَّبيَّ ﷺ وسألته خادمًا فدلَّها على هذا الذِّكر، وأرشدها أنَّه خير لها من خادم، وقد تقدَّم الحديث.

قال عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَعْقِدُهَا بِيَدِهِ**»، أي: اليمنى؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ يجعل اليمنى لما طاب، واليسرى لما سوى ذلك.

وقد جاء في حديث عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عند أبي داود «رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَعْقِدُ التَّسْبِيحَ بِيَمِينِهِ»[١].

---

(١) رواه أبو داود (١٥٠٢)، والتِّرمذيُّ (٣٤١١)، والنَّسائيُّ (١٣٥٥)، وصحَّحه الألبانيُّ.

قوله: «**قَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ، كَيْفَ هُمَا يَسِيرٌ وَمَنْ يَعْمَل بِهِمَا قَلِيلٌ؟**» أي: ما وجه ذلك؟

قوله: «**يَأْتِي أَحَدَكُمْ، يَعْنِي: الشَّيْطَان فِي مَنَامِهِ فَيُنَوِّمُهُ قَبْلَ أَنْ يَقُولَهُ**»، أي: يشغله بأمور إلى أن تغفي عيناه قبل أن يأتي بهذا الذِّكر المبارك.

قوله: «**وَيَأْتِيهِ فِي صَلَاتِهِ فَيُذَكِّرُهُ حَاجَتَهُ قَبْلَ أَنْ يَقُولَهَا**»، أي: يبدأ معه في أثناء الصَّلاة يُذكِّره بأشياء حتَّى يُعجِّل بعد انقضاء الصَّلاة بالذَّهاب إليها قبل أن يقول هذا الذِّكر. مع أنَّه لو اطمأنَّ وأتى بالذِّكر المشروع عقب الصَّلاة كاملاً لم يأخذ منه إلَّا خمس دقائق تقريبًا، ولن تفوت عليه أيُّ مصلحة، بل سينعكس على حياته وحاجته بركةً وتيسيرًا وتوفيقًا وسدادًا ونعمةً.

وَعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «**أَمَرَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ أَقْرَأَ الْمُعَوِّذَاتِ دُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ**» رواه أبو داود والنَّسائيُّ[1].

والمعوِّذات يراد بها: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:١] و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ [الفلق:١] و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [النِّساء: ١]؛ وقد أُطلق على ثلاثتها «المعوِّذات» على وجه التَّغليب كما قال ذلك الحافظ ابن حجر: وغيره من أهل العلم، ودخلتْ سورةُ الإخلاص معهما لِمَا اشتملتْ عليه مِن صفةِ الرَّبِّ وإن لَم يُصرِّح فيها بلفظ التَّعويذ.

وَعَنْ أبي أُمامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: قالَ رَسولُ الله ﷺ: «**مَنْ قَرَأَ آيَةَ الكُرْسِيِّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ لَمْ يَمْنَعْهُ مِنْ دُخُولِ الْجَنَّةِ إِلَّا أَنْ يَمُوتَ**» رواه النَّسائيُّ في عمل اليوم واللَّيلة[2].

---

(١) رواه أبو داود (١٥٢٣)، والنَّسائيُّ (١٣٣٦)، وصحَّحه الألبانيُّ.

(٢) رواه النَّسائيُّ في عمل اليوم واللَّيلة (١٠٠)، وفي السُّنن الكبرى (٩٨٤٨)، وصحَّحه الألبانيُّ في صحيح التَّرغيب والتَّرهيب (١٥٩٥).

والمراد بقوله: «**لَمْ يَمْنَعْهُ مِنْ دُخُولِ الجَنَّةِ إِلَّا أَنْ يَمُوتَ**»، أي: لَم يكن بينه وبين دخول الجنَّة إلَّا الموت.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: وبلغني عن شيخ الإسلام ابن تيميَّة: أنَّه قال: «ما تركته عقيب كلِّ صلاة إلَّا نسيانًا أو نحوه»(١)، وهذا فيه أنَّ الجنَّة قريبة من أهلها ليس بينها و بين أهلها إلَّا الموت. ففيه شاهد لحديث: «**الجَنَّةُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ، وَالنَّارُ مِثْلُ ذَلِكَ**». رواه البخاريُّ(٢).

وآية الكرسيِّ يُستحبُّ أن تُقرأ في اليوم واللَّيلة ثماني مرَّات: خمس مرَّاتٍ أدبار الصَّلوات المكتوبة، ومرَّةً عند النَّوم عندما يأوي إلى فراشه، ومرَّتين في أذكار الصَّباح والمساء.

وَعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ أَخَذَ بِيَدِهِ، وَقَالَ: «**يَا مُعَاذُ، وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ، وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ**»، فَقَالَ: «**أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ لَا تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ تَقُولُ: «اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ**». رواه أبو داود والنَّسائيُّ(٣).

قوله: «**أَخَذَ بِيَدِهِ**»، هذا فيه إحسانٌ من النَّبيِّ ﷺ، وجميل تلطُّفٍ في المعاملة والتَّوجيه.

ثمَّ ناداه باسمه «**يَا مُعَاذُ**»، وهذا مزيد تلطُّف.

ثمَّ قال له: «**وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ**»، وهذا كذلك فيه زيادة لطف وحسن تودُّد. وقدَّم ﷺ المحبَّة ليُعلِم معاذًا أنَّ مصدر هذه الوصيَّة الحبُّ والنُّصح؛ فإنَّ مقتضى المحبَّة الحقيقيَّة النُّصح والدَّلالة للخير.

---

(١) انظر: زاد المعاد (١/ ٢٩٤).

(٢) رواه البخاريُّ (٦٤٨٨).

(٣) رواه أبو داود (١٥٢٢)، والنَّسائيُّ (١٣٠٣)، وصحَّحه الألبانيُّ.

قوله: «**أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ**»، فيه أيضًا شحذٌ لهمَّته واستدعاءٌ لانتباهه.

قوله: «**لَا تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ أَنْ تَقُولَ**»، فيه الحثُّ على المواظبة على هذا الدُّعاء دبر كلِّ صلاة.

قوله: «**اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ**»، يطلب من الله عَزَّوَجَلَّ العون على الذِّكر والشُّكر وحسن العبادة، وهذا أفضل ما يُطلب وأنفعه.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولهذا كان من أفضل ما يُسأل الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الإعانة على مرضاته وهو الَّذي علَّمه النَّبيُّ لحبِّه معاذ بن جبل رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ فقال: يا معاذ، والله إنِّي لأحبُّك فلا تنس أن تقول دبر كلِّ صلاة: «**اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ**»، فأنفع الدُّعاء طلب العون على مرضاته وأفضل المواهب إسعافه بهذا المطلوب، وجميع الأدعية المأثورة مدارها على هذا، وعلى دفع ما يضادُّه، وعلى تكميله وتيسير أسبابه فتأمَّلها»[(١)].

وقال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «تأمَّلتُ أنفعَ الدُّعاء فإذا هو سؤال العون على مرضاته، ثمَّ رأيته في الفاتحة في إيَّاك نعبد وإيَّاك نستعين»[(٢)].

وتأمَّل المناسبة من الإتيان بهذا الذِّكر بعد الصَّلاة؛ فالمصلِّي لولا توفيق الله له وعونه ما صلَّى، فناسب تجديد طلب العون عقب هذه الصَّلاة الَّتي يسَّرها الله، أي: كما يسَّرت لي المجيء لهذه الصَّلاة وأكرمتني بأدائها فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين، بل أعنِّي على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك.

قوله: «**أعنِّي**»، أي: أمدَّني بعونك.

وقوله: «**عَلَى ذِكْرِكَ**»، أي: على القيام بذكرك على الوجه الَّذي تحبُّه وترضاه.

---

(١) انظر: مدارج السَّالكين (١/ ١٠٠).

(٢) انظر: المستدرك على مجموع الفتاوى (١/ ١٧٥).

وقوله: «**وَشُكْرِكَ**»، أي: على القيام بشكرك على نعمك العظيمة وعطاياك الكثيرة الَّتي لا تُعدُّ ولا تُحصى؛ وهو بالقلب: اعترافًا ومحبَّة وإقرارًا بنعمة الله، وباللِّسان: شكرًا وثناءً وحمدًا لله، وبالجوارح: أن يستعملها في طاعة الله تبارك وتعالى.

وقوله: «**وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ**»، ولم يقل وعبادتك؛ لأنَّ المطلوب في العبادة الإحسان، ولا يكون ذلك إلَّا بأمرين: الإخلاص لله، والمتابعة لرسوله ﷺ.

قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، قال الفضيل ابن عياض: في معنى الآية: «أي: أخلَصُه وأصوَبُه»، قيل يا أبا عليٍّ وما أخلصه وأصوبه؟ قال: «إنَّ العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يُقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يُقبل حتَّى يكون خالصًا صوابًا، والخالص: ما كان لله، والصَّواب: ما كان على السُّنَّة»[(١)]؛ هذا معنى قوله: «حُسْنِ عِبَادَتِكَ»، أي: أن تكون خالصةً لله صوابًا وفق سنَّة رسول الله ﷺ.

وهذا الدُّعاء كما أنَّه ورد مقيَّدًا دُبر كلِّ صلاة مكتوبة فقد جاء ما يدلُّ على أنَّه من الأدعية المطلقة الَّتي يُناسب أن يدعو بها المسلم في أيِّ وقت شاء، فعن أبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال لهم: «**أَتُحِبُّونَ أَيُّهَا النَّاسُ أَنْ تَجْتَهِدُوا فِي الدُّعَاءِ؟**» قالوا: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللهِ، قال: «**قُولُوا: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ**». رواه الحاكم[(٢)].

---

(١) حلية الأولياء (٨/ ٩٥).

(٢) رواه الحاكم في المستدرك (١٨٣٨)، والبيهقيُّ في الدَّعوات الكبير (٢٧٥)، وصحَّحه الألبانيُّ في صحيح الجامع (٨١).

٧٢
دعاء القنوت في صلاة الوتر

عَنِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: عَلَّمَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ كَلِمَاتٍ أَقُولُهُنَّ فِي الْوِتْرِ: «**اللَّهُمَّ اهْدِنِي فِيمَنْ هَدَيْتَ، وَعَافِنِي فِيمَنْ عَافَيْتَ، وَتَوَلَّنِي فِيمَنْ تَوَلَّيْتَ، وَبَارِكْ لِي فِيمَا أَعْطَيْتَ، وَقِنِي شَرَّ مَا قَضَيْتَ؛ إِنَّكَ تَقْضِي وَلَا يُقْضَى عَلَيْكَ، وَإِنَّهُ لَا يَذِلُّ مَنْ وَالَيْتَ، وَلَا يَعِزُّ مَنْ عَادَيْتَ، تَبَارَكْتَ رَبَّنَا وَتَعَالَيْتَ**».
رواه أبو داود والتِّرمذيُّ والنَّسائيُّ وابن ماجه[١].

هذا دعاءٌ عظيمٌ مشتملٌ على مطالب جليلة ومقاصد عظيمة؛ ففيه سؤال الله الهدايةَ، والعافيةَ، والتَّوَلِّي والبركة، والوقاية، مع الإقرار بأنَّ الأمورَ كلَّها بيده وتحت تدبيره، فما شاء كان وما لَم يشأ لَم يكن.

قوله في أوَّل هذا الدُّعاء: «**اللَّهُمَّ اهْدِنِي فِيمَنْ هَدَيْتَ**»، فيه سؤالُ الله الهداية التَّامَّة النَّافعة الجامعة لِعلم العبد بالحقِّ وعمله به، فليست الهدايةُ أن يعلمَ العبدُ الحقَّ بلا عمل به، وليست كذلك أن يعمل بلا علمٍ نافعٍ يهتدي به، فالهدايةُ النَّافعةُ هي التَّوفيق للعلم النَّافع والعمل الصَّالح.

وقوله: «فِيمَنْ هَدَيْتَ»، فيه فوائد:

أحدها: أنَّه سؤال له أن يدخلَه في جملة المهديِّين وزُمرتِهم ورفقتهم، وحسن أولئك رفيقًا.

(١) رواه أبو داود (١٤٢٥)، والتِّرمذيُّ (٤٦٤)، والنَّسائيُّ (١٧٤٥)، وابن ماجه (١١٧٨)، وصحَّحه الألبانيُّ.

الثَّانية: أنَّ فيه توسُّلًا إليه بإحسانه وإنعامه، أي: يا ربِّ قد هَديتَ من عبادك بشرًا كثيرًا فضلًا منك وإحسانًا؛ فأحسن إليَّ كما أحسنتَ إليهم واهدني كما هَدَيتَهم.

الثَّالثة: أنَّ ما حصل لأولئك من الهدى لَم يكن منهم ولا بأنفسهم، وإنَّما كان منك فأنت الَّذي هَدَيتَهم.

وقوله: «**وَعَافِنِي فِيمَنْ عَافَيْتَ**»، فيه سؤالُ الله العافية المطلقة؛ وهي العافية من الكفر والفسوق والعصيان والغفلة والأمراض والأسقام والفتن وفِعل ما لا يحبُّه وترك ما يحبُّه؛ فحقيقةُ العافية أن يعافيك الله من أمراض البدن وأمراض القلوب. والعافية من أمراض القلوب شأنها أعظم من العافية من أمراض البدن، ولذا ورد في الدُّعاء المأثور: «**اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ مُصِيبَتَنَا فِي دِينِنَا**»[(١)]؛ لأنَّها أعظم المصائب.

وأمراض القلوب تعود إلى شيئين:

١- إلى الشَّهوات الَّتي منشؤها الهوى.

٢- وإلى الشُّبهات الَّتي منشؤها الجهل.

وما سُئل الرَّبُّ شيئًا أحبَّ إليه من العافية؛ لأنَّها كلمةٌ جامعةٌ للتَّخلُّص من الشَّرِّ كلِّه وأسبابه، وفي الأدب المفرد وغيره عن العبَّاس عمِّ رسول الله ﷺ أنَّه قال: قلت يا رسول الله! علِّمني شيئًا أسأل الله به، فقال: «يا عبَّاس، سلِ اللهَ العافيةَ»، ثمَّ مكثتُ قليلًا ثمَّ جئت، فقلت: علِّمني شيئًا أسأل اللهَ به يا رسول الله، فقال: «يا عبَّاس! يا عمَّ رسول الله! سَلِ اللهَ العافيةَ في الدُّنيا والآخرة»[(٢)]. وقال

(١) رواه التِّرمذيُّ (٣٥٠٢)، وحسنه الألبانِيُّ.
(٢) رواه أحمد (١٧٨٣)، والتِّرمذيُّ (٣٥١٤)، وصحَّحه الألبانيُّ.

ﷺ: «**اسْأَلُوا اللهَ العَفْوَ وَالعَافِيَةَ، فَإِنَّ أَحَدًا لَمْ يُعْطَ بَعْدَ اليَقِينِ خَيْرًا مِنَ العَافِيَةِ**». رواه التِّرمذيُّ(١).

وقوله: «**وَتَوَلَّنِي فِيمَنْ تَوَلَّيْتَ**»، فيه سؤالُ الله التَّوَلِّي الكامل الَّذي يقتضي التَّوفيقَ والإعانةَ والنَّصرَ والتَّسديدَ والإبعادَ عن كلِّ ما يُغضب الله، ومنه قول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وقولُه: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦]، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٨]، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية: ١٩]، وهي ولايةٌ خاصَّةٌ بهم، تقتضي حفظهم، ونصرهم، وتأييدهم، ومعونتهم، ووقايتهم من الشُّرور.

ويدلُّ على هذا قولُه في هذا الدُّعاء: «**إِنَّهُ لَا يَذِلُّ مَنْ وَالَيْتَ**»، أي: أنَّه منصورٌ عزيزٌ غالب بسبب تولِّيك له، وفي هذا تنبيهٌ على أنَّ مَن حَصَل له ذلٌّ في النَّاس فهو بنقصان ما فاته من تولِّي الله، وإلَّا فمع الولاية الكاملة ينتفي الذُّلُّ كلُّه، ولو سُلِّط عليه مَن في أقطار الأرض فهو العزيز غير الذَّليل.

وقوله: «**وَبَارِكْ لِي فِيمَا أَعْطَيْتَ**»، البركةُ: هي الخير الكثير الثَّابت، ففي هذا سؤال الله البركة في كلِّ ما أعطاه؛ من علم أو مال أو ولد أو مسكن أو غير ذلك؛ بأن يثبِّتَه له، ويوسِّعَ له فيه، ويحفظه ويسلِّمَه من الآفات.

فمن النَّاس مَن عنده مالٌ كثير لكنَّهم لا ينتفعون بمالهم، يجمعونه ولا ينتفعون به! وهذا من نزع البركة. ومن النَّاس مَن عنده أولاد، لكنَّ أولاده لا ينفعونه لما فيهم من عقوق، فلم يُبَارَكْ له فيهم. ومن النَّاس مَن أعطاه الله علمًا كثيرًا، لكن لا يظهر أثر العلم عليه في عبادته، ولا في أخلاقه، ولا في سلوكه، ولا في معاملته مع النَّاس، بل قد يُكْسِبه العلم استكبارًا عليهم، واحتقارًا لهم،

(١) رواه التِّرمذيُّ (٣٥٥٨)، وقال الألبانِيُّ: حسن صحيح.

ولا ينتفع النَّاس بعلمه، لا بتدريس، ولا بتوجيه، ولا بتأليف، وربَّما كان علمه حجَّةً عليه لا له، وهذا بلا شك حرمان عظيم، فكم هي حاجة العبد ماسَّة إلى سؤال ربِّه أن يبارك له فيما أعطاه.

وقوله: «**وَقِنِي شَرَّ مَا قَضَيْتَ**»، أي: شرَّ الَّذي قضيتَه، فإنَّ الله تعالى قد يقضي بالشَّرِّ لحكمة بالغة، والشَّرُّ واقعٌ في بعض مخلوقاته لا في خلقه وفعله؛ فإنَّ فعلَه وخلقَه خيرٌ كلُّه. وهذا الدُّعاء يتضمَّن سؤال الله الوقاية من الشُّرور، والسَّلامة من الآفات، والحفظ عن البلايا والفتن، واللُّطْف في القضاء بأن يصرف عنه الشَّرَّ.

وهذا المعنى يأتي في دعوات عديدة مأثورة عن النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، مثل: قوله في دعائه الجامع: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنَ الْخَيْرِ كُلِّهِ عَاجِلِهِ وَآجِلِهِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّرِّ كُلِّهِ عَاجِلِهِ وَآجِلِهِ**». رواه أحمد عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا[(١)]. ومثل: قوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في دعائه: «**اللَّهُمَّ احْفَظْنِي بِالْإِسْلَامِ قَائِمًا، وَاحْفَظْنِي بِالْإِسْلَامِ قَاعِدًا، وَاحْفَظْنِي بِالْإِسْلَامِ رَاقِدًا، وَلَا تُشمت بِي عَدُوًّا حَاسِدًا، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ خَزَائِنُهُ بِيَدِكَ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ كُلِّ شَرٍّ خَزَائِنُهُ بِيَدِكَ**». رواه الحاكم عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٢)].

قوله: «**إِنَّكَ تَقْضِي وَلَا يُقْضَى عَلَيْكَ**»، فيه التَّوسُّل إلى الله سبحانه بأنَّه يقضي على كلِّ شيء؛ لأنَّ له الحكمَ التَّامَّ والمشيئةَ النَّافذةَ والقدرة الشَّاملة، فهو سبحانه يقضي في عباده بما يشاء ويحكم فيهم بما يريد، لا رادَّ لحُكمه ولا معقِّب لقضائه.

---

(١) رواه أحمد (٢٥٠١٩)، وصحَّحه الألبانيُّ في صحيح الأدب المفرد (٤٩٨).
(٢) رواه الحاكم في المستدرك (١٩٢٤)، وصحَّحه الألبانيُّ في صحيح الجامع (١٢٦٠).

وقوله: «**وَلَا يُقْضَى عَلَيْكَ**»، أي: أنَّه سبحانه لا يقضي عليه أحدٌ من العباد بشيء، فالعباد لا يحكمون على الله، بل الله سبحانه هو الَّذي يحكم عليهم بما يشاء ويقضي فيهم بما يريد.

وقوله: «**إِنَّهُ لَا يَذِلُّ مَنْ وَالَيْتَ وَلَا يَعِزُّ مَنْ عَادَيْتَ**»، هذا كالتَّعليل لما سبق في قوله: «وَتَوَلَّنِي فِيمَنْ تَوَلَّيْتَ»؛ فإنَّ الله سبحانه إذا تولَّى العبدَ فإنَّه لا يُذَلُّ، وإذا عادى أحدًا فإنَّه لا يُعَزُّ. وقد كتب سبحانه الذُّلَّ على كلِّ عدوٍّ له، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ ٢٠ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ﴾ [المجادلة: ٢٠-٢١]، فمَن عادى الله عَزَّوَجَلَّ فهو ذليل لا يمكن أن يكون عزيزًا، فالأمر بيده سبحانه، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [آل عمران: ٢٦]، ولا تُطلب العزَّة إلَّا من الله ولا تُنال إلَّا بطاعته سبحانه، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨].

وقوله: «**تَبَارَكْتَ رَبَّنَا وَتَعَالَيْتَ**»، معنى تباركت، أي: تعاظمتَ يا الله؛ فلك العظمةُ الكاملة والكبرياء التَّامُّ، وعظُمَت أوصافُك وكثرت خيراتُك وعمَّ إحسانُك.

وقوله: «**وَتَعَالَيْتَ**»، أي: أنَّ لك العلوَّ المطلق ذاتًا وقَدْرًا وقهرًا؛ فهو سبحانه العَليُّ بذاته قد استوى على عرشه استواءً يليق بجلاله وكماله، والعليُّ بقَدْره وهو علوُّ صفاته وعظمتُها، فإنَّ صفاته عظيمةٌ لا يماثلها ولا يقاربها صفةُ أحد، والعليُّ بقهره حيث قَهَرَ كلَّ شيء ودانت له الكائناتُ بأسرها، فجميع الخلق نواصيهم بيده فلا يتحرَّك منهم متحرِّك ولا يسكن ساكن إلَّا بإذنه.

وعلى كلٍّ فهذا دعاءٌ عظيم جامع لأبواب الخير وأصول السَّعادة في

الدُّنيا والآخرة، فعلى المسلم أن يعتني به في وتره الَّذي يَختم به صلاة اللَّيل، ولا بأس لو زاد على ذلك الدُّعاءَ لعموم المؤمنين والاستغفارَ لهم، ثمَّ ختم بالصَّلاة والسَّلام على رسول الله ﷺ.

وعَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ فِي وِتْرِهِ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَأَعُوذُ بِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ**». رواه أبو داود والتِّرمذيُّ والنَّسائيُّ(١).

وقد دلَّ هذا الحديثُ العظيمُ على أنَّه لا مَفَرَّ إلَّا إلى الله، ولا مَلجَأَ منه إلَّا إليه، فأزِمَّةُ الأمور كلُّها بيده، ونواصي العباد معقودةٌ بقضائه وقدَره؛ الأمرُ كلُّه له، والحمدُ كلُّه له، والملك كلُّه له، والخيرُ كلُّه في يديه، فمنه تعالى المَنْجَى، وإليه المَلْجَأ، وبه الاستعاذة من شرِّ ما هو كائن بمشيئته وقدرته، فالإعاذة فعله، والمستعاذ منه فعله أو مفعوله الَّذي خلقه بمشيئته؛ وهذا كلُّه تحقيقٌ للتَّوحيد والقدر، وأنَّه لا ربَّ غيره ولا خالق سواه، ولا يملك المخلوقُ لنفسه ولا لغيره ضرًّا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا، بل الأمر كلُّه لله، ليس لأحدٍ سواه منه شيء.

وقوله في ختام هذا الدُّعاء: «**لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ**»، فيه الاعترافُ بأنَّ شأنَ الله سبحانه وعظمتَه وكمالَ أسمائه وصفاته أعظمُ وأجَلُّ من أن يُحصيها أحدٌ من الخلق، أو يبلغ أحد حقيقةَ الثَّناء عليه غيره سبحانه.

ومن السُّنَّة أن يقول بعد السَّلام من صلاة الوتر: «سُبْحَانَ الْمَلِكِ الْقُدُّوس» ثلاث مرَّات؛ لثبوت ذلك عن النَّبيِّ ﷺ، فعن عبد الرَّحمن بن أبزى رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ

(١) رواه أبو داود (١٤٢٧)، والتِّرمذيُّ (٣٥٦٦)، والنَّسائيُّ (١٧٤٧)، وصحَّحه الألبانيُّ.

قال: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يُوتِرُ بِـ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى:١]، وَ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الكافرون:١]، وَ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:١]، وَكَانَ يَقُولُ إِذَا سَلَّمَ: «**سُبْحَانَ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ ثَلاَثًا يَرْفَعُ صَوْتَهُ بِالثَّالِثَةِ**». رواه النَّسائيّ(١).

والحكمة من قراءة سورتَيْ الإخلاص في الوتر وكذلك في سنَّة الفجر: أنَّهما متضمِّنتان للتَّوحيد؛ فأمَّا ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ فهي متضمِّنة للتَّوحيد العمليِّ الإراديِّ، وهو إخلاص الدِّين لله بالقصد والإرادة، وأمَّا سورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فمتضمِّنة للتَّوحيد القوليِّ العلميِّ.

(١) رواه النَّسائيُّ (١٧٣٢)، وصحَّحه الألبانيُّ.

٧٣
دعاء الاستخارة

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يُعَلِّمُنَا الِاسْتِخَارَةَ فِي الأُمُورِ كَمَا يُعَلِّمُنَا السُّورَةَ مِنَ الْقُرْآنِ، يَقُولُ: «**إِذَا هَمَّ أَحَدُكُمْ بِالأَمْرِ فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ الْفَرِيضَةِ، ثُمَّ لِيَقُلِ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ، وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ الْعَظِيمِ؛ فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلَا أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ وَلَا أَعْلَمُ، وَأَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الأَمْرَ خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي -أَوْ قَالَ: عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ- فَاقْدُرْهُ لِي وَيَسِّرْهُ لِي ثُمَّ بَارِكْ لِي فِيهِ، وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الأَمْرَ شَرٌّ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي -أَوْ قَالَ: فِي عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ- فَاصْرِفْهُ عَنِّي وَاصْرِفْنِي عَنْهُ، وَاقْدُرْ لِيَ الْخَيْرَ حَيْثُ كَانَ، ثُمَّ أَرْضِنِي**»، قَالَ: «**وَيُسَمِّي حَاجَتَهُ**». رواه البخاريُّ[(١)].

هذا الدعاءُ العظيمُ المباركُ الَّذي أرشد إليه النَّبيُّ ﷺ في هذا المقام، مقام طلب الخيرة في الأمر الَّذي يقدم عليه المسلمُ وهو متردِّد في مآله؛ هل هو إلى خير أو إلى شرٍّ، وهل هو إلى نفع أو إلى ضرٍّ، وهو عِوضٌ لأمَّة الإسلام عمَّا كان عليه أهل الجاهليَّة من زَجْر الطَّير والاستقسام بالأزلام؛ إذا بَدَتْ للواحد منهم حاجةٌ: من نكاح، أو سفر، أو بيع، أو نحو ذلك، فيطلبون بذلك علم ما قُسم لهم في الغيب، وهذا ضلالٌ وسَفَهٌ كان عليه أهل الجاهليَّة، وأمَّا أمَّةُ الإسلام فقد هداهم الله تعالى إلى مَراشد الأمور ومفاتيح الخير وسُبل

(١) رواه البخاريُّ (١١٦٢).

السَّعادة في الدُّنيا والآخرة، ومن ذلكم هذا الدُّعاء العظيم الَّذي هُديت إليه أمَّة الإسلام.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وعوَّضهم بهذا الدُّعاء الَّذي هو توحيدٌ وافتقارٌ وعبوديَّةٌ وتوكُّلٌ وسؤالٌ لمَن بيده الخيرُ كلُّه، الَّذي لا يأتي بالحسنات إلَّا هو، ولا يصرف السَّيِّئات إلَّا هو، الَّذي إذا فتح لعبده رحمةً لَم يستطع أحدٌ حبسَها عنه، وإذا أمسكها لَم يستطع أحد إرسالَها إليه، من التَّطيُّر والتَّنجيم واختيار الطَّالع ونحوه، فهذا الدُّعاءُ هو الطَّالع الميمون السَّعيد، طالعُ أهل السَّعادة والتَّوفيق، الَّذين سبقت لهم من الله الحسنى، لا طالع أهل الشِّرك والشَّقاء والخذلان الَّذين يجعلون مع الله إلَهًا آخر فسوف يعلمون. فتضمَّن هذا الدُّعاءُ الإقرارَ بوجوده سبحانه، والإقرارَ بصفات كماله من كمال العلم والقدرة والإرادة، والإقرارَ بربوبيَّته، وتفويضَ الأمر إليه، والاستعانةَ به، والتَّوكُّلَ عليه، والخروجَ من عهدة نفسه والتَّبرِّي من الحول والقوَّة إلَّا به، واعترافَ العبد بعجزه عن علمه بمصالح نفسه وقدرته عليها وإرادته لها، وأنَّ ذلك كلَّه بيد وليِّه وفاطره وإلَهه الحقِّ...» إلى أن قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والمقصود أنَّ الاستخارةَ توكُّلٌ على الله وتفويضٌ إليه واستقسامٌ بقُدرته وعلمه وحسن اختياره لعبده، وهي من لوازم الرِّضَى به ربًّا، الَّذي لا يذوق طَعم الإيمان مَن لَم يكن كذلك، وإن رَضِيَ بالمقدور بعدها فذلك علامة السَّعادة». اهـ كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١).

وما ندم مَن استخار ربَّه بعلمه المحيط بكلِّ شيء، واستقْدَرَه بقدرته الكاملة على كلِّ شيء، وسأله سبحانه من فضله العظيم.

وقولُ جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُعَلِّمُنَا الاِسْتِخَارَةَ فِي الْأُمُورِ**

(١) انظر: زاد المعاد (٢/ ٤٠٥).

كُلِّهَا كَمَا يُعَلِّمُنَا السُّورَةَ مِنَ القُرْآنِ»، فيه دلالةٌ على شدَّة اهتمام النَّبيِّ ﷺ بهذا الُّدعاء والمحافظة عليه والعناية به.

وقوله: «**يَقُولُ لَنَا: إِذَا هَمَّ أَحَدُكُمْ بِالْأَمْرِ**»، أي: من الأمور الَّتي لا يدري ما عاقبتها، مثل: السَّفر أو الزَّواج أو نحو ذلك، ولا استخارة في فعل الواجب أو ترك المحرَّم.

وقوله: «**فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ الفَرِيضَةِ**»، أي: فليُصَلِّ ركعتين من غير الصَّلوات المفروضة، وذلك لتكون صلاتُه مفتاحًا له لنيل الخير، وسببًا لإجابة مطلوبه وتحقيق مرغوبه، ولم يأتِ في شيء من طرق الحديث تعيين قراءة معيَّنة من آي القرآن أو سورهِ لتُقرأ في هذه الصَّلاة؛ ولذا يقرأُ المستخيرُ ما يسَّرَه الله له من القرآن دون التزام شيء معيَّن.

وقوله: «**ثُمَّ لِيَقُلْ**»، ظاهره أنَّ الدُّعاء يكون بعد الفراغ من الصَّلاة، أي: بعد أن يسلِّم، ويحتمل أنَّ ذلك قبل السَّلام، أي: بعد الفراغ من أذكار الصَّلاة ودعائها. والأَوْلى الأوَّل، أي: أن يكون الدُّعاء بعد السَّلام.

والأفضلُ أن يرفع يديه عند الدُّعاء؛ لأنَّ رفعَهما من أسباب إجابة الدُّعاء.

عَنْ سَلْمَانَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ رَبَّكُمْ** تبارك وتعالى **حَيِيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحْيِي مِنْ عَبْدِهِ إِذَا رَفَعَ يَدَيْهِ إِلَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا**». رواه أبو داود والتِّرمذيُّ وابن ماجه(١).

ومَن كان لا يحفظ الدُّعاءَ وقرأه من كتاب فلا حرج عليه، وعليه أن يجتهد في إحضار قلبه، والخشوع لله والصِّدق في الدُّعاء، والتَّأمُّل في معاني

(١) رواه أبو داود (١٤٨٨)، والتِّرمذيُّ (٣٥٥٦)، وابن ماجه (٣٨٦٥)، وصحَّحه الألبانيُّ.

هذا الدُّعاء العظيم. ومَن لم يكن حافظًا للدُّعاء وليس بحضرته كتابٌ واحتاج إلى الاستخارة؛ فإنَّه يصلِّي ركعتين ويدعو بما تيسَّر له من معاني طلب الخيرة.

وقوله: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ**»، أي: أطلب منك يا الله أن تختار لي الخيرَ من الأمور والأرشدَ منها بعلمك المحيط بكلِّ شيء، بما كان، وبما سيكون، وبما لَم يكن أن لو كان كيف يكون.

وقوله: «**وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ**»، أي: أطلب منك أن تقدِّرني عليه بقدرتك على كلِّ شيء.

وقوله: «**وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ العَظِيمِ**»، أي: أطلب منك يا الله أن تكرمَني بفضلك وتَمُنَّ عليَّ بعطائك؛ لأنَّك أنت المتفضِّلُ وحدَك والمنْعِمُ لا شريك لك.

وقوله: «**فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلَا أَقْدِرُ وَتَعْلَمُ وَلَا أَعْلَمُ، وَأَنْتَ عَلَّامُ الغُيُوبِ**»، فيه الإيمانُ بقدرة الله على كلِّ شيء، وعلمه بكلِّ شيء، وأنَّه لا يعزب عن علمه شيءٌ في الأرض ولا في السَّماء، وفيه الاعترافُ بضعف العبد وعجزه وافتقاره إلى سيِّده ومولاه.

وقوله: «**اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الأَمْرَ**»، ويُسَمِّيه بعينه، إن كان زواجًا أو بيعًا، أو سفرًا، أو غيرَ ذلك. وقوله: «إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ» يرجع إلى عدم علم العبد بعاقبة أمره، وأمَّا الرَّبُّ سبحانه فعلمُه محيطٌ بكلِّ شيء. وهذا لا يتنافى مع ما ثبت في الصَّحيح عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**لَا يَقُلْ أَحَدُكُمُ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ ارْحَمْنِي إِنْ شِئْتَ ارْزُقْنِي إِنْ شِئْتَ وَلْيَعْزِمْ مَسْأَلَتَهُ إِنَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ لَا مُكْرِهُ لَهُ**»(١).

(١) رواه البخاريُّ (٧٤٧٧)، ومسلم (٢٦٧٩).

قال ابن سعديٍّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فالمطالب الدِّينيَّة كسؤال الرَّحمة والمغفرة، والمطالب الدُّنيويَّة المعينة على الدِّين كسؤال العافية والرِّزق وتوابع ذلك، قد أمر العبد أن يسألها من ربِّه طلبًا ملحًّا جازمًا، وهذا الطَّلب عين العبوديَّة ومحلُّها، ولا يتمُّ ذلك إلَّا بالطَّلب الجازم الَّذي ليس فيه تعليق بالمشيئة؛ لأنَّه مأمور به، وهو خيرٌ محض لا ضرر فيه، والله تعالى لا يتعاظمه شيء.

وبهذا يظهر الفرق بين هذا وبين سؤال بعض المطالب المعيَّنة الَّتي لا يتحقَّق مصلحتها ومنفعتها، ولا يجزم أنَّ حصولها خير للعبد؛ فالعبد يسأل ربَّه ويعلِّقه على اختيار ربِّه له أصلح الأمرين، كالدُّعاء المأثور: «**اللَّهُمَّ أَحْيِنِي إِذَا كَانَتِ الحَيَاةُ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا عَلِمْتَ الوَفَاةَ خَيْرًا لِي**»[(١)]، وكدعاء الاستخارة. فافهم هذا الفرق اللَّطيف البديع بين طلب الأمور النَّافعة المعلوم نفعها، وعدم ضررها، وأنَّ الدَّاعي يجزم بطلبها ولا يعلِّقها، وبين طلب الأمور الَّتي لا يدري العبد عن عواقبها ولا رجحان نفعها على ضررها؛ فالدَّاعي يعلِّقها على اختيار ربِّه الَّذي أحاط بكلِّ شيء علمًا وقدرةً ورحمةً ولطفًا»[(٢)].

وقوله: «**خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي**»، قدَّم الدِّين لأنَّه الأهمُّ، فإذا سَلِمَ الدِّين فالخيرُ حاصلٌ، وإذا اختَلَّ فلا خير بعده.

وقوله: «**أَوْ قَالَ عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ**»، هذا شكٌّ من الرَّاوي، وهما يؤدِّيان للمعنى السَّابق.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإنَّ الرَّاوي شكَّ، هل قال النَّبيُّ: اللَّهمَّ إن كنت تعلم أنَّ هذا خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري، أو قال وعاجل أمري وآجله بدل وعاقبة أمري؟ والصَّحيح اللَّفظ الأوَّل، وهو قوله: «**وعاقبة**

---

(١) رواه النَّسائيُّ (١٣٠٥)، وصحَّحه الألبانيُّ.

(٢) القول السَّديد (ص١٦٤).

أمري»؛ لأنَّ عاجل الأمر وآجله هو مضمون قوله: «**ديني ومعاشي وعاقبة أمري**»، فيكون الجمع بين المعاش وعاجل الأمر وآجله تكرارًا، بخلاف ذكر المعاش والعاقبة؛ فإنَّه لا تكرار فيه، فإنَّ المعاش هو عاجل الأمر، والعاقبة آجله»(١).

قوله: «**خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي**»، بدأها بالدِّين الَّذي هو أعظم الأمور، كما بدأ به في دعائه الجامع «اللَّهُمَّ أَصْلِحْ لِي دِينِي الَّذِي هُوَ عِصْمَةُ أَمْرِي، وَأَصْلِحْ لِي دُنْيَايَ الَّتِي فِيهَا مَعَاشِي، وَأَصْلِحْ لِي آخِرَتِي الَّتِي فِيهَا مَعَادِي، وَاجْعَلِ الْحَيَاةَ زِيَادَةً لِي فِي كُلِّ خَيْرٍ، وَاجْعَلِ الْمَوْتَ رَاحَةً لِي مِنْ كُلِّ شَرٍّ»(٢)، وذلك أَنَّ صلاح الدِّين صلاحٌ لما وراءه، وفساده فسادٌ لما وراءه.

وقوله: «**فاقدُرْه لِي وَيَسِّرْهُ لِي**»، أي: اجعله لي مقدَّرًا وميَسَّرًا.

وقوله: «**ثُمَّ بَارِكْ لِي فِيهِ**»، أي: أَدِمْه عليَّ وضاعفه، فالبَركةُ تتضمَّن ثبوتَ النِّعمة ونُمُوَّها.

وقوله: «**وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الأَمْرَ شَرٌّ لِي...**» إلى آخر الدُّعاء، فيه سؤالُ الله أن يصرفَ هذا الأمرَ عن باله، وأن يباعدَ بينه وبينه، وأن يكتب له الخيرَ حيث كان، وأن يرزقَه الرِّضا بما قسم الله من وجود ذلك الأمر إن وجد، أو عدمه إن عُدم. والخيرُ فيما يختاره الله، والتَّوفيق بيده سبحانه، وهو الهادي وحده إلى سواء السَّبيل.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما ندم من استخار الخالق وشاور المخلوقين وثبت في أمره»(٣)، أي: ما ندم مَن طلب من خالقه أن يختار له

(١) انظر: جلاء الأفهام (ص٤٢٣).
(٢) رواه مسلم (٢٧٢٠).
(٣) انظر: المستدرك على مجموع الفتاوى (٣/ ١١٣).

الخير وفوَّض أمره إلى الله، ثمَّ شاور أهل العقل وأهل الدِّراية عملًا بقوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، ثمَّ ثبت في أمره؛ فلا يكون بعد الاستخارة والاستشارة مضطربًا وقلِقًا ومتردِّدًا، بل يمضي فيما اطمئنَّ قلبه إليه ويثبت في أمره متوكِّلًا على الله كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

٧٤
أذكار الكرب والغمِّ والهمِّ والحزن (١)

إنَّ ذكر الله عَزَّوَجَلَّ هو طُمأنينةُ القلوب، وأنسُ النُّفوس، وذهابُ الهموم والغموم، كما قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ [الرَّعد: ٢٨]، فطُمأنينة القلب وزوال همِّه وغمِّه وحزنِه إنَّما يكون بذكر الله وتعظيمه، وعمارة القلب بالإيمان به سبحانه.

وقد جاء عن النَّبيِّ ﷺ أذكارٌ عديدة، أرشد صلوات الله وسلامه عليه مَنْ أصابه كربٌ أو حلَّ به همٌّ أو نزل به غمٌّ؛ أن يفزع إليها، وأن يُحافظ عليها، وأن يأتي بها ليزول عنه ما يجد، وليذهب عنه ألمه وهمُّه وغمُّه، **وقد ورد في هذا الباب أحاديث عديدة نقف -بإذن الله- على طائفةٍ منها.**

روى البخاريُّ ومسلم في «صحيحيهما» عن ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان يقول في الكرب: «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ العَظِيمُ الحَلِيمُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ رَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَرَبُّ الأَرْضِ وَرَبُّ العَرْشِ الكَرِيمِ**»(١).

وروى أبو داود في «سننه» وابن ماجه عن أَسْمَاءَ بِنْتِ عُمَيْسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ لِي رَسُولُ الله ﷺ: «**أَلَا أُعَلِّمُكِ كَلِمَاتٍ تَقُولِينَهُنَّ عِنْدَ الكَرْبِ، تقولين: اللهُ، اللهُ رَبِّي لَا أُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا**»(٢).

وروى أبو داود في «سننه» عن أبي بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**دَعَوَاتُ**

---

(١) رواه البخاريُّ (٦٣٤٦)، ومسلم (٢٧٣٠).
(٢) رواه أبو داود (١٥٢٥)، وابن ماجه (٣٨٨٢)، وصحَّحه الألبانيُّ.

المَكْرُوبِ: اللَّهُمَّ رَحْمَتَكَ أَرْجُو، فَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ وَأَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ»(١).

وروى التِّرمذيُّ في «سننه» عن سعد بن أبي وقَّاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**دَعْوَةُ ذِي النُّونِ إِذْ دَعَا وَهُوَ فِي بَطْنِ الحُوتِ: لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنْ الظَّالِمِينَ، فَإِنَّهُ ما دَعَا بِهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا اسْتَجَابَ اللهُ لَه**»(٢).

هذه الأحاديثُ الأربعةُ عظيمةُ الشَّأن وهي صحيحةٌ ثابتةٌ عن النَّبيِّ ﷺ؛ فيها علاجٌ للكرب الَّذي يُصيب الإنسان، ودواءٌ للغمِّ والحزن والهمِّ. فمَن أتى بها متأمِّلًا معانيها محقِّقًا مقاصدها؛ لن يبقَ في قلبه من الهمِّ والغمِّ مقدارُ ذرَّة؛ فإنَّها دواءٌ نافعٌ وعلاجٌ مباركٌ وشفاءٌ لما في الصُّدور، ولكن يحتاج المسلم إذا قال هذه الأذكار المباركة أن يتأمَّل في معناها، وأن يعرف مدلولها، وأن يُحقِّق مقصودها؛ فإنَّ الإتيان بالأذكار المأثورة والدَّعوات المشروعة بدون علمٍ بالمعنى وتفقُّهٍ في الدَّلالة، ضعيفُ التَّأثير، قليل الفائدة.

ولو تأمَّلنا في هذه الأذكار الأربعة الَّتي أخبر النَّبيُّ ﷺ أنَّها علاج للكرب؛ لوجدنا أنَّها تَشترك في شيء واحد؛ وهو تحقيق التَّوحيد الَّذي خُلق العبد لأجله وأُوجد لتحقيقه، التَّوحيد الَّذي هو إخلاص العبادة لله وإخلاص الدِّين له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، إذ هو المَفزَع للمسلم في كرباته وفي جميع همومه وغمومه، ولا زوال للهموم والغموم إلَّا إذا حقَّق العبد التَّوحيد وفزِع إلى الله وأخلص دينه لله.

❀ **أمَّا الحديث الأوَّل:** حديث ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ النَّبيَّ ﷺ يقول في

---

(١) رواه أبو داود (٥٠٩٠)، وحسَّنه الألبانيُّ.

(٢) رواه التِّرمذيُّ (٣٥٠٥)، وصحَّحه الألبانيُّ.

الكرب: «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ العَظِيمُ الحَلِيمُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ رَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَرَبُّ الأَرْضِ وَرَبُّ العَرْشِ الكَرِيمِ**»؛ فعندما يقول المكروب هذا الذِّكر المبارك، وهو يتأمَّل معناه ويقف عند دلالته؛ فإنَّه يجدِّد توحيد الله في قلبه، وأنَّه إنَّما خُلق للتَّوحيد وأُوجد لأجل تحقيقه، فيشغل قلبَه بـ«لا إله إلَّا الله» لتكون هي أكبرَ همِّه وشُغل قلبه، فهو لم يُخلَق إلَّا لأجلها ولم يوجد إلَّا لتحقيقها، فهي مقصودُ الخليقة وأساسُ إيجاد النَّاس: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذَّاريات: ٥٦].

و«**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**»، معناها: لا معبود بحقٍّ إلَّا الله، فيها نفيٌ وإثباتٌ؛ نفيٌ للعبوديَّة عن كلِّ مَنْ سوى اللهِ، وإثباتٌ للعبوديَّة بجميع معانيها لله وحده. فالَّذي يقول: «**لا إله إلَّا الله**» صادقًا لا يسأل إلَّا الله، ولا يستغيث إلَّا بالله، ولا يلتجأ إلَّا إلى الله، ولا يعتمد إلَّا على الله، ولا يتوكَّل إلَّا على الله، ولا يطلب شفاءَ هُمُومِه وغمومِه وأحزانِه إلَّا مِنَ الله.

وإذا قال «**لا إله إلَّا الله العظيم الحليم**»: يذكر عظمة الله، وأنَّ الله هو الكبير المتعال، العليُّ العظيم، وكمال قوَّته، وكمال اقتداره، وإحاطته بخلقه، وأنَّه لا يعجزه شيءٌ في الأرض ولا في السَّماء، ويذكر عظيم حلمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وإذا قال: «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ رَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَرَبُّ الأَرْضِ وَرَبُّ العَرْشِ الكَرِيمِ**»، يذكر خلقَ الله للعرش، ذلك المخلوق الَّذي هو أكبر المخلوقات وأوسعها، ولهذا وُصف في هذا الذِّكر بأنَّه عظيم، ووصف بأنَّه كريم، والكَرَمُ: هو السَّعة، و«العرش» فهو أوسع المخلوقات وأكبرها، فيتذكَّر عظمة الله بتذكُّر عظمة مخلوقاته الَّتي أوجدها سبحانه. كذلك يذكر خلقه للسَّموات وللأرض؛ فيذكر هذه المعاني الجليلة وهو يردِّد هذه الكلمات لينشغل قلبُه بتعظيم خالقها وكمال مبدعها وتحقيق توحيده،

لِيَنْصَبِغ قلبه بذلك، فأيُّ بقيَّةٍ تبقى للهمِّ أو الغمِّ أو الحزن مادام القلب منشغلًا بذلك؟!

۞ **وفي الحديث الثَّاني** حديث أسماء بنت عميس رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا قال: «**أَلَا أُعَلِّمُكِ كَلِمَاتٍ تَقُولِينَهُنَّ عِنْدَ الكَرْبِ**»، وهذا منه عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ تشويقٌ لها إلى الفائدة وترغيبٌ لها، فلمَّا اشتاق قلبُها رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا إلى ذلك؛ علَّمها، قال: «**تقولين: اللهُ اللهُ ربِّي، لَا أُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا**»، وهذا فزع إلى التَّوحيد لينجلي الكرب.

وقوله: «**الله**»، الأولى: مبتدأٌ، والثَّانية: تأكيد لفظيٌّ له؛ لعظم الأمر وكِبَرِ المقام، وهو توحيد الله وإخلاص الدِّين له، تتكرَّر هذه الكلمة مرَّتين حتَّى تملأ القلب وهو يتأمَّلها. ومعنى «**الله**»، أي: ذو الألوهيَّة، وذو العبوديَّة على خلقه أجمعين، الَّذي تُصرف له جميع أنواع الطَّاعات.

ومعنى قوله: «**الله ربِّي**»، أي: عبادتي وتوجُّهي واعتمادي وقصدي والْتِجَائي كلُّه لربِّي الَّذي خلقني، و«الرَّبُّ» هو: الخالق الرَّازق المنعِم المدبِّر المتصرِّف المدبِّر في شؤون خلقه كلِّها، الَّذي بيده أزمَّة الأمور. وهذا هو معنى قول الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١].

وقوله: «**لَا أُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا**»، هذا فيه البراءة من الشِّرك والخلوص منه. فعلاج الهمِّ: إخلاصُ التَّوحيد والبراءةُ من الشِّرك؛ بأن يعتمِدَ العبدُ على ربِّه في كلِّ ملمَّاته وفي جميع أموره ومهمَّاته.

فإذا قال المسلمُ هذه الكلمة العظيمة ذهب عنه الكربُ؛ لأنَّ قلبه انشغل بأعظم الأمور وأوجب الواجبات وأجلِّ المقاصد وأعظم الغايات؛ وهو توحيد الله، فلا يبقى للغمِّ فيه مكانٌ؛ لأنَّه منشغلٌ بالتَّوحيد وبالإيمان وبالإخلاص للرَّبِّ العظيم سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

ﮰ **وفي الحديث الثَّالث** حديث أبي بكرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «**دَعَوَاتُ الْمَكْرُوبِ** -يعني دعوات مَن أصابه كرب- **أَنْ يَقُولَ: اللَّهُمَّ رَحْمَتَكَ أَرْجُو فَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَأَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ**»، وما أعظمها من دعوات!

قوله: «**اللَّهُمَّ رَحْمَتَكَ أَرْجُو**»، أي: رحمتك وحدك يا الله أرجو، لا أرجو رحمةَ أحدٍ سواك؛ وهذا فيه الإخلاص وفيه التَّوحيد، وأصل الجملة: «أرجو رحمتك»، وتقدُّم المعمولُ على العامل يفيد الحصر؛ فيبدأ دعوته لطرد الكرب الَّذي أصابه بهذا التَّوحيد واللُّجوء إلى الله: «اللَّهُمَّ رَحْمَتَكَ أَرْجُو»، أي: أرجو الرَّحمة منك وأطلبها منك، ولا أطلبها من أحدٍ سواك.

وقوله: «**فَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ**»، هذا فيه افتقار العبد الكامل إلى الله في كلِّ لحظة من لحظاته، وفي كلِّ سكونٍ من سكناته، فلا غنى له عن ربِّه ومولاه طَرْفَةَ عَيْنٍ. ومن وُكل إلى نفسه أو إلى أحد غير الله ضاع، ولهذا من نعمة الله عليك أن لا يكِلَك إلَّا إليه؛ لأنَّه إذا وَكَلك إليه سبحانه وكَلَك إلى قوَّة وعزَّة وقهر وسلطان: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطَّلاق: ٣]، ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزُّمر: ٣٦].

وقوله: «**وَأَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ**»، هذا فيه افتقار العبد إلى الله في إصلاح شأنه كلِّه في دينه ودنياه وآخرته، لا يصلُح شيء من ذلك إلَّا إذا أصلحه الله؛ كما في الدُّعاء المأثور: «اللَّهُمَّ أَصْلِحْ لِي دِينِي الَّذِي هُوَ عِصْمَةُ أَمْرِي، وَأَصْلِحْ لِي دُنْيَايَ الَّتِي فِيهَا مَعَاشِي، وَأَصْلِحْ لِي آخِرَتِي الَّتِي فِيهَا مَعَادِي، وَاجْعَلِ الحَيَاةَ زِيَادَةً لِي فِي كُلِّ خَيْرٍ، والمَوْتَ رَاحَةً لِي مِنْ كُلِّ شَرٍّ». رواه مسلم(١).

وقوله في تمامه: «**لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ**»، فزعٌ إلى التَّوحيد لزوال الكرب.

(١) رواه مسلم (٢٧٢٠).

والحديث الرَّابع: حديث سعد بن أبي وقَّاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**دَعْوَةُ ذي النُّونِ إذْ دَعَا وَهُوَ فِي بَطْنِ الحُوتِ لَا إلَهَ إلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إنِّي كُنْتُ مِنْ الظَّالِمِينَ، فَإِنَّهُ ما دَعَا بِهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ فِي شَيْءٍ قَطُّ إلَّا اسْتَجَابَ اللهُ لَه**»؛ تضمَّنت هذه الكلمة أمورًا أربعةً؛ **يأتي بها العبد ثقة بالله واعتمادًا عليه أنْ يفرِّج همَّه:**

الأوَّل: التَّوحيد «لا إله إلَّا أنت».

الثَّاني: تنزيه الله في قوله: «سبحانَكَ»، ومعنى سبحانك: أنزِّهك -يا الله- عن كلِّ ما لا يليق بك.

الثَّالث: الاعتراف بالظُّلم والتَّقصير «إنِّي كنتُ مِنَ الظَّالمين».

الرَّابع: العبوديَّة لله، باعترافك بأنَّك عبدٌ لله لا غنى لك عنه طَرْفَة عيْن.

فهذا علاجٌ عظيم وشفاءٌ مبارك للكُرَب والغموم.

٧٥

أذكار الكرب والغمِّ والهمِّ والحزن (٢)

قد يُصاب العبدُ في هذه الحياة بآلامٍ متنوِّعة، وقد يَرِدُ على قلبه وارِدَاتٌ متَعدِّدةٌ تؤَرِّق قلبَه وتُؤْلِمُ نفسَه، وتَجلبُ له الكدَرَ والضِّيقَ.

* فإن كان هذا الألَمُ الَّذي يُصيبُ القلبَ متعلِّقًا بأمورٍ ماضية فهو «حُزن».
* وإن كان متعلِّقًا بأمور مستقبَلَة فهو «هَمٌّ».
* وإن كان متعلِّقًا بواقع الإنسان وحاضره فهو «غَمٌّ».

وهذه الأمور الثَّلاثة: «الحزنُ»، و«الهمُّ»، و«الغَمُّ». إنَّما تزول عن القلب وتَنْجَلي عن الفؤاد بالعودة الصَّادقة إلى الله، وتَمام الانكسار بين يديه، والتَّذَلُّل له سبحانه، والخضوع له، والاستسلام لأمره، والإيمان بقضائه وقدره، ومعرفته سبحانه، ومعرفةِ أسمائه وصفاته، والإيمانِ بكتابه، والعناية بقراءته وتدبُّره والعمل بما فيه، فبذلك لا بغيره تزولُ هذه الأمور وينشرح الصَّدرُ وتتحقَّق السَّعادة.

جاء في المسند للإمام أحمد وصحيح ابن حبَّان وغيرهما عن عبد الله ابن مسعود رَضِوَاللَّهُعَنهُ أنَّ النَّبيّ ﷺ قال: «**مَا قَالَ عَبْدٌ قَطُّ إِذا أَصَابَهُ هَمٌّ أَوْ حُزْنٌ: «اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ وَابْنُ عَبْدِكَ وابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكِ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ**

تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجَلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي»؛ إِلَّا أَذْهَبَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ **هَمَّهُ، وَأَبْدَلَهُ مَكَانَ حُزْنِهِ فَرَحًا»**، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَعَلَّمَ هَؤُلَاءِ الكَلِمَاتِ؟ قَالَ: «**أَجَلْ، يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهُنَّ أَنْ يَتَعَلَّمَهُنَّ**»[(١)].

فهذه كلماتٌ عظيمةٌ ينبغي على المسلم أن يتعلَّمها، وأن يحرِصَ على قولها عندما يُصاب بالحزن أو الهمِّ أو الغمِّ، وليعلم كذلك أنَّ هؤلاء الكلمات إنَّما تكون نافعةً له إذا فَهِم مدلولَها، وحقَّق مقصودَها، وعمل بما دلَّت عليه، أمَّا الإتيانُ بالأدعية المأثورة والأذكار المشروعة دون فهمٍ لمعانيها، ودون تحقيق لمقاصدها؛ فإنَّ هذا قليلُ التَّأثير عديمُ الفائدة.

❑ **وإذا تأمَّلنا هذا الدُّعاءَ نجدُ أنَّه يتضمَّن أربعة أصول عظيمة. لا سبيل للعبد إلى نيل السَّعادة وزوال الهمِ والغمِّ والحزن إلَّا بالإتيان بها وتحقيقها:**

❧ **أمَّا الأصل الأوَّل:** فهو تحقيقُ العبادة لله، وتَمام الانكسار بين يديه، والخضوع له، واعترافه بأنَّه مخلوق لله مَملوكٌ له هو وآباؤه وأمَّهاتُه ابتداءً من أبويه القريبين وانتهاءً إلى آدم وحوَّاء، ولهذا قال: «**اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ وَابْنُ عَبْدِكَ وَابْنُ أَمَتِكَ**»، فالكلُّ مماليك لله، وهو خالقُهم وربُّهم وسيِّدُهم ومدَبِّر شؤونهم، الَّذي لا غنى لهم عنه طرفة عين، وليس لهم مَن يعوذون به ويلوذون به سواه، ومن تحقيق ذلك التزام العبد عبوديَّته سبحانه من الذُّلِّ والخضوع والانكسار، والإنابة وامتثال الأوامر واجتناب النَّواهي، ودوام الافتقار إليه واللَّجأ إليه، والاستعانة به والتَّوكُّل عليه والاستعاذة به، وأن لا يتعلَّق القلبُ بغيره محبَّةً وخوفًا ورجاءً.

❧ **وأمَّا الأصل الثَّاني:** فهو أن يؤمن العبدُ بقضاء الله وقَدَره، وأنَّ ما شاء الله

---

(١) رواه أحمد (٤٣١٨)، وابن حبَّان (٩٧٢)، وصحَّحه الألبانِيُّ في السِّلسلة الصَّحيحة (١٩٩).

كان وما لَم يشأ لَم يكن، وأنَّه سبحانه لا مُعَقِّبَ لحُكمه ولا رادَّ لقضائه، قال الله تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢]، ولهذا قال في هذا الدُّعاء «**نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ**»، فناصيةُ العبد -وهي مُقدَّمُ رأسه- بيد الله يتصرَّف فيها كيف يشاء، ويَحكم فيها بما يريد، لا مُعَقِّبَ لحُكمه ولا رادَّ لقضائه، فحياةُ العبد وموتُه، وسعادتُه وشقاوتُه، وعافيتُه وبلاؤه، كلُّ ذلك إليه سبحانه، ليس إلى العبد منه شيء. وإذا آمن العبدُ بأنَّ ناصيتَه ونواصي العباد كلَّها بيد الله وحده يصرِّفهم كيف شاء؛ لَم يخف بعد ذلك منهم، ولم يَرجُهم، ولَم يُنزِلْهم مَنْزِلَة المالكين، ولم يُعلِّق أملَه ورجاءَه بهم، وحينئذ يستقيمُ له توحيدُه وتوكُّلُه وعبوديَّتُه، ولهذا قال هود عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦].

ولهذا فإنَّ للإيمان بالقدر أثرًا مباركًا على العبد في راحة قلبه وطُمأنينة نفسه، ولهذا قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ؛ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ**». رواه مسلم(١). فالمؤمن في السَّراء يعلم أنَّها نعمة من الله؛ فيحمد الله عليها، وفي الضَّراء يعلم أنَّ المصيبة بقضاء الله، وأنَّ ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن؛ فيصبر عليها، فهو في النِّعمة ينال ثواب الشَّاكرين، وفي المصيبة ينال ثواب الصَّابرين، وهذا لا يكون إلَّا للمؤمن.

وقوله: «**مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ**»، يتناول الحُكمين: الحكمَ الدِّينيَّ الشَّرعيَّ، والحكمَ القدريَّ الكونيَّ؛ فكلاهما ماضيان في العبد شَاءَ أَمْ أَبَى؛ لأنَّ الحكم الكونيَّ القدريَّ لا يمكن مخالفتُه، وأمَّا الحكمَ الدِّينيَّ الشَّرعيَّ فقد يخالفُه العبدُ ويكون متعرِّضًا للعقوبة، بحسب ما وقع فيه من مخالفة.

---

(١) رواه مسلم (٢٩٩٩).

وقوله: «**عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ**»، يتناول جميعَ أقضيته سبحانه في عبده من كلِّ الوجوه؛ من صحة وسُقم، وغنًى وفقر، ولَذَّة وألَم، وحياةٍ وموت، وعقوبةٍ وتجاوز، وغير ذلك، فكلُّ ما يقضي على العبد فهو عَدلٌ فيه ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ [فصِّلت: ٤٦].

والأصلُ الثَّالث: أن يؤمنَ العبدُ بأسماء الله الحسنى وصفاته العظيمة الواردة في الكتاب والسُّنَّة، ويتوسَّلَ إلى الله بها، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ [الإسراء: ١١٠].

والعبدُ كلَّما كان عظيمَ المعرفة بالله وأسمائه وصفاته زادت خشيتُه له، وعَظُمت مراقبتُه له، وازدادَ بُعْدًا عن معصيته والوقوع فيما يسخطه، كما قال بعض السَّلفُ: «مَنْ كَانَ بِاللهِ أَعْرَفَ كَانَ مِنْهُ أَخْوَفَ»[(١)]، ولهذا فإنَّ أعظمَ ما يَطرُدُ الهمَّ والحزنَ والغمَّ؛ أن يعرفَ العبدُ ربَّه، وأن يَعمُرَ قلبَه بمعرفته سبحانه، وأن يتوسَّلَ إليه بأسمائه وصفاته، ولهذا قال: «**أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوَ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الغَيْبِ عِنْدَكَ**».

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فجعل أسماء الله ثلاثة أقسام: **قسمٌ**: سمَّى به نفسه فأظهره لمَن شاء من ملائكته، أو غيرهم ولم ينزل به كتابه، **وقسمٌ**: أنزل به كتابه فتعرَّف به إلى عباده، **وقسمٌ**: استأثر به في علم غيبه فلم يُطلِع عليه أحدًا من خلقه؛ ولهذا قال: (استأثرت به)، أي: تفرَّدت بعلمه»[(٢)].

(١) قاله أحمدُ بنُ عاصم الأنطَاكيُّ، كما في تعظيم قدر الصَّلاة للمروزيِّ (٧٨٦).
(٢) بدائع الفوائد (١/ ٢٩٣).

فهذا توسُّلٌ إلى الله بأسمائه كلِّها ما عَلِمَ العبدُ منها وما لَم يعلم، وهذا أحبُّ الوسائل إلى الله سبحانه.

والأصلُ الرَّابع: هو العنايةُ بالقرآن الكريم، كلام الله عَزَّوَجَلَّ الَّذي لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه، المشتمل على الهداية والشِّفاء والكفاية والعافية، والعبدُ كلَّما كان عظيمَ العناية بالقرآن تلاوةً وحفظًا ومذاكرةً، وتدبُّرًا وعملًا وتطبيقًا؛ نال من السَّعادة والطُّمأنينة، وراحةِ الصَّدر، وزوال الهمِّ والغَمِّ والحزن بحسب ذلك، ولهذا قال في هذا الدُّعاء: «**أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي وَنُورَ صَدْرِي وَجَلَاءَ حُزْنِي وَذَهَابَ هَمِّي**». فالقرآن شفاءٌ ودواءٌ وهداية وموعظةٌ وذكرى للذَّاكرين، ومَن يقرأ كتاب الله متدبِّرًا معانيه ينشرح صدره وتنزاح عنه همومه وغمومه.

فهذه أربعةُ أصول عظيمة مستفادة من هذا الدُّعاء المبارك؛ ينبغي لنا أن نتأمَّلَها وأن نَسعَى في تحقيقها؛ لننالَ هذا الموعودَ الكريمَ والفضلَ العظيم وهو قوله ﷺ: «**إِلَّا أَذْهَبَ اللهُ هَمَّهُ وَأَبْدَلَهُ مَكَانَ حُزْنِهِ فَرَحًا**»، وفي رواية: «**فَرَجًا**».

وَعَنْ ابن عبَّاس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قَالَ: «**حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ**»، قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ حِينَ قَالُوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]». رواه البخاريُّ[(١)].

«**قَالَهَا إبراهيمُ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّار**»، قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٨-٧٠].

«**وَقَالَهَا مُحمَّدٌ** ﷺ»، وذلك بعد منصرف قريش والأحزاب من أُحدٍ بلَغه

---

(١) رواه البخاريُّ (٤٥٦٣).

أنَّ أبا سفيان ومَن معه قد أجمعوا الكرَّة عليهم، فخرج النَّبيُّ ﷺ في سبعين راكبًا حتَّى انتهى إلى حمراء الأسد، فألقى الله الرُّعب في قلب أبي سفيان فرجع إلى مكَّة بمَن معه، ومرَّ به ركبٌ فقال: أين تريدون؟ قالوا: نريد المدينة، قال: فهل أنتم مبلِّغون محمَّدًا عنِّي رسالة؟ قالوا: نعم، قال: «فإذا وافيتموه فأخبروه أنَّا قد أجمعنا السَّير إليه وإلى أصحابه لنستأصل بقيَّتهم»، فمرَّ الرَّكب برسول الله وهو بحمراء الأسد، فأخبروه بالَّذي قال أبو سفيان، فقال: «حسبنا الله ونعم الوكيل».

قوله: «**حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ**»، هذه كلمة عظيمة، وهي كلمة استعانة والتجاء واعتصام بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَى. والحسْب: الكافي.

فمعنى قوله: «**حَسْبُنَا اللهُ**»، أي: الله كافينا من شرِّ ما نلاقيه ومن كيد مَن يعادينا.

وقوله: «**وَنِعْمَ الوَكِيلُ**»، أي: نعم مَن يُتوكَّل عليه ويُعتمد عليه وتُفوَّض الأمور إليه، قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١٢]، وقال تعالى: ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزُّمر: ٣٨]، فنعم الوكيل، ومَن توكَّل على الله عَزَّوَجَلَّ كفاه ووقاه وأعانه في أمور دينه ودنياه، كما قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزُّمر: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطَّلاق: ٣]، أي: كافيه.

قال بعض السَّلف: جعل الله تعالى لكلِّ عمل جزاءً من جنسه، وجعل جزاء التَّوكُّل عليه نفس كفايته لعبده، فقال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾، ولم يقل نؤته كذا وكذا من الأجر كما قال في الأعمال، بل جعل نفسه سبحانه كافي عبده المتوكِّل عليه وحسبه وواقيه، فلو توكَّل العبد على الله حقَّ توكُّله وكادته السَّموات والأرض ومَن فيهن لجعل له مخرجًا من ذلك وكفاه ونصره، فالَّذي يلتجئ إلى الله عَزَّوَجَلَّ مهما كان الخطْب عظيمًا فالله كافيه.

٧٦
ما يقول إذا أصابته مصيبة

ليعلم أنَّ سُنَّة الله ماضيةٌ في عباده بأن يَبتليَهم في هذه الحياة الدُّنيا بأنواعٍ من البلايا وألوانٍ من المحن والرَّزايا، فيبتليهم بالفقر تارةً وبالغنى تارةً أخرى، وبالصِّحة تارةً وبالمرض تارةً أخرى، وبالسَّرَّاء حينًا وبالضَّرَّاء حينًا آخر، وليس في النَّاس إلَّا مَن هو مُبتَلًى، إمَّا بفوات محبوب، أو حصول مكروه، أو زوال مرغوب، فسرور الدُّنيا أحلامُ نوم أو كظِلٍّ زائل، إن أَضحَكت قليلًا أبكت كثيرًا، وإن سَرَّت يومًا أحزَنت دهرًا، وإن مَتَّعت قليلًا مَنَعت طويلًا، وما مَلأت دارًا حبرةً إلَّا مَلأتها عبرةً، كما قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لكلِّ فَرحة تَرحة، وما مُلئَ بيتٌ فَرَحًا إلَّا مُلِئَ تَرَحًا»(١).

إلَّا أنَّ عبدَ الله المسلم صائرٌ إلى خير في كلِّ أحواله، كما قال ﷺ: «**عَجَبًا لأَمْرِ المُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ؛ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ**». رواه مسلم(٢).

فأخبر النَّبيُّ ﷺ أنَّ كلَّ قضاء يقضيه الله للمؤمن الَّذي يصبر على البلاء ويشكر على السَّرَّاء فهو خير له، قال تعالى في مواضع من كتابه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سبأ: ١٩]، أي: صبَّارٍ في الضَّرَّاء والعسر والضِّيق، شكورٍ على السَّرَّاء والنِّعمة.

---

(١) رواه ابن أبي الدُّنيا في الاعتبار وأعقاب السُّرور (ص٣).
(٢) رواه مسلم (٢٩٩٩).

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧].

فأخبر سبحانه أنَّه يبتلي عبادَه بالمحن؛ ليَتبيَّنَ الصَّادقُ من الكاذب، والجازع من الصَّابر، والموقنُ من المرتاب، وذَكَرَ جَلَّ وَعَلَا **أنواعًا ممَّا يبتليهم به:**

- فهو يبتليهم بشيء من الخوف، أي: من الأعداء.

- والجوع، أي: بنقص الطَّعام والغذاء.

- ونقصٍ من الأموال، وهو يشمَلُ جميعَ أنواع النَّقص المعتري للأموال، سواء بالجوائح السَّماويَّة، أو الغرق، أو الضَّيَاع، أو السَّلب، أو غير ذلك.

- ويبتليهم كذلك بنقص الأنفسِ، بذهاب الأحباب من الأولاد والأقارب والأصحاب، ويَدخُلُ تحت هذا ما يُصيب البدن من أنواع الأمراض والأسقام.

- ويبتليهم كذلك بنقص الثَّمَرات، من الحبوب وثمار النَّخيل والأشجار.

وهي أمورٌ لا بدَّ وأن تقع؛ لأنَّ العليمَ الخبيرَ أخبَرَ بوقوعها، وحظُّ الإنسان من المصيبة هو ما تُحدِث له من أثر، فمَن رضيَ فله الرِّضا، ومن سَخط فله السُّخط، ولهذا لا بدَّ أن يعلمَ المصابُ أنَّ الَّذي ابتلاه بمصيبته هو أحكمُ الحاكمين وأرحمُ الرَّاحمين، وأنَّه سبحانه لَم يُرسل بلاءَه عليه ليهلكَه أو ليعذِّبَه، وإنَّما ابتلاه ليمتحنَ صبرَه ورضاه وإيمانَه، وليسمع تَضرُّعَه وابتهالَه ودعاءَه، وليَرَاهُ طريحًا ببابه، لائذًا بجَنَابه، مكسورَ القلب بين يديه، رافعًا يدي الضَّرَاعة إليه، يشكو بَثَّه وحُزنَه إليه؛ فينالَ بذلك عظيمَ موعود الله وجزيلَ عطائه ووافرَ آلائه ونعمائه.

وما من إنسان إلَّا وهو مبتلى وعُرضة للمصائب، والدُّنيا ميدان ابتلاء والله سبحانه يبتلي العبد بالسَّراء والضَّرَّاء، والشِّدَّة والرَّخاء، والمرض والعافية ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥]؛ فلهذا ينبغي للعبد أن يعلم أنَّ المصيبة الَّتي تصيبه لم ينزلها الله بها ليهلكه، وإنَّما أنزلها ليبتليه، فيستشعر أنَّ هذا ابتلاءٌ من الله، ويحرص أن يكون في مصيبته من الفائزين بالصَّبر والرِّضا والدُّعاء والسَّلامة من التَّسخُّط والجزع وغير ذلك، وقد قال الله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التَّغابن: ١١]، قال علقمة: «هو الرَّجل تصيبه المصيبة فيعْلم أنَّها من عند الله فيرضى ويُسلِّم»(١).

هذه حال المؤمن يفزع إلى الإيمان، ويعمل بما يقتضيه من لجوءٍ إلى الله وفزعٍ إليه، و استرجاعه عند المصيبة؛ حتَّى يفوز بالثَّواب، كما قيل: حظُّ المرء من المصيبة ما تُحدث له من أثر؛ فإن أحدثت له صبرًا ورضًا وعدم تسخُّط فهو الفائز، وإن أحدثت تسخُّطًا وجزعًا فهو الخاسر.

وقوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة:١٥٦]، هذه كلمة عظيمة تُقال عند المصيبة وهي كلمة استرجاع، ولا بُدَّ من فهمها؛ إذ كثير من النَّاس يقولها ويقول غيرها من الأذكار ولا يدري شيئًا عن مدلولها!! **وهي تتكوَّن من جملتين:**

الجملة الأولى: ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾، أي: نحن لله مماليك، يدبِّر شئوننا ويتصرَّف في أمورنا، أزمَّتنا بيده، يقضي فينا بما يشاء، ويحكم فينا بما يريد، لا معقِّب لحكمه ولا رادَّ لقضائه، وكلُّ ما يكون في هذا الكون ملكٌ لله وتحت تصرُّفه وقضائه وقدره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

---

(١) رواه البيهقيُّ في السُّنن الكبرى (٧١٣٣).

الجملة الثَّانية: ﴿وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾، أي: مرجعنا ومآلنا ومصيرنا ومآبنا إلى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ كما قال الله تعالى: ﴿وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ﴾ [العلق: ٨]، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلۡمُنتَهَىٰ﴾ [النَّجم: ٤٢]، فالمرجع والمآل والمآب إلى الله جَلَّ وَعَلَا.

فهي كلمة عظيمة إذا قالها المسلم في المصيبة؛ يسلو ويذهب عنه ما قد يجد، لكن لا بُدَّ من الفهم، والتَّأمُّل في الدَّلالات والهدايات.

قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٧] **هذه ثلاثة مكاسب عظيمة:**

الأوَّل: ﴿عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ﴾، والصَّلاة من الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ على العبد: هي الثَّناء عليه في الملأ الأعلى؛ فهذا أوَّل أمرٍ يظفر به مَن يسترجع عند المصيبة: ثناء الله عليه في الملأ الأعلى، يذكره تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فيمَن عنده، والله تعالى يقول: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾ [البقرة: ١٥٢].

الثَّاني: ﴿وَرَحۡمَةٞۖ﴾ [البقرة:١٥٧]، فيحظى ويظفر برحمة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ له تتنزَّل عليه.

الثَّالث: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ [البقرة:١٥٧]، ولم يذكر إلى أيِّ شيء؛ ليعمَّ الهداية إلى كلِّ خير في الدُّنيا والآخرة؛ إلى الطُّمأنينة، وإلى الرَّاحة، وإلى الصِّراط المستقيم، وإلى الجنَّة، فأطلق ليعمَّ الهداية إلى كلِّ خيرٍ وفضلٍ وراحةٍ، ونعمةٍ في الدُّنيا والآخرة.

قال عمر بن الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «نِعْمَ الْعِدْلَانِ وَنِعْمَ الْعِلَاوَةُ»[1]، العِدلان: الصَّلوات والرَّحمة، والعلاوة: وهي الزِّيادة على ذلك وهي قوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ

(١) رواه البخاريُّ (٢/ ٨٣).

﴿هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾. فهذه خيرات عظيمة، ينالها بتوفيق من الله مَن يسترجع عند المصاب.

روى أبو نعيم في كتابه «حلية الأولياء» عن الحسن بن عليٍّ العابد، قال: «قال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ لرجل: كم أتَت عليك؟ قال ستُّون سنةً، قال: فأنت منذ ستِّين سنةً تسيرُ إلى ربِّك توشك أن تبلغ، فقال الرَّجل: يا أبا عليٍّ (إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون)، قال له الفضيل: تعلمُ ما تقول؟ فقال الرَّجل: قلت: (إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون)، قال الفضيل: تعلَمُ ما تفسيرُه؟ قال الرَّجل: فسِّره لنا يا أبا عليٍّ، قال: قولُك (إنَّا لله) تقول: أنا لله عبدٌ وأنا إلى الله راجعٌ؛ فمَن عَلِمَ أنَّه عبد الله وأنَّه إليه راجع؛ فليعلَم بأنَّه موقوفٌ، ومَن عَلم بأنَّه موقوفٌ؛ فليعلم بأنَّه مسئول، ومَن علم أنَّه مسؤولٌ؛ فليُعِدَّ للسُّؤال جوابًا، فقال الرَّجل: فما الحيلة؟ قال: يسيرة، قال: ما هي؟ قال: تُحسنُ فيما بقيَ يُغفَر لك ما مضى؛ فإنَّك إن أسأتَ فيما بقي أُخِذتَ بما مضى وما بقي»(١).

وفي هذا دلالةٌ على عظم اهتمام السَّلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ بمعاني الأذكار ومعرفة دلالاتها وتحقيق مقاصدها وغاياتها، وتأكيدهم على هذا الأمر العظيم؛ لتتحقَّق للعبد ثمارُها، وتظهر فيه آثارُها، وتتوافر له خيراتُها وبركاتها.

وعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: **«مَا مِنْ عَبْدٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ فَيَقُولُ: «إِنَّا لِلهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، اللَّهُمَّ أْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا»؛ إِلَّا أَجَرَهُ اللهُ فِي مُصِيبَتِهِ، وَأَخْلَفَ لَهُ خَيْرًا مِنْهَا»، قَالَتْ: «فَلَمَّا تُوُفِّيَ أَبُو سَلَمَةَ، قُلْتُ كَمَا أَمَرَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ فَأَخْلَفَ اللهُ لِي خَيْرًا مِنْهُ؛ رَسُولَ الله ﷺ»**. رواه مسلم(٢).

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٨/ ١١٣).
(٢) رواه مسلم (٩١٨).

قوله: «**اللَّهمَّ أجُرْنِي فِي مُصِيبتِي**»، آجَره يُؤْجِرُه إذا أثابَه وأعطاه الأجْرَ والجزاء، أي: أكتب لي الأجر والثَّواب في مصيبتي.

«**وأخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا**»، أي: هذا الَّذي أصبت به ففقدته عوِّضني خيرًا منه.

«**إلَّا أَجَرَهُ اللهُ فِي مُصِيبَتِهِ**»، أي: أثابه وأناله الأجر.

«**وَأَخْلَفَهُ خَيْرًا مِنْهَا**»، أي: أعطاه خلفًا وعِوَضًا بدل هذا الَّذي فقده.

قالت أمُّ سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «**فَلَمَّا تُوفِّي أَبُو سَلَمَةَ، قُلْتُ كَمَا أَمَرَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ**»، وقالت كما في رواية للحديث عند مسلم: «**مَنْ خَيْرٌ مِنْ أَبِي سَلَمَةَ؟**».

قالت: «**فَأَخْلَفَ اللهُ لِي خَيْرًا مِنْهُ؛ رَسُولَ اللهِ ﷺ**»، أي: أكرمها الله عَزَّ وَجَلَّ بأن تزوَّجها رسول الله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ فأصبحت أمًّا للمؤمنين، فأخلفها الله خيرًا منه. ففي هذا فضل الاسترجاع عند المصيبة، وقول: «اللَّهمَّ أجُرْني فِي مُصِيبَتِي وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا»، وأنَّ مَنْ فعل ذلك رُجي له الإخلاف في الدُّنيا، والأَجر في الآخرة.

٧٧
ما يقوله مَن عليه دين

عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: أَنَّ مُكَاتَبًا جَاءَهُ، فَقَالَ: إِنِّي قَدْ عَجَزْتُ عَنْ مُكَاتَبَتِي فَأَعِنِّي، قَالَ: أَلَا أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ عَلَّمَنِيهِنَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ؛ لَوْ كَانَ عَلَيْكَ مِثْلُ جَبَلِ صِيرٍ دَيْنًا أَدَّاهُ اللهُ عَنْكَ؟ قَالَ: قُلْ: «**اللَّهُمَّ اكْفِنِي بِحَلَالِكَ عَنْ حَرَامِكَ، وَأَغْنِنِي بِفَضْلِكَ عَمَّنْ سِوَاكَ**». رواه التِّرمذيُّ(١).

قوله: «**أَنَّ مُكَاتَبًا جَاءَهُ**»، أي: عبدًا أراد لنفسه العتق بالمكاتبة، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبۡتَغُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَكَاتِبُوهُمۡ إِنۡ عَلِمۡتُمۡ فِيهِمۡ خَيۡرٗاۖ﴾ [النُّور: ٣٣]؛ والمكاتبة: أن يتَّفق العبد مع سيِّده أن يُعطيه كلَّ شهر مثلًا مبلغًا معيَّنًا من المال لمدَّة معيَّنة، فإذا وفَّى المبلغ عتق بهذه المكاتبة.

قال: «**أنَّ مكاتبًا جَاءَهُ، فَقَالَ إِنِّي عَجَزْتُ عَنْ مُكَاتَبَتِي فَأَعِنِّي**»، أي: عجزت عن المال الَّذي كاتبتُ سيِّدي عليه، فأعنِّي، أي: ساعدني على هذا الأمر.

قال: «**أَلَا أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ عَلَّمَنِيهِنَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ لَوْ كَانَ عَلَيْكَ مِثْلُ جَبَلِ صِيرٍ دَيْنًا أَدَّاهُ اللهُ عَنْكَ**»، أي: لو كان عليك دين كبير أدَّاه الله عنك ويسَّر لك أمر سداده. وهذا فيه أنَّ الدُّعاء مفتاح كلِّ خير في الدُّنيا والآخرة. وهذا خيرٌ كمْ نفرِّط فيه!! أحيانًا يأتي المحتاج وحاجته شديدة فتصرفه بأن تقول له: «ما عندي شيء»، أو تعطيه شيئًا يسيرًا، ويُغفل في هذا الموطن عن دلالته إلى هذا

(١) رواه التِّرمذيُّ (٣٥٦٣)، وحسَّنه الألبانيُّ.

الدُّعاء العظيم، كما صنع عليٌّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ. وما يُدريك قد تدلُّه على هذا الدُّعاء وهو لا يعلمه فيكون فرجًا له، بل هو الفرج، وربَّما كان خيرًا له ممَّا لو أعطيته المال الَّذي جاء يسأله.

قوله: «**قُلِ اللَّهُمَّ اكْفِنِي بِحَلَالِكَ عَنْ حَرَامِكَ، وَأَغْنِنِي بِفَضْلِكَ عَمَّنْ سِوَاكَ**»؛ هذا فيه خضوع العبد وافتقاره إلى الله والتجاءه إليه وحده.

«**اكْفِنِي بِحَلَالِكَ عَنْ حَرَامِكَ**»، أي: اجعل ما أحللته لي كافيًا لي؛ بحيث لا أتعدَّى ولا أتجاوز إلى أمرٍ حرَّمته عليَّ، فيطلب من الله عَزَّوَجَلَّ أن يرزقه القناعة والرِّضا والكفاية بما أحلَّه الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ لعباده من الرِّزق، وأن يُجنِّبه الحرام وسبله. بعض النَّاس إذا ضاقت به الأمور وكثرت عليه الدُّيون قد يلجأ إلى بعض الأمور المحرَّمة، وقد تقدَّم في تعوُّذ النَّبيِّ ﷺ من المغرم قال: «**إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا غَرِمَ حَدَّثَ فَكَذَبَ وَوَعَدَ فَأَخْلَفَ**»(١)، وهذا حرام، وقد أيضًا تمتدُّ يده إلى أخذ حقوقٍ للنَّاس أو الاعتداء على أموالهم. فهذه الدَّعوة في هذا المقام بطلب أن يكفيه بحلاله عن حرامه، من أطيب وأنفع ما يكون؛ لينال القناعة والرِّضا، وليُحصِّل التَّيسير والفرج.

وقوله: «**وَأَغْنِنِي بِفَضْلِكَ عَمَّنْ سِوَاكَ**»، هذا فيه الافتقار إلى الله عَزَّوَجَلَّ وسؤاله سبحانه أن يُغنيه من واسع فضله بحيث لا يحتاج إلى أحد سواه، والله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥].

وهذا فيه أنَّ العبدَ ينبغي أن يكون مفوِّضًا أمرَه إلى الله، معتمدًا عليه وحده، مستعينًا به، متوكِّلًا في جميع أموره عليه، وكفى به سبحانه وكيلًا. ولا بدَّ مع الدُّعاء من بذل السَّبب، والسَّعي الجادِّ لسداد الدَّين، والعزمِ الصَّادق على

(١) رواه البخاريُّ (٨٣٢)، ومسلم (٥٨٩).

الوفاء به، والمبادرةِ إلى ذلك في أقرب وقتٍ يَتَهَيَّأُ السَّدادُ، والحذر الشَّديد من المماطلة والتَّسويف؛ فإنَّ مَن كان كذلك فحَرِيٌّ به ألَّا يُعان.

أمَّا مَن حَمَلَ في قلبه هَمَّ الدَّين وكانت له نيَّةٌ صادقةٌ في أدائِه أعانه اللهُ وأدَّى عنه دَينَه. روى البخاريُّ عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ أَخَذَ أَمْوَالَ النَّاسِ يُرِيدُ أَدَاءَهَا أَدَّى اللهُ عَنْهُ، وَمَنْ أَخَذَهَا يُرِيدُ إِتْلَافَهَا أَتْلَفَهُ اللهُ**»[١]، وروى الإمام أحمد عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله ﷺ: «**مَا مِنْ عَبْدٍ كَانَتْ لَهُ نِيَّةٌ فِي أَدَاءِ دَيْنِهِ إِلَّا كَانَ لَهُ مِنَ اللهِ عَوْنٌ**»[٢]، وروى النَّسائيُّ عن ميمونة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**مَا مِنْ أَحَدٍ يُدَانُ دَيْنًا فَعَلِمَ اللهُ مِنْهُ أَنَّهُ يُرِيدُ قَضَاءَهُ إِلَّا أَدَّاهُ اللهُ عَنْهُ فِي الدُّنْيَا**»[٣].

فإن صَدَقَ العبدُ في عَزمِه وصَلحُت نيَّتُه تيَسَّرت أمورُه وأتاه الله باليُسر والفَرَج من حيث لا يَحتَسب، ومَن صَحَّ توكُّلُه على الله تكَفَّلَ الله بعونه، وسدَّدَ أمرَه، وقَضَى دَينَه.

روى البخاريُّ في صحيحه من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن رسول الله ﷺ: «أنَّه ذَكَرَ رجلًا من بني إسرائيل سأَلَ بعضَ بني إسرائيل أن يُسلفَه ألف دينار، فقالَ: ائتني بالشُّهَداء أُشْهِدُهم، فقالَ: كفى بالله شهيدًا، قالَ: فائتني بالكفيل، فقالَ: كفى بالله كفيلًا، قالَ: صَدَقْتَ؛ فدفعها إليه عَلَى أَجَلٍ مُسَمًّى، فخرج في البحر فقضى حاجتَه، ثمَّ التمس مركبًا يركبها يقدِم عليه للأجل الَّذي أجَّلَه، فلم يَجِدْ مركبًا، فأخذ خشبَةً فنقَرَها فأدخلَ فيها ألفَ دينار وصحيفةً منه

(١) رواه البخاريُّ (٢٣٨٧).
(٢) رواه أحمد (٢٤٤٣٩)، وصحَّحه الألبانيُّ في صحيح الجامع (٥٧٣٤)، وفي صحيح التَّرغيب (١٨٠١).
(٣) رواه النَّسائيُّ (٤٦٨٦)، وصحَّحه الألبانيُّ دون قوله: «في الدُّنيا».

إلى صاحبه، ثمَّ زَجَّجَ موضعَها -أي: سوَّى موضعَ النَّقر وأصلحَه- ثمَّ أتى بها إلى البحر، فقال: «اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي كُنْتُ تَسَلَّفتُ فلَانًا ألفَ دينار، فَسَأَلَنِي كفيلًا، فقلت: كفَى باللهِ كفيلًا، فرَضِيَ بك، وسَأَلَنِي شهيدًا، فقلت: كَفَى باللهِ شهيدًا، فرَضِيَ بك، وإنِّي جَهَدتُ أن أجد مركبًا أبعثُ إليه الَّذِي له فلم أقدر، وإنِّي أستوْدِعُكَها»، فرمَى بها في البحر حتَّى وَلَجَت فيه، ثمَّ انصرف وهو في ذلك يلتمسُ مركبًا يخرج إلى بلده، فخرج الرَّجلُ الَّذي كان أسلَفَه ينظرُ لعلَّ مركبًا قد جاء بماله، فإذا بالخشبة الَّتي فيها المال، فأخذها لأهله حطبًا، فلمَّا نشَرَها -أي: قطعها بالمنشار- وجد المالَ والصَّحيفةَ، ثمَّ قدِمَ الَّذي كان أسلَفَه فأتى بالألف دينار، فقال: والله ما زلتُ جاهدًا في طَلَب مركبٍ لآتيكَ بمالك فما وجدتُ مركبًا قبل الَّذي أتيتُ فيه، قال: هل كنتَ بعثتَ إليَّ بشيء؟ قال: أُخبرُك أنِّي لَم أجد مركبًا قبل الَّذي جئتُ فيه، قال: فإنَّ الله قد أدَّى عنكَ الَّذي بعثتَه في الخشبة، فانصرفْ بالألف الدِّينار راشدًا»[(١)].

فهذه قصَّةٌ عجيبة ذكرَها رسولُ الله ﷺ عن هذا الرَّجل من بني إسرائيل صادق النِّيَّة، حريصًا أشدَّ الحرص على سداد الدَّين وقضائه؛ لنَتَّعظَ بها ونعتَبِرَ، ولنعلمَ كمالَ قدرة الله وتمامَ عونه وحسنَ كفايته لعبده إذا أحسن الالتجاءَ إليه وصَدَقَ في الاعتماد عليه. وتأمَّل كمالَ التَّوفيق حيث لَم تقع هذه الخشبةُ المشتملةُ على المال إلَّا في يد صاحبها، فتبارك الله العليمُ القدير.

ولا ينبغي للمسلم أن يستهينَ بأمر الدَّين، أو يُقلِّلَ من شأنه، أو يتهاونَ في سداده، فقد ورد في السُّنَّة أحاديثُ عديدة تفيد خطورة ذلك، وتدلُّ على أنَّ نفسَ المؤمن معلَّقةٌ بالدَّين، وأنَّ الميِّتَ محبوسٌ بدَيْنِه حتَّى يُقْضَى عنه.

روى الإمام أحمد عن سَعد بن الأطول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «مات أخي وترك

---

(١) رواه البخاريُّ (٢٢٩١).

ثلاثَ مائة دينار، وترك فيه ولدًا صغارًا، فأردتُ أن أنفقَ عليه، فقال لي رسول الله ﷺ: «**إِنَّ أَخَاكَ مَحْبُوسٌ بِدَيْنِهِ فَاذْهَبْ فَاقْضِ عَنْهُ**»، قال: فذهبتُ فقضيتُ عنه، ثمَّ جئتُ فقلت: يا رسولَ اللهِ، قد قضيتُ عنه، ولم يبقَ إلَّا امرأة تَدَّعِي دينارين، وليست لها بيِّنة، قال: «أَعطِهَا؛ فإنَّها صدقة»[(١)]. وروى أيضًا من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**نَفْسُ المُؤْمِنِ مُعَلَّقَةٌ مَا كَانَ عَلَيْهِ دَيْنٌ**»[(٢)].

ولهذا فإنَّ الواجبَ على المسلم إذا كان عليه دَينٌ أن يُبادرَ إلى سداده قبل أن يبْغَتَه الموتُ، فتُحبس نفسُه بدَيْنِه ويكون مرتهنًا به، وإذا لَم يكن عليه دَينٌ فليحمَد الله على العافية، وليتحاشَ الاستدانةَ ما لَم يكن لها حاجةٌ داعيةٌ أو ضرورة مُلحَّةٌ؛ ليسلم مِن هَمِّ الدَّيْن، وليُرِح نفسه من عواقبه، وليكن في أَمَنَة من مغبَّته. ففي المسند من حديث عُقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**لَا تُخِيفُوا أَنْفُسَكُمْ بَعْدَ أَمْنِهَا**»، قَالُوا: وَمَا ذَاكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «الدَّيْنُ»[(٣)]، أي: لا تسارعوا إلى الدَّيْن فتُخيفوا أنفسَكم من توابعه وعواقِبه.

ومن الدَّعوات العظيمة الَّتي كان النَّبيُّ ﷺ يحثُّ مَن أوى إلى فراشه على المحافظة عليها والعناية بها، ولها تعلُّقٌ بقضاء الدَّين: ما رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «**كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَأْمُرُنَا إِذَا أَخَذْنَا مَضْجِعَنَا أَنْ نَقُولَ: «اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَوَاتِ وَرَبَّ الأَرْضِ وَرَبَّ العَرْشِ العَظِيمِ، رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، فَالِقَ الحَبِّ وَالنَّوَى، وَمُنْزِلَ التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالفُرْقَانِ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ دَابَّةٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا، اللَّهُمَّ أَنْتَ الأَوَّلُ**

(١) رواه أحمد (١٧٢٢٧)، وصحَّحه الألبانيُّ في صحيح الجامع (١٥٥٠).
(٢) رواه أحمد (٩٦٧٩)، وصحَّحه الألبانيُّ في صحيح التَّرغيب والتَّرهيب (١٨١١).
(٣) رواه أحمد (١٧٣٢٠)، وصححه الألبانيُّ في صحيح التَّرغيب والتَّرهيب (١٧٩٧).

فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ البَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ، اقْضِ عَنَّا الدَّيْنَ، وَأَغْنِنَا مِنَ الفَقْرِ»[(١)].

ورواه أبو داود بلفظ: «اقْضِ عَنِّي الدَّيْنَ، وَأَغْنِنِي مِنَ الفَقْرِ»[(٢)].

قوله: «**اقْضِ عَنَّا الدَّيْنَ**»، أي: أَدِّ عنَّا حقوق الله وحقوق العباد من جميع الأنواع، وهذا فيه تبرِّي الإنسان من الحَول والقوَّة، وأنَّه لا حول ولا قوَّة له إلَّا بالله العظيم.

وقوله: «**وَأَغْنِنَا مِنَ الفَقْرِ**»، الغنى: هو عدم الحاجة، والفقر: خلوُّ ذات اليد، والفقير: هو مَن وجد بعضَ كفايته، أو لَم يجد شيئًا أصلًا.

ومن المعلوم أنَّ الدَّينَ والفقرَ كلاهما هَمٌّ عظيمٌ، قد يؤرِّق الإنسانَ ويمنعه من النَّوم، فإذا لَجأ العبدُ إلى الله وطلب منه سبحانه مدده وعونه متوسِّلًا إليه بتلك التَّوسُّلات العظيمة، فإنَّ نفسَه عندئذٍ تسكن وتطمئنُّ، وقلبَه يرتاح ويهدأ؛ لأنَّه وَكَلَ أمرَه إلى مَن بيده أزمَّة الأمور ومقاليد السَّموات والأرض، ولَجأ إلى مَن أمرُه إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون، وكيف لا يطمئنُّ القلبُ وقد تعلَّق بِمَن هذا شأنه!!

---

(١) رواه مسلم (٢٧١٣).

(٢) رواه أبو داود (٥٠٥١)، وصحَّحه الألبانيُّ.

٧٨

الأذكار التي تطرد الشيطان (١)

ينبغي على المسلم إذا عرض له الشَّيطان همزًا أو نفثًا أو نفخًا أو وسوسةً، أن يقبل على ذكر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى؛ لأنَّ ذكر الله عَزَّوَجَلَّ طارد للشَّياطين، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزُّخرف: ٣٦-٣٧]. فالشَّيطان قرينٌ لمَن لا يذكر الله ومصاحبٌ له، وأمَّا مَن يذكر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى فإنَّ الشَّيطان لا يقربه ولا يأتي حوله.

عن الحَارِثِ الأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللهَ أَمَرَ يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ يَعْمَلَ بِهَا وَيَأْمُرَ بني إسرائيل أَنْ يَعْمَلُوا بِهَا، وَإِنَّهُ كَادَ أَنْ يُبْطِئَ بِهَا، فَقَالَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّ اللهَ أَمَرَكَ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ لِتَعْمَلَ بِهَا وَتَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهَا، فَإِمَّا أَنْ تَأْمُرَهُمْ وَإِمَّا أَنَا آمُرُهُمْ، فَقَالَ يَحْيَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَخْشَى إِنْ سَبَقْتَنِي بِهَا أَنْ يُخْسَفَ بِي أَوْ أُعَذَّبَ، فَجَمَعَ النَّاسَ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ، فَامْتَلأَ الْمَسْجِدُ وَقَعَدُوا عَلَى الشُّرَفِ، فَقَالَ: إِنَّ اللهَ أَمَرَنِي بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ أَعْمَلَ بِهِنَّ، وَآمُرَكُمْ أَنْ تَعْمَلُوا بِهِنَّ:

أَوَّلُهُنَّ: أَنْ تَعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَإِنَّ مَثَلَ مَنْ أَشْرَكَ بِاللهِ كَمَثَلِ رَجُلٍ اشْتَرَى عَبْدًا مِنْ خَالِصِ مَالِهِ بِذَهَبٍ أو وَرِقٍ، فَقَالَ: هَذِهِ دَارِي وَهَذَا عَمَلِي فَاعْمَلْ وَأَدِّ إِلَيَّ، فَكَانَ يَعْمَلُ وَيُؤَدِّي إِلَى غَيْرِ سَيِّدِهِ، فَأَيُّكُمْ يَرْضَى أَنْ يَكُونَ عَبْدُهُ كَذَلِكَ؟!

وَإِنَّ اللهَ أَمَرَكُمْ بِالصَّلَاةِ؛ فَإِذَا صَلَّيْتُمْ فَلَا تَلْتَفِتُوا فَإِنَّ اللهَ يَنْصِبُ وَجْهَهُ لِوَجْهِ عَبْدِهِ فِي صَلَاتِهِ مَا لَمْ يَلْتَفِتْ.

وَآمُرُكُمْ بِالصِّيَامِ؛ فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ فِي عِصَابَةٍ مَعَهُ صُرَّةٌ فِيهَا مِسْكٌ، فَكُلُّهُمْ يَعْجَبُ أَوْ يُعْجِبُهُ رِيحُهَا، وَإِنَّ رِيحَ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ.

وَآمُرُكُمْ بِالصَّدَقَةِ؛ فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَسَرَهُ العَدُوُّ فَأَوْثَقُوا يَدَهُ إِلَى عُنُقِهِ وَقَدَّمُوهُ لِيَضْرِبُوا عُنُقَهُ، فَقَالَ: أَنَا أَفْدِيهِ مِنْكُمْ بِالقَلِيلِ وَالكَثِيرِ، فَفَدَى نَفْسَهُ مِنْهُمْ.

وَآمُرُكُمْ أَنْ تَذْكُرُوا اللهَ فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ خَرَجَ العَدُوُّ فِي أَثَرِهِ سِرَاعًا حَتَّى إِذَا أَتَى عَلَى حِصْنٍ حَصِينٍ فَأَحْرَزَ نَفْسَهُ مِنْهُمْ، كَذَلِكَ العَبْدُ لَا يُحْرِزُ نَفْسَهُ مِنَ الشَّيْطَانِ إِلَّا بِذِكْرِ اللهِ». رواه التِّرمذيُّ(١).

فهذا مثل الَّذي يذكر الله؛ كمثل الَّذي دخل في حصن حصين، وحرز مكين فلا سبيل إلى عدوِّه أن يصل إليه، أو أن يتعرَّض له بشيء من الأذى.

والشَّيطان عدوٌّ بني آدم، والله سبحانه أخبرنا بذلك وأمرنا أن نتَّخذه عدوًّا، وأرشدنا سبحانه إلى ما يكون به اتِّقاء الشَّيطان، والسَّلامة من كيده وشرِّه، وأعظم ما يكون في هذا الباب؛ الاستعاذة بالله من الشَّيطان الرَّجيم. قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٧-٩٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصِّلت: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ [النَّاس:١-٦].

---

(١) رواه التِّرمذيُّ (٢٨٦٣)، وصحَّحه الألبانيُّ.

ﻉ **والاستعاذة:** اعتصامٌ بالله والتجاءٌ إلى الله، ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١]. ومعنى «أعوذ بالله»، أو «أستعيذ بالله»، أي: أطلب من الله أن يُعيذني، وألجأ إليه أن يَعصمني من الشَّيطان، وأن ينجيني من كيده، ومكره، ونفثه. ومَن استعاذ بالله أعاذه، ومَن اعتصم به هداه إلى صراطه المستقيم. والاستعاذة طاردةٌ للشَّيطان وتُعدُّ حصنًا حصينًا للعبد يقيه بإذن الله من الشَّيطان الرَّجيم.

والشَّيطان يُلقي الوساوس على العبد، وذكرُ الله والتَّعوُّذ به منه يطرده، كما وصفه الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في آخر سورة من القرآن بأنَّه «وسواس خنَّاس»، قال ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في معنى هذه الآية: «الشَّيطان جاثم على قلب ابن آدم، فإذا سها وغفل وسوس، فإذا ذكر الله خَنَس»[(١)]، وكذا قال مجاهد وقتادة؛ فبالاستعاذة بالله وذكره تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يخنس الشَّيطان ويبتعد عن الإنسان ولا يقترب منه.

وقوله تَعَالَىٰ: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝٩٧ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ هذا أمرٌ من الله تعالى لنبيِّه ﷺ بالاستعاذة من الشَّياطين، ومن شرورهم؛ لأنَّهم لا تنفع معهم الحيل، ولا ينقادون بالمعروف، فالنَّجاة منهم بالاستعاذة بالله. وفُسِّرت همزات الشَّياطين: بنفخهم، ونفثهم، وفُسِّرت: بخنقهم، وهو الموتة الَّتي تشبه الجنون، وفسِّرت: بنزغاتهم ووساوسهم.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فهمزات الشَّياطين: دفعهم الوساوس والإغواء إلى القلب». قال: «وقد يقال -وهو الأظهر-: إنَّ همزات الشَّياطين إذا أفردت دخل فيها جميع إصابتهم لابن آدم، وإذا قُرنت بالنَّفخ والنَّفث كانت نوعًا خاصًّا، كنظائر ذلك»[(٢)].

(١) رواه ابن أبي شيبة في مصنَّفه (٣٤٧٧٤)، وأبو داود في الزُّهد (٣٣٧).
(٢) انظر: إغاثة اللَّهفان (١/ ٩٥).

ومعنى قوله: ﴿أَن يَحۡضُرُونِ﴾، أي: أن يحضروا إلى المكان الَّذي أنا فيه؛ فهو تعوُّذ منهم، وتعوُّذ من إتيانهم للمكان الَّذي هو فيه.

قال العلَّامة الشِّنقيطيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والظَّاهر في قوله تعالى: ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحۡضُرُونِ﴾ [المؤمنون:٩٨] أنَّ المعنى: أعوذ بك أن يحضرني الشَّيطان في أمرٍ من الأمور كائنًا ما كان، سواءٌ كان ذلك وقت تلاوة القرآن، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [النَّحل: ٩٨]، أو عند حضور الموت، أو غير ذلك من جميع الشُّؤون في جميع الأوقات»(١).

وقد جاءت السَّنَّة بأذكارٍ يشرع للمسلم أن يقولها إذا عرض له الشَّيطان، لها أثرها العظيم في طرد الشَّيطان والسَّلامة من شرِّه.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ أَدْبَرَ الشَّيْطَانُ وَلَهُ ضُرَاطٌ حَتَّى لَا يَسْمَعَ التَّأْذِينَ، فَإِذَا قَضَى النِّدَاءَ أَقْبَلَ، حَتَّى إِذَا ثُوِّبَ بِالصَّلَاةِ أَدْبَرَ، حَتَّى إِذَا قَضَى التَّثْوِيبَ أَقْبَلَ**». رواه البخاريُّ ومسلم(٢).

قوله: «**إِذَا نُودِيَ للصَّلَاةِ أَدْبَرَ الشَّيْطَانُ ولَهُ ضُرَاطٌ حَتَّى لَا يَسْمَعَ التَّأْذِينَ**»، أدبر، أي: ولَّى هاربًا؛ لأنَّ صوت الأذان يُزعجه ويصكُّ مسامعه، ولا يستطيع أن يبقى في المكان الَّذي فيه الآذان، وهذا فيه فضيلة التَّوحيد والتَّعظيم لله، فألفاظ الأذان: ألفاظ توحيدٍ، وتكبيرٍ، وتعظيم لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وهذا أعظم طارد للشَّيطان، ولهذا جاء في الحديث: «أنَّ مَنْ قَرَأَ آية الكرسيِّ -الَّتي هي آية التَّوحيد- لم يزل عليه من الله حافظ ولا يقربه شيطان حتَّى يُصبح»، قال أبو الجوزاء: «ما للشَّيطان طرد عن القلب غير «لا إله إلَّا الله»، ثمَّ تلا: ﴿وَإِذَا

(١) انظر: أضواء البيان (٥/ ٣٥٣).
(٢) رواه البخاريُّ (٦٠٨)، ومسلم (٣٨٩).

ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْاْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٦]»[١]، فالتَّوحيد يطرد الشَّيطان، ويبعده من المكان تمامًا.

الحاصل أنَّ الشَّيطان عندما يسمع ألفاظ الأذان مدوِّية يولِّي هاربًا، «**حَتَّى لَا يَسْمَعَ التَّأْذِينَ**»، ثمَّ إنَّه يبقى بعيدًا إلى أن ينتهي الأذان ثمَّ يرجع؛ وهذا فيه أنَّ الشَّيطان لا يكِلُّ ولا يملُّ في أداء مهمَّته، فمع أنَّ الأذان يؤذيه هذا الأذى ويُضايقه هذه المضايقة! إلَّا أنَّ عنده جلَدٌ وصبر على الإغواء والصَّدِّ عن دين الله؛ ولذا يرجع مباشرة، ولذا قال: «**فَإِذَا قَضَى النِّدَاءَ أَقْبَلَ**»، أي: مجرَّد ما يفرغ من الأذان، ذلك الصَّوت الَّذي يؤذيه ويضايقه؛ فإنَّه يرجع إلى المكان مباشرة.

«**فإِذَا ثُوِّبَ بِالصَّلَاةِ**»، أي: أُقيمت، «**أَدْبَرَ، حَتَّى إِذَا قَضَى التَّثْوِيبَ أَقْبَلَ**»، أي: رجع، فهو يرجع في هذه الفترة بين الأذان والإقامة ولا ينتظر بعيدًا حتَّى يُفرَغ من الأذان والإقامة معًا؛ لأنَّه حتَّى الفترة الَّتي بين الأذان والإقامة الَّتي يتهيَّأ فيها المسلم للصَّلاة، ويُعدُّ نفسه فيها لصلاة مطمئنَّة؛ لا يريد أن تبقى له، بل يريد أن يخطِر له فيها بالوساوس الَّتي تضيِّع عليه تهيُّئَه واستعداده للصَّلاة، مع أنَّه بين أمرين مزعجين له! إلَّا أنَّه يرجع ويبقى ويتحمَّل، ثمَّ إذا أُقيمت الصَّلاة أدبر ثمَّ رجع أخرى بعد الفراغ من الإقامة.

وعن سهيل بن أبي صالح، قَالَ: «**أَرْسَلَنِي أَبِي إِلَى بَنِي حَارِثَةَ وَمَعِي غُلَامٌ لَنَا أَوْ صَاحِبٌ لَنَا، فَنَادَاهُ مُنَادٍ مِنْ حَائِطٍ بِاسْمِهِ، قَالَ: وَأَشْرَفَ الَّذِي مَعِي عَلَى الْحَائِطِ فَلَمْ يَرَ شَيْئًا، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِأَبِي فَقَالَ: لَوْ شَعَرْتُ أَنَّكَ تَلْقَى هَذَا لَمْ أُرْسِلْكَ؛ وَلَكِنْ إِذَا سَمِعْتَ صَوْتًا فَنَادِ بِالصَّلَاةِ؛ فَإِنِّي سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ **يُحَدِّثُ عَنْ رَسُولِ الله** ﷺ **أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ إِذَا نُودِيَ بِالصَّلَاةِ وَلَّى وَلَهُ**

(١) ذكره ابن رجب في فتح الباري (٥/ ٢١٧).

حُصَاصٌ». رواه مسلم(١).

يذكر سهيل ابن أبي صالح هذه القصَّة: وهي أنَّ والده أرسله إلى بني حارثة «**وَمَعَهُ غُلَامٌ لَهُمْ**»، أي: خادم، فنادى مناد من حائط باسمه، أي: باسم ذلك الغلام، «**فَأَشْرَفَ الَّذِي مَعِي عَلَى الحَائِطِ**»، أي: نظر بحثًا عن هذا الَّذي ناداه «**فَلَمْ يَرَ شَيْئًا**»، ولحقه بسبب ذلك خوف؛ لأنَّ هذا شيء يُخيف، أنْ يسمع صوتًا ولا يرى شخصًا، قال: «**فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِأَبِي، فَقَالَ لَوْ شَعَرْتُ أَنَّكَ تَلْقَى هَذَا لَمْ أُرْسِلْكَ**»، أي: تلقى هذه الشِّدَّة أو الخوف.

«**وَلَكِنْ إِذَا سَمِعْتَ صَوْتًا فَنَادِ بِالصَّلَاةِ**»؛ لأنَّ النِّداء كما تقدَّم يطرد الشَّيطان.

قال: «**فَإِنِّي سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ** رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ **يُحَدِّثُ عَنِ النَّبِيِّ** ﷺ **أَنَّهُ قَالَ: إِنَّ الشَّيْطَانَ إِذَا نُودِي بِالصَّلَاةِ أَدْبَرَ**»، هذا الدَّليل، فذكر له التَّصرُّف المناسب وأتبعه بالدَّليل، وقد أخذ من هذا أهل العلم أنَّ الإنسان إذا كان في طريق، أو في مكان وعرضت له الشَّياطين وخوَّفته، أو سمع أصواتًا أو نحو ذلك فإنَّه ينادي بالصَّلاة؛ فإنَّها تبتعد عنه ولا تبقى في المكان الَّذي هو فيه.

قَالَ الإمام مَالِكُ بن أنس رَحِمَهُٱللَّهُ: «استعملَ زيد بن أسلم على معدن بني سُليم، كان معدنًا لا يزالُ يصابُ فيه الناس من قبلِ الجنِّ، فلما وليهم تركوا ذلك إليه؛ فأمرهم بالأذان أن يؤذنوا ويرفعوا أصواتهم، ففعلوا؛ فارتفع عنهم ذلك حتى اليوم. قال مالك: أعجبني ذلك من مشورة زيد بن أسلم»(٢).

(١) رواه مسلم (٣٨٩).
(٢) رواه اللالكائي في كرامات الأولياء (١٢٧).

٧٩
الأذكار التي تطرد الشيطان (٢)

عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَسَمِعْنَاهُ يَقُولُ: «**أَعُوذُ بِاللهِ مِنْكَ**»، **ثُمَّ قَالَ: «أَلْعَنُكَ بِلَعْنَةِ الله» ثَلَاثًا. وَبَسَطَ يَدَهُ كَأَنَّهُ يَتَنَاوَلُ شَيْئًا، فَلَمَّا فَرَغَ مِنَ الصَّلَاةِ، قُلْنَا: يَا رَسُولَ الله! قَدْ سَمِعْنَاكَ تَقُولُ فِي الصَّلَاةِ شَيْئًا لَمْ نَسْمَعْكَ تَقُولُهُ قَبْلَ ذَلِكَ! وَرَأَيْنَاكَ بَسَطْتَ يَدَكَ! قَالَ: «إِنَّ عَدُوَّ اللهِ إِبْلِيسَ جَاءَ بِشِهَابٍ مِنْ نَارٍ لِيَجْعَلَهُ فِي وَجْهِي، فَقُلْتُ: «أَعُوذُ بِاللهِ مِنْكَ» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ قُلْتُ: «أَلْعَنُكَ بِلَعْنَةِ الله التَّامَّةِ» فَلَمْ يَسْتَأْخِرْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ أَرَدْتُ أَخْذَهُ، وَاللهِ لَوْلَا دَعْوَةُ أَخِينَا سُلَيْمَانَ لَأَصْبَحَ مُوثَقًا يَلْعَبُ بِهِ وِلْدَانُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ»**. رواه مسلم(١).

قوله: «**قَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَسَمِعْنَاهُ يَقُولُ: أَعُوذُ بِاللهِ مِنْكَ**»، أي: في أثناء صلاته يستعيذ بالله من شيء رآه، وهذا خلاف ما يعهده الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من صلاة النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ولا يدرون ما الخبر وما الأمر.

«**ثمَّ قَالَ أَلْعَنُكَ بِلَعْنَةِ اللهِ ثَلَاثًا**»، أي: لعنه ثلاث مرَّات بلعنة الله، واللَّعن: هو الطَّرد والإبعاد من رحمة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

«**وَبَسَطَ يَدَهُ**»، أي: مدَّها إلى جهة الأمام «**كَأَنَّهُ يَتَنَاوَلُ شَيْئًا**»، أي: كأنَّه يريد أن يُمسك بشيء.

«**فلَمَّا فَرَغَ مِنْ صَلَاتِهِ، قُلْنَا لَهُ يَا رَسُولَ اللهِ، سَمِعْنَاكَ تَقُولُ فِي الصَّلَاةِ شَيْئًا**

(١) رواه مسلم (٥٤٢).

لَمْ نَسْمَعْكَ تَقُولُهُ قَبْلَ ذَلِكَ»، أي: التَّعوُّذ واللَّعن، «**وَرَأَيْنَاكَ بَسَطْتَ يَدَكَ**»، أي: مددتها؛ وهذا القول والعمل لم يعهدوه من صلاته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

«**قَالَ: إِنَّ عَدُوَّ اللهِ إِبْلِيسَ، جَاءَ بِشِهَابٍ مِنْ نَارٍ لِيَجْعَلَهُ فِي وَجْهِي، فَقُلْتُ أَعُوذُ بِاللهِ مِنْكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ قُلْتُ أَلْعَنُكَ بِلَعْنَةِ اللهِ التَّامَّةِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمْ يَسْتَأْخِرْ، ثُمَّ أَرَدْتُ أَخْذَهُ**»، أي: أردت أن أُمسك به؛ ليوثقه ويقيِّده.

لكنَّه قالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**وَاللهِ لَوْلَا دَعْوَةُ أَخِينَا سُلَيْمَانَ**»، أي: نبيِّ الله عَلَيْهِ السَّلَامُ، ودعوته ذكرها الله في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [ص: ٣٥]، «**لَأَصْبَحَ مُوثَقًا** -أي: مقيَّدًا مربوطًا- **يَلْعَبُ بِهِ وِلْدَانُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ**».

قال ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ: «ففي هذا الحديث الاستعاذة منه، ولعنته بلعنة الله ولم يستأخر بذلك فمدَّ يده إليه. وفي الصَّحيحين عن أبي هريرة عن النَّبيِّ ﷺ قال: «إنَّ الشَّيطانَ عرضَ لِي فشدَّ عَلَيَّ؛ لِيَقطعَ الصَّلاة عَلَيَّ فَأَمْكَنَنِي اللهُ مِنْه فذُعته، ولقد هَمَمْت أن أوثقه إلى سارية حتَّى تصبحوا فتنظروا إليه، فذكرت قولَ أخي سليمان: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ﴾ [ص: ٣٥]، فردَّه الله خاسئًا»؛ فهذا الحديث يوافق الأوَّل ويفسِّره. وقوله: (ذعته)، أي: خنقته، فبيَّن أنَّ مدَّ اليد كان لخنقه، وهذا دفعٌ لعدوانه بالفعل وهو الخنق، وبه اندفع عدوانه فردَّه الله خاسئًا؛ وأمَّا الزِّيادة وهو ربطه إلى السَّارية فهو من باب التَّصرُّف المُلكيِّ الَّذي تركه لسليمان، فإنَّ نبيَّنا ﷺ كان يتصرَّف في الجنِّ كتصرُّفه في الإنس؛ تصرُّف عبد رسول يأمرهم بعبادة الله وطاعته، لا يتصرَّف لأمر يرجع إليه وهو التَّصرُّف الملكيِّ؛ فإنَّه كان عبدًا رسولًا، وسليمان نبيٌّ مَلِكٌ، والعبد الرَّسول أفضل من النَّبيِّ المَلِك، كما أنَّ السَّابقين المقرَّبين أفضل من عموم الأبرار أصحاب اليمين، وقد روى النَّسائيُّ على شرط البخاريِّ عن

عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان يُصلِّي فأتاه الشَّيطان فأخذه فصرعه فخنقه، قال رسول الله ﷺ: «حَتَّى وَجَدْتُ بَرْدَ لِسَانِهِ عَلَى يَدِي، وَلَوْلَا دَعْوَةُ سُلَيْمَان لَأَصْبَحَ مُوثَقًا حَتَّى يَرَاهُ النَّاسُ»، ورواه أحمد وأبو داود من حديث أبي سعيد وفيه: «فأهويت بيدي فما زلت أخنقه حتَّى وجدت برد لعابه بين أصبعيَّ هاتين: الإبهام، والَّتي تليها». اهـ كلامه رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**يَأْتِي الشَّيْطَانُ أَحَدَكُمْ فَيَقُولُ: مَنْ خَلَقَ كَذَا؟ مَنْ خَلَقَ كَذَا؟ حَتَّى يَقُولَ: مَنْ خَلَقَ رَبَّكَ؟، فَإِذَا بَلَغَهُ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ وَلْيَنْتَهِ**». رواه البخاريُّ ومسلم[(٢)].

هذا الحديث عن وسوسة الشَّيطان للإنسان وتشكيكه له في عقيدته في الله وإيمانه به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال: «**يَأْتِي الشَّيْطَانُ أَحَدَكُمْ فَيَقُولُ: مَنْ خَلَقَ كَذَا؟ مَنْ خَلَقَ كَذَا؟ حَتَّى يَقُولَ: مَنْ خَلَقَ رَبَّكَ؟**» وهذا السُّؤال باطل من أساسه، لا يقوله إلَّا مَن لم يعرف ربَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فالله عَزَّ وَجَلَّ خالق الخلق أجمعين وموجدهم من العدم، الأوَّل الَّذي ليس قبله شيء، لكنْ الشَّيطان يدخل من خلال هذا المدخل على رقيق الدِّين، ضعيف الاعتقاد حتَّى يخلخل بمثل هذا إيمانه ويُدخل عليه الشُّبهات، **فأرشد** عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ **إلى أمرين:**

الأوَّل: عدم الاسترسال معه؛ قال «**وَلْيَنْتَهِ**».

والثَّاني: الاستعاذة.

فبالانتهاء وبالاستعاذة ينقطع هذا الوسواس بإذن الله.

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١٩/ ٥١).
(٢) رواه البخاريُّ (٣٢٧٦)، ومسلم (١٣٤).

فأمره بالاستعاذة منه ليقطع عنه الوساوس الفاسدة الَّتي يُلقيها الشَّيطان بغير اختياره ويؤذيه بها، حتَّى قد يتمنَّى الموت، أو حتَّى يختارَ أن يحترق ولا يجدها؛ وهي الوسوسة الَّتي سأله عنها الصَّحابة، فقالوا: «**يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ أَحَدَنَا لَيَجِدُ فِي نَفْسِهِ مَا لَأَنْ يَحْتَرِقَ حَتَّى يَصِيرَ حمة أَوْ يَخِرَّ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ خَيْرًا لَهُ مَنْ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ**»، فقال: «**ذَلِكَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ**»(١). وفي رواية: «**مَا يَتَعَاظَمُ أَحَدُنَا أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ**»، فقال: «**الحَمْدُ للهِ الَّذِي رَدَّ كَيْدَهُ إِلَى الوَسْوَسَةِ**»(٢). وأراد بذلك أنَّ كراهته هذه الوسوسة ونفيها هو محض الإيمان وصريحه.

وَعَنْ عثمانَ بنِ أبي العَاصِ الثَّقَفِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **أَنَّهُ أَتَى النَّبِيَّ** ﷺ **فَقَالَ**: «**يَا رَسُولَ اللهِ! إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ حَالَ بَيْنِي وَبَيْنَ صَلَاتِي وَقِرَاءَتِي يَلْبِسُهَا عَلَيَّ!**» **فَقَالَ رَسُولُ اللهِ** ﷺ: «**ذَاكَ شَيْطَانٌ يُقَالُ لَهُ خنْزَبٌ؛ فَإِذَا أَحْسَسْتَهُ فَتَعَوَّذْ بِاللهِ مِنْهُ وَاتْفِلْ عَلَى يَسَارِكَ ثَلَاثًا**»، **قَالَ**: «**فَفَعَلْتُ ذَلِكَ فَأَذْهَبَهُ اللهُ عَنِّي**». رواه مسلم(٣).

قوله: «**إِنَّ الشَّيْطَانَ حَالَ بَيْنِي وَبَيْنَ صَلَاتِي**»، أي: شغلني عنها وعن الطُّمأنينة فيها والخشوع.

«**وَبَيْنَ قِرَاءَتِي**»، أي: للقرآن الكريم وحُسن تدبُّره.

«**يُلْبِسُهَا عَلَيَّ**»، أي: فلا يجعله يتدبَّر، ويلبس عليه القراءة.

«**فَقَالَ** ﷺ **ذَاكَ شَيْطَانٌ يُقَالُ لَهُ خنْزَبٌ**»، أي: هذا شيطان مختصٌّ في هذا الأمر الَّذي هو الحيلولة بين الإنسان وبين صلاته وبينه وبين قراءته؛ حتَّى لا يطمئنَّ في صلاته ولا يخشع ولا يتدبَّر في قراءته للقرآن الكريم؛ يلبس

---

(١) رواه أحمد (٩١٥٦).

(٢) رواه مسلم (١٣٢)، وأبو داود (٥١١٢)، واللَّفظ له.

(٣) رواه مسلم (٢٢٠٣).

عليه القراءة ويشوِّش عليه في الصَّلاة، وله في ذلك حيَلٌ، ووسائل، وأساليب متنوِّعة؛ للحيلولة بين المرء وبين صلاته وقراءته.

ثمَّ وجَّهه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إلى ماذا يفعل؟ قال: «**فَإِذَا أَحْسَسْتَهُ فَتَعَوَّذ بِاللهِ مِنْهُ وَاتْفل عَنْ يَسَارِكَ ثَلَاثًا**»، أي: إذا شوَّش عليه وحال بينه وبين صلاته، وحال بينه وبين قراءته وألبسها عليه فأصبح ليس مطمئنًّا ولا خاشعًا ولا متدبِّرًا والتبست عليه القراءة؛ فليتعوَّذ بالله من الشَّيطان وينفث عن يساره ثلاثًا، قال: «**فَفَعَلْتُ ذَلِكَ فَأَذْهَبَهُ اللهُ عَنِّي**».

وَعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قال: «**إِذَا اسْتَجْنَحَ اللَّيْلُ -أَوْ قَالَ: جُنْحُ اللَّيْلِ- فَكُفُّوا صِبْيَانَكُمْ؛ فَإِنَّ الشَّيَاطِينَ تَنْتَشِرُ حِينَئِذٍ، فَإِذَا ذَهَبَ سَاعَةٌ مِنَ الْعِشَاءِ فَخَلُّوهُمْ، وَأَغْلِقْ بَابَكَ، وَاذْكُرِ اسْمَ اللهِ، وَأَطْفِئْ مِصْبَاحَكَ، وَاذْكُرِ اسْمَ اللهِ، وَأَوْكِ سِقَاءَكَ، وَاذْكُرِ اسْمَ اللهِ، وَخَمِّرْ إِنَاءَكَ، وَاذْكُرِ اسْمَ اللهِ، وَلَوْ تَعْرُضُ عَلَيْهِ شَيْئًا**». رواه البخاريُّ ومسلم(١).

قوله: «**إِذَا اسْتَجْنَحَ اللَّيْلُ -أَوْ قَالَ: جُنْح اللَّيْلِ-**»، أي: أقبل ظلامه.

قوله: «**فَكُفُّوا صِبْيَانَكُمْ**»، أي: امنعوهم من الخروج.

قوله: «**فَإِنَّ الشَّيَاطِينَ تَنْتَشِرُ حِينَئِذٍ**»، أي: في تلك السَّاعة.

قوله: «**فَإِذَا ذَهَبَ سَاعَةٌ مِنَ الْعِشَاءِ فَخَلُّوهُمْ**»، فهذا وقت يُحتاط فيه للأولاد، ويُكفُّون عن الخروج في ذلك الوقت حفظًا لهم؛ لكثرة انتشار الشَّياطين فيه.

قوله: «**وَأَغْلِقْ بَابَكَ، وَاذْكُرِ اسْمَ اللهِ، وَأَطْفِئْ مِصْبَاحَكَ، وَاذْكُرِ اسْمَ اللهِ، وَأَوْكِ سِقَاءَكَ، وَاذْكُرِ اسْمَ اللهِ، وَخَمِّرْ إِنَاءَكَ، وَاذْكُرِ اسْمَ اللهِ، وَلَوْ تَعْرُضُ عَلَيْهِ**

---

(١) رواه البخاريُّ (٣٢٨٠)، ومسلم (٢٠١٢).

شَيْئًا»، فأمر بتكرار التَّسمية عند إغلاق الباب وعند إطفاء المصباح وعند إيكاء السِّقاء فلا تُترك مفتوحة، ومثله أيضًا: أغطية أوعيةِ الماء؛ كزجاجة الماء أو الزِّير، أو غير ذلك، يغطَّى ولا يُترك مفتوحًا، وكذلك عند تخمير الإناء، وإذا لم يكن ثمَّة غطاء يعرض عليه شيئًا ولو عودًا. وهذا الطَّلب المتكرِّر للذِّكر فيه أنَّ ذكر الله عَزَّوَجَلَّ على هذه الأشياء حصنٌ لها وواقٍ من الشَّيطان.

كذلك إذا دخل المرء بيته، وقال «بسم الله»، وتناول طعامه وقال «بسم الله» يوقى من الشَّيطان، كما جاء في الحديث يقول الشَّيطان: «فاتكم العشاء وفاتكم المبيت»، وإذا تُركت التَّسمية قال الشَّيطان لرفقائه: «أدركتم العشاء وأدركتم المبيت». فإذا غفل الإنسان عن الذِّكر عند دخوله، وعند طعامه، كأنَّه هيَّأ بيته وطعامه للشَّياطين تدخل وتأكل وتبات، والله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ ﴾ [الإسراء: ٦٤-٦٥]؛ قيل في معناها: أي الَّذين يذكرون الله، فالذَّاكر لله في حصن حصين وحرزٍ متين يقيه بإذن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من الشَّيطان الرَّجيم.

٨٠

ما يرقى به المريض (١)

لقد جاءت السُّنَّة النَّبويَّة بأنواع من الأذكار والأدعية العظيمة النَّافعة الَّتي لها أثرها البالغ بإذن الله عَزَّوَجَلَّ في زوال المرض، قد جعلها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ سببًا للشِّفاء؛ فيُشرع أن يُرقى بها المريض. وجديرٌ بالمسلم أن يكون على علم بالمأثور عن النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ممَّا يُرقى به المريض؛ حتَّى لا ينشغل بأمورٍ لا أصل لها وأعمالٍ لا أساس لها، وفي السُّنَّة الوفاء والكفاية والبركة.

❐ **فالرُّقية نوعان: مشروعة وممنوعة.**

❧ **والرُّقية المشروعة:** هي ما كانت بذكر الله، وتلاوة القرآن، والأوراد المشروعة الثَّابتة عن النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

❧ **والممنوعة:** ما لم تكن كذلك، بل بالطَّلاسم، أو الشَّعوذات، أو ذكر أسماء الشَّياطين، أو التَّمتمة، وما إلى ذلك ممَّا عليه الدَّجاجلة والمشعوذون.

وفي الحديث أنَّ الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ سألوا النَّبيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عن الرُّقية، فقال: «**اعْرِضُوا عَلَيَّ رُقَاكُمْ، لَا بَأْسَ بِالرُّقَى مَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ شِرْكٌ**». رواه مسلم[(١)].

وهذه وقفةٌ مع رقية عظيمة تضافر نقلها عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رواها عنه غير واحد من الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين، ووصفها غير واحد منهم بأنَّها رقية

(١) رواه مسلم (٢٢٠٠).

رسول الله ﷺ، وكان صلوات الله وسلامه عليه إذا عاد مريضًا أو أُتي له بمريض رقاه بتلك الرُّقية العظيمة، وكان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يرقي بها نفسه، ورقته بها أمُّ المؤمنين عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا وأرضاها في اللَّحظات الأخيرة من حياته صلوات الله وسلامه عليه؛ فهي رقية عظيمٌ شأنُها، جليلٌ قدرها، عظيمةٌ مكانتها، لها نفعٌ عظيم وفائدةٌ جليلة، وفيها شفاءٌ وعافيةٌ للمرضى والمصابين.

ومَن وُفِّق للعناية بهذه الرُّقية حفظًا لألفاظها، وفهمًا لمعانيها ومدلولاتها؛ صادقًا في دعائه محسنًا في التجائه، واثقًا بربِّه، متوكِّلًا عليه شفاه الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وعافاه أيًّا كان مرضه، سواءٌ كان مرضًا بدنيًّا، أو كان مرضًا نفسيًّا. فلنتأمَّل ما ورد من أحاديث صحاح عن رسول الله ﷺ في شأن هذه الرُّقية العظيمة، ولنتأمَّل آثارها العظيمة ونفعها العميم:

روى البخاريُّ في صحيحه عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قالت: «**كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُعَوِّذُ بَعْضَهُمْ، يَمْسَحُهُ بِيَمِينِهِ: أَذْهِبِ البَأْسَ رَبَّ النَّاسِ، وَاشْفِ أَنْتَ الشَّافِي لَا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ، شِفَاءً لَا يُغَادِرُ سَقَمًا**»[(١)].

وفي رواية عنها: «**أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ إِذَا عَادَ مَرِيضًا يَقُولُ، وذكرت الدُّعاء**». رواه مسلم[(٢)].

وفي رواية أخرى عنها: «**أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَرْقِي بِهَذِهِ الرُّقْيَةِ: امْسَحِ البَأْسَ رَبَّ النَّاسِ، بِيَدِكَ الشِّفَاءُ، لَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا أَنْتَ**». متَّفق عليه[(٣)].

وفي رواية لمسلم، قالت: «**كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا اشْتَكَى مِنَّا إِنْسَانٌ مَسَحَهُ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ قَالَ: وذكرت الدُّعاء، قالت: فَلَمَّا مَرِضَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَثَقُلَ أَخَذْتُ**

(١) رواه البخاريُّ (٥٧٥٠).
(٢) رواه مسلم (٢١٩١).
(٣) رواه البخاريُّ (٥٧٤٤)، ومسلم (٢١٩١).

بِيَدِهِ لِأَصْنَعَ بِهِ نَحْوَ مَا كَانَ يَصْنَعُ، فَانْتَزَعَ يَدَهُ مِنْ يَدِي، ثُمَّ قَالَ: «اللهُمَّ اغْفِرْ لِي وَاجْعَلْنِي مَعَ الرَّفِيقِ الْأَعْلَى»، قَالَتْ: فَذَهَبْتُ أَنْظُرُ فَإِذَا هُوَ قَدْ قَضَى»(١)، أي: تُوفِّي صلوات الله وسلامه عليه.

ورواه ابن ماجه ولفظه: قالت: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَتَعَوَّذُ بِهَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ «أَذْهِبْ الْبَاسَ، رَبَّ النَّاس، وَاشْفِ أَنْتَ الشَّافِي لَا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ شِفَاءً لَا يُغَادِرُ سَقَمًا»، فَلَمَّا ثَقُلَ النَّبِيُّ ﷺ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ أَخَذْتُ بِيَدِهِ فَجَعَلْتُ أَمْسَحُهُ وَأَقُولُهَا فَنَزَعَ يَدَهُ مِنْ يَدِي، ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي وَأَلْحِقْنِي بِالرَّفِيقِ الْأَعْلَى»، قَالَتْ: فَكَانَ هَذَا آخِرَ مَا سَمِعْتُ مِنْ كَلَامِهِ ﷺ»(٢).

ورواه إسحاق بن راهوية في مسنده أنَّها قالت: «كُنْتُ أُعَوِّذُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي مَرَضِهِ أَقُولُ: «أَذْهِبِ البَأسَ رَبَّ النَّاسِ، اشْفِ أَنْتَ الشَّافِي، اشْفِ شِفَاءً لَا يُغَادِرُ سَقَمًا، الشِّفَاءُ بِيَدِكَ»، قَالَتْ: فَكُنْتُ أُعَوِّذُهُ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ، فَقَالَ: «عنِّي فإنَّما كانت تنفعني لو كانت المدَّة»(٣)، أي: لو كان لي بقيَّة في هذه الحياة.

وروى البخاريُّ في صحيحه عن عبد العزيز بن صهيب قال: «دَخَلْتُ أَنَا وَثَابِتٌ عَلَى أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ ثَابِتٌ: يَا أَبَا حَمْزَةَ اشْتَكَيْتُ -أي: مرضتُ- فَقَالَ أَنَسٌ: أَلَا أَرْقِيكَ بِرُقْيَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟ قَالَ: بَلَى، قَالَ: «اللَّهُمَّ رَبَّ النَّاسِ، مُذْهِبَ البَاسِ، اشْفِ أَنْتَ الشَّافِي، لَا شَافِيَ إِلَّا أَنْتَ، شِفَاءً لَا يُغَادِرُ سَقَمًا»(٤).

(١) رواه مسلم (٢١٩١).
(٢) رواه ابن ماجه (١٦١٩)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٣) رواه إسحاق ابن راهويه في مسنده (١٣٣٢).
(٤) رواه البخاريُّ (٥٧٤٢).

وروى الإمام أحمد في مسنده عن عليٍّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: **كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا عَوَّذَ مَرِيضًا، قَالَ: «أَذْهِبْ الْبَاسَ رَبَّ النَّاسِ، اشْفِ أَنْتَ الشَّافِي لَا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ، شِفَاءً لَا يُغَادِرُ سَقَمًا»**(١).

وروى البزَّار في مسنده عن عمَّار بن ياسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ دَخَلَ عَلَيْهِ، فَقَالَ: «أَذْهِبِ البَأْسَ رَبَّ النَّاسِ، وَاشْفِ أَنْتَ الشَّافِي لَا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ، شِفَاءً لَا يُغَادِرُ سَقَمًا»**(٢).

وروى الطَّبرانيُّ في كتابه الدُّعاء عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا عَادَ مَرِيضًا، قَالَ: **«أَذْهِبِ البَأْسَ رَبَّ النَّاسِ، وَاشْفِ أَنْتَ الشَّافِي لَا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ، شِفَاءً لَا يُغَادِرُ سَقَمًا»**(٣).

وروى الإمام أحمد في مسنده، قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ حَاطِبٍ: **«انْصَبَّتْ عَلَى يَدِي مِنْ قِدْرٍ** -أي: انصبَّ على يده طعام حارٌّ- **فَذَهَبَتْ بِي أُمِّي إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ فِي مَكَانٍ، فَقَالَ كَلَامًا فِيهِ: «أَذْهِبِ الْبَأْسَ رَبَّ النَّاسِ»، وَأَحْسِبُهُ قَالَ: «اشْفِ أَنْتَ الشَّافِي»، قَالَ: وَكَانَ يَتْفُلُ عَلَى يَدِهِ»**(٤).

ورواه الإمام أحمد في مسنده، عن محمَّد بن حاطب عن أمِّه -أمِّ جميل بنت المجلِّل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- قالت: **«أَقْبَلْتُ بِكَ مِنْ أَرْضِ الْحَبَشَةِ حَتَّى إِذَا كُنْتُ مِنَ الْمَدِينَةِ عَلَى لَيْلَةٍ أَوْ لَيْلَتَيْنِ طَبَخْتُ لَكَ طَبِيخًا، فَفَنِيَ الْحَطَبُ فَخَرَجْتُ أَطْلُبُهُ فَتَنَاوَلْتَ الْقِدْرَ فَانْكَفَأَتْ عَلَى ذِرَاعِكَ، فَأَتَيْتُ بِكَ النَّبِيَّ ﷺ، فَقُلْتُ: بِأَبِي وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللهِ هَذَا مُحَمَّدُ بْنُ حَاطِبٍ، فَتَفَلَ فِي فِيكَ وَمَسَحَ عَلَى رَأْسِكَ وَدَعَا**

---

(١) رواه أحمد (٥٦٥).

(٢) رواه البزَّار في مسنده (١٤١٤).

(٣) رواه الطَّبرانيُّ في الدُّعاء (١١٠٦).

(٤) رواه أحمد (١٥٤٥٢).

لَكَ وَجَعَلَ يَتْفُلُ عَلَى يَدَيْكَ، وَيَقُولُ: «أَذْهِبِ الْبَاسَ رَبَّ النَّاسِ، وَاشْفِ أَنْتَ الشَّافِي لَا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ، شِفَاءً لَا يُغَادِرُ سَقَمًا»، فَقَالَتْ: فَمَا قُمْتُ بِكَ مِنْ عِنْدِهِ حَتَّى بَرَأَتْ يَدُكَ»(١).

قال الشَّوكانيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهذا الحديث وإن كانت الرُّقية به لمحروق، فإنَّه لا يدلُّ على أنَّه لا يُرقى بها إلَّا المحروق، بل يُرقى بها كلُّ مَن أُصيب بشيء كائنًا ما كان»(٢).

وروى الإمام أحمد في مسنده، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ السَّائِبِ ابْنِ أَخِي مَيْمُونَةَ الْهِلَالِيَّةِ أَنَّهُ حَدَّثَهُ أَنَّ مَيْمُونَةَ قَالَتْ لَهُ: **يَا ابْنَ أَخِي أَلَا أَرْقِيكَ بِرُقْيَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟ قُلْتُ: بَلَى قَالَتْ: «بِسْمِ اللهِ أَرْقِيكَ وَاللهُ يَشْفِيكَ مِنْ كُلِّ دَاءٍ فِيكَ أَذْهِبِ الْبَاسَ رَبَّ النَّاسِ وَاشْفِ أَنْتَ الشَّافِي لَا شَافِيَ إِلَّا أَنْتَ»**(٣).

وروى الضَّبِّيُّ في كتابه الدُّعاء عن سحيم بن نوفل، قال: **«بَيْنَا نَحْنُ عِنْدَ عبدِ اللهِ بْنِ مسعودٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ إذ جاءَتْ جاريةٌ إِلَى سيِّدِهَا، وقالَتْ: مَا يُقْعِدُكَ؟ قُمْ فابتغِ راقيًا؛ فإنَّ فُلَانًا قد لَقَعَ فرسَك** -أي: أصاب فرسك بعين- **فتركه يدور كأنَّه فلَك، فقالَ عبدُ الله: لَا تَبْغِ راقيًا، ولكن ائته فاتفل في منخره الأيمن أربعًا، وفي الأيسر ثلاثًا، وقل: (بِسْمِ اللهِ لَا بَأْس أَذْهِبِ البَأسَ رَبَّ النَّاسِ واشْفِ أَنْتَ الشَّافِي لَا يَكْشِفُ الضُّرَّ إِلَّا أَنْتَ)، قال: فما قمنا من عند عبد الله حتَّى جاء، فقال: قلتُ الَّذي قلتَ لي؛ فلم أبرح حتَّى أكل وشرب وراث وبال»**(٤). قال الحافظ ابن حجر: «وحكمه الرَّفع؛ إذ مثله لا مجال للرَّأي فيه»(٥).

---

(١) رواه أحمد (١٥٤٥٣)، وصحَّحه الألبانيُّ في صحيح السِّيرة.
(٢) انظر: تحفة الذَّاكرين (ص٣٢٣).
(٣) رواه أحمد (٢٦٨٢١)، وصحَّحه الألبانيُّ في التَّعليقات الحسان (٦٠٦٣).
(٤) رواه الضَّبِّيُّ في الدُّعاء (١١٧).
(٥) انظر: إتحاف المهرة (١٠/ ٢١٢).

فهذه الرُّقية العظيمة مشتملة على توسُّلاتٍ عظيمات والتجاءاتٍ مباركات إلى الله سبحانه ربِّ الأرض والسَّماوات، وأنَّه الشَّافي لا شفاء إلَّا شفاؤه؛ فمَن وفَّقه الله عَزَّوَجَلَّ للعناية بهذه الرُّقية حفظًا لألفاظها وفهمًا لمعناها ومدلولها وصدقًا في الالتجاء إلى الله عَزَّوَجَلَّ بالدُّعاء بها متوكِّلًا عليه واثقًا به شفاه الله وشفى مريضه أيًّا كان مرضه بإذن الله، والشَّافي هو الله وحده لا شفاء إلَّا شفاؤه.

وعندما يشتدُّ المرض بكثير من النَّاس في مثل هذا المقام يفكرُّون في البحث عمَّن يرقيهم وعمَّن يقرأ عليهم!! مع أنَّ دعاء المريض لنفسه ورقيته لنفسه نفعها عظيمٌ وفائدتها جليلة؛ لأنَّ دعاءه لنفسه دعاء مضطرٍّ، روى الطَّبرانِيُّ في كتابه «الدُّعاء»: أنَّ بكر بن عبد الله المزنيَّ رَحِمَهُٱللَّهُ عاد مريضًا، فقال له المريض: ادعُ الله لي، فقال له: «أدعُ لنفسك؛ فإنَّه يُجيب المضطرَّ إذا دعاه»(١). وهذا معنى ينبغي التَّنبُّه له؛ أنَّ المريض عندما يدعو الله عَزَّوَجَلَّ في ضرَّائه وشدَّته وبلائه فإنَّ دعاءه دعاء مضطرٍّ، والله سبحانه يقول: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النَّمل: ٦٢].

فلنُعنَ عناية دقيقة بهذه الدَّعوات المأثورة؛ تعلُّمًا لها، وحفظًا لألفاظها، وفهمًا لمعانيها ودلالاتها، وإشاعةً لها ونشرًا لها بين النَّاس وبين المرضى والمصابين، راجين بذلك أن ينفعنا الله ﷺ بها وأن ينفع بها كلَّ مبتلى ومصاب.

(١) رواه الطَّبرانِيُّ في الدُّعاء (١١٣٧).

٨١
ما يرقى به المريض (٢)

عَنْ عُثْمَانَ بْنِ أَبِي الْعَاصِ الثَّقَفِيِّ أَنَّهُ شَكَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَجَعًا يَجِدُهُ فِي جَسَدِهِ مُنْذُ أَسْلَمَ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**ضَعْ يَدَكَ عَلَى الَّذِي تَأَلَّمَ مِنْ جَسَدِكَ، وَقُلْ: بِاسْمِ اللهِ ثَلَاثًا، وَقُلْ سَبْعَ مَرَّاتٍ: أَعُوذُ بِاللهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ وَأُحَاذِرُ**». رواه مسلم(١).

ورواه ابن ماجه، ولفظه: قَدِمْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَبِي وَجَعٌ، قَدْ كَادَ يُبْطِلُنِي، فَقَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ: «**اجْعَلْ يَدَكَ الْيُمْنَى عَلَيْهِ، وَقُلْ: بِسْمِ اللهِ أَعُوذُ بِعِزَّةِ اللهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ وَأُحَاذِرُ، سَبْعَ مَرَّاتٍ**»، فَقُلْتُ ذَلِكَ، فَشَفَانِي اللهُ(٢).

ورواه التِّرمذيُّ، وزاد: قَالَ: فَفَعَلْتُ، فَأَذْهَبَ اللهُ مَا كَانَ بِي، فَلَمْ أَزَلْ آمُرُ بِهِ أَهْلِي وَغَيْرَهُمْ(٣).

وعن محمَّد بن سالم قال: قال لي ثابت البُنَانِيُّ: يا مُحَمَّدُ، إِذَا اشْتَكَيْتَ فَضَعْ يَدَكَ حَيْثُ تَشْتَكِي، ثُمَّ قُلْ: «**بِسْمِ اللهِ، أَعُوذُ بِعِزَّةِ اللهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ مِنْ وَجَعِي هَذَا، ثُمَّ ارْفَعْ يَدَكَ ثُمَّ أَعِدْ ذَلِكَ وِتْرًا**»؛ فَإِنَّ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ، حَدَّثَنِي أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ حَدَّثَهُ بِذَلِكَ. رواه التِّرمذيُّ(٤).

---

(١) رواه مسلم (٢٢٠٢).

(٢) رواه ابن ماجه (٣٥٢٢)، وصحَّحه الألبانِيُّ.

(٣) رواه التِّرمذيُّ (٢٠٨٠)، وصحَّحه الألبانِيُّ.

(٤) رواه التِّرمذيُّ (٣٥٨٨)، وصحَّحه الألبانِيُّ.

وعن كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِذَا وَجَدَ أَحَدُكُمْ أَلَمًا فَلْيَضَعْ يَدَهُ حَيْثُ يَجِدُ أَلَمَهُ، ثُمَّ لِيَقُلْ سَبْعَ مَرَّاتٍ: أَعُوذُ بِعِزَّةِ اللهِ وَقُدْرَتِهِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ**». رواه أحمد(١).

قوله: «**مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ وَأُحَاذِرُ**»، أي: مِن شرِّ ما أجدُ مِن وجَعٍ وألمٍ، ومِن شرِّ ما أحاذرُ مِن ذلك، أي: ما أخافُ وأَحْذر.

وهذا فيه التَّعوُّذ مِن الوجع الَّذي هو فيه، والتَّعوُّذ مِن الوجع الَّذي يَخاف حصولَه، أو يتوقَّعُ حصولَه في المستقبل، ومِن ذلك تفاقمُ المرض الَّذي هو فيه وتزايُدُه، وهذا يحصل للإنسان كثيرًا عند ما يُصاب بمرضٍ؛ فإنَّه قد ينتابُه شيءٌ مِن القلق تخوُّفًا مِن تزايُد المرضِ وتفاقمِه، وفي هذا الدُّعاء العظيم تعوُّذٌ بالله من ذلك.

ويحسن تكراره مرَّات مع اليقين والثِّقة بالله، قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ففي هذا العلاج من ذكر الله والتَّفويض إليه والاستعاذة بعزَّته وقدرته من شرِّ الألم ما يذهب به، وتكراره؛ ليكون أنجع وأبلغ، كتكرار الدَّواء لإخراج المادَّة، وفي السَّبع خاصِّيَّة لا توجد في غيرها»(٢).

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **أَنَّ جِبْرِيلَ** عَلَيْهِ السَّلَامُ **أَتَى النَّبِيَّ** ﷺ، **فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ اشْتَكَيْتَ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «بِسْمِ اللهِ أَرْقِيكَ، مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُؤْذِيكَ، مِنْ شَرِّ كُلِّ نَفْسٍ أَوْ عَيْنِ حَاسِدٍ اللهُ يَشْفِيكَ، بِسْمِ اللهِ أَرْقِيكَ»**. رواه مسلم(٣).

هذا فيه رقية جبريل الَّتي رقى بها نبيِّنا محمَّدًا ﷺ؛ جاءه وسأله، قال:

---

(١) رواه أحمد (٢٧١٧٩)، وصحَّحه الألبانيُّ في السِّلسلة الصَّحيحة (١٤١٥)، وفي صحيح الجامع (٨٢٠).

(٢) زاد المعاد (٤/ ١٧٢).

(٣) رواه مسلم (٢١٨٦).

اشتكيت؟ قال نعم، فرقاه بهذه الرُّقية: «**بِسْمِ اللهِ أَرْقِيكَ، مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُؤْذِيكَ، مِنْ شَرِّ كُلِّ نَفْسٍ أَوْ عَيْنِ حَاسِدٍ اللهُ يَشْفِيكَ**»، وهي رقية من الشُّرور والآفات كلِّها، وفيها الالتجاء الى الله والاعتصام به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأنَّ الشِّفاء بيده لا شافي إلَّا هو.

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: **أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ عَلَى أَعْرَابِيٍّ يَعُودُهُ، -قَالَ: وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا دَخَلَ عَلَى مَرِيضٍ يَعُودُهُ، قَالَ: «لَا بَأْسَ طَهُورٌ إِنْ شَاءَ اللهُ»- فَقَالَ لَهُ: «لَا بَأْسَ طَهُورٌ إِنْ شَاءَ اللهُ»، قَالَ: «قُلْتَ: طَهُورٌ!! كَلَّا بَلْ هِيَ حُمَّى تَفُورُ -أَوْ تَثُورُ- عَلَى شَيْخٍ كَبِيرٍ تُزِيرُهُ الْقُبُورَ»، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «فَنَعَمْ إِذاً»**. رواه البخاريُّ[(١)].

في هذا الحديث ما يُقال للمريض؛ والمريض يحتاج إلى مَن يُطمئنه ويُهوِّن عليه ويذكِّره بالثَّواب ويُذكِّره بما في المرض من تكفير وتطهير، وهذه أمور نافعة للمريض، عندما يُقال له: «لا بأس»، ويقال له: «طهور»؛ فهذه كلمات لها وقعٌ في نفس المريض وأثر عظيم، أن يُذكَّر بالثَّواب، ويُتفاءل له بالشِّفاء والعافية ونحو ذلك من الكلمات المؤنسة المفرحة لقلبه.

وقد كان من هدي النَّبيِّ ﷺ إذا عاد مريضًا أن يقول له: «**طهور إن شاء الله**»، و«طهورٌ» خبرُ مبتدأ محذوف، تقديره: هو -أي: المرض- طهورٌ لك من ذنوبك مطهِّرٌ لك منها؛ وفي هذا استحباب أن يُذكَّر المريض بما في المرض من تطهير للذُّنوب.

لكنَّ الأعرابيَّ لم يقبل هذا، فقال: «**قُلْتَ: طَهُورٌ!! كَلَّا بَلْ هِيَ حُمَّى تَفُورُ أَوْ تَثُورُ**»، أي: يظهر حرُّها ووهجها وغليانها «**عَلَى شَيْخٍ كَبِيرٍ تُزِيرُهُ الْقُبُورَ**»، أي: تكون سببًا في موته فتبعثه إلى القبور.

(١) رواه البخاريُّ (٣٦١٦).

«**فَقَالَ النَّبِيُّ** ﷺ: **فَنَعَمْ إِذاً**»، أي: أنَّ هذا هو الَّذي يكون أو يقع؛ لأنَّ الرَّجل ما قبِل من النَّبيِّ ﷺ ما ذكَّره به من أنَّ الأمراض كفَّاراتٌ؛ وذلك لضعف صبره، والمعنى: أرشدتك بقولي: لا بأس عليك، أي: إنَّ الحمَّى تطهِّرك، وتنقِّي ذنوبك، فاصبر واشكر الله عليها، فأبيت إلَّا اليأس والكفران! فكان كما زعمت، وما اكتفيت بذلك، بل رددت نعمة الله عليه، قالها غضبًا عليه.

وقد رواه الطَّبرانِيُّ وزاد: «**أَما إِذَا أَبيتَ فَهِيَ كَمَا تَقُولُ، وَمَا قَضَى اللهُ فَهُوَ كَائِنٌ**»، قَالَ: «**فَمَا أَمْسَى مِنَ الْغَدِ إِلَّا مَيِّتًا**»[١]، ففي الحديث أنَّه ينبغي للمريض أن يتلقَّى موعظة العائد بالقبول، ويُحسن جواب مَن يُذكِّره بذلك، وعليه أن يتجنَّب أن يقول قولًا يجرُّ عليه بلاءً؛ فإنَّ البلاء موكول بالمنطق.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن البلاء الحاصل بالقول: قول الشَّيخ البائس الَّذي عاده النَّبيُّ فرأى عليه حمَّى، فقال: «لَا بَأْسَ عَلَيْكَ طَهُورٌ إِنْ شَاءَ اللهُ»، فقال بَلْ هِيَ حُمَّى تَفُورُ عَلَى شَيْخٍ كَبِيرٍ تُزِيرُهُ الْقُبُورَ، فقال رسول الله ﷺ: «فَنَعَمْ إِذاً»، وقد رأينا من هذا عبرًا»[٢].

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: **أَنَّ النَّبِيَّ** ﷺ **كَانَ يُعَوِّذُ بَعْضَ أَهْلِهِ، يَمْسَحُ بِيَدِهِ الْيُمْنَى، وَيَقُولُ**: «**اللَّهُمَّ رَبَّ النَّاسِ أَذْهِبِ الْبَاسَ، اشْفِهِ وَأَنْتَ الشَّافِي، لَا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ، شِفَاءً لَا يُغَادِرُ سَقَمًا**». رواه البخاريُّ ومسلم[٣].

وعن عبدالعزيز بن صهيب، قال: دَخَلْتُ أَنَا وَثَابِتٌ عَلَى أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ ثَابِتٌ: يَا أَبَا حَمْزَةَ اشْتَكَيْتُ؟ فَقَالَ أَنَسٌ: أَلَا أَرْقِيكَ بِرُقْيَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟ قَالَ: بَلَى، قَالَ: «**اللَّهُمَّ رَبَّ النَّاسِ مُذْهِبَ الْبَاسِ اشْفِ أَنْتَ**

(١) رواه الطَّبرانيُّ في المعجم الكبير (٧٢١٣).
(٢) انظر: تحفة المودود (١٢٣).
(٣) رواه البخاريُّ (٥٧٤٣)، ومسلم (٢١٩١)، واللَّفظ للبخاريِّ.

الشَّافِي لَا شَافِيَ إِلَّا أَنْتَ شِفَاءً لَا يُغَادِرُ سَقَمًا». رواه البخاريُّ(١).

هذه الرُّقية العظيمة الَّتي كان يرقي بها النَّبيُّ ﷺ المريض جدير بالمسلم أن يعتني بها؛ بضبط ألفاظها حفظًا وبفهم معانيها، ثمَّ الرُّقية بها؛ يرقي نفسه، ويرقي مريضه من أهلٍ أو ولدٍ أو قريبٍ أو نحو ذلك.

قوله: «**اللَّهُمَّ رَبَّ النَّاسِ**»، هذا فيه التَّوسُّل إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالرُّبوبيَّة وأنَّه ربُّ النَّاس، وخالقهم، وموجدهم.

وقوله: «**أَذْهِبِ الْبَاسَ**» البأس: هو التَّعب والشِّدَّة والمرض. وهو هنا بغير هَمزة مراعاة للازدواج والمؤاخاة. وحديث أنس جاء بلفظ: «اللَّهمَّ ربَّ النَّاس مذهب البأس»، وهذا فيه التَّوسُّل إلى الله بكونه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وحده المذهب للبأس الشَّافي لا شفاء إلَّا شفاؤه.

قوله: «**اشْفِهِ وَأَنْتَ الشَّافِي**»، هذا توسُّل الى الله سبحانه بأنَّه الشَّافي الَّذي بيده الشِّفاء، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشُّعراء: ٨٠]. فلا شفاء إلَّا بإذن الله؛ لهذا يُنصح المريض في العلاجات الَّتي يستعملها ألَّا يعلِّق قلبه بها، فهي لا تنفعه إلَّا إذا أذِن الله بالشِّفاء، ولا يعلِّق قلبه بالطَّبيب فالشِّفاء بيد الله، بل عليه التَّوكُّل على الله واعتقاد أنَّ الشَّافي هو الله، وأنَّ هذه أسباب نتَّخذها، كما قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**تَدَاوَوْا عِبَادَ اللهِ؛ فَإِنَّ اللهَ** عَزَّوَجَلَّ **لَمْ يُنَزِّلْ دَاءً إِلَّا أَنْزَلَ مَعَهُ شِفَاءً**»(٢)، فنتداوى ونأخذ بالأسباب، ونستفيد من العلاجات، لكن لا نعلِّق قلوبنا بها، فالشِّفاء بيد الله وبإذنه سبحانه.

وقوله: «**لَا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ**»، هذا فيه تأكيد للمعنى السَّابق؛ أنَّ الشَّافي هو الله.

---

(١) رواه البخاريُّ (٥٧٤٢).

(٢) رواه أبو داود (٣٨٥٥)، والتِّرمذيُّ (٢٠٣٨)، وابن ماجه (٣٤٣٦)، وصحَّحه الألبانِيُّ.

وقوله: «**شِفَاءً لَا يُغَادِرُ سَقَمًا**»، أي: لا يترك أو يعقِّب علَّة. والفائدة من هذه الزِّيادة: «شِفَاءً لَا يُغَادِرُ سَقَمًا»؛ أنَّ بعض الأمراض يشفى منها الإنسان لكن يكون لها عواقب وآثار جانبيَّة للمرض، فسأل الله العافية من المرض والسَّلامة من الأمراض الَّتي تتولَّد عنه وتنشأ منه.

والفائدةُ من هذا: أنَّ الشِّفاءَ من المرض قد يَحصل، ولكن قد يَخلُفُه مرضٌ آخرُ يَتَوَلَّد منه، وينشأُ بسببه، فسأل اللهَ أن يكون شفاؤُه من المرض شفاءً تامًّا لا يبقى معه أثرٌ ولا يخلِّف في المريض أيَّ علَّة، وهذا من تَمام الدَّعوات النَّبويَّة وكمالها ووفائها.

وتوضع اليد على مكان الألم، إذا كان الألم في الصَّدر يضع يده على صدره، وإن كان على الرَّأس يضع يده على رأسه، أو البطن يضع اليد على بطنه. ويمسح بيده، والمسح على المريض، أو موطن الوجع والألم كما أنَّ فيه قراءةً وتعويذًا ونحو ذلك، ففيه أيضًا طَمْأَنَة له؛ لأنَّك إذا وضعت يدك عليه يطمئنُّ؛ لأنَّك تفقَّدته وتحسَّست مرضه، فتُدخل عليه راحة وسرورًا وأنسًا.

ومن الفوائد من هذا المسح: أن تعرف حجم مرضه، فقد يكون جسمه محترًا حرارةً شديدةً قد تضرُّ به، فإذا لمسته قد تُدرك مدى الوجع ومدى الألم الَّذي هو مُصاب به فتجتهد له بالدُّعاء، وببذل أسباب الشِّفاء. وهذا كلُّه منطلقه الرَّابطة الإيمانيَّة الَّتي تجمع وتؤلِّف، قال ﷺ: «**مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى**». رواه البخاريُّ ومسلم[1]. وفي صحيح مسلم عن النِّعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**الْمُسْلِمُونَ كَرَجُلٍ وَاحِدٍ؛ إِنِ اشْتَكَى عَيْنُهُ اشْتَكَى كُلُّهُ، وَإِنِ اشْتَكَى رَأْسُهُ اشْتَكَى كُلُّهُ**»[2].

(١) رواه البخاريُّ (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦).

(٢) رواه مسلم (٢٥٨٦).

٨٢
ما يرقى به المريض (٣)

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَنْ عَادَ مَرِيضًا لَمْ يَحْضُرْ أَجَلُهُ، فَقَالَ عِنْدَهُ سَبْعَ مِرَارٍ: «أَسْأَلُ اللهَ الْعَظِيمَ رَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ أَنْ يَشْفِيَكَ»؛ إِلَّا عَافَاهُ اللهُ مِنْ ذَلِكَ الْمَرَضِ**». رواه أبو داود والتِّرمذيُّ[(١)].

وفي الأدب المفرد للبخاريِّ: عن ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «**كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا عَادَ المَرِيضَ جَلَسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، ثُمَّ قَالَ سَبْعَ مِرَارٍ: «أَسْأَلُ اللهَ العَظِيمَ رَبَّ العَرْشِ العَظِيمِ أَنْ يَشْفِيَكَ»؛ فَإِنْ كَانَ فِي أَجَلِهِ تَأْخِيرٌ عُوفِيَ مِنْ وَجَعِهِ**»[(٢)].

عيادة المريض: هي زيارته، ومن السُّنَّة أن يكون جلوس العائد عند رأس المريض، كما تقدَّم في الحديث: «**كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا عَادَ المَرِيضَ جَلَسَ عِنْدَ رَأْسِهِ**»، وهذا الجلوس عند رأس المريض فيه أُنسٌ له وقُربٌ منه وإراحةٌ لنفسه، وإدخالٌ للسُّرور عليه، بخلاف ما لو أنَّه كان بعيدًا عنه، وأيضًا أيسر في الحديث معه وأرفق به، ومن السُّنَّة أيضًا أن يضع يده على بدنه؛ رأسه، أو يده، وقُربه منه ييسر له ذلك.

ووضع اليد على المريض هذا أيضًا فيه فوائد؛ منها: أن تستشعر حجم المرض، أحيانًا تضع يدك فتجد أنَّ المريض معاناته شديدة وحمَّاه مرتفعة، فيزيد عطفك عليه ودعاؤك له وتلطُّفك به، ومؤانستك له، ومن فوائده: أنَّ هذا أتمُّ في الرُّقية؛ بوضع اليد على رأسه أو على يده حال الرُّقية.

(١) رواه أبو داود (٣١٠٦)، والتِّرمذيُّ (٢٠٨٣)، وصحَّحه الألبانِيُّ.
(٢) رواه البخاريُّ في الأدب المفرد (٥٣٦)، وصحَّحه الألبانِيُّ.

ثمَّ يقول سبع مرار: «**أَسْأَلُ اللهَ العَظِيمَ رَبَّ العَرْشِ العَظِيمِ أَنْ يَشْفِيَكَ**»، فهذه كلمات عظيمة يُشرع أن تُقال عند عيادة المريض تُكرَّرُ سبع مرَّات، وهي دعواتٌ بطلب الشِّفاء له، متوسِّلًا إلى الله عَزَّوَجَلَّ بعظمته هو سبحانه، وربوبيَّته للعرش العظيم الَّذي هو أعظم المخلوقات وأكبرها.

قوله: «**إِلَّا عَافَاهُ اللهُ مِنْ ذَلِكَ الْمَرَضِ**»، وفي الحديث الثَّاني قال: «**فَإِنْ كَانَ فِي أَجَلِهِ تَأْخِيرٌ عُوفِيَ مِنْ وَجَعِهِ**»، وهذا فيه أنَّه دعاءٌ مستجاب والعافيةُ للمريض على إثره متحقِّقه. وليُعلم أنَّ الدُّعاء سبب يُنال به المطلوب، وقد يتخلَّف ذلك لأسباب تعود للدَّاعي؛ إمَّا لضعف في الدُّعاء، أو إخلالٍ ببعض الشُّروط، أو نحو ذلك.

هذا لمَن كان في أجله تأخير، أمَّا مَن حضره أجله فلا مناص له عن الموت، ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤].

وقوله: «**فَقَالَ عِنْدَهُ سَبْعَ مَرَّاتٍ**»، فيه أنَّ رقمَ سبعةٍ له خاصِّيَّة، ولهذا تقدَّم في الحديث قول سبع مرار: «أَعُوذُ بِعِزَّةِ اللهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ وَأُحَاذِرُ»، وهي وتر، و الله وتر يحب الوتر، فيأتي بها سبعًا لا يزيد عليها.

وقوله: «**أن يشفيك**»، هل يقولها بصوت يُسمِع المريض أو يقولها سرًّا؟ الأمر في ذلك واسع، لكن إن أسمعَ المريض بصوت خافت فهذا فيه مؤانسة للمريض.

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ لِلْمَرِيضِ: «**بِسْمِ اللهِ، تُرْبَةُ أَرْضِنَا، بِرِيقَةِ بَعْضِنَا، يُشْفَى سَقِيمُنَا، بِإِذْنِ رَبِّنَا**». رواه البخاريُّ ومسلم(١).

هذه رقية ثابتة ومأثورة عن النَّبيِّ ﷺ، فيها الرُّقية بهذه الكلمات وبهذه

(١) رواه البخاريُّ (٥٧٤٥)، ومسلم (٢١٩٤).

الطَّريقة: أن يَبُلَّ أصبعه بريقه، ثمَّ يضعه على التُّراب، ولا يختصُّ هذا بتربة المدينة، بل في أيِّ مكان، المهمُّ أن تكون التُّربة نظيفةً. ثمَّ يضع أصبعه على المريض، والأقرب والله أعلم أنَّ هذا لمَن به قروح، أو دمامل ونحو ذلك؛ لمنفعته في تجفيف الجراح واندمالها، وابراء القروح والورم؛ فيضع أصبعه الَّذي علِق فيه بعض التُّراب على المريض، ثمَّ يقول: «بِسْمِ اللهِ، تُرْبَةُ أَرْضِنَا، بِرِيقَةِ بَعْضِنَا، يُشْفَى سَقِيمُنَا، بِإِذْنِ رَبِّنَا».

قوله: «**تُرْبَةُ أَرْضِنَا**»، تربة: خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هذه تربة أرضنا.

قوله: «**بِرِيقَةِ بَعْضِنَا**»، أي: ممزوجة بريقة بعضنا، فاجتمع أمران: تربة طاهرة، وريق طاهر.

قوله: «**يُشْفَى سَقِيمُنَا**»، يُشفى مبنيٌّ لما لم يسمَّ فاعله، أي: يشفيه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قوله: «**بِإِذْنِ رَبِّنَا**»، أي: الشِّفاء بإذنه، لا شفاء إلَّا شفاؤه سبحانه.

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **أَنَّ رَهْطًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ انْطَلَقُوا فِي سَفْرَةٍ سَافَرُوهَا، حَتَّى نَزَلُوا بِحَيٍّ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ فَاسْتَضَافُوهُمْ، فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمْ، فَلُدِغَ سَيِّدُ ذَلِكَ الْحَيِّ، فَسَعَوْا لَهُ بِكُلِّ شَيْءٍ لَا يَنْفَعُهُ شَيْءٌ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَوْ أَتَيْتُمْ هَؤُلَاءِ الرَّهْطَ الَّذِينَ قَدْ نَزَلُوا بِكُمْ، لَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ عِنْدَ بَعْضِهِمْ شَيْءٌ. فَأَتَوْهُمْ فَقَالُوا: يَا أَيُّهَا الرَّهْطُ إِنَّ سَيِّدَنَا لُدِغَ، فَسَعَيْنَا لَهُ بِكُلِّ شَيْءٍ، لَا يَنْفَعُهُ شَيْءٌ، فَهَلْ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْكُمْ شَيْءٌ؟ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: نَعَمْ، وَاللهِ إِنِّي لَرَاقٍ، وَلَكِنْ وَاللهِ لَقَدِ اسْتَضَفْنَاكُمْ فَلَمْ تُضَيِّفُونَا، فَمَا أَنَا بِرَاقٍ لَكُمْ حَتَّى تَجْعَلُوا لَنَا جُعْلًا، فَصَالَحُوهُمْ عَلَى قَطِيعٍ مِنَ الْغَنَمِ، فَانْطَلَقَ فَجَعَلَ يَتْفُلُ وَيَقْرَأُ:** ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢]، **حَتَّى لَكَأَنَّمَا نُشِطَ مِنْ عِقَالٍ، فَانْطَلَقَ يَمْشِي مَا**

بِهِ قَلَبَةٌ، قَالَ: فَأَوْفَوْهُمْ جُعْلَهُمُ الَّذِي صَالَحُوهُمْ عَلَيْهِ، فَقَالَ بَعْضُهُم: اقْسِمُوا، فَقَالَ الَّذِي رَقَى: لَا تَفْعَلُوا حَتَّى نَأْتِيَ رَسُولَ الله ﷺ فَنَذْكُرَ لَهُ الَّذِي كَانَ، فَنَنْظُرَ مَا يَأْمُرُنَا. فَقَدِمُوا عَلَى رَسُولِ الله ﷺ فَذَكَرُوا لَهُ، فَقَالَ: «وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّهَا رُقْيَةٌ، أَصَبْتُمُ، اقْسِمُوا وَاضْرِبُوا لِي مَعَكُمْ بِسَهْمٍ». رواه البخاريُّ ومسلم(١).

في هذا الحديث: فضل الفاتحة أعظمِ سور القرآن وأنَّها رقية، فقد قال له النَّبيُّ ﷺ لما ذكر أنَّه كان يقرأ الفاتحة وينفث، قال: «**وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّهَا رُقْيَةٌ، أَصَبْتُمُ**». فالفاتحة رقية عظيمة ولها تأثير عظيم في شفاء المريض.

حتَّى قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولو أحسن العبد التَّداوي بالفاتحة لرأى لها تأثيرًا عجيبًا في الشِّفاء، ومكثتُ بمكَّة مدَّة يعتريني أدواء ولا أجد طبيبًا ولا دواءً، فكنت أعالج نفسي بالفاتحة، فأرى لها تأثيرًا عجيبًا، فكنت أصف ذلك لمَن يشتكي ألمًا، وكان كثير منهم يبرأ سريعًا.

ولكن هاهنا أمر ينبغي التَّفطُّن له، وهو أنَّ الأذكار والآيات والأدعية الَّتي يُستشفى بها ويُرقى بها هي في نفسها نافعة شافية، ولكن تستدعي قبول المحلِّ، وقوَّة همَّة الفاعل وتأثيره، فمتى تخلَّف الشِّفاء كان لضعف تأثير الفاعل، أو لعدم قبول المنفعل، أو لمانعٍ قويٍّ فيه يمنع أن ينجع فيه الدَّواء، كما يكون ذلك في الأدوية والأدواء الحسِّيَّة؛ فإنَّ عدم تأثيرها قد يكون لعدم قبول الطَّبيعة لذلك الدَّواء، وقد يكون لمانعٍ قويٍّ يمنع من اقتضائه أثره، فإنَّ الطَّبيعة إذا أخذت الدَّواء بقبولٍ تامٍّ كان انتفاع البدن به بحسب ذلك القبول، فكذلك القلب إذا أخذ الرُّقى والتَّعاويذ بقبولٍ تامٍّ، وكان للرَّاقي نفس فعَّالة وهمَّة مؤثرة في إزالة الدَّاء». اهـ كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢).

---

(١) رواه البخاريُّ (٥٧٤٩)، ومسلم (٢٢٠١).
(٢) انظر: الجواب الكافي (ص٩).

قوله: «**انْطَلَقَ نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ** عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ **فِي سَفْرَةٍ سَافَرُوهَا حَتَّى نَزَلُوا عَلَى حَيٍّ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ فَاسْتَضَافُوهُمْ**»، أي: طلبوا منهم أن يضيفوهم بشيء من الطَّعام أو الغذاء أو اللَّبن أو نحو ذلك.

قوله: «**فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُم**»، أي: امتنعوا من ذلك، فمضوا في طريقهم مع حاجتهم للغذاء.

قوله: «**فَلُدِغَ سَيِّدُ ذَلِكَ الحَيِّ**»، أي: رئيسهم لدغته عقرب.

قوله: «**فَسَعَوْا لَهُ بِكُلِّ شَيْءٍ لَا يَنْفَعُهُ**»، جاءوا له بأدوية وعلاجات فلم تُجدِ شيئًا.

قوله: «**فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَوْ أَتَيْتُمْ هَؤُلَاءِ الرَّهْط الَّذِينَ نَزَلُوا؛ لَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ عِنْدَ بَعْضِهِمْ شَيْءٌ**»، أي: طبٌّ نعالجه به، مع أنَّهم قبل قليل امتنعوا من ضيافتهم! لكن الآن احتاجوا وذهبوا إليهم لعلَّهم يجدون عندهم شيئًا يعالجون به سيِّدهم.

قوله: «**فَأَتَوْهُم، فَقَالُوا: يَا أَيُّهَا الرَّهْطُ**»، والرَّهط: هو ما بين الواحد إلى العشرة.

قوله: «**إِنَّ سَيِّدَنَا لُدِغَ وَسَعَيْنَا لَهُ بِكُلِّ شَيْءٍ لَا يَنْفَعُهُ؛ فَهَلْ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْكُمْ مِنْ شَيْءٍ؟ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: وَاللهِ إِنِّي لَرَاقٍ، وَلَكِنْ وَاللهِ لَقَدِ اسْتَضَفْنَاكُمْ فَلَمْ تُضَيِّفُونَا، فَمَا أَنَا بِرَاقٍ لَكُمْ حَتَّى تَجْعَلُوا لَنَا جُعْلًا**»، الجعل: ما يُعطى على العمل.

قوله: «**فَصَالَحُوهُمْ عَلَى قَطِيعٍ مِنَ الغَنَمِ**»، أي: إن رقى سيِّدهم وشُفي يعطونهم قطيعًا من الغنم.

قوله: «**فَانْطَلَقَ يَتْفُلُ عَلَيْهِ وَيَقْرَأُ: الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ**»، ورواه التِّرمذيُّ

وابن ماجه بلفظ: «فَقَرَأْتُ عَلَيْهِ الحَمْدُ سَبْعَ مَرَّاتٍ فَبَرِئَ»[(١)].

قوله: «**فَكَأَنَّمَا نُشِطَ مِنْ عِقَالٍ**»، أي: قام نشيطًا لا يجد شيئًا ولا يحسُّ بألم.

قوله: «**فَانْطَلَقَ يَمْشِي وَمَا بِهِ قَلَبَةٌ**»، أي: ما به وجع.

قال: «**فَأَوْفَوهُمْ جُعْلَهُم الَّذِي صَالَحُوهُمْ عَلَيْهِ**»، أي: أعطوهم قطيعًا من الغنم.

«**فَقَالَ بَعْضُهُم: اقْسِمُوا، فَقَالَ الَّذِي رَقَى: لَا تَفْعَلُوا حَتَّى نَأْتِيَ رَسُولَ الله ﷺ فَنَذْكُرَ لَهُ الَّذِي كَانَ، فَنَنْظُرَ مَا يَأْمُرُنَا. فَقَدِمُوا عَلَى رَسُولِ الله ﷺ فَذَكَرُوا لَهُ، فَقَالَ:** «**وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّهَا رُقْيَةٌ**»، أي: أنَّ الفاتحة رقيةٌ عظيمة وشفاءٌ من الأدواء والأسقام، ولكن كيف عرفت هذا! وهذا فيه إقرار من النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنَّها رقيةٌ وثبوت نفعها بإذن الله تعالى.

ثمَّ قالَ: «**أَصَبْتُمْ، اقْسِمُوا وَاضْرِبُوا لِي مَعَكُمْ بِسَهْمٍ**»، أي: اجعلوا لي منه نصيبًا، وكأنَّه أراد المبالغة في تأنيسهم.

(١) رواه التِّرمذيُّ (٢٠٦٣)، وابن ماجه (٢١٥٦)، وصحَّحه الألبانيُّ.

٨٣

ما يقول مَن حضره الموت

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: قالَ رَسولُ الله ﷺ: «**لَقِّنُوا مَوْتاكُمْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**». رواه مسلم[١].

قوله: «**مَوْتاكُمْ**»، أي: مَنْ حَضَرَه الموْت مِنكُم.

وَعَنْ مُعاذِ بْنِ جَبَل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ كَانَ آخِرُ كَلَامِهِ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» دَخَلَ الْجَنَّةَ**». رواه أبو داود[٢].

أفاد هذان الحديثان أنَّ مَن دنت منيَّته وشارفت روحه أن تخرج، أن يحرص على أن يكون آخر كلامه من الدُّنيا: «لا إله إلَّا الله»، كما حديث معاذ ابن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. ومَن حوله ينبغي عليهم أن يحرصوا على تلقينه هذه الكلمة؛ لتكون آخر كلامه من الدُّنيا، كما في حديث أبي سعيد الخدريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وأن لا يَقولوا عنده إلَّا خيرًا، ففي صحيح مسلم عن أمِّ سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله ﷺ: «**إِذَا حَضَرْتُم المَرِيضَ أَوِ المَيِّتَ فَقُولُوا خيرًا؛ فَإِنَّ المَلَائِكَةَ يُؤَمِّنُونَ عَلَى مَا تَقُولُونَ**»[٣].

وقد جاء في صحيح مسلم من حديث عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ**»[٤].

---

(١) رواه مسلم (٩١٦).
(٢) رواه أبو داود (٣١١٦)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٣) رواه مسلم (٩١٩).
(٤) رواه مسلم (٢٦).

وثبت في المسند من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَادَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ: «**يَا خَالُ، قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**»، فَقَالَ: أَخَالٌ أَمْ عَمٌّ؟ فَقَالَ: «**لَا، بَلْ خَالٌ**»، قَالَ: فَخَيْرٌ لِي أَنْ أَقُولَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**نَعَمْ**»[(١)].

وهي كلمة عظيمة بل هي أجلُّ الكلمات وأعظمها، وأعظم ما تكون الغنيمة للعبد أن تكون هذه الكلمة خاتمة عمله في هذه الحياة الدُّنيا، ومَن كانت هذه الكلمة خاتمة عمله دخل الجنَّة.

ومن لطيف ما رُوي في هذا الباب قصَّةُ الإمام المحدِّث أبي زرعة الرَّازيِّ: عندما حضرته الوفاةُ، وهي قصَّةٌ ثابتةٌ رواها غير واحد من أهل العلم عن أبي عبد الله محمَّد بن مسلم الباديِّ، قال: «حضرت مع أبي حاتم محمَّد بن إدريس عند أبي زرعة عُبيد الله بن عبد الكريم الرَّازيِّ وهو في النَّزْع، فقلت لأبي حاتم: تعال حتَّى نُلَقِّنَه الشَّهادةَ، فقال أبو حاتم: إنِّي لأستحيي من أبي زرعة أن أُلَقِّنَه الشَّهادةَ، ولكن تعال حتَّى نتذاكرَ الحديثَ، فلعلَّه إذا سمعَه يقول، قال محمَّد ابن مسلم: فبدأتُ فقلتُ: حدَّثنا أبو عاصم النَّبيل، قال: حدَّثنا عبد الحميد بن جعفر، فارْتَجَّ عليَّ الحديثُ، حتَّى كأنِّي ما سمعتُه ولا قرأتُه، فبدأ أبو حاتم، وقال: حدَّثنا محمَّد بنُ بشَّار، قال: حدَّثنا أبو عاصم النَّبيل، عن عبد الحميد ابن جعفر، فارتَجَّ عليه حتَّى كأنَّه ما قرأه ولا سمعه، فبدأ أبو زُرعة -أي: وهو في النَّزْع- وقال: حدَّثنا محمَّد بن بشَّار، قال: حدَّثنا أبو عاصم النَّبيل، قال: حدَّثنا عبد الحميد بن جعفر، عن صالح ابن أبي عَريب، عن كثير بن مُرَّة، عن معاذ بن جبل، قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ كَانَ آخِرَ كَلَامِهِ مِنَ الدُّنْيَا لَا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ**»، وخرجتْ روحُه مع الهاء، من قبل أن يَقولَ: «**دَخَلَ الجَنَّةَ**»». رواه ابن الدُّنيا في «فضل التَّهليل وثوابه الجزيل»[(٢)].

---

(١) رواه أحمد (١٢٥٦٣)، وصحَّحه الألبانِيُّ في أحكام الجنائز (ص:١١).

(٢) رواه ابن أبي الدُّنيا في فضل التَّهليل (٤٩).

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا **قَالَتْ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ** ﷺ **وَهْوَ مُسْتَنِدٌ إِلَيَّ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، وَارْحَمْنِي، وَأَلْحِقْنِي بِالرَّفِيقِ الأَعْلَى»**. رواه البخاريُّ ومسلم(١).

هذا أيضًا من الدَّعوات العظيمة الَّتي يحسن بالمحتضر أن يدعو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بها؛ وهو أن يسأل الله المغفرة والرَّحمة. ففي هذا الحديث حديث عائشة أنَّها سمعت النَّبيَّ ﷺ قبل أن يموت، يقول: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، وَارْحَمْنِي، وَأَلْحِقْنِي بِالرَّفِيقِ الأَعْلَى**».

وكان من هديه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أن يختم أعماله بالاستغفار؛ فجاء عنه ختمُ الصَّلاة بالاستغفار، إذا سلَّم استغفر ثلاثًا، وختمُ الحجِّ بالاستغفار، وختمُ المجالس بالاستغفار، فكذلك حياته كلُّها العامرة بالطَّاعة، والدَّعوة إلى الله سبحانه ختمها بالاستغفار؛ ولهذا يحسن بالمسلم أن يكون هذه السُّؤال على لسانه: «اللَّهمَّ اغفر لي وارحمني»، يسأل الله المغفرة والرَّحمة.

❑ وممَّا يَحسُن أن يُذكَّر به المحتضَر:

﴿ **إحسانُ الظَّنِّ بربِّه؛** فعن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: سمعت النَّبيَّ ﷺ قبل وفاته بثلاث، يقول: «**لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ بِاللهِ الظَّنَّ**». رواه مسلم(٢). وروى ابنُ أبي الدُّنيا في كتابه «حُسْنِ الظَّنِّ باللهِ»، عن إبراهيم النَّخعيِّ أنَّه قال: «كَانُوا يَسْتَحِبُّون أن يُلَقِّنوا العبدَ مَحَاسِنَ عَمَله عند موتِه؛ لكي يُحسِّنَ ظَنَّه بربِّه عَزَّوَجَلَّ»(٣).

﴿ **وأن يَرضَى بقضاء الله ويصبر على قدَرِه؛** لينالَ أجرَ الصَّابرين وثوابَ المحتسبين، ففي صحيح مسلم عن النَّبِيِّ ﷺ أنَّه قال: «**عَجَبًا لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ**

---

(١) رواه البخاريُّ (٥٦٧٤)، ومسلم (٢٤٤٤).
(٢) رواه مسلم (٢٨٧٧).
(٣) رواه ابن أبي الدُّنيا في حسن الظَّنِّ بالله (٣٠).

أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ؛ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْراً لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»(١).

وأن يَحذرَ من تَمَنِّي الموت، حتَّى وإن اشتدَّ به المرضُ وزاد عليه الألَمُ، لِمَا في الصَّحيحين من حديث أنس أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**لَا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُم المَوْتَ لِضُرٍّ أَصَابَه، فَإِنْ كَانَ لَا بُدَّ فَاعِلًا، فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتِ الحَيَاةُ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي مَا كَانَت الوَفَاةُ خَيْرًا لِي**»(٢).

وفي المسند للإمام أحمد عن أمِّ الفضل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أنَّ رسولَ الله ﷺ دخلَ عليهم وعبَّاسٌ عمُّ رسول الله ﷺ يشتكي، فتَمَنَّى عبَّاس الموتَ، فقال له رسول الله ﷺ: «**يا عمُّ! لَا تَتَمَنَّ المَوْتَ؛ فَإِنَّكَ إِنْ كُنْتَ مُحْسِنًا فَأَنْ تُؤَخَّر تَزْدَدْ إِحْسَانًا إِلَى إِحْسَانِكَ خَيْرٌ لَكَ، وَإِنْ كُنْتَ مُسِيئًا فَأَنْ تُؤَخَّرَ تَسْتَعْتِب مِنْ إِسَاءَتِكَ خَيْرٌ لَكَ؛ فَلَا تَتَمَنَّ المَوْتَ**»(٣).

وينبغي عليه أن يَجمع لنفسه بين الرَّجاء والخوف، رجاء رحمة الله، والخوف من عقابه على ذنوبه، فقد روى التِّرمذيُّ وابنُ ماجه عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ على شابٍّ وهو بالموتِ، فقال: «**كيف تَجدُك؟**» قال: «وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي أَرْجُو اللهَ وَإِنِّي أَخَافُ ذُنُوبِي»، فقالَ رسولُ اللهِ: «**لَا يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ عَبدٍ فِي مِثْلِ هَذَا المَوْطِنِ إِلَّا أَعْطَاهُ اللهُ مَا يَرْجُو وَأَمَّنَهُ مِمَّا يَخَافُ**»(٤).

ثمَّ إنَّ مصاب مَن مات له ميِّت عظيمٌ وألمه شديد، فمن السُّنَّة أن يُعزَّى

---

(١) رواه مسلم (٢٩٩٩).

(٢) رواه البخاريُّ (٥٦٧١)، ومسلم (٢٦٨٠).

(٣) رواه البخاريُّ (٦٣٥١)، ومسلم (٢٦٨٠).

(٤) رواه التِّرمذيُّ (٩٨٣)، وابن ماجه (٤٢٦١)، وحسَّنه الألبانيُّ.

وأن يُسلَّى تسليةً تُذهب عنه حزنه، وأيضًا تعينه على الرِّضا بالقضاء، والصَّبر على المصيبة. وإذا كان المسلم يريد أن يُعزِّيَ أخاه فينبغي أن يكون مستحضرًا شيئًا ممَّا ثبت عن النَّبيِّ ﷺ ممَّا يُقال في هذا الموطن، وإذا كان لا يحضره شيء من ذلك؛ يدعو أو يقول ما تيسَّر من الكلام الحسن والقول الطَّيِّب الَّذي يُحقِّق المقصود ولا يخالف الشَّرع.

والمسلم مأجورٌ على تعزيته لأخيه، ووقوفه معه في مصابه، ولهذا جاء في سنن ابن ماجه أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**مَا مِنْ مُؤْمِنٍ يُعَزِّي أَخَاهُ بِمُصِيبَةٍ إِلَّا كَسَاهُ اللهُ مِنْ حُلَلِ الْكَرَامَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»(١).

❧ **وممَّا ورد في السُّنَّة في التَّعزية:** ما رواه البخاريُّ ومسلم عن أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: أَرْسَلَتْ ابْنَةُ النَّبِيِّ ﷺ إِلَيْهِ: «**إِنَّ ابْنًا لِي قُبِضَ فَائْتِنَا**»، **فَأَرْسَلَ يُقْرِئُ السَّلَامَ، وَيَقُولُ**: «**إِنَّ لِلهِ مَا أَخَذَ، وَلَهُ مَا أَعْطَى، وَكُلٌّ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُسَمًّى؛ فَلْتَصْبِرْ وَلْتَحْتَسِبْ**»(٢)، فهذا الحديث أحد ما يُعزَّى به، بل هو من أحسن ما ينبغي أن يُعزَّى به أهل الميت.

قوله: «**إِنَّ لِلهِ مَا أَخَذَ، وَلَهُ مَا أَعْطَى**»، أي: أنَّ الأمر طوع تدبيره وتسخيره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، يُعطي ويمنع، يحيِ ويُميت، يُعزُّ ويذلُّ، يقبض ويبسط، الأمر أمره سبحانه.

قوله: «**وَكُلٌّ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُسَمًّى**»، فهذا الَّذي مات مات بأجله، و﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرَّعد: ٣٨]، ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤].

---

(١) رواه ابن ماجه (١٦٠١)، وحسَّنه الألبانيُّ.
(٢) رواه البخاريُّ (١٢٨٤)، ومسلم (٩٢٣).

قوله: «**فَلْتَصْبِرْ وَلْتَحْتَسِبْ**»، أي: فلتصبر على مصابها، والصَّبر عند الصَّدمة الأولى، ولتحتسب صبرها، ورضاها بقضاء الله، ومصابها أجرًا وثوابًا عند الله سبحانه.

وعن أمِّ سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: دخل رسول الله ﷺ على أبي سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقد شقَّ بصره فأغمضه، ثمَّ قال: «**إنَّ الرُّوحَ إِذَا قُبِضَ تَبِعَهُ البَصَرُ**»، **فَصَاحَ نَاسٌ مِنْ أَهْلِهِ، فَقَالَ**: «**لَا تَدْعُوا عَلَى أَنفُسِكُم إِلَّا بِخَيرٍ؛ فَإِنَّ المَلَائِكَةَ يُؤَمِّنونَ عَلَى مَا تَقُولُونَ**»، **ثُمَّ قَالَ**: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِأَبِي سَلَمَةَ، وَارْفَعْ دَرَجَتَه فِي المَهْدِيِّينَ، وَاخْلُفْه فِي عَقِبِهِ فِي الغَابِرِينَ، وَاغْفِرْ لَنَا وَلَهُ يَا رَبَّ العَالَمِينَ، وافْسَحْ لَهُ فِي قَبْرِهِ وَنَوِّرْ لَهُ فِيهِ**». رواه مسلم(١).

قولها: «**وقد شقَّ بصره**»، أي: شَخَص، وهو الَّذي حضره الموت، وصار ينظر إلى الشَّيء لا يرتدُّ إليه طرفه.

قولها: «**فأغمضه**»، فيه دليل على استحباب إغماض الميِّت، وقيل في الحكمة فيه: ألَّا يَقبُح بمنظره لو ترك إغماضه.

قوله ﷺ: «**إنَّ الرُّوحَ إذَا قُبِضَ تَبِعَه البَصَرُ**»، معناه: إذا خرج الرُّوح من الجسد يتبعه البصر ناظرًا أين يذهب.

قولها: «**ثُمَّ قالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِأَبِي سَلَمة...**» إلى آخره، فيه استحباب الدُّعاء للميِّت عند موته، ولأهله وذرِّيَّته بأمور الآخرة والدُّنيا.

قوله ﷺ: «**واخْلُفه في عقبه في الغابرين**»، أي: الباقين، كقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٢].

---

(١) رواه مسلم (٩٢٠).

٨٤

الذِّكر في صلاة الجنازة

عَنْ عَوْفِ بْنِ مالِكٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: «صَلَّى رَسُولُ الله ﷺ عَلَى جَنَازَةٍ فَحَفِظْتُ مِنْ دُعَائِهِ، وَهُوَ يَقُولُ: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ وَارْحَمْهُ، وَعَافِهِ وَاعْفُ عَنْهُ، وَأَكْرِمْ نُزُلَهُ، وَوَسِّعْ مُدْخَلَهُ، وَاغْسِلْهُ بِالْمَاءِ وَالثَّلْجِ وَالْبَرَدِ، وَنَقِّهِ مِنَ الْخَطَايَا كَمَا نَقَّيْتَ الثَّوْبَ الأَبْيَضَ مِنَ الدَّنَسِ، وَأَبْدِلْهُ دَارًا خَيْرًا مِنْ دَارِهِ، وَأَهْلًا خَيْرًا مِنْ أَهْلِهِ، وَزَوْجًا خَيْرًا مِنْ زَوْجِهِ، وَأَدْخِلْهُ الْجَنَّةَ، وَأَعِذْهُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ أَوْ مِنْ عَذَابِ النَّارِ**»، قَالَ: حَتَّى تَمَنَّيْتُ أَنْ أَكُونَ أنَا ذَلِكَ الْمَيِّتَ». رواه مسلم[(١)].

هذا دعاء عظيم، وهو من الدَّلائل على قوَّة التَّراحم وجمال التَّعاطف بين أهل الإيمان، والسُّنَّة أن يُؤتى به بعد التَّكبيرة الثَّالثة؛ لأنَّ التَّكبيرة الأولى يُقرأ بعدها فاتحةُ الكتاب، والثَّانية يُصلَّى فيها على النَّبيِّ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، والثَّالثة يُؤتى فيها بالدُّعاء للميِّت.

وقد جمَع هذا الدُّعاءُ معانِيَ عظيمةً من الدُّعاء للميِّت، والتَّرحُّم عليه، وسؤال الله عَزَّوَجَلَّ أن يغفر له وأن يكرم نزله، وأن يُوسِّع مُدخله، وأن يغسله بالماء والثَّلج والبرد، وأن يدخله الجنَّة ويُنجِيه من النَّار.

قوله: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ وَارْحَمْهُ**»، المغفرة: التَّجاوز عن الذُّنوب. والرَّحمة: فيها حصول النِّعمة، والفضل والخير؛ فجمع بين زوال الذُّنوب بالسَّتر والتَّجاوز، وحصول الخير بالتَّوفيق له والتَّيسير والإعانة. والرَّحمة أعمُّ؛

(١) رواه مسلم (٩٦٣).

فالمغفرة ستر الذَّنب والتَّجاوز عنه، والرَّحمة تزيد عن ذلك بنيل الخيرات ورفعة الدَّرجات، وكثرة الثَّواب.

قوله: «**وَعَافِهِ وَاعْفُ عَنْهُ**»؛ عافه، أي: من العذاب، واعف عنه، أي: ما وقع فيه من ذنب وتقصير.

قوله: «**وَأَكْرِمْ نُزُلَهُ**»، النُّزُل: قِرى الضَّيف، وهو ما يُعدُّ ويُقدَّم للضَّيف من طعام وشراب، والمراد: أحسِن نصيبه من الجنَّة.

قوله: «**وَوَسِّعْ مُدْخَلَهُ**»، أي: افسح له في قبره ووسِّع منازله في الجنَّة، وهو مفرد مضاف يفيد القبر وما يكون بعد القبر في القيامة والجنَّة؛ فيتناول هذا كلَّه أن يكون مدخله مدخل خير وإنعام في قبره، و يوم لقاء ربِّه.

قوله: «**وَاغْسِلْهُ بِالْمَاءِ وَالثَّلْجِ وَالْبَرَدِ**»، هذه الثَّلاثة: الماء والثَّلج والبرد تُقابل حرارة الذُّنوب، وتُطفئ لهيبها.

قوله: «**وَنَقِّهِ مِنَ الْخَطَايَا كَمَا نَقَّيْتَ الثَّوْبَ الْأَبْيَضَ مِنَ الدَّنَسِ**»، أي: طهِّره من الذُّنوب كما يُطهَّر الثَّوب الأبيض من الدَّنس والوسخ الَّذي يعلق به. وخُصَّ الثَّوب الأبيض بالذِّكر؛ لأنَّ الأبيض يظهر عليه الأثر مباشرة، خلاف الألوان الأخرى.

قوله: «**وَأَبْدِلْهُ دَارًا خَيْرًا مِنْ دَارِهِ**»، أي: أدخله الجنَّة بدلًا عن الدَّار الدُّنيا الَّتي ارتحل عنها.

قوله: «**وَأَهْلًا خَيْرًا مِنْ أَهْلِهِ، وَزَوْجًا خَيْرًا مِنْ زَوْجِهِ**»، أي: وأبدله خيرًا منهم؛ **وهذا يتناول الإبدال في الأشخاص والصِّفات:**

- أمَّا في الأشخاص: بأن يكون له أهلون وأزواج غير الَّذين كانوا له في الدُّنيا.

- وأمَّا الصِّفات بأن تكون العجوز شابَّة، وغير الحسنة جميلة حسنة يوم القيامة.

قوله: «**وَأَدْخِلْهُ الجَنَّة**»، المراد بذلك: الدُّخول الأوَّليُّ؛ لأنَّه طُلب له قبل ذلك التَّنقيةُ التَّامَّة من الذُّنوب والخطايا وطُلب له المغفرة، فالمراد دخول الجنَّة دخولًا أوَّلِيًّا بلا حساب ولا عذاب.

قال عوف بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**حَتَّى تَمَنَّيْتُ أَنْ أَكُونَ ذَلِكَ المَيِّتَ، لِدُعَاءِ رَسُولِ اللهِ** ﷺ»، استشعر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عظمة هذا الدُّعاء ولا سيَّما أنَّ الدَّاعي النَّبيُّ الكريم ﷺ، فتمنَّى أن يكون ذلك الميِّت؛ ليظفر بتلك الدَّعوات المستجابات والأدعية المقبولات.

وفي لفظٍ: «**وَقِهِ فِتْنَةَ القَبْرِ وَعَذَابَ النَّارِ**»، وفتنة القبر غير عذابه، فالفتنة: ما يكون في القبر من امتحان وسؤال كما جاء مفصَّلًا في الحديث: فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ، فَيُجْلِسَانِهِ، ويسألانه ثمَّ بعدها يكون النَّعيم أو العذاب(١).

قوله: «**وَعَذَابَ النَّارِ**» بأن ينجيه من دخولها، فيدخل الجنَّة دون عذاب، قال تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: صَلَّى رَسُولُ الله ﷺ عَلَى جَنَازَةٍ، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِحَيِّنَا وَمَيِّتِنَا، وَصَغِيرِنَا وَكَبِيرِنَا، وَذَكَرِنَا وَأُنْثَانَا، وَشَاهِدِنَا وَغَائِبِنَا، اللَّهُمَّ مَنْ أَحْيَيْتَهُ مِنَّا فَأَحْيِهِ عَلَى الإِسْلَامِ، وَمَنْ تَوَفَّيْتَهُ مِنَّا فَتَوَفَّهُ عَلَى الإِيمَانِ، اللَّهُمَّ لَا تَحْرِمْنَا أَجْرَهُ وَلَا تُضِلَّنَا بَعْدَهُ». رواه أبو داود وابن ماجه(٢).

وهذا دعاءٌ عظيمٌ شمل الميِّت المصلَّى عليه وغيرَه من المسلمين

(١) رواه أحمد (١٨٥٣٤)، وأبو داود (٤٧٥٣)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٢) رواه أبو داود (٣٢٠١)، وابن ماجه (١٤٩٨)، وصحَّحه الألبانيُّ.

الأحياء منهم والأموات، والصِّغار والكبار، والذُّكور والإناث، والشَّاهد منهم والغائب؛ لأنَّ الجميعَ مشتركون في الحاجة بل الضَّرورة إلى مغفرة الله وعفوه ورحمته، ومَن دعا بهذه الدَّعوة فله بكلِّ واحد من المسلمين والمسلمات المتقدِّمين منهم والمتأخِّرين حسنة، لِما ثبت في مسند الشَّاميِّين للطَّبرانيِّ بإسناد حسن عن عبادة بن الصَّامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنِ اسْتَغْفَرَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ كَتَبَ اللهُ لَهُ بِكُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ حَسَنَةً**»(١). وقال الله تعالى لنبيِّه: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمَّد: ١٩]، فالاستغفار مطلوب للنَّفس ولعموم المسلمين.

قوله: «**اللَّهُمَّ مَنْ أَحْيَيْتَهُ مِنَّا فَأَحْيِهِ عَلَى الْإِسْلَامِ وَمَنْ تَوَفَّيْتَهُ فَتَوَفَّهُ عَلَى الْإِيمَانِ**»، فذكر الإسلام في الحياة والإيمان عند الممات، وذلك أنَّ الإسلام إذا قُرن بالإيمان يُراد به الشَّرائع العمليَّة الظَّاهرة، ويُراد بالإيمان الاعتقاداتُ الباطنة؛ ولهذا ناسب في الحياة أن يُذكر الإسلام؛ لأنَّ الإنسان ما دام حيًّا فلديه مجالٌ وفسحة للعمل والتَّعبُّد، وأمَّا عند الممات فلا مجال لذلك، بل لا مجال إلَّا للموت على الاعتقاد الصَّحيح والإيمان السَّليم بتوفيق من الله عَزَّوَجَلَّ، ولهذا قال: «**وَمَنْ تَوَفَّيْتَهُ فَتَوَفَّهُ عَلَى الْإِيمَانِ**».

يوضِّح هذا حديث جبريل المشهور عن عمر بن الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ، إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعَرِ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا

---

(١) رواه الطَّبرانيُّ في مسند الشَّاميِّين (٢١٥٥)، وحسَّنه الألبانيُّ في صحيح الجامع (٦٠٢٦).

إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا»، قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ، وَيُصَدِّقُهُ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ، قَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»، قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ، قَالَ: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ، قَالَ: «مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ» قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَتِهَا، قَالَ: «أَنْ تَلِدَ الْأَمَةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ»، قَالَ: ثُمَّ انْطَلَقَ فَلَبِثْتُ مَلِيًّا، ثُمَّ قَالَ لِي: «يَا عُمَرُ أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟» قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ». رواه مسلم(١).

ففرَّق النَّبيُّ ﷺ في هذا الحديث بين مسمَّى «الإسلام» ومسمَّى «الإيمان»؛ ففسَّر الإسلام بالأعمال الظَّاهرة، والإيمان بالأصول والاعتقادات الباطنة.

وقوله: «**اللَّهُمَّ لَا تَحْرِمْنَا أَجْرَهُ**»، أي: الأجر الَّذي نحصِّله من تجهيزه والصَّلاة عليه وتشييعه ودفنه، وكذلك الأجر الَّذي نحصِّله من صبرنا على مصيبتنا فيه، وأمَّا أجر عمله فهو له، وليس لنا منه شيء.

وقوله: «**وَلَا تُضِلَّنَا بَعْدَهُ**»، أي: أعذنا من الضَّلال وجنِّبنا الفتنة والزَّلل بعد فقدنا له، وفي بعض الرِّوايات: «**وَلَا تَفْتِنَّا بَعْدَهُ**».

ومن الدَّعوات الَّتي تُقال في الصَّلاة على الجنازة: ما رواه الطَّبرانيُّ في المعجم الكبير والحاكم عن يزيد بن رُكانة بن المطَّلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كانَ رسولُ الله ﷺ إذا قَامَ إلى جَنازَةٍ ليُصَلِّيَ عليها، قال: «**اللَّهُمَّ عَبْدُكَ وَابْنُ أَمَتِكَ احْتَاجَ إِلَى رَحْمَتِكَ، وَأَنْتَ غَنِيٌّ عَنْ عَذَابِهِ، إِنْ كَانَ مُحْسِنًا فَزِدْ فِي حَسَنَاتِهِ،**

(١) رواه مسلم (٨).

وَإِنْ كَانَ مُسِيئًا فَتَجَاوَزْ عَنْهُ»[(١)]، وهو حديث ثابت.

وروى مالك في الموطَّأ عن سعيد المقبريِّ أنَّه سأل أبا هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: كيف تُصَلِّي على الجنازة؟ فقال أبو هريرة: «**أَنَا لَعَمْرُ اللهِ أُخْبِرُكَ: أَتَّبِعُهَا مِن أَهْلِهَا، فإذا وُضِعَتْ كَبَّرْتُ وحَمِدْتُ اللهَ وَصَلَّيْتُ عَلَى نَبِيِّهِ، ثُمَّ أَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنَّهُ عَبْدُكَ وَابْنُ عَبْدِكَ وَابْنُ أَمَتِكَ، كَانَ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ، وَأَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ، اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ مُحْسِنًا فَزِدْ فِي إِحْسَانِهِ، وَإِنْ كَانَ مُسِيئًا فَتَجَاوَزْ عَنْ سَيِّئَاتِهِ، اللَّهُمَّ لَا تَحْرِمْنَا أَجْرَهُ، وَلَا تَفْتِنَّا بَعْدَهُ**»[(٢)].

---

(١) رواه الطَّبرانيُّ في الكبير (٦٤٧)، والحاكم في مستدركه (١٣٢٨)، وصحَّحه الألبانيُّ في أحكام الجنائز (ص:١٢٥).

(٢) رواه مالك في الموطَّأ (١٠١٦)، وصحَّحه الألبانيُّ في التَّعليقات الحسان (٣٠٦٢).

٨٥

ما يُدعى به للميِّت إذا فرغ من دفنه

عَنْ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا فَرَغَ مِنْ دَفْنِ الْمَيِّتِ وَقَفَ عَلَيْهِ، فَقَالَ: «اسْتَغْفِرُوا لِأَخِيكُمْ وَسَلُوا لَهُ التَّثْبِيتَ؛ فَإِنَّهُ الْآنَ يُسْأَلُ». رواه أبو داود(١).

هذا الحديث فيه بيان أنَّ من السُّنَّة بعد الفراغ من الدَّفن أن يُدعى للميِّت بالمغفرة والثَّبات عند السُّؤال؛ لأنَّه إذا دُفن أتاه ملكان وأجلساه وسألاه: مَن ربُّك؟ ما دينك؟ مَن نبيُّك؟ فمن الرَّحمة به والإحسان إليه أن يُدعى له بالثَّبات -أي: عند سؤال الملكين- ويُدعى له بالمغفرة.

ولا يُشرع قراءةُ شيءٍ من القرآن في هذا الموضع، ولا أن يُلقَّن الميِّتُ حجَّته كما يفعله بعضُ النَّاس؛ إذ لم يثبت بذلك حديث، وإنَّما المشروع في هذا المقام كما تقدَّم الاستغفارُ له وسؤال الله تثبيتَه.

❑ **ما يُقال عند دُخُولِ المَقَابِرِ:**

✍ **المقابر:** هي الأماكن الَّتي يُقبر فيها الموتى ويُدفن فيها الأموات. **وقد جاءت الشَّريعة بمشروعيَّة زيارة المقابر لغرضين:**

الأوَّل: لتذكُّر الآخرة، ليتذكَّر مَن يزور القبور أنَّ حاله ومآله سيؤول إلى ما آل إليه هؤلاء، وإذا تذكَّر ذلك؛ استعدَّ له بالعمل الصَّالح والبعد عن معصية الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ.

(١) رواه أبو داود (٣٢٢١)، وصحَّحه الألبانِيُّ.

والغرض الثَّاني: السَّلام على الموتى والدُّعاء لهم بالمغفرة والرَّحمة والعافية.

فلأجل ذلك تُزار القبور، وقد كانت زيارة القبور في أوَّل الإسلام ممنوعة، والسَّبب في ذلك: أنَّ النَّاس كانوا حدثاء عهد بالإسلام لم تترسَّخ عُراه في قلوبهم، وتثبت قواعده، ويتمكَّن في النَّاس، وتنتشر معالمه، فمنع الرَّسول ﷺ من زيارة القبور؛ صيانةً للنَّاس وحفظًا لأديانهم وعقائدهم من الخلل، فلمَّا ترسَّخت عرى الدِّين وثبتت قواعده أذِن لهم وبيَّن سبب الأذن والغرض منه.

عن بُريدة بن الحصيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنِّي كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ فَزُورُوهَا**». رواه مسلم وأحمد والنَّسائيُّ[(١)] وغيرهم، وزاد أحمد: «**فَإِنَّهَا تُذَكِّرُكُمُ الْآخِرَةَ**»، وزاد النَّسائيُّ: «**فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَزُورَ فَلْيَزُرْ، وَلَا تَقُولُوا هُجْرًا**».

قوله: «**إِنِّي كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ**»، هذا يدلُّ على أنَّ الأمر كان في الأوَّل ممنوعًا منهيًّا عنه وأنَّ الإذن بذلك لتذكُّر الآخرة، لأنَّك إذا زرت القبور وتأمَّلت في أحوال أهلها؛ تعتبر وتتَّعظ وتوقن أنَّك عن قريب ستكون في واحدة من هذه الحفر، فهؤلاء الَّذين في القبور كانوا مثلك يمشون وعندهم بيوت وأموال وأعمال وتجارات، وبعضهم دخل القبر وهو شابٌّ في ريعان شبابه، فهي موعظة موقظة، فكم في تذكُّر المآل من أثرٍ في زمِّ النَّفس وأطرها على الحقِّ، وكم في الغفلة عنه من أثرٍ في انفلاتها، وانسياقها وراء الملذَّات الفانية. والقبور فيها موعظة عظيمة للإنسان وإيقاظٌ للقلب، وتذكير له، ولذا أُذن في زيارة القبور لتُذكِّر المرء بالآخرة.

(١) رواه مسلم (٩٧٧)، وأحمد (١٢٣٦)، والنَّسائيُّ (٢٠٣٣).

﴿ ثمَّ إنَّ النَّبيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قد بيَّن الدُّعاء الَّذي يُستحبُّ للمسلم أن يقوله إذا زار القبور:

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ جِبْرِيلَ أَتَانِي، فَقَالَ: إِنَّ رَبَّكَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَأْتِيَ أَهْلَ الْبَقِيعِ فَتَسْتَغْفِرَ لهُمْ»، قَالَتْ: قُلْتُ: كَيْفَ أَقُولُ لَهُمْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «قُولِي: «السَّلَامُ عَلَى أَهْلِ الدِّيَارِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ، وَيَرْحَمُ اللهُ الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنَّا وَالْمُسْتَأْخِرِينَ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ بِكُمْ لَلَاحِقُونَ». رواه مسلم[(١)].

وَعَنْ بُرَيْدَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُعَلِّمُهُمْ إِذَا خَرَجُوا إِلَى الْمَقَابِرِ، فَكَانَ قَائِلُهُمْ يَقُولُ: «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الدِّيَارِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ لَلَاحِقُونَ، أَسْأَلُ اللهَ لَنَا وَلَكُمُ الْعَافِيَةَ». رواه مسلم[(٢)].

قوله: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُعَلِّمُهُمْ إِذَا خَرَجُوا إِلَى المَقَابِرِ»، أي: إلى زيارتها.

قوله: «أَنْ يَقُولُوا: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الدِّيَارِ»، أي: يا أهل الدِّيار.

قوله: «مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ»، وهذا فيه أنَّ بين المؤمن والمسلم فرق؛ فالمؤمن: هو الَّذي أتمَّ الإيمان الواجب، والمسلم: هو الَّذي جاء بالعمل الظَّاهر ومعه من الإيمان القلبيِّ ما يُصحِّح إسلامه. فدرجة المؤمن أعلى من درجة المسلم، فكلُّ مؤمنٍ مسلم، وليس كلُّ مسلم مؤمنًا، قال الله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤]، أي: إذا دخل الإيمان وتمكَّن في القلب وقوي في

(١) رواه مسلم (٩٧٤).
(٢) رواه مسلم (٩٧٥).

القلب عندئذ يكون مؤمنًا. فهذا فيه أنَّ هؤلاء الموتى ليسوا في الدِّين على درجةٍ واحدة، بل متفاوتون، منهم مَن هو في درجة الإيمان ومنهم مَن هو في درجة الإسلام، فيسلِّم على الجميع. وهذا فيها إيقاظ للعبد أن يجتهد في حياته لأن يرتقي بإيمانه تقويةً له قبل أن يدرج في واحدة من هذه الحفر.

قوله: «**وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ بِكُمْ لَاحِقُونَ**»، ذكر المشيئة هنا للتَّحقيق لا للتَّعليق، مثل: قوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الفتح: ٢٧].

قوله: «**نَسْأَلُ اللهَ لَنَا وَلَكُمُ الْعَافِيَةَ**»، هذه دعوة للميِّت وللزَّائر بالعافية. والعافية: هي السَّلامة.

- **وهي في حقِّ الميّت:** العافية من العذاب والعقاب الَّذي يكون في القبر وبعده.

- **وفي حقِّ الحيِّ:** العافية من الذُّنوب والمعاصي وموجبات سخط الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

فهذا فيه دعاءٌ للميِّت وتذكيرٌ للحيِّ بأنَّه سيؤول إلى ما آل اليه هذا الميِّت؛ فيسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ له وللموتى العافية. ولم يثبت عن النَّبِيِّ ﷺ مشروعيَّة قراءة الفاتحة عند زيارة القبور.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه زاد المعاد في كلامه عن هدي النَّبِيِّ ﷺ في زيارة القبور: «كان إذا زار قبور أصحابه يزورها للدُّعاء لهم والتَّرحُّم عليهم والاستغفار لهم، وهذه هي الزِّيارة الَّتي سنَّها لأُمَّته، وشرعها لهم، وأمرهم أن يقولوا إذا زاروها: «السَّلامُ عليكم أهلَ الدِّيارِ من المُؤمنين والمُسْلمين، وإنَّا إنْ شَاء اللهُ بكُم لَاحِقُون، نَسْأَلُ اللهَ لنا ولكم العافية»، وكان هديُه أن يقول ويفعل عند زيارتها من جنس ما يقوله عند الصَّلاة على الميِّت من الدُّعاء والتَّرحُّم

والاستغفار، فأبَى المشركون إلَّا دعاءَ الميِّت والإشراك به، والإقسامَ على الله به وسؤاله الحوائج والاستعانة به والتَّوجُّهَ إليه، بعكس هديه ﷺ فإنَّ هديه توحيدٌ وإحسان إلى الميِّت، وهديُ هؤلاء شركٌ وإساءةٌ إلى نفوسهم وإلى الميِّت، وهم ثلاثة أقسام: إمَّا أن يدعوا الميِّت، أو يدعوا به، أو عنده، ويرون الدُّعاءَ عنده أوجبَ وأولى من الدُّعاء في المساجد، ومَن تأمَّل هديَ رسول الله ﷺ وأصحابه، تبيَّن له الفرقُ بين الأمرين، وبالله التَّوفيق». اهـ كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١].

ﮩ وبما تقدَّم يتَّضح أنَّ أحوالَ النَّاس في زيارة القبور لا تخرج عن أربع حالات:

الأولى: أن يزور القبور ليدعو للموتى، فيسأل الله لهم المغفرة والرَّحمة، وليعتبر بحال الموتى وما آلوا إليه، فيحدِث له ذلك عبرةً وذكرى؛ وهذه هي الزِّيارة الشَّرعيَّة.

الثَّانية: أن يزورها ليدعو لنفسه ولِمَن أحبَّ عندها معتقدًا أنَّ الدُّعاء في المقابر أو عند قبور الصَّالحين أفضلُ وأحرى بالقبول والإجابة، وهذا عمل لا أصل له في الشَّرع.

الثَّالثة: أن يزورها ليدعو الله متوسِّلًا بجاه الموتى أو حقِّهم، فيقول: «أسألك يا ربِّي بجاه فلان أو بحقِّ فلان»، فهذا بدعة محرَّمة ووسيلة إلى الشِّرك.

الرَّابعة: أن يزورها ليدعو المقبورين ويستغيث بهم ويطلب منهم المَدَدَ والعونَ والشِّفاءَ وغيرَ ذلك، فهذا شركٌ أكبر ناقلٌ عن ملَّة الإسلام.

قال الشَّيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن هذه الأحاديث يُعلم أنَّ الزِّيارة الشَّرعيَّة

---

(١) انظر: زاد المعاد (١/ ٥٠٧).

للقبور يُقصد منها تذكُّر الآخرة والإحسان إلى الموتى والدُّعاء لهم والتَّرحُّم عليهم، فأمَّا زيارتهم لقصد الدُّعاء عند قبورهم أو العكوف عندها أو سؤالهم قضاء الحاجات أو شفاء المرضى أو سؤال الله بهم أو بجاههم ونحو ذلك؛ فهذه زيارة بدعيَّة منكرة لم يشرعها الله ولا رسوله ﷺ ولا فعلها السَّلف الصَّالح رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، بل هي من الهجر الَّذي نهى عنه الرَّسول ﷺ، حيث قال: «**زُورُوا القُبُور وَلَا تَقُولُوا هُجْرًا**»[(١)]، وهذه الأمور المذكورة تجتمع في كونها بدعة ولكنَّها مختلفة المراتب فبعضها بدعة وليس بشرك، كدعاء الله سبحانه عند القبور وسؤاله بحقِّ الميِّت وجاهه ونحو ذلك، وبعضها من الشِّرك الأكبر، كدعاء الموتى والاستعانة بهم ونحو ذلك، فتنبَّه واحذر واسأل ربَّك التَّوفيق والهداية للحقِّ فهو سبحانه الموفِّق والهادي لا إله غيره ولا ربَّ سواه». اهـ كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)].

الحاصل أنَّ زيارة قبور الأموات سنَّة؛ لحثِّ النَّبيِّ ﷺ عليها ولإكثاره من زيارتها، وذلك للعظة والعبرة، وتذكُّر الموت والدُّعاء للأموات المسلمين بالمغفرة والرَّحمة، مثل: السَّلام عليكم أهلَ الدِّيارِ من المُؤْمنين والمُسْلمين، وإنَّا إن شاء الله بكم لاحقون، نسأل الله لنا ولكم العافية، ونحو ذلك من الأدعية الثَّابتة عن النَّبيِّ ﷺ في زيارة القبور.

---

(١) رواه بنحوه النَّسائيُّ (٢٠٣٣).

(٢) انظر: مجموع فتاوى ابن باز (١٦/ ١١٦).

٨٦
ما يُقال في الاستسقاء (١)

لقد شرع الله عَزَّوَجَلَّ لعباده إذا أجدبت فيهم الدِّيار وحصل القحط وقلَّت الأمطار؛ أن يفزعوا إلى الصَّلاة والدُّعاء والاستغفار، ومَن دعا الله وصدق في سؤاله أجاب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى سؤله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ [غافر: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وفي سير الأنبياء عليهم السَّلام أنَّهم حثُّوا أممهم على الاستغفار وذكروا لهم من فوائده: نزول الأمطار وحصول الخيرات، كما قال نوح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ لقومه: ﴿فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ١٠ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا﴾ [نوح: ١٠-١١]، وقال هود عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا﴾ [هود: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]، فالاستغفار والتَّوبة والدُّعاء سبب لنزول المطر، ولهذا شُرع للعباد أن يجتمعوا للصَّلاة والدُّعاء والاستغفار عند قحط الدِّيار وجدبها وقلَّة الأمطار.

وقد ثبت في السُّنَّة دعوات عظيمات يُشرع أن تُقال عند قحط الدِّيار وطلب الغيث.

عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَجُلًا دَخَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ مِنْ بَابٍ كَانَ وُجَاهَ الْمِنْبَرِ، وَرَسُولُ الله ﷺ قَائِمٌ يَخْطُبُ، فَاسْتَقْبَلَ رَسُولَ الله ﷺ قَائِمًا فَقَالَ: يَا

رَسُولَ الله! هَلَكَتِ الْمَوَاشِي، وَانْقَطَعَتِ السُّبُلُ، فَادْعُ اللهَ يُغِيثُنَا، قَالَ: فَرَفَعَ رَسُولُ الله ﷺ يَدَيْهِ، فَقَالَ: «**اللَّهُمَّ اسْقِنَا، اللَّهُمَّ اسْقِنَا، اللَّهُمَّ اسْقِنَا**». قَالَ أَنَسٌ: وَلَا وَاللهِ مَا نَرَى فِي السَّمَاءِ مِنْ سَحَابٍ وَلَا قَزَعَةً وَلَا شَيْئًا، وَمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ سَلْعٍ مِنْ بَيْتٍ وَلَا دَارٍ، قَالَ: فَطَلَعَتْ مِنْ وَرَائِهِ سَحَابَةٌ، مِثْلُ: التُّرْسِ، فَلَمَّا تَوَسَّطَتِ السَّمَاءَ انْتَشَرَتْ ثُمَّ أَمْطَرَتْ، قَالَ: وَاللهِ مَا رَأَيْنَا الشَّمْسَ سِتًّا، ثُمَّ دَخَلَ رَجُلٌ مِنْ ذَلِكَ الْبَابِ فِي الْجُمُعَةِ الْمُقْبِلَةِ، وَرَسُولُ الله ﷺ قَائِمٌ يَخْطُبُ، فَاسْتَقْبَلَهُ قَائِمًا، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله! هَلَكَتِ الأَمْوَالُ، وَانْقَطَعَتِ السُّبُلُ فَادْعُ اللهَ يُمْسِكْهَا، قَالَ: فَرَفَعَ رَسُولُ الله ﷺ يَدَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «**اللَّهُمَّ حَوَالَيْنَا وَلَا عَلَيْنَا، اللَّهُمَّ عَلَى الْآكَامِ وَالْجِبَالِ وَالْآجَامِ وَالظِّرَابِ وَالْأَوْدِيَةِ وَمَنَابِتِ الشَّجَرِ**»، قَالَ: فَانْقَطَعَتْ وَخَرَجْنَا نَمْشِي فِي الشَّمْسِ. رواه البخاريُّ ومسلم(١).

قوله: «**فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! هَلَكَتِ الْمَوَاشِي**»، أي: بسبب تأخُّر الأمطار.

قوله: «**وَانْقَطَعَتِ السُّبُلُ**»، أي: أنَّ الإبل ضعفت لقلَّة القوت عن السَّفر، أو لكونها لا تجد في طريقها من الكلأ ما يقيم أودها، وقيل: المراد نفاد ما عند النَّاس من الطَّعام أو قلَّته فلا يجدون ما يحملونه ويجلبونه إلى الأسواق.

قوله: «**فَادْعُ اللهَ أَنْ يُغِيثَنَا**»، أي: أن ينزل علينا الغيث يُكشف به ما بنا من جهد وشدَّة وكرب وضائقة.

قوله: «**فَرَفَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ أَغِثْنَا اللَّهُمَّ أَغِثْنَا**»، أي: أنَّه شرع عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في التَّضرُّع إلى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى والإلحاح إليه بأن ينزل الغيث.

قال أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**وَلَا وَاللهِ مَا نَرَى فِي السَّمَاءِ مِنْ سَحَابٍ وَلَا قَزَعَةً وَلَا شَيْئًا**»، أي: أنَّ الحال وقت مجيء ذلك الرَّجل أنَّ السَّماء صحوٌ ما فيها

---

(١) رواه البخاريُّ (١٠١٣)، ومسلم (٨٩٧).

سحاب، ولا فيها قزعة، أي: وليس فيها حتَّى القطع الصَّغيرة من السَّحاب.

قوله: «**وَمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ سَلْعٍ مِنْ بَيْتٍ وَلَا دَارٍ**»، سلْع: جبل معروف في الجهة الغربيَّة الشِّماليَّة من المدينة، أي: ليس بيننا وبينه بنيان؛ فنراه رؤيا واضحة دون أن يكون هناك ما يحجبنا عن رؤياه.

قال: «**فَطَلَعَتْ مِنْ وَرَائِهِ سَحَابَةٌ مِثْلُ التُّرْسِ**»، أي: جاءت من وراء الجبل سحابة على إثر هذا الدُّعاء العظيم، وقوله: «مِثْلُ التُّرْسِ»، أي: فِي الاسْتِدَارة وَالكَثافَة.

قال: «**فَلَمَّا تَوَسَّطَتِ السَّمَاءَ**»، أي: صارت في وسط السَّماء، «**انْتَشَرَتْ ثُمَّ أَمْطَرَتْ**»، المراد: أنَّ السَّحابة طلعت صغيرة ثمَّ انتشرت.

قال: «**فَلَا وَاللهِ مَا رَأَيْنَا الشَّمْسَ سَبْتًا**»، أي: أسبوعًا كاملًا.

قوله: «**ثُمَّ دَخَلَ رَجُلٌ مِنْ ذَلِكَ الْبَابِ فِي الْجُمُعَةِ الْمُقْبِلَةِ، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ قَائِمٌ يَخْطُبُ، فَاسْتَقْبَلَهُ قَائِمًا، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! هَلَكَتِ الأَمْوَالُ، وَانْقَطَعَتِ السُّبُلُ؛ فَادْعُ اللهَ يُمْسِكْهَا**»، في الجمعة الأولى جاء يستسقي، وفي هذه جاء يستصحي لكثرة الماء وتزايد المطر حتَّى هلكت بسبب ذلك الأموال وانقطعت السُّبل، يطلب إمساك هذه السَّحابة عنهم.

قوله: «**فَرَفَعَ النَّبِيُّ ﷺ يَدَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ حَوَالَيْنَا وَلَا عَلَيْنَا**»، أي: اجعل هذا المطر حوالينا وليس علينا.

قوله: «**اللَّهُمَّ عَلَى الْآكَامِ وَالْجِبَالِ وَالْآجَامِ وَالظِّرَابِ وَالْأَوْدِيَةِ وَمَنَابِتِ الشَّجَرِ**»، الآكام: التِّلال، والآجام: الأشجار والحوائط، والظِّراب: الجبَال الصِّغار.

قوله: «**فَانْقَطَعَتْ وَخَرَجْنَا نَمْشِي فِي الشَّمْسِ**»، أي: توقَّف المطر وخرجنا نمشي والسَّماء صحو.

وهذا الاستصحاء لا يُقال عند نزول المطر ابتداءً، وإنَّما يُقال إذا تتابع نزوله وكثر، وخاف النَّاس من هذه المضارِّ، فيُدعى حينئذ أن يصرفه الله عن هذا المكان الَّذي كثر عليه الماء وخشيت المضرَّة فيه، وأن يجعله في الجبال وبطون الأودية ومنابت الشَّجر حيث الانتفاع به مع عدم المضرَّة.

وفي هذا الحديث: عظم بركة الدُّعاء، وأنَّ الدُّعاء مستجاب إذا صدق العبد مع الله وألحَّ عليه سبحانه، فلا يأتي بالحسنات إلَّا الله، ولا يصرف السَّيِّئات إلَّا هو.

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: شَكَى النَّاسُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ قُحُوطَ الْمَطَرِ، فَأَمَرَ بِمِنْبَرٍ فَوُضِعَ لَهُ فِي الْمُصَلَّى، وَوَعَدَ النَّاسَ يَوْمًا يَخْرُجُونَ فِيهِ، قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: فَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ بَدَا حَاجِبُ الشَّمْسِ، فَقَعَدَ عَلَى الْمِنْبَرِ فَكَبَّرَ ﷺ وَحَمِدَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ، ثُمَّ قَالَ: «**إِنَّكُمْ شَكَوْتُمْ جَدْبَ دِيَارِكُمْ وَاسْتِئْخَارَ الْمَطَرِ عَنْ إِبَّانِ زَمَانِهِ عَنْكُمْ، وَقَدْ أَمَرَكُمُ اللهُ** عَزَّ وَجَلَّ **أَنْ تَدْعُوهُ، وَوَعَدَكُمْ أَنْ يَسْتَجِيبَ لَكُمْ**»، ثُمَّ قَالَ: «**الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ، اللَّهُمَّ أَنْتَ اللهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ الْغَنِيُّ وَنَحْنُ الْفُقَرَاءُ، أَنْزِلْ عَلَيْنَا الْغَيْثَ، وَاجْعَلْ مَا أَنْزَلْتَ لَنَا قُوَّةً وَبَلَاغًا إِلَى حِينٍ**»، **ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ فَلَمْ يَزَلْ فِي الرَّفْعِ حَتَّى بَدَا بَيَاضُ إِبْطَيْهِ، ثُمَّ حَوَّلَ عَلَى النَّاسِ ظَهْرَهُ وَقَلَبَ -أَوْ حَوَّلَ- رِدَاءَهُ وَهُوَ رَافِعٌ يَدَيْهِ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ وَنَزَلَ، فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ، فَأَنْشَأَ اللهُ سَحَابَةً فَرَعَدَتْ وَبَرَقَتْ ثُمَّ أَمْطَرَتْ بِإِذْنِ اللهِ، فَلَمْ يَأْتِ مَسْجِدَهُ حَتَّى سَالَتِ السُّيُولُ، فَلَمَّا رَأَى سُرْعَتَهُمْ إِلَى الْكِنِّ ضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ، فَقَالَ:**

«**أَشْهَدُ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَأَنِّي عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ**». رواه أبو داود[(١)].

قولها: «**شَكَى النَّاسُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ قُحُوطَ المَطَرِ**»، أي: وما يصيب الأرض من جدب، والماشية من هلاك؛ بسبب تأخُّر المطر عن وقت نزوله.

قوله: «**فَأَمَرَ بِمِنْبَرٍ فَوُضِعَ لَهُ فِي المُصَلَّى، وَوَعَدَ النَّاسَ يَوْمًا يَخْرُجُونَ فِيهِ**»، يُستفاد من هذا: أنَّه عندما تُصاب الأرض بالقحط بسبب تأخُّر الأمطار، وتتضرُّر الماشية والزُّروع؛ أن يُنقَل هذا الأمر لوليِّ الأمر فيواعد النَّاس وقتًا ويُعيِّن لهم يومًا يجتمعون فيه للصَّلاة والدُّعاء.

قولها: «**فَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ بَدَا حَاجِبُ الشَّمْسِ**»، أي: حينما بان طرف الشَّمس.

قولها: «**فَقَعَدَ عَلَى الْمِنبَرِ فَكَبَّرَ ﷺ وَحَمِدَ اللهَ عَزَّوَجَلَّ، ثُمَّ قَالَ: «إِنَّكُمْ شَكَوْتُمْ جَدْبَ دِيَارِكُمْ وَاسْتِئْخَارَ الْمَطَرِ عَنْ إِبَّانِ زَمَانِهِ عَنْكُمْ، وَقَدْ أَمَرَكُمُ اللهُ ﷻ أَنْ تَدْعُوهُ، وَوَعَدَكُمْ أَنْ يَسْتَجِيبَ لَكُمْ**»، ثُمَّ قَالَ: «**الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ، الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ، اللَّهُمَّ أَنْتَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ الْغَنِيُّ وَنَحْنُ الْفُقَرَاءُ، أَنْزِلْ عَلَيْنَا الْغَيْثَ، وَاجْعَلْ مَا أَنْزَلْتَ لَنَا قُوَّةً وَبَلَاغًا إِلَى حِينٍ**»، أي: أنَّه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ شرع في الدُّعاء لكنَّه قدَّم بين يدي دعائه: الثَّناء على الله عَزَّوَجَلَّ وتمجيده سبحانه، وذكَّر النَّاس ووعظهم وبيَّن كمال غنى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى وشدَّة الافتقار إليه، ثمَّ سأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يُنزل الغيث.

قوله: «**ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ فَلَمْ يَزَلْ فِي الرَّفْعِ حَتَّى بَدَا بَيَاضُ إِبْطَيْهِ**»، وهذا إشارة إلى المبالغة في الرَّفع، ففي الدُّعاء المعتاد تكون بطون الأكفِّ إلى السَّماء أو يُقنِّع بهما الوجه، لكن في الاستسقاء يبالغ في رفع اليدين حتَّى يبدو بياضُ الإبطين.

---

(١) رواه أبو داود (١١٧٣)، وحسَّنه الألبانيُّ.

قوله: «**ثُمَّ حَوَّلَ عَلَى النَّاسِ ظَهْرَهُ وَقَلَبَ أَوْ حَوَّلَ رِدَاءَهُ وَهُوَ رَافِعٌ يَدَيْهِ**»، أي: جعل الباطن في الظَّاهر، والظَّاهر في الباطن، وهو مستمرٌّ في رفع اليدين يدعو الله، وقيل الحكمة من تحويل الرِّداء: التَّفاؤل بتحوُّل الحال وتبدُّل الأمر.

قوله: «**ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ وَنَزَلَ فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ**»، أي: بعد الخطبة، وجاء في بعض الأحاديث ما يدلُّ على تقديم الرَّكعتين على الخطبة، فالأمر في ذلك واسع.

قال: «**فَأَنْشَأَ اللهُ سَحَابَةً فَرَعَدَتْ وَبَرَقَتْ، ثُمَّ أَمْطَرَتْ بِإِذْنِ اللهِ، فَلَمْ يَأْتِ مَسْجِدَهُ حَتَّى سَالَتِ السُّيُولُ**»، أي: نزلت الأمطار وعمَّت الخيرات.

قوله: «**فَلَمَّا رَأَى ﷺ سُرْعَتَهُمْ إِلَى الْكِنِّ ضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ، فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَأَنِّي عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ**»؛ الْكِنُّ: مَا يَرُدُّ الحَرَّ والبَرْد مِن الأبنِيَة والمسَاكِن. فأصبحوا يسرعون الخطى، كلٌّ يدخل في بيت، أو تحت خيمة؛ حتَّى لا يصيبهم المطر الغزير، فلمَّا رأى ذلك عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ضحك؛ لأنَّهم قبل قليل يشكون القحط وعدم جود الماء، والآن يهربون من غزارته وكثرته!

٨٦
ما يقال في الاستسقاء (٢)

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: «أَتَتِ النَّبِيَّ ﷺ بَوَاكِي، فَقَالَ: «**اللَّهُمَّ اسْقِنَا غَيْثًا مُغِيثًا، مَرِيئًا مَرِيعًا، نَافِعًا غَيْرَ ضَارٍّ، عَاجِلًا غَيْرَ آجِلٍ**»، قَالَ: فَأَطْبَقَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ» رواه أبو داود[١].

قوله: «**بَوَاكِي**»: جمْع باكِية، أي: فعرضوا إليه الحاجة والشِّدَّة بسبب تأخُّر الأمطار.

وفي بعْض النُّسَخ: «**رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يُوَاكِي**»، وَمَعْنَاهُ: التَّحَامُلُ عَلَى يَدَيْهِ إِذَا رَفَعَهُمَا وَمَدَّهُمَا فِي الدُّعَاءِ.

قوله: «**فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: اللَّهُمَّ اسْقِنَا غَيْثًا مُغِيثًا**»، الغيث: المطر؛ لأنَّه به يغيث الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى الأرض ويغيث النَّاس ويغيث الماشية والدَّوابَّ. وقوله «**مُغِيثًا**» هذه صفة للمطر، وقيل معناه: معِينًا يحصل لنا به العون والفائدة.

وقوله: «**مريئًا**»، أي: هنيئًا صالحًا.

وقوله: «**مَرِيعًا**»، أي: مخصبًا ناجعًا.

وقوله: «**نَافِعًا غَيْرَ ضَارٍّ**»، أي: نافعًا للنَّاس والأرض والدَّوابِّ، غير ضارٍّ لهم بتهديم البيوت والإضرار بالأرواح؛ فإنَّ المطر تارةً يكون نافعًا للعباد وزروعهم ومواشيهم، وتارةً يكون ضارًّا لهم ولزروعهم ومواشيهم.

---

(١) رواه أبو داود (١١٦٩)، وصحَّحه الألبانيُّ.

قوله: «**فَأَطْبَقَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ**»، قيل: أي: ظهر السَّحاب في ذلك الوقت وغطَّاهم السَّحاب كطبق فوق رءوسهم بحيث لا يرون السَّماء من تراكم السَّحاب وعمومه الجوانب، وقيل: أطبقت، أي: بالمطر الدَّائم.

وعلى المسلم إذا دعا الله في الاستسقاء أو غيره أن يُحْسِن ظنَّه بالله وأن يعظمَ رجاؤه فيه، وأن يلحَّ عليه في الدُّعاء، وأنْ لا يقنط من رحمته سبحانه؛ فخزائنه ملأى، وجوده عظيم، ورحمته وسعت كلَّ شيء.

وعَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ، قَالَ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا اسْتَسْقَى قَالَ: «**اللَّهُمَّ اسْقِ عِبَادَكَ وَبَهَائِمَكَ وَانْشُرْ رَحْمَتَكَ وَأَحْيِ بَلَدَكَ الْمَيِّتَ**». رواه أبو داود[(١)].

وعن عبد الله بن زيد المازنِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «**خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى هَذَا الْمُصَلَّى يَسْتَسْقِي، فَدَعَا وَاسْتَسْقَى، ثُمَّ اسْتَقْبَلَ القِبْلَةَ، فَقَلَبَ رِدَاءَهُ**». متَّفق عليه[(٢)].

وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ** سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى **كَانَ إِذَا قَحَطُوا اسْتَسْقَى بِالْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ إِنَّا كُنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّنَا فَتَسْقِينَا، وَإِنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِعَمِّ نَبِيِّنَا فَاسْقِنَا»، قَالَ: فَيُسْقَوْنَ**. رواه البخاريُّ[(٣)].

قوله: «**إِنَّا كُنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّنَا** ﷺ»، أي: بِدُعَائِهِ، أَمَّا التوسُّل بِذَوَاتِ الْمَخْلُوقِينَ وَجَاهِهِمْ فَغَيْرُ جَائِزٍ شَرْعًا.

ومن أنفع ما يكون في الاستسقاء: كثرة الاستغفار، فعن الشَّعبيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «خرج عمر بن الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يستسقي فلم يزد على الاستغفار حتَّى

---

(١) رواه أبو داود (١١٧٦)، وحسَّنه الألبانيُّ.
(٢) رواه البخاريُّ (١٠١١)، ومسلم (٨٩٤).
(٣) رواه البخاريُّ (١٠١٠).

رجع، فقيل له: ما رأيناك استسقيت! قال: «**لَقَدْ طَلَبْتُ المَطَرَ بِمَجَادِيحِ السَّمَاءِ الَّذِي يُسْتَنْزَلُ بِهِ المَطَرُ**»، ثمَّ قرَأَ: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾، ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ [هود: ٥٢]». رواه سعيد بن منصور[(١)].

وعن الحسن البصريِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أنَّ رجلًا شكى إليه الجدب، فقال: «اسْتَغْفِرِ اللهَ»، وشكى إليه آخر الفقر، فقال: «اسْتَغْفِرِ اللهَ»، وشكى إليه آخر جفاف بستانه، فقال: «اسْتَغْفِرِ اللهَ»، وشكى إليه آخر عدم الولد، فقال: «اسْتَغْفِرِ اللهَ»، ثمَّ تلا عليهم قوله تعالى: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾»[(٢)]. وفي الآية حثٌّ على الاستغفار، وإشارةٌ إلى وقوع المغفرة لمَن استغفر، وتوالي الخيرات عليه.

﴿ مَا يُقالُ إذا هَاجَتِ الرِّيحُ واشتدَّت وزادت العواصف:

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا عَصَفَتِ الرِّيحُ، قَالَ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَيْرَهَا، وَخَيْرَ مَا فِيهَا، وَخَيْرَ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا، وَشَرِّ مَا فِيهَا، وَشَرِّ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ**». رواه مسلم[(٣)].

قوله: «**إِذَا عَصَفَتِ الرِّيحُ**»، أي: اشتدَّ هبوب الرِّيح.

قوله: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَيْرَهَا**»، أي: أسألك أن تكون رحمةً؛ فهي تارةً تكون رحمةً، وتارةً تكون عذابًا.

قوله: «**وَخَيْرَ مَا فِيهَا**»، أي: ما أودع الله سبحانه فيها من خيرات وفوائد

---

(١) ذكره سعيد بن منصور في تفسيره (١٠٩٥).
(٢) ذكره القرطبيُّ في تفسيره (١٨/ ٣٠٢).
(٣) رواه مسلم (٨٩٩).

ومنافع عظيمة، ومن ذلك تلقيح السَّحاب والأشجار، وتنقية الجوِّ، ونقل الأسقام، وغيرها من المنافع العظيمة.

قوله: «**وَخَيْرَ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ**»، فهي تارةً تُرسل بالرَّحمة، وتارةً تُرسل بالعذاب.

وقوله: «**وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا وَشَرِّ مَا فِيهَا وَشَرِّ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ**»، فما يؤمِّن المرء فقد تكون محمَّلة بالعذاب! ففي الصَّحيحين عن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا قالت: كَانَ ﷺ إِذَا رَأَى غَيْمًا أَوْ رِيحًا عُرِفَ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ، فَقَالَتْ: «**يَا رَسُولَ اللهِ، أَرَى النَّاسَ إِذَا رَأَوُا الْغَيْمَ فَرِحُوا رَجَاءَ أَنْ يَكُونَ فِيهِ الْمَطَرُ، وَأَرَاكَ إِذَا رَأَيْتَهُ عَرَفْتُ فِي وَجْهِكَ الْكَرَاهِيَةَ؟!**» قَالَتْ: فَقَالَ: «يَا عَائِشَةُ مَا يُؤَمِّنُنِي أَنْ يَكُونَ فِيهِ عَذَابٌ! قَدْ عُذِّبَ قَوْمٌ بِالرِّيحِ، وَقَدْ رَأَى قَوْمٌ الْعَذَابَ، فَقَالُوا: ﴿هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾»[(١)].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**الرِّيحُ مِنْ رَوْحِ اللهِ، تَأْتِي بِالرَّحْمَةِ وَتَأْتِي بِالْعَذَابِ؛ فَإِذَا رَأَيْتُمُوهَا فَلَا تَسُبُّوهَا، وَسَلُوا اللهَ خَيْرَهَا، وَاسْتَعِيذُوا بِهِ مِنْ شَرِّهَا**». رواه أحمد وأبو داود[(٢)].

فيه النَّهي عن سبِّ الرِّيح؛ لأنَّ من النَّاس -بسبب الجهل وقلَّة العلم- إذا اشتدَّت الرِّيح ونالهم شيء من الأذى أو الضَّرر سبُّوها، والرِّيح مدبَّرةٌ مخلوقةٌ لله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ مأمورة أمَرها الله عَزَّوَجَلَّ، فسبُّها وهي لا تملك سبٌّ لمدبِّرها، فهي لا تملك بل مأمورة، ومثله حديث: «**يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ يَسُبُّ الدَّهْرَ وَأَنَا الدَّهْرُ أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ**»[(٣)]، فبعضهم إذا اشتدَّت الرِّيح تسخَّط منها، وبعضهم

(١) رواه البخاريُّ (٤٨٢٩)، ومسلم (٨٩٩).
(٢) رواه أحمد (٧٦٣١)، وأبو داود (٥٠٩٧)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٣) رواه البخاريُّ (٤٨٢٦)، ومسلم (٢٢٤٦).

ربَّما شتمها، وبعضهم ربَّما أبدى كلامًا سيِّئًا تجاهها؛ وهذا كلُّه من الجهل وعدم الدِّراية بما ينبغي أن يكون عليه المسلم من أدب وقول كريم عندما تشتدُّ الرِّيح.

قوله: «**الرِّيحُ مِنْ رَوْحِ اللهِ**»، الرَّوح هنا المضاف إلى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى هو من باب إضافة المخلوق إلى الخالق، فالرِّيح من روح الله، أي: من الأرواح الَّتي خلقها الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فالإضافة هنا إضافة خلْق وملْك وإيجاد.

وقوله: «**تَأْتِي بِالرَّحْمَةِ وَتَأْتِي بِالعَذَابِ**»، أي: أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يرسلها بالرَّحمة تارةً ويرسلها بالعذاب تارةً، ومن ذلك ما ذكره الله بقوله: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ [الحجر: ٢٢]، أي: فيها النَّفع العظيم للزُّروع والأشجار، حتَّى إنَّها من نفعها أنَّها تنقل لقاح بعض الشَّجر إلى بعض، وغير ذلك من المنافع العظيمة.

وتارةً تأتي بالعذاب، فمن الأمم السَّابقة مَن كان هلاكهم بالرِّيح الشَّديدة الَّتي تهلك النَّاس وتدمِّر البيوت وتجتثُّ الأشجار وتهلك المواشي، قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ [القمر: ١٨-٢١].

قال: «**فَإِذَا رَأَيْتُمُوهَا فَلَا تَسُبُّوهَا**»، أي: بخلاف ما يفعله الجُهَّال والسُّفهاء والضُّلَّال من النَّاس؛ إذا اشتدَّت الرِّيح سبُّوها وشتموها.

قوله: «**وَاسْأَلُوا اللهَ مِنْ خَيْرِهَا، وَاسْتَعِيذُوا بِاللهِ مِنْ شَرِّهَا**»، أي: قولوا: اللَّهمَّ إنَّا نسألك من خيرها ونعوذ بك من شرِّها.

وكان من هديه ﷺ أن يقول إذا اشتدَّت الرِّيح: «اللَّهُمَّ لاقحًا لا عقيمًا»، لِما رواه البخاريُّ في الأدب المفرد عن سلمة بن الأكوع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: **كَانَ**

النَّبيُّ ﷺ إِذَا اشْتَدَّتِ الرِّيحُ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ لَاقِحًا لَا عَقِيمًا»[١].

ومعنى «**لاقحًا**»، أي: ملقِّحة للسَّحاب، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾ [الحجر: ٢٢]، أي: وسخَّرنا الرِّياح رياح الرَّحمة تلقِّح السَّحاب فينشأ عن ذلك الماء بإذن الله، فيسقيه الله عَزَّوَجَلَّ العباد والمواشي والزُّروع، ويبقى في الأرض مدَّخرًا لحاجتهم وضروراتهم، فللَّهِ الحمد والنِّعمة لا شريك له.

---

(١) رواه البخاريُّ في الأدب المفرد (٧١٨)، وصحَّحه الألبانيُّ.

٨٨
ما يُقال في الاستسقاء (٣)

الاستسقاء مقامٌ عظيم من مقامات التَّذلُّل والخضوع لله عَزَّوَجَلَّ، فإنَّ نبيَّنا صلوات الله وسلامه عليه خرج إلى الاستسقاء خاضعًا متخشِّعًا متبذِّلًا متواضعًا داعيًا ملتجئًا إلى الله، وهو موطن عظيم من مواطن حسن التَّوسُّل إلى الله عَزَّوَجَلَّ بكلِّ الوسائل الَّتي يُحبُّها ويرضاها وشرعها لعباده جَلَّوَعَلَا.

✍ **وأعظم ذلك:** التَّوسُّل إليه سبحانه بأسمائه الحسنى وصفاته العليا، وأنَّه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٩٨]، قال الله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

✍ **ومن أعظم الوسائل إلى الله:** التَّوسُّل إليه جَلَّوَعَلَا بافتقارك إليه واحتياجك إليه واعترافك بأنَّك لا غنى لك عنه طرفة عين، كما قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]، ومن الدَّعوات العظيمة: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣]، وكذلك: ﴿رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤]. فالتَّوسُّل إلى الله عَزَّوَجَلَّ بالذُّلِّ والافتقار والخضوع إليه وإظهار الفاقة والحاجة من أعظم الوسائل.

✍ **ومن التَّوسُّل إلى الله عَزَّوَجَلَّ:** التَّوسُّل إليه سبحانه بطاعته ولزوم عبادته وأطْرِ النَّفس على ذلك؛ بأن يكون عبدًا ذليلًا مطيعًا محافظًا على فرائض

الإسلام وواجبات الدِّين، متجنِّبًا الحرام، متقرِّبًا إلى الله عَزَّوَجَلَّ بما يُحبُّ، وما تقرَّب متقرِّبٌ إلى الله بشيءٍ أحبَّ إلى الله ممَّا افترض على عباده، ولا يزال العبد يتقرَّب إلى الله بالنَّوافل حتَّى يُحبَّه الله، قال جَلَّوَعَلَا في الحديث القدسيِّ: «**وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ**»(١).

﴿ **ومن الوسائل العظيمة إلى الله جَلَّوَعَلَا:** التَّوسُّل إلى الله سبحانه بمحبَّة النَّبيِّ الكريم ﷺ القائل: «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**»(٢)، مع الإكثار من الصَّلاة والسَّلام عليه صلوات الله وسلامه عليه؛ فإنَّ في الإكثار من الصَّلاة والسَّلام عليه تفريجًا للهموم وتنفيسًا للكربات، وحلولَ خيراتٍ وبركات.

﴿ **ومن التَّوسُّل إلى الله تَبَارَكَوَتَعَالَى:** الإحسان في عبادة الخالق، والإحسان في معاملة الخلق: ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥]، ببرِّ الوالدين، وصلة الأرحام، والمعاملة الحسنة الكريمة مع عباد الله بالأخلاق الفاضلة والآداب الكاملة، وبالحُنوِّ على الفقراء، والعطف على المساكين، ومساعدة المحتاجين، ومعاونة الأيتام، إلى غير ذلك من وجوه النَّفقات والصَّدقات والإحسان الَّتي تُطفئ غضب الرَّبِّ وتكون سببًا لحلول الخيرات، ونزول البركات.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «بَيْنَا رَجُلٌ بِفَلَاةٍ مِنَ الأَرْضِ فَسَمِعَ صَوْتًا فِي سَحَابَةٍ: «اسْقِ حَدِيقَةَ فُلَانٍ»، فَتَنَحَّى ذَلِكَ السَّحَابُ فَأَفْرَغَ

---

(١) رواه البخاريُّ (٦٥٠٢).

(٢) رواه البخاريُّ (١٥)، ومسلم (٤٤).

مَاءَهُ فِي حَرَّةٍ، فَإِذَا شَرْجَةٌ مِنْ تِلْكَ الشِّرَاجِ قَدِ اسْتَوْعَبَتْ ذَلِكَ الْمَاءَ كُلَّهُ، فَتَتَبَّعَ الْمَاءَ فَإِذَا رَجُلٌ قَائِمٌ فِي حَدِيقَتِهِ يُحَوِّلُ الْمَاءَ بِمِسْحَاتِهِ، فَقَالَ لَهُ: يَا عَبْدَ اللهِ مَا اسْمُكَ؟ قَالَ فُلَانٌ. لِلاِسْمِ الَّذِى سَمِعَ فِي السَّحَابَةِ، فَقَالَ لَهُ يَا عَبْدَ اللهِ لِمَ تَسْأَلُنِي عَنِ اسْمِي؟ فَقَالَ إِنِّي سَمِعْتُ صَوْتًا فِي السَّحَابِ الَّذِي هَذَا مَاؤُهُ، يَقُولُ: اسْقِ حَدِيقَةَ فُلَانٍ، لِاسْمِكَ؛ فَمَا تَصْنَعُ فِيهَا؟ قَالَ: أَمَّا إِذْ قُلْتَ هَذَا فَإِنِّي أَنْظُرُ إِلَى مَا يَخْرُجُ مِنْهَا؛ فَأَتَصَدَّقُ بِثُلُثِهِ، وَآكُلُ أَنَا وَعِيَالِي ثُلُثًا، وَأَرُدُّ فِيهَا ثُلُثَهُ». رواه مسلم(١).

ﮋ **ومن أعظم الوسائل إلى الله جلَّ في علاه:** التَّوسُّل إليه بالتَّوبة النَّصوح والإنابة إلى الله وملازمة الاستغفار، قال هود عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ﴾ [هود: ٥٢]، وقال نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ١٠ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ١١ وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا﴾ [نوح: ١٠-١٢].

ﮋ **ومن أعظم الوسائل إلى الله جَلَّ وَعَلَا:** حُسن الظَّنِّ به، وتمام الثِّقة به، وحُسن التَّوكُّل عليه، وتمام الالتجاء إليه؛ فإنَّه تَبَارَكَ وَتَعَالَى يغيث مَن استغاث به، ويكفي مَن التجأ إليه، ومَن التجأ إليه كفاه وأعانه ووقاه وسدَّده في أمور دينه ودنياه، ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ﴾ [الزُّمر: ٣٦].

ﮋ مَا يُقَالُ عِنْدَ سَمَاعِ الرَّعْدِ:

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ إِذَا سَمِعَ الرَّعْدَ تَرَكَ الْحَدِيثَ، وَقَالَ: «**سُبْحَانَ الَّذِي يُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ**». رواه مالك في

(١) رواه مسلم (٢٩٨٤).

الموطَّأ، والبخاريُّ في الأدب المفرد[١].

۞ **الرَّعد:** هو الصَّوت الشَّديد الَّذي يصاحب السَّحاب، وفي القرآن سورةٌ بهذا الاسم «سورة الرَّعد»، والرَّعد آيةٌ من آيات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الدَّالة على عظمة الخالق وكمال المدبِّر سبحانه.

ويُستحبُّ عند سماع الرَّعد التَّسبيح؛ لأنَّ في هذا موافقةً لعمل الرَّعد نفسه، فالرَّعد كما أخبر الله عنه يسبِّح بحمد الله، فإذا سمع المرء صوت الرَّعد سبَّح، ولهذا جاء في هذا الأثر المتقدِّم عن عبدالله بن الزُّبير: «**أَنَّهُ كَانَ إِذَا سَمِعَ الرَّعْدَ تَرَكَ الْحَدِيثَ**»، أي: إن كان يتحدَّث، **وَقَالَ**: «**سُبْحَانَ الَّذِي يُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ**». ورُوي عن عبد الله بن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّه كان إذا سمع صوت الرَّعد، قال: «**سُبْحَانَ الَّذِي سَبَّحْتَ لَهُ**»[٢].

وفي التَّسبيح في هذا المقام تعظيم للرَّبِّ سبحانه الَّذي الرَّعدُ أثرٌ من آثار كمال قوَّته وقدرته، وفيه تجاوب مع الرَّعد الَّذي يسبِّح بحمد الله، ولكن لا نفقه تسبيحه، ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ﴾ [الإسراء: ٤٤]، فنؤمن بذلك وأنَّ الرَّعد يسبِّح بحمد الله، فإذا سمعنا صوته قلنا كما جاء في هذا الأثر: «**سُبْحَانَ الَّذِي يُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ، وَالمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ**»، أو كما قال ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**سُبْحَانَ الَّذِي سَبَّحْتَ لَهُ**».

۞ مَا يُقَالُ عِنْدَ نُزُولِ الغَيْثِ:

ونزول الغيث نعمة من نعم الله سبحانه ومنَّة من مننه جَلَّ وَعَلَا على عباده،

(١) رواه مالك في الموطَّأ (٢٠٩٤)، والبخاريُّ في الأدب المفرد (٧٢٣)، وصحَّحه الألبانيُّ.

(٢) رواه البخاريُّ في الأدب المفرد (٧٢٢)، وحسَّنه الألبانيُّ.

وإذا أنزل الله الغيث على الأرض وهي هامدة: ﴿ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ [الحج: ٥-٧].

وقد مرَّ معنا الأدعيةُ الَّتي يُشرع للمسلم أن يقولها عند قحوط المطر واستئخاره عن إبَّان نزوله، وما يترتَّب على ذلك من جفافٍ في الزُّروع وهلاك في الماشية، وغير ذلك من الأضرار. وهي دعوات مباركات واستغاثات نافعات بربِّ العالمين وخالق الخلق أجمعين، الَّذي بيده أزمَّة الأمور ومقاليد السَّموات والأرض، الَّذي أمره لشيء إذا أراده أن يقول له كن فيكون. والدُّعاء ينبئ عن قوَّة الافتقار وتحقيق العبوديَّة، ويوجب للعبد خضوعه وخشوعه وشدَّة انكساره لربِّ البريَّة، فكم من دعوةٍ رفع الله بها المكاره وأنواع المضارِّ، ونال بها العبدُ الخيرات العديدة والبركاتِ المتنوِّعة وأنواعَ المسارِّ.

والعبد يدعو الله في كلِّ أحيانه، ويدعو الله في كلِّ شؤونه؛ إذا تأخَّر المطر دعا، وإذا نزل المطر دعا، وإذا سمع الرَّعدَ ذكر الله، ففقره إلى الله ذاتِيٌّ، لا غنى له عن ربِّه وسيِّده ومولاه طرفة عين، والله عَزَّوَجَلَّ غنِيٌّ حميد.

وقد كان من هديه عَلَيهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إذا نزل الغيث أن يقول: «**اللَّهُمَّ صَيِّبًا نَافِعًا**»، فعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنهَا أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَانَ إِذَا رَأَى الْمَطَرَ قَالَ: «**اللَّهُمَّ صَيِّبًا نَافِعًا**». رواه البخاريُّ[(١)].

قوله: «**صيِّبًا**» منصوب بفعل مقدَّر، أي: اجعله. والصَّيِّب: المطر.

وقوله: «**نافعًا**» وصفٌ للصَّيِّب، احترز به عن الصَّيِّب الضَّارِّ؛ وفي هذا دلالة على أنَّ المطر قد يكون نزولُه رحمةً ونعمةً، وهو النَّافع، وقد يكون نزوله عقوبةً ونقمةً، وهو الضَّارُّ. والمسلمُ يسأل الله عند نزول المطر أن يكون

(١) رواه البخاريُّ (١٠٣٢).

نافعًا غير ضارٍّ، وهذا الدُّعاء المذكور يُستحبُّ بعد نزول المطر للازدياد من الخير والبركة، مقيَّدًا بدفع ما يُخشى ويُحْذَرُ من الضَّرر.

ومن الواجب على العبد في هذا المقام الكريم أن يعرف نعمة الله عليه، وأن ينسبَ الفضلَ إليه، فهو سبحانه مولي النِّعم ومُسديها، بيده العطاءُ والمنع، والخفض والرَّفع، لا ربَّ سواه، ولا إله غيره.

ثبت في الصَّحيحين عن زيد بن خالد رَضِوَٱللَّهُعَنْهُ قال: صَلَّى لنا رسولُ الله ﷺ صلاةَ الصُّبح بالحُدَيْبِيَة على إثر سَماء كانت مِنَ اللَّيل -أي: على إثر مطر- فلمَّا انصرفَ أَقْبَلَ على النَّاس، فقال: «**هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟**» قالوا: اللهُ ورسولُه أعلمُ، قال: «**أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: «مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ»؛ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: «مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا»؛ فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنُ بِالكَوْكَبِ**»(١).

فالَّذي يقول عند نزول المطر: «مطرنا بفضل الله ورحمته»، نسَب النِّعمة الى المتفضِّل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ واعتقد أنَّ نزوله بفضل الله ومنِّه. وأمَّا الَّذي يقول عند نزول المطر: «مطرنا بنوء كذا وكذا»، فهذا إمَّا أن يعتقد أنَّ المنزِل للمطر هو النَّجم أو النَّوء، وهذا كفر، أو أنَّه يعتقد أنَّه سببٌ وأنَّ المنزل هو الله، فيضيف النِّعمة إلى ما يراه سببًا؛ وهذا من كفر النِّعمة، وهو من الشِّرك الخفيِّ. والأنواء ليست من الأسباب لنزول الأمطار، وإنَّما سبب نزول المطر حاجة العباد وافتقارهم، وسؤالهم ولجوءهم إلى الله عَزَّوَجَلَّ الَّذي بيده الأمر، فهو ينزله على مَن يشاء، ويصرفه عمَّن يشاء، لا علاقة للنَّوء بذلك، كما قال الله تعالى: ﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُۖ﴾ [النُّور: ٤٣].

(١) رواه البخاريُّ (٨٤٦)، ومسلم (٧١).

٨٩
ما يُقال عند كسوف الشَّمس أو القمر

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قالَ: «**إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللهِ، لَا يَنْخَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ؛ فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَلِكَ فَادْعُوا اللهَ، وَكَبِّرُوا، وَصَلُّوا، وَتَصَدَّقُوا**». رواه البخاريُّ ومسلم(١).

وَعَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: خَسَفَتِ الشَّمْسُ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ فقَامَ فَزِعًا يَخْشَى أَنْ تَكُونَ السَّاعَةُ، حَتَّى أَتَى الْمَسْجِدَ فَقَامَ يُصَلِّي بِأَطْوَلِ قِيَامٍ وَرُكُوعٍ وَسُجُودٍ مَا رَأَيْتُهُ يَفْعَلُهُ فِي صَلَاةٍ قَطُّ، ثُمَّ قَالَ: «**إِنَّ هَذِهِ الآيَاتِ الَّتِي يُرْسِلُ اللهُ لَا تَكُونُ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ، وَلَكِنَّ اللهَ يُرْسِلُهَا يُخَوِّفُ بِهَا عِبَادَهُ؛ فَإِذَا رَأَيْتُمْ مِنْهَا شَيْئًا فَافْزَعُوا إِلَى ذِكْرِهِ وَدُعَائِهِ وَاسْتِغْفَارِهِ**». رواه البخاريُّ ومسلم(٢).

الشَّمسُ والقمرُ هما من جملة النِّعم الَّتي تفضَّل الله بها على عباده، ومَنَّ بها عليهم، وجعلهما سبحانه دائِبَيْن، أي: مُستمِرَّيْن لا يفتران، يسعيان لمصالح الإنسان من حساب الأزمنة، ومصلحة الأبدان والحيوان والزُّروع والثِّمار، وجعلهما سبحانه يجريان بحسبان متقن، وتقدير مقدَّر، لا يتخلَّفان عنه علوًّا ولا نزولًا، ولا ينحرفان عنه يمينًا ولا شمالًا، ولا يتغيَّران تقدُّمًا ولا تأخُّرًا، كما قال سبحانه: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ﴾ [الرَّحمن: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۝٣٨ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ

(١) رواه البخاريُّ (١٠٤٤)، ومسلم (٩٠١).
(٢) رواه البخاريُّ (١٠٥٩)، ومسلم (٩١٢).

عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾ [يس: ٣٨-٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ دَآئِبَيۡنِۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ [إبراهيم: ٣٣].

ثمَّ إنَّ الشَّمسَ والقمرَ آيتان من آيات الله ومخلوقان من مخلوقاته؛ ينجليان بأمره وينكسفان بأمره، فإذا أراد الله تعالى أن يخوِّف عباده من عاقبة معاصيهم وذنوبِهم؛ كسفهما باختفاء ضوئهما كلِّه أو بعضِه؛ إنذارًا للعباد وتذكيرًا لهم لعلَّهم يرجعون ويتوبون ويُنيبون، فيقومون بما أمرهم به ربُّهم، ويتركون ما حرَّمه عليهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا﴾ [الإسراء: ٥٩]. وفي هذا دلالة على كمال قدرة الله سبحانه؛ لأنَّه سبحانه قادرٌ على تحويل الأشياء وتبديل الأمور وتصريف الخلائق كيف يشاء، ومن ذلك تغيير حال الشَّمس والقمر من النُّور والوضاءة، إلى السَّواد والظُّلمة، والله على كلِّ شيء قدير؛ ولذا شُرع عند حصول الكسوف: الفزعُ إلى الصَّلاة، والدُّعاء، والذِّكر، والاستغفار، والصَّدقة.

وقد خسفت الشَّمس في عهد النَّبيِّ ﷺ مرَّة واحدة، وذلك في السَّنة العاشرة من الهجرة، حيث مات ابنُه إبراهيم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقد كان النَّاسُ في الجاهليَّة يظنُّون أنَّ كسوفَ الشَّمس أو القمر إنَّما يكون لموتِ عظيم أو حياته، فبيَّن ﷺ فسادَ هذا الظَّنِّ وخطأه، وقال كما في حديث عائشة المتقدِّم: «**إِنَّ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللهِ، لا يَنْخَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلا لِحَيَاتِهِ**».

وقد فزع ﷺ عند كسوفها إلى المسجد، وأمر مناديًا ينادي الصَّلاة جامعة، فاجتمع النَّاس في المسجد رجالًا ونساءً، فقام فيهم النَّبيُّ ﷺ وصفُّوا خلفه، فكبَّر وقرأ الفاتحة وسورةً طويلةً يجهر بقراءته، ثمَّ ركع ركوعًا طويلًا جدًّا، ثمَّ رفع وقال: «**سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ رَبَّنَا وَلَكَ الحَمْدُ**»، ثمَّ قرأ الفاتحة وسورةً

طويلةً لكنَّها أقصر من الأولى، ثمَّ ركع ركوعًا طويلًا دون الأوَّل، ثمَّ رفع وقال: «**سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ رَبَّنَا وَلَكَ الحَمْدُ**»، وقام قيامًا طويلًا نحو ركوعه، ثمَّ سجد سجودًا طويلًا جدًّا نحوًا من ركوعه، ثمَّ رفع وجلس جلوسًا طويلًا، ثمَّ سجد سجودًا طويلًا، ثمَّ قام إلى الرَّكعة الثَّانية فصنع مثل ما صنع في الأولى، لكنَّها دونها في القراءة والرُّكوع والسُّجود والقيام، ثمَّ تشهَّد وسلَّم، وقد تجلَّت الشَّمس، ثمَّ خطب ﷺ خطبةً عظيمةً بليغةً بيَّن فيها أنَّ الشَّمسَ والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، وحثَّهم عند حصول ذلك إلى الفزع إلى الصَّلاة وذِكر الله ودعائه واستغفاره حتَّى يُفرِّج الله وتنجلي.

ومِمَّا قال في خطبته تلك: «**يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ، وَاللهِ مَا مِنْ أَحَدٍ أَغْيَرُ مِنَ اللهِ أَنْ يَزْنِيَ عَبْدُهُ أَوْ تَزْنِيَ أَمَتُهُ، يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ، وَاللهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا**»(١).

ومِمَّا قال في خطبته: «**مَا مِنْ شَيْءٍ لَمْ أَكُنْ أُرِيتُهُ إِلَّا رَأَيْتُهُ فِي مَقَامِي حَتَّى الْجَنَّةَ وَالنَّارَ، فَأُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّكُمْ تُفْتَنُونَ فِي قُبُورِكُمْ مِثْلَ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ، يُقَالُ مَا عِلْمُكَ بِهَذَا الرَّجُلِ؟ فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ أَوِ الْمُوقِنُ، فَيَقُولُ: هُوَ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ جَاءَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى فَأَجَبْنَا وَاتَّبَعْنَا هُوَ مُحَمَّدٌ ثَلَاثًا، فَيُقَالُ: نَمْ صَالِحًا قَدْ عَلِمْنَا إِنْ كُنْتَ لَمُوقِنًا بِهِ، وَأَمَّا الْمُنَافِقُ أَوِ الْمُرْتَابُ، فَيَقُولُ: لَا أَدْرِي سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُهُ**»(٢).

وقال له الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: «يَا رَسُولَ اللهِ رَأَيْنَاكَ تَنَاوَلْتَ شَيْئًا فِي مَقَامِكَ هَذَا ثُمَّ رَأَيْنَاكَ تَكَعْكَعْتَ»، أي: رَجعْتَ إلى الوراء، فقَالَ: «**إِنِّي رَأَيْتُ الْجَنَّةَ فَتَنَاوَلْتُ مِنْهَا عُنْقُودًا وَلَوْ أَخَذْتُهُ لَأَكَلْتُمْ مِنْهُ مَا بَقِيَتِ الدُّنْيَا، وَرَأَيْتُ النَّارَ فَلَمْ**

(١) رواه البخاريُّ (١٠٤٤)، ومسلم (٩٠١).
(٢) المصدر نفسه.

أَرَ كَالْيَوْمِ مَنْظَرًا قَطُّ، وَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا النِّسَاءَ»، قَالُوا: لِمَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**بِكُفْرِهِنَّ**»، قِيلَ: يَكْفُرْنَ بِاللهِ؟ قَالَ: «**يَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ وَيَكْفُرْنَ الإِحْسَانَ؛ لَوْ أَحْسَنْتَ إِلَى إِحْدَاهُنَّ الدَّهْرَ ثُمَّ رَأَتْ مِنْكَ شَيْئًا، قَالَتْ: مَا رَأَيْتُ مِنْكَ خَيْرًا قَطُّ**». متَّفق عليه(١).

إنَّ فزعَ النَّبِيِّ ﷺ للكسوف، وصلاتَه هذه الصَّلاة، وعرضَ الجنَّة والنَّار عليه أثناء هذه الصَّلاة، ورؤيتَه لكلِّ ما نحن لَاقُوه من أمر الدُّنيا والآخرة، ورؤيتَه الأمَّةَ تُفتن في قبورها، وخطبتَه هذه الخطبة البليغة المؤثِّرة، وأمرَه أمَّته عند الكسوف أن يفزعوا إلى الصَّلاة والذِّكر والدُّعاء والاستغفار والتَّكبير والصَّدقة؛ ليدُلُّ على عِظَم شأن الكسوف، وأهمِّيَّة الفزع فيه إلى الصَّلاة والدُّعاء والاستغفار.

والحالُ أنَّ كثيرًا من النَّاس في هذا الزَّمان تهاونوا بأمره! وما ذاك إلَّا لضعف الإيمان، والجهل بالسُّنَّة، والاعتماد على مَن يحيل أمر الكسوف إلى الأسباب الطبيعيَّة، مع الغفلة عن أسبابه الشَّرعيَّة، والحكمة البالغة الَّتي من أجلها يُحدِث الله الكسوف.

قوله: «**فَإِذَا رَأَيْتُم ذَلِكَ فَادْعُوا اللهَ وَكَبِّرُوا، وَصَلُّوا، وَتَصَدَّقُوا**»، هذه أربعة أشياء أرشد اليها عند الكسوف: أن نُكثر من الدُّعاء، وأن نُكثر من التَّكبير (الله أكبر الله اكبر)، وأن نصلِّي الصَّلاة المعروفة بركعتين في كلِّ ركعة ركوعين، وأن نتصدَّق. وفي الحديث الثَّاني زيادة الاستغفار والذِّكر؛ فهذه ستَّة أعمال تُشرع عند الكسوف: الدُّعاء، والتَّكبير، والصَّلاة، والصَّدقة، والذِّكر عمومًا، والاستغفار.

قوله: «**وَاللهِ مَا مِنْ أَحَدٍ أَغْيَرُ مِنَ اللهِ أَنْ يَزْنِيَ عَبْدُهُ أَوْ تَزْنِيَ أَمَتُهُ، يَا أُمَّةَ**

---

(١) رواه البخاريُّ (٥١٩٧)، ومسلم (٩٠٧).

مُحَمَّدٍ وَاللهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا»، يُستفاد منه: أنَّ المشروع في خطبة الكسوف أن تكون تخويفًا محضًا بتحذير النَّاس من الذُّنوب ومغبَّتِها وسوء عاقبتها، وموجبات سخط الله ومن النَّار. والنَّبيُّ ﷺ نبَّه على ذلك وحذَّر من الذُّنوب ولا سيَّما أمَّهات الذُّنوب، وهي أربع: الشِّرك، والقتل -قتل النَّفس المعصومة- والزِّنا، والسَّرقة. وهذه الأربع جمعها النَّبيُّ في خطبة الوداع بقوله: «**أَلَا إِنَّمَا هُنَّ أَرْبَعٌ: لَا تُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئًا، وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَلَا تَسْرِقُوا، وَلَا تَزْنُوا**»(١).

ومَن يتأمَّل في الرِّوايات الواردة في الكسوف يجد أنَّ النَّبيَّ ﷺ حذَّر من هذه الذُّنوب الكبار الَّتي توبق صاحبها تحذيرًا شديدًا؛ حتَّى إنَّه عَلَيْهِ السَّلَامُ قال للنَّاس في خطبته تلك: «**لَقَدْ رَأَيْتُ جَهَنَّمَ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا**»، «**فَلَمْ أَرَ مَنْظَرًا كَالْيَوْمِ قَطُّ أَفْظَعَ**»(٢)، قال ذلك تحذيرًا من موجبات دخولها وبخاصَّة تلك الأربع.

وقد حصل في صلاته للكسوف أمرٌ عجيب رآه الصَّحابة من النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ما رأوه فعَله في أيِّ صلاة من صلواته؛ رأوه وهو يصلِّي تقدَّم للأمام ومدَّ يده كأنَّه يريد أن يأخذ شيئًا، ثمَّ بعدها بقليل رأوه رجع للوراء كأنَّه خائف من شيء! فسألوه، فقال: «رأيت الجنَّة والنَّار»، رآهما حقيقةً ببصره، والصَّحابة من ورائه ما رأوا شيئًا!

وهذه آية من آيات الله الدَّالة على كمال قدرته، لمَّا رأى الجنَّة مدَّ يده ليقطف عنقودًا من عناقيدها، وقال: «لو قطفته لأكلتم منه ما بقيت الدُّنيا»، وهذا يدلُّ على الفرق العظيم والبون الشَّاسع بين ثمر الدُّنيا وثمر الجنَّة.

(١) رواه أحمد (١٨٩٨٩)، وصحَّحه الألبانيُّ في السِّلسلة الصحيحة (١٧٥٩).
(٢) رواه البخاريُّ (١٢١٢)، ومسلم (٩٠١).

ورأى النَّبيُّ ﷺ كما وصف النَّار يحطم بعضها بعضًا، وأخبر أيضًا أنَّ النَّاس يفتنون في القبور كفتنة الدَّجَّال، ثمَّ حذَّر عَلَيْهِ السَّلَامُ من هذه الذُّنوب الكبار، لكن تحذيره من هذه الذُّنوب جاء بطريقةٍ تميَّزت عن تحذيره منها في سائر خطبه؛ حيث حذَّر من هذه الذُّنوب بذكره لرؤيته لأشخاصٍ في النَّار يعذَّبون وذكَر أسباب تعذيبهم، **وهذه الطَّريقة إنَّما كانت في هذه الخطبة خاصَّة:**

- **أمَّا ما يتعلَّق بالشِّرك وبيان خطورته:** فقد قال النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**رَأَيْتُ عَمْرَو بْنَ عَامِرٍ الْخُزَاعِيَّ يَجُرُّ قُصْبَهُ -أَيْ: أَمْعَائَهُ- فِي النَّارِ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ سَيَّبَ السَّوَائِبَ**»[(١)]، وأوَّل مَن بدَّل دين إبراهيم.

- **وما يتعلَّق بالتَّحذير من القتل:** قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**وَعُرِضَتْ عَلَيَّ النَّارُ فَرَأَيْتُ فِيهَا امْرَأَةً مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ تُعَذَّبُ فِي هِرَّةٍ لَهَا رَبَطَتْهَا فَلَمْ تُطْعِمْهَا وَلَمْ تَدَعْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ**»[(٢)]؛ فكيف بمَن يعتدي على الأرواح المعصومة والنُّفوس المسلمة قتلًا بأشنع أنواع القتل.

- **وأمَّا الزِّنى:** فإنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**وَاللهِ مَا مِنْ أَحَدٍ أَغْيَرُ مِنَ اللهِ أَنْ يَزْنِيَ عَبْدُهُ أَوْ تَزْنِيَ أَمَتُهُ**».

- **وأمَّا تحذيره من السَّرقة:** فقد جاء في بعض روايات الحديث في خطبة صلاة الكسوف أنَّه قال: «**رَأَيْتُ فِيهَا -أَيْ: النَّارِ- صَاحِبَ الْمِحْجَنِ يَجُرُّ قُصْبَهُ فِي النَّارِ؛ كَانَ يَسْرِقُ الْحَاجَّ بِمِحْجَنِهِ، فَإِنْ فُطِنَ لَهُ قَالَ: إِنَّمَا تَعَلَّقَ بِمِحْجَنِي، وَإِنْ غُفِلَ عَنْهُ ذَهَبَ بِهِ**»[(٣)].

---

(١) رواه البخاريُّ (٣٥٢١)، ومسلم (٢٨٥٦).
(٢) رواه مسلم (٩٠٤).
(٣) رواه مسلم (٩٠٤).

٩٠
ما يُقال عند رؤية الهلال

لقد جعل الله سير القمر منازل، وهي ثمانيةٌ وعشرون منزلةً، ينزل كلَّ ليلة منزلةً؛ فيبدو في أوَّل الشَّهر هلالًا ضئيلًا، ثمَّ يزداد ليلةً تلو الأخرى إلى أن يكتمل فيصير بدرًا، ثمَّ يعود إلى النُّقصان حتَّى يعود ضئيلًا كعُرجون النَّخلة، ثمَّ يستتر ليلتين إذا كان الشَّهر تامًّا، وليلة إذا كان ناقصًا.

وقد عدَّ الله في القرآن الكريم هذا ضمن آياته العظام، وبراهينه الجسام الدَّالة على عظمته سبحانه، وكمال قدرته وتدبيره، قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٣٨-٤٠].

وقوله جلَّ وعلا: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾، أي: يَنْزِلُها، كلَّ ليلة ينْزل منها واحدة، إلى أن يصغر جدًّا فيكون كالعرجون القديم، أي: كعِذقة النَّخل إذا قدِم وجفَّ وصغُر حجمه وانحنى، ثمَّ يُهلُّ في أوَّل الشَّهر ويبدأ يزيد شيئًا فشيئًا حتَّى يَتمَّ نورُه ويتَّسق ضياؤه. فما أعظمها من آية! وما أوضحها من دلالة! على عظمة الخالق وكمال قدرته سبحانه.

ولا ريب أنَّ التَّأمَّلَ في هذه الآية وغيرها مِمَّا دعا الله عباده في كتابه إلى

التَّفكُّر فيها وتأمُّلِها يهدي العبدَ إلى العلم بالرَّبِّ سبحانه؛ بوحدانيَّته وصفات كماله ونعوت جلاله من عموم قدرته وسعة علمه وكمال حكمته وتعدُّد برِّه وإحسانه، ومن ثمَّ يُخلص الدِّينَ له ويُفردُه وحده بالذُّلِّ والخضوعِ والحبِّ والإنابة والخوف والرَّجاء، فهي دلائلُ ظاهرة وبراهينُ واضحة على تفرُّد الله بالربوبيَّة والألوهيَّة والعظمة والكبرياء.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومَن تدبَّر أمر هذين النيِّرين العظيمين -أَيْ: الشَّمس والقمر- وجدهما من أعظم الآيات في خلْقهما وجرمهما ونورهما وحركتهما، على نهج واحد لا ينيان ولا يفتران دائبين، ولا يقع في حركتهما اختلافٌ بالبطء والسُّرعة، والرُّجوع والاستقامة، والانخفاض والارتفاع، ولا يجري أحدهما في فلَك صاحبه، ولا يدخل عليه في سلطانه، ولا تدرك الشَّمس القمر، ولا يجيء اللَّيل قبل انقضاء النَّهار، بل لكلٍّ حركة مقدَّرة ونهجٌ معيَّن لا يشركه فيه الآخر، كما أنَّ له تأثيرًا ومنفعةً لا يشركه فيها الآخر؛ وذلك ممَّا يدلُّ مَن له أدنى عقل على أنَّه بتسخير مسخِّرٍ، وأمرِ آمرٍ وتدبيرِ مدبِّرٍ بهرتَ حكمته العقول وأحاط علمه بكلِّ دقيقٍ وجليل، وفوق ما علمه النَّاس من الحِكم الَّتي في خلقهما ما لا تصل إليه عقولهم، ولا تنتهي إلى مبادئها أوهامهم؛ فغايتنا الاعتراف بجلال خالقهما وكمال حكمته ولطف تدبيره، وأن نقول ما قاله أولوا الألباب قبلنا: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران:١٩١]، ولو أنَّ العبد وُصف له جرم أسود مستدير عظيم الخلق يبدو فيه النُّور كخيط متسخِّنٍ، ثمَّ يتزايد كلَّ ليلة حتَّى يتكامل نوره فيصير أضوء شيء وأحسنه وأجمله، ثمَّ يأخذ في النُّقصان حتَّى يعود إلى حاله الأوَّل، فيحصل بسبب ذلك معرفة الأشهر والسِّنين وحساب آجال العالم؛ من مواقيت حجِّهم وصلاتهم، ومواقيت إجاراتهم ومُداينتهم ومعاملتهم الَّتي لا تقوم مصالحهم إلَّا بها، فمصالح

الدُّنيا والدِّين متعلِّقة بالأهلَّة. وقد ذكر سبحانه ذلك في ثلاثة آيات من كتابه: أحدها: قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩]، والثَّانية: قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥]، والثَّالثة: قوله: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَـٰهُ تَفْصِيلًا﴾ [الإسراء: ١٢]، فلولا ما يُحدثه الله سبحانه في آيات اللَّيل من زيادة ضوئها ونقصانه؛ لم يُعلم ميقات الحجِّ، والصَّوم، والعِدد، ومدَّة الرَّضاع، ومدَّة الحمل، ومدَّة الإجارة، ومدَّة آجال الحاملات»(١).

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وانظر إلى القمر وعجائب آياته؛ كيف يُبديه الله كالخيط الدَّقيق، ثم يتزايد نورُه ويتكامل شيئًا فشيئًا كلَّ ليلة حتَّى ينتهي إلى إبداره وكماله وتمامه، ثمَّ يأخذ في النُّقصان حتَّى يعود إلى حالته الأولى؛ ليظهر من ذلك مواقيتُ العباد في معاشهم وعباداتهم ومناسكهم، فتميَّزت به الأشهر والسُّنون، وقام به حسابُ العالم، مع ما في ذلك من الحكَم والآيات والعِبر الَّتِي لا يُحصيها إلاَّ الله». اهـ كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢).

ولِهذا كان ﷺ إذا رأى الهلالَ كبَّر تعظيمًا لخالقه ومبدعه سبحانه، ثمَّ دعا الله أن يجعل هذا الشَّهر الَّذي هلَّ هلالُه شهرَ يُمن وإيمان وسلامةٍ وإسلام، وهي دعوةٌ مباركةٌ يحسُن بالمسلم أن يدعو بها كلَّما رأى الهلال.

عن عبد الله بن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: **كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا رَأَى الهِلَالَ، قَالَ: «اللهُ أَكْبَرُ، اللَّهُمَّ أَهِلَّهُ عَلَيْنَا بِالْأَمْنِ وَالْإِيمَانِ، وَالسَّلَامَةِ وَالْإِسْلَامِ، والتَّوْفِيقِ لِمَا**

(١) انظر: التِّبيان في أقسام القرآن (ص١٦٤).
(٢) انظر: مفتاح دار السَّعادة (١/ ١٩٨).

تُحِبُّ وَتَرْضَى، رَبِّي وَرَبُّكَ اللهُ». رواه الدَّارميُّ[(١)].

وعَنْ طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ الله رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: أَنَّ النَّبيَّ ﷺ كَانَ إِذَا رَأَى الْهِلَالَ قَالَ: «**اللَّهُمَّ أَهِلَّهُ عَلَيْنَا بِالْيُمْنِ وَالإِيمَانِ، وَالسَّلَامَةِ وَالإِسْلَامِ، رَبِّي وَرَبُّكَ اللهُ**». رواه التِّرمذيُّ[(٢)].

وتكبيره عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عند رؤية الهلال؛ لأنَّه آيةٌ عظيمة على عظمة الرَّبِّ وكبريائه، والتَّكبير تعظيمٌ لله واعتقاد أنَّه أكبرُ من كلِّ شيء، وأنَّه لا شيء أكبر منه، كما قال ﷺ في حديث عديٍّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «**فَهَلْ شَيْءٌ هُوَ أَكْبَرُ مِنَ اللهِ**». رواه أحمد[(٣)].

بل إنَّ التَّكبيرَ مشروعٌ عند رؤية كلِّ كبير وعظيم ليبقى القلبُ ليس فيه اشتغالٌ إلَّا بتكبير الخالق وتعظيم المبدع له سبحانه، قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُٱللَّهُ: «التَّكبيرُ مشروعٌ في المواضع الكبار: لكثرة الجمع، أو لعظمة الفعل، أو لقوَّة الحال، أو نحو ذلك من الأمور الكبيرة؛ ليُبيِّن أنَّ الله أكبرُ، وتستولي كبرياؤه في القلوب على كبرياء تلك الأمور الكبار، فيكون الدِّين كلُّه لله، ويكون العبادُ له مكبِّرين، فيحصل لهم مقصودان: مقصود العبادة بتكبير قلوبهم لله، ومقصود الاستعانة بانقياد سائر المطالب لكبريائه»[(٤)].

قوله: «**إِذَا رَأَى الهِلَالَ**»، الهلال: هو غرَّة القمر لليلتين أو لثلاث، وفي غير ذلك يُقال له: قمر.

وقوله: «**أَهِلَّهُ عَلَيْنَا**»، أي: أطلِعه علينا وأرِنا إيَّاه.

---

(١) رواه الدَّارميُّ (١٧٢٩).
(٢) رواه التِّرمذيُّ (٣٤٥١)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٣) رواه أحمد (١٩٣٨١).
(٤) انظر: مجموع الفتاوى (٢٤/ ٢٢٩).

وقوله: «**بِالْأَمْنِ وَالْإِيمَانِ**»، الأمنُ: هو الطُّمأنينة والرَّاحة والسُّكون والسَّلامة من الآفات والشُّرور، وفي حديث طلحة «باليُمن»، واليُمن: هو السَّعادة، والإيمان: هو الإقرار والتَّصديق، والخضوع لله.

وقوله: «**وَالسَّلَامَةِ وَالْإِسْلَامِ**»، السَّلامة: هي الوقاية والنَّجاة من الآفات والمصائب، والإسلام: هو الاستسلام لله والانقياد لشرعه.

وقوله: «**رَبِّي وَرَبُّكَ اللهُ**»، فيه إثبات أنَّ النَّاس والقمر وجميع المخلوقات كلَّها مربوبةٌ لله مسخَّرة بأمره خاضعةٌ لحُكمه، وفي هذا ردٌّ على مَن عبَدها من دون الله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصِّلت: ٣٧].

الحاصل أنَّ هذا دعاء من أوَّله إلى آخره تعظيم لله وتمجيده وثناء عليه سبحانه، ودعاءٌ أن يكتب للنَّاس في شهرهم -الَّذي هلَّ هلاله- الأمن والإيمان والسَّلامة والإسلام والتَّوفيق لما يُحبُّ ويرضى، وهي دعوةٌ تُقال في أوَّل كلِّ شهر ليست خاصَّةً بشهر دون شهر.

❐ **ثمَّ إنَّ الحديثَ فيه فوائد كثيرة أشير إلى شيء منها:**

❧ **فمن فوائد الحديث:** أنَّ فيه بيانًا للفرق بين الإيمان والإسلام، وأنَّهما ليسا شيئًا واحدًا عندما يجتمعان في الذِّكر، بل لكلٍّ واحد منهما معنى خاصٌّ؛ فالإيمان يُراد به الاعتقادات الباطنة، والإسلام يُراد به الأعمال الظَّاهرة، أمَّا عند إفراد كلِّ واحد منهما بالذِّكر فإنَّه يكون متناولًا لمعنى الآخر.

❧ **ومن فوائد الحديث:** أنَّ الأمنَ مرتبطٌ بالإيمان، والسَّلامةَ مرتبطةٌ بالإسلام، فالإيمان طريق الأمان، والإسلام طريق السَّلامة، ومَن رام الأمن والسَّلامة بغيرهما ضلَّ، والله تعالى يقول: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

۞ **ومن فوائد الحديث:** أنَّ فيه لفتةً كريمةً إلى أنَّ أهمَّ ما تُشغَل به الشُّهور وتُمضَى فيه الأوقات هو الإيمانُ بالله وبما أمر عباده بالإيمان به، والاستسلامُ له سبحانه في كلِّ أحكامه، وجميع أوامره. ومرور الشُّهور على العبد مع الانشغال عن هذا المقصد الجليل ضياعٌ للشُّهور، وحرمان من الخير، فالشُّهور لَم تُخلق ولم توجد إلَّا لتكون مستودعًا للإيمان والأعمال، وهذا إنَّما ينجلي أمره للنَّاس عندما يقفون يوم القيامة بين يدي الله ليروا نتاج أعمالهم وحصاد حياتهم وثمرة أوقاتهم.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «السَّنَةُ شجرة، والشُّهورُ فروعها، والأيَّامُ أغصانها، والسَّاعات أوراقها، والأنفاس ثمرها، فمَن كانت أنفاسه في طاعةٍ فثمرة شجرته طيِّبة، ومَن كانت في معصيةٍ فثمرته حنظل، وإنَّما يكون الجَذَاذ يوم المعاد، فعند الجَذاذ يتبيَّن حلوُ الثِّمار من مُرِّها». اهـ كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)].

عَمَرَ الله أوقاتنا أجمعين بالأمن والإيمان، والسَّلامة والإسلام، والتَّوفيق لما يحبُّه ويرضاه.

(١) انظر: الفوائد (ص١٦٤).

٩١
الذِّكر المتعلِّق بالصِّيام، ودعاء ليلة القدر

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا أَفْطَرَ، قَالَ: «**ذَهَبَ الظَّمَأُ، وَابْتَلَّتِ الْعُرُوقُ، وَثَبَتَ الْأَجْرُ إِنْ شَاءَ اللهُ**». رواه أبو داود(١).

قوله: «**ذَهَبَ الظَّمَأُ**»، لأنَّ الصَّائم عند وقت الإفطار يكون قد اشتدَّ به العطش والحاجة للماء، فإذا شرب ذهب ظمؤه، أي: عطشه.

قوله: «**وَابْتَلَّتِ الْعُرُوقُ**»، أي: بالماء الَّذي شربه فأذهب الظَّمأ وبلَّ العروق.

قوله: «**وَثَبَتَ الْأَجْرُ إِنْ شَاءَ اللهُ**»، أي: أنَّ العمل الصَّالح قد تمَّ والأجر قد حصل. وهذا ليس دعاءً وإنَّما هو إخبار؛ لأنَّ الجُمل قبله كلَّها إخبار.

وقوله: «**إِنْ شَاءَ اللهُ**»، أي: ثبوت الأجر بأن تقبَّله سبحانه، فلا يكون جازمًا لنفسه بالقبول، والله سبحانه هو المتفضِّل عليه بالأجر والثَّواب كما أنَّه هو المتفضِّل عليه بالعمل الَّذي كان سببًا في نيل الأجر والثَّواب، فللَّه الفضل والمنُّ أوَّلًا وآخرًا.

۞ الدُّعَاءُ لَيْلَةَ الْقَدْرِ

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: «قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! أَرَأَيْتَ إِنْ عَلِمْتُ أَيَّ لَيْلَةٍ لَيْلَةُ الْقَدْرِ، مَا أَقُولُ فِيهَا؟ قَالَ: «**قُولِي: اللَّهُمَّ إِنَّكَ عَفُوٌّ تُحِبُّ الْعَفْوَ فَاعْفُ**

---

(١) رواه أبو داود (٢٣٥٧)، وحسَّنه الألبانيُّ.

عَنِّي». رواه التِّرمذيُّ وابن ماجه[(١)].

ليلة القدر هي خير اللَّيالي، وأشرفها، وأعظمها، فضَّلها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على سائر اللَّيالي بما جعل فيها من بركةٍ عظيمة وخيرٍ مضاعف؛ فهي ليلة واحدة لكنَّها خير من ألف شهر، وبحساب السَّنوات يزيد على الثَّمانين سنةً. ولاشكَّ أنَّ هذا يدلُّ على عظم شأن هذه اللَّيلة ومكانتها العظيمة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدُّخان: ٣-٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ [القدر: ١-٥].

في هذه اللَّيلة المباركة كما أخبر الله سبحانه يكثر تنزُّل الملائكة، لكثرة البركة الَّتي جعلها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في هذه اللَّيلة؛ لأنَّ نزول الملائكة مع تنزُّل البركة. ووصف الله عَزَّوَجَلَّ هذه اللَّيلة بأنَّها سلامٌ حتَّى مطلع الفجر، أي: أنَّها خيرٌ كلُّها وسلامٌ كلُّها ليس فيها شرٌّ إلى طلوع الفجر.

وفي هذه اللَّيلة كما أخبر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُفْرَق كلُّ أمرٍ حكيم، أي: يقدَّر ما يكون في تلك السَّنة إلى ليلة القدر الأخرى، وهذا يُسمَّى: «التَّقديرَ السَّنويَّ»، وهو داخلٌ في «التَّقدير العامِّ» الَّذي هو ما كتبه الله في اللَّوح المحفوظ قبل خلق السَّموات والأرض بخمسين ألف سنةً.

قال مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ليلةُ القدر خيرٌ من ألف شهر ليس في تلك الشُّهور ليلة القدر»، وكذا قال قتادة والشَّافعيُّ وغيرُ واحد[(٢)].

ليلةٌ هذا شأنها ينبغي على عبد الله المؤمن أن يكون حريصًا على طلبها

(١) رواه التِّرمذيُّ (٣٥١٣)، وابن ماجه (٣٨٥٠)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٢) ذكره ابن كثير في تفسيره (٨/ ٤٢٧).

وتحرِّيها والاجتهاد فيها بالدُّعاء، وألَّا تمرَّ كسائر اللَّيالي! بل يكون لها شأن عظيم، وقوَّة إقبال في النَّفس على تحرِّيها.

ونبيُّنا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أمرنا بتحرِّي هذه اللَّيلة في العشر الأواخر من رمضان، فعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**تَحَرَّوْا لَيْلَةَ الْقَدْرِ فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ**». متَّفق عليه(١).

ولهذا يُنصح المسلم أن يتحرَّى هذه اللَّيلة في كلِّ ليلة من العشر، حتَّى ليلة ثلاثين، لا يفوِّت ليلةً إلَّا ويتحرَّى فيها ليلة القدر، وتكون في الأوتار أوكد لكن تُتحرَّى في العشر كلِّها، ويحرص المرء فيها على الاستكثار من الأعمال الصَّالحة وأنواع القُرب وكثرة الدُّعاء واللُّجوء إلى الله سبحانه.

ومن أنفع الدُّعاء في ليلة القدر: هذا الدُّعاء الَّذي جاء في حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا؛ أنَّها سألت النَّبيَّ ﷺ قالت: «**إِنْ عَلِمْتُ أَيَّ لَيْلَةٍ لَيْلَةُ الْقَدْرِ مَا أَقُولُ؟**» وقولها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «إِنْ عَلِمْتُ أَيَّ لَيْلَةٍ لَيْلَةُ الْقَدْرِ مَا أَقُولُ»؛ هذا يدلُّ على أنَّه متقرِّر عندهم أنَّ الدُّعاء يُتحرَّى في تلك اللَّيلة ويُرجى فيها القبول، لكن كانت تسأل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ماذا تتحرَّى من الدُّعاء؟ أمَّا تحرِّي الدُّعاء من حيث هو، فهو متقرِّرٌ عندهم في هذه اللَّيلة. ولهذا ينبغي على المسلم أن يحرص على الاستكثار من الدُّعاء، ويعتني خاصَّةً بهذا الدُّعاء الَّذي عيَّنه النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وقول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «**مَا أَقُولُ فِيهَا؟**» فيه تنبيه للمسلم في كلِّ باب أن يتحرَّى السُّنَّة حتَّى يعرف ما يقول؛ لأنَّ قولها «ما أقول؟» أرادت به الهدي والسُّنَّة، وكانت تستطيع أن تُنشئ أدعية كثيرة حسنة، لكنَّها لم تفعل وسألت ماذا تقول؟ ومن النَّاس يدعو بما يشاء، حتَّى إنَّك ترى في دعائه مخالفات، ومن النَّاس مَن يذهب الى كتب تكلَّف إنشاءها بعضُ المتكلِّفين وتكون

(١) رواه البخاريُّ (٢٠٢٠)، ومسلم (١١٦٩).

متضمِّنةً لمخالفات شرعيَّة تجدها بأيدي بعض العوامِّ يقرؤونها. فلنترك هذا ولنقُل كما قالت عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنهَا، ولننظر هديَ النَّبيِّ صلوات الله وسلامه عليه، ولنحرص عليه في كلِّ مقام.

قَالَ: «**قُولِي: اللَّهُمَّ إِنَّكَ عُفُوٌّ تُحِبُّ الْعَفْوَ فَاعْفُ عَنِّي**»[1]، **بدأ الدُّعاء بتوسُّلين عظيمين إلى الله:**

الأوَّل: أنَّه سبحانه عفوٌّ، ومن أسمائه الحسنى «العفوٌّ»، والعفوُّ: الَّذي يعفو عن الذُّنوب ويغفر الخطيئات ويتجاوز عن السَّيِّئات.

الثَّاني: تحبُّ العفو، توسُّلٌ إلى الله سبحانه بأنَّه يُحبُّ العفو، ويُحبُّ العافين عن النَّاس جلَّ في علاه.

وإذا تأمَّل المسلم هذا الدُّعاء يجد أنَّه مناسبٌ لليلة القدر غاية المناسبة؛ لأنَّها اللَّيلةُ الَّتي يُفرق فيها كلُّ أمرٍ حكيم، ويُقدَّر فيها أعمال العباد لسنةٍ كاملة حتَّى ليلة القدر الأخرى، فإذا أكرم الله عبده ورزقه العافية وعفا عنه في ليلة القدر فقد أفلح وفاز.

وسؤال الله عَزَّوَجَلَّ العفو هذا: من أعلى المطالب وأجلِّها، ولهذا روى البخاريُّ في الأدب المفرد والتِّرمذيُّ في السُّنن عن العبَّاس بن عبد المطَّلب رَضِيَٱللَّهُعَنهُ قال: «قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ، عَلِّمْنِي شَيْئًا أَسْأَلُهُ اللهَ عَزَّوَجَلَّ»، قَالَ: «**سَلِ اللهَ العَافِيَةَ**»، فَمَكَثْتُ أَيَّامًا، ثُمَّ جِئْتُ فَقُلْتُ: «يَا رَسُولَ اللهِ عَلِّمْنِي شَيْئًا أَسْأَلُهُ اللهَ»، فَقَالَ لِي: «**يَا عَبَّاسُ يَا عمَّ رَسُولِ اللهِ، سَلُوا اللهَ العَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ**»[2].

وروى البخاريُّ في الأدب المفرد والتِّرمذيُّ في السُّنن عن أنس بن مالك

(١) رواه التِّرمذيُّ (٣٥١٣)، وابن ماجه (٣٨٥٠)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٢) رواه أحمد (١٧٨٣)، والتِّرمذيُّ (٣٥١٤)، وصحَّحه الألبانيُّ.

رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: أتى النبيَّ ﷺ رجلٌ، فقال: «يَا رَسُولَ اللهِ، أيُّ الدُّعاء أَفضَلُ؟» قال: «**سَلِ اللهَ العَفْوَ والعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ**»، ثمَّ أتاه الغد، فقالَ: «يا نَبِيَّ اللهِ، أيُّ الدُّعاء أَفْضَل؟» قال: «**سَلِ اللهَ العَفْوَ وَالْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، فَإِذَا أُعْطِيتَ العَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ فَقَدْ أَفْلَحْتَ**»(١).

وروى البخاريُّ في الأدب المفرد وابن ماجه عن أوسط بن إسماعيل قال: سمعتُ أبا بكر الصِّديقَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ بعد وفاة رسول الله ﷺ قال: «قام النَّبِيُّ ﷺ عامَ أوَّل مقامي هذا»، ثمَّ بكى أبو بكر، ثمَّ قال: «عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ، فَإِنَّهُ مَعَ البِرِّ وَهُمَا فِي الجَنَّةِ، وَإِيَّاكُمْ وَالكَذِبَ، فَإِنَّهُ مَعَ الفُجُورِ وَهُمَا فِي النَّارِ، وَسَلُوا اللهَ المُعَافَاةَ، فَإِنَّهُ لَمْ يُؤْتَ بَعْدَ اليَقِينِ خَيْرٌ مِنَ المُعَافَاةِ، وَلَا تَقَاطَعُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا»(٢).

ولهذا فإنَّ من الخير للمسلم أن يكثر من هذه الدَّعوة المباركة في كلِّ وقت وحين، ولا سيَّما في ليلة القدر الَّتي فيها يُفرق كلُّ أمرٍ حكيم، وليعلم المسلم أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ عفوٌّ كريم يُحبُّ العفو: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الشُّورى: ٢٥]، ولم يزل سبحانه ولا يزال بالعفو معروفًا، وبالصَّفح والغفران موصوفًا، وكلُّ أحدٍ مضطرٌّ إلى عفوه محتاجٌ إلى مغفرته، لا غنى لأحدٍ عن عفوه ومغفرته، كما أنَّه لا غنى لأحدٍ عن رحمته وكرمه.

وهذان اللَّفظان «العفو» و«العافية» هما من الألفاظ الَّتي يقول عنها أهل العلم: «إذا اجتمعت افترقت وإذا افترقت اجتمعت»؛ فإذا ذُكر العفو وحده شمل معنى العافية، وإذا ذُكرت العافية وحدها شملت معنى العفو، وإذا ذُكرا

(١) رواه التِّرمذيُّ (٣٥١٢)، والبخاريُّ في الأدب المفرد (٦٣٧).
(٢) رواه ابن ماجه (٣٨٤٩)، والبخاريُّ في الأدب المفرد (٧٢٤)، وصحَّحه الألبانِيُّ.

معًا أصبح العفو فيما يتعلَّق بالماضي، والعافية فيما يتعلَّق بالمستقبل، فمثلًا: قول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا للنَّبيِّ ﷺ: «**أَرَأَيْتَ إِذَا عَلِمْتُ لَيْلَةَ القَدْرِ أَيَّ لَيْلَةٍ هِيَ مَاذَا أَقُولُ؟**» قَالَ: «**قُولِي: اللَّهُمَّ إِنَّكَ عَفُوٌّ تُحِبُّ العَفْوَ فَاعْفُ عَنِّي**»(١)؛ «**فاعف عنِّي**» سؤالٌ للعفو لكنَّه يشمل العافية، لأنَّ العفو إذا ذُكر وحده شمل معنى العافية؛ فهو يشمل العفو لما مضى، وأيضًا العفو فيما سيأتي بتجنيب المرء الشُّرور والآثام. وربَّما ضمَّ لها ثالث: وهو المعافاة؛ فيكون العفو لما مضى، والعافية لما سيأتي، والمعافاة للإنسان في حاله ووقته الحاضر.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وفي سنن النَّسائيِّ من حديث أبي هريرة يرفعه: «**سَلُوا اللهَ العَفْوَ وَالعَافِيَةَ وَالمُعَافَاةَ، فَمَا أُوتِيَ أَحَدٌ بَعْدَ يقينٍ خَيْراً مِنْ مُعَافَاةٍ**»(٢)، وهذه الثَّلاثة تتضمَّن إزالة الشُّرور الماضية بالعفو، والحاضرة بالعافية، وَالمستقبلة بالمعافاة؛ فإنَّها تتضمَّن المداومةَ والاستمرارَ على العافية». اهـ كلامه رَحِمَهُ اللَّهُ(٣).

---

(١) رواه التِّرمذيُّ (٣٥١٣)، وابن ماجه (٣٨٥٠)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٢) رواه النَّسائيُّ في الكبرى (١٠٦٥١).
(٣) انظر: زاد المعاد (٤/ ١٩٧)، والطِّبُّ النَّبويُّ (ص١٦٠).

٩٢
أذكار ركوب الدَّابَّة والسَّفر (١)

الدَّابة، أي: المركوب الَّذي يركبه المرء لينتقل من مكان إلى مكان، وهو من النِّعم العظيمة، قال الله تعالى في سورة النَّحل، سورة عدِّ النِّعم: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النَّحل: ٨]، وتدخل وسائل النَّقل الحديثة كالطَّائرات والسَّيَّارات والقطارات وغيرها في قوله: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، فإذا ركب المرء مركوبًا من هذه المركوبات شُرع له أن يقول الذِّكر الَّذي يؤثَر عن النَّبيِّ ﷺ في ركوب الدَّابَّة. وأيضًا فيما يتعلَّق بالسَّفر هناك أدعية مأثورة تتعلَّق به؛ بماذا يُوَدِّع المسافر أهله؟ وبما يودِّعونه؟ وبماذا يُوصَى؟

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: وَدَّعَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «**أَسْتَوْدِعُكَ اللهَ الَّذِي لَا تَضِيعُ وَدَائِعُهُ**». رواه ابن ماجه(١).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَنْ أَرَادَ أَنْ يُسَافِرَ فَلْيَقُلْ لِمَنْ يُخَلِّفُ: أَسْتَوْدِعُكُمُ اللهَ الَّذِي لَا يُضِيعُ وَدَائِعَهُ**». رواه الطَّبرانِيُّ في الدُّعاء(٢).

وفي عمل اليوم واللَّيلة لابن السُّنِّيِّ عن موسى بن وردان، قال: أتيتُ أبا هريرة أُودِّعه لسفر أردته، فقال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**أَلَا أُعَلِّمُكَ يَا ابْنَ أَخِي**

(١) رواه ابن ماجه (٢٨٢٥)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٢) رواه الطَّبرانيُّ في الدُّعاء (٨٢٣)، وقال الالبانيُّ في تخريج الكلم الطَّيِّب (ص١٦٨): «حسن الإسناد».

شَيْئًا عَلَّمَنِيهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَقُولُهُ عِنْدَ الوَدَاعِ؟» قَالَ: قُلْتُ: بَلَى، قَالَ: «قُلْ: أَسْتَوْدِعُكُمُ اللهَ الَّذِي لَا تَضِيعُ وَدَائِعُهُ»(١).

وفي المسند عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**إِنَّ لُقْمَانَ الحَكِيمَ كَانَ يَقُولُ: إِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ إِذَا اسْتُودِعَ شَيْئًا حَفِظَهُ**»(٢).

قوله: «**مَنْ أَرَادَ أَنْ يُسَافِرَ**»، أي: مَن همَّ بالسَّفر.

قوله: «**فَلْيَقُلْ لِمَنْ يُخَلِّفُ**»، أي: ليقُل لأهله وولده الَّذين يتركهم ولرفقائه.

قوله: «**أَسْتَوْدِعُكُمُ اللهَ الَّذِي لَا تَضِيعُ وَدَائِعُهُ**»، أي: أتركُكم في وداعه تَبَارَكَ وَتَعَالَى وبحفظه ورعايته وتوفيقه وتسديده، فإنَّ الله عَزَّوَجَلَّ ما استودع شيئًا إلَّا حفظه، فهو يكلؤه بعنايته وحفظه. وهو بمعنى قول لقمان: «إنَّ الله عَزَّوَجَلَّ إذا اسْتُودِعَ شيئًا حَفِظَهُ»؛ لأنَّ العبد عاجزٌ فإذا تبرَّأ من الاسباب واعترف بضعفه وبرئ من حوله وقوَّته واستودع الله شيئًا؛ حفظه، فالله خير حافظًا.

وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كَانَ يَقُولُ لِلرَّجُلِ إِذَا أَرَادَ سَفَرًا: ادْنُ مِنِّي أُوَدِّعْكَ كَمَا كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يُوَدِّعُنَا، فَيَقُولُ: «**أَسْتَوْدِعُ اللهَ دِينَكَ وَأَمَانَتَكَ وَخَوَاتِيمَ عَمَلِكَ**». رواه التِّرمذيُّ(٣).

ورواه البزَّار والتِّرمذيُّ، ولفظه: «**كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا وَدَّعَ رَجُلًا، أَخَذَ بِيَدِهِ، فَلَا يَدَعُ يَدَهُ حَتَّى يَكُونَ الرَّجُلُ هُوَ الَّذِي يَدَعُ يَدَ النَّبِيِّ ﷺ، وَيَقُولُ: أَسْتَوْدِعُ اللهَ**

---

(١) رواه النَّسائيُّ في السُّنن الكبرى (١٠٢٦٩)، وفي عمل اليوم واللَّيلة (٥٠٨)، وابن السُّنِّيِّ في عمل اليوم واللَّيلة (٥٠٥)، وقال الألبانيُّ في السِّلسلة الصَّحيحة (٦٦٤): «إسناده حسن».

(٢) رواه أحمد (٥٦٠٥).

(٣) رواه التِّرمذيُّ (٣٤٤٣)، وصحَّحه الألبانيُّ.

دِينَكَ، وَأَمَانَتَكَ، وَخَوَاتِيمَ عَمَلِكَ»[١].

قوله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «**كَمَا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُوَدِّعُنَا**»، فيه فائدة عظيمة للمسلم وهي: حرص الصَّحابة على السُّنَّة وتطبيقها. ولا يعجز الواحد منهم عندما يودِّع أحداً أن يأتي بكلمات جميلة تُعبِّر عن مشاعره نحوه، لكنَّ الصَّحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ مع قدرتهم على ذلك كانوا حريصين على السُّنَّة لأنَّها بركة كلُّها.

قوله: «**ادْنُ مِنِّي**»، فيه أنَّ الوداع عن قرب أولى من الوداع عن بعد؛ فبالقرب تحصل المصافحة والمعانقة ونحو ذلك.

قوله: «**أَسْتَوْدِعُ اللهَ دِينَكَ وَأَمَانَتَكَ وَخَوَاتِيمَ عَمَلِكَ**»، هذا توديعٌ عظيم لمَن هو مقيم يودِّع به المسافر؛ أن يجعله الله في حفظه وكلاءته في دينه وأمانته وخواتيم عمله.

وهذا فيه أنَّ الأسفار مظنَّة المخاطر على المرء في هذه الثَّلاث:

- **أمَّا الدِّين:** فبالفتنة فيه والمضرَّةِ الَّتي قد تحصل للإنسان في سفره والتَّعرضِ للشُّبهات الَّتي تحرفه أو الشَّهوات الَّتي تفسده فتضرُّ بدينه؛ فهو بحاجةٍ لهذه الدَّعوة أن يحفظ عليه دينه ويثبِّته ويُجنِّبه مضلَّات الفتن ما ظهر منها وما بطن.

- **وأمَّا الأمانة:** وأمرها عظيم و شأنها كبير؛ سواء بمعناها العامِّ في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: ٧٢]، أو بمعناها الخاصِّ في قول النَّبيِّ ﷺ: «**أَدِّ الْأَمَانَةَ إِلَى مَنْ ائْتَمَنَكَ، وَلا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ**»[٢].

(١) رواه التِّرمذيُّ (٣٤٤٢)، والبزَّار في مسنده (٥٩٥٢)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٢) رواه أبو داود (٣٥٣٤)، والترمذيُّ (١٢٦٤)، وصحَّحه الألبانِيُّ.

- **وأمَّا خواتيم العمل:** وهذا أيضًا مقام عظيم في العبادة والتَّقرُّب الى الله بأن يختم له في هذه الحياة على خيرٍ وفي عملٍ صالح. وفي هذا لفتة أنَّ المسافر عرضة في سفره أن يكون سفرًا لا عودة فيه، فكم من مسافر انتهت حياته في سفره، فالدُّعاء له بهذا عظيم في هذا المقام؛ أن يُختم له بعمل صالح وطاعة لله؛ لأنَّ المدار عليها في أمر الآخرة، والتَّقصير فيما قبلها مجبورٌ بحُسنها.

قوله: «**كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا وَدَّعَ رَجُلًا، أَخَذَ بِيَدِهِ، فَلَا يَدَعُ يَدَهُ حَتَّى يَكُونَ الرَّجُلُ هُوَ الَّذِي يَدَعُ يَدَ النَّبِيِّ ﷺ**»، هذا من لطفه وإحسانه صلوات الله وسلامه عليه، فلا يترك يد الرَّجل؛ وذلك من غاية التَّواضع ونهاية إظهار المحبَّة والرَّحمة حتَّى يكون الرَّجل هو الَّذي يدع يد النَّبيِّ ﷺ باختياره.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: أَنَّ رَجُلًا قَالَ: «**يَا رَسُولَ الله إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُسَافِرَ فَأَوْصِنِي**»، قَالَ: «**عَلَيْكَ بِتَقْوَى اللهِ، وَالتَّكْبِيرِ عَلَى كُلِّ شَرَفٍ**»، **فَلَمَّا أَنْ وَلَّى الرَّجُلُ، قَالَ:** «**اللَّهُمَّ اطْوِ لَهُ الأَرْضَ، وَهَوِّنْ عَلَيْهِ السَّفَرَ**». رواه التِّرمذيُّ وابن ماجه(١).

قوله: «**عَلَيْكَ بِتَقْوَى اللهِ**»، هذه وصيَّة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ للأوَّلين والآخرين من خلقه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَإِيَّاكُمۡ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾ [النِّساء: ١٣١]، وهي وصيَّة النَّبيِّ ﷺ لأمَّته، وهي خير ما يوصى به، فكان ﷺ إذا ودَّع أحدًا أوصاه بتقوى الله عَزَّوَجَلَّ بقوله: «**عَلَيْكَ بِتَقْوَى اللهِ**»، أي: الزمها في سفرك، وحافظ عليها واعتنِ بها، واحذر من خوادشها وخوارمها.

وتقوى الله عَزَّوَجَلَّ: أن يجعل المرء بينه وبين ما يخشاه من سخط الله وعقابه وقاية تقيه؛ وذلك بفعل المأمور وترك المحظور. لذا فإنَّ من أحسن ما عُرِّفت به التَّقوى قول طلق بن حبيب رَحِمَهُٱللَّهُ -من علماء التَّابعين- قال: «**تَقْوَى اللهِ:**

---

(١) رواه التِّرمذيُّ (٣٤٤٥)، وابن ماجه (٢٧٧١)، وحسَّنه الألبانيُّ.

العَمَلُ بِطَاعَةِ اللهِ عَلَى نُورٍ مِنَ اللهِ رَجَاءَ ثَوَابِ اللهِ، وَتَرْكُ مَعْصِيَةِ اللهِ عَلَى نُورٍ مِنَ اللهِ خِيفَةَ عَذَابِ اللهِ»(١)، فتقوى الله هي فعلٌ للأوامر وتركٌ للنَّواهي على نورٍ، أي: برهان وبيِّنةٍ وبصيرةٍ في دين الله، وأن يكون العبد جامعًا بين الرَّجاء والخوف، يرجو رحمة الله سبحانه ويخاف عقابه.

ومَن اتَّقى الله: حفظه من أعدائه، ونجَّاه من الشَّدائد، ورزقه من حيث لا يحتسب، وأصلح عمله، وغفر زلَلَه، وتكفَّل له بكفلين من رحمته، وجعل له نورًا يمشي به بين يديه، وقبله، وأكرمه، وأعزَّه، ونجَّاه من النَّار، إلى غير ذلك من الثِّمار والآثار.

قوله: «**وَالتَّكْبِيرِ عَلَى كُلِّ شَرَفٍ**»، أي: كلَّما علا على جبلٍ أو هضبةٍ أو مرتفع كبَّر، وإذا نزل في منخفض أو أماكن نازلة سبَّح، كما جاء في الحديث الآخر: «**إِذَا عَلَوا الثَّنَايَا كَبَّرُوا وَإِذَا هَبَطُوا سَبَّحُوا، فَوُضِعَتِ الصَّلَاةُ عَلَى ذَلِكَ**»(٢)، أي: إذا كانوا في هبوطٍ ونزول في الأودية والأمكنة المنخفضة يسبِّحون، وإذا كانوا في صعودٍ على الأماكن المرتفعة العالية يكبِّرون، وقوله: «**فَوُضِعَتِ الصَّلَاةُ عَلَى ذَلِكَ**»، أي: وضع فيها التَّسبيح حال الرُّكوع والسُّجود، والتَّكبير وقت الرَّفع.

وقيل في الحكمة في التَّكبير في الأمكنة العالية: أنَّ المرء يعظِّم الله في هذه المواطن -مواطن العلوِّ- والَّتي قد يصيب النَّفس فيها شيء من العجب أو الغرور أو أشياء من هذا القبيل، فيكسرها بالتَّكبير ويذلُّها لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. ففي التَّكبير في الصُّعود شغلٌ للقلب واللِّسان بتعظيم الرَّبِّ، وإعلانٌ أنَّه لا أكبر منه سبحانه، وهذا يطرد عن نفس المرء الكِبْر والعُجْب ونحو ذلك. وفي التَّسبيح

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٣/ ٦٤)، و ابن المبارك في الزُّهد والرَّقائق (١/ ٤٧٣).

(٢) رواه أبو داود (٢٥٩٩)، وصحَّحه الألبانيُّ دون قوله: «فوضعت».

في الهبوط: تنزيهٌ لله عن كلِّ ما لا يليق بجلاله وكماله سبحانه.

والتَّكبير من الكلمات الأربع الحبيبةِ إلى الله، قال ﷺ: «**أَحَبُّ الْكَلَامِ إِلَى اللهِ أَرْبَعٌ: سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ**»[(١)]. و«الله أكبر» معناها: اعتقادٌ وإيمانٌ أنَّه لا شيء أكبر من الله، وأنَّه سبحانه الكبير المتعال الَّذي لا أكبر منه.

قال: «**فَلَمَّا أَنْ وَلَّى الرَّجُلُ قَالَ: اللَّهُمَّ اطْوِ لَهُ الأَرْضَ، وَهَوِّنْ عَلَيْهِ السَّفَرَ**»، أي: دعا له بظهر الغيب؛ فإنَّه أقرب إلى الإجابة، وهذه دعوة عظيمة يُستحبُّ أن يُدعى بها للمسافر، أن يهوِّن الله عليه سفره، وأن يطوي عنه بُعد السَّفر.

قوله: «**اطْوِ لَهُ الأَرْضَ**» من الطَّيِّ، أي: قرِّبها له وسهِّلها له، والمعنى: ارفع عنه مشقَّة السَّفر بتقريب المسافة البعيدة له حسًّا أو معنًى.

قوله: «**وَهَوِّنْ عَلَيْهِ السَّفَرَ**»، أي: أموره ومتاعبه ومصاعبه، وهو تعميمٌ بعد تخصيص.

ويُستفاد منه مع الَّذي قبله: أنَّ المسافر يُدعى له بحضرته وفي غيبته، وهذا كلُّه من هدي نبيِّنا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. والسَّفر قطعة من العذاب كما جاء عن نبيِّنا عَلَيْهِ السَّلَامُ، فيُدعى للمسافر أن يهوِّن الله عليه السَّفر فلا يجد مشقَّة ولا عنتًا ولا أذًى ولا نصبًا، وأن يجد راحةً وطمأنينةً، وكلُّ ذلك داخلٌ في تهوين السَّفر.

---

(١) رواه مسلم (٢١٣٧).

٩٣
أذكار ركوب الدَّابَّة والسَّفر (٢)

عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي أُرِيدُ سَفَرًا فَزَوِّدْنِي»، قَالَ: «**زَوَّدَكَ اللهُ التَّقْوَى**»، قَالَ: «زِدْنِي»، قَالَ: «**وَغَفَرَ ذَنْبَكَ**»، قَالَ: «زِدْنِي بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي»، قَالَ: «**وَيَسَّرَ لَكَ الْخَيْرَ حَيْثُمَا كُنْتَ**». رواه التِّرمذيُّ[(١)].

هذه دعوات عظيمة يُدعى بها للمسافر، فهذا الرَّجل قال للرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**أُرِيدُ سَفَرًا فَزَوِّدْنِي**»، أي: أعطني زادًا أتزوَّد به في هذا السَّفر. وكما أنَّ المرء في السفر يحتاج إلى زاد حسِّيٍّ من مالٍ وطعامٍ وشرابٍ ومركوبٍ ونحو ذلك، فإنَّه يحتاج فيه لزادٍ معنويٍّ من إيمانٍ وتقوى وطاعةٍ لله عَزَّوَجَلَّ، والزَّاد الثَّاني أعظم من الأوَّل، كما قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٦].

قوله: «**زَوَّدَكَ اللهُ التَّقْوَى**»، هذا فيه أنَّ تقوى الله جَلَّ وَعَلَا هي خير زاد يبلغ إلى رضوان الله، كما قال الله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۚ﴾ [البقرة: ١٩٧]، فالتَّقوى خير زاد يحمله المرء معه في أسفاره، وخير أمر يكون مع المرء في إقامته وحلِّه وترحاله وجميع أحواله، وهي وصيَّة الله للأوَّلين والآخرين من خلقه، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَإِيَّاكُمۡ

(١) رواه التِّرمذيُّ (٣٤٤٤)، وحسَّنه الألبانيُّ.

﴿أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ [النِّساء: ١٣١] فهي خير وصيَّة، وهي خير زادٍ يرعاه المرء، ويحافظ عليه. وهذا كما أنَّه دعاء ففيه لفت وتنبيهٌ لمراعاة تقوى الله عَزَّوَجَلَّ في السَّفر، ففي التِّرمذيِّ وغيره أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «اتَّقِ اللهِ حَيْثُمَا كُنْتَ»[1].

قوله: «قَالَ: زِدْنِي»، أي: من الزَّاد أو من الدُّعاء.

«قَالَ: وَغَفَرَ ذَنْبَكَ»، أي: ستر ذنبك، وكفَّر خطيئتك، وتاب عليك. وقوله: «ذنبك» مفرد مضاف يفيد العموم، أي: جميع ذنوبك.

«قَالَ: زِدْنِي بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي»، أي: أفديك بهما وأجعلهما فداءك فضلًا عن غيرهما.

قَالَ: «وَيَسَّرَ لَكَ الْخَيْرَ حَيْثُمَا كُنْتَ»، أي: سهَّل لك الخير ويسَّر لك طرق تحصيله وسبُل نيله؛ وهذا من أعظم ما يُدعى به للمسافر؛ تيسير الخير له حيث ما كان في الطَّريق وفي صعوبات السَّفر ومشاقِّه، ويتناول أيضًا تيسير الرِّفقة الصَّالحة ولزوم الطَّاعة، وتيسُّر المطعم والمشرب، والسَّلامة من الأذى وغير ذلك. فجمع له عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بين هذه الامور الثَّلاثة العظيمة: التَّقوى، والمغفرة، والتَّيسير. ثلاث دعوات عظيمة يُشرع أن يُدعى بها للمسافر.

وَعَنْ عَلِيِّ بْنِ رَبِيعَةَ قَالَ: شَهِدْتُ عَلِيًّا رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وَأُتِيَ بِدَابَّةٍ لِيَرْكَبَهَا، فَلَمَّا وَضَعَ رِجْلَهُ فِي الرِّكَابِ، قَالَ: «بِسْمِ اللهِ»، فَلَمَّا اسْتَوَى عَلَى ظَهْرِهَا، قَالَ: «الْحَمْدُ لِلهِ»، ثُمَّ قَالَ: «سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ، وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ»، ثُمَّ قَالَ: «الْحَمْدُ لِلهِ» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ قَالَ: «اللهُ أَكْبَرُ» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ قَالَ: «سُبْحَانَكَ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي؛ فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ

(١) رواه التِّرمذيُّ (١٩٨٧)، وحسَّنه الألبانيُّ.

إِلَّا أَنْتَ»، ثُمَّ ضَحِكَ. فَقِيلَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! مِنْ أَيِّ شَيْءٍ ضَحِكْتَ؟ قَالَ: رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَعَلَ كَمَا فَعَلْتُ ثُمَّ ضَحِكَ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! مِنْ أَيِّ شَيْءٍ ضَحِكْتَ؟ قَالَ: «**إِنَّ رَبَّكَ يَعْجَبُ مِنْ عَبْدِهِ إِذَا قَالَ**: «**اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي**»، **يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ غَيْرِي**». رواه أبو داود والتِّرمذيُّ(١).

قوله: «**شَهِدْتُ عَلِيًّا** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **وَأُتِيَ بِدَابَّةٍ لِيَرْكَبَهَا**»، أي: جِيء له بدابَّة ليركب عليها.

قوله: «**فَلَمَّا وَضَعَ رِجْلَهُ فِي الرِّكَابِ**»، الرِّكاب: الغرز الَّذي تُوضع عليه الرِّجل ثمَّ يطأ عليه الإنسان وينهض ويركب على ظهر الدَّابَّة.

قوله: «**قَالَ: بِسْمِ اللهِ**»، فهذا يُؤخذ منه: أنَّ الإنسان عندما يضع قدمه في السَّيارة داخلًا يُسمِّي الله، يقول: «بسم الله».

قوله: «**فَلَمَّا اسْتَوَى عَلَى ظَهْرِهَا**»، أي: اسْتَقَرَّ على ظهر الدَّابَّة، وبالنِّسبة للسَّيارة أو الطَّائرة إذا جلس على مقعدها.

قوله: «**قَالَ: الحَمْدُ للهِ**»، يحمد الله عَزَّ وَجَلَّ الَّذي منَّ عليه بهذه النِّعمة ويسَّر له هذا المركوب الَّذي يتنقَّل عليه من مكان إلى مكان ويقضي به مصالحه.

قوله: «**ثُمَّ قَالَ: سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ**»، قال ذلك عملًا بقوله تعالى: ﴿لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ [الزُّخرف: ١٣-١٤].

قوله: «**سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا**»، تنزيهٌ لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى الَّذي سخَّر لنا هذا ويسَّره وأنعم علينا به، ولولا إنعام الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى وفضلُه لما تحقَّق لنا ذلك.

---

(١) رواه أبو داود (٢٦٠٢)، والتِّرمذيُّ (٣٤٤٦)، وصحَّحه الألبانيُّ.

قوله: «وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ»، أي: لولا تسخيره لنا ما سخَّر من الفلك والأنعام ما كنَّا مطيقين لذلك، ولا قادرين عليه، ولكن من لطفه وكرمه تعالى سخَّرها وذلَّلها ويسَّر أسبابها.

قوله: «وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ»، أي: راجعون إلى الله، فمآلنا إلى الموت والرُّجوع إلى الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ [العلق: ٨]، فالمرجع إلى الله وإليه المنقلب، وإليه والمآب والمصير.

وذِكر الانقلاب والرُّجوع إلى الله في هذا الموطن فيه تذكيرٌ للعبد بالموت وما بعده، وأنَّ مَن يركب النَّاقة لا يأمن وهو راكبٌ عليها أن تميل به فيسقط على الأرض ويهلك.

قال القرطبيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فكم من راكب دابَّة عثرت به، أو شمَست أو تقحَّمت أو طاح من ظهرها فهلك، وكم من راكبين في سفينة انكسرت بهم فغرقوا؛ فلمَّا كان الرُّكوب مباشرة أمرٍ مخطورٍ، واتِّصالًا بأسبابٍ من أسباب التَّلف؛ أُمر ألَّا ينسى عند اتِّصاله به يومه، وأنَّه هالكٌ لا محالة فمنقلبٌ إلى الله عَزَّوَجَلَّ غيرُ منفلت من قضائه، ولا يدع ذكر ذلك بقلبه ولسانه حتَّى يكون مستعدًّا للقاء الله بإصلاحه من نفسه. والحذر من أن يكون وركوبه ذلك من أسباب موته في علم الله وهو غافل عنه.

حكى سليمان بن يسار أنَّ قومًا في سفر فكانوا إذا ركبوا قالوا: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾، وكان فيهم رجل على ناقة له رازم -وهي الَّتي لا تتحرَّك هزالًا- فقال: أمَّا أنا فإنِّي لهذه لمقرن، قال: فقمصت به فدقَّت عنقَه. ورُوي أنَّ أعرابيًا ركب قعودًا له وقال إنِّي لمقرن له، فركضت به القعود حتَّى صرعته فاندقَّت عنقه». اهـ كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١).

(١) انظر: تفسير القرطبيِّ (١٦/ ٦٧).

فماذا نقول بالنِّسبة للسَّيَّارات! فالأمر أشدُّ؛ فحوادث السَّيَّارات حصدت من النَّاس بالآلاف، فما يأمن مَن ركب السَّيَّارة وانطلقت به من أخطارها وفواجعها، ولهذا إذا ركب المرء السَّيَّارة استُحبَّ له أن يتذكَّر الموت فتذكُّره يذكِّر بالآخرة، وتذكُّر الآخرة يعين على العمل الصَّالح والطَّاعة والاستعداد ليوم المعاد. وبعض الشَّباب -أصلحهم الله وهداهم- يعتمد على مهارته في قيادة السَّيَّارة ويرى أنَّه مطيقٌ لضبطها، ثمَّ ينطلق بها مغرورًا متهوِّرًا فيلقى حتفه؛ فيُذكَّر هؤلاء يُقال: إذا أردت الرُّكوب سمِّ الله، واحمده إذا استويت على المقعد، ثمَّ قل: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾، واحذر الغرور والتَّهوُّر.

قوله: «**ثُمَّ قَالَ: الحَمْدُ للهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ**»، أي: كرَّر الحمد ثلاث مرَّات شكرًا لله على التَّسخير والإنعام.

قوله: «**ثُمَّ قَالَ: اللهُ أَكْبَرُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ**»؛ لأنَّ من هديه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كلَّما علا شرفًا كبَّر، فإذا علا ظهرها يُكبِّر، وللتَّكبير في هذا الموطن أثرٌ عظيم، فهو طارد للغرور والعجب.

قوله: «**سُبْحَانَكَ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي؛ فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ**»، هذا تنزيهٌ لله عن كلِّ ما لا يليق بجلاله وكماله، وإقرارٌ بالظُّلم والتَّقصير والتَّفريط، ثمَّ بعد ذلك سؤال الله المغفرة، ثمَّ إقرارٌ بأنَّه لا يغفر الذُّنوب إلَّا الله، كما قال تعالى ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

ثُمَّ ضَحِكَ عليٌّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ فَقِيلَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! مِنْ أَيِّ شَيْءٍ ضَحِكْتَ؟ قَالَ: رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَعَلَ كَمَا فَعَلْتُ ثُمَّ ضَحِكَ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! مِنْ أَيِّ شَيْءٍ ضَحِكْتَ؟ قَالَ: «**إِنَّ رَبَّكَ يَعْجَبُ مِنْ عَبْدِهِ إِذَا قَالَ: «اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي»**،

يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ غَيْرِي»، فالله عَزَّوَجَلَّ يعجب من ذلك ويحبُّ ذلك من عبده، وهذا فيه رحمة الله عَزَّوَجَلَّ وفضله وعموم مغفرته وسعة إحسانه، وأنَّه يحبُّ المستغفرين ويحبُّ التَّائبين ويُحبُّ المنيبين الطَّالبين الغفران؛ لهذا جديرٌ بالعبد أن يُكثر من ذكره لظلم نفسه ويطلب من ربِّه الغفران، وهذا يأتي كثيرًا في دعوات الأنبياء، ففي دعاء آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، وفي دعاء موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [القصص: ١٦]، وفي دعاء يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

وعلى العبد أن يركب دابَّته بتطامنٍ وتواضعٍ وتذلُّلٍ واستشعارٍ للنِّعمة، وحمد وثناء على الله وإنابة واستغفار.

٩٣
أذكار ركوب الدَّابَّة والسَّفر (٣)

عَنْ ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَانَ إِذَا اسْتَوَى عَلَى بَعِيرِهِ خَارِجًا إِلَى سَفَرٍ كَبَّرَ ثَلَاثًا، ثُمَّ قَالَ: «**سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ، وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ، اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ فِي سَفَرِنَا هَذَا الْبِرَّ وَالتَّقْوَى، وَمِنَ الْعَمَلِ مَا تَرْضَى، اللَّهُمَّ هَوِّنْ عَلَيْنَا سَفَرَنَا هَذَا، وَاطْوِ عَنَّا بُعْدَهُ، اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ، وَالْخَلِيفَةُ فِي الأَهْلِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ، وَكَآبَةِ الْمَنْظَرِ، وَسُوءِ الْمُنْقَلَبِ فِي المَالِ وَالأَهْلِ**»، وَإِذَا رَجَعَ قَالَهُنَّ وَزَادَ فِيهِنَّ: «**آيِبُونَ تَائِبُونَ عَابِدُونَ لِرَبِّنَا حَامِدُونَ**». رواه مسلم[(١)].

هذا دعاء السَّفر، وهو دعاءٌ عظيم فيه معاني جليلة، وهدايات عظيمة ينبغي على المسافر أن يدعو به في كلِّ سفر، وأن يستحضر معانيه العظيمة، ويجاهد نفسه ببذل السَّبب لنيل ما دعا به.

قال: «**كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا اسْتَوَى عَلَى بَعِيرِهِ خَارِجًا إِلَى سَفَرِهِ كَبَّرَ ثَلَاثًا**»، يفيد هذا: أنَّ هذا الدُّعاء يُشرع للمسلم أن يقوله إذا استوى على ظهر مركوبه مسافرًا، سواءٌ كان بعيرًا أو سيَّارةً أو طائرةً أو سفينةً.

قوله: «**ثُمَّ قَالَ: سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ**»، أي: سبحان الَّذي سخَّر لنا هذا المركوب وذلَّله لنا وسهَّل ركوبه، ولولا تسخيره لنا سبحانه ما كنَّا له مقرنين، أي: مطيقين قادرين، «وإنَّا إلى

---

(١) رواه مسلم (١٣٤٢).

ربِّنا لمنقلبون»، أي: صائرون وراجعون إليه بعد مماتنا؛ فيجازي كلَّ نفس بما قدَّمت من خير أو شرٍّ.

قوله: «**اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ فِي سَفَرِنَا هَذَا البِرَّ وَالتَّقْوَى**»، هذا سؤالٌ أن يكتب له الله في سفره هذا البِرَّ والتَّقوى، و«**البرُّ**» و«**التَّقوى**» كلمتان جامعتان للخير، وهما إذا اجتمعتا في الذِّكر؛ فالبرُّ: فعل الطَّاعات، والتَّقوى: ترك المعاصي. وإذا انفرد كلُّ واحد منهما شمل معنى الآخر؛ فإذا ذُكر البِرُّ وحده شمل فعل الخيرات وترك المعاصي، وإذا ذُكرت التَّقوى وحدها شملت فعل الخيرات وترك المعاصي، وإذا ذُكرا معًا كان البِرُّ لفعل الخيرات، والتَّقوى لترك المعاصي؛ فالمراد: أن تكتب لنا في سفرنا فعل الحسنات والطَّاعات والتَّقرُّب إليك بأنواع القربات، وتجنِّبنا كذلك فعل المعاصي والذُّنوب والآثام.

قوله: «**وَمِنَ العَمَلِ مَا تَرْضَى**»، أي: وأن توفِّقنا في هذا السَّفر إلى العمل الَّذي يُرضيك، الَّذي تُحبُّ منَّا أن نفعله وترضى عنَّا إذا فعلناه.

قوله: «**اللَّهُمَّ هَوِّنْ عَلَيْنَا سَفَرَنَا هَذَا**»، أي: اجعله سهلًا هيِّنًا ليس فيه عسرٌ ولا مشقَّة.

قوله: «**وَاطْوِ عَنَّا بُعْدَهُ**»، طيُّ البعد: هو تقريب المسافة وقطع الطَّريق البعيد بيُسْر وبدون مشقَّة.

قوله: «**اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ**»، أي: للمسافر، والمراد بالصُّحبة هنا، أي: المعيَّة الخاصَّة الَّتي تقتضي المعونة والتَّيسير، فهذه الصُّحبة تقتضي الرِّعاية والعناية والحفظ والتَّسديد والتَّأييد.

قوله: «**وَالْخَلِيفَةُ فِي الْأَهْلِ**»، أي: تخلف المسافر في أهله بحفظك لهم ورعايتك لهم وتوفيقهم ومعافاتهم.

قوله: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ**»، أي: ما قد يجده المسافر في سفره من الجهد والمشقَّة والمكابدة.

قوله: «**وكآبة المنظر**»، أي: المنظر الكئيب الَّذي قد يواجه المرء في سفره، والمراد: الاستعاذة من كلِّ منظرٍ يُعقب الكآبة عند النَّظر إليه.

قوله: «**وَسُوءِ الْمُنْقَلَبِ فِي المَالِ وَالأَهْلِ**»، تعوُّذٌ بالله عَزَّوَجَلَّ من المنقلب السَّيِّئ، سواءٌ كان في ماله أو في أهله؛ بأن يكتب له في ماله وأهله الحفظ والخير والوقاية من الشَّرِّ والضُّرِّ.

قوله: «**وَإِذَا رَجَعَ مِنْ سَفَرِهِ قَالَهُنَّ**»، أي: قال هؤلاء الكلمات، أي: إذا استوى على ظهر الدَّابَّة.

قوله: «**وَزَادَ فِيهِنَّ: آيِبُونَ تَائِبُونَ عَابِدُونَ لِرَبِّنَا حَامِدُونَ**»، وسيأتي الكلام على معناه، ومثله حديث عبد الله بن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: «أَنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ كانَ إذَا قفلَ من غزوٍ، أَوْ حجٍّ، أو عُمْرةٍ يُكبِّرُ عَلَى كُلِّ شَرَفٍ مِنَ الأَرْضِ ثَلَاث تَكْبِيرَات ثُمَّ يقُولُ: **لَا إِلَه إِلَّا اللهُ وَحْدَه لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ ولَهُ الحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ آيِبُونَ تَائِبُونَ عَابِدُونَ لربِّنا حَامِدُونَ صَدقَ اللهُ وَعْدَه وَنَصَرَ عَبْدَه وَهَزَمَ الأَحْزَابَ وَحْدَهُ**» متَّفق عليه[(١)]. وفيه من الفقه: استعمال حمد الله تعالى والإقرار بنعمته والخضوع له والثَّناء عليه عند القدوم من الحجِّ والجهاد على ما وهب من تمام المناسك، وما رزق من النُّصرة على العدوِّ، والرُّجوع إلى الوطن سالمين.

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قَالَ: «**كُنَّا إِذَا صَعِدْنَا كَبَّرْنَا، وَإِذَا نَزَلْنَا سَبَّحْنَا**». رواه البخاريُّ[(٢)]. وروى أبو داود عن ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قال: «**كَانَ**

---

(١) رواه البخاريُّ (١٧٩٧)، ومسلم (١٣٤٤).

(٢) رواه البخاريُّ (٢٩٩٣).

النَّبِيُّ ﷺ وَجُيُوشُهُ إِذَا عَلَوْا الثَّنَايَا كَبَّرُوا وَإِذَا هَبَطُوا سَبَّحُوا فَوُضِعَتِ الصَّلَاةُ عَلَى ذَلِكَ»(١).

الثَّنايا: ما ارتفع من الأرض وعلا، كما تقدَّم معنا في الحديث السَّابق عند قوله: «وَالتَّكْبِير عَلَى كُلِّ شَرَفٍ».

قوله: «**وَإِذَا هَبَطُوا سَبَّحُوا**»، أي: الأودية والأماكن المنخفضة، قالوا: سُبْحَانَ اللهِ، أي: ننزِّه الله ونقدِّسه عن كلِّ ما لا يليق به.

فهذا من آداب السَّفر؛ إذا علا المسافر وارتفع كبَّر الله، وإذا هبط أو نزل سبَّح الله، حتَّى الآن بالنِّسبة للطَّائرة؛ إذ كانت في صعود وارتفاع يكبِّر، وعند النُّزول يُسبِّح، وكذلك في السَّيَّارة إذا صعد فيها إلى مكان مرتفع يُكبِّر، وإذا هبط يُسبِّح الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى. وفي التَّكبير في الصُّعود شغلٌ للقلب واللِّسان بتعظيم الرَّبِّ وإعلان كبريائه وعظمته، وفيه طردٌ للكبر والعجب والغرور، وفي التَّسبيح في الهبوط تَنْزِيهٌ لله عن النَّقائص والعيوب وعن كلِّ ما يُنافي ويُضادُّ كماله وجلاله.

وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «**فَلَمَّا أَشْرَفْنَا عَلَى الْمَدِينَةِ قَالَ** -أي: النَّبيُّ ﷺ-: «**آيِبُونَ تَائِبُونَ عَابِدُونَ لِرَبِّنَا حَامِدُونَ**»، **فَلَمْ يَزَلْ يَقُولُ ذَلِكَ حَتَّى دَخَلَ الْمَدِينَةَ**». رواه البخاريُّ ومسلم(٢).

❑ **هذا الدُّعاء يُشرع أن يقوله المسلم عند القفول، وله موضعان:**

الموضع الأوَّل: عندما يكون القفول، أي: عندما يخرج من القرية أو المدينة الَّتي كان فيها راجعًا إلى بلده، فعندما يخرج منها عائدًا إلى بلده يقول هذا الدُّعاء، وقد تقدَّم دليله.

---

(١) رواه أبو داود (٢٥٩٩)، وصحَّحه الألبانيُّ دون قوله «فوضعت ...».
(٢) رواه البخاريُّ (٣٠٨٥)، ومسلم (١٣٤٥).

ﷺ **والموضع الثَّاني:** عندما يقترب من بلده ويدنو منه، كما في هذا الحديث قال: «**كَانَ إِذَا أَشْرَفَ عَلَى المَدِينَةِ**»، أي: أقبل عليها ورآها قال هذا الدُّعاء.

والسُّنَّة أن يُكرِّر، فلا تُقال عندما يرى بلده مرَّةً واحدة، بل يكرِّره حتَّى يدخل بلدته؛ ولهذا قال في تمامه: «**فلَمْ يَزَلْ يقولُ ذَلِكَ حتَّى قَدِمْنَا المدينةَ**».

قوله: «**آيِبُونَ**» من الأوبة؛ والأوبة: هي الرُّجوع إلى الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، آب، أي: رجع إلى الله بالإقبال عليه، والقيام بطاعته، وامتثال أمره، والبعد عن نواهيه.

«**تَائِبُونَ**»، أي: من ذنوبنا، وتقصيرنا، وإخلالنا، وخطأنا.

«**عَابِدونَ**»، أي: لله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ مخلصين له الدِّين، قائمين بعبادته ممتثلين أمره.

«**لِرَبِّنَا حَامِدُونَ**»، أي: على نعمه الَّتي لا تُعدُّ ولا تُحصى ومننه الَّتي لا تُستقصى، ومنها سلامة الإنسان في سفره، وعافيته، ووصوله إلى بلده، وإقباله على دياره. والسَّفر قطعة من العذاب، فإذا أنهى الإنسان نهمته وحاجته من سفره وعاد إلى بلده سالمًا غانمًا يحمد الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ؛ فهذا الموطن من مواطن الحمد، ولهذا قال: «**حَامِدُونَ**»، أي: حامدون لله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ على نعمه ومننه الَّتي لا تُعدُّ ولا تُحصى، ومن جملتها سلامة الرُّجوع والقفول والعودة إلى الدِّيار غانمًا سالمًا.

فهذه كلمات عظيمة مباركة يُستحبُّ للمسلم أن يقولها عندما يقفل من القرية عائدًا إلى بلده، وعندما يُقبِل على البلد ثمَّ لا يزال يكرِّرها.

ثمَّ في قول هذه الكلمات وتكرارها، فيها توطيدٌ للنَّفس على لزوم هذه الأشياء، وأن يدخل بلدته بعد قضاء نهمته وحاجته من سفره وهو آيبٌ تائبٌ عابدٌ حامدٌ لله، هذه أعماله وهذا الَّذي أقبل على بلدته يحمله، وجعله همًّا له

ومقصودًا، لا أن يقوله قولًا مجردًا بلسانه، وفي نيته أعمال أخرى تتنافى مع ما ذُكر؛ فهذا التَّكرار فيه فائدة توطيد النَّفس على أن تحقِّق الأوبة والتَّوبة، وأن تحقِّق كمال العبادة وحسن الإقبال على الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وأن يكون العبد حامدًا شاكرًا لله عَزَّوَجَلَّ على نعمائه وجزيل عطائه.

٩٥
ما يقوله المسافر إذا رأى قرية أو بلدة يريد دخولها

عَنْ صُهَيْبٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَرَ قَرْيَةً يُرِيدُ دُخُولَها إِلَّا قالَ حِينَ يَراها: «**اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَما أَظْلَلْنَ، وَرَبَّ الأَرَضِينَ السَّبْعِ وَما أَقْلَلْنَ، وَرَبَّ الشَّيَاطِينِ وَمَا أَضْلَلْنَ، وَرَبَّ الرِّياحِ وَمَا ذَرَيْنَ، فَإِنَّا نَسْأَلُكَ خَيْرَ هَذِهِ القَرْيَةِ وَخَيْرَ أَهْلِهَا، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّها وَشَرِّ أَهْلِها وَشَرِّ ما فِيهَا**». رواه النَّسائيُّ في الكبرى[(١)].

مَن أقبل على بلدةٍ يريد أن يدخلها؛ سواءٌ كانت بلدة كبيرةً أو صغيرةً؛ قريةً أو مدينة؛ يُشرع له أن يقول هذا الدُّعاء الَّذي كان يواظب عليه رسول الله ﷺ، وهو مشروعٌ عند رؤية البلدة الَّتي يريد دخولها، والرُّؤية للبلدة تكون عند الإقبال عليها ومقاربة الدُّخول، فليس موطن هذا الدُّعاء بعد الدُّخول ولا أيضًا قبل أن يرى البلدة، بل عندما يراها ويُقبِل عليها ويوشك أن يدخلها، كما هو فعل النَّبيِّ صلوات الله وسلامه عليه.

قوله: «**أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَرَ قَرْيَةً يُرِيدُ دُخُولَهَا إِلَّا قَالَ حِينَ يَرَاهَا**»، القريةُ: اسمٌ للموضع الَّذي يجتمع فيه النَّاسُ من المساكن والأبنية والضِّياع، وقد تُطلق على المدن كما في قوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ﴾ [يس: ١٣]،

(١) رواه النَّسائيُّ في الكبرى (٨٧٧٥)، وصحَّحه الألبانيُّ في السِّلسلة الصَّحيحة (٢٧٥٩).

فقد قيل: إنَّها أنطاكيَّة، ويقال لمكَّةَ: أمُّ القرى؛ وعليه فإنَّ هذا الدُّعاءُ يُقال عند دخول القرية أو المدينة.

وقوله: «**لَمْ يَرَ قَرْيَةً يُرِيدُ دُخُولَهَا إِلَّا قَالَ حِينَ يِرَاهَا**»، هذا يدلُّ على مواظبة النَّبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ومحافظته على هذه الدُّعاء في كلِّ مرَّةٍ يرى قريةً يريد دخولها، وما من شكٍّ أنَّ مَن دخل قريةً فإنَّه يؤمِّل خيرًا ويخاف من شرٍّ، ولهذا حسُن به أن يلتجئ إلى الله عَزَّوَجَلَّ أن يكتب له في هذا الدُّخول خيرًا، وأن يصرف عنه الشَّرَّ؛ سواء الخيرُ الَّذي في البلدة أو في أهلها، وكذلك الشَّرُّ الَّذي في البلدة أو في أهلها، كلُّ ذلك يلتجئ إلى الله عَزَّوَجَلَّ سائلًا الخير، مستعيذًا به تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ من الشَّرِّ.

وقوله: «**إِلَّا قَالَ حِينَ يَرَاهَا**»، هذا فيه دلالة كما سبق إلى أنَّ هذا الدُّعاء يُؤتى به عند رؤية البلدة، ليس بعد الدُّخول ولا أيضًا قبل رؤية البلدة، بل عندما يرى البلدة مقبلًا عليها يريد دخولها.

وهذا الدُّعاء في جملته سؤالٌ للخير؛ خير البلدة وأهلها، واستعاذةٌ بالله من الشَّرِّ؛ شرِّ البلدة وأهلها، بُدِئ بتوسُّلاتٍ عظيمة إلى الله؛ بربوبيَّته للسَّماوات، وربوبيَّته للأرض، وربوبيَّته للرِّياح، وربوبيَّته للشَّياطين، وأيضًا ما يترتَّب على وجود هذه المخلوقات من آثار.

قوله: «**اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَمَا أَظْلَلْنَ**»، أي: يا موجد السَّماوات السَّبع وخالقها ومبدعها، وقوله: «ومَا أَظْلَلْنَ»، من الإظلال، أي: ما كانت له مثل الظُّلَّة، وهو كلُّ ما علت عليه وارتفعت، فيدخل تحت قوله: «ومَا أَظْلَلْنَ»: الشَّمس، والقمر، والنُّجوم، والأرض. كلُّ هذا السَّماء عليه ظلَّة وله غطاء.

قوله: «**ورَبَّ الأَرْضِينَ السَّبْعِ ومَا أَقْلَلْنَ**»، أقللن: من الإقلال وهو الحمل،

أي: ما حملن على ظهورهنَّ، ويدخل تحت قوله: «وما أقللن»: الجبال، والأشجار، والأنهار، والنَّاس، والدَّوابُّ. كلُّ ذلك ممَّا أقلَّته الأرض، فتوسَّل بربوبيَّة الله للسَّماوات وما تحتها، وربوبيَّة الله للأرض وما عليها.

وقوله: «**ورَبَّ الشَّيَاطِينِ ومَا أَضْلَلْنَ**»، من الإضلال وهو الإغواء والصَّدُّ عن سبيل الله، والشَّيطان يصدُّ عن دين الله ويُضلُّ النَّاس عن صراطه المستقيم، قال تعالى: ﴿وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النِّساء: ١١٨-١٢٠]، هذا فعله ومطلبه ومقصوده: إضلال النَّاس وصدُّهم عن دين الله؛ فيَتعوَّذ بالله من الشَّياطين وما أضللن، أي: من الشَّيطان وحزبه، وجنوده، وأتباعه، والمتأثِّرين به المستجيبين لإضلاله وإغوائه.

قوله: «**ورَبَّ الرِّيَاحِ ومَا ذَرَيْنَ**»، الرِّياح معروفة، ومَا ذَرَيْنَ، أي: ما ذرته الرِّياح، أي: طيَّرته، عندما تشتدُّ الرِّياح فإنَّها تذرو الرِّمال والأوراق والهشيم، قال تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾ [الكهف: ٤٥]؛ فيتوسَّل بربوبيَّة الله عَزَّوَجَلَّ للرِّياح، لأنَّ الرِّياح مسخَّرة مدبَّرة، حركتها بتسخير الله، وما ذرته الرِّياح أيضًا كلُّ ذلك بتسخيره تَبَارَكَوَتَعَالَى.

والعبد حينما يتوسَّل بهذه التَّوسُّلات بالله ربِّ كلِّ شيء؛ عليه أن يستحضر كمال قدرة الله على كلِّ شيء، وأنَّ الأمر بيده، وأنَّه ربُّ العالمين، وأنَّ كلَّ ما تحت السَّماء وفوق الأرض ملكه، وأنَّ كلَّ متحرِّك حركته بتسخيره سبحانه وتدبيره، وما تقدَّم كلُّه وسائل بين يدي الدُّعاء.

ثمَّ شرع في الدُّعاء وذكر المطلوب، قال: «**أَسْأَلُكَ خَيْرَ هَذِهِ القَرْيَةِ**»، وهذا

فيه سؤال الله عَزَّوَجَلَّ أن يجعلَ هذه القريةَ مباركةً عليه، وأن يَمنحَه من خيرها، وأن يُيَسِّرَ له السُّكنى فيها بالسَّلامة والعافية.

قوله: «**وخَيْرَ أهْلِهَا**»، أي: خير النَّاس الَّذين فيها من أهل الصَّلاح والتُّقى والعلم والطَّاعة لله؛ فيسأله من خير أهل القرية بحيث يُعامل بالحسنى ويُلاقى بالطِّيب، ولا يحصل له إيذاء أو عدوان أو نحو ذلك، وهو يتضمَّن طلب التَّوفيق للرِّفقة الصَّالحة.

قوله: «**وأعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا، وشَرِّ أهْلِهَا، وشَرِّ مَا فِيْهَا**»، هذا تعوُّذٌ بالله من الشَّرِّ بأنواعه؛ سواء المتعلِّق بالقرية نفسها، أو بأهلها، أو بما فيها، فيتعوَّذ بالله من ذلك كلِّه، وحينئذ يدخل القرية الَّتي يريد دخولها وهو محفوظٌ بحفظ الله، طامعٌ في فضله، وراغب فيما عنده أن يحصِّل خيرًا وأن يُوقى من الشَّرِّ.

∞ مَا يَقُولُهُ إِذَا نَزَلَ مَنْزِلًا

عَنْ خَوْلَةَ بِنْتِ حَكِيمِ السُّلَمِيَّةِ رَضِيَٱللَّهُعَنهَا قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «مَنْ نَزَلَ مَنْزِلًا ثُمَّ قَالَ: «**أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ**»؛ لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَرْتَحِلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ». رواه مسلم(١).

المراد بالمنزل: كلُّ مكانٍ ينزله الإنسان لمدَّةٍ طويلة يقيم فيه، أو لمدَّةٍ قصيرة، فيشمل قوله: «إِذَا نَزَلَ مَنْزِلًا»: من بنى بيتًا ونزل فيه، أو استأجر شقَّةً ليسكن فيها سنةً أو شهرًا أو أقلَّ من ذلك، أو استأجر غرفةً؛ ليبات فيها ليلةً ثمَّ ينتقل منها، أو نزل في بريَّة ليرتاح ليلةً ثمَّ إذا أصبح رحل، فهو يتناول كلَّ منزل ينزله العبد.

وهذه الدَّعوة تحصينٌ للعبد في كلِّ منزل ينزله حتَّى يرحل منه، فإذا نزل

---

(١) رواه مسلم (٢٧٠٨).

في آخر؛ جدَّد الإتيان بهذا التَّعوُّذ ليكون محفوظًا بإذن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في كلِّ منزل ينزله. وهي التجاءٌ إلى الله عَزَّوَجَلَّ واعتصامٌ به وتعوُّذٌ بكلماته، خلافَ ما كان عليه أهل الجاهليَّة من التَّعوُّذ بالجنِّ والأحجار وغير ذلك ممَّا لا يزيدهم إلَّا رهقًا وضعفًا وذلَّةً، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجنُّ: ٦]، فنعى تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عليهم هذه الاستعاذة، وبيَّن عواقبها الوخيمة، ومغبَّتَها الأليمة في الدُّنيا والآخرة، وشرع سبحانه لعباده المؤمنين الاستعاذة به وحده والالتجاءَ إليه دون سواه، قال في السُّورة نفسها: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجنُّ: ١٨]؛ إذ هو الَّذي بيده مقاليد الأمور ونواصي العباد، وأمَّا ما سواه فإنَّه لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا، فضلًا عن أن يملك شيئًا من ذلك لغيره.

وقوله: «**أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ**»، أي: ألْتجئُ وأعتصمُ. وكلماتُ الله المراد بها: الكلمات الكونيَّة القدريَّة، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، ولذا جاء في بعض الأحاديث وصفها بـ«الَّتي لا يجاوزها برٌّ ولا فاجر»، وهذا إنَّما هو في كلماته الكونيَّة القدريَّة. ومعنى «التامَّات»، أي: الَّتي لا يلحقُها نقصٌ، ولا عيْبٌ كما يلحقُ كلامَ البشر.

وفي الحديث دلالةٌ على مشروعيَّة الاستعاذة بصفات الله، وأنَّ الاستعاذة عبادةٌ لا يجوز صرفُها لغير الله، وأنَّ كلامَ الله -ومنه القرآن- ليس بمخلوق، إذ لو كان مخلوقًا لَم يُستعذ به؛ لأنَّ الاستعاذة بالمخلوق لا تجوز بل هي شركٌ بالله.

وقولُه: «**من شرِّ ما خلق**»، أي: من كلِّ شرٍّ في أيِّ مخلوقٍ قام به الشَّرُّ؛ من حيوانٍ أو غيرِه، إنسيًّا كان أو جنيًّا، أو هامَّةً أو دابَّةً، أو ريحًا أو صاعقةً، أو أيَّ نوعٍ من أنواع الشَّرِّ.

وقولُه: «**لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَرْتَحِلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ**»، أيَّ شيءٍ كان؛ لأنَّه محفوظٌ بحفظ الله، لكن يُشترط في هذا الدُّعاء وغيره قابليَّةُ المحلِّ، وصحَّةُ النِّيَّة، وحسنُ الثِّقة بالله، والحرصُ على المواظبة عليه في كلِّ منزلٍ ينزلُه الإنسانُ.

قال القرطبيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذا خبرٌ صحيحٌ وقولٌ صادقٌ، علِمنا صدقَه دليلًا وتجربةً، فإنِّي منذ سمعتُ هذا الخبر عملتُ عليه؛ فلم يضرَّني شيءٌ إلى أن تركتُه فلدغتْني عقربٌ بالمهديَّة ليلًا، فتفكَّرتُ في نفسي فإذا بي قد نسيتُ أن أتعوَّذ بتلك الكلمات»[١].

(١) انظر: المفهم لأبي العبَّاس القرطبيِّ (٧/ ٣٦).

٩٦
أذكار الطَّعام والشَّراب

عَنْ عُمَرَ بْنِ أَبِي سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كُنْتُ غُلَامًا فِي حَجْرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَكَانَتْ يَدِي تَطِيشُ فِي الصَّحْفَةِ، فَقَالَ لِي رَسُولُ الله ﷺ: «**يَا غُلَامُ! سَمِّ اللهَ، وَكُلْ بِيَمِينِكَ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ**»؛ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ طِعْمَتِي بَعْدُ». رواه البخاريُّ ومسلم(١).

قوله: «**تَطِيشُ فِي الصَّحْفَةِ**»، أي: أنَّه لا يأكل مقتصرًا على ما يليه؛ بل مرَّةً يأكل ممَّا يليه، ومرَّةً يأكل من الجهات الأخرى الَّتي ليست له، فتطيش يده مرَّةً هنا ومرَّةً هناك. فقال له النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ معلِّمًا بأرفق الأساليب وألطفها: «**يَا غُلَامُ! سَمِّ اللهَ، وَكُلْ بِيَمِينِكَ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ**»؛ فأثَّرت موعظته ﷺ في هذا الغلام ولذا قال: «**فَمَا زَالَتْ تِلْكَ طِعْمَتِي بَعْدُ**».

وقد أرشده النَّبيُّ ﷺ إلى ثلاثة آداب عظيمة يُستحبُّ للمسلم أن يرعاها عندما يتناول الطَّعام:

الأوَّل: قوله: «**سَمِّ اللهَ**»، أي: قل: بسم الله، وزيادة: «الرَّحمن الرَّحيم» في هذا الموطن لم يأت ما يدلُّ عليها، ولهذا الأوْلى أن يُقتصر على المأمور به. والتَّسمية في أوَّل الطَّعام بركةٌ عظيمة فيه؛ لأنَّها لجوء الى الله واعتمادٌ عليه واستعانةٌ به. وقد ثبت في حديث آخر أنَّ الشَّيطانَ يقول -عندما يترك المسلمُ

(١) رواه البخاريُّ (٥٣٧٦)، ومسلم (٢٠٢٢).

التَّسمية عند دخول بيته، وعند طعامه-: «أَدْرَكْتُمُ المَبِيتَ وَالعَشَاءَ»[(١)]؛ وفي هذا أنَّ التَّسميةَ طاردةٌ للشَّيطان، مانعةٌ له من دخول المنْزل، ومن المشاركةِ في الطَّعام والشَّراب.

الثَّاني: قوله: «**وكُلْ بيَمِينِكَ**»، وهذا فيه أنَّ الأكل لا يكون إلَّا باليد اليمنى، فلا يحلُّ للمرء أن يأكل بيده اليسرى، وقد استجدَّت بعض الأَكَلات عند النَّاس، وهي قطعة الخبز تكون في يدٍ، وعلبة العصير في اليد الثَّانية، فيأكل بيمينه ويشرب بشماله، وهذا لا يجوز، بل عليه أن يأكل ويشرب بيمينه، يضع هذه ويتناول هذه، ولا يشرب ولا يأكل بشماله؛ لأنَّ النَّبيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ نهى عن ذلك، بل روى سَلَمَةُ بْنُ الأَكْوَعِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلًا أَكَلَ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِشِمَالِهِ، فَقَالَ: «**كُلْ بِيَمِينِكَ**»، قَالَ: «**لَا أَسْتَطِيعُ**»، قَالَ: «لَا اسْتَطَعْتَ»، مَا مَنَعَهُ إِلَّا الْكِبْرُ، قَالَ: «**فَمَا رَفَعَهَا إِلَى فِيهِ**». رواه مسلم[(٢)]؛ وهذا يدلُّ على خطورة الأمر، فلا يجوز للمرء أن يأكل بشماله ولا يشرب بشماله، إلَّا إذا كانت يده اليمنى عاجزة لمرض أو نحوه.

وإذا أكل بشماله أعلى من شأن اليد الَّتي للأمور الدَّنيئة، وحطَّ من قدر اليد الَّتي للأمور الشَّريفة، وصار متشبِّهًا بالشَّيطان؛ فعن عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِذَا أَكَلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَأْكُلْ بِيَمِينِهِ، وَإِذَا شَرِبَ فَلْيَشْرَبْ بِيَمِينِهِ؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَأْكُلُ بِشِمَالِهِ وَيَشْرَبُ بِشِمَالِهِ**». رواه مسلم[(٣)].

الثَّالث: قوله: «**وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ**»، وهذا فيه أنَّ من السُّنَّة ومن آداب الطَّعام أن يأكل المرء من الجانب الَّذي يليه من القصعة. قال النَّوويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «لأنَّ

(١) رواه مسلم (٢٠١٨).
(٢) رواه مسلم (٢٠٢١).
(٣) رواه مسلم (٢٠٢٠).

أكله من موضع يد صاحبه سوء عشرة، وترك مروءة، فقد يتقذَّره صاحبه لا سيَّما في الأمراق وشبهها، وهذا في الثَّريد والأمراق وشبهها، فإن كان تمرًا أو أجناسًا فقد نقلوا إباحة اختلاف الأيدي في الطَّبق ونحوه، والَّذي ينبغي تعميم النَّهي حملًا للنَّهي على عمومه حتَّى يثبت دليل مخصِّص»[(١)].

ثمَّ إنَّ المسلمَ إن نسيَ التَّسميةَ في أوَّل طعامه، شُرع له أن يقول في أثنائه إذا ذكر: «**بِسْمِ اللهِ أَوَّلَهُ وَآخِرَهُ**»، فقد روى أبو داود وابن ماجه وغيرُهما عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إِذَا أَكَلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَذْكُرِ اسْمَ اللهِ تَعَالَى، فَإِنْ نَسِيَ أَنْ يَذْكُرَ اسْمَ اللهِ فِي أَوَّلِهِ، فَلْيَقُلْ: بِسْمِ اللهِ أَوَّلَهُ وَآخِرَهُ**»[(٢)]؛ وقد أفاد هذا الحديثُ أنَّ محلَّ التَّسمية عند أوَّل الطَّعام، فإنْ نسيها المسلمُ في هذا الموضع أجزأه أن يأتي بالتَّسمية في أثنائه بهذه الصِّيغة المذكورة في الحديث.

وقد جاء في حديث، في إسناده ضعفٌ أنَّ الشَّيطان يستقيء ما في بطنه إذا أتى المسلمُ بهذه التَّسمية، وذلك فيما رواه أبو داود والنَّسائيُّ عن أميَّة بن مخْشيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان رسولُ اللهِ ﷺ جالسًا ورجلٌ يأكل، فلَم يُسمِّ،حتَّى لَم يبقَ من طعامه إلَّا لُقمةً فلمَّا رفعها إلى فيه، قال: بسم الله أوَّلَه وآخرَه، فضحك النَّبيُّ ﷺ، ثمَّ قَالَ: «**مَا زَالَ الشَّيْطَانُ يَأْكُلُ مَعَهُ، فَلَمَّا ذَكَرَ اسْمَ اللهِ اسْتَقَاءَ مَا فِي بَطْنِهِ**»[(٣)]، لكنَّ الحديثَ ضعيفٌ، ضعَّفه الحافظ ابن حجر وغيرُه. وأمَّا التَّسمية في أثناء الطَّعام في حقِّ مَن نسيَ بقول: «بسم الله أوَّلَه وآخرَه»؛ ثابتةٌ كما في الحديث الَّذي قبله.

وَعَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كُنَّا إِذَا حَضَرْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ طَعَامًا لَمْ نَضَعْ

(١) انظر: شرح النَّوويِّ على مسلم (١٣/ ١٩٣).
(٢) رواه أبو داود (٢٧٦٧)، وابن ماجه (٣٢٦٤)، وصحَّحه الألبانِيُّ.
(٣) رواه أبو داود (٣٧٦٨)، والنَّسائيُّ في الكبرى (٦٧٢٥)، وضعَّفه الألبانِيُّ.

أَيدِينَا حَتَّى يَبْدَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَيَضَعَ يَدَهُ، وَإِنَّا حَضَرْنَا مَعَهُ مَرَّةً طَعَامًا، فَجَاءَتْ جَارِيَةٌ كَأَنَّهَا تُدْفَعُ، فَذَهَبَتْ لِتَضَعَ يَدَهَا فِي الطَّعَامِ، فَأَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِيَدِهَا، ثُمَّ جَاءَ أَعْرَابِيٌّ كَأَنَّمَا يُدْفَعُ فَأَخَذَ بِيَدِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ الشَّيْطَانَ يَسْتَحِلُّ الطَّعَامَ أَنْ لَا يُذْكَرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ، وَإِنَّهُ جَاءَ بِهَذِهِ الْجَارِيَةِ لِيَسْتَحِلَّ بِهَا فَأَخَذْتُ بِيَدِهَا، فَجَاءَ بِهَذَا الْأَعْرَابِيِّ لِيَسْتَحِلَّ بِهِ فَأَخَذْتُ بِيَدِهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ يَدَهُ فِي يَدِي مَعَ يَدِهَا**». رواه مسلم[(١)].

قوله: «**كَأَنَّهَا تُدْفَعُ**» وفي رواية: «**كَأَنَّهَا تُطْرَدُ**»، أي: لِشِدَّةِ سُرْعَتِها.

وهذا الحديث يفيد أنَّ عدم التَّسمية على الطَّعام من أحد المشاركين فيه يتيح للشَّيطان أن يُشارك في هذا الطَّعام، كما قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في هذا الحديث: «**إِنَّ الشَّيْطَانَ يَسْتَحِلُّ الطَّعَامَ أَنْ لَا يُذْكَرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ**»؛ فيستحلُّ الطَّعام بدفع شخص من الصِّغار أو حتَّى من الكبار أن يمدَّ يده إلى الطَّعام دون تسمية؛ ليعجِّل به أن يأكل من الطَّعام بلا تسمية حتَّى يجد مَدخلًا له على الطَّعام، ولهذا يتأكَّد على جميع مَن على السُّفرة أن يبدؤوا بالتَّسمية.

ويفيد أيضاً: أنَّه إذا حصلت التَّسمية لا يصبح للشَّيطان في الطَّعام أيُّ نصيب، ولا يصبح له أيُّ مشاركة، قال الله تعالى: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌۚ﴾ [الإسراء: ٦٤-٦٥]، أي: الَّذين يذكرون الله ليس لك عليهم طريق.

فمن فوائد التَّسمية: منع الشَّيطان عن المشاركة في الطَّعام، وإذا لم تحصل التَّسمية ليس الَّذي يشارك منهم واحدٌ فقط! بل عدد، ينادي بعضهم بعضًا، بقولهم: «أَدْرَكْتُمُ العَشَاءَ»، ومَن هذا الَّذي يرضى بأعداد من الشَّياطين تشاركه في طعامه؟! ومَن ترك التَّسمية فقد رضي ذلك شاء أم أبى.

(١) رواه مسلم (٢٠١٧).

وَعَنْ وَحْشِيِّ بْنِ حَرْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ أَصْحَابَ النَّبِيِّ ﷺ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّا نَأْكُلُ وَلَا نَشْبَعُ! قَالَ: «**فَلَعَلَّكُمْ تَفْتَرِقُونَ؟**» قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: «**فَاجْتَمِعُوا عَلَى طَعَامِكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهِ يُبَارَكْ لَكُمْ فِيهِ**». رواه أبو داود وابن ماجه[(١)].

﴿ **وهذا فيه ذكر أمرين عظيمين من أسباب البركة في الطَّعام:**

الأوَّل: الاجتماع، اجتماع الأيدي على الطَّعام، لا أن يكون كلُّ واحد منهم معه طعام في طرفٍ يأكل وحده.

والثَّاني: أن يذكروا اسم الله عليه.

عَنْ شَهْرِ بْنِ حَوْشَبٍ قَالَ: «كَانَ يُقَالُ: إِذَا جَمَعَ الطَّعَامُ أَرْبَعًا كَمُلَ كُلُّ شَيْءٍ مِنْ شَأْنِهِ، إِذَا كَانَ أَوَّلُهُ حَلَالًا، وَذُكِرَ اسْمُ اللهِ تَعَالَى، وَكَثُرَتْ عَلَيْهِ الأَيْدِي، وَحُمِدَ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ حِينَ يُفْرغُ مِنْهُ، فَقَدْ كَمُلَ كُلُّ شَيْءٍ مِنْ شَأْنِهِ». رواه ابن المبارك في الزُّهد[(٢)].

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الْأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا، أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا**». رواه مسلم[(٣)].

وهذا فيه فضل الحمد بعد الطَّعام وبعد الشَّراب؛ فيشرع للمسلم إذا فرغ من طعامه أو شرابه أن يحمد الله، وقد أخبر النَّبيُّ ﷺ أنَّ هذا أمرٌ يرضي الله، فيرضى عَزَّ وَجَلَّ عن عبده إذا فعل ذلك.

فإذا قال الحمد لله عقب الطَّعام، أو عقب الشَّراب يكفي هذا وينال بذلك

---

(١) رواه أبو داود (٣٧٦٤)، وابن ماجه (٣٢٨٦)، وحسَّنه الألبانيُّ.
(٢) رواه ابن المبارك في الزُّهد والرَّقائق (٦٠٩).
(٣) رواه مسلم (٢٧٣٤).

الرِّضا، لكن هناك أيضًا صيغٌ عظيمة مباركة ثبتت عن نبيِّنا ﷺ، إن تيسَّر للعبد أن يحفظها أو بعضَها؛ فيأتي بهذا مرَّةً وهذا مرة فهو أكمل، وإن لم يتيسَّر فلا يدع أن يقول: «الحمد لله» عقب الطَّعام، والله يرضى عن عبده بذلك أن يأكل الأكلة فيحمده عليها، ويشرب الشَّربة فيحمده عليها.

عَنْ مُعَاذِ بْنِ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «مَنْ أَكَلَ طَعَامًا ثُمَّ قَالَ: «**الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي أَطْعَمَنِي هَذَا الطَّعَامَ وَرَزَقَنِيهِ مِنْ غَيْرِ حَوْلٍ مِنِّي وَلَا قُوَّةٍ**»؛ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ». رواه أبو داود والتِّرمذيُّ[١].

من النَّاس مَن لا يستذكر وقت الطَّعام منَّةَ الرَّبِّ به، بل يلتفت إلى نفسه؛ كيف صنعه؟ وكيف أحضره؟ وكيف أتقنه؟ ولو ترك هذا وأقبل على المنعِم حمدًا وثناءً عليه عَزَّ وَجَلَّ الَّذي رزق العبد هذا الطَّعام من غير حولٍ من العبد ولا قوَّة لكان ذلك من موجبات نيله الغفرانَ، والفوزَ برحمة الله ورضاه سبحانه.

وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا رَفَعَ مَائِدَتَهُ، قَالَ: «**الْحَمْدُ لِلهِ كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ، غَيْرَ مَكْفِيٍّ وَلَا مُوَدَّعٍ وَلَا مُسْتَغْنًى عَنْهُ رَبَّنَا**». رواه البخاريُّ[٢].

قوله: «**كثيرًا طيِّبًا مباركًا فيه**» هذا حمدٌ مضعَّف، وهذه أوصاف هذا الحمد؛ فهو يحمد الله حمدًا موصوفًا بالكثرة والبركة والطِّيب.

قوله: «**غَيْرَ مَكْفِيٍّ وَلَا مُوَدَّعٍ وَلَا مُسْتَغْنًى عَنْهُ**»، أي: الحمد، فكأنَّه قال: حمدًا كثيرًا غير مَكفيٍّ ولا مُودَّع، ولا مُستغنًى عن هذا الحمد.

---

(١) رواه أبو داود (٤٠٢٣)، والتِّرمذيُّ (٣٤٥٨)، وابن ماجه (٣٢٨٥)، وحسَّنه الألبانيُّ.
(٢) رواه البخاريُّ (٥٤٥٨).

٩٧
ما يُدعى به لأهل الطَّعام

وهذا من باب قول النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُونَهُ فَادْعُوا لَهُ»(١)، فالدُّعاء لأهل الإحسان وأهل المعروف عمومًا أمرٌ مطلوب، ومن الإحسان تقديم الطَّعام للضَّيف أو للزَّائر أو للقريب أو للصَّديق، ومن ملاقاة هذا الجميل أن يُدعى له، وقد جاء عن النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في هذا الباب دعوات عظيمة.

عَنِ الْمِقْدَادِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «أَقْبَلْتُ أَنَا وَصَاحِبَانِ لِي وَقَدْ ذَهَبَتْ أَسْمَاعُنَا وَأَبْصَارُنَا مِنَ الْجَهْدِ فَجَعَلْنَا نَعْرِضُ أَنْفُسَنَا عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْهُمْ يَقْبَلُنَا، فَأَتَيْنَا النَّبِيَّ ﷺ فَانْطَلَقَ بِنَا إِلَى أَهْلِهِ فَإِذَا ثَلَاثَةُ أَعْنُزٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «احْتَلِبُوا هَذَا اللَّبَنَ بَيْنَنَا»، قَالَ فَكُنَّا نَحْتَلِبُ فَيَشْرَبُ كُلُّ إِنْسَانٍ مِنَّا نَصِيبَهُ وَنَرْفَعُ لِلنَّبِيِّ ﷺ نَصِيبَهُ، قَالَ فَيَجِيءُ مِنَ اللَّيْلِ فَيُسَلِّمُ تَسْلِيمًا لَا يُوقِظُ نَائِمًا وَيُسْمِعُ الْيَقْظَانَ، قَالَ: ثُمَّ يَأْتِي الْمَسْجِدَ فَيُصَلِّي ثُمَّ يَأْتِي شَرَابَهُ فَيَشْرَبُ، فَأَتَانِي الشَّيْطَانُ ذَاتَ لَيْلَةٍ وَقَدْ شَرِبْتُ نَصِيبِي، فَقَالَ: «مُحَمَّدٌ يَأْتِي الْأَنْصَارَ فَيُتْحِفُونَهُ وَيُصِيبُ عِنْدَهُمْ، مَا بِهِ حَاجَةٌ إِلَى هَذِهِ الْجُرْعَةِ»، فَأَتَيْتُهَا فَشَرِبْتُهَا فَلَمَّا أَنْ وَغَلَتْ فِي بَطْنِي وَعَلِمْتُ أَنَّهُ لَيْسَ إِلَيْهَا سَبِيلٌ، قَالَ: نَدَّمَنِي الشَّيْطَانُ، فَقَالَ: «وَيْحَكَ! مَا صَنَعْتَ أَشَرِبْتَ شَرَابَ مُحَمَّدٍ! فَيَجِيءُ فَلَا يَجِدُهُ فَيَدْعُو عَلَيْكَ فَتَهْلِكُ فَتَذْهَبُ دُنْيَاكَ وَآخِرَتُكَ؟!» وَعَلَيَّ شَمْلَةٌ إِذَا وَضَعْتُهَا عَلَى قَدَمَيَّ خَرَجَ

(١) رواه أبو داود (١٦٧٢)، والنَّسائيُّ (٢٥٦٧)، وصحَّحه الألبانيُّ.

رَأْسِي وَإِذَا وَضَعْتُهَا عَلَى رَأْسِي خَرَجَ قَدَمَايَ، وَجَعَلَ لَا يَجِيئُنِي النَّوْمُ، وَأَمَّا صَاحِبَايَ فَنَامَا وَلَمْ يَصْنَعَا مَا صَنَعْتُ، قَالَ: فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ فَسَلَّمَ كَمَا كَانَ يُسَلِّمُ، ثُمَّ أَتَى الْمَسْجِدَ فَصَلَّى، ثُمَّ أَتَى شَرَابَهُ فَكَشَفَ عَنْهُ فَلَمْ يَجِدْ فِيهِ شَيْئًا، فَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ، فَقُلْتُ الْآنَ يَدْعُو عَلَيَّ فَأَهْلِكُ، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ أَطْعِمْ مَنْ أَطْعَمَنِي وَأَسْقِ مَنْ أَسْقَانِي»، قَالَ: فَعَمَدْتُ إِلَى الشَّمْلَةِ فَشَدَدْتُهَا عَلَيَّ وَأَخَذْتُ الشَّفْرَةَ فَانْطَلَقْتُ إِلَى الأَعْنُزِ أَيُّهَا أَسْمَنُ فَأَذْبَحُهَا لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، فَإِذَا هِيَ حَافِلَةٌ وَإِذَا هُنَّ حُفَّلٌ كُلُّهُنَّ، فَعَمَدْتُ إِلَى إِنَاءٍ لِآلِ مُحَمَّدٍ ﷺ مَا كَانُوا يَطْمَعُونَ أَنْ يَحْتَلِبُوا فِيهِ، قَالَ: فَحَلَبْتُ فِيهِ حَتَّى عَلَتْهُ رَغْوَةٌ فَجِئْتُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «أَشَرِبْتُمْ شَرَابَكُمُ اللَّيْلَةَ»؟ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، اشْرَبْ، فَشَرِبَ ثُمَّ نَاوَلَنِي، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، اشْرَبْ، فَشَرِبَ ثُمَّ نَاوَلَنِي، فَلَمَّا عَرَفْتُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدْ رَوِيَ وَأَصَبْتُ دَعْوَتَهُ ضَحِكْتُ حَتَّى أُلْقِيتُ إِلَى الْأَرْضِ، قَالَ: فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِحْدَى سَوْآتِكَ يَا مِقْدَادُ»، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، كَانَ مِنْ أَمْرِي كَذَا وَكَذَا وَفَعَلْتُ كَذَا. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا هَذِهِ إِلَّا رَحْمَةٌ مِنَ اللهِ، أَفَلَا كُنْتَ آذَنْتَنِي فَنُوقِظَ صَاحِبَيْنَا فَيُصِيبَانِ مِنْهَا»، قَالَ: فَقُلْتُ وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا أُبَالِي إِذَا أَصَبْتَهَا وَأَصَبْتُهَا مَعَكَ مَنْ أَصَابَهَا مِنَ النَّاسِ». رواه مسلم(١).

هذه قصَّة عجيبة جديرٌ بأن يتأمَّلها المسلم، قدِم المقداد هو وصاحبان له إلى المدينة وهما في غاية الجوع وشدَّة الحاجة إلى الطَّعام، وعرضوا أنفسهم على أصحاب النَّبيِّ ﷺ أن يطعمهم أحدٌ، فلم يقبلهم أحد؛ لأنَّه لا يوجد شيء عندهم، فأتوا النَّبيَّ ﷺ فانْطَلَقَ بهم إِلَى أَهْلِهِ، وعنده ثَلَاثَةُ أَعْنُزٍ، فَقَالَ لَهُم ﷺ: «احْتَلِبُوا هَذَا اللَّبَنَ بَيْنَنَا»، فكانوا كذلك يفعلون ويرفعون نصيب النَّبيِّ ﷺ متى جاء شربه، يقول المقداد: «فَأَتَانِي الشَّيْطَانُ ذَاتَ لَيْلَةٍ وَقَدْ شَرِبْتُ نَصِيبِي،

(١) رواه مسلم (٢٠٥٥).

فَقَالَ: مُحَمَّدٌ يَأْتِي الْأَنْصَارَ فَيُتْحِفُونَهُ وَيُصِيبُ عِنْدَهُمْ -أي: طعامًا- **مَا بِهِ حَاجَةٌ إِلَى هَذِهِ الْجُرْعَةِ، فَأَتَيْتُهَا فَشَرِبْتُهَا**»، فلمَّا شرب نصيب النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أتاه الشَّيطان وندَّمه وخوَّفه بأن يأتي النَّبيُّ ﷺ فلا يجد شرابه فيدعو عليه، فَجَاءَ النَّبيُّ ﷺ فَسَلَّمَ ثمَّ كَشَفَ عَنْ شرابه فَلَمْ يَجِدْ فِيهِ شَيْئًا فَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ، وظنَّ المقداد أنَّه سيَدْعُو عَليه فيَهْلِكُ، فقَالَ: «**اللَّهُمَّ أَطْعِمْ مَنْ أَطْعَمَنِي وَأَسْقِ مَنْ أَسْقَانِي**»، وهذا هو الشَّاهد من الحديث، الدُّعاء لأهل الطَّعام بهذه الدَّعوة العظيمة.

فلمَّا سمع المقداد هذه الدَّعوة أراد أن يفوز بها، وعزم على أن يذبح واحدة من هذه الأعنز ليقدِّمها طعامًا للنَّبيِّ ﷺ، فلمَّا أتاها وجدها حَافِلَةً بالحليب، فأخذ إنَاءً كبيرًا وحَلَب فِيهِ حَتَّى عَلَتْهُ رَغْوَةٌ، فَجاء به إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وقدَّمه له ليشرب فَشَرِبَ، ثُمَّ نَاوَلَه المقداد، فَلَمَّا عَرَفَ المقداد أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدْ رَوِيَ وَأَصَابته دَعْوَتُهُ قصَّ على النَّبيِّ ﷺ خبره، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَا هَذِهِ إِلَّا رَحْمَةٌ مِنَ اللهِ، أَفَلَا كُنْتَ آذَنْتَنِي فَنُوقِظَ صَاحِبَيْنَا فَيُصِيبَانِ مِنْهَا**»، وهذا فيه لطف النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وجميل أخلاقه وحُسن معاملته وجميل صبره، وفي هذه القصَّة معاني تربويَّة إيمانيَّة عظيمة تظهر لمَن تأمَّلها.

الشَّاهد من الحديث هذه الدَّعوة العظيمة الَّتي دعا بها النَّبيُّ ﷺ، وموطنها: إمَّا قبل أن يُؤتى بالطَّعام وقت حاجةٍ إليه، أو شدَّة فيدعو بها لمَن ييسِّر الله الطَّعام على يديه. ومن أهل العلم مَن يرى أنَّه يُدعى بها بعد أن يُقدَّم الطَّعام.

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ بُسْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: **نَزَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى أَبِي، قَالَ: فَقَرَّبْنَا إِلَيْهِ طَعَامًا وَوَطْبَةً فَأَكَلَ مِنْهَا، ثُمَّ أُتِيَ بِتَمْرٍ فَكَانَ يَأْكُلُهُ وَيُلْقِي النَّوَى بَيْنَ إِصْبَعَيْهِ وَيَجْمَعُ السَّبَّابَةَ وَالْوُسْطَى، ثُمَّ أُتِيَ بِشَرَابٍ فَشَرِبَهُ، ثُمَّ نَاوَلَهُ الَّذِي عَنْ يَمِينِهِ، قَالَ: فَقَالَ أَبِي -وَأَخَذَ بِلِجَامِ دَابَّتِهِ- ادْعُ اللهَ لَنَا، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمْ فِي مَا**

رَزَقْتَهُمْ، وَاغْفِرْ لَهُمْ، وَارْحَمْهُمْ». رواه مسلم(١).

الشَّاهد من الحديث: أنَّ ممَّا يُدعى به لأهل الطَّعام؛ أن يُدعى لهم بالبركة فيما رزقهم الله من طعامٍ وغذاءٍ ومال، ويُدعى لهم بمغفرة الذُّنوب والرَّحمة.

قوله: «**فَقَرَّبْنَا إِلَيْهِ طَعَامًا وَوَطْبَةً فَأَكَلَ مِنْهَا**»، الوَطْبَة: هي الْحَيْسُ يُجْمَعُ مِن التَّمْر والأَقِطِ والسَّمْن.

قوله: «**ثُمَّ أُتِيَ بِتَمْرٍ فَكَانَ يَأْكُلُهُ وَيُلْقِي النَّوَى بَيْنَ إِصْبَعَيْهِ وَيَجْمَعُ السَّبَّابَةَ وَالْوُسْطَى**»، أي: يجعله على ظهر الإصبعين ثم يرمي به، ففي رواية الإمام أحمد قال: «**فَكَانَ يَأْكُلُ التَّمْرَ وَيَضَعُ النَّوَى عَلَى ظَهْرِ إِصْبَعَيْهِ، ثُمَّ يَرْمِي بِهِ**»(٢).

قوله: «**ثُمَّ أُتِيَ بِشَرَابٍ فَشَرِبَهُ، ثُمَّ نَاوَلَهُ الَّذِي عَنْ يَمِينِهِ**»، هذا من الآداب المأثورة عنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في تناول الطَّعام.

قوله: «**اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمْ فِي مَا رَزَقْتَهُمْ، وَاغْفِرْ لَهُمْ، وَارْحَمْهُمْ**»، قد جمع في هذا الدُّعاء خيرات الدُّنيا والآخرة، وهو يتناول مَن قدَّم الطَّعام ومَن صنعه ومَن قرَّبه، ومعلوم أنَّ ضيافة الضَّيف وإكرامه يتعاون فيها أهل البيت، فيشملهم كلَّهم هذا الدُّعاء، وخاصَّة المرأة الَّتي جُلُّ الجهد عليها.

وعَنْ أَنَس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ جَاءَ إِلَى سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **فَجَاءَ بِخُبْزٍ وَزَيْتٍ فَأَكَلَ، ثُمَّ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَفْطَرَ عِنْدَكُمُ الصَّائِمُونَ، وَأَكَلَ طَعَامَكُمُ الأَبْرَارُ، وَصَلَّتْ عَلَيْكُمُ الْمَلَائِكَةُ»**. رواه أبو داود وابن ماجه(٣).

قدَّم سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ للنَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هذا الطَّعام: خبزًا وزيتًا، أي: يغمس الخبز بالزَّيت، فأكل النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ثمَّ قال: «**أَفْطَرَ عِنْدَكُمُ الصَّائِمُونَ،**

---

(١) رواه مسلم (٢٠٤٢).
(٢) رواه أحمد (١٧٦٧٥)، وصحَّحه الألبانيُّ في التَّعليقات الحسان (٥٢٧٣).
(٣) رواه أبو داود (٣٨٥٤)، وابن ماجه (١٧٤٧)، وصحَّحه الألبانيُّ.

وَأَكَلَ طَعَامَكُمُ الأَبْرَارُ، وَصَلَّتْ عَلَيْكُمُ الْمَلَائِكَةُ»، فهذا ممَّا يُدعى به لمَن قدَّم طعامًا، يُدعى لهم بهذا الدُّعاء أن يكون بيته ومجلسه والطَّعام الَّذي يقدِّمه من نصيب أهل الفضل، من أهل الصِّيام والأبرار والصَّالحين، وأن يمنَّ الله عليه بصلاة الملائكة عليه، فهذه دعوات عظيمة يُدعى بها لأهل الطَّعام أو لمَن قدَّم طعامًا، وليس مختصًّا بتفطير الصَّائم.

وقد كان من هدي النَّبيِّ ﷺ إذا أكل عند قوم لم يخرج حتَّى يدعو لهم، فدعا في منزل عبد الله بن بسر بقوله: «اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمْ فِيمَا رَزَقْتَهُمْ، وَاغْفِرْ لَهُمْ وَارْحَمْهُمْ»، كما تقدَّم، ودعا في منزل سعد بقوله: «أَفْطَرَ عِنْدَكُمُ الصَّائِمُونَ، وَأَكَلَ طَعَامَكُمُ الْأَبْرَارُ، وَصَلَّتْ عَلَيْكُمُ المَلَائِكَةُ».

وعمومًا فللطَّعام آداب عديدة وردت بها الأحاديث الصِّحاح عن رسول الله ﷺ منها ما هو واجب، ومنها ما هو مستحبٌّ، ويجدر بالمسلم أن يعتني بها عناية عظيمة، ففيها البركة والعافية وخير الدُّنيا والآخرة. وهي آداب متنوِّعة بها يكون الطَّعام أهنأَ للعبد، وأنقى وأطيب وأكمل وأسلم، وهي من محاسن هذه الشَّريعة وكمالها ووفائها بجميع مصالح العباد، يقوم المسلم بامتثالها تقرُّبًا إلى الله سبحانه الَّذي يرضى عن عبده بذلك، فيباركُ له في طعامه ويثيبه على رعايته لهذه الآداب جزيل الثَّواب. قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢]، وقال تعالى: ﴿كُلُواْ مِن رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥۚ﴾ [سبأ: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١]، وقال تعالى: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ﴾ [طه: ٨١].

وكم هو جميلٌ بالمسلم أن يراعي في الطَّعام آدابه وأذكاره؛ ليكون ذلك أبرَكَ له في طعامه وأهنأ وأمرأ.

٩٨

ما ورد في السَّلام

السَّلام من خصال الدِّين العظيمة وآدابه الرَّفيعة، وهو تحيَّة أهل الإيمان وداعية الإخاء والمحبَّة بين المسلمين، وهو تحيَّة مباركة طيِّبة كما وصفها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بذلك، قال تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً﴾ [النُّور: ٦١]، وهو تحيَّة أهل الجنَّة يحييهم بها الملائكة، كما قال تعالى: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزُّمر: ٧٣]، وهو تحيَّة أهل الجنَّة بينهم، كما قال تعالى: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ [يونس: ١٠]، وهو تحيَّة الله لهم، كما قال تعالى: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨]، وهو من فضائل الدِّين العظيمة وخصاله الجليلة، وهو نشرٌ للسَّلام والأخوَّة والطُّمأنينة والألفة والمحبَّة بين المؤمنين.

عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ: أَيُّ الإِسْلَامِ خَيْرٌ؟ قَالَ: «**تُطْعِمُ الطَّعَامَ، وَتَقْرَأُ السَّلَامَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ**». رواه البخاريُّ ومسلم(١).

قوله: «**أَيُّ الإِسْلَامِ خَيْرٌ؟**» فيه دلالةٌ على تفاضل شعب الإيمان وأنَّ بعضها أفضل من بعض، ولهذا قال له: «أَيُّ الإِسْلَامِ خَيْرٌ؟» أي: أيُّ خصاله خيرٌ وأفضل، وفي حديث الشُّعب، قال النَّبيُّ ﷺ: «**الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً؛ فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ**

---

(١) رواه البخاريُّ (١٢)، ومسلم (٣٩).

الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ»، فذكر عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنَّها شعبٌ متفاوته بعضها أفضل من بعض.

قوله: «**تُطْعِمُ الطَّعَامَ**»، أي: تكون سخيَّ النَّفس، تطعم الفقراء والمحتاجين طالبًا بذلك ثواب الله سبحانه وأجره، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان: ٩]. وإذا كان هذا الطَّعام عن حاجة فهو أعظم؛ عن عمَّار بن ياسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «**ثَلَاثٌ مَنْ جَمَعَهُنَّ فَقَدْ جَمَعَ الإِيمَانَ: الإِنْصَافُ مِنْ نَفْسِكَ، وَبَذْلُ السَّلَامِ لِلْعَالَمِ، وَالْإِنْفَاقُ مِنَ الْإِقْتَارِ**». رواه البخاريُّ تعليقًا(١).

قوله: «**وَتَقْرَأُ السَّلَامَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ**»، أي: تسلِّم على كلِّ مسلم، فلا يكون سلامك مقصورًا على مَن تعرف، بل تسلِّم على مَن تلقاه من المسلمين سواء مَن عرفت ومَن لم تعرف.

وقد ثبت عن النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنَّ من أشراط السَّاعة أن يكون السَّلام على المعرفة فقط، عن عبدِ اللهِ بن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يُسَلِّمَ الرَّجُلُ عَلَى الرَّجُلِ لا يُسَلِّمُ عَلَيْهِ إِلَّا لِلْمَعْرِفَةِ**». رواه أحمد(٢).

وإفشاء السَّلام وإلقاؤه على مَن عرف المرء، ومَن لم يعرف مدعاةُ الإخلاص والصِّدق، ومن أمارات نصحه لإخوانه، وحرصه على هذه الشَّعيرة من شعائر الدِّين، وفيه التَّواضع وحُسن الخلق والتَّعامل الكريم، وفيه التَّأسِّي بالنَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ والاهتداء بهديه الكريم، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

(١) رواه البخاريُّ (١/ ١٥).
(٢) رواه أحمد (٣٨٤٨)، وصحَّحه الألبانيُّ في السِّلسلة الصَّحيحة (٦٤٨).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَوَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ**». رواه مسلم[(١)].

الجنَّة دار أهل الإيمان أعدَّها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لعباده المؤمنين، وفي هذا الحديث فضل السَّلام وإفشائه، وأنَّه من أعظم أسباب التَّحابِّ، والتَّحابُّ من أعظم أسباب تمكين الإيمان وتقويته، والإيمان هو سبب دخول الجنَّة.

وقوله: «**وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا**»، فيه أهمِّيَّة نشر التَّحابِّ بين المؤمنين؛ لأنَّهم إن تحابُّوا تعاونوا على البرِّ والتَّقوى، بينما إذا تعادوا أشغلوا أنفسهم عن طاعة الله وعبادته بالخصومات والعداوات والبغضاء والشَّحناء الَّتي تعطِّلهم عن إقامة الدِّين في أنفسهم وعن العمل على نشره بين النَّاس.

قوله: «**أَوَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ**»، فيه أنَّ السَّلام مفتاحٌ للتَّحابِّ والتَّوادِّ، وأنَّ النُّفوس ترتاح وتطمئنُّ لمَن يبادرها بالسَّلام ويسابق إلى إلقائه؛ لكونه سببًا عظيمًا للألفة بين المسلمين ونشر المحبَّة بينهم؛ لأنَّ كلًّا من المتلاقيين يدعو للآخر بالأسباب الجالبة للخير والمبعدة عن الشَّرِّ، فيحدث بينهم سلامةٌ وأمنٌ وراحة، ولهذا جاء في الحديث الآخر أنَّ النَّبيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال: «**أَفْشُوا السَّلَامَ تَسْلَمُوا**» رواه أحمد[(٢)]، ومعنى تسلموا، أي: من موجبات الفرقة والقطيعة؛ فكيف إذا انضمَّ إلى السَّلام حُسن التَّرحيب، وجمال الأخلاق، وبشاشة الوجه وحسن التَّعامل! فهذه كلُّها روافد تزيد من الألفة والمحبَّة، وهذا مطلبٌ شرعيٌّ ينبغي أن يحرص عليه أهل الاسلام حتَّى تزيد الألفة بينهم وتتقوَّى الأخوة الإيمانيَّة والرَّابطة الدِّينيَّة.

---

(١) رواه مسلم (٥٤).

(٢) رواه أحمد (١٨٥٣٠)، وصحَّحه الألبانيُّ في السِّلسلة الصَّحيحة (١٤٩٣).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**خَلَقَ اللهُ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ؛ طُولُهُ سِتُّونَ ذِرَاعًا، فَلَمَّا خَلَقَهُ قَالَ: اذْهَبْ فَسَلِّمْ عَلَى أُولَئِكَ النَّفَرِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ جُلُوسٌ، فَاسْتَمِعْ مَا يُحَيُّونَكَ، فَإِنَّهَا تَحِيَّتُكَ وَتَحِيَّةُ ذُرِّيَّتِكَ، فَقَالَ: «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ»، فَقَالُوا: «السَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللهِ»، فَزَادُوهُ «وَرَحْمَةُ اللهِ»، فَكُلُّ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ، عَلَى صُورَةِ آدَمَ، فَلَمْ يَزَلِ الْخَلْقُ يَنْقُصُ بَعْدُ حَتَّى الْآنَ**». رواه البخاريُّ ومسلم(١).

في هذا الحديث أنَّ السَّلام تحيَّة آدم وذرِّيَّته، فالمحافظ عليه منهم محافظٌ على تحيَّة والده آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَعَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «**السَّلَامُ عَلَيْكُمْ**»، فَرَدَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ثُمَّ جَلَسَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**عَشْرٌ**»، ثُمَّ جَاءَ آخَرُ، فَقَالَ: «**السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ**» فَرَدَّ عَلَيْهِ فَجَلَسَ، فَقَالَ: «**عِشْرُونَ**»، ثُمَّ جَاءَ آخَرُ، فَقَالَ: «**السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ**» فَرَدَّ عَلَيْهِ فَجَلَسَ، فَقَالَ: «**ثَلَاثُونَ**». رواه أبو داود والتِّرمذيُّ(٢).

فيه أنَّ أقلَّ السَّلام أن يقول: «السَّلام عليكم»، فإذا زاد بما ورد زاد الثَّواب؛ لأنَّ «السَّلام عليكم» فيها عشر حسنات، فإذا زاد «ورحمة الله» ففيها عشرون حسنةً، فإذا زاد «وبركاته» ففيها ثلاثون حسنةً، وهذا أكمل ما يكون في السَّلام أن يقول: «**السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ**»، وإنْ اقتصر على «السَّلام عليكم» ففيه كفايةٌ وخير وبركة، والزِّيادة خير وأفضل وأعظم ثوابًا عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

(١) رواه البخاريُّ (٣٣٢٦)، ومسلم (٢٨٤١).
(٢) رواه أبو داود (٥١٩٥)، والتِّرمذيُّ (٢٦٨٩)، وصحَّحه الألبانِيُّ.

وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِاللهِ مَنْ بَدَأَهُمْ بِالسَّلَامِ**». رواه أبو داود[(١)].

وهذا فيه فضل مَن يبدأ بالسَّلام وعظيم ثوابه عند الله سبحانه، وأنَّه أولى النَّاس بالله؛ لأنَّه الأسبق إلى فعل ما يحبُّه الله ويرضاه بين عباده، فمن الخير للمرء أن يكون دائمًا سبَّاقًا بالسَّلام ليفوز بهذه الفضيلة العظيمة والرُّتبة العليَّة.

ومن السُّنَّة أن يُسلِّم الصَّغيرُ على الكبير، والقليلُ على الكثير، والرَّاكب على الماشي، والماشي على القاعد، ففي الصَّحيحين عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**يُسَلِّمُ الرَّاكِبُ عَلَى المَاشِي، وَالمَاشِي عَلَى القَاعِدِ، وَالقَلِيلُ عَلَى الكَثِيرِ**»[(٢)]، وفي رواية للبخاريِّ: «**يُسَلِّمُ الصَّغِيرُ عَلَى الكَبِيرِ، وَالمَارُّ عَلَى القَاعِدِ، وَالقَلِيلُ عَلَى الكَثِيرِ**»[(٣)]. وإذا لَم يُسلِّم مَن يُطلبُ منه ابتداءُ السَّلام فليُسلِّم الآخر ولا يتركوا السُّنَّة.

وَعَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**يُجْزِئُ عَنِ الْجَمَاعَةِ إِذَا مَرُّوا أَنْ يُسَلِّمَ أَحَدُهُمْ، وَيُجْزِئُ عَنِ الْجُلُوسِ أَنْ يَرُدَّ أَحَدُهُمْ**». رواه أبو داود[(٤)].

وهذا فيه أنَّ السَّلام إذا قام به واحد كفى عن الباقين، والرَّدُّ كذلك إذا قام به واحدٌ كفى عن الباقين، وإن سلَّم الجميع وردَّ الجميع فهذا أكمل وأفضل.

وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ بَدَأَ بِالْكَلَامِ قَبْلَ السَّلَامِ فَلَا تُجِيبُوهُ**». رواه ابن السُّنِّيِّ في عمل اليوم واللَّيلة[(٥)].

---

(١) رواه أبو داود (٥١٩٧)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٢) رواه البخاريُّ (٦٢٣٢)، ومسلم (٢١٦٠).
(٣) رواه البخاريُّ (٦٢٣١).
(٤) رواه أبو داود (٥٢١٠)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٥) رواه ابن السُّنِّيِّ في عمل اليوم واللَّيلة (٢١٤)، وحسَّنه الألبانِيُّ في صحيح الجامع (٦١٢٢).

فيه أنَّ السَّلام مقدمٌ وبه يبدأ، وأنَّ مَن لم يبدأ بالسَّلام لا يجاب.

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **أَنَّهُ مَرَّ عَلَى صِبْيَانٍ فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ، وَقَالَ: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَفْعَلُهُ»**. رواه البخاريُّ(١).

وهذا فيه أنَّ من السُّنَّة أن يسلِّم على الصِّبيان؛ إذا مرَّ الكبير على الصَّغير يسلِّم عليه، والتَّسليم على الصَّغير فيه إيناسٌ له، وإدخالٌ للسُّرور على قلبه واهتمامٌ به، وفيه أيضًا تحبيبٌ لهذا الصَّغير إلى أهل الفضل، وفيه أيضًا تدريبه على السَّلام، وتعويده عليه من الصِّغر، وفيه فوائد عظيمة.

وهو سنَّة مأثورة عن نبيِّنا ﷺ وعن السَّلف الصَّالح. روى مسلمٌ في صحيحه عن يسار، قال: «كنتُ أمشِي مع ثابت البُنانِيِّ فمرَّ بصبيان فسلَّم عليهم، وحدَّث ثابتٌ أنَّه كان يَمشي مع أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فمَرَّ بصبيان فسلَّم عليهم، وحدَّث أنسٌ أنَّه كان يَمشي مع رسول الله ﷺ فمَرَّ بصبيان فسلَّم عليهم»(٢).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قال: **«إِذَا انْتَهَى أَحَدُكُمْ إِلَى مَجْلِسٍ فَلْيُسَلِّمْ، فَإِنْ بَدَا لَهُ أَنْ يَجْلِسَ فَلْيَجْلِسْ، ثُمَّ إِذَا قَامَ فَلْيُسَلِّمْ؛ فَلَيْسَتِ الأُولَى بِأَحَقَّ مِنَ الآخِرَةِ»**. رواه أبو داود والتِّرمذيُّ(٣).

وهذا فيه كمال عدل شريعة الإسلام في كلِّ شيء؛ ففي المجالس ليس أوَّل المجلس أحقَّ بالسَّلام من آخره، فكما سلَّمت أوَّل المجلس فمفارقة المجلس كذلك حقيقةٌ أيضًا بالسَّلام.

---

(١) رواه البخاريُّ (٦٢٤٧).
(٢) رواه مسلم (٢١٦٨).
(٣) رواه أبو داود (٥٢٠٨)، والتِّرمذيُّ (٢٧٠٦)، وحسَّنه الألبانِيُّ.

٩٩
ما يُقال عند العطاس

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْعُطَاسَ وَيَكْرَهُ التَّثَاؤُبَ؛ فَإِذَا عَطَسَ فَحَمِدَ اللهَ، فَحَقٌّ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ سَمِعَهُ أَنْ يُشَمِّتَهُ، وَأَمَّا التَّثَاؤُبُ فَإِنَّمَا هُوَ مِنَ الشَّيْطَانِ، فَلْيَرُدَّهُ مَا اسْتَطَاعَ، فَإِذَا قَالَ: «هَا» ضَحِكَ مِنْهُ الشَّيْطَانُ**». رواه البخاريُّ[(١)].

قوله: «**إِنَّ اللهَ يُحِبُّ العُطَاسَ وَيَكْرَهُ التَّثَاؤُبَ**»، يحبُّ سبحانه العطاس لما فيه من النَّفع العظيم، والفائدة الكبيرة الَّتي تحصل للعاطس، فإنَّ العاطس، كما يقول ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «قد حصل له بالعطاس نعمة ومنفعة بخروج الأبخرة المحتقنة في دماغه الَّتي لو بقيت فيه؛ أحدثت له أدواءً عسيرة، ولهذا شُرع له حمد الله على النِّعمة مع بقاء أعضائه على التئامها وهيئتها بعد هذه الزَّلزلة الَّتي حصلت لبدنه»[(٢)].

فالعطاس نعمة من نعم الله على العبد؛ لأنَّ فيه راحةً له، وخروجُ الأذى الَّذي لو بقي في بدنه لأضرَّ به وأضرَّ بدماغه، والله عَزَّوَجَلَّ يحبُّ العطاس لما فيه من النَّفع والخير للعبد، وهذا من فضل الله الغنيِّ الحميد الكريم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فنحمد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على نعمه، ونحمده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على حبِّه ما فيه النَّفع لنا والخير.

---

(١) رواه البخاريُّ (٦٢٢٣).
(٢) انظر: زاد المعاد (٢/ ٤٠٠).

بينما التَّثاؤب فالله جَلَّوَعَلَا لا يحبُّه بل يكرهه، يكره التَّثاؤب؛ لأنَّ التَّثاؤب، كما أخبر نبيُّنا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ من الشَّيطان، ولأنَّ التَّثاؤب في الغالب لا يكون إلَّا مع ثقل البدن وامتلائه، واسترخائه وميله إلى الكسل. والمسلم مطلوبٌ منه أن يتعوَّذ بالله من الكسل، وأن يكون ذا همَّة ونشاط بعيدًا عن الفتور والخمول.

قوله: «**فَإِذَا عَطَسَ فَحَمِدَ اللهَ، فَحَقٌّ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ سَمِعَهُ أَنْ يُشَمِّتَهُ**»، هذا من الآداب العظيمة الَّتي يجدر بالمسلم أن يعتني بها وأن يواظب عليها؛ أنَّ العاطس يحمد الله، ومَن يسمعه يشمِّته، أي: يقول يرحمك الله.

ولنتأمَّل هذا الحُسن والتَّلاحم والتَّرابط الَّذي بين المسلمين، ولا يمكن أن ترى مثله ولا قريبًا منه في أيِّ دين أو مذهب؛ عندما يعطس المسلم حصلت له نعمة، تقدَّم بيانها فيحمد الله سبحانه على هذه النِّعمة، يقول «الحمد لله»؛ فيشرع لمَن كان عنده من إخوانه ورفقائه أن يشمِّتوه بهذا الشَّرط «إذا عطس وحمد الله»، أمَّا إذا عطس ولم يحمد الله لا يشمَّت. وهذا يبيِّن الرَّابطة العظيمة بين المسلمين، أخوك المسلم حصلت له نعمة فحمد الله عليها فتشمِّته بأن تدعو الله له بالرَّحمة؛ لأنَّ استشعاره للنِّعمة، وحمده لله عليها؛ موجب لنيل الرَّحمة فيُدعى له بها، يقال: «يرحمك الله»، ثمَّ لا ينتهي الأمر عند هذا الحدِّ، بل مطلوبٌ منه هو أيضًا أن يقابل الدُّعاء بالدُّعاء، فهم دعوا له بالرَّحمة وهو أيضًا يدعو لهم بالهداية وصلاح الأمر، فهذه رابطة عظيمة أوجدها الإسلام بين أهله.

وليس هذا فقط، بل جُعل تشميت العاطس حقٌّ من حقوق المسلم على إخوانه، كما جاء في الصَّحيح عن نبيِّنا ﷺ أنَّه قال: «**حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ**

سِتٌّ»، وذكر منها: «**وَإِذَا عَطَسَ فَحَمِدَ اللهَ فَشَمِّتْهُ**»[(١)]، والتَّشميت: هو الدُّعاء له كما تقدَّم، قيل: سُمِّي تشميتًا من الشَّوامت وهي القوائم؛ فيكون دعاءً له بالقيام والثَّبات وصلاح العمل، وقيل: إنَّه من الشَّماتة، أي: جنَّبك الله الشَّماتة وما تُشمَّت به، والمراد: الدُّعاء له بما جاء في السُّنَّة أن تقول: «**يَرْحَمُكَ اللهُ**»، وهو حقٌّ للمسلم على أخيه، كما قال ﷺ: «**فَحَقٌّ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ سَمِعَهُ أَنْ يُشَمِّتَهُ**».

قوله: «**وَأَمَّا التَّثَاؤُبُ فَإِنَّمَا هُوَ مِنَ الشَّيْطَانِ، فَلْيَرُدَّهُ مَا اسْتَطَاعَ، فَإِذَا قَالَ: «هَا» ضَحِكَ مِنْهُ الشَّيْطَانُ**»، التَّثاؤُبُ من الشَّيطان وهو في الغالب لا يكون إلَّا مع ثِقل البدن وامتلائه واسترخائه وميله إلى الكسل، والمسلمُ مأمورٌ بكظمه ما استطاع، فقولُه: «**فليكظِم ما استطاع**» هذا يكون بمحاولة منع حصولِ التَّثاؤب، فإن لَم يتمكَّن من ذلك، يحاول إغلاقَ فمه عند حصوله، فإن لَم يتمكَّن من ذلك، وضع يده أو طرف لباسه على فمه.

❒ **والأحوال الَّتي يكون عليها المسلم مع التَّثاؤب هي مراحل:**

الأولى: أن يكون دائمًا على نشاط، ولا يفتح على نفسه الأبواب الَّتي تجلب له الخمول فتجلب له التَّثاؤب.

- **والمرحلة الَّتي تليها:** كظم التَّثاؤب بمحاولة منع حصول التَّثاؤب.
- **فإن لم يتمكَّن من ذلك:** يحاول إغلاق فمه عند حصوله.
- **فإن لم يتمكَّن:** يضع يده أو طرف لباسه على فمه، فلا يكون الفم مفتوحًا هكذا بدون أن يضع عليه شيء يغطِّيه.

ولا يليقُ بالمسلم أن يتثاءب مفتوحَ الفم دون وضع يدِه أو شيءٍ من لباسِه

(١) رواه مسلم (٢١٦٢).

على فيه؛ فإنَّ هذا إضافةٌ إلى ما فيه من قبحٍ في الهيئة والمنظر فإنَّه ذريعةٌ وسبيلٌ لدخول الشَّيطان. فقد روى مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدريِّ قال: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**إِذَا تَثَاءَبَ أَحَدُكُمْ فَلْيُمْسِكْ بِيَدِهِ عَلَى فِيهِ؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَدْخُلُ**»(١)، أو حتى دخول غبار أو ذباب أو نحو ذلك.

والتَّعوُّذ بالله من الشَّيطان عند التثاؤُب لَم يثبت فيه دليلٌ، لكن إن تذكَّر المسلم عند التَّثاؤُب أنَّ ذلك من الشَّيطان وتعوَّذ بالله منه فلا حرج في ذلك ما لَم يتَّخذْه سنَّةً.

قوله: «**فَإِذَا قَالَ: هَا، ضَحِكَ مِنْهُ الشَّيْطَانُ**»، هذه تأتي عندما يشتدُّ التَّثاؤب، ويفتح المرء فمه فيخرج هذا الصَّوت «**هَا**»، وهو أمرٌ يُدخل سرورًا على الشَّيطان وفرحًا، فهي هيئة يحبُّها الشَّيطان ويُسَرُّ بها ولهذا يضحك، وضحكه ناشئ عن سروره بهذا الأمر وفرحه به، والمسلم عندما يستشعر هذا الأمر يحذر، وهذا من نصح النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أن أطلعنا على هذه الحقيقة؛ حتَّى نستعين بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَى ونحفظ أنفسنا بأن نجنِّبها أمرًا يُضحك الشَّيطان ويُفرحه.

وَعَنْ أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِذَا عَطَسَ أَحَدُكُمْ فَلْيَقُلِ: «الْحَمْدُ لِلهِ»، وَلْيَقُلْ لَهُ أَخُوهُ أَوْ صَاحِبُهُ: «يَرْحَمُكَ اللهُ»، فَإِذَا قَالَ لَهُ «يَرْحَمُكَ اللهُ»، فَلْيَقُلْ: يَهْدِيكُمُ اللهُ وَيُصْلِحُ بَالَكُمْ**». رواه البخاريُّ(٢).

قوله: «**وَلْيَقُلْ لَهُ أَخُوهُ**»، قوله: (**أَخُوهُ**) يفيد أنَّ هذا التَّراحم وتبادل الدُّعاء منبعه الأخوَّة الإيمانيَّة؛ فكلَّما قويت هذه الأخوَّة والتَّآخي بين المسلمين جاءت هذه الآثار، وإذا ضعفت الأخوَّة تجد هذا يعطس ويحمد ومَن حوله ما يشعرون به ولا يبالون لأمره.

(١) رواه مسلم (٢٩٩٥).
(٢) رواه البخاريُّ (٦٢٢٤).

قوله: «**وَلْيَقُلْ لَهُ أَخُوهُ أَوْ صَاحِبُهُ: يَرْحَمُكَ اللهُ**»، هذا دعاءٌ له بالرَّحمة.

«**فَإِذَا قَالَ لَهُ: يَرْحَمُكَ اللهُ، فَلْيَقُلْ...**»، أي: المُشمَّت: «**يَهْدِيكُمُ اللهُ وَيُصْلِحُ بَالَكُمْ**»، هذا من كمال الدَّعوات المأثورة عن النَّبيِّ ﷺ، **دعا له بدعوتين:**

١- **دعوةٍ بالهداية:** (**يَهْدِيكُمُ اللهُ**)، أي: لكلِّ ما يحبُّه من سديد الأقوال وصالح الأعمال؛ فهي دعوة للهداية لكلِّ خير ورفعة في الدُّنيا والآخرة. وحذف المتعلِّق ليشمل كلَّ خير.

٢- **ودعوةٍ بصلاح** (**وَيُصْلِحُ بَالَكُمْ**) البال، أي: الشَّأن، ولم يعيِّن شأنًا من الشُّئون بل أطلق، والمفرد إذا أُضيف يعمُّ، ليشمل كلَّ شأنٍ دينيٍّ، أو دنيويٍّ، أو أخرويٍّ.

ثمَّ تشميت العاطس هل يستمرُّ إذا زاد على ثلاث؟ جاءت السُّنَّة بأنَّ ما زاد على الثَّلاث فهو زكام، والزُّكام مرض يُدعى لصاحبه بالشِّفاء والعافية، ففي صحيح مسلم عن سلمة ابن الأكوع أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ وَعَطَسَ رَجُلٌ عِنْدَهُ، فَقَالَ لَهُ «**يَرْحَمُكَ اللهُ**»، ثُمَّ عَطَسَ أُخْرَى، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**الرَّجُلُ مَزْكُومٌ**»[١]، ورواه التِّرمذيُّ، وفيه: «**ثُمَّ عَطَسَ الثَّانِيَةَ والثَّالِثَةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: هَذَا رَجُلٌ مَزْكُومٌ**»[٢]. وفي سنن أبي داود من حديث أبي هريرة مرفوعًا وموقوفًا: «**شَمِّتْ أَخَاكَ ثَلَاثًا فَمَا زَادَ فَهُوَ زُكَامٌ**»[٣].

ولهذا يقول الإمام ابن القيِّم في كتابه الزَّاد: «وقوله في الحديث (الرَّجل مزكوم)، هذا فيه التَّنبيه على الدُّعاء له بالعافية؛ لأنَّ الزَّكمة علَّة، وفيه اعتذار مِن ترك تشميته بعد الثَّلاث، وفيه تنبيه على هذه العلَّة ليتداركها ولا يهملها

(١) رواه مسلم (٢٩٩٣).
(٢) رواه التِّرمذيُّ (٢٧٤٣)، وصحَّحه الألبانِيُّ.
(٣) رواه أبو داود (٥٠٣٤)، وحسَّنه الألبانِيُّ.

فيصعب أمرها، فكلامه ﷺ كلُّه حكمة ورحمة وعلم وهدى»[١].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «**كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا عَطَسَ وَضَعَ يَدَهُ أَوْ ثَوْبَهُ عَلَى فِيهِ، وَخَفَضَ أَوْ غَضَّ بِهَا صَوْتَهُ**»[٢]؛ **فهاتان سنَّتان دلَّ عليهما هذا الحديث:**

الأولى: تغطية الفم والأنف معًا بوضع اليد أو الثَّوب؛ حتَّى لا يتطاير رشاش مِن إثر العطاس، فيمنع الوضعُ من تطاير شيء من ذلك.

والسُّنَّة الثَّانية: غضُّ الصَّوت وخفضه؛ لأنَّه إن ترك العطاس على حاله سيخرج معه صوت عال، وإذا حاول خفضه لا يكون معه صوتٌ مزعج.

وعَنْ أَبِي بُرْدَةَ قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى أَبِي مُوسَى فِي بَيْتِ ابْنَةِ أُمِّ الْفَضْلِ، فَعَطَسْتُ وَلَمْ يُشَمِّتْنِي، وَعَطَسَتْ فَشَمَّتَهَا، فَرَجَعْتُ إِلَى أُمِّي فَأَخْبَرْتُهَا، فَلَمَّا جَاءَهَا، قَالَتْ: عَطَسَ ابْنِي عِنْدَكَ فَلَمْ تُشَمِّتْهُ، وَعَطَسَتْ فَشَمَّتَّهَا! فَقَالَ: إِنَّ ابْنَكِ عَطَسَ فَلَمْ يَحْمَدِ اللهَ تَعَالَى فَلَمْ أُشَمِّتْهُ، وَإِنَّهَا عَطَسَتْ فَحَمَدَتِ اللهَ تَعَالَى فَشَمَّتُّهَا، وَسَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِذَا عَطَسَ أَحَدُكُمْ فَحَمِدَ اللهَ فَشَمِّتُوهُ، وَإِنْ لَمْ يَحْمَدِ اللهَ** عَزَّ وَجَلَّ **فَلَا تُشَمِّتُوهُ**»، فَقَالَتْ: «**أَحْسَنْتَ، أَحْسَنْتَ**». رواه أحمد[٣].

فالَّذي يحصل منه عطاس ويحمد يُشَّمت، والَّذي يحصل منه عطاس ولا يحمد، لا يُشمَّت، لكن إذا كان جاهلًا يُعلَّم السُّنَّة.

(١) انظر: زاد المعاد (٢/ ٤٠٣).
(٢) رواه أبو داود (٥٠٢٩)، وحسَّنه الألبانِيُّ.
(٣) رواه أحمد (١٩٦٩٦)، وصحَّحه الألبانيُّ في السِّلسلة الصَّحيحة (٣٠٩٤).

١٠٠
ذكر النِّكاح والتَّهنئة به والدُّخول بالزَّوجة (١)

النِّكاح يُعدُّ منَّة عظيمة من منن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ على عباده، به يتحقَّق للعباد منافع عظيمة ومصالح متنوِّعة، وهو من هدي المرسلين عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين، كما قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴾ [الرَّعد: ٣٨]، وقد جاء الحثُّ على النِّكاح والتَّرغيب فيه وذكر ثماره في آيات عديدة وأحاديث عن رسول الله ﷺ، وبيان الحقوق المتعلِّقة به من حسن المعاشرة وكفِّ الأذى، ونحو ذلك من الضَّوابط ممَّا يتحقَّق به الحياة الكريمة الطَّيِّبة.

ويُشرع بين يدي عقْد النِّكاح أن يُؤتى بخطبة الحاجة، فقد جاء عن النَّبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ الحثُّ عليها والتَّرغيب فيها، وكان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يقولها بين يدي حاجته وفي خُطبه -صلوات الله وسلامه عليه-.

عَنْ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: عَلَّمَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ خُطْبَةَ الْحَاجَةِ فِي النِّكَاحِ وَغَيْرِهِ: «**الْحَمْدُ لِلهِ نَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ وَنَعُوذُ بِهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، مَنْ يَهْدِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ**: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النِّساء: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم

مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١]». رواه أبو داود والنَّسائيُّ(١).

هذه خطبة عظيمة ومشتملة على معاني جليلة من حسن الثَّناء على الله، والاستعانة به، وطلب المغفرة، والتَّعوُّذ به سبحانه من شرور النَّفس وسيِّئات الأعمال، وعلى الإيمان بالقضاء والقدر، وقد جاءت جامعةً لأبواب الخير، بل يقول شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ عنها: «هي عِقْدُ نظام الإسلام والإيمان»(٢)، أي: أنَّها جامعة لأصول الإيمان وحقائق الإسلام، وجامعةٌ لأبواب الخير وأصول السَّعادة، فهي خُطبة مباركة واستهلالٌ عظيم، جمع أصولًا عظيمة وقواعد متينةً وتأصيلاتٍ نافعةً، ولها أثرها المبارك على المسلم، لاسيَّما إذا كان يقولها متأمِّلًا معناها، محقِّقًا دلالتها من طلب العون والاستعانة والهداية والتَّوفيق وطلب الغفران، إلى غير ذلك من المعاني الجامعة العظيمة الَّتي اشتملت عليها هذه الخطبة.

وقد بُدأت بحمد الله عَزَّوَجَلَّ: «**الحَمْدُ للهِ نَحْمَدُهُ**»، والحمدُ: هو الثَّناء على الله مع حبِّه سبحانه، و«ال» في قوله: «**الحَمْدُ للهِ**» للاستغراق، فهو شاملٌ للمحامد بجميع أنواعها، والله عَزَّوَجَلَّ يُحمد على أسمائه وصفاته، ويُحمد جَلَّوَعَلَا على نعمه وآلائه ومِننه وعطاياه.

قوله: «**وَنَسْتَعِينُهُ**»، أي: نطلب منه العون، كقوله سبحانه: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ٥]، وطلب العون هنا هو لتحقيق مصالح العبد الدِّينيَّة والدُّنيويَّة؛ فالعبد مُفتقرٌ في كلِّ مصالحه الدِّينيَّة والدُّنيويَّة إلى عون الله عَزَّوَجَلَّ،

(١) رواه أبو داود (٢١١٨)، والنَّسائيُّ (١٤٠٤)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٢) انظر: مجموع الفتاوى (١٤/ ٢٢٣).

فكلُّ ذلك لا سبيل إلى تحقيق شيءٍ منه إلَّا بعون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قوله: «**وَنَسْتَغْفِرُهُ**»، أي: نطلب منه سبحانه أن يغفر زلَّاتنا وخطايانا وتقصيرنا، والمغفرة: هي العفو وستر الذُّنوب والصَّفح عنها، والتَّجاوز عن العبد في تقصيره.

قوله: «**وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا**»، أي: الشَّرُّ الَّذِي تدفعه نفسه إليه، والنَّفس فيها شرٌّ وأمَّارةٌ بالسُّوء، والعبد محتاج إلى الاستعاذة بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ من شرِّها.

وفي الجمع بين شرور النَّفس وسيِّئات الأعمال جمعٌ بين منبع العمل ومصدره، وبين الأثر والنَّتيجة، فالشَّرُّ له منبع وله نتيجة؛ فمنبعه شرُّ النَّفس، فالنَّفس لها شرٌّ فتدفع العبد إلى فعل الشَّرِّ وتُحرِّك فيه الشَّرَّ، والنَّتيجة هي سيِّئات الأعمال.

مثله ما جاء في الدُّعاء الَّذي علَّمه النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أبا بكر الصِّدِّيق أن يقوله في الصَّباح وفي المساء وعند النَّوم، قال: «**تَقُولُ: اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّموَاتِ والأَرْضِ، عَالِمَ الغَيْبِ والشَّهَادَةِ، رَبَّ كُلِّ شَيءٍ ومَلِيْكَهُ، أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي، وَمِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ وَشِرْكِهِ، وَأَنْ أَقْتَرِفَ عَلَى نَفْسِي سُوءًا، أَوْ أَجُرَّهُ إِلَى مُسْلِمٍ**»(١)، فجمع بين المنبع وبين الأثر والنَّتيجة.

قوله: «**مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ**»، هذا فيه الإيمان بالقضاء والقدر الَّذي هو نظام التَّوحيد، وأنَّ الأمور كلَّها بقدر الله، وأنَّ الهداية بيده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ﴾ [فاطر: ٨] والآيات في هذا المعنى كثيرة.

---

(١) رواه أبو داود (٥٠٦٧)، والتِّرمذيُّ (٣٥٢٩)، وصحَّحه الألبانِيُّ.

وإيمان العبد بالقدر يُحقِّق له قوَّة الصِّلة بالله، وحُسن الاعتماد عليه في طلب الهداية والوقاية من الضَّلال، وقد كان أكثر دعاء النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ «يا مقلَّب القلوب ثبِّت قلبي على دينك»، عن شَهْرِ بْنِ حَوْشَبٍ قَالَ: قُلْتُ لِأُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ مَا كَانَ أَكْثَرُ دُعَاءِ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِذَا كَانَ عِنْدَكِ؟ قَالَتْ: «**كَانَ أَكْثَرُ دُعَائِهِ: يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ**»، قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ مَا لِأَكْثَرِ دُعَائِكَ يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ؟ قَالَ: «**يَا أُمَّ سَلَمَةَ إِنَّهُ لَيْسَ آدَمِيٌّ إِلَّا وَقَلْبُهُ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللهِ، فَمَنْ شَاءَ أَقَامَ، وَمَنْ شَاءَ أَزَاغَ**». رواه التِّرمذيُّ[(١)].

قوله: «**وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ**»، هذه الشَّهادة لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى بالوحدانيَّة، ومعنى «لا إله إلَّا الله»، أي: لا معبود بحقٍّ إلَّا الله.

قوله: «**وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ** ﷺ» هذا فيه الشَّهادة له ﷺ بالرِّسالة، والله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ [النِّساء: ٦٤]، وعليه فالشَّهادة له ﷺ بالرِّسالة تعني: طاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، والانتهاء عمَّا نهى عنه وزجر.

ثمَّ إنَّه في الاستعانة والاستغفار والاستعاذة ذكرها بالنُّون -نون الجمع- قال: «نَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا»، ولمَّا ذكر الشَّهادة ذكرها بالإفراد، قال: «وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ»، ووجه ذلك: أنَّ الاستعانة والاستغفار والاستعاذة تقبل النِّيابة؛ تستغفر لك ولإخوانك، وتطلب العون لك ولإخوانك، وتطلب العوذ لك ولإخوانك، «اللَّهُمَّ أَعِذْنِي وَذُرِّيَّتِي»، «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ»، «اللَّهُمَّ أَعِنِّي وَإِخْوَانِي الْمُسْلِمِينَ»، فهي تقبل النِّيابة ويتحمَّلها الواحد عن نفسه وعن

---

(١) رواه التِّرمذيُّ (٣٥٢٢)، وصحَّحه الألبانيُّ.

إخوانه. أمَّا الشَّهادة فلا تكون إلَّا من المرء يُخبر بها عن نفسه ويشهد بها لنفسه، ولا تقبل النِّيابة، ولهذا فالشَّهادة لله بالوحدانيَّة وللنَّبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بالرِّسالة جاءت بالإفراد، وأمَّا الاستعانة والاستغفار والاستعاذة جاءت بالجمع.

وقد ذكر النَّبيُّ ﷺ في هذه الخطبة ثلاث آيات عظيمات فيه الحثُّ على تقوى الله عَزَّوَجَلَّ، قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النِّساء: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

ثمَّ إنَّ هذه الخطبة المباركة، كما هو واضح منها؛ فيها تقوية الإيمان والثِّقة بالله، وحُسن التَّوكُّل عليه، وتفويض الأمر إليه، وطلب العون منه والهداية. ومَن يتأمَّل هذه الخُطبة ويفهم معانيها؛ تؤثِّر فيه تأثيرًا بالغًا، حتَّى إنَّها كانت سببًا في إسلام أحد أهل الجاهليَّة، بل وإسلام قومه معه! لمَّا سمع هذه الخُطبة طلب إعادتها فأثَّرت فيه تأثيرًا بالغًا، وكانت سبب إسلامه على الفور.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أَنَّ ضِمَادًا قَدِمَ مَكَّةَ -وَكَانَ مِنْ أَزْدِ شَنُوءَةَ وَكَانَ يَرْقِي مِنْ هَذِهِ الرِّيحِ- فَسَمِعَ سُفَهَاءَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ يَقُولُونَ: إِنَّ مُحَمَّدًا مَجْنُونٌ، فَقَالَ: لَوْ أَنِّي رَأَيْتُ هَذَا الرَّجُلَ لَعَلَّ اللهَ يَشْفِيهِ عَلَى يَدَيَّ، قَالَ: فَلَقِيَهُ، فَقَالَ: «يَا مُحَمَّدُ، إِنِّي أَرْقِي مِنْ هَذِهِ الرِّيحِ وَإِنَّ اللهَ يَشْفِي عَلَى يَدِي مَنْ شَاءَ فَهَلْ لَكَ؟» فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَمَّا بَعْدُ**»، قَالَ فَقَالَ: «**أَعِدْ عَلَيَّ كَلِمَاتِكَ هَؤُلَاءِ**»، فَأَعَادَهُنَّ عَلَيْهِ

رَسُولُ اللهِ ﷺ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، قَالَ فَقَالَ: «**لَقَدْ سَمِعْتُ قَوْلَ الْكَهَنَةِ وَقَوْلَ السَّحَرَةِ وَقَوْلَ الشُّعَرَاءِ؛ فَمَا سَمِعْتُ مِثْلَ كَلِمَاتِكَ هَؤُلَاءِ وَلَقَدْ بَلَغْنَ نَاعُوسَ الْبَحْرِ**»، قَالَ: فَقَالَ: هَاتِ يَدَكَ أُبَايِعْكَ عَلَى الْإِسْلَامِ، فَبَايَعَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**وَعَلَى قَوْمِكَ؟**» قَالَ: «**وَعَلَى قَوْمِي**»، قَالَ فَبَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ سَرِيَّةً فَمَرُّوا بِقَوْمِهِ، فَقَالَ صَاحِبُ السَّرِيَّةِ لِلْجَيْشِ هَلْ أَصَبْتُمْ: مِنْ هَؤُلَاءِ شَيْئًا؟ فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ أَصَبْتُ مِنْهُمْ مِطْهَرَةً، فَقَالَ: «**رُدُّوهَا فَإِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمُ ضِمَادٍ**»(١).

فتأمَّل أثر هذه الكلمات المباركات على هذا الرَّجل حيث كانت سببًا في إسلامه وإسلام قومه، وكثيرًا ما تُسمع هذه الكلمات في الخُطب وتكون ضعيفة الأثر على القلوب! والسَّبب عدم التَّأمُّل في المعاني والدَّلالات والهدايات الَّتي اشتملت عليها هذه الخطبة العظيمة.

(١) رواه مسلم (٨٦٨).

١٠١
ذكر النِّكاح والتَّهنئة به والدُّخول بالزَّوجة (٢)

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَى عَلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ أَثَرَ صُفْرَةٍ، فَقَالَ: «مَا هَذَا؟» قَالَ: «**يَا رَسُولَ اللهِ! إِنِّي تَزَوَّجْتُ امْرَأَةً عَلَى وَزْنِ نَوَاةٍ مِنْ ذَهَبٍ**»، قَالَ: «**فَبَارَكَ اللهُ لَكَ، أَوْلِمْ وَلَوْ بِشَاةٍ**». رواه البخاريُّ ومسلم(١).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا رَفَّأَ الإِنْسَانَ إِذَا تَزَوَّجَ، قَالَ: «**بَارَكَ اللهُ لَكَ، وَبَارَكَ عَلَيْكَ، وَجَمَعَ بَيْنَكُمَا فِي خَيْرٍ**». رواه أبو داود والتِّرمذيُّ(٢).

كان أهل الجاهليَّة يرفِّئون مَن تزوَّج بأن يقولوا له: «بالرِّفاء والبنين»، فنهى النَّبيُّ ﷺ عن ذلك، عَنْ يُونُسَ بْنِ عُبَيْدٍ قَالَ: سَمِعْتُ الْحَسَنَ يَقُولُ: قَدِمَ عَقِيلُ ابْنُ أَبِي طَالِبٍ الْبَصْرَةَ فَتَزَوَّجَ امْرَأَةً مِنْ بَنِي جُشَمٍ، فَقَالُوا لَهُ: بِالرِّفَاءِ وَالْبَنِينَ، فَقَالَ: لَا تَقُولُوا كَذَلِكَ فَإِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ نَهَى عَنْ ذَلِكَ وَأَمَرَنَا أَنْ نَقُولَ: «**بَارَكَ اللهُ لَكَ وَبَارَكَ عَلَيْكَ**». رواه ابن ماجه والنَّسائيُّ والبيهقيُّ في السُّنن الكبرى واللَّفظ له(٣).

---

(١) رواه البخاريُّ (٥١٥٥)، ومسلم (١٤٢٧).
(٢) رواه أبو داود (٢١٣٠)، والتِّرمذيُّ (١٠٩١)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٣) رواه ابن ماجه (١٩٠٦)، والنَّسائيُّ (٣٣٧١)، والبيهقيُّ في الكبرى (١٣٨٤٢)، وصحَّحه الألبانيُّ.

وهذا القول: «**بِالرِّفَاءِ وَالْبَنِينَ**»، أوَّلًا ليس دعاءً كما هو الشَّأن في الدُّعاء بالبركة الَّذي أرشد إليه النَّبيُّ ﷺ، ثمَّ فيها ترسيخٌ لعقيدة شنيعةٍ متغلغلة في أهل الجاهليَّة وهي كراهية البنات، قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [النَّحل: ٥٨]، فهم يبغضون البنات بغضًا شديدًا ويسودُّ وجه الواحد منهم إذا رُزِقَ ببنت، ويبقى في همٍّ عظيم ماذا يصنع بها؛ أيمسكُها على هون وضيق ونكد أم يدسُّها في التُّراب؟وكان شائعًا عندهم وأد البنات، أي: قتلهنَّ وهنَّ أحياء.

وكانوا يقتلون البنات لسببن:

الأوَّل: خوف الفقر، وهذا أحيانًا يشمل حتَّى الذُّكور، والله تعالى يقول: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٣١].

والثَّاني: خوف العار، يخشى أن تكبر البنت وترتكب الفاحشة فيقتلها وهي صغيرة، وكانوا في قتلهم للبنات يرتكبون أشياء لا يمكن تخيُّلها، في جاهليَّةٍ جهلاء، أنقذ الله منها أمَّة الإسلام بهذا الدِّين العظيم المبارك.

قوله: «**كَانَ إِذَا رَفَّأَ الإِنْسَانَ إِذَا تَزَوَّجَ**»، أي: بعد العقد، ومعنى رفَّأ، أي: هنَّأه بمناسبة الزَّواج ودعا له، قال في القاموس: «رَفَّأَهُ تَرْفِئَةً وتَرْفِيئًا: قال له بِالرِّفَاءِ والبَنِينَ، أي: بالالتِئَامِ وجَمْعِ الشَّمْلِ». وكانت هذه ترفئة الجاهليَّة، ثمَّ نهى النَّبيُّ ﷺ عن ذلك وأرشد إلى الدُّعاء المتقدِّم.

قوله: «**بَارَكَ اللهُ لَكَ**»، أي: في هذا الزَّواج وهذه الزَّوجة، وجعلها ناصية خير عليك، وجعل هذا الزَّواج زواجًا مباركًا قائمًا على الخير والفلاح والسَّعادة والصَّلاح.

قوله: «**وَبَارَكَ عَلَيْكَ**»، أي: جعل فيما أعطاك بركةً عليك، ويدخل في ذلك سعة العيش والذُّرِّيَّة الصَّالحة وغيرها من المعاني.

قوله: «**وَجَمَعَ بَيْنَكُمَا فِي خَيْرٍ**»، أي: بينك وبين زوجك في خير، وهذا يتناول كلَّ فلاح وصلاح في الدُّنيا والآخرة. وهذا خير ما يُدعى به لمَن تزوَّج.

وَعَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِذَا تَزَوَّجَ أَحَدُكُمُ امْرَأَةً أَوِ اشْتَرَى خَادِمًا، فَلْيَقُلِ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَيْرَهَا وَخَيْرَ مَا جَبَلْتَهَا عَلَيْهِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا وَمِنْ شَرِّ مَا جَبَلْتَهَا عَلَيْهِ»، وَإِذَا اشْتَرَى بَعِيرًا فَلْيَأْخُذْ بِذِرْوَةِ سَنَامِهِ وَلْيَقُلْ مِثْلَ ذَلِكَ**». رواه أبو داود وابن ماجه[(١)].

هذه الكلمة يقولها الزَّوج أوَّل ما يدخل على زوجته في أوَّل ليلة فيبدأ بهذا الدُّعاء، يسأل الله عَزَّ وَجَلَّ خيرها وخير ما جبلها عليه، أي: ما خلقها وطبعها عليه، ويكون هذا الدُّعاء بعد صلاة ركعتين يبدأ بهما حياته الزَّوجيَّة، ثمَّ يدعو بهذا الدُّعاء المأثور عن النَّبيِّ الكريم.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ مَوْلَى أَبِي أَسَيْد، قال: تَزَوَّجْت وَأَنَا مَمْلُوكٌ، فَدَعَوْتُ نَفَرًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ منهم ابن مَسْعُودٍ، وَأَبُو ذَرٍّ وَحُذَيْفَةُ يُعَلِّمُونَنِي، فَقَالَ: «**إِذَا دَخَلَ عَلَيْك أَهْلُكَ فَصَلِّ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ سَلِ اللهَ مِنْ خَيْرِ مَا دَخَلَ عَلَيْك، ثُمَّ تَعَوَّذْ بِهِ مِنْ شَرِّهِ، ثُمَّ شَأْنُك وَشَأْنُ أَهْلِكَ**». رواه ابن أبي شيبة في مصنَّفه[(٢)].

والإنسان قد يُجبَل على أخلاق كريمة، وقد يكون فيه بعض الأخلاق غيرِ الحميدة، فهو يسأل الله عَزَّ وَجَلَّ من خيرها -أي: هذه المرأة الَّتي تزوَّجها- وخير ما جبلها الله عليه، أي: خَلَقَها وطبعها عليه، ويتعوَّذ به تَبَارَكَ وَتَعَالَى من شرِّها وشرِّ ما جبلها عليه.

---

(١) رواه أبو داود (٢١٦٠)، وابن ماجه (٢٢٥٢)، وحسَّنه الألبانِيُّ.
(٢) رواه ابن أبي شيبة في مصنَّفه (٢٩٧٣٣)، وصحَّحه الألبانيُّ في آداب الزَّفاف (٩٤).

قوله: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَيْرَهَا**»، أي: هذه المرأة، ويشمل الخير: حفظ الفراش، والأمانة في المال، ورعاية حقِّ الزَّوج، وحسن المعاشرة إلى غير ذلك، «**وَخَيْرَ مَا جَبَلْتَهَا عَلَيْهِ**»، أي: من الطِّباع الحسنة والأخلاق المُرضية.

وقوله: «**وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا وَمِنْ شَرِّ مَا جَبَلْتَهَا عَلَيْهِ**»، فيه الاعتصام بالله وحُسن الالتجاء إليه بأن يقيه ممَّا في هذه المرأة من شرورٍ في طبعها، وفي سجيَّتها، وفي معاشرتها، إلى غير ذلك. وهذا يفيد أنَّ صلاح أمر الزَّوجين لا يتحقَّق إلَّا بحسن التجائهما إلى الله سبحانه، وسؤالهما إيَّاه سبحانه التَّوفيق والمعونة والسَّداد. فإذا دعا من أوَّل ليلة بهذه الدَّعوة المباركة بصدقٍ وإخلاص ولاسيَّما بعد الرَّكعتين أجاب الله دعاءه وأكرمه بزوجة لا يكون له منها بإذن الله إلَّا الخير، ولا يأتيه منها الشَّرُّ، والدُّعاء مفتاح كلِّ خير في الدُّنيا والآخرة.

قوله: «**وَإِذَا اشْتَرَى بَعِيرًا فَلْيَأْخُذْ بِذِرْوَةِ سَنَامِهِ وَلْيَقُلْ مِثْلَ ذَلِكَ**»، أي: يضع يده على ذروة سنام البعير، ثمَّ يقول: «اللَّهمَّ إنِّي أسألك من خيره وخير ما جبلته عليه وأعوذ بك من شرِّه وشرِّ ما جبلته عليه».

وكذلك إذا اشترى سيَّارةً يدعو بهذا الدُّعاء؛ لما يُرجى من خيرها ويُخشى من شرِّها، فيقول: «اللَّهمَّ إنِّي أسألك خيرها وأعوذ بك من شرِّها».

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَأْتِيَ أَهْلَهُ، قَالَ: «بِسْمِ اللهِ، اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ، وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا»، فَإِنَّهُ إِنْ يُقَدَّرْ بَيْنَهُمَا وَلَدٌ فِي ذَلِكَ لَمْ يَضُرَّهُ شَيْطَانٌ أَبَدًا**». رواه البخاريُّ ومسلم[١].

هذا له أثرٌ عظيم وفائدة جليلة لمَن يكرمه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالإتيان بهذا

(١) رواه البخاريُّ (٦٣٨٨)، ومسلم (١٤٣٤).

الدُّعاء في كلِّ مرَّة يأتي أهله؛ لأنَّه لا يدري متى يُقدَّر بينهما الولد، فيحتاج الأمر أن يواظب عليه في كلِّ مرَّة، حتَّى يسْلم أوَّلًا من الشَّيطان وحضوره مكانه، وليحصِّن الولد هذا التَّحصين التَّامَّ المستمرَّ الدَّائم.

قوله: «**فَإِنَّهُ إِنْ يُقَدَّرْ بَيْنَهُمَا وَلَدٌ فِي ذَلِكَ لَمْ يَضُرَّهُ شَيْطَانٌ أَبَداً**»، هذه فائدة عظيمة، ولهذا فمِن حقِّ الولد على والده أن يدعو بهذا الدُّعاء قبل أن يُخلَق الولد حتَّى يكون تحصينًا له فلا يضرَّه الشَّيطان أبدًا؛ لأنَّ الشَّيطان -كما في سورة الإسراء- له مشاركة في أموال النَّاس وأولادهم، قال الله تعالى: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ [الإسراء: ٦٤]، فإذا التجأ المسلم إلى الله هذا الالتجاء سلِم الولد بإذن الله من هذه المشاركة ووُقي من شرِّه.

فهذا تحصين له قبل أن يوجد، أمَّا بعد أن يوجد؛ فإنَّه يُحصَّن بالدُّعاء الَّذي جاء في حديث ابن عبَّاس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قال: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُعَوِّذُ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ، وَيَقُولُ: إِنَّ أَبَاكُمَا كَانَ يُعَوِّذُ بِهَا إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ، «**أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّةِ مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لامَّةٍ**». رواه البخاريُّ[(١)].

والمشروع في حقِّ الوالدين أن يداوما على تعويذ مولودهما وصغيرهما ويكون هذا التَّعويذ مستمرًّا إلى أن يُحسِنَ الابن أن يُعوِّذ نفسه، ويعوَّد على الأذكار، فيُعوِّذُ حتَّى يكون هو الَّذي يُعوِّذ نفسه، فهذا من السُّنَّة، وهو من سنن الأنبياء، ولهذا قال النَّبيُّ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «**إِنَّ أَبَاكُمَا** -يعني إبراهيم الخليل عَلَيْهِٱلسَّلَامُ- **كَانَ يُعَوِّذُ بِهَا إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ**».

قوله: «**بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّةِ**»، قيل: القرآن، وقيل: الكلمات الكونيَّة القدريَّة -وهو الأقرب- وهي الَّتي لا يجاوزها بَرٌّ ولا فاجر.

قوله: «**مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ**»، أي: من أذاه ووساوسه. و«**هامَّة**»: يشمل كلَّ

(١) رواه البخاريُّ (٣٣٧١).

مؤذي من الدَّواب والحشرات وذوات السُّموم وغيرها. «وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لَامَّةٍ»، أي: عين حاسد أن تصيب هذا الصَّغير فتُحدث به ضررًا.

ومَن وُلد حديثًا يُعتنى به من حيث تحصينه بالذِّكر والدُّعاء له بالبركة، فيُشرع في حقِّ والديه أن يداوما على تعويذه على ضوء ما ثبتت به السُّنَّة. ويُشرع لغير والديه أن يدعوا له بالبركة، كما كان النَّبيُّ ﷺ يفعل.

عَنْ أَسْمَاءَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّهَا حَمَلَتْ بِعَبْدِالله بْنِ الزُّبَيْرِ، قَالَتْ: «فَخَرَجْتُ وَأَنَا مُتِمٌّ فَأَتَيْتُ الْمَدِينَةَ فَنَزَلْتُ بِقُبَاءٍ فَوَلَدْتُهُ بِقُبَاءٍ، ثُمَّ أَتَيْتُ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ فَوَضَعْتُهُ فِي حَجْرِهِ، ثُمَّ دَعَا بِتَمْرَةٍ فَمَضَغَهَا ثُمَّ تَفَلَ فِي فِيهِ، فَكَانَ أَوَّلَ شَيْءٍ دَخَلَ جَوْفَهُ رِيقُ رَسُولِ الله ﷺ، ثُمَّ حَنَّكَهُ بِتَمْرَةٍ ثُمَّ دَعَا لَهُ وَبَرَّكَ عَلَيْهِ، وَكَانَ أَوَّلَ مَوْلُودٍ وُلِدَ فِي الإِسْلَامِ». رواه البخاريُّ ومسلم[1]، أي: أوَّل مَولودٍ وُلِدَ بالمدِينةِ مِن المهَاجِرين.

وعن حمَّاد بن زيد قال: كان أيُّوب إذا هنَّأ رجلًا بمولود قال: «جَعَلَهُ اللهُ مُبَارَكًا عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ». رواه الطَّبرانِيُّ في الدُّعاء[2].

وهذه دعوة عظيمة مقتبسة من السُّنَّة يحسن الدُّعاء بها عند التَّهنئة بالمولود بدل تكلُّف كلمات قد تكون خاطئة، ففي الدُّعاء للطَّبرانِيِّ عن السَّريِّ بن يحيى أنَّ رجلًا ممَّن كان يجالس الحسن البصريَّ وُلد له ابن فهنَّأه رجل، فقال: «ليهنك الفارس»، فقال الحسن: وما يُدريك أنَّه فارس؟ لعلَّه نجَّار! لعلَّه خيَّاط! قال: فكيف أقول؟ قال: «قل: جَعَلَهُ اللهُ مُبَارَكًا عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ»[3].

وبمناسبة ذكر هذه الدَّعوة فإني أختم بالدُّعاء لكلِّ مسلم رُزق مولودًا أن يجعله الله مباركًا على أهله وعلى أمَّة محمَّد ﷺ.

---

(١) رواه البخاريُّ (٣٩٠٩)، ومسلم (٢١٤٦).
(٢) رواه الطَّبرانِيُّ في الدُّعاء (٩٤٦).
(٣) رواه الطَّبرانِيُّ في الدُّعاء (٩٤٥).

١٠٢
ما يقوله مَن لبس ثوبًا جديدًا

السُّنَّة في حقِّ مَن لبس ثوبًا جديدًا أن يحمد الله الَّذي كساه إيَّاه ويسَّره له، وأن يدعوه سبحانه أن يرزقه خير هذا الكساء ويعيذه من شرِّه.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا اسْتَجَدَّ ثَوْبًا سَمَّاهُ بِاسْمِهِ إِمَّا قَمِيصًا أَوْ عِمَامَةً، ثُمَّ يَقُولُ: «**اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ كَسَوْتَنِيهِ، أَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِهِ وَخَيْرِ مَا صُنِعَ لَهُ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهِ وَشَرِّ مَا صُنِعَ لَهُ**». رواه أبو داود والتِّرمذيُّ[(١)].

قوله: «**إِذَا اسْتَجَدَّ ثَوْبًا**»، أي: لبِسَ ثَوبًا جَديدًا سمَّاه باسمه، أي: يقول: اللَّهمَّ إنِّي أسألك خير هذا الثَّوب، أو خير هذه العمامة، أو خير هذا القميص ونحو ذلك.

قوله: «**اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ كَسَوْتَنِيهِ**»، يستشعر منَّة الله عليه حامدًا له سبحانه أن كساه هذا الثَّوب، وهو من نعم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ [النَّحل: ٨١]، وفي الحديث القدسيِّ: «**كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ**»[(٢)].

قوله: «**أَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِهِ وَخَيْرِ مَا صُنِعَ لَهُ**»، من أعظم خيره أنَّه يستر عورة

---

(١) رواه أبو داود (٤٠٢٠)، والتِّرمذيُّ (١٧٦٧)، وصحَّحه الألبانِيُّ.
(٢) رواه مسلم (٢٥٧٧).

الإنسان ويواري سوءته ويجمِّل هيئته ويحسِّن مظهره، قال الله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ﴾ [الأعراف: ٢٦].

قوله: «وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهِ وَشَرِّ مَا صُنِعَ لَهُ»، من شرِّه أن يُلبس على وجه الأَشَر والكِبر والتَّعالي، ولهذا فإنَّ مَن لا يُزيِّن باطنه بتقوى الله جلَّ وعلا لا تنفعه الزِّينة الظَّاهرة، ولهذا قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ﴾ [الأعراف: ٢٦].

مَا يَقُولُهُ إِذَا رَأَى عَلَى صَاحِبِهِ ثَوْبًا جَدِيدًا.

عَنْ أُمِّ خَالِدٍ بِنْتِ خَالِدِ بْنِ سَعِيدٍ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا قَالَتْ: أَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ مَعَ أَبِي وَعَلَيَّ قَمِيصٌ أَصْفَرُ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «سَنَهْ سَنَهْ»، قَالَ عَبْدُ اللهِ: وَهْيَ بِالْحَبَشِيَّةِ: حَسَنَةٌ. قَالَتْ: فَذَهَبْتُ أَلْعَبُ بِخَاتَمِ النُّبُوَّةِ فَزَبَرَنِي أَبِي، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «دَعْهَا»، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَبْلِي وَأَخْلِفِي، ثُمَّ أَبْلِي وَأَخْلِفِي، ثُمَّ أَبْلِي وَأَخْلِفِي». رواه البخاريُّ(١).

هذا من لطف النَّبيِّ عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ وطيب معاشرته؛ راطنها بالحبشيَّة لأنَّها كانت مع والديها في الحبشة وتعلَّمت قليلًا من لسانهم فآنسها النَّبيُّ ﷺ وقال لها بالحبشيَّة «سَنَه سَنَه»، أي: حسنة حسنة، فمن السُّنَّة إذا لبس الصَّغير ثوبًا جديدًا أن يُلاطَف وأن يُشاد بجمال ثوبه وحُسنه وطيبه، يقال: ثوبك جميل، لباسك حسن، ونحو ذلك؛ ملاطفةً له ومؤانسة.

وجاء في روايةٍ عند الحاكم، قال: «فراطنها بالحبشيَّة»(٢)، أي: أتى بهذه الكلمة مؤنسًا لها؛ لأنَّها عندها بعض الكلمات تعرفها من اللُّغة الحبشيَّة. وهذا أيضًا فيه أنَّ اللَّهجات الدَّارجة عند النَّاس أو اللُّغات، إذا لقيت شخصًا

(١) رواه البخاريُّ (٣٠٧١).
(٢) رواه الحاكم في مستدركه (٥٠٩٠).

فحدَّثته بكلمة أو كلمتين من لغته أو لهجته على سبيل المؤانسة له ترى لها أثرًا عليه.

وجاء في بعض الرِّوايات أنَّ النَّبيَّ ﷺ هو الَّذي كساها ذلك الثَّوب وألبسها إيَّاه، فعَنْ أُمِّ خَالِدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أُتِيَ النَّبِيُّ ﷺ بِثِيَابٍ فِيهَا خَمِيصَةٌ سَوْدَاءُ صَغِيرَةٌ، فَقَالَ: «**مَنْ تَرَوْنَ أَنْ نَكْسُوَ هَذِهِ؟**» فَسَكَتَ الْقَوْمُ، قَالَ: «**ائْتُونِي بِأُمِّ خَالِدٍ**» فَأُتِيَ بِهَا تُحْمَلُ، فَأَخَذَ الْخَمِيصَةَ بِيَدِهِ فَأَلْبَسَهَا، وَقَالَ: «**أَبْلِي وَأَخْلِقِي**»، وَكَانَ فِيهَا عَلَمٌ أَخْضَرُ أَوْ أَصْفَرُ، فَقَالَ: «**يَا أُمَّ خَالِدٍ هَذَا سَنَاهْ**». وَسَنَاهْ بِالْحَبَشِيَّةِ حَسَنٌ. رواه البخاريُّ(١).

قالت: «**فَذَهَبْتُ أَلْعَبُ بِخَاتَمِ النُّبُوَّةِ فَزَبَرَنِي أَبِي**»، أي: زجرني ونهاني.

فقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**دَعْهَا**»، **ثُمَّ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ** -وهذا موضع الشَّاهد-: «**أَبْلِي وَأَخْلِفِي، ثُمَّ أَبْلِي وَأَخْلِفِي، ثُمَّ أَبْلِي وَأَخْلِفِي**»؛ أمْرٌ بالإبلاء، أي: البسي إلى أن يصير خلِقًا باليًا، ثمَّ اكتسي خلَفه بعد بِلائه، والمراد أي: تعيشين عمرًا يبلى فيه الثَّوب ثمَّ تكتسين غيره، ثمَّ أيضًا تُبلينه وتكتسين غيره، ثمَّ ثوبًا آخر تُبلينه وتكتسين غيره، وهذا التَّكرار فيه دعاءٌ لها بطول العمر على خيرٍ وطاعة لله سبحانه. ولهذا عاشت عمرًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وأرضاها.

وعَنْ أَبِي نَضْرَةَ قَالَ: كَانَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ إِذَا لَبِسَ أَحَدُهُمْ ثَوْبًا جَدِيدًا، قِيلَ لَهُ: «**تُبْلِي وَيُخْلِفُ اللهُ تَعَالَى**». رواه أبو داود(٢).

قوله: «**تُبْلِي**» هذا فيه دعاء له بأن يبقيه الله ويبلي الثَّوب ويخلفه الله خيرًا منه، وهذا دعاءٌ له بطول العمر وبالبقاء حتَّى يبلى الثَّوب من طول لُبس صاحبه له، وبعد بلائه يخلفه الله عَزَّوَجَلَّ عنه خيرًا منه.

(١) رواه البخاريُّ (٥٨٢٣).
(٢) رواه أبو داود (٤٠٢٠)، وصحَّحه الألبانيُّ.

هذا وإنَّ من نعم الله العظيمة على عباده نعمة اللِّباس بأنواعه المختلفة وأصنافه العديدة، يقول الله تعالى مذكِّرًا بهذه النِّعمة: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [النَّحل: ٨٠-٨٣]. فبيَّن جَلَّ وَعَلَا في هذه الآيات العظيمة نعمته على عباده؛ بأن جعل لهم سرابيل -وهي القُمصان ونحوُها من ثياب القطن والكتَّان والصُّوف- يتَّقون بها الحرَّ والبرد، ويتجمَّلون بها، ويسترون بها عوراتهم.

فلا ريب أنَّ اللِّباس نعمةٌ عظيمةٌ ومنَّةٌ كبيرةٌ يجب على عبد الله المؤمن أن يقوم بشكرها، وأن يستعملها في طاعة الله ورضوانه وما يقرِّب إليه، وأن يحذر أشدَّ الحذر من مخالفة أمر الله في اللِّباس في صفته ونوعه وشروطه وضوابطه وآدابه الَّتي جاءت بها الشَّريعة.

وليحذر المسلمُ في هذا الباب من كيد الشَّيطان ومكره وطُرقه الخفيَّة لصدِّ الإنسان عن الحقِّ في هذا الباب وإيقاعه في أنواعٍ من المخالفات، فقد بيَّن الله تعالى أنَّ عداوة الشَّيطان للإنسان في هذا الأمر وغيره قديمة، وذكر سبحانه في القرآن احتيال الشَّيطان على الأبوين ووسوسته لهما ليُبدي لهما ما وُوري عنهما من سوآتهما، ودخل عليهما في هذا الأمر من طُرق خفيَّة، وظهر لهما بصورة النَّاصح الأمين، وحلف لهما على ذلك، ودلاَّهما بغرور، أي: أنزلهما عن رتبتهما العليَّة الَّتي هي البعدُ عن المعصية إلى الوقوع فيها.

يقول الله تعالى: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا

هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٩-٢٣].

فتداركهما الله برحمته ومنَّ عليهما بعفوه فغفر لهما ذلك، كما قال سبحانه: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢١-١٢١]، هذا وإبليس مستمرٌّ في طغيانه، غيرُ مقلعٍ عن عصيانه، حريصٌ أشدَّ الحرص على إغواء الذُّرِّيَّة، كما أغوى الأبوين؛ ولهذا اتَّجه الخطاب في هذا السِّياق الكريم إلى الذُّرِّيَّة للحذر من هذا المضلِّ الفتَّان من أن يفتنهم بالوسوسة كما فعل مع الأبوين، قال الله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٦]، فذكَّرهم سبحانه بما منَّ عليهم ويسَّر لهم من اللِّباس الباطن والظَّاهر، فاللِّباس الباطن: هو تقوى الله، وهو يستمرُّ مع العبد ولا يبلى ولا يبيد ما حافظ عليه العبد، وهو جمالٌ للقلب والرُّوح، واللِّباس الظَّاهر: هو الَّذي يستر به المسلم عورتَه ويواري به سوأته ويكون جمالًا للنَّاس.

ثمَّ قال سبحانه بعد تذكيره بهذه النِّعمة موجِّهًا الخطاب للذُّرِّيَّة: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٧]، فحذَّر سبحانه الذُّرِّيَّةَ من أن يفعل بهم الشَّيطان كما فعل بأبيهم بأن يُزيِّن لهم المعصية ويرغِّبهم فيها، وأخبر سبحانه أنَّ هذا العدوَّ

يراهم من حيث لا يرونه، قال مالك بن دينار: «إِنَّ عَدُوًّا يَرَاكَ وَلَا تَرَاهُ لَشَدِيدُ الخُصُومَةِ وَالمؤنَةِ؛ إِلَّا مَنْ عَصَمَ اللهُ»(١).

وإذا كان هذا العدوُّ قد تمكَّن ببالغ كيده وتوالي وسوسته أن يُخرج الأبوين من الجنَّة؛ فلأن يتمكَّن من إيصال شيء من هذه الوساوس إلى الذُّرِّيَّة من باب أولى.

وبهذه اللَّفتة القويَّة حذَّر تعالى بني آدم منه بالاحتراز الدَّائم من كيده ووسوسته، وختم سبحانه الآية بقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾، أمَّا المؤمنون فليس له سلطان عليهم: ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ [النَّحل: ١٠٠]، ولهذا فبِقدر ضعف الإيمان في الإنسان يكون نفوذُ الشَّيطان إليه.

ثمَّ إنَّه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ خاطب بني آدم خطابًا آخر في هذا السِّياق، له تعلُّقٌ باللِّباس، فقال سبحانه: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١]. ولهذه الآية وما ورد في معناها من السُّنَّة يُستحبُّ التَّجمُّلُ عند الصَّلاة، ولا سيَّما يوم الجمعة ويوم العيد، والطِّيبُ؛ لأنَّه من الزِّينة، والسِّواكُ؛ لأنَّه من تمام ذلك.

(١) ذكره البغويُّ في تفسيره (٣/ ٢٢٣).

١٠٣
كفَّارة المجلس

الأصل في المجالس أن تُحفظ وتُصان من اللَّغط والكلام السَّيِّء والقول الباطل والهُجْر من القول، وأن يَحرص المرء على عمارتها بالكلام المفيد والقول الطَّيِّب، وعلى سلامتها من كلِّ ما لا يليق، وعليه في كلِّ مجلس أن يتذكَّر أنَّ مجالسه وكلماته مسطَّرةٌ في صحائف أعماله، وأنَّ الله سبحانه سوف يحاسبه على ما يقول؛ إن خيراً فخير، وإن شرَّاً فشرٌّ، قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزَّلزلة: ٧-٨]، وقال تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١]. والقول السَّديد يؤثِّر في حياة المرء صلاحًا في العمل وغفرانًا للذُّنوب، بخلاف القول السَّيِّء.

ولو أنَّ قومًا جلسوا مجلسًا ذكروا فيه الإيمان وطاعة الرَّحمن؛ لقاموا منه برغبةٍ في الطَّاعة وحرص على الخير، ولو جلسوا مجلسًا كثر فيه السُّوء والمأثم؛ لنهضوا منه بعزيمة على الَّذي كان حديثَ مجلسهم؛ لأنَّ الشَّرَّ لا يولِّد خيرًا ولا يُجنى من الشَّوك العنب.

والمسلم مطلوب منه في مجالسه أن يتحرَّز فيها من اللَّغط، لكنَّ العبد مهما اجتهد في ذلك، فلا بدَّ أن يبدُرَ منه التَّقصير، ولو لم يكن في ذلك إلَّا أنَّه فوَّت على نفسه في مجلسه هذا شيئًا من الخير لمَّا اشتغل بالمباح عن المستحبِّ،

فكيف إذا كان كثيرٌ من المجالس لا تخلو من اللَّغط! فشُرع للمسلم كلمات تكون كفَّارةً له لما كان في مجلسه ذلك.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ جَلَسَ فِي مَجْلِسٍ فَكَثُرَ فِيهِ لَغَطُهُ، فَقَالَ -قَبْلَ أَنْ يَقُومَ مِنْ مَجْلِسِهِ ذَلِكَ-: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ»؛ إِلَّا غُفِرَ لَهُ مَا كَانَ فِي مَجْلِسِهِ ذَلِكَ**». رواه التِّرمذيُّ[(١)].

ﷺ وينبغي أن يُعلم هنا أنَّ ما يقع في مجالس النَّاس من خطأ وذنب بسبب آفات اللِّسان على قسمين:

الأوَّل: الكبائر، مثل: الغِيبة، والنَّميمة، والسُّخرية، واللَّعن، والشَّتم، والوقيعة في الأعراض. فلا يقول القائل: إنَّ هذا الحديث يدلُّ على أنَّ الإنسان يجلس في مجلسه ويغتاب مَن أراد، وينُمُّ ويهزأ ويسخر، ويقول الحرام والآثام، ثمَّ يقول: «أختم مجلسي بهذا التَّسبيح ويُغفر ما كان»؛ فالكبائر لا بدَّ فيها من توبةٍ، وإذا كانت آثارُها متعدِّية، فلا بدَّ من محو ذلك الأثر، فإذا كان مثلًا نمَّ فأوقع عداوةً بين اثنين، أو اغتاب فشحن الصُّدور على أحد المسلمين، فلا يكفي في ذلك أن يقول: «آتي بهذا الذِّكر في خاتمة المجلس ويكون كفَّارة لما كان فيه»، فالكبائر لابدَّ فيها من توبة إلى الله تعالى من تلك الذُّنوب، ولابد من إصلاح ما أفسد.

الثَّاني: صِغار الذُّنوب واللَّمم، ممَّا لا يتعدَّى بأثره على الغير، فهذا يُكفِّره هذا الذِّكر عند القيام من المجلس.

والحاصل أنَّ العبد يجب عليه أن يصون مجالسه من المعاصي والآثام، وأن يحرص على ختمها بهذا الذِّكر المبارك العظيم المأثور عن النَّبيِّ ﷺ.

---

(١) رواه التِّرمذيُّ (٣٤٣٣)، وصحَّحه الألبانِيُّ.

قوله: «**فَقَالَ قَبْلَ أَنْ يَقُومَ مِنْ مَجْلِسِهِ ذَلِكَ**»، يدلُّ على الحرص على أن يقولها في المجلس نفسه قبل أن يقوم منه، بحيث تكون خاتمة المجلس.

ولا يختصُّ هذا الذِّكر بختم المجلس الَّذي كثر فيه اللَّغط، بل يتناول كلَّ مجلس، حتَّى مجالس الذِّكر؛ لما صحَّ من حديث جبير بن مطعم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ، فَقَالَهَا فِي مَجْلِسِ ذِكْرٍ؛ كَانَتْ كَالطَّابَعِ يُطْبَعُ عَلَيْهِ، وَمَنْ قَالَهَا فِي مَجْلِسِ لَغْوٍ كَانَتْ كَفَّارَتَهُ**». رواه النَّسائيُّ(١).

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: إنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ إِذَا جَلَسَ مَجْلِسًا أَوْ صَلَّى تَكَلَّمَ بِكَلِمَاتٍ، فَسَأَلَتْهُ عَائِشَةُ عَنِ الْكَلِمَاتِ، فَقَالَ: «**إِنْ تَكَلَّمَ بِخَيْرٍ كَانَ طَابِعًا عَلَيْهِنَّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَإِنْ تَكَلَّمَ بِغَيْرِ ذَلِكَ كَانَ كَفَّارَةً له؛ «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ**». رواه النَّسائيُّ(٢).

قوله: «**سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ**»، جمَع ثلاث كلمات من الكلمات الأربع الَّتي هي أحبُّ الكلام إلى الله: «التَّسبيح»، و«التَّحميد»، و«التَّهليل». ثمَّ أتبع ذلك بالاستغفار: «**أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ**»، أي: أطلب منك يا الله أن تغفر لي وتتوب عليَّ.

قوله: «**إِلَّا غُفِرَ لَهُ مَا كَانَ فِي مَجْلِسِهِ ذَلِكَ**»، أي: من الصَّغائر، أمَّا الكبائر فقد دلَّت عموم النُّصوص أنَّه لا بدَّ فيها من توبة، قال تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النِّساء: ٣١]، وقال ﷺ: «**الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمعَةُ إِلَى الْجُمعَةِ، كَفَّارَةٌ لِمَا**

(١) رواه النَّسائيُّ في الكبرى (١٠١٨٥)، وصحَّحه الألبانِيُّ في صحيح الجامع (٦٤٣٠).
(٢) رواه النَّسائيُّ (١٣٤٤)، وصحَّحه الألبانيُّ.

بَيْنَهُنَّ، مَا لَمْ تُغْشَ الْكَبَائِرُ»[(١)]، ومعلوم أنَّ الصَّلوات الخمس أعظم من قولِ: «**سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ**»، بل جميع هذه الكلمات موجودة في الصَّلاة: التَّسبيح، والتَّكبير، والتَّهليل، والاستغفار. ومع هذا قال ﷺ: «**مَا لَمْ تُغْشَ الْكَبَائِرُ**».

وإذا كان المجلس فيه كلام في أعراض المسلمين -غِيبة ونميمة وسخرية ونحو ذلك- فهذه حقوق للعباد؛ لا يكفي فيها هذا الذِّكر أن يقوله المرء ويظنَّ بذلك أنَّ هذه الحقوق سقطت! فهي لا تسقط إلَّا بالعفو والمسامحة منهم.

هذا وقد استنبط بعض أهل العلم الدَّليل على هذه الكفَّارة الَّتي تُستحبُّ في نهاية المجلس من قول الله سبحانه في آخر سورة الطُّور: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ [الطُّور: ٤٨]. قال ابن عبد البرِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ورُوي عن جماعة من أهل العلم بتأويل القرآن في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾، منهم مجاهد وأبو الأحوص ويحيى بن جعدة، قالوا: حين تقوم من كلِّ مجلس تقول: سُبْحانكَ اللَّهُمَّ وبحَمْدكَ أستغفِركَ وأَتُوبُ إليك، قالوا: ومَن قالَها غُفر له ما كان منه في المجلس، وقال عطاء: إن كنتَ أحسنتَ ازددتَ إحسانًا، وإن كان غير ذلك كان كفَّارةً لك»[(٢)].

وَعَنْ أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**مَا مِنْ قَوْمٍ يَقُومُونَ مِنْ مَجْلِسٍ لَا يَذْكُرُونَ اللهَ فِيهِ إِلَّا قَامُوا عَنْ مِثْلِ جِيفَةِ حِمَارٍ، وَكَانَ لَهُمْ حَسْرَةً**». رواه أبو داود[(٣)].

الأصل في المجالس أن يكون فيها نصيبٌ من ذكر الله، ولهذا جاء في هذا

---

(١) رواه مسلم (٢٣٣).
(٢) انظر: بهجة المجالس (ص٥).
(٣) رواه أبو داود (٤٨٥٥)، وصحَّحه الألبانيُّ.

الحديث أنَّ مَن قاموا من مجلس لم يذكروا اسم الله فيه إلَّا كان ندامةً عليهم يوم القيامة.

قوله: «**إِلَّا قَامُوا عَنْ مِثْلِ جِيفَةِ حِمَارٍ**»، من المعلوم أنَّ الَّذين يقومون عن مجلسٍ فيه جيفة حمار لا يُحصِّلون في مجلسهم ذلك إلَّا الرَّوائح الكريهة والمنظر القبيح، ولا يقومون إلَّا بندامة من جلوسهم في ذلك المجلس، آذتهم تلك الرَّائحة وآذاهم ذلك المنظر.

وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَلَّمَا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُومُ مِنْ مَجْلِسٍ حَتَّى يَدْعُوَ بِهَؤُلَاءِ الدَّعَوَاتِ لأَصْحَابِهِ: «**اللَّهُمَّ اقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا يَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعَاصِيكَ، وَمِنْ طَاعَتِكَ مَا تُبَلِّغُنَا بِهِ جَنَّتَكَ، وَمِنَ الْيَقِينِ مَا تُهَوِّنُ بِهِ عَلَيْنَا مُصِيبَاتِ الدُّنْيَا، وَمَتِّعْنَا بِأَسْمَاعِنَا وَأَبْصَارِنَا وَقُوَّتِنَا مَا أَحْيَيْتَنَا، وَاجْعَلْهُ الْوَارِثَ مِنَّا، وَاجْعَلْ ثَأْرَنَا عَلَى مَنْ ظَلَمَنَا، وَانْصُرْنَا عَلَى مَنْ عَادَانَا، وَلَا تَجْعَلْ مُصِيبَتَنَا فِي دِينِنَا، وَلَا تَجْعَلِ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّنَا، وَلَا مَبْلَغَ عِلْمِنَا، وَلَا تُسَلِّطْ عَلَيْنَا مَنْ لَا يَرْحَمُنَا**». رواه التِّرمذيُّ[(١)].

هذه دعواتٌ عظيمات جمعت خيري الدُّنيا والآخرة كان النَّبيُّ ﷺ يختم بها مجالسه.

قوله: «**اللَّهُمَّ اقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ**»، أي: مُنَّ علينا بخشية منك تكون حاجزًا وحائلًا بيننا وبين فعل المعاصي.

قوله: «**وَمِنْ طَاعَتِكَ مَا تُبَلِّغُنَا بِهِ جَنَّتَكَ**»، فيه أنَّ الجنَّة لا يبلغها العبد إلَّا بطاعة الله.

قوله: «**وَمِنَ اليَقِينِ مَا تُهَوِّنُ بِهِ عَلَيْنَا مَصَائِبَ الدُّنْيَا**»، أي: اجعل في قلوبنا

(١) رواه التِّرمذيُّ (٣٥٠٢)، وصحَّحه الألبانِيُّ.

يقينًا بك، وإذا وُجد في العبد هذا اليقين هانت عليه المصيبة، وإذا عدم أو ضعُف في العبد اليقين عظمت مصيبته.

قوله: «**اللَّهُمَّ مَتِّعْنَا بِأَسْمَاعِنَا وَأَبْصَارِنَا وَقُوَّتِنَا مَا أَحْيَيْتَنَا**»، أي: بحيث يبقى له سمعه ويبقى له بصره وتبقى له قوّته إلى أن يتوفَّاه الله. ومن التَّمتيع بالسَّمع: أن يحافظ المرء على سمعه فلا يسمع إلَّا ما أحلَّه الله، ومن التَّمتيع بالبصر: أن لا يستعمله إلَّا بما أحلَّه الله، ومن التَّمتيع بالقوَّة: أن لا يستعملها إلَّا في طاعة الله.

قوله: «**وَاجْعَلْهُ الوَارِثَ مِنَّا**»، أي: أن تبقى هذه الأشياء السَّمع والبصر والقوَّة صحيحةً إلى أن يموت العبد.

قوله: «**وَاجْعَلْ ثَأْرَنَا عَلَى مَنْ ظَلَمَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى مَنْ عَادَانَا**»، أي: اثأر لنا ممَّن ظلمنا، وانصرنا على الأعداء.

قوله: «**وَلَا تَجْعَلْ مُصِيبَتَنَا فِي دِينِنَا**»؛ لأنَّ المصيبة في الدِّين أعظم المصائب.

قوله: «**وَلَا تَجْعَلِ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّنَا**»، يعني: لا تجعل الدُّنيا أكبر همٍّ لنا، ولا بأس أن يهتمَّ الإنسان في طلب الرِّزق والمعاش له ولأولاده؛ لكن دون أن يكون أكبر همِّه.

قوله: «**وَلَا مَبْلَغَ عِلْمِنَا**»، أي: فلا تكون الدُّنيا هي مبلغ علم العبد؛ وإنَّما مبلغُ علمه وموطنُ عظيمِ عنايته العلم بالله وبأسمائه وصفاته ودينه وشرعه وما يُقرِّب إليه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

قوله: «**وَلَا تُسَلِّطْ عَلَيْنَا مَنْ لَا يَرْحَمُنَا**»، أي: من الأعداء والخصوم.

١٠٣
ما يُقال عند الغضب

﴿ **الغضب:** هو غليان دم القلب وازدياد خفقانه طلبًا لدفع أمرٍ مؤذٍ يتوقَّع الإنسان حصوله، أو طلب الانتقام ممَّن حصل منه الأذى، ويفضي في الغالب بالإنسان إلى أقوالٍ سيِّئة وإلى أفعالٍ شنيعة، وخاصَّة عند اشتداده، فلا يملك كثير من النَّاس زمام نفسه حينئذ؛ فينطلق اللِّسان بالسَّبِّ والفحش والبذاء، وتنطلق الجوارح بالبطش والضَّرب والعدوان. وهو من الخصال الذَّميمة الَّتي جاء الإسلام بالنَّهي عنها.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ أَوْصِنِي، قَالَ: «**لَا تَغْضَبْ**»، فَرَدَّدَ مِرَارًا قَالَ «**لَا تَغْضَبْ**». رواه البخاريُّ[(١)].

وعَنْ حُمَيْدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَوْصِنِي؟ قَالَ: «**لَا تَغْضَبْ**»، قَالَ: قَالَ الرَّجُلُ: «**فَفَكَّرْتُ حِينَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ مَا قَالَ، فَإِذَا الْغَضَبُ يَجْمَعُ الشَّرَّ كُلَّهُ**». رواه أحمد[(٢)].

وتأمَّل ما يجنيه الغضب على المرء من تصرُّفاتٍ هوجاء، وأعمالٍ شنيعة، وأقوالٍ بذيئة يندم المرء على فعلها غاية النَّدم عند ذهاب غضبه عنه، لأنَّه حال غضبه يتصرَّف تصرُّفًا يشبه فيه تصرُّف من به جنون، ثمَّ بعد انتهاء غضبه يندم،

---

(١) رواه البخاريُّ (٦١١٦).

(٢) رواه أحمد (٢٣١٧١)، وصحَّحه الالبانيُّ في صحيح التَّرغيب والتَّرهيب (٢٧٤٦).

ولهذا قيل -في وصف الغضب-: «أَوَّلُهُ جُنُونٌ، وَآخِرُهُ نَدَمٌ»[(١)].

وقول الصَّحابيِّ: «**فَفَكَّرْتُ حِينَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ مَا قَالَ، فَإِذَا الْغَضَبُ يَجْمَعُ الشَّرَّ كُلَّهُ**»؛ يفيد أنَّ الغضب جماع الشَّرِّ، قال جعفر بن محمَّد: «**الغَضَبُ مِفْتَاحُ كُلِّ شَرٍّ**». وقيل -لابن المبارك-: اجمع لنا حسن الخلق في كلمة، قال: «**تَرْكُ الغَضَبِ**»[(٢)]. ولهذا تُعدُّ هذه الوصيَّة: «**لَا تَغْضَبْ**» من جماع الوصايا وأنفعها في باب الأخلاق.

قال أهل العلم: وهذا يتضمَّن الوصيَّة بأمرين عظيمين لابدَّ منهما:

الأوَّل: أن يدرِّب المسلم نفسه على الأخلاق الفاضلة والآداب الحسنة من الصَّبر، والحلم، والأناة، والبعد عن العجلة إلى غير ذلك من الأخلاق، بحيث إذا ورد عليه وارد الغضب تلقَّاه بجميل خُلقه وعظيم أدبه وحُسن حلمه وطيب صبره.

والأمر الثَّاني: أنَّه عند وقوع الغضب؛ عليه أن يملك نفسه، فلا يندفع وقت غضبه إلى قولٍ لا يُحمد أو فعلٍ لا يليق، بل عليه أن يملك نفسه في أقواله وأفعاله عند غضبه، فلا يقول كلمةً ولا يفعل شيئًا حتَّى تنطفأ جمرة الغضب.

قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فقوله ﷺ لمَن استوصاه: «لَا تَغْضَبْ» **يحتمل أمرين:**

أحدهما: أن يكون مراده الأمر بالأسباب الَّتي توجب حسن الخلق من الكرم والسَّخاء، والحلم، والحياء والتواضع، والاحتمال وكفِّ الأذى، والصَّفح والعفو، وكظم الغيظ، والطَّلاقة والبِشر، ونحو ذلك من الأخلاق

(١) انظر: المنهج المسلوك في سياسة الملوك (ص٤٠٤).
(٢) ذكره ابن رجب في جامع العلوم والحكم (١/ ٣٦٣).

الجميلة؛ فإنَّ النَّفس إذا تخلَّقت بهذه الأخلاق وصارت لها عادة، أوجب لها ذلك دفع الغضب عند حصول أسبابه.

والثَّاني: أن يكون المراد: لا تَعمل بمقتضى الغضب إذا حصل لك، بل جاهد نفسك على ترك تنفيذه والعمل بما يأمر به، فإنَّ الغضب إذا ملك ابن آدم كان كالآمِرِ والنَّاهي له، ولهذا المعنى قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ﴾ [الأعراف: ١٥٤]، فإذا لم يمتثل الإنسان ما يأمره به غضبه وجاهد نفسه على ذلك، اندفع عنه شرُّ الغضب، وربَّما سكن غضبه وذهب عاجلًا، فكأنَّه حينئذ لم يغضب، وإلى هذا المعنى وقعت الإشارة في القرآن بقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ﴾ [الشُّورى: ٣٧]، وبقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]»[(١)].

وعليه في هذا المقام أن يتعوَّذ بالله من الشَّيطان الرَّجيم؛ لأنَّ الشَّيطان له نزغٌ عجيب ودخولٌ على الإنسان وقت غضبه يدفعه إلى الأفعال الشَّنيعة والأقوال الفظيعة؛ لأنَّ الغضب من نزغ الشَّيطان، والله يقول: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ﴾ [فصِّلت: ٣٦]؛ فمَن حصل له الغضب ينبغي له أن يبادر إلى الاستعاذة بالله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ من الشَّيطان؛ لأنَّ الشَّيطان يتمكَّن من الإنسان حال الغضب تمكُّنًا عجيبًا فيدفعه إلى السَّبِّ والأذى والظُّلم والبغي، فإذا استعاذ المسلم بالله حُفظ ووُقي وكُفي بإذن الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ صُرَدٍ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ قَالَ: اسْتَبَّ رَجُلَانِ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ وَنَحْنُ عِنْدَهُ جُلُوسٌ، وَأَحَدُهُمَا يَسُبُّ صَاحِبَهُ مُغْضَبًا قَدِ احْمَرَّ وَجْهُهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنِّي لَأَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ، لَوْ قَالَ: أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ**

(١) انظر: جامع العلوم والحكم (١/ ٣٦٣).

الرَّجِيمِ»، فَقَالُوا لِلرَّجُلِ: أَلَا تَسْمَعُ مَا يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ؟ قَالَ: «إِنِّي لَسْتُ بِمَجْنُونٍ». رواه البخاريُّ ومسلم(١).

فالمسلم ينبغي عليه عند الغضب أن يبادر للاستعاذة بالله من الشَّيطان الرَّجيم، وعليه أيضًا أن لا يتكلَّم بغير الاستعاذة؛ يستعيذ ويكتفي بها حتَّى يهدأ ويسكن غضبه.

قال النَّوويُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فِيهِ أَنَّ الْغَضَبَ فِي غَيْرِ اللهِ تَعَالَى مِنْ نَزْغِ الشَّيْطَانِ وَأَنَّهُ يَنْبَغِي لِصَاحِبِ الْغَضَبِ أَنْ يَسْتَعِيذَ، فَيَقُولَ: أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، وَأَنَّهُ سَبَبٌ لِزَوَالِ الْغَضَبِ. وَأَمَّا قَوْلُ هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي اشْتَدَّ غَضَبُهُ: هَلْ تَرَى بِي مِنْ جُنُونٍ؟ فَهُوَ كَلَامُ مَنْ لَمْ يُفَقَّهْ فِي دِينِ اللهِ تَعَالَى وَلَمْ يَتَهَذَّبْ بِأَنْوَارِ الشَّرِيعَةِ الْمُكَرَّمَةِ، وَتَوَهَّمَ أَنَّ الِاسْتِعَاذَةَ مُخْتَصَّةٌ بِالْمَجْنُونِ، وَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ الْغَضَبَ مِنْ نَزَغَاتِ الشَّيْطَانِ؛ وَلِهَذَا يَخْرُجُ بِهِ الْإِنْسَانُ عَنِ اعْتِدَالِ حَالِهِ وَيَتَكَلَّمُ بِالْبَاطِلِ وَيَفْعَلُ الْمَذْمُومَ وَيَنْوِي الْحِقْدَ وَالْبُغْضَ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْقَبَائِحِ الْمُتَرَتِّبَةِ عَلَى الْغَضَبِ، وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ -لِلَّذِي قَالَ لَهُ أَوْصِنِي-: لَا تَغْضَبْ، فَرَدَّدَ مِرَارًا، قَالَ: لَا تَغْضَبْ. فَلَمْ يَزِدْهُ فِي الْوَصِيَّةِ عَلَى لَا تَغْضَبْ مَعَ تَكْرَارِهِ الطَّلَبَ، وَهَذَا دَلِيلٌ ظَاهِرٌ فِي عِظَمِ مَفْسَدَةِ الْغَضَبِ وَمَا يَنْشَأُ مِنْهُ»(٢).

والكلام وقت الغضب لا يكون منضبطًا، ولهذا أرشد النَّبيُّ ﷺ الغضبان إلى السُّكوت وقت الغضب، وأيضًا أرشده إن كان قائمًا أن يجلس، وإن كان جالسًا أن يضطجع؛ لأنَّه إذا تباعد بالجلوس أو الاضطجاع فإنَّه بإذن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يسْلم.

(١) رواه البخاريُّ (٦١١٥)، ومسلم (٢٦١٠).
(٢) انظر: شرح النَّوويِّ على مسلم (١٦/ ١٦٣).

ﮚ وقد وجَّه النَّبيُّ ﷺ إلى هذين الأمرين العظيمين، وعلى المسلم أن يتحلَّى بهما حال غضبه:

- **أمَّا الأوَّل:** ففي المسند للإمام أحمد عن ابن عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**إِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْكُتْ**»(١)، أي: يمنع نفسه من الكلام حال الغضب؛ لأنَّه إن تكلَّم وهو غضبان سيتكلَّم بما لا يَحمد عاقبته، لأنَّه وقت الغضب قد يقول كلامًا سيِّئًا من لعنٍ وشتم وبذاء، فعليه أن يمسك عن الكلام فلا يتكلَّم ولا بكلمة واحدة حال غضبه؛ لأنَّه في تلك الحال لا يدرك ما يقول ولا يعي ما يتكلَّم به، فإذا امتنع عن الكلام حتَّى تهدأ جمرة الغضب وتطفأ شدَّته فحينئذ سيكون الكلام سديدًا وتكون العاقبة حميدة.

وأمَّا الثَّاني: ففي المسند وأبي داود عن أبي ذرٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**إِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ وَهُوَ قَائِمٌ فَلْيَجْلِسْ، فَإِنْ ذَهَبَ عَنْهُ الْغَضَبُ وَإِلَّا فَلْيَضْطَجِعْ**»(٢)، فعندما يكون الإنسان في شدَّة غضبه وهو قائم، ومَن أغضبه أمامه قريبًا منه، ربَّما لا يملك نفسه من الإضرار به، فإذا تباعد عنه بالجلوس سكن غضبه، وإن احتاج إلى أن يضطجع فعَل؛ فإنَّه أكثرُ سكونًا وأهدأُ للنَّفس.

والحاصل أنَّ الغضبان حال الغضب لا ينبغي له أن يتصرَّف بما يملي عليه غضبه لا قولًا ولا فعلًا حتَّى تنطفأ جمرة الغضب، وهذه حقيقة القوَّة أن يملك المرء نفسه عند غضبه.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ**». متَّفق عليه(٣).

---

(١) رواه أحمد (٢١٣٦)، وصحَّحه الألبانيُّ في السِّلسلة الصَّحيحة (١٣٧٥).
(٢) رواه أحمد (٢١٣٤٨)، وأبو داود (٤٧٨٢)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٣) رواه البخاريُّ (٦١١٤)، ومسلم (٢٦٠٩).

قوله ﷺ: «**لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ**»، المعروف عند النَّاس أنَّ الصُّرعة هو الشَّديد القويُّ الَّذي يصرع النَّاس، فأراد النَّبيُّ ﷺ أن يُنبِّههم: أنَّ الشِّدَّة والقوَّة حقًّا ليست هي هذه، وإنَّما هي أن يملك الإنسان نفسه عند الغضب.

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا مِنْ جُرْعَةٍ أَعْظَمُ أَجْرًا عِنْدَ اللهِ مِنْ جُرْعَةِ غَيْظٍ كَظَمَهَا عَبْدٌ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ**». رواه ابن ماجه[(١)].

وهذا فيه حثُّ النَّبيِّ ﷺ على كظم الغيظ، وأنَّ أفضل جرعةٍ يتجرَّعها العبد، وأعظمها ثوابًا، وأرفعها درجةً، أن يحبس المرء نفسه من التَّشفِّي والانتقام؛ قاصدًا سلامة دينه ونيل ثواب ربِّه جلَّ في علاه.

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **عَنِ النَّبِيِّ** ﷺ **قَالَ: «التَّأَنِّي مِنَ اللهِ، وَالْعَجَلَةُ مِنَ الشَّيْطَانِ»**. رواه أبو يعلى في مسنده[(٢)].

قوله: «**التَّأَنِّي مِنَ اللهِ**»، أي: ممَّا يرضاه ويثيب عليه جَلَّ وَعَلَا.

قوله: «**وَالعَجَلَةُ مِنَ الشَّيْطَانِ**»، أي: هو الحامل عليها بوسوسته؛ لأنَّ العجلة تمنع من التَّثبُّت والنَّظر في العواقب.

وأهل الأناة أهل نظرٍ في العواقب والمآلات؛ وذلك أنَّ خاصَّة العقل النظرُ في العواقب، وأمَّا أهل العجلة فإنَّهم يندفعون اندفاعًا بلا تعقُّلٍ ولا تأمَّلٍ في العواقب؛ ولهذا فإنَّ مثَل النَّفس في عجلتها وطيشها ككُرةٍ من فَخارٍ وُضعت على منحدر أملس فلا تزال متدحرجةً ولا يُدرى في مآل أمرها ونهاية حالها بأيِّ شيء ترتطم! فكم هي تلك المآلات المؤسفة والنِّهايات المحزنة الَّتي يؤول إليها أمر أهل العجلة والطَّيش ممَّن لا يتأمَّلون في العواقب ولا ينظرون

(١) رواه ابن ماجه (٤١٨٩)، وصحَّحه الألبانِيُّ.
(٢) رواه أبو يعلى في مسنده (٤٢٥٦)، وصحَّحه الألبانِيُّ في السِّلسلة الصَّحيحة (١٧٩٥).

في المآلات، وفي تعويد النَّفس على الأناة سلامةٌ من عواقب الغضب عند وجوده.

والغضب يجعل الإنسان يذهل حتَّى عن الأخلاق الفاضلة وعن المعاملات الكريمة، ولهذا يصدر من الإنسان في غضبه ما يندم عليه أشدَّ النَّدم بعد ذلك؛ لأنَّه مع الغضب لا يتصرَّف تصرُّفًا طيِّبًا جميلًا، بل غضبه يغطِّي عليه فلا يُحسن التَّصرُّف. ومن الدَّعوات النَّبويَّة المباركة قول النَّبيِّ ﷺ في دعائه: «**وَأَسْأَلُكَ كَلِمَةَ الحَقِّ فِي الغَضَبِ وَالرِّضَا**»، وهذا عزيز أن لا يقول الإنسانُ إلَّا الحقَّ، سواء غضبَ أو رضيَ.

وممَّا يعين على تحقُّق السَّلامة من الغضب وعواقبه الوخيمة: أن يحرص المسلم دومًا على الرِّفق في الأمور كلِّها؛ فإنَّ الرِّفق خَصلةٌ عظيمة يحبُّها الله جَلَّ وَعَلَا من عباده.

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**يَا عَائِشَةُ، إِنَّ اللهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ وَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ وَمَا لَا يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ**». متَّفق عليه(١).

وعَنْ جَرِيرٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَنْ يُحْرَمِ الرِّفْقَ يُحْرَمِ الْخَيْرَ**». رواه مسلم(٢).

وعَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ الرِّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَلَا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ**». رواه مسلم(٣).

---

(١) رواه البخاريُّ (٦٩٢٧)، ومسلم (٢٥٩٣).
(٢) رواه مسلم (٢٥٩٢).
(٣) رواه مسلم (٢٥٩٤).

١٠٥
دعوات في أبواب متنوِّعة

۞ مَا يُقَالُ عِنْدَ رُؤْيَةِ أَهْلِ الْبَلَاءِ.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**مَنْ رَأَى مُبْتَلًى، فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي عَافَانِي مِمَّا ابْتَلَاكَ بِهِ وَفَضَّلَنِي عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقَ تَفْضِيلًا؛ لَمْ يُصِبْهُ ذَلِكَ الْبَلَاءُ**». رواه التِّرمذيُّ[(١)].

هذا من السُّنن العظيمة المأثورة عن نبيِّنا عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ عند رؤية أهل البلاء بأيِّ نوع من البلاء؛ أن يستحضر المسلم نعمة الله عليه بالعافية والسَّلامة، ويحمدَ ربَّه أن عافاه من هذا البلاء وفضَّله على كثيرٍ ممَّن خلق؛ فإنَّه إن أتى بهذه الدَّعوة العظيمة سلِم بإذن الله تعالى من أن يصيبه ذلك البلاء. والبلاء قد يكون في الدِّين وأمره أشدُّ، وقد يكون في البدن بأن يُبتلى ببدنه بعاهة أو إعاقة أو نحو ذلك.

۞ **وممَّا يُنبَّه عليه في هذا المقام:** أنَّ الواجب على المسلم أن يحذر من الشَّماتة بأهل البلاء؛ فلا يأمن أن يبتليه الله بما ابتلاهم به، ولهذا يؤثَرُ عن إبراهيم النَّخعيِّ: أنَّه قال: «إنِّي لأرى الشَّيءَ أكرهه فما يمنعني من أن أتكلَّم فيه إلَّا مخافة أن أُبتلى بمثله»[(٢)].

---

(١) رواه التِّرمذيُّ (٣٤٣٢)، وصحَّحه الألبانِيُّ.
(٢) رواه ابن أبي الدُّنيا في ذمِّ الغيبة (١٥١).

ما يَقُولُهُ لأَخِيهِ إذا قالَ لَهُ: إِنِّي أُحِبُّكَ

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلًا كَانَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَمَرَّ بِهِ رَجُلٌ، فَقَالَ: «يَا رَسُولَ اللهِ! إِنِّي لَأُحِبُّ هَذَا». فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «أَعْلَمْتَهُ؟» قَالَ: لَا، قَالَ: «أَعْلِمْهُ»، قَالَ: فَلَحِقَهُ فَقَالَ: «إِنِّي أُحِبُّكَ فِي اللهِ»، فَقَالَ: «أَحَبَّكَ الَّذِي أَحْبَبْتَنِي لَهُ». رواه أبو داود[1].

هذا من السُّنن العظيمة الَّتي تُقوِّي الأخوَّة الدِّينيَّة والرَّابطة الإيمانيَّة، وتزيد الألفة والمحبَّة بين المؤمنين؛ لأنَّ دين الإسلام دين التَّحابِّ والتَّآخي والتَّآلف، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، فإذا أحبَّ المسلم أخاه في الله -والحبُّ في الله من أوثق عرى الإيمان- فليُعلِمه بذلك، وفي إعلامه بذلك تمتينٌ للإخوة وتقويةٌ للصِّلة بين المؤمنين.

وفي هذا الحديث أنَّ من السُّنَّة إذا أحبَّ المسلم أحدًا في الله عَزَّوَجَلَّ أن يعلِمه بذلك؛ لأنَّ إعلامه سبب لتقوية الصِّلة الدِّينيَّة والرَّابطة الإيمانيَّة، وهذا مطلبٌ شرعيٌّ. ومَن قال له أخوه «إنِّي أحبُّك في الله» شُرع له أن يدعو له بخير، ومن أطيب الدُّعاء المناسب لهذا المقام أن يقول: «أَحَبَّكَ الَّذِي أَحْبَبْتَنِي لَهُ».

ما يَقُولُهُ لِمَنْ صَنَعَ إِلَيْهِ مَعْرُوفًا

عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ صُنِعَ إِلَيْهِ مَعْرُوفٌ فَقَالَ لِفَاعِلِهِ: «جَزَاكَ اللهُ خَيْرًا» فَقَدْ أَبْلَغَ فِي الثَّنَاءِ». رواه التِّرمذيُّ[2].

الأصل في مَن صُنع إليه معروف أن يعمل على مكافئة مَن صنع إليه المعروف بمثل ما صنع أو أحسن؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «مَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا

(١) رواه أبو داود (٥١٢٥)، وصحَّحه الألبانِيُّ.
(٢) رواه التِّرمذيُّ (٢٠٣٥)، وصحَّحه الألبانِيُّ.

فَكَافِئُوهُ»، فإن لم يتمكَّن من ذلك فعليه أن يجتهد له بالدُّعاء، ولهذا قال: «**فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُونَهُ فَادْعُوا لَهُ**». وأفضل ما يُدعى له به هذا الدُّعاء الَّذي وصف النَّبيُّ ﷺ بأنَّ الدَّاعيَ به قد أبلغ في الثَّناء، وهو أن يقول: «**جزاك الله خيرًا**»؛ وهي كلمة عظيمة جامعة في الثَّناء على أهل المعروف والإحسان، لما فيها من اعتراف بالتَّقصير وعجزٍ عن الجزاء وتفويض الجزاء إلى الله ليجزيهم الجزاء الأوفى، ولهذا قيل: «إِذَا قَصُرَتْ يَدَاكَ بِالْمُكَافَأَةِ فَلْيَطُلْ لِسَانُكَ بِالشُّكْرِ وَالدُّعَاءِ»[1]، وأبلغ الدُّعاء هو هذه الدَّعوة العظيمة المباركة، وقد جاء عن عمر بن الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّه قال: «لَوْ يَعْلَم أَحَدُكُمْ مَالَهُ فِي قَوْلِهِ لِأَخِيهِ: جَزَاكَ اللهُ خَيْرًا؛ لَأَكْثَرَ مِنْهَا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ». رواه ابن أبي شيبة في مصنَّفه[2].

۞ مَا يَقُولُهُ فِي رُؤْيَةِ بَاكُورَةِ الثَّمَرِ

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كَانَ النَّاسُ إِذَا رَأَوْا أَوَّلَ الثَّمَرِ جَاءُوا بِهِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَإِذَا أَخَذَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَالَ: «اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي ثَمَرِنَا، وَبَارِكْ لَنَا فِي مَدِينَتِنَا، وَبَارِكْ لَنَا فِي صَاعِنَا، وَبَارِكْ لَنَا فِي مُدِّنَا، اللَّهُمَّ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ عَبْدُكَ وَخَلِيلُكَ وَنَبِيُّكَ، وَإِنِّي عَبْدُكَ وَنَبِيُّكَ، وَإِنَّهُ دَعَاكَ لِمَكَّةَ، وَإِنِّي أَدْعُوكَ لِلْمَدِينَةِ بِمِثْلِ مَا دَعَاكَ لِمَكَّةَ وَمِثْلِهِ مَعَهُ»، قَالَ: ثُمَّ يَدْعُو أَصْغَرَ وَلِيدٍ لَهُ فَيُعْطِيهِ ذَلِكَ الثَّمَرَ». رواه مسلم[3].

أَوَّل الثَّمر: هو باكورته في أوَّل نضجه؛ فالسُّنَّة في ذلك أن يُدعى بالبركة كما هو هدي النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فكان من هديه الدُّعاء بالبركة عند رؤية باكورة الثَّمر، وكان الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يبادرون بأوَّل الثَّمر يأتون به إلى النَّبيِّ ﷺ فيدعو

(١) انظر: العقد الفريد لابن عبد ربِّه (١/ ٢٣٤).
(٢) رواه ابن أبي شيبة في مصنَّفه (٢٦٥١٩).
(٣) رواه مسلم (١٣٧٣).

بالبركة: «**اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي ثَمَرِنَا**»، ثمَّ يعطيه أصغر مَن يحضره من الولدان؛ وهذا من لطفه عَلَيهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وكريم خُلقه، والصِّغار تتشوَّف نفوسهم إلى مثل هذا أكثر من غيرهم، وفيه أيضًا حُسن التَّودُّد لهم وكسب قلوبهم وتنشئتهم على حبِّ أهل الخير والفضل.

﴿ مَا يُقَالُ عِنْدَ سَمَاعِ صِيَاحِ الدِّيكَةِ وَالنَّهِيقِ وَالنُّبَاحِ

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**إِذَا سَمِعْتُمْ صِيَاحَ الدِّيكَةِ فَاسْأَلُوا اللهَ مِنْ فَضْلِهِ؛ فَإِنَّهَا رَأَتْ مَلَكًا، وَإِذَا سَمِعْتُمْ نَهِيقَ الْحِمَارِ فَتَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ؛ فَإِنَّهُ رَأَى شَيْطَانًا**». رواه البخاريُّ ومسلم(١).

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِذَا سَمِعْتُمْ نُبَاحَ الْكِلَابِ وَنَهِيقَ الْحُمُرِ بِاللَّيْلِ فَتَعَوَّذُوا بِاللهِ؛ فَإِنَّهُنَّ يَرَيْنَ مَا لَا تَرَوْنَ**». رواه أبو داود وأحمد(٢).

السُّنَّة إذا سمع المسلم صوت الدِّيكة أن يسأل الله من فضله، وعلَّل النَّبيُّ ﷺ ذلك بقوله: «**فَإِنَّهَا رَأَتْ مَلَكًا**»، والملائكة تتنزَّل بالخير والرَّحمة، فيسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من فضله.

وأمَّا عند سماع صوت نهيق الحُمر أو نباح الكلاب فيتعوَّذ بالله من الشَّيطان؛ لأنَّها رأت شيطانًا، والمشروع عند حضور الشَّياطين أن يتعوَّذ المسلم منهم، قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ ٱلشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٧-٩٨].

(١) رواه البخاريُّ (٣٣٠٣)، ومسلم (٢٧٢٩).
(٢) رواه أحمد (١٤٢٨٣)، وأبو داود (٥١٠٣)، وصحَّحه الألبانيُّ.

ما يَقُولُهُ فِي الشَّيْءِ يُعْجِبُهُ وَيَخَافُ عَلَيْهِ مِنَ الْعَيْنِ

وأنفع ما يكون في هذا المقام الدُّعاء بالبركة، والبركة: هي بقاء الموجود ونماؤه وزيادته وسلامته من الآفات.

عَنْ عبدالله بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قالَ: «**إِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ مِنْ أَخِيهِ، أَوْ مِنْ نَفْسِهِ، أَوْ مِنْ مَالِهِ مَا يُعْجِبُهُ، فَلْيُبَرِّكْهُ؛ فَإِنَّ الْعَيْنَ حَقٌّ**». رواه أحمد[١].

قوله: «**إِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ مِنْ أَخِيهِ، أَوْ مِنْ نَفْسِهِ، أَوْ مِنْ مَالِهِ مَا يُعْجِبُهُ**»، أي: في هيئته، أو في ملبسه، أو في مركبه، أو في مسكنه.

قوله: «**فَلْيُبَرِّكْهُ**»، أي: ليقل: «اللَّهمَّ بارك لي أو لفلان» ويذكر الشَّيء الَّذي أعجبه.

قوله: «**فَإِنَّ العَيْنَ حَقٌّ**» أي: الإصابة بالعين حقٌّ؛ فإذا رأى الإنسان ما يعجبه فليبرِّكه، ليدع لنفسه أو ليدع لهذا الشَّيء الَّذي عنده أو عند غيره بالبركة، بأن يبارك الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى فيه، وإذا بورك له فيه لم تؤثِّر فيه العين بإذن الله. وهذا يفيد أنَّ الُّدعاء بالبركة بإذن الله يقاوم العين ويدفعها، فيقاوم قدَر الله بقدَر الله.

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «**كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَتَعَوَّذُ مِنَ الْجَانِّ وَعَيْنِ الإِنْسَانِ حَتَّى نَزَلَتِ الْمُعَوِّذَتَانِ؛ فَلَمَّا نَزَلَتَا أَخَذَ بِهِمَا وَتَرَكَ مَا سِوَاهُمَا**». رواه التِّرمذيُّ والنَّسائيُّ وابن ماجه[٢].

في هذا الحديث دلالةٌ على عظم شأن هاتين السُّورَتين، وعظم منفعتهما وشدَّة الحاجة بل الضَّرورة إليهما، وأنَّه لا يستغني عنهما أحد، وأنَّ لهما

---

(١) رواه أحمد (١٥٧٠٠)، وصحَّحه الألبانيُّ في السِّلسلة الصَّحيحة (٢٥٧٢).

(٢) رواه التِّرمذيُّ (٢٠٥٨)، واللَّفظ له، والنَّسائيُّ (٥٤٩٤)، وابن ماجه (٣٥١١)، وصحَّحه الألبانيُّ.

تأثيرًا خاصًّا في دفع الجانِّ والسِّحر والعَين وسائر الشُّرور، وقد تضمَّنت هاتان السُّورتان الاستعاذة من هذه الشُّرور كلِّها بأوجَز لفظٍ وأجمعه وأدلِّه على المراد وأعمِّه استعاذةً، بحيث لَم يبق من الشُّرور شيءٌ إلَّا دخل تحت الشَّرِّ المستعاذ منه فيهما.

وعلى المسلم أن يقول عند خوفه على نفسه من العجب بصحَّةٍ أو مالٍ أو ولدٍ: «ما شاء الله لا قوَّة إلَّا بالله»، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [الكهف: ٣٩]، فقد جاءت هذه الكلمة في سياق مناصحةٍ لصاحب الجنَّتين الَّذي أصيب بالعجب والغرور بما عنده من مال وخدم وغير ذلك، فأرشده مَن يحاوره إلى أن يقول هذا الذِّكر. فيُؤخذ من هذا السِّياق: أنَّ هذه الكلمة تُقال لطرد العجب، وهي من أنفع ما يكون في هذا الباب، والعجبُ مهلكة خطيرة للمرء، ويكفي دلالةً على إهلاك العجب لصاحبه قصَّةُ هذا الرَّجل؛ فقد كان العجب ممحقةً لبركةِ ما عنده من خيرٍ وعافيةٍ ونعمةٍ وصحَّة.

وهذه الكلمة فيها التَّبرُّؤ من حول النَّفس وقوَّتها، وأنَّ الأمور كلَّها بيد الله المنعمِ المتفضِّل سبحانه، أمَّا إذا نظر المرء إلى النِّعمة مجردةً، وجدارتِه ومهارته ونحو ذلك؛ أصيب بالعجب المهلِك، حتَّى ربَّما قال: «أوتيته عن علم عندي»، أو «ورثته كابرًا عن كابر»، أو «أنا جدير به»، فهذا كلُّه يتولَّد من الغرور والعجب، نسأل الله العافية والسَّلامة.

وأسأل الله أن يوفقنا وجميع المسلمين لسديد القول وصالح العمل، وأن يهدينا إلى صراطه المستقيم..

وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

الفهرس